

الحياة المملوءة بالدين

تصنيف

الإمام ميرزا أبي حامد محمد بن محمد الغفراني

المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للمعلمة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسن العرفي

المتوفى في سنة ٨٠٨ هـ

وتماماً للشفح الحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول : ترفيق الأحياء بمضائل الإحياء للمعلمة عبد الغادر بن شيخ بن عبد الله
ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي

الثاني : الإملاء عن إشكالات الإحياء للإمام الغزالي، وذهب اعتراضات
أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء.

الثالث : عوارف المعارف: للمعارف باقر تفتالي الإمام السهروردي

الجزء الثاني

دار المعرفة

بيروت - لبنان

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الباب الأول : فيما لا بدّ للمنفرد منه

وهو ثلاثة أقسام : قسم قبل الأكل ، وقسم مع الأكل ؛ وقسم بعد الفراغ منه
القسم الأول : في الآداب التي تتقدم على الأكل وهي

الأول : أن يكون الطعام بعد كونه حلالا في نفسه طيبا في جهة مكسبه موافقا لسنة والورع لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع ولا بحكم هوى ومداينة في دين - على ماسيأتى في معنى الطيب المطلق في كتاب الحلال والحرام - وقد أمر الله تعالى ؛ بكل الطيب وهو الحلال وقدم النهى عن الأكل بالباطل على القتل تفخيما لأمر الحرام وتعظيما لبركة الحلال فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ إلى قوله ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ الآية ، فالأصل في الطعام كونه طيبا وهو من الفرائض وأصول الدين .

الثاني : غسل اليد قال صلى الله عليه وسلم : الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللثم ^(١) ، وفي رواية « ينفي الفقر قبل الطعام وبعده ، ولأن اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة . ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة فهو جدير بأن يقدم عليه ما يجرى منه مجرى الطهارة من الصلاة :

الثالث : أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض فهو أقرب إلى فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من رفعه على المائدة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بطعام وضعه على الأرض ^(٢) ، فهذا أقرب إلى التواضع فإن لم يكن فعل السفرة فإنها تذكر السفر ويتذكر من السفر سفر الآخرة وحاجته إلى زاد التقوى . وقال أنس بن مالك رحمه الله « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ^(٣) ، قيل فعلى ماذا كنتم تأكلون ؟ قال على السفرة . وقيل : أربع أحدث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الموائد والمناخل والأشنان والشعب واعلم أنا وإن قلنا الأكل على السفرة أولى فلسنا نقول الأكل على المائدة منهى عنه نهى كراهة أو تحريم إذا لم يثبت فيه نهى . وما يقال إنه أبدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس كل ما أبدع منهيا ، بل المنهى بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته ، بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب وليس في المائدة إلا رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه . والأربع التي جمعت في أنها مبدعة ليست متساوية بل الأشنان حسن لما فيه من النظافة فإن الغسل مستحب للنظافة والأشنان أتم في التنظيف ، وكانوا لا يستعملونه لأنه ربما كان لا يعتاد عندهم أو لا يتيسر ، أو كانوا مشغولين بأجور أهم من المبالغة في النظافة فقد كانوا لا يغسلون اليد أيضا ، وكانت مناديلهم أخص أقدامهم وذلك لا يمنع كون الغسل

الباب الأول

(١) حديث « الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللثم » وفي رواية « ينفي الفقر قبل الطعام وبعده » أخرجه القضاة في مسند الشهاب من رواية موسى الرضا عن آبائه متصلا باللفظ الأول ، واطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس « الوضوء قبل الطعام وبعده مما ينفي الفقر » ولأبي داود والترمذي من حديث سلمان « ركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده » وكلها ضعيفة (٢) حديث « كان إذا أتى بطعام وضعه على الأرض » أخرجه أحمد في كتاب الزهد من رواية الحسن مرسلا ورواه البزار من حديث أبي هريرة نحوه وفيه جملة وجه أحمد وضعه الدارقطني . (٣) حديث أنس « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ... » الحديث رواه البخاري .

مستحبا . وأما المنخل فالمقصود منه تطيب الطعام وذلك مباح ما لم ينته إلى التعمم المفرط . وأما المائدة فتيسر للأكل وهو أيضا مباح ما لم ينته إلى الكبر والتعظيم . وأما الشبع فهو أشد هذه الأربعة فإنه يدعو إلى تهييج الشهوات وتحريك الأدواء في البدن فلتدرك التفرقة بين هذه المبدعات .

الرابع : أن يحسن الجلسة على السفرة في أول جلوسه ويستديهما كذلك « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى ^(١) » وكان يقول « لا أكل متكئا ^(٢) » إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد واجلس كما يجلس العبد ^(٣) ، والشرب متكئا مكروه للعدة أيضا ويكره الأكل نائما ومتكئا إلا ما يتقل به من الحبوب . روى عن علي كرم الله وجهه أنه أكل كمكا على ترس وهو مضطجع ويقال منبطح على بطنه والعرب قد تفعله .

الخامس : أن ينوى بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى ليكون مطيعا بالأكل ولا يقصد التلذذ والتعمم بالأكل . قال إبراهيم بن شيان : منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئا لشهوتي . ويعزم مع ذلك على تقليل الأكل فإنه إذا أكل لأجل قوة العبادة لم تصدق نيته إلا بأكل مادون الشبع فإن الشبع يمنع من العبادة ولا يقوى عليها فن ضرورة هذه النية كسر الشهوة وإثارة القناعة على الاتساع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن لم يفعل فثلث طعام وثلث شراب وثلث للنفس ^(٤) » ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد اليد إلى الطعام إلا وهو جائع فيكون الجوع أحدا مالا بد من تقديمه على الأكل . ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع ومن فعل ذلك استغنى عن الطيب - وسيأتي فائدة قلة الأكل وكيفية التدرج في التقليل منه في كتاب كسر شهوة الطعام من ربيع المهلكات .

السادس : أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ولا يجتهد في التعمم وطلب الزيادة وانتظار الآدم بل من كرامة الخبز أن لا ينتظر به الآدم وقد ورد الأمر بإكرام الخبز ^(٥) فكل ما يديم الرق ويقوى على العبادة فهو خير كثير لا ينبغي أن يستحقر بل لا ينتظر بالخبز الصلاة إن حضر وقتها إذا كان في الوقت متسع . قال صلى الله عليه وسلم « إذا حضر العشاء والعشاء فابدهوا بالعشاء ^(٦) » وكان ابن عمر رضي الله عنهما ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشاءه . ومهما كانت النفس لا تتوق إلى الطعام ولم يكن في تأخير الطعام ضرر فالأولى تقديم الصلاة . فأما إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة وكان في التأخير ما يريد الطعام أو يشوش أمره فتقديمه أحب عند اتساع الوقت ، تأقت النفس أو لم تتق ، لعموم الخبر ولأن القلب لا يخلو عن الالتفات إلى الطعام الموضوع وإن لم يكن الجوع غالبا .

(١) حديث « ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى » أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن بشير في أثناء حديث « أتوا تلك القصعة فالتفتوا عليها فلما كثروا جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » وله والنسائي من حديث أنس « رأيت به يأكل وهو مقلع من الجوع » وروى أبو الحسن بن المقرئ في الدلائل من حديثه « كان إذا تمد على الطعام استوفى على ركبته اليسرى وأقام اليمنى ثم قال إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفضل كما يفعل العبد » وإسناده ضعيف . (٢) حديث « كان يقول لا آكل متكئا » أخرجه البخاري من حديث أبي جحيفة .

(٣) حديث « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » تقدم قبله من حديث أنس بلفظ « وأفضل » بدل « وأجلس » ورواه البزار من حديث ابن عمر دون قوله « وأجلس » . (٤) حديث « ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث المقداد بن معد يكرب . (٥) حديث « أكرموا الخبز » أخرجه البزار والبيهقي وابن قانع من حديث عبد الله بن أم حرام بإسناد ضعيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات . (٦) حديث « إذا حضر العشاء فابدهوا بالعشاء » تقدم في الصلاة والمعروف « وأقيمت الصلاة » .

السابع : أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده . قال صلى الله عليه وسلم « اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه ^(١) » ، وقال أنس رضي الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير الطعام ما كثرت عليه الأيدي » .

القسم الثاني : في آداب حالة الأكل

وهو أن يبدأ بـ « بسم الله » في أوله وبـ « الحمد لله » في آخره . ولو قال مع كل لقمة « بسم الله » فهو حسن حتى لا يشغله الشره عن ذكر الله تعالى ، ويقول مع اللقمة الأولى « بسم الله » ، ومع الثانية « بسم الله الرحمن » ، ومع الثالثة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ويجهر به ليذكر غيره . ويأكل باليمنى ويبدأ بالملح ويختم به ويصغر اللقمة ويجود مضغها ومالم يتلغها لم يمد اليد إلى الأخرى فإن ذلك عجلة في الأكل وأن لا يذم مأكولا . كان صلى الله عليه وسلم لا يعيب مأكولا كان إذا أعجبه أكله ولا تركه ^(٣) ، وأن يأكل مما يليه إلا الفاكهة فإن له أن يجيل يده فيها قال صلى الله عليه وسلم « كل مما يليك ^(٤) » ، ثم كان صلى الله عليه وسلم يدور على الفاكهة ، فقيل له في ذلك فقال : ليس هو نوعا واحدا ^(٥) ، وأن لا يأكل من دورة القصعة ولا من وسط الطعام بل يأكل من استدارة الرغيف إلا إذا قل الخبز فيكسر الخبز ولا يقطع بالسكين ^(٦) ولا يقطع اللحم أيضا فقد نهى عنه وقال : انهشوه نهشا ^(٧) ولا يوضع على الخبز قصعة ولا غيرها إلا ما يأكل به قال صلى الله عليه وسلم « أكرموا الخبز فإن الله تعالى أنزله من بركات السماء » ، ولا يمسح يده بالخبز . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها وليط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة ^(٨) » ، ولا ينفخ في الطعام الحار ^(٩) فهو منهى عنه بل يصبر إلى أن يسهل أكله ويأكل من التمر وترأ سبعا أول إحدى عشرة أو إحدى وعشرين أو ما اتفق ولا يجمع بين التمر والتوى في طبق ولا يجمع في كفه بل يضع التواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقها ، وكذا كل ماله عجم وثفل . وأن لا يترك ما استردله من الطعام ويطرحه في القصعة بل يتركه مع الثفل حتى لا يلتبس على غيره فيأكله . وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه فقد قيل إن ذلك مستحب في الطب وإنه دباغ المعدة .

وأما الشرب ؛ فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه ويقول « بسم الله » ، ويشربه مصا لا عبا قال صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث وحشى بن حرب بإسناد حسن .

(٢) حديث أنس « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده » رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف .

(٣) حديث أنس « كان لا يعيب مأكولا إن أعجبه أكله ولا تركه » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « كل مما يليك » متفق عليه من حديث عمر بن أبي سلمة . (٥) حديث « كان يدور على الفاكهة وقال ليس هو نوعا واحدا » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عكرش بن دويب وفيه « وجاءت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطبق فقال يا عكرش كل من حيث شئت فإنه غير لون واحد » قال الترمذي غريب ورواه ابن حبان في الضعفاء . (٦) حديث « النهى عن قطع الخبز بالسكين » رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة وفيه « نوح ابن أبي هريرة وهو كذاب ورواه البيهقي في الشعب من حديث أم سلمة بسند ضعيف . (٧) حديث « النهى عن قطع اللحم بالسكين » أخرجه أبو داود من حديث عائشة وقال « فانهشوه نهشا » قال النسائي منكر . وأخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث صفوان بن أمية « وانهموا اللحم نهدا » وسنده ضعيف .

(٨) حديث « إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها وليط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة » أخرجه مسلم من حديث أنس وجابر . (٩) حديث « النهى عن النفخ في الطعام والفراش » أخرجه أحمد في مسنده من حديث ابن عباس وهو عند أبي داود والترمذي وصححه ابن ماجه إلا أنهم قالوا « في الإماء » وأخرجه الترمذي وصححه من حديث أبي سعيد « نهى عن النفخ في الفراش » .

مصرف الماء مصا ولا تبعوه عبا فإن الكباد من العب^(١) ، ولا يشرب قائما ولا مضطجعا فإنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الشرب قائما^(٢) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائما^(٣) ، ولعله كان لعذر . ويراعى أسفل الكوز حتى لا يقطر عليه وينظر في الكوز قبل الشرب ولا يتجشأ ولا يتنفس في الكوز بل ينحيه عن فمه بالحد ويرده بالتسمية . وقد قال صلى الله عليه وسلم بعد الشرب : الحمد لله الذى جعله عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجابا بذنوبنا^(٤) ، والكوز وكل ما يدار على القوم يدار يمنة . وقد شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنا وأبو بكر رضى الله عنه عن شماله وأعرابي عن يمينه وعمر ناحيته فقال عمر رضى الله عنه : أعط أبابكر فناول الأعرابي وقال الأيمن فالأيمن ، ويشرب في ثلاثة أنفاس يحمد الله في أواخرها ويسمى الله في أوائلها ويقول في آخر النفس الأول : الحمد لله ، وفي الثانى يزيد : رب العالمين ، وفي الثالث يزيد : الرحمن الرحيم ، فهذا قريب من عشرين أدبا في حالة الأكل والشرب دلت عليها الأخبار والآثار .

القسم الثالث : ما يستحب بعد الطعام

وهو أن يمسك قبل الشبع ويلق أصابعه ثم يمسح بالمنديل ثم يغسلها ويلتقط فتات الطعام قال صلى الله عليه وسلم : من أكل ما يسقط من المائدة عاش في سعة وعوفى في ولده^(٥) ، ويتخلل ولا يبتلع كل ما يخرج من بين أسنانه بالخلل إلا ما يمنع من أصول أسنانه بلسانه أما المخرج بالخلل فيرميه وليتمضمض بعد الخلل فيه أثر عن أهل البيت عليهم السلام . وأن يلحق القصعة ويشرب ماءها . ويقال : من لعق القصعة وغسلها وشرب ماءها كان له عتق رقبة . وأن التقاط الفتات مهوور الحور العين وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمة منه قال الله تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله) ومهما أكل حلالا قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات اللهم أطعمنا طيبا واستعملنا صالحا . وإن أكل شبة فليقل : الحمد لله على كل حال اللهم لا تجعله قوة لنا على مصيبتك ، ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد وإيلاف قريش . ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أولا فإن أكل طعام الغير فليدع له وليقل : اللهم أكثر خيره وبارك له فيما رزقته ويسر له أن يفعل فيه خيرا وقمعه بما أعطيته واجعلنا وإياه من الشاكرين . وإن أفطر عند قوم فليقل : أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة . وليكثر الاستغفار والحزن على ما أكل من شبة ليطنى بدموعه وحزنه حر النار التى تعرض لها لقوله صلى الله عليه وسلم : كل لحم ثبت من حرام فالنار أولى به^(٦) ، وليس من يأكل ويبيكى كمن يأكل ويهلو . وليقل إذا أكل لبنا : اللهم بارك لنا فيما رزقنا وزدنا منه^(٧) فإن أكل غيره قال : اللهم بارك لنا فيما رزقنا وارزقنا خيرا

(١) حديث « مصرف الماء مصا ولا تبعوه عبا » أخرجه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أنس بالعطر الأول ولأبى داود في المراسيل من رواية عطاء بن أبى رباح « إذا شربتم فاشربوا مصا » . (٢) حديث « النهى عن الشرب قائما » أخرجه مسلم من حديث أنس وأبى سعيد وأبى هريرة . (٣) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائما » متفق عليه من حديث ابن عباس ، وذلك من زمزم . (٤) حديث « كان يقول بعد الشرب الحمد لله الذى جعل الماء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجابا بذنوبنا » أخرجه الطبرانى في الدعاء مرسل من رواية أبى جعفر محمد بن على بن الحسين . (٥) حديث « من أكل ما سقط من المائدة عاش في سعة وعوفى في ولده » أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر بلفظ « أمن من الفقر والبرص والجذام وصرف عن ولده الحق » وله من حديث الحجاج بن علاط « أعطى سعة من الرزق ووفى في ولده » وكلاهما منكر جدا . (٦) حديث « كل لحم ثبت من حرام فالنار أولى به » هو في شعب الإيمان من حديث كعب بن عجرة بلفظ « سحت » وهو عند الترمذى وحسنه بلفظ « لا يربو اللحم ثبت من سحت إلا كانت النار أولى به » (٧) حديث « القول عند أكل اللبن اللهم بارك لنا فيما رزقنا وزدنا منه » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عباس « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه » ومن سقاه الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه .

منه ، فذلك الدعاء مما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم اللين لعموم نفعه . ويستحب عقيب الطعام أن يقول : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا سيدنا ومولانا يا كافي من كل شيء ولا يكنى منه شيء أطعمت من جوع وآمنت من خوف فلك الحمد آويت من يتم وهديت من ضلالة وأغنيت من عيلة فلك الحمد حمداً كثيراً دائماً طيباً نافعاً مباركاً فيه كما أنت أهله ومستحقه اللهم أطعمتنا طيباً فاستعملنا صالحاً واجعله عوناً لنا عن طاعتك ونعوذ بك أن نستعين به على معصيتك ، وأماغسل اليدين بالأشنان فكيفيته أن يجعل الأشنان في كفه اليسرى ويغسل الأصابع الثلاث من اليمين أولاً ، ويضرب أصابعه على الأشنان اليابس فيمسح به شفتيه ، ثم ينعم غسل الفم بأصبعه ويدلك ظاهر أسنانه وباطنها والحنك واللسان ، ثم يغسل أصابعه من ذلك بالماء ثم يدلك ببقية الأشنان اليابس أصابعه ظهراً وبطناً ويستغنى بذلك عن إعادة الأشنان إلى الفم وإعادة غسله .

الباب الثاني : فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل وهي سبعة

(الأول) أن لا يبتدئ بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل إلا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به حينئذ ينبغى أن لا يطول عليهم الانتظار إذا اشربوا للأكل واجتمعوا له (الثاني) أن لا يسكرتوا على الطعام فإن ذلك من سيرة العجم ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدثون بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها .

(الثالث) أن يرفق رفيقه في القصعة فلا يقصد أن يأكل زيادة على ما يأكله فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقاً لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركاً . بل ينبغى أن يقصد الإيثار ولا يأكل تمرتين في دفعة إلا إذا فعلوا ذلك أو استأذنهم . فإن قل رفيقه نشطه ورغبه في الأكل وقال له : « كل ، ولا يزيد في قوله » كل ، على ثلاث مرات فإن ذلك إلحاح وإفراط . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خوطب في شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث ^(١) وكان صلى الله عليه وسلم يكرر الكلام ثلاثاً ^(٢) فليس من الأدب الزيادة عليه . فأما الحلف عليه بالأكل فممنوع قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : الطعام أهون من أن يحلف عليه (الرابع) أن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول له : كل . قال بعض الأدباء : أحسن الآكلين أكلاً من لا يحوج صاحبه إلى أن يتفقده في الأكل وحمل عن أخيه مؤنة القول . ولا ينبغى أن يدع شيئاً مما يشتهي لأجل نظر الغير إليه فإن ذلك تصنع بل يجرى على المعتاد ولا ينقص من عادته شيئاً في الوحدة ، ولكن يعود نفسه حسن الأدب في الوحدة حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع . نعم لو قل من أكله إيثاراً لإخوانه ونظراً لهم عند الحاجة إلى ذلك فهو حسن ، وإن زاد في الأكل على نية المساعدة بتحريك نشاط القوم في الأكل فلا بأس به بل هو حسن . وكان ابن المبارك يقدم فاخر الرطب إلى إخوانه ويقول : من أكل أكثر أعطيته بكل نواة درهما . وكان يعد النوى ويعطى كل من له فضل نوى بعدده دراهم وذلك لدفع الحياء وزيادة النشاط في الانبساط ، وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما . أحب إخواني إلى أكثرهم أكلاً وأعظمهم لقمة وأثقلهم على من يحوجني إلى تعهده في الأكل . وكل هذا إشارة إلى الجري على المعتاد وترك التصنع . وقال جعفر رحمه الله أيضاً : تبين جودة محبة الرجل لأخيه بجودة أكله في منزله (الخامس) أن غسل اليد في الطست لا بأس به وله أن يتنعم فيه

الباب الثاني : فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل

(١) حديث « كان إذا خوطب في شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث » أخرجه أحمد من حديث جابر في حديث طويل ومن حديث أبي حنيفة أيضاً وإسنادهما حسن . (٢) حديث « كان يكرر الكلمة ثلاثاً » أخرجه البخاري من حديث أنس « كان يعد الكلمة ثلاثاً » .

إن أكل وحده وإن أكل مع غيره فلا ينبغي أن يفعل ذلك . فإذا قدم الطست إليه غيره لإكراما له فليقبله . اجتمع أنس بن مالك ومات البناني رضي الله عنهما على طعام فقدم أنس الطست إليه فامتنع ثابت فقال أنس : إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردّها فإنما يكرم الله عز وجل . . وروى أن هرون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير فصب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال : يا أبا معاوية تدري من صب على يدك ؟ فقال لا ، قال : صب أمير المؤمنين فقال . يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجلته فأجلك الله وأكرمك كما أجلك العلم وأهله . ولا بأس أن يجتمعوا على غسل اليد في الطست في حالة واحدة فهو أقرب إلى التواضع وأبعد عن طول الانتظار . فإن لم يفعلوه فلا ينبغي أن يصب ماء كل واحد بل يجمع الماء في الطست قال صلى الله عليه وسلم : اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم (١) ، قيل إن المراد هذا . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار : لا يرفع الطست من بين يدي قوم إلا بملاوة ولا تشبهوا بالعجم . وقال ابن مسعود : اجتمعوا على غسل اليد في طست واحد ولا تستنوا بسنة الأعاجم . والخادم الذي يصب الماء على اليد كره بعضهم أن يكون قائما وأحب أن يكون جالسا لأنه أقرب إلى التواضع ، وكره بعضهم جلوسه فروى أنه صب الماء على يد واحد خادما جالسا فقام المصبوب عليه فقيل له : لم قت ؟ فقال : أحدنا لابد وأن يكون قائما . وهذا أولى لأنه أيسر للصب والغسل وأقرب إلى تواضع الذي يصب وإذا كان له نية فيه فتمكينه من الخدمة ليس فيه تكبر فإن العادة جارية بذلك : ففي الطست إذا سبعة آداب : أن لا يزق فيه ، وأن يقدم به المتروك ، وأن يقبل الإكرام بالتقديم ؛ وأن يدار بمنة ، وأن يجتمع فيه جماعة ، وأن يجمع الماء فيه وأن يكون الخادم قائما وأن يجمع الماء من فيه ويرسله من يده برفق حتى لا يرش على الفراش وعلى أصحابه ، وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يده ، هكذا فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما في أول نزوله عليه وقال : لا يروءك ما رأيت مني نخدمة الضيف فرض . (السادس) أن لا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب أكلهم فيستحيون بل يغض بصره عنهم ويستغل بنفسه ولا يمسك قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده بل يمد اليد وبقبضها ويتناول قليلا قليلا إلى أن يستوفوا فإن كان قليل الأكل توقف في الابتداء وقل الأكل حتى إذا توسعوا في الطعام أكل معهم أخيرا ، فقد فعل ذلك كثير من الصحابة رضي الله عنهم ، فإن امتنع لسبب فليعتذر إليهم دفعا للخجلة عنهم . (السابع) أن لا يفعل ما يستقذره غيره فلا ينفذ يده في القصة ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة فيه ، وإن أخرج شيئا من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذ به يساره ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في الدسومة فقد يكرهه غيره واللقمة التي قطعها بسنه لا يغمس بقيتها في المرققة والخل ، ولا يتكلم بما يذكر المستقذرات .

الباب الثالث في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير . قال جعفر بن محمد رضي الله عنهما : إذا قدمت مع الإخوان على المائدة فأطيلوا الجلوس فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم . وقال الحسن رحمه الله : كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فن دونهم يحاسب عليها ألينة لأنفقة الرجل على إخوانه في الطعام فإن الله يستحي أن يسأل عن ذلك . هذا مع ما ورد من الأخبار في الإطعام قال صلى الله عليه وسلم : لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم ما دامت مائدته موضوعة

(١) حديث « اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم » رواه للفضائي في مسند الصهايب من حديث أبي هريرة بإسناد لا بأس به وجعل ابن طاهر مكان أبي هريرة إبراهيم وقال أنه مضل وفيه نظر .

بين يديه حتى ترفع ^(١) ، وروى عن بعض علماء خراسان : أنه كان يقدم إلى إخوانه طعاما كثيرا لا يقدر على أكل جميعه وكان يقول بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لم يحاسب من أكل فضل ذلك ^(٢) » ، فأنا أحب أن أستكثر مما أقدمه إليكم لأكل فضل ذلك . وفي الخبر : لا يحاسب العبد على ما يأكله مع إخوانه ^(٣) ، وكان بعضهم يكسر الأكل مع الجماعة لذلك ويقلل إذا أكل وحده . وفي الخبر : « ثلاثة لا يحاسب عليها العبد : أكلة السحور وما أفطر عليه وما أكل مع الإخوان ^(٤) » ، وقال على رضي الله عنه : لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب إلى من أن أعتق رقبة . وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : من كرم المرء طيب زاده في سفره وبذله لأصحابه : وكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون : الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق وكانوا رضي الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفترقون إلا عن ذواق . وقيل اجتماع الإخوان على الكفاية مع الأنس والآلفة ليس هو من الدنيا . وفي الخبر : يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة يا ابن آدم جعت فلم تطعمني فيقول كيف أطعمتك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : جاع أخوك المسلم فلم تطعمه ولو أطعمته كنت أطعمتي ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا جاءكم الزائر فأكرموه ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها هي لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام ^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : خيركم من أطعم الطعام ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار بسبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام ^(٩) » .

وأما آدابه : فبعضها في الدخول وبعضها في تقديم الطعام . أما الدخول فليس من السنة أن يقصد قوما متربصا لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل فإن ذلك من المفاجأة وقد نهى عنه قال الله تعالى ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ يعني منتظرين حينه ونضجه . وفي الخبر من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما ^(١٠) ، ولكن حق الداخل إذا لم يتربص واتفق أن صادفهم على طعام أن لا يأكل ما لم يؤذن له ، فإذا قيل له : كل . نظر فإن علم أنهم يقولونه على محبة لمساعدته فليساعد ، وإن

الباب الثالث : في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

- (١) حديث « لا تزال الملائكة تصل على أحدكم مادامت مأدته موضوعة بين يديه حتى يرفع » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف .
- (٢) حديث « إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لا يحاسب من أكل من فضل ذلك الطعام » لم أوف له على أصل .
- (٣) حديث « لا يحاسب العبد بما يأكله مع إخوانه » هو في الحديث الذي بعده بمعناه .
- (٤) حديث « ثلاثة لا يحاسب عليها العبد : أكلة السحور وما أفطر عليه وما أكل مع الإخوان » أخرجه الأزد في الضعفاء من حديث جابر « ثلاثة لا يسألون عن النعم : الصائم والمتسحر والرجل يأكل مع ضيفه » أورده في ترجمه سليمان بن داود الجزري وقال فيه : منكر الحديث ، ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس نحوه من حديث أبي هريرة . (٥) حديث « يقول الله للعبد يوم القيامة يا ابن آدم جعت فلم تطعمني ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « استطعمتك فلم تطعمني » .
- (٦) حديث « إذا جاءكم الزائر فأكرموه » أخرجه الحرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أنس وهو حديث منكر قاله ابن أبي حاتم في الدلائل عن أبيه .
- (٧) حديث « إن في الجنة غرفا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها هي لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذي من حديث علي وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن ابن إسحاق وقد تكلم فيه من قبل حفظه .
- (٨) حديث « خيركم من أطعم الطعام » أخرجه أحمد والحاكم من حديث صهيب وقال صحيح الإسناد .
- (٩) حديث « من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقال ابن حبان ليس من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الذهبي غريب منكر .
- (١٠) حديث « من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما » أخرجه البيهقي من حديث عائشة نحوه وضمه ولأبي حنود من حديث ابن عمر « من دخل على غير دعوة دخل سارقا وخرج مفيرا » لسناده ضعيف .

كانوا يقولونه حياء منه فلا ينبغي أن يأكل ، بل ينبغي أن يتعلل ، أما إذا كان جائعا فقصده بعض إخوانه ليطعمه . ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به . قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه وكانوا جياعا (١) والدخول على مثل هذه الحالة إعانة لذلك المسلم على حيازة ثواب الإطعام وهي عادة السلف . كان عون بن عبد الله المسعودي له ثلاثمائة وستون صديقا يدور عليهم في السنة . ولاحق ثلاثون يدور عليهم في الشهر . ولاحقة سبعة يدور عليهم في الجمعة . فكان إخوانهم معلومهم بدلا عن كسبهم وكان قيام أولئك بهم على قصد التبرك عبادة لهم فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقا بصداقته عالما بفرحه إذا أكل من طعامه فله أن يأكل بغير إذنه ، إذ المراد من الإذن الرضا لاسيما في الأطعمة وأمرها على السعة . فرب رجل يصرح بالإذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه . ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب . وقد قال تعالى ﴿ أو صدقكم ﴾ ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان الطعام من الصدقة فقال ؛ بلغت الصدقة محلها (٢) وذلك لعلمه بسرورها بذلك . لذلك يجوز أن يدخل الدار بغير استئذان اكتفاء بعلمه بالإذن ، فإن لم يعلم فلا بد من الاستئذان أولاً ثم الدخول . وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن . وكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسر به ويقول : هكذا كنا . وروى عن الحسن رضي الله عنه أنه كان قائما يأكل من متاع يقال في السوق يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه قسبة فقال له هشام مابدا لك يا أبا سعيد في الورع تأكل متاع الرجل بغير إذنه ؟ فقال . بالكع اتل على آية الاكل فتلا إلى قوله تعالى ﴿ أو صدقكم ﴾ فقال . فن الصديق يا أبا سعيد ؟ قال : من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب . ومشى قوم إلى منزل سفيان الثوري فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون فدخل الثوري وجعل يقول : ذكرتموني أخلاق السلف هكذا كانوا ، وزار قوم بعض التابعين ولم يكن عنده ما يقدمه إليهم فذهب إلى منزل بعض إخوانه فلم يصادفه في المنزل فدخل فنظر إلى قدر قد طبخها وإلى خبز قد خبزها وغير ذلك لحمله كله فقدمه إلى أصحابه وقال . كلوا فجاء رب المنزل فلم ير شيئا فقيل له . قد أخذ فلان ، فقال : قد أحسن ، فلما لقيه قال : يا أخى إن عادوا فعد . فهذه آداب الدخول .

وأما آداب التقديم : فترك التكلف أولا وتقديم ما حضر فإن لم يحضره شيء ولم يملك فلا يستقرض لأجل ذلك فيشوش على نفسه . وإن حضره ما هو محتاج إليه لقوته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغي أن يقدم . دخل بعضهم على زاهد وهو يأكل فقال : لولا أني أخذته بدين لأطعمتك منه ، وقال بعض السلف في تفسير التكلف . أن تطعم أخاك ما لا تأكله أنت بل تقصد زيادة عليه في الجودة والقيمة . وكان الفضيل يقول : إنما تقاطع الناس بالتكلف يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع إليه . وقال بعضهم . ما أبالي بمن أتاني من إخواني فإني لا أتكلف له إنما أقرب ما عندي ولو تكلفت له لكرهيت بجيئه وملته ؟ وقال بعضهم : كنت أدخل على أخ لي فيتكلف لي فقلت له إنك لا تأكل وحدك هذا ولا أنا فما بالنا إذا اجتمعنا أكلناه ؟ فأما أن تقطع هذا التكلف أو أقطع المجيء ، فقطع

(١) حديث « قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه » أما قصة أبي الهيثم فرواهما الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح والقصة عند مسلم لكن ليس فيها ذكر لأبي الهيثم وإنما قال « رجل من الأنصار » وأما حديث قصد منزل أبي أيوب فرواهما الطبراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس بسند ضعيف . (٢) حديث « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان من الصدقة فقال ؛ بلغت الصدقة مكانها » متفق عليه من حديث عائشة « أهدى لبريرة لحم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هو لها صدقة ولها هدية » وأما قوله « بلغت محلها » فقوله في النسخة التي أعطيتها نسبة من الصدقة وهو متفق عليه أيضاً من حديث أم عطية .

التكاف ودام اجتماعنا بسببه ، ومن التكلف أن يقدم جميع ماعنده فبجحف بعياله ويؤذى قلوبهم . روى أن رجلا دعا عليا رضي الله عنه فقال علي : أجيبك على ثلاث شرائط لا تدخل من السوق شيئا ولا تدخل البيت ولا تجحف بعيالك . وكان بعضهم يقدم من كل مافي البيت فلا يترك نوعا إلا ويحضر شيئا منه . وقال بعضهم : دخلنا على جابر بن عبد الله فقدم إلينا خبزا وخلا وقال : لولا أنا، نهينا عن التكلف لتكلفتم لكم ^(١) وقال بعضهم : إذا قصدت للزيارة فقدم ما حضر وإن استزرت فلا تبق ولا تذر . وقال سلمان أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضرنا ^(٢) وفي حديث يونس النبي صلى الله عليه وسلم : أنه زاره لإخوانه فقدم إليهم كسرا وجزلهم بقللا كان يزرعه ثم قال لهم : كلوا لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفتم لكم . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره من الصحابة : أنهم كانوا يقدمون ما حضر من الكسر اليابسة وحشف التمر ويقولون : لا ندري أيهما أعظم وزرا الذي يحتقر ما يقدم إليه أو الذي يحتقر ماعنده أن يقدمه ؟ (الأدب الثاني) وهو الزائر أن لا يقترح ولا يتحكم بشيء بعينه فربما يشق على المزور إحضاره فإن خيره أخوة بين طعامين فليستخير أيسرهما عليه ؛ كذلك السنة . ففي الخبر أنه ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا اختار أيسرهما ^(٣) وروى الأعمش عن أبي وائل أنه قال : مضيت مع صاحب لي نزور سلمان فقدم إلينا خبز شعير وملح جريشا ؛ فقال صاحبي : لو كان في هذا الملح سعيرا كان أطيب ؛ فخرج - لما ن فرهن مطهرته وأخذ سعيرا ، فلما أكلنا قال صاحبي : الحمد لله الذي تغننا بما رزقنا ؛ فقال سلمان : لو قمعت بما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة . هذا إذا توهم تعذر ذلك على أخيه أو كراهته له فإن علم أنه يسر باقتراحه ويتيسر عليه ذلك فلا يكره له الاقتراح ، فعل الشافعي رضي الله عنه ذلك مع الزعفراني إذ كان نازلا عنده ببغداد وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلها إلى الجارية فأخذ الشافعي الرقعة في بعض الأيام وألحق بها لونا آخر بخطه ، فلما رأى الزعفراني ذلك اللون أنكر وقال : ما أمرت بهذا ؟ ففرضت عليه الرقعة ملحنا فيها خط الشافعي فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سرورا باقتراح الشافعي عليه . وقال أبو بكر السكتاني : دخلت على السري فجاء بفتيت وأخذ يجعل نصفه في القدح فقلت له : أي شيء تعمل وأنا أشربه كله في مرة واحدة ؟ فضحك وقال : هذا أفضل لك من حجة . وقال بعضهم : الأكل على ثلاثة أنواع ، مع الفقراء بالإيثار ومع الإخوان بالانبساط ومع أبناء الدنيا بالأدب (الأدب الثالث) أن يشهى المزور أخاه الزائر ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح فذلك حسن وفيه أجر وفضل جزيل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صادف من أخيه شهوة غفر له ومن سر أخاه المؤمن فقد سر الله تعالى ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه جابر « من لاذ أخاه بما يشتهى كتب الله له ألف ألف حسنة ومحى عنه ألف ألف سيئة

(١) حديث « دخلنا على جابر بن عبد الله فقدم إلينا خبزا وخلا وقال لولا أنا، نهينا عن التكلف لتكلفتم لكم » رواه أحمد دون قوله « لولا أنا، نهينا » وهو من حديث سلمان الفارسي وسيأتي بهمه وكلاهما ضعيف والبخاري عن عمر بن الخطاب « نهينا عن التكلف » . (٢) حديث سلمان « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضرنا » أخرجه الحراطين في مكارم الأخلاق ، ولأحمد « لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا - أولولاً أنا، نهينا - أن يتكلف أحدنا لصاحبه استكلفنا لك » وللطبراني « نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتكلف للضيف ما ليس عندنا » . (٣) حديث « ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا اختار أيسرهما » متفق عليه من حديث عائشة وزاد « ما لم يكن لأحدهما » ولم يذكرها مسلم في بعض طرقه . (٤) حديث « من صادف من أخيه شهوة غفر الله له ومن سر أخاه المؤمن فقد سر الله عز وجل » أخرجه الزائر والطبراني من حديث أبي الدرداء « من وافق من أخيه شهوة غفر له » قال ابن الجوزي حديث موضوع وروى ابن حبان والعمري في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق « من سر مؤمنا فإنا سر الله .. الحديث » قال العقيلي باطل لأصل له .

ورفع له ألف ألف درجة وأطعمه الله من ثلاث جنان جنة الفردوس وجنة عدن وجنة الخلد ^(١) ، (الآداب الرابع)
أن لا يقول له : هل أقدم لك طعاما ؟ بل ينبغي أن يقدم إن كان . قال الثوري : إذا زارك أخوك فلا تقل له : أنا كل ؟
أو أقدم إليك ؟ ولكن قدم فإن أكل وإلا فارفع . وإن كان يريد أن يطعمهم طعاما فلا ينبغي أن يظهرهم عليه
أو يصفه لهم . قال الثوري : إذا أردت أن لا تطعم عيالكم عما تأكله فلا تحبثهم به ولا يرونه معك . وقال بعض
الصوفية : إذا دخل عليكم الفقراء فقدموا إليهم طعاما وإذا دخل الفقهاء فسلوهم عن مسألة فإذا دخل القراء فدلوهم
على المحراب .

الباب الرابع في آداب الضيافة

ومظان الآداب فيها ستة : الدعوة أولا ثم الإجابة ثم الحضور ثم تقديم الطعام ثم الأكل ثم الانصراف
ولتقدم على شرحها إن شاء الله تعالى .

فضيلة الضيافة : قال صلى الله عليه وسلم : لا تتكفوا للضيف فتبغضوه فإنه من أبغض الضيف فقد أبغض الله
ومن أبغض الله أبغضه الله ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : لا خير فيمن لا يضيف ^(٣) ، ومر رسول الله صلى الله
عليه وسلم برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يضيفه ومر بامرأة لها شويها فذبحت له . فقال صلى الله عليه وسلم :
انظروا إليهما إنما هذه الأخلاق بيد الله فمن شاء أن يمنحه خلقا حسنا فعل ^(٤) . وقال أبو رافع مولى رسول الله
صلى الله عليه وسلم : إنه نزل به صلى الله عليه وسلم ضيف فقال : قل لفلان اليهودي نزل بي ضيف فأسلمني شيئا من
الدقيق إلى رجب ، فقال اليهودي : والله ما أسلفه إلا برهن فأخبرته فقال : والله إنى لأمين في السماء أمين في الأرض
ولو أسلفني لأديته فأذهب بدرعي وارهنه عنده ^(٥) ، وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا أراد أن
يأكل خرج ميلا أو ميلين يلتبس من يتغذى معه وكان يكنى أبا الضيفان ، ولصدق نيته فيه دامت ضيافته في مشهده
إلى يومنا هذا ، فلا تقضى ليلة إلا ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة . وقال قوام الموضع إنه لن
يخل إلى الآن ليلة عن ضيف ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الإيمان ؟ فقال : إطعام الطعام وبذل
السلام ^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم : في الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام ^(٧) .

(١) حديث جابر « من لقد أضاء بما يشتهي كتب الله له ألف ألف حسنة ... الحديث » ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من
رواية محمد بن نعيم عن ابن الزبير عن جابر وقال أحمد بن حنبل هذا باطل كذب .

الباب الرابع : في آداب الضيافة

(٢) حديث « لا تتكفوا للضيف فتبغضوه فإنه من أبغض الله الضيف فقد أبغض الله أبغضه الله » أخرجه أبو بكر
ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث سلمان « لا تتكفون أحد لضيفه ، لا يقدر عليه » وفيه محمد بن الفرج الأزرق متكلم فيه .
(٣) حديث « لا خير فيمن لا يضيف » أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة . (٤) حديث « مر
رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يضيفه ومر بامرأة لها شويها فذبحت له ... الحديث » أخرجه الخرائطي
في مكارم الأخلاق من رواية أبي المنهال مرسلا .

(٥) حديث أبي رافع « أنه نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فقال قل لفلان اليهودي نزل بي ضيف فأسلمني شيئا
من الدقيق إلى رجب ... الحديث » رواه إسحق بن راهوية في مسنده والخرائطي في مكارم الأخلاق وابن مردويه في الذهب
بإسناد ضعيف . (٦) حديث « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الإيمان ؟ قال : إطعام الطعام وبذل السلام » متفق
عليه من حديث عبد الله بن عمرو باللفظ « أي الإسلام خير ؟ قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » .

(٧) حديث « قال صلى الله عليه وسلم : الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذي
وصححه الحاكم من حديث معاذ وقد تقدم بعضه في الباب الرابع من الأذكار وهو حديث « اللهم إنى أسألك فعل الخيرات » .

وسئل عن الحج المبرور فقال : إطعام الطعام وطيب الكلام ^(١) ، وقال أنس رضي الله عنه : كل بيت لا يدخله ضيف لا تدخله الملائكة . والأخبار الواردة في فضل الضيافة والإطعام لاتحصى فلنذكر آدابها .

أما الدعوة : فينبغي للداعي أن يعمد بدعوته الاتقياء دون الفساق قال صلى الله عليه وسلم : أكل طعامك الأبرار ^(٢) ، في دعائه لبعض من دعا له وقال صلى الله عليه وسلم : لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي ^(٣) ، ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص . قال صلى الله عليه وسلم : شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء ^(٤) ، وينبغي أن لا يهمل أقرابه في ضيافته فإن إهمالهم يحاش وقطع رحم وكذلك يراعى الترتيب في أصدقائه ومعارفه فإن في تخصيص البعض إباحاشا لقلوب الباقين . وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الإخوان والتسني بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين . وينبغي أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب . وينبغي أن لا يدعو إلا من يحب إجابته قال سفيان : من دعا أحدا إلى طعام وهو يكره الإجابة فعليه خطيئة فإن أجاب المدعو فعليه خطيئتان . لأنه حمله على الأكل مع كراهة ولو علم ذلك لما كان يأكله . وإطعام التقي إعانة على الطاعة وإطعام الفاسق تقوية على الفسق . قال رجل خياط لابن المبارك : أنا أخيط ثياب السلاطين فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة ؟ قال : لا إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيط والإبرة أما أنت فمن الظلمة أنفسهم . وأما الإجابة فهي سنة مؤكدة وقد قيل برجوها في بعض المواضع . قال صلى الله عليه وسلم : لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت ^(٥) .

والإجابة خمسة آداب (الأول) أن لا يميز الغني بالإجابة عن الفقير فذلك هو التكبر المنهى عنه ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الإجابة وقال : انتظار المرققة ذل ، وقال آخر : إذا وضعت يدي في قصعة غیری فقد ذلت له رقبتي ومن المتكبرين من يجيب الأغنياء دون الفقراء وهو خلاف السنة . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين ^(٦) ، وممر الحسن بن علي رضي الله عنهما يقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطريق وقد نشروا كسرا على الأرض في الرمل وهم يأكلون وهو على بغلته فسلم عليهم فقالوا له : هلم إلى الغداء يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نعم إن الله لا يحب المتكبرين فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل ثم سلم عليهم وركب وقال : قد أجبتكم فأجيبوني ، قالوا : نعم ، فوعدهم وقتا معلوما فحضروا فقدم إليهم فاخر الطعام وجلس يأكل معهم . وأما قول القائل إن من وضعت يدي في قصعته فقد ذلت له رقبتي ؛ فقد قال بعضهم هذا خلاف السنة وليس كذلك فإنه ذل إذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة ولا يتقلد منه وكان يرى ذلك يدا له على المدعو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحضر لعله أن الداعي له يتقلد منه ويرى ذلك شرفا وذخرا لنفسه في الدنيا والآخرة فهذا يختلف باختلاف الحال فمن ظن به أنه يستثقل الإطعام وإنما يفعل ذلك مباهاة أو تكلفا فليس من السنة إجابته ^(٧) ، بل الأولى التعلل ، ولذلك قال بعض الصوفية . لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك وأنه

(١) حديث « سئل عن الحج المبرور فقال إطعام الطعام وطيب الكلام » تقدم في الحج . (٢) حديث « أكل طعامكم الأبرار » أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد صحيح . (٣) حديث « لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي » تقدم في الزكاة . (٤) حديث « شر الطعام طعام الوليمة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٥) حديث « لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . (٦) حديث « كان يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس دون ذكر المسكين وضعفه الترمذي وصححه الحاكم . (٧) حديث « ليس من السنة إجابة من يطعم مباهاة أو تكلفا » أخرجه أبو داود من حديث =

سلم إليك ودیعة كانت لك عنده ويرى لك الفضل عليه في قول تلك الودیعة منه . وقال سرى السقطی رحمه الله :
 آه على لقمة ليس على الله فيها تبعه ولا مخلوق فيها منه . فإذا علم المدعو أنه لأمته في ذلك فلا ينبغي أن يرد . وقال
 أبو تراب النخشي رحمه الله عليه : عرض على طعام فامتعت فابتليت بالجوع أربعة عشر يوما فعملت أنه عقوبته .
 وقيل لمعروف الكرخي رضي الله عنه كل من دعاك تمر إليه فقال : أنا ضيف أنزل حيث أنزلوني . (الثاني) أنه
 لا ينبغي أن يمتنع عن الإجابة لبعده المسافة كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه ، بل كل مسافة يمكن احتياها في العادة
 لا ينبغي أن يمتنع لأجل ذلك . يقال في التوراة أو بعض الكتب سر ميلا عد مريضاً سر ميلين شيع جنازة سر ثلاثة
 أميال أجب دعوة سر أربعة أميال زر أخاً في الله . وإنما قدم إجابة الدعوة والزيارة لأن فيه قضاء حق الحي فهو
 أولى من الميت وقال صلى الله عليه وسلم لو دعيت إلى كراع بالغيم لأجبت ^(١) ، وهو موضع على أميال من المدينة
 أفطر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان ^(٢) لما بلغه وقصر عنده في سفره ^(٣) (الثالث) أن لا يمتنع لكونه
 صائماً بل يحضر فإن كان يسر أخاه إفطاره فليفطر وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه
 ما يحتسب في الصوم وأفضل وذلك في صوم التطوع وإن لم يتحقق سرور قلبه فليصدق به بالظاهر وليفطر وإن تحقق
 أنه متكلف فليتعلم . وقد قال صلى الله عليه وسلم لمن امتنع بمذر الصوم « تكلف لك أخوك » وتقول إني صائم ^(٤) ،
 وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار فالإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق
 فتوابه فوق ثواب الصوم . ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والحجرة والحديث الطيب . وقد قيل الكحل والدهن
 أحد القراءين . (الرابع) أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة أو الموضع أو البساط المفروش من غير
 حلال ، أو كان يقام في الموضع منكر من فرش ديباج أو إناء فضة أو تصوير حيوان على سقف أو حائط أو سماع
 شيء من المزامير والملاهي أو التشاغل بنوع من اللهو والعزف والهزل واللعب واستماع الغيبة والنميمة والزور والبهتان
 والكذب وشبه ذلك مما ينفع الإجابة واستجابها ويوجب تحریمها أو كراهيتها ، وكذلك إذا كان الداعي ظالماً أو
 مبتدعاً أو فاسقاً أو شريكاً أو متكلفاً طلباً للباهة والفخر . (الخامس) أن لا يقصد بالإجابة قضاء شبهة البطن
 فيكون عاملاً في أبواب الدنيا بل يحسن نيته ليصير بالإجابة عاملاً للأخرة وذلك بأن تكون نيته الاقتداء بسنة
 رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله « لو دعيت إلى كراع لأجبت » وينوي الحذر من معصية الله تعالى لقوله
 صلى الله عليه وسلم « من لم يحجب الداعي فقد عصي الله ورسوله » ^(٥) ، وينوي إكرام أخيه المؤمن اتباعاً لقوله
 صلى الله عليه وسلم « من أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم الله » ^(٦) ، وينوي إدخال السرور على قلبه امتثالاً لقوله

= ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن طعام المتبارين « قال أبو داود من رواه عن جرير لم يذكر فيه ابن عباس
 والقبيل في الضعفاء » نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن طعام المتباهين « والمتباريان المتمارضان بفعلها المتباهاة والرياء قاله أبو موسى
 المديني . (١) حديث « لو دعيت إلى كراع بالنميمة لأجبت » ذكر النميم فيه ليعرف والمعروف « لو دعيت إلى كراع » كما
 تقدم قبل ثلاثة أحاديث ويرد هذه الزيادة ما رواه الترمذي من حديث أنس « لو أهدى إلى كراع لقبلت » .

(٢) حديث « إفطاره صلى الله عليه وسلم في رمضان لما بلغ كراع النميم » رواه مسلم من حديث جابر في عام الفتح .

(٣) حديث « قصره صلى الله عليه وسلم في سفره عند كراع النميم » لم أقف له على أصل والطبراني في الصغير من حديث
 ابن عمر « كان يقصر الصلاة بالعقيق » يريد إذا بانته وهذا يرد الأول لأن بين العقيق وبين المدينة ثلاثة أميال أو أكثر وكراع
 النميم بين مكة وعسفان والله أعلم . (٤) حديث « وقال لمن امتنع بمذر الصوم تكلف لك أخوك » وهو قول إني صائم « أخرجه
 البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري » صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً وأنا في هو وأصحابه فلما وضع الطعام قال رجل من
 القوم : إني صائم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعاكم أخوكم وتكلموا بهكم . الحديث « والدارقطني نحوه من حديث جابر .

(٥) حديث « من لم يحجب الداعي فقد عصي الله ورسوله » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٦) حديث « من أكرم أخاه
 المؤمن فإنما يكرم الله تعالى » ذكره الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث جابر والقبيل في الضعفاء من حديث أبي بكر ولمسنداً ضعيف

صلى الله عليه وسلم د من سر مؤمنا فقد سر الله ،^(١) وينوى مع ذلك زيارته لىكون من المتحابين فى الله إذ شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه التزاور والتبادل لله^(٢) وقد حصل البذل من أحد الجانبين فتحصل الزيارة من جانبه أيضاً ، وينوى صيانة نفسه عن أن يساء به الظن فى امتناعه ويطلق اللسان فيه بأن يحمل على تكبر أو سوء خلق أو استعقار أخ مسلم أو مايجرى مجراه . فهذه ست نيات تلحق لإجابته بالقربات آحادها فكيف بمجموعها ؟ وكان بعض السلف يقول : أنا أحب أن يكون لى فى كل عمل نية حتى فى الطعام والشراب وفى مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه^(٣) ، والنية إنما تؤثر فى المباحات والطاعات أما المنهيات فلا . فإنه لو نوى أن يسر لإخوانه بمساعدتهم على شرب الخمر أو حرام آخر لم تنفع النية ولم يجر أن يقال الأعمال بالنيات . بل لو قصد بالغزو الذى هو طاعة المباحة وطلب المال انصرف عن جهة الطاعة . وكذلك المباح المردد بين وجوه الخيرات وغيرها يلتحق بوجوه الخيرات بالنية فتؤثر النية فى هذين القسمين لا فى القسم الثالث .

وأما الحضور فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدّر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم ولا يجعل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه ألبتة فإنه قد يكون رتب فى نفسه موضع كل واحد فخالفته تشوش عليه وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراما فليتواضع قال صلى الله عليه وسلم : إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس^(٤) ، ولا ينبغي أن يجلس فى مقابلة باب الحجرة التى للنساء وسترهم . ولا يكثّر النظر إلى الموضع الذى يخرج منه الطعام فإنه دليل على الشره . ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس . وإذا دخل ضيف للبيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول القبلة ويبت الماء وموضع الوضوء ، كذلك فعل مالك بالشافعى رضى الله عنهما . وغسل مالك يده قبل الطعام قبل القوم وقال : الغسل قبل الطعام لرب البيت أولى : لأنه يدعو الناس إلى كرمه فخكه أن يتقدم بالغسل وفى آخر الطعام يتأخر بالغسل لينتظر أن يدخل من يأكل فيأكل معه . وإذا دخل فرأى منكرا غيره إن قدر وإلا أنكر بلسانه وانصرف . والمنكر فرش الديباج واستعمال أواني الفضة والذهب والتصوير على الحيطان وسماع الملاحى والمزامير وحضور النسوة المتكشفات الوجوه وغير ذلك من المحرمات حتى قال أحد رحه الله : إذا رأى مكحلة رأسها مفضض ينبغي أن يخرج ، ولم يأذن فى الجلوس إلا فى ضبة وقال : إذا رأى كلة فينبغى أن يخرج فإن ذلك تكلف لا فائدة فيه ولا تدفع حزا ولا ردا ولا تستر شيئا ؛ وكذلك قال : يخرج إذا رأى حيطان البيت مستورة بالديباج كما تستر الكعبة . وقال : إذا اكترى بيتا فيه صورة أو دخل الحمام ورأى صورة فينبغى أن يحكمها فإن لم يقدر خرج . وكل ما ذكره صحيح وإنما النظر فى الكلة وتزيين الحيطان بالديباج فإن ذلك لا ينتهى إلى التحريم إذ التحرير يحرم على الرجال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذان حرام على ذكور أمتى حل لإنائهما^(٥) ، وما على

(١) حديث « من سر مؤمنا فقد سرقه » تقدم فى الباب قبله . (٢) حديث « وجبت عجنى للتزاورين فى والتبادلين فى » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ولم يذكر المصنف هذا الحديث وإنما أشار إليه . (٣) حديث « الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب . (٤) حديث « لمن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس » أخرجه الخرائطى فى مكارم الاخلاق وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث طلحة بن عبيد بسند جيد . (٥) حديث « هذان حرامان على ذكور أمتى » أخرجه أبو داود والذهاوى وابن ماجه من حديث على بن أبى طلحة الحمداوى جهله ابن القصاب والذهاوى والترمذى وصححه من حديث أبى موسى بنحوه . قلت الظاهر انقطاعه بين سعيد بن أبى هند وأبى موسى فأدخل أحد بينهما رجلا لم يسم .

الحافظ ليس منسوبا إلى الذكور ولو حرم هذا لحرم تزيين الكعبة بل الأولى لإباحته لموجب قوله ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ لاسيما في وقت الزينة إذا لم يتخذ عادة للتفاخر . وإن تخيل أن الرجال ينتفعون بالنظر إليه ولا يحرم على الرجال الانتفاع بالنظر إلى الديباج مهما لبسه الجوارى والنساء . والحيطان في معنى النساء إذ لسن موصوفات بالذكر .

وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة (الأول) تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف وقد قال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ^(١) » ومهما حضر الآكثرون وغاب واحد أو اثنان وتأخروا عن الوقت الموعود لحق الحاضر في التعجيل أول من حق أولئك في التأخير ؛ إلا أن يكون المتأخر فقيرا أو ينكسر قلبه بذلك فلا بأس في التأخير وأحد المعتنين في قوله تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ أنهم أكرموا بتعجيل الطعام إليهم دل عليه قوله تعالى ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ وقوله ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴾ والروغان : الذهاب بسرعة وقيل في خفية وقيل جاء بفخذ من لحم وإنما سمي عجلا لأنه عجله ولم يلبث . قال حاتم الأصم : العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إطعام الضيف وتجهيز الميت وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب ^(٢) ويستحب التعجيل في الولية قيل الولية في أول يوم سنة وفي الثاني معروف وفي الثالث رياء . (الثاني) ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولا . إن كانت فذلك أوفق في الطب فإنها أسرع استحالة فينبغي أن تقع في أسفل المعدة . وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ ثم قال ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد فقد قال عليه السلام « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » فإن جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات . ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى في ضيف إبراهيم إذ أحضر العجل الحنيذ - أي المحنوذ وهو الذي أجيد نصجه - وهو أحد معنى الإكرام أعنى تقديم اللحم . وقال تعالى في وصف الطيبات ﴿ وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ المن : العسل ، والسلوى . اللحم ؛ سمي سلوى لأنه يتسلى به عن جميع الإدام ولا يقوم غيره مقامه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « سيد الإدام اللحم » ثم قال بعد ذكر المن والسلوى ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ فاللحم والحلاوة من الطيبات . قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : أكل الطيبات يرث الرضا عن الله . وتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل . قال المأمون : شرب الماء بثلج يخلص الشكر . وقال بعض الأدباء : إذا دعوت لإخوانك فأطعمتهم حصرية وبورانية وسقيتهم ماء باردا فقد أكلت الضيافة . وأنفق بعضهم دراهم في ضيافة فقال بعض الحكماء : لم نكن نحتاج إلى هذا إذا كان خبزك جيدا وماؤك باردا وذاك حامضا فهو كفاية . وقال بعضهم : الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان ، والتمسك على المائدة خير من زيادة لونين .

(١) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » متفق عليه من حديث أبي سريج .
(٢) حديث حاتم الأصم « العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إطعام الطعام وتجهيز الميت وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب » أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد الأمانة من الله والعجلة من الشيطان « وسنده ضعيف وأما الاستثناء فروى أبو داود من حديث سعد بن أبي وقاص « للتؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة » قال الأعمش لأعلم إلا أنه رفعه وروى المزني في التهذيب في ترجمة محمد بن موسى بن قبيع عن مشيخة من قومه « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الأمانة في كل شيء إلا في ثلاث إذا صبح في خيل الله وإذا نودي بالصلاة وإذا كانت الجنائز ... الحديث » مرسل والترمذي من حديث علي « ثلاثة لا تؤخرها : الصلاة إذا أتت والجنائز إذا حضرت والأيم إذا وجدت كفوا » وسنده حسن .

ويقال إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل فذلك أيضا مستحب ولما فيه من التزين بالحضرة . وفي الخبر : إن المائدة التي أنزلت على بني إسرائيل كان عليهما من كل البقول إلا الكراث . وكان عليها سمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح ، وسبعة أرغفة على كل رغيف زيتون وحب رمان ، فهذا إذا اجتمع حسن للبرافقة (الثالث) أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستوفي منها من يريد ولا يكثر إلا كل بعده وعادة المترفين تقديم الغليظ ليستأنف حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده وهو خلاف السنة فإنه حيلة في استكثار الأكل . وكان من سنة المتقدمين أن يقوموا جملة الألوان دفعة واحدة ويصفون القصاع من الطعام على المائدة ليأكل كل واحد مما يشتهي . وإن لم يكن عنده إلا لون واحد ذكره ليستوفوا منه ولا ينتظروا أطيب منه . ويحكى عن بعض أصحاب المروءات أنه كان يكتب نسخة بما يستحضر من الألوان ويعرض على الضيفان . وقال بعض الشيوخ : قدم إلى بعض المشايخ لونا بالشام فقلت عندنا بالعراق إنما يقدم هذا آخرا ، فقال : وكذا عندنا بالشام ، ولم يكن له لون غيره فحجلت منه . وقال آخر : كنا جماعة في ضيافة فقدم إليهم ألوان من الروس المشوية طيخا وقديدا فكنا لا نأكل كل ننتظر بعدها لونا أو حملا ، فجاءنا بالطست ولم يقدم غيرها ، فنظر بعضنا إلى بعض فقال بعض الشيوخ وكان مزاحا : إن الله تعالى يقدر أن يخلق رموسا بلا أبدان ، قال : وبتنا تلك الليلة جياعا نطلب فتيتا إلى السحور . فلهذا يستحب أن يقدم الجميع أو يخبر بما عنده (الرابع) أن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدي عنها فاعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل فيتغنض عليه بالمبادرة ، وهي من التمكن على المائدة التي يقال إنها خير من لونين فيحتمل أن يكون المراد به قطع الاستعجال ويحتمل أن يكون أراد به سعة المكان . حكى عن السجوري وكان صوفيا مزاحا لحضر عند واحد من أبناء الدنيا على مائدة فقدم إليهم حمل - وكان في صاحب المائدة بخل - فلما رأى القوم مزقوا الحل كل ممزق ضاق صدره وقال : يا غلام ارفع إلى الصبيان ، فرفع الحل إلى داخل الدار فقام السجوري يعدو خلف الحل فقيل له : إلى أين ؟ فقال : آكل مع الصبيان فاستحيا الرجل وأمر برد الحل . ومن هذا الفن أن لا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم فإنهم يستحيون بل ينبغي أن يكون آخرهم أكل . كان بعض الكرام يخبر القوم بجميع الألوان ويتركهم يستوفون فإذا قاربوا الفراغ جثا على ركبتيه ومد يده إلى الطعام وأكل وقال . بسم الله ساعدوني بارك الله فيكم وعليكم ، وكان السلف يستحسنون ذلك منه (الخامس) أن يقدم من الطعام قدر الكفاية فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروءة والزيادة عليه تصنع ومرامة لاسيما إذا كانت نفسه لا تسمح بأن يأكلوا الكل ، إلا أن يقدم الكثير وهو طيب النفس لو أخذوا الجميع ونوى أن يتبرك بفضلة طعامهم ، إذ في الحديث لا يحاسب عليه . أحضر إبراهيم بن آدم رحمه الله طعاما كثيرا على مائدته فقال له سفيان : يا أبا إسحق أما تخاف أن يكون هذا سرفا ؟ فقال إبراهيم : ليس في الطعام سرف . فإن لم تكن هذه النية فالتكثير تكلف . قال ابن مسعود رضي الله عنه : نهينا أن نجيب دعوة من يباهى بطعامه وكره جماعة من الصحابة كل طعام المباهاة . ومن ذلك كان لا يرفع من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلة طعام قط لأنهم كانوا لا يقدمون إلا قدر الحاجة ولا يأكلون تمام الشبع . وينبغي أن يعزل أولا نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شيء منه فاعله لا يرجع فتضيق صدورهم وتتعلق في الضيفان ألسنتهم ويكون قد أطعم الضيفان ما يتبعه كراهية قوم وذلك خيانة في حقهم . وما بقي من الأطعمة فليس للضيفان أخذه وهو الذي تسميه الصوفية الزلة إلا إذا صرح

صاحب الطعام بالإذن فيه عن قلب راض أو علم ذلك بقرينة حاله وأنه يفرح به ، فإن كان يظن كراهيته فلا ينبغي أن يؤخذ وإذا علم رضاه فينبغي مراعاة العدل والنصفة مع الرفقاء ؛ فلا ينبغي أن يأخذ الواحد إلا بما يخصه أو ما يرضى به رفيقه عن طوع لا عن حياء .

فأما الانصراف : فله ثلاثة آداب (الأول) أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة وذلك من إكرام الضيف وقد أمر بإكرامه قال عليه الصلاة والسلام : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، وقال عليه السلام : إن من سنة الضيف أن يشيع إلى باب الدار ، قال أبو قتادة ، قدم وفد النجاشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله فقال : كلا إنهم كانوا لأصحابي مكرمين وأنا أحب أن أكافهم ، وتتمام الإكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة . قيل للأوزاعي رضي الله عنه ما كرامة الضيف ؟ قال طلاقة الوجه وطيب الحديث . وقال يزيد بن أبي زياد ما دخلت على عبد الرحمن بن أبي ليلى إلا حدثنا حديثا حسنا وأطعمنا طعاما حسنا (الثاني) أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير ، فذلك من حسن الخلق والتواضع قال صلى الله عليه وسلم ، إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، ودعى بعض السلف برسول فلم يصادفه الرسول فلما سمع حضر وكانوا قد تفرقوا وفرغوا وخرجوا فخرج إليه صاحب المنزل وقال : قد خرج القوم ، فقال : هل بقي بقية ؟ قال : لا ، قال فكسرة إن بقيت ؟ قال : لم تبق ، قال : فالتقدر أمسحها ؟ قال : قد غسلتها ؟ فانصرف يحمد الله تعالى فقيل له في ذلك فقال : قد أحسن الرجل دنانا بنية وردنا بنية ، فهذا هو معنى التواضع وحسن الخلق . وحكى أن أستاذ أبي القاسم الجنيد دعاه صبي إلى دعوة أبيه أربع مرات فردده الأب في المرات الأربع وهو يرجع في كل مرة تطيبا لقلب الصبي بالحضور ولقلب الأب بالانصراف ، فهذه نفوس قد ذلت بالتواضع لله تعالى والطمأنينة بالتوحيد وصارت تشاهد في كل رد وقبول عبرة فيما بينها وبين ربها ، فلا تتكسر بما يجرى من العباد من الإذلال كالا تستبشر بما يجرى منهم من الإكرام بل يرون الكل من الواحد القهار . ولذلك قال بعضهم : أنا لأجيب الدعوة إلا لأني أتذكر بها طعام الجنة أي هو طعام طيب يحمل عنا كذبه ومؤنته وحسابه . (الثالث) أن لا يخرج إلا برضا صاحب المنزل وإذنه ويراعى قلبه في قدر الإقامة ، وإذا نزل ضيفا فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرم به ويحتاج إلى إخراجه قال صلى الله عليه وسلم : الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة ^(١) ، نعم لو ألح رب البيت عليه عن خلوص قلب فله المقام إذ ذاك ويستحب أن يكون عنده فراش للضيف النازل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان ^(٢) ،

فصل يجمع آدابا ومناهى طلبة وشرعية متفرقة

(الأول) حكى عن إبراهيم النخعي أنه قال ، الأكل في السوق دناءة ^(٣) وأسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناده قريب . وقد نقل ضده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : كنا نأكل عهد رسول الله صلى الله

(١) حديث « الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة » متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي . (٢) حديث « فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان » أخرجه مسلم من حديث جابر (٣) يث « الأكل في السوق دناءة » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة وهو ضعيف ورواه ابن عدى في السكامل من حديثه وحديث أبي هريرة

عليه وسلم ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام^(١) . وروى بعض المشايخ من المتصوفة المعروفين يأكل في السوق فقيل له في ذلك فقال : ويحك أجوع في السوق وأكل في البيت ؛ فقيل تدخل المسجد ؟ قال : أستحي أن أدخل بيته للأكل فيه . ووجه الجمع أن الأكل في السوق تواضع وترك تكلف من بعض الناس فهو حسن وخرق مروءة من بعضهم فهو مكروه ، وهو مختلف بعادات البلاد وأحوال الأشخاص فمن لا يليق ذلك بسائر أعماله حل ذلك على قلة المروءة وفرط الشره ويقدر ذلك في الشهادة ومن يليق ذلك بجميع أحواله وأعماله في ترك التكلف كان ذلك منه تواضعا (الثاني) قال علي رضي الله عنه : من ابتداء غذاءه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعا من البلاء ، ومن أكل في يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه ، ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبينة حرام لم ير في جسده شيئا يكرهه واللحم ينبت اللحم والتريد طعام العرب والبسقارجات تعظم البطن وترخي الاليتين ، ولحم البقر داء ولبنها شفاء وسمنها دواء والشحم يخرج مثله من الداء ، ولن تستشفى النفساء بشيء أفضل من الرطب ، والسمنك يذيب الجسد ، وقراءة القرآن والسواك يذهبان البلغم ، ومن أراد البقاء ولا بقاء فليأكل بالغداء وليكرر العشاء وليلبس الحذاء ، ولن يتداوى الناس بشيء مثل السمن وليقل غشيان النساء وليخف الرداء وهو الدين (الثالث) قال الحجاج لبعض الأطباء : صف لي صنعة آخذ بها ولا أعدوها قال . لا تنكح من النساء إلا فتاة ولا تأكل من اللحم إلا فتيا ولا تأكل المطبوخ حتى يتم فضجه ولا تشرب دواء إلا من علة ولا تأكل من الفسكهة إلا لفضيجها ، ولا تأكل طعاما إلا أجدت مضغه ، وكل ما أجببت من الطعام ولا تشرب عليه فإذا شربت فلا تأكل عليه شيئا ، ولا تحبس الغائط والبول ، وإذا أكلت بالنهار فم وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تمام ولومائة خطوة . وفي معناه قول العرب : تغد تمد تعش تمش يعني تمدد كما قال الله تعالى - ثم ذهب إلى أهله يتمطى - أي يتمطط . ويقال إن حبس البول يفسد الجسد كما يفسد النهر ما حوله إذا سد مجراه (الرابع) في الخبر : قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهمة^(٢) ، والعرب تقول ترك الغداء يذهب بشحم الكاذبة - يعني الآلية - وقال بعض الحكماء لابنه : يا بني لا تخرج من منزلك حتى تأخذ حلك أي تتعذى ، إذ به يبقى اللحم ويزول الطيش وهو أيضا أقل شهوته لما يرى في السوق . وقال حكيم لسمين : أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك فم هي ؟ قال من أكل لباب البروصغار المعز وأدمن بحمام بنفسج وألبس الكتان . (الخامس) الحمية تضر بالصحيح كما يضر تركها بالمريض ، هكذا قيل . وقال بعضهم : من احتسب فهو على يقين من المكروه وعلى شك من العوائف ، وهذا حسن في حال الصحة ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيبا يأكل تمر أو إحدى عينيه رمدا فقال . أتاأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال : يا رسول الله إنما أكل بالشق الآخر^(٣) ، يعني جانب السليمة فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . (السادس) أنه يستحب أن يحمل طعام إلى أهل الميت ، ولما جاء نعي جعفر بن أبي طالب قال عليه السلام ، إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن صنع طعامهم فاحلوا إليهم ماياكلون^(٤) ، فذلك سنة . وإذا قدم ذلك إلى الجمع حل الأكل منه مايبأ للتواضع والمعينات عليه بالبكاء والجزع

(١) حديث ابن عمر « كنا نأكل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام » أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه وابن حبان . (٢) حديث « قطع العروق مسقمة وترك الغداء مهمة » أخرجه ابن عدى في الكامل من حديث عبد الله بن جرادة بالشرط الأول والترمذي من حديث أنس بالشرط الثاني وكلاما ضعيف وروى ابن ماجه بالشرط الثاني من حديث جابر . (٣) حديث « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيبا يأكل تمر أو إحدى عينيه رمدا فقال له أتاأكل التمر وأنت رمد فقال إنما أضع بالشق الآخر فضحك صلى الله عليه وسلم » أخرجه ابن ماجه من حديث صبيب بإسناد جيد . (٤) حديث « لما جاء نعي جعفر بن أبي طالب قال صلى الله عليه وسلم إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن طعامهم فاحلوا إليهم ماياكلون » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن جعفر نحوه بسند حسن وابن ماجه نحوه من حديث أسماء بنت ميمس .

فلا ينبغي أن يؤكل معهم (السابع) لا ينبغي أن يحضر طعام ظالم فإن أكره فليقل الأكل ولا يقصد الطعام الطيب رد بعض المزيكين شهادة من حضر طعام سلطان فقال : كنت مكرها ، فقال : رأيتك تقصد الطيب وتكبر اللقمة وما كنت مكرها عليه ؟ وأجبر السلطان هذا المزيكى على الأكل فقال : إما أن آكل وأخلى التزكية أو أتركى ولا آكل فلم يجدوا بدا من تزكيته فتركوه . وحكى أن ذا النون المصرى حبس ولم يأكل أياما فى السجن فكانت له أخت فى الله فبعثت إليه طعاما من مغزها على يد السجن فامتنع فلم يأكل ، فعاتبته المرأة بعد ذلك فقال : كان حلالا ولكن جاءنى على طبق ظالم وأشار به إلى يد السجن وهذا غاية الورع . (الثامن) حكى عن فتح الموصلى رحمه الله أنه دخل على بشر الحافى زائرا فأخرج بشر درهما فدفعه لآحمد الجلاء خادمه وقال : اشتر به طعاما جيدا وأدما طيبا ، قال : فاشتريت خبزا نفليفا وقلت : لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لشيء اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ^(١) سوى اللبن فاشتريت اللبن واشتريت تمرا جيدا فقدمت إليه فأكل وأخذ الباقي . فقال بشر : أتدرون لم قلت اشتر طعاما طيبا ؟ لأن الطعام الطيب يستخرج خالص السكر ، أتدرون لم لم يقل لى كل ؟ لأنه ليس للضيف أن يقول لصاحب الدار كل ، أتدرون لم حل ما بقى ؟ لأنه إذا صح التوكل لم يضرب الحل . وحكى أبو على الروذبارى رحمه الله تعالى أنه اتخذ ضيافة فأوقد فيها ألف سراج فقال له رجل : قد أسرفت ، فقال له : ادخل فكل ما أوقدته لغير الله فأطفئه فدخل الرجل فلم يقدر على إطفاء واحد منها فانقطع . واشترى أبو على الروذبارى أحمالا من السكر وأمر الحلاويين حتى بنوا جدارا من السكر عليه شرف ومحاريب على أعمدة منقرشة كلها من سكر ثم دعا الصوفية حتى هدموها وانتهبوها . (التاسع) قال الشافعى رضى الله عنه : الأكل على أربعة أنحاء : الأكل بأصبع من المقت ، وبأصبعين من الكبر ، وبثلاث أصابع من السنة ^(٢) وبأربع وخمس من الشره وأربعة أشياء تقوى البدن : أكل اللحم وشم الطيب وكثرة الغسل من غير جماع ولبس الكتان . وأربعة توهن البدن : كثرة الجماع وكثرة اللحم وكثرة شرب الماء على الريق وكثرة أكل الحموضة . وأربعة تقوى البصر : الجلوس تجاه القبلة والكحل عند النوم والنظر إلى الحضرة وتنظيف الملابس . وأربعة توهن البصر : النظر إلى القدر والنظر إلى المصلوب والنظر إلى فرج المرأة والعودة فى استدبار القبلة . وأربعة تزيد فى الجماع : أكل العصافير وأكل الإطريفل الأكبر وأكل الفستق وأكل الجرجير . والنوم على أربعة أنحاء . فنوم على القفا وهو نوم الأنبياء عليهم السلام يتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ونوم على اليمن وهو نوم العلماء والعباد ، ونوم على الشمال وهو نوم الملوك ليضمهم طعامهم ، ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين . وأربعة تزيد فى العقل : ترك الفضول من الكلام والسواك ومجالسة الصالحين والعلماء . وأربعة من العبادة : لا يخطو خطوة إلا على وضوء وكثرة السجود ولزوم المساجد وكثرة قراءة القرآن ، وقال أيضا : عجبت لمن يدخل الحمام على الريق ثم يؤخر الأكل بعد أن يخرج كيف لا يموت ؟ وعجبت لمن احتجم ثم يبادر الأكل كيف لا يموت ؟ وقال : لم أر شيئا أنفع فى الوباء من البنفسج يدهن به ويشرب . والله أعلم بالصواب .

(١) حديث « اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه » قاله عند شرب اللبن تقدم فى آخر الباب الأول من آداب الأكل .

(٢) حديث « الأكل بثلاث أصابع من السنة » أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك « كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث أصابع » وروى ابن الجوزى فى اللؤلؤ من حديث ابن عباس موقوفا « كل بثلاث أصابع فإنه من السنة » .

كتاب آداب النكاح

وهو الكتاب الثاني من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تصادف سهام الأوهام في عجائب صنعه مجرى ولا ترجع العقول عن أوائل بدائعها إلا والهة حيرى ولا تزال لطائف نعمه على العالمين تترى فهي تتوالى عليهم اختيارا وقهرا . ومن بدائع ألطافه أن خلق من السماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وسلط على الخلق شهوة اضطرهم بها الحرائة جبيرا واستبقى بهم نسلهم إقهارا وقسرا . ثم عظم أمر الأنساب وجعل لها قدرا فحرم بسببها السفاح وبالغ في تقييده ردعا وزجرا وجعل اقتحامه جريمة فاحشة وأمر لأمرها ونذب إلى النكاح وحث عليه استحبابا وأمر ففسحجان من كتب الموت على عباده فأذلهم به هدماء وكسرا ثم بث بذور النطف في أراضى الأرحام وأنشأ منها خلقا وجعله لكسر الموت جبيرا تضيها على أن بحار المقادير فياضة على العالمين نفعوا وضرا وخيرا وشرا وعسرا ويسرا وطيا ونشرا والصلاة والسلام على محمد المبعوث بالإنذار والبشرى وعلى آله وأصحابه صلاة لا يستطيع لها الحساب عدا ولا حصرا وسلم تسليما كثيرا . أما بعد : فإن النكاح معين على الدين ومهين للشياطين وحسن دون عدو الله حصين وسبب للتكثير الذى به مباهاة سيد المرسلين لسائر النبيين فما أحراه بأن تتحرى أسبابه وتحفظ سنته وآدابه وتشرح مقاصده وآرابه وتفصل فصوله وأبوابه . والقدر المهم من أحكامه ينكشف فى ثلاثة أبواب (الباب الأول) فى الترغيب فيه وعنه . (الباب الثانى) فى الآداب المريعة فى العقد والعاقدين . (الباب الثالث) فى آداب المعاشرة بعد العقد إلى الفراق .

الباب الأول : فى الترغيب فى النكاح والترغيب عنه

اعلم أن العلماء قد اختلفوا فى فضل النكاح فبالغ بعضهم فيه حتى زعم أنه أفضل من التخلي لعبادة الله واعترف آخرون بفضله ولكن قدموا عليه التخلي لعبادة الله ، مهما لم تتق النفس إلى النكاح توقانا يشوش الحال ويدعو إلى الوقاع . وقال آخرون : الأفضل تركه فى زماننا هذا وقد كان له فضيلة من قبل إذ لم تكن الأكساب محظورة وأخلاق النساء مذمومة . ولا ينكشف الحق فيه إلا بأن تقدم أولا ما ورد من الأخبار والآثار فى الترغيب فيه والترغيب عنه ثم نشرح فوائد النكاح وغوائله حتى يتضح منها فضيلة النكاح وتركه فى حق كل من سلم من غوائله أو لم يسلم منها .

الترغيب فى النكاح

أما من الآيات : فقد قال الله تعالى ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ وهذا أمر وقال تعالى ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ وهذا منع من العضل ونهى عنه . وقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾ فذكر ذلك فى معرض الامتتان وإظهار الفضل . ومدح أوليائه بسؤال ذلك فى الدعاء فقال ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ الآية ويقال إن الله تعالى لم يذكر

في كتابه من الانبياء إلا المتأملين فقالوا إن يحيى صلى الله عليه وسلم قد تزوج ولم يجمع قيل إنما فعل ذلك لئيل الفضل وإقامة السنة ، وقيل لغرض البصر ، وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض ويولد له .

وأما الأخبار فقولہ صلى الله عليه وسلم « النكاح سنّي فمن رغب عن سنّي فقد رغب عني » ، وقال صلى الله عليه وسلم « النكاح سنّي فمن أحب فطرق فليستن بسنّي ^(١) » ، وقال أيضا صلى الله عليه وسلم (تناكحوا تكثرُوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط ^(٢)) وقال أيضا عليه السلام (من رغب عن سنّي فليس مني وإن من سنّي النكاح فمن أحبني فليستن بسنّي ^(٣)) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا ^(٤)) وهذا ذم لعلة الامتناع لا لأصل الترك وقال صلى الله عليه وسلم (من كان ذا طول فليتزوّج ^(٥)) وقال (من استطاع منكم الباءة فليتزوّج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لا فليصم فإن الصوم له وجاء ^(٦)) وهذا يدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد في العين والفرج . والوجاء هو عبارة عن رض الخصيتين للفحل حتى تزول محوّلته ؛ فهو مستعار للضعف عن الوقاع في الصوم . وقال صلى الله عليه وسلم (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فروجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ^(٧)) وهذا أيضا لتلليل الترغيب لخوف الفساد . وقال صلى الله عليه وسلم (من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله ^(٨)) وقال صلى الله عليه وسلم (من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الثاني ^(٩)) وهذا أيضا إشارة إلى أن فضيلته لأجل التحرز من المخالفة تحصن من الفساد فكان الفساد لدين المرء في الأغلب فرجه وبطنه وقد كفي بالتزويج أحدهما . وقال صلى الله عليه وسلم (كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاث ولد صالح يدعو له ... ^(١٠)) الحديث . ولا يوصل إلى هذا إلا بالنكاح .

كتاب آداب النكاح

الباب الأول في الترغيب في النكاح

- (١) حديث « النكاح سنّي فمن أحب فطرق فليستن بسنّي » أخرجه أبو يعلى في مسنده مع تقديم وتأخير من حديث ابن عباس بسند حسن . (٢) حديث « تناكحوا تكثرُوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط » أخرجه أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث ابن عمر قوله « حتى بالسقط » وإسناده ضعيف وذكره بهذه الزيادة البيهقي في المرفوعة عن الشافعي أنه بانه (٣) حديث « من رغب عن سنّي فليس مني وإن من سنّي النكاح فمن أحبني فليستن بسنّي » متفق على أوله من حديث أنس « من رغب عن سنّي فليس مني » وباقيه تقدم قبله بحديث . (٤) حديث « من ترك التزويج خوف العيلة فليس منا » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف والدارمي في مسنده والبيهقي في معجمه وأبو داود في المراسيل من حديث أبي نجيع « من قدر على أن ينكح فلم ينكح فليس منا » وأبو نجيع اختلف في صحته . (٥) حديث « من كان ذا طول فليتزوّج » أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة بسند ضعيف . (٦) حديث « من استطاع منكم الباءة فليتزوّج الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٧) حديث « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فروجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ونقل عن البخاري أنه لم يمهده محفوظا وقال أبو داود لأنه خطأ ورواه الترمذي أيضا من حديث أبي حاتم المزني وحسنه ورواه أبو داود في المراسيل وأعله ابن القطان بإرساله وضمه رواه . (٨) حديث « من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله عزوجل » أخرجه أحمد بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس « من أعطى لله وأحب لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه » . (٩) حديث « من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الآخر » أخرجه ابن الجوزي في الملل من حديث أنس بسند ضعيف وهو عند الطبراني في الأوسط بلفظ « قد استكمل نصف الإيمان » وفي المستدرک وصححه إسناده بلفظ « من رزقه الله امرأة سالحة فقد أعانه على شطر دينه ... الحديث » . (١٠) حديث « كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاثة » فذكر فيه « وولد صالح يدعو له » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بنحوه .

وأما الآثار : فقال عمر رضى الله عنه لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور . فبين أن الدين غير مانع منه وحصر المانع في أمرين مذمومين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج . يحتمل أن جعله من النسك وتتمه له . ولكن الظاهر أنه أراد به أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج ولا يتم النسك إلا بفراغ القلب ، ولذلك كان يجمع غلمانه لما أدركوا عكرمة وكريبا وغيرهما ويقول : إن أردتم النكاح أنكحتم فإن العبد إذا زنى نزع الإيمان من قلبه . وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزبا ومات امرأتان لمعاذ بن جبل رضى الله عنه في الطاعون وكان هو أيضا مطعوناً فقال : زوجوني فإنى أكره أن ألقى الله عزبا . وهذا منهما يدل على أنهما رأيا في النكاح فضلا لامن حيث التحرز عن غائلة الشهوة . وكان عمر رضى الله عنه يكثر النكاح ويقول : ما أتزوج إلا لأجل الولد . وكان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخدمه ويبعث عنده الحاجة إن طرقت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تنزوج ؟ فقال يا رسول الله إني فقير لاشئ لى وأنقطع عن خدمتك فسكت . ثم عادتانيا فأعاد الجواب . ثم تفكر الصحابي وقال : والله لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما يصلحني في دنياي وآخرتي وما يقربني إلى الله منى ولئن قال لى الثالثة لأفعلن . فقال له الثالثة : ألا تنزوج ؟ قال : فقلت يا رسول الله زوجنى ، قال . اذهب إلى بنى فلان فقل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تزوجوني فتأتكم قال : فقلت يا رسول الله لاشئ لى ، فقال لأصحابه : اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب فجمعوا له فذهبوا به إلى القوم فأنكحوه فقال له : أولم وجمعوا له من الأصحاب شاة للولية^(١) ، وهذا التكرير يدل على فضل في نفس النكاح ويحتمل أنه توسم فيه الحاجة إلى النكاح . وحكى أن بعض العباد في الأمم السالفة فاق أهل زمانه في العبادة فذكر لنبي زمانه حسن عبادته فقال : نعم الرجل هو لولا أنه تارك لشيء من السنة فاعثم العابد لما سمع ذلك فسأل النبي عن ذلك فقال : أنت تارك للتزويج ، فقال : لست أحرمه ولكنى فقير وأنا عيال على الناس ، قال : أنا أزوجك ابنتى فزوجه النبي عليه السلام ابنته . وقال بشر بن الحرث : فضل على أحمد بن حنبل ثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلبه لنفسى فقط ولا تساعه في النكاح وضيق عنه ولأنه نصب إماما للعامة . ويقال إن أحمد رحمه الله تزوج في اليوم الثانى لوفاة أم ولده عبد الله وقال : أكره أن أبيت عزبا . وأما بشر فإنه لما قيل له . إن الناس يتكلمون فيك لتركاك النكاح ويقولون هو تارك للسنة ، فقال : قولوا لهم هو مشغول بالفرض عن السنة . وعوتب مرة أخرى فقال : ما يمنعني من التزويج إلا قوله تعالى ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف﴾ فذكر ذلك لأحمد فقال : وأين مثل بشر ؟ إنه قعد على مثل حد السنان . ومع ذلك فقد روى أنه روى في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : رفعت منازل فى الجنة وأشرف بي على مقامات الأنبياء ولم أبلغ منازل المتأهلين . وفي رواية قال لى : ما كنت أحب أن تلقانى عزبا قال : فقلنا له ، ما فعل أبو نصر التمار ؟ فقال : رفع فوق بسبعين درجة ، قلنا : بماذا فقد كنا نراك فوقه ؟ قال : بصبره على بذيائه والعيال . وقال سفيان بن عيينة : كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليا رضى الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية . فالنكاح سنة ماضيه وخلق من أخلاق الأنبياء . وقال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : طوبى لك فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة ! فقال : لروعة منك بسبب العيال : أفضل من جميع ما أنا فيه ، قال : فالذى

(١) حديث « كان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبعث عنده الحاجة إن طرقت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تنزوج ؟ ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث ربيعة الأسلمى في حديث طويل - وهو صاحب القصة - بإسناد حسن .

يمنعك من النكاح ، فقال : مالى حاجة فى امرأة وما أريد أن أغر امرأة بنفسى . وقد قيل : فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد . وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب .

وأما ما جاء فى الترهيب عن النكاح : فقد قال صلى الله عليه وسلم « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لأهل له ولا ولد »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعبرونه بالفقر ويكفونه مالا يطيق ، فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك »^(٢) ، وفى الخبر « قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقيرين »^(٣) ، وسئل أبو سليمان الداراني عن النكاح فقال : الصبر عن خير من الصبر عليهن والصبر عليهن خير من الصبر على النار . وقال أيضا : الوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجد المتأهل . وقال مرة : ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته الأولى . وقال أيضا : ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا من طلب معاشا أو تزوج امرأة أو كتب الحديث . وقال الحسن رحمه الله : إذا أراد الله بعبد خيرا لم يشغله بأهل ولا مال ، وقال ابن أبي الحواري : تناظر جماعة فى هذا الحديث فاستقر رأيهم على أنه ليس معناه أن لا يكون له بل أن يكون له ولا يشغلانه وهو إشارة إلى قول أبي سليمان الداراني : ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشوم وبالجملة لم ينقل عن أحد الترغيب عن النكاح مطلقا إلا مقرونا بشرط . وأما الترغيب فى النكاح فقد ورد مطلقا ومقرونا بشرط فلنكشف الغطاء عنه بمصر آفات النكاح وفوائده .

آفات النكاح وفوائده ، وفيه فوائد خمسة : الولد وكسر الشهوة ، وتدير المنزل . وكثرة العشرة ، ومجاهدة النفس بالقيام بهن .

الفائدة الأولى : الولد ؛ وهو الأصل وله وضع النكاح . والمقصود بإبقاء النسل وأن لا يخلو العالم عن جنس الإنس . ولما الشهوة خلقت باعثة مستحثة كالموكل بالفحل فى إخراج البذر وبالأثني فى التمكن من الحرث تلتفقا بهما فى السيفاة إلى اقتناص الولد بسبب الوقاع ، كالتلطف بالطير فى بث الحب الذى يشتهي ليساق إلى الشبكة وكانت القدرة الأزلية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداء من غير حرائة وازدواج ، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الأسباب مع الاستغناء عنها لإظهارا للقدرة وإثاما لعجائب الصنعة وتحقيقا لما سبقت به المشيئة وحققت به الكلمة وجرى به القلم . وفى التوصل إلى الولد قرينة من أربعة أوجه هى الأصل فى الترغيب فيه عند الأمن من غوائل الشهوة حتى لم يجب أحدهم أن يلقى الله عزبا . (الأول) موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان (والثانى) طلب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تكثير من مباهاة . (والثالث) طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده (والرابع) طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .

أما الوجه الأول : فهو أدق الوجوه وأبعدها عن أفهام الجماهير وهو أحقها وأقواها عند ذوى البصائر النافذة فى عجائب صنع الله تعالى ومجارى حكمه . وبيانه أن السيد إذا سلم إلى عبده البذر وآلات الحرث وهيا له أرضا مهيأة للحراثة وكان العبد قادرا على الحراثة ووكل به من يتقاضاه عليها فإن تكاسل وعطل آلة الحرث وترك البذر ضائعا

(١) حديث « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لأهل له ولا ولد » أخرجه أبو يعلى من حديث حذيفة ورواه الخطابي فى المزملة من حديثه وحديث أبي أمامة وكلاهما ضعيف . (٢) حديث يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعبرونه بالفقر ويكفونه مالا يطيق فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك » أخرجه الخطابي فى المزملة من حديث ابن مسعود نحوه والبيهقى فى الزهد نحوه فى حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف . (٣) حديث « قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقيرين » أخرجه القضاعى فى مسند العباب من حديث على وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عبد الله بن عمر وابن هلال المزنى كلاهما بالشرط الأول بسندين ضعيفين .

حتى فسد ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقاً للمقت والعقاب من سيده . والله تعالى خلق الزوجين وخلق الذكر والأنثيين وخلق النطفة في القفار وهياً لها في الأنثيين عروقا ومجاري وخلق الرحم قرارا ومستودعا للنطفة وسلط متقاضى الشهوة على كل واحد من الذكر والأنثى ، فهذه الأفعال والآلات تشهد بلسان ذلق في الإعراب عن مراد خالقها وتنادى أرباب الأبواب بتعريف ما أعدت له . هذا إن لم يصرح به الخالق تعالى على لسان ر-وله صلى الله عليه وسلم بالمراد حيث قال « تناكحوا تناسلوا ، فكيف وقد صرح بالأمر وباح بالسر ؟ فكل يتمتع عن النكاح معرض عن الحرمة مضيع للبذر معطل لما خلق الله من الآلات المعدة وجان على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الخلقة المكتوبة على هذه الأعضاء بنحط إلهي ليس برقم حروف وأصوات يقرؤه كل من له بصيرة ربانية نافذة في إدراك دقائق الحكمة الأزلية ، ولذلك عظم الشرع الأمر في القتل للأولاد وفي الوأد لأنه منع لتمام الوجود ، وإليه أشار من قال : العزل أحد الوأدين فالنكاح ساع في إتمام ما أحب الله تعالى تمامه والمعرض معطل ومضيع لما كره الله ضياعه ، ولأجل محبة الله تعالى لبقاء النفوس أمر بالإطعام وحث عليه وعبر عنه بعبادة القرض فقال ﴿ من ذا الذي يقرض له قرضا حسنا ﴾ . فإن قلت : إن بقاء النفس والنفس محبوب يوم أن فناءها مكروه عند الله ، وهو فرق بين الموت والحياة بالإضافة إلى إرادة الله تعالى ، ومعلوم أن الكل بمشيئة الله وأن الله غني عن العالمين فمن أين يتميز عنده موتهم عن حياتهم أو بقاءهم عن فناءهم ؟ فاعلم أن هذه الكلمة حق أريد بها باطل فإن ما ذكرناه لا ينافي إضافة الكائنات كلها إلى إرادة الله خيرها وشرها ونفعها وضرها ، ولكن المحبة والكراهية يتضادان وكلاهما لا يضادان الإرادة ، فرب مراد مكروه ، ورب مراد محبوب ، فالمعاصي مكروهة وهي مع الكراهية مرادة ، والطاعات مرادة ومن مع كونها مرادة محبوبة ومرضية أما الكفر والشر فلا نقول لأنه مرضي ومحبوب بل هو مراد . وقد قال الله تعالى ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ فكيف يكون الفناء بالإضافة إلى محبة الله وكراهته كالبقاء ، فإنه تعالى يقول « ما ترددت في شيء كترددى في قبض روح عبدى المسلم هو يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له من الموت ^(١) » فقله « لا بد له من الموت » إشارة إلى سبق الإرادة . والتقدير المذكور في قوله تعالى ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ الذى خلق الموت والحياة ﴾ ولا مناقضة بين قوله تعالى ﴿ نحن قتلنا بينكم الموت ﴾ وبين قوله « وأنا أكره مساءته » ، ولكن إيضاح الحق في هذا يستدعى تحقيق معنى الإرادة والمحبة والكراهية وبيان حقائقها ، فإن السابق إلى الأفهام منها أمور تناسب إرادة الخلق ومحبتهم وكراهتهم ، وهيات فبين صفات الله تعالى وصفات الخلق من البعد ما بين ذاته العزيز وذاتهم وكما أن ذوات الخلق جوهر وعرض وذات الله مقدس عنه ، ولا يناسب ما ليس بجوهر وعرض الجوهر والعرض ، فكذا صفاته لا تناسب صفات الخلق ، وهذه الحقائق داخلة في علم المكاشفة ، ووراء سر القدر الذى منح من إفشائه ، فلنقتصر عن ذكره ، ولنقتصر على ما نبهنا عليه من الفرق بين الإقدام على النكاح والإحجام عنه ، فإن أحدهما مضيع نسل أدام الله وجوده من آدم صلى الله عليه وسلم عقبا بعد عقب إلى أن انتهى إليه ؛ فالممتنع عن النكاح قد حسم الوجود المستدام من لدن وجود آدم عليه السلام على نفسه فبات أبتر لا عقب له ، ولو كان الباعث على النكاح مجرد دفع الشهوة لما قال معاذ في الطاعون : زوجوني لا ألقى الله عزيا . فإن قلت : فما كان معاذ يتوقع ولما في ذلك الوقت فما وجه رغبته فيه ؟ فأقول : الولد يحصل بالوقاع

(١) حديث أنه تعالى يقول « ما ترددت في شيء كترددى في قبض روح عبدى المسلم يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ، انفرد به بخالد القطارى وهو متكلم فيه .

بباعث الشهوة ، وذلك أمر لا يدخل في الاختيار ؛ وإنما المعلق باختيار العبد إحضار المحرك للشهوة ، وذلك متوقع في كل حال ؛ فمن عقد فقد أدى ما عليه وفعل ما إليه ، والباقي خارج عن اختياره ، ولذلك يستحب النكاح للعنين أيضاً ، فإن نهضات الشهوة خفية لا يطلع عليها حتى إن المسحوح الذي لا يتوقع له ولد لا ينقطع الاستحباب أيضاً في حقه على الوجه الذي يستحب للأصلح إمرار موسى على رأسه اقتداء بغيره وتشبها بالسلف الصالحين ، وكما يستحب الرمل والاضطباع في الحج الآن وقد كان المراد منه أولاً إظهار الجلد للكفار . فصار الاقتداء والتشبه بالذين أظهروا الجلد سنة في حق من بعدهم ، ويضعف هذا الاستحباب بالإضافة إلى الاستحباب في حق القادر على الحرث وربما يزداد ضعفاً بما يقابله من كراهة تعطيل المرأة وتضييعها فيما يرجع إلى قضاء الوطر ، فإن ذلك لا يخلو عن نوع من الخطر ؛ فهذا المعنى هو الذي ينبه على شدة إنكارهم لترك النكاح مع فتور الشهوة .

الوجه الثاني : السعي في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاء بتكثير ماله مباحاته ، إذ قد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، ويدل على مراعاة أمر الولد جملة بالوجوه كلها ما روى عن عمر رضي الله عنه أنه كان ينكح كثيراً ويقول : إنما أنكح للولد . وما روى من الأخبار في مذمة المرأة العقيم ، إذ قال عليه السلام « لصير في ناحية البيت خير من امرأة لاتلد »^(١) ، وقال خير نسائك الولود الودود^(٢) ، وقال « سوداء ولود ، خير من حسناء لاتلد »^(٣) ، وهذا يدل على أن طلب الولد أدخل في اقتضاء فضل النكاح من طلب دفع غائلة الشهوة ، لأن الحسناء أصلح للتحصين وغض البصر وقطع الشهوة .

الوجه الثالث : أن يبقى بعده ولداً صالحاً يدعو له ، كما ورد في الخبر أن جميع عمل ابن آدم منقطع إلا ثلاثاً فذكر الولد الصالح . وفي الخبر « إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور »^(٤) ، وقول القائل : إن الولد ربما لم يكن صالحاً : لا يؤثر فإنه مؤمن ، والصالح هو الغالب على أولاد ذوى الدين لاسيما إذا عزم على تربيته وحمله على الصلاح ، وبالجملة دعاء المؤمن لأبويه مفيد برا كان أو فاجراً ، فهو مثاب على دعواته وحسناته فإنه من كسبه وغير مؤاخذ بسيئاته ، فإنه لا تزور وازرة وزر أخرى ، ولذلك قال تعالى ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ أي ما نقصناهم من أعمالهم ، وجعلنا أولادهم مزيداً في إحسانهم .

الوجه الرابع : أن يموت الولد قبله فيكون له شفيعاً ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الطفل يموت بأبويه إلى الجنة »^(٥) ، وفي بعض الأخبار « يأخذ بثوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك »^(٦) ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « إن المولود يقال أدخل الجنة فيقف على باب الجنة فيظل محبباً ، أي ممتلئاً غيظاً وغضباً » ويقول لا أدخل الجنة إلا وأبواي معي ، فيقال : أدخلوا أبويه معه الجنة »^(٧) ، وفي خبر آخر « إن الأطفال

(١) حديث « لصير في ناحية البيت خير من امرأة لاتلد » أخرجه أبو عمر النوفلي في كتاب معاشرة الأهلين موقوفاً على عمر بن الخطاب ، ولم أجده مرفوعاً .

(٢) حديث « خير نسائك الولود الودود » أخرجه البيهقي من حديث ابن أبي أديّة الصديقي ، وقال البيهقي : وروى بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلاً . (٣) حديث « سوداء ولود خير من حسناء لاتلد » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصح . (٤) حديث « إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور » رواه في الأربعين المشهورة من رواية ابن هدية عن أنس في الصدقة عن الميت ، وأبو هدية كذاب . (٥) حديث « إن الطفل يموت بأبويه إلى الجنة » أخرجه ابن ماجه من حديث علي وقال « سقط » بدل « الطفل » وله من حديث ما ذكر « إن الطفل ليحجر أمه بسرره إلى الجنة إذا هي احتسنته » وكلامها ضعيف . (٦) حديث « إنه يأخذ بثوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٧) حديث « إن المولود يقال له أدخل الجنة » فيقف على باب الجنة فيظل محبباً أي ممتلئاً غيظاً وغضباً ، ويقول لا أدخل إلا وأبواي معي ... الحديث « أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصح ، والنسائي من حديث أبي هريرة » يقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون حتى يدخل آباؤنا فيقال ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم » وإسناده جيد .

يجتمعون في موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للبلائكة : اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم : مرحبا بذرارى المسلمين ادخلوا لاحساب عليكم ، فيقولون : فأين آباؤنا وأمهاتنا ؟ فيقول الحزنة : إن آباءكم وأمهاتكم ليسوا مثلكم ، إنه كانت لهم ذنوب وسيئات فهم يحاسبون عليها ويطالبون . قال : فيتضاغون ويضجون على أبواب الجنة ضجة واحدة ، فيقول الله سبحانه وهو أعلم بهم : ماهذه الضجة ؟ فيقولون : ربنا أطفال المسلمين قالوا لا ندخل الجنة إلا مع آبائنا ؛ فيقول الله تعالى : تدخلوا الجمع فخذوا بأيدي آبائهم فأدخلوهم الجنة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من مات له اثنان من الولد فقد احتظر بحظار من النار ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من مات له ثلاثة لم يبلغوا الخنث أدخله الله الجنة بفضل رحته لإياهم » قيل : يا رسول الله واثنان ؟ قال « واثنان ^(٣) » ، وحكى أن بعض الصالحين كان يعرض عليه التزويج فيأبى برهة من دهره ، قال فأنته من نومه ذات يوم وقال : زوجوني زوجوني ، فزوجوه ، فسئل عن ذلك فقال : لعل الله يرزقني ولدا ويقبضه فيكون لي مقدمة في الآخرة ، ثم قال : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وكأني في جملة الخلائق في الموقف ، وبى من العطش ما كاد أن يقطع عنقي ، وكذا الخلائق في شدة العطش والكرب ، فحنن كذلك إذ ولدان يتخللون الجمع ، عليهم مناديل من نور ، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب ، وهم يسقون الواحد بعد الواحد ، يتخللون الجمع ويتجاوزون أكثر الناس ، فددت يدي إلى أحدهم وقلت : اسقني فقد أجهدتني العطش ، فقال : لبس لك فينا ولد ، إنما نسق آباءنا ، فقلت : ومن أنتم ؟ فقالوا : نحن من مات من أطفال المسلمين . وأحد المعاني المذكورة في قوله تعالى ﴿ فَأَتُوا حُرْمَكُمْ أَنى شئتم وقدموا لأنفسكم ﴾ تقديم الأطفال إلى الآخرة ؛ فقد ظهر بهذه الوجوه الأربعة أن أكثر فضل النكاح لأجل كونه سبباً للولد .

الفائدة الثانية : التحصن من الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغض البصر ، وحفظ الفرج ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « من نكح فقد حصن نصف دينه فليمتق الله في الشطر الآخر » وإليه الإشارة بقوله « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء » ، وأكثر ما نقلناه من الآثار والأخبار إشارة إلى هذا المعنى ، وهذا المعنى دون الأول ؛ لأن الشهوة موكلة بتقاضى تحصيل الولد ؛ فالتكاح كاف لشغله دافع لجمع له وصارف لشر سطوته ، وليس من يجيب مولاه رغبة في تحصيل رضاه ، كمن يجيب لطلب الخلاص عن غائلة التوكيل ؛ فالشهوة والولد مقدران وبينهما ارتباط ، وليس يجوز أن يقال : المقصود اللذة ، والولد لازم منها كما يلزم مثلاً قضاء الحاجة من الأكل وليس مقصوداً في ذاته ، بل الولد هو المقصود بالفطرة والحكمة ، والشهوة باعثة عليه ؛ ولعمري في الشهوة حكمة أخرى سوى الإرهاق إلى الإيلاد ، وهو ما في قضائها من اللذة التي لا توازيها لذة لودامت ، فهي منه على اللذات الموعودة في الجنان ، إذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذوقاً لا ينفع ، فلورغب العنين في لذة الجماع أو الصبي في لذة

(١) حديث « إن الأطفال يجتمعون في موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للبلائكة اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم مرحبا بذرارى المسلمين ادخلوا لاحساب عليكم فيقولون أين آباؤنا وأمهاتنا ... » الحديث بطوله لم أجده أسلاً يعتمد عليه . (٢) حديث « من مات له اثنان من الولد احتظر بحظار من النار » أخرجه البزار والطبراني من حديث زهير بن أبي عقبة « جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إنه مات لي ابنان سوى هذا فقال : لقد احتظرت من دون النار بحظار شديد ، ولمسلم من حديث أبي هريرة في المرأة التي قالت : دفنت ثلاثة « لقد احتظرت بحظار شديد من النار » (٣) حديث « من مات له ثلاثة لم يبلغوا الخنث أدخله الله الجنة بفضل رحته لإياهم » قيل : يا رسول الله واثنان ، قال : واثنان « أخرجه البخاري من حديث أسد بن زرارة ، وهو عند أحمد بهذه الزيادة من حديث معاذ ، وهو متفق عليه من حديث أبي سعيد بن جابر « أيما امرأة » بنحو منه .

الملك والسلطنة لم ينفع التريغيب ، وإحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة ، ليكون باعشا على عبادة الله . فانظر إلى الحكمة ، ثم إلى الرحمة ، ثم إلى التعبية الإلهية كيف عبت تحت شهوة واحدة حياتان حياة ظاهرة وحياة باطنة ، فالحياة الظاهرة حياة المرء ببقاء نسله فإنه نوع من دوام الوجود ، والحياة الباطنة هي الحياة الآخروية . فإن هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام ، فيستحث على العبادة الموصلة إليها ، فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها تيسر المواظبة على ما يوصله إلى نعيم الجنان ، وما من ذرة من ذرات بدن الإنسان باطنا وظاهرا ، بل ذرات ملكوت السموات والأرض ، إلا وتحتها من لطائف الحكمة وعجائبها متاحرات العقول فيها ، ولكن إنما ينكشف للقلوب الطاهرة بقدر صفاتها وبقدر رغبتها عن زهرة الدنيا وغرورها وغوائلها ، فأنكح بسبب دفع غائلة الشهوة مهم في الدين لكل من لا يوثق عن عجز وعنة وهم غالب الخلق ، فإن الشهوة إذا غلبت ولم يقاومها قوة التقوى جرت إلى اقتحام الفواحش ، وإليه أشار بقوله عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ وإن كان ملجما بلجام التقوى فغايته أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة ، فيخض البصر ويحفظ الفرج ، فأما حفظ القلب عن الوسواس والفكر فلا يدخل تحت اختياره ، بل لا تزال النفس تجاذبه وتحده بأمر الوقاع ولا يفرغه الشيطان الموسوس إليه في أكثر الأوقات ، وقد يعرض له ذلك في أثناء الصلاة حتى يجرى على خاطره من أمور الوقاع ما لو صرح به بين يدي أخس الخلق لاستحي منه ، والله مطلع على قلبه ، والقلب في حق الله كاللسان في حق الخلق ، ورأس الأمور للريد في سلوك طريق الآخرة قلبه ، والمواظبة على الصوم لا تقطع مادة الوسوسة في حق أكثر الخلق إلا أن ينضاف إليه نصف في البدن وفساد في المزاج ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يتم نسلك الناسك إلا بالنكاح . وهذه محنة عامة قل من يتخلص منها . قال قتادة في معنى قوله تعالى ﴿ ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ هو الغلبة . وعن عكرمة ومجاهد أنهما قالا في معنى قوله تعالى ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ أنه لا يصبر عن النساء وقال فياض بن نجيح . إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله . وبعضهم يقول : ذهب ثلث دينه . وفي نوادر التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال قيام الذكر ، وهذه يلية غالبية إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين ، وهي مع أنها صالحة لأن تكون باعثة على الحياتين كما سبق فهي أقوى آلة الشيطان على بني آدم ، وإليه أشار عليه السلام بقوله « مارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدى الألباب منكن »^(١) ، وإنما ذلك لهيجان الشهوة . وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وشرمني »^(٢) ، وقال « أسألك أن تطهر قلبي وتحفظ فرجي »^(٣) ، فما يستعين منه رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحوز التساهل فيه لغيره ، وكان بعض الصالحين يكثر النكاح حتى لا يكاد يخلو من اثنتين وثلاث ، فأنكر عليه بعض الصوفية فقال : هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدي الله تعالى جلسة أو وقف بين يديه موقفاني معاملة لخطر على قلبه خاطر شهوة ، فقالوا : يصيبنا من ذلك كثير ، فقال : لورضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد لما تزوجت ، لكنني ما خطر على قلبي خاطر يشغلني عن حالي إلا نفذته فاستريح وأرجع إلى شغلي ، ومنذ أربعين سنة ما خطر على قلبي معصية . وأنكر بعض الناس حال الصوفية فقال له

(١) حديث « مارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدى الألباب منكن » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر ، وانفقا عليه من حديث أبي سعيد ولم يسن مسلمنا . (٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وشر مني » تقدم في الدعوات . (٣) حديث « أسألك أن تطهر قلبي وتحفظ فرجي » أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أم سلمة بأسانيد فيه لين .

بعض ذوى الدين : ما الذى تنكر منهم ؟ قال : يا كاون كثيرا . قال : وأنت أيضا لو جعت كما يجوعون لا كلت كما يأكلون ، قال : ينكحون كثيرا . قال : وأنت أيضا لو حفظت عينيك وفرجك كما يحفظون لنكحت كما ينكحون . وكان الجنيد يقول : أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت ، فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلب ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من وقع نظره على امرأة فتأقت إليها نفسه أن يجمع أهله ^(١) ؛ لأن ذلك يدفع الوسواس عن النفس . وروى جابر رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج . وقال صلى الله عليه وسلم : إن المرأة إذا أقبلت أقبلت بصورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله معها مثل الذى معها ^(٢) ، وقال عليه السلام ، لا تدخلوا على المغيبات - وهى التى غاب زوجها عنها - فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم ، قلنا : ومنك ؟ قال : ومنى ، ولكن الله أعانى عليه فأسلم ^(٣) ، قال سفيان بن عيينة : فأسلم معناه فأسلم أنا منه ، هذا معناه ، فإن الشيطان لا يسلم ، وكذلك حكى على ابن عمر رضى الله عنهما وكان من زهاد الصحابة وعلمائهم أنه كان يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكل ، وربما أنه جامع ثلاثا من جواريه فى شهر رمضان قبل العشاء الأخيرة . وقال ابن عباس خير هذه الأمة أكثرها نساء ^(٤) ولما كانت الشهوة أغلب على مزاج العرب كان استكثار الصالحين منهم للنكاح أشد ولاجل فراغ القلب أبيح نكاح الأمة عند خوف العنت مع أن فيه إرقاق الولد وهو نوع إهلاك ، وهو محرم على كل من قدر على حرة ، ولكن إرقاق الولد أهون من إهلاك الدين ، وليس فيه إلا تنخيص الحياة على الولد مدة ، وفى اقتحام الفاحشة تفويت الحياة الآخروية التى تستحق الأعمار الطويلة بالإضافة إلى يوم من أيامها . وروى أنه انصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس وبقي شاب لم يبرح ، فقال له ابن عباس : هل لك من حاجة ؟ قال : نعم أردت أن أسأل مسألة فاستحييت من الناس ، وأنا الآن أهابك وأجلك ، فقال ابن عباس : إن العالم بمنزلة الوالد ، فاكنت أفضيت به إلى أهلك فأفرض إلى به ، فقال : إني شاب لازوجة لى ، وربما خشيت العنت على نفسى ، فربما استمنيت بيدي ، فهل فى ذلك معصية ؟ فأعرض عنه ابن عباس ثم قال : أف وتنف نكاح الأمة خير منه ، وهو خير من الزنا ، فهذا تنبيه على أن العزب المغتلم مردد بين ثلاثة شرور أدناها نكاح الأمة ، وفيه إرقاق الولد ، وأشد منه الاستمناة باليد ، وأخفها الزنا ، ولم يطلق ابن عباس الإباحة فى شيء منه لأنهما محذوران يفرع إليهما حذرا من الوقوع فى محذور أشد منه ، كما يفرع إلى تناول الميتة حذرا من هلاك النفس ، فليس ترجيح أهون الشرين فى معنى الإباحة المطلقة ولا فى معنى الخير المطلق ، وليس قطع اليد المتأكلة من الخيرات وإن كان يؤذن فيه عند إشراف النفس على الهلاك ، فإذا فى النكاح فضل من هذا الوجه ، ولكن هذا لا يعم الكل بل الأكثر ، فرب شخص فترت شهوته لكبر سن أو مرض أو غيره فينعدم هذا الباعث فى حقه ، ويبقى ماسبق من أمر الولد . فإن ذلك عام إلا للمسحوق

(١) حديث « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من وقع بصره على امرأة فتأقت نفسها إليها أن يجمع أهله » أخرجه أحمد من حديث أبى كبشة الأنمارى ، حين مر به امرأة فوق فى قلبه شهوة النساء فدخل فأتى بطن أزواجه وقال : فكذلك فافعلوا ، فانه من أمثال أفعالكم إتيان الحلال ، ولستاده جيد . (٢) حديث جابر « رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته » الحديث رواه مسلم والترمذى واللفظ له وقال : حسن صحيح . (٣) حديث « لا تدخلوا على المغيبات فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث جابر وقال غريب ، وسلم من حديث عبد الله بن عمر « ولا يدخل بعد يومى هذا على منية إلا ومعها رجل أو اثنان » . (٤) حديث ابن عباس « خير هذه الأمة أكثرها نساء » بنى النبي صلى الله عليه وسلم رواه البخارى .

وهو نادر ، ومن الطباع ما تغلب عليها الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع ، فإن يسر الله له مودة ورحمة واطمأن قلبه بهن وإلا فيستحب له الاستبدال ، فقد نكح على رضى الله عنه بعد وفاة فاطمة عليها السلام بسبع ليال ، ويقال : إن الحسن بن علي كان منكاحا حتى نكح زيادة على مائتي امرأة وكان ربما عقد على أربع في وقت واحد ، وربما طلق أربعاً في وقت واحد واستبدل بهن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام للحسن ، أشبهت خلقى وخلقى ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : حسن منى وحسين من على ^(٢) ، فقال إن كثرة نكاحه أحد ما أشبه به خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتزوج المغيرة بن شعبه بثمانين امرأة ، وكان في الصحابة من له الثلاث والأربع ، ومن كان له اثنتان لا يحصى ، ومهما كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة فالمراد تسكين النفس فليُنظر إليه في الكثرة والقلة .

الفائدة الثالثة : ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب وتقوية له على العبادة فإن النفس ملول وهي عن الحق نفور لأنه على خلاف طبعها ، فلو كانت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت وثابت ، وإذا رُوحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت ، وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويروح القلب ، وينبغي أن يكون نفوس المتقين استراحات بالمباحات ، ولذلك قال الله تعالى (ليسكن إليها) وقال على رضى الله عنه : رَوَّحُوا القلوب ساعة فإنها إذا أكرهت عمت . وفي الخبر : على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه . فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات ^(٣) ، ومثله بلفظ آخر : لا يكون العاقل ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو ولدة في غير محرم ^(٤) ، وقال عليه الصلاة والسلام : اسكل عامل شرة ولسكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى ^(٥) ، والشرة الجدة والمكابدة بجدة وقوة ، وذلك في ابتداء الإرادة ، والفترة . الوقوف للاستراحة ، وكان أبو الدرداء يقول إنى لاستجم نفسي بشيء من اللهو لا تقوى بذلك فيما بعد على الحق . وفي بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : شكوت إلى جبريل عليه السلام ضعفى عن الوقاع فدلنى على الهريسة ^(٦) ، وهذا إن صح لا يحمل له إلا الاستعداد للاستراحة ، ولا يمكن تعليله بدفع الشهوة فإنه استثارة للشهوة ، ومن عدم الشهوة عدم الأكثر من هذا الأنس . وقال عليه الصلاة والسلام حجب إلى من دنيا كم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة ^(٧) ، فهذه أيضاً فائدة لا ينكرها من جرب إتعاب نفسه في الأفكار والأذكار وصنوف الأعمال ، وهي خارجة عن

(١) حديث أنه قال للحسن بن علي « أشبهت خلقى وخلقى » قلت المعروف أنه قال هذا اللفظ لجعفر بن أبي طالب ، كما هو متفق عليه من حديث البراء ، ولكن الحسن أيضاً كان يعبه النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو متفق عليه من حديث أبي جحيفة ، والترمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس « لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحسن » . (٢) حديث « حسن منى وحسين من على » رواه أحمد من حديث المقداد بن معديكرب بسند جيد . (٣) حديث « على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه » رواه ابن حبان من حديث أبي ذر في حديث طويل : أن ذلك في صحف إبراهيم . (٤) حديث « لا يكون العاقل ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو ولدة في غير محرم » رواه ابن حبان من حديث أبي ذر الطويل : أن ذلك في صحف إبراهيم . (٥) حديث « لسكل عامل شرة ، ولسكل شرة فترة » فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى » رواه أحمد والطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو . والترمذى نحوه من هذا من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح . (٦) حديث « شكوت إلى جبريل ضعفى عن الوقاع فدلنى على الهريسة » أخرجه ابن عدى من حديث حذيفة ؛ وابن عباس ، والعقيلي من حديث ماذ وجابر بن سمرة ، وابن حبان في الضعفاء من حديث حذيفة ، والأزدى في الضعفاء من حديث أبي هريرة بطرق كلها ضعيفة . قال ابن عدى : موضوع ، وقال العقيلي : باطل . (٧) حديث « حجب إلى من دنيا كم الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة » رواه النسائى والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد ، وضفه العقيلي .

الفائدتين السابقتين ، حتى إنها تطرد في حق الممسوح ومن لا شهوة له ، إلا أن هذه الفائدة تجعل للنكاح فضيلة بالإضافة إلى هذه النية ، وقل من يقصد بالنكاح ذلك . وأما قصد الولد وقصد دفع الشهوة وأمثالها فهو مما يكثر ثم رب شخص يستأنس بالنظر إلى الماء الجاري والخضرة وأمثالها ولا يحتاج إلى ترويح النفس بمحادثة النساء وملاعبتهن . فيختلف هذا باختلاف الأحوال والأشخاص فليقتبه له .

الفائدة الرابعة : تفرغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكفس والفرش وتنظيف الاواني وتهيئة أسباب المعيشة ، فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش في منزله وحده ، إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لصنع أكثر أوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل ، فالمرأة الصالحة المصلحة للنزل عون على الدين بهذه الطريق ، واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش ، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرغك للأخرة ، وإنما تفرغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً . وقال محمد بن كعب القرظي في معنى قوله تعالى ﴿ ربنا آتينا في الدنيا حسنة ﴾ قال : المرأة الصالحة . وقال عليه الصلاة والسلام « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذا كراً وزوجة مؤمنة صالحة تعينه على آخرته »^(١) ، فانظر كيف جمع بينها وبين الذكر والشكر . وفي بعض التفاسير في قوله تعالى ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ قال الزوجة الصالحة ؛ وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما أعطى العبد بعد الإيمان بالله خيراً من امرأة صالحة ، وإن منهن غنياً لا يخذى منه ، ومنهن غللاً لا يفدى منه . وقوله : لا يخذى أن يعتاض عنه بعماء . وقال عليه الصلاة والسلام « فضلت على آدم بخصلتين : كانت زوجته عوناً له على المعصية ، وأزواجى أعواناً على الطاعة ، وكان شيطانه كافراً وشيطانى مسلماً لا يأمر إلا بخير »^(٢) ، فقد معاونتها على الطاعة فضيلة : فهذه أيضاً من الفوائد التي يقصدها الصالحون إلا أنها تخص بعض الأشخاص الذين لا كافل لهم ولا مدبر ، ولا تدعو إلى امرأتين بل الجمع ربما ينقص المعيشة ويضطرب به أمور المنزل ؛ ويدخل في هذه الفائدة قصد الاستكثار بعشيرتها وما يحصل من القوة بسبب تداخل العشائر ، فإن ذلك مما يحتاج إليه في دفع الشرور وطلب السلامة ولذلك قيل : ذل من لا ناصر له ، ومن وجد من يدفع عنه الشرور سلم حاله وفرغ قلبه للعبادة ، فإن الذل مشوش للقلب والعز بالكثرة دافع بالذل .

الفائدة الخامسة : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن والسعى في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيتهن لأولاده ، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فإنها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم ، إنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقوقها ، وإلا فقد قال عليه الصلاة والسلام « يوم من وال » عادل أفضل من عبادة سبعين سنة ، ثم قال « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »^(٣) ، وليس من اشتغل

(١) حديث « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذا كراً وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته » أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه واللفظ له من حديث ، وفيه انقطاع . (٢) حديث « فضلت على آدم صلى الله عليه وسلم بخصلتين : كانت أزوجه عوناً له على المعصية وأزواجى أعواناً على الطاعة ، وكان شيطانه كافراً وشيطانى مسلماً لا يأمر إلا بخير » رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن عمر ، وفيه محمد بن وليد بن أبان بن القلاسي قال ابن عدى كان يضع الحديث ، ولمسلم من حديث ابن مسعود « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال « وأنا ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ولا يأمرني إلا بخير » . (٣) حديث « يوم من وال عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » ثم قال « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » رواه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس ، وقد تهدم بلفظ « سبعين سنة » دون ما بعده فإنه متفق عليه من حديث ابن عمر .

بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها ، فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله ولذلك قال بشر : فضل على أحمد بن حنبل بثلاث : إحداهما أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى في امرأته ^(١) » ، وقال بعضهم لبعض العلماء : من كل عمل أعطاني الله نصيباً حتى ذكر الحج والجهاد وغيرهما فقال له : أين أنت من عمل الأبدان ؟ قال : وما هو ؟ قال كسب الحلال ، والنفقة على العيال . وقال ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو : تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نعلم ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا : فما هو ؟ قال رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبياته نياماً متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه ، فعمله أفضل مما نحن فيه . وقال صلى الله عليه وسلم من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم يغتصب المسلمين كان معي في الجنة كهاتين ^(٢) ، وفي حديث آخر : إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ^(٣) ، وفي الحديث : إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها عنه ^(٤) ، وقال بعض السلف : من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الغم بالعيال ، وفيه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة ألبنة ألبنة ، إلا أن يعمل عملاً لا يغفر له ^(٦) » ، وكان ابن عباس إذا حدث بهذا قال : والله هو من غرائب الحديث وغرره . وروى أن بعض المتعبدين كان يحسن القيام على زوجته إلى أن ماتت . فعرض عليه التزويج فامتنع وقال : الوحدة أروح لقلبي وأجمع لهمي ، ثم قال : رأيت في المنام بعد جمعة من وفاتها كأن أبواب السماء فتحت وكأن رجالاً ينزلون ويسيروا في الهواء يتبع بعضهم بعضاً ، فكلما نزل واحد نظر إلى وقال لمن وراءه : هذا هو المششوم ، فيقول الآخر نعم ، ويقول الثالث كذلك ، ويقول الرابع نعم ، فخفت أن أسألهم هبة من ذلك إلى أن مر بي آخرهم وكان غلاماً ، فقلت له : يا هذا من هذا المششوم الذي تومنون إليه ؟ فقال : أنت . فقلت : ولم ذاك ؟ قال : كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله ، فنذ جمعة أمرنا أن نضع عملك مع الخالفين ، فما ندري ما أحدثت ؟ فقال لإخوانه : زوجوني زوجوني فلم يكن تفارقه زوجتان أو ثلاث . وفي أخبار الأنبياء عليهم السلام أن قوماً دخلوا على يونس النبي عليه السلام فأضافهم ، فكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت ، فتهجروا من ذلك فقال : لا تعجبوا فإني سألت الله تعالى وقلت : ما أنت معاقب لي به في الآخرة فمعه لي في الدنيا ، فقال : إن عقوبتك بنت فلان ، تزوج بها ، فتزوجت بها وأنا صابر على ماترون منها ، وفي الصبر على ذلك رياضة النفس وكسر الغضب

(١) حديث « ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة وإن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى في امرأته » متفق عليه من حديث ابن مسعود « إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة » ولهما من حديث سعد بن أبي وقاص « ومهما أنفقت فهو لك صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك » . (٢) حديث « من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم يغتصب المسلمين كان معي في الجنة كهاتين » أخرجه أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بسند ضعيف . (٣) حديث « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال » أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين بسند ضعيف . (٤) حديث « إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها » رواه أحمد من حديث عائشة إلا أنه قال « بالخرق » وفيه ليث بن أبي سليم يختلف فيه . (٥) حديث « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص المتشابه من حديث أبي هريرة بأسناد ضعيف . (٦) حديث « من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة ألبنة ألبنة إلا أن يعمل عملاً لا يغفر له » رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، وهو عنده بلفظ آخر : ولأبي داود واللفظ له والترمذي من حديث أبي سعيد « من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة » ورجالها ثقات ، وفي سنده اختلاف .

وتحسين الخلق ؛ فإن المنفرد بنفسه أو المشارك لمن حسن خلقه لا تترشح منه خباثت النفس الباطنة ولا تكشف بواطن عيوبه ، فحق على سالك طريق الآخرة أن يحزب نفسه بالتعرض لأمثال هذه المحركات واعتياد الصبر عليها ، لتعتدل أخلاقه وترتاض نفسه ويصفو عن الصفات الذميمة باطنه والصبر على العيال مع أنه رياضة ومجاهدة تكفل لهم وقيام بهم وعبادة في نفسها ، فهذه أيضاً من الفوائد ، ولكنه لا ينتفع بها إلا أحد رجلين : إما رجل قصد المجاهدة والرياضة وتهذيب الأخلاق لكونه في بداية الطريق ، فلا يبعد أن يرى هذا طريقاً في المجاهدة وترتاض به نفسه ، وإما رجل من العابدين ليس له سير بالباطن وحركة بالفكر والقلب ، وإنما عمله عمل الجوارح بصلاة أو حج أو غيره ، فعمله لأهله وأولاده بكسب الحلال لهم والقيام بتربيتهم أفضل له من العبادات اللازمة لبدنه التي لا يتعدى خيرها إلى غيره ، فأما الرجل المهذب الأخلاق إما بكفاية في أصل الخلقة أو بمجاهدة سابقة إذا كان له سير في الباطن وحركة بفكر القلب في العلوم والمكاشفات ، فلا ينبغي أن يتزوج لهذا الغرض ، فإن الرياضة هو مكفي فيها . وأما العبادة في العمل بالكسب لهم فالعلم أفضل من ذلك ، لأنه أيضاً عمل ، وفائده أكثر من ذلك وأعم وأشمل لساير الخلق من فائدة الكسب على العيال ، فهذه فوائد النكاح في الدين التي بها يحكم له بالفضيلة .

أما آفات النكاح فثلاث : (الأولى) وهي أقواها العجز عن طلب الحلال فإن ذلك لا يتيسر لكل أحد ، لاسيما في هذه الأوقات مع اضطراب المعاش فيكون النكاح سبباً في التوسع للطلب والإطعام من الحرام ، وفيه هلاك وهلاك أهله والمتعزب في أمن من ذلك ، وأما المتزوج ففي الأكثر يدخل في مداخل السوء فيتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بدينه . وفي الخبر : إن العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال فيسأل عن رعاية عائلته والقيام بهم ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيهم أنفقه ، حتى يستغرق بتلك المطالبات كل أعماله ، فلا تبقى له حسنة ، فتتأدى الملائكة : هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا وارتهن اليوم بأعماله ^(١) ، ويقال : إن أول ما يتعلق بالرجل في القيامة أهله وولده فيوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون : ياربنا خذ لنا بحقنا منه فإنه ماعلنا مانجهل وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم ، فيقتصص لهم منه . وقال بعض السلف : إذا أراد الله بعبد شراً سلط عليه في الدنيا أنياباً تنشه يعنى العيال . وقال عليه الصلاة والسلام : لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله ^(٢) ، فهذه آفة عامة قل من يتخلص منها إلا من له مال موروث أو مكتسب من حلال يني به وبأهله وكان له من القناعة ما يمنعه من الزيادة ، فإن ذاك يتخلص من هذه الآفة ، أو من هو محترف ومقتد على كسب حلال من المباحات باحتطاب أو اصطيد ، أو كان في صناعة لا تتعلق بالسلطين ويقدر على أن يعامل به أهل الخير ، ومن ظاهره السلامة وغالب ماله الحلال وقال ابن سالم رحمه الله - وقد سئل عن التزويج - فقال : هو أفضل في زماننا هذا لمن أدركه شبق غالب ، مثل المحاريري الأثان فلا ينتهى عنها بالضرب ولا يملك نفسه ، فإن ملك نفسه فتركه أولى .

الآفة الثانية : القصور عن القيام بحقوقهم والصبر على أخلاقهم واحتمال الأذى منهم وهذه دون الأولى في العموم فإن القدرة على هذا أيسر من القدرة على الأولى ، وتحسين الخلق مع النساء والقيام بمحظوظهن أهون من طلب الحلال وفي هذا أيضاً خطر ، لأنه راع ومسئول عن رعيته . وقال عليه الصلاة والسلام : كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول ^(٣)

(١) حديث « ان العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال ويسأل عن رعاية عياله والقيام بهم ... الحديث » لم أقف له على أصل . (٢) حديث « لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله » ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي سعيد ، ولم يجده ولده أبو منصور في مستند . (٣) حديث « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول » رواه أبو داود والنسائي بلفظ « من يقوت » وهو عند مسلم بلفظ آخر .

وروى أن الهارب من عياله بمنزلة العبد الهارب الآبق لا تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم ، ومن يقصر عن القيام بحقوقه وإن كان حاضرا فهو بمنزلة هارب ، فقد قال تعالى ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ أمرنا أن نقيهم النار كما نقي أنفسنا ، والإنسان قد يعجز عن القيام بحق نفسه ، وإذا تزوج تضاعف عليه الحق وانضافت إلى نفسه نفس أخرى والنفس أمارة بالسوء ، إن كثرت عليها الحقوق كثر الأمر بالسوء غالبا ، ولذلك اعتذر بعضهم من التزوج وقال : أنا مبتلى بنفسى وكيف أضيف إليها نفسا أخرى ؟ كما قيل :

لن يسع الفأرة جحرها علفت المكس في دبرها

وكذلك اعتذر إبراهيم بن أدهم رحمه الله وقال : لا أغر امرأة بنفسى ولا حاجة لى فيهن : أى من القيام بحقوقهن وتحصيلهن وإمتاعهن وأنا عاجز عنه ، وكذلك اعتذر بشر وقال : يمنعنى من النكاح قوله تعالى ﴿ ولهن مثل الذى عليهن ﴾ وكان يقول : لو كنت أعول دجاجة لحفت أن أصير جلادا على الجسر . ورؤى سفيان ابن عيينة رحمه الله على باب السلطان فقيل له : ما هذا موقفك ؟ فقال : وهل رأيت ذا عيال أفلح ؟ وكان سفيان يقول :

ياحبذا العزبة والمفتاح * ومسكن تخرقه الرياح * لاصخب فيه ولا صياح

فهذه آفة عامة أيضا وإن كانت دون عموم الأولى ، لا يسلم منها إلا حكيم عاقل ، حسن الأخلاق ، بصير بعبادات النساء ، صبور على لسانهن ، وقاف عن اتباع شهواتهن ، حريص على الوفاء بحقوقهن يتغافل عن زللهن ، ويدارى بعقله أخلاقهن ، والأغلب على الناس السفه والفظاظة والحدة والطيش وسوء الخلق وعدم الإنصاف مع طلب تمام الإنصاف ومثل هذا يزداد بالنكاح فسادا من هذا الوجه لا محالة ، فالوحدة أسلم له .

الآفة الثالثة - وهى دون الأولى والثانية - : أن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله تعالى وجاذبا له إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم وطلب التفاخر والتكاثر بهم وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشغوم على صاحبه ، ولست أعنى بهذا أن يدعو إلى محذور ، فإن ذلك بما اندرج تحت الآفة الأولى والثانية ، بل أن يدعو إلى التعمم بالمباح بل إلى الإغراق فى ملاعبة النساء وموانستهن والإمعان فى التمتع بهن ، ويشور من النكاح أنواع من الشواغل من هذا الجنس تستغرق القلب ، فينقض الليل والنهار ولا يتفرغ المرء فيهما للتفكير فى الآخرة والاستعداد لها ، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : من تعود أنغاد النساء لم يجرئ منه شيء . وقال أبو سليمان رحمه الله . من تزوج فقد ركن إلى الدنيا : أى يدعو ذلك إلى الركون إلى الدنيا ، فهذه مجامع الآفات والفوائد ، فالحكم على شخص واحد بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقا قصور عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور بل تتخذ هذه الفوائد والآفات معتبرا ومحكما ويعرض المرء عليه نفسه ، فإن انتفت فى حقه الآفات واجتمعت الفوائد بأن كان له مال حلال وخلق حسن وجد فى الدين تام لا يشغله النكاح عن الله ، وهو مع ذلك شاب محتاج إلى تسكين الشهوة ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل والتحصن بالعشيرة ، فلا يمارى فى أن النكاح أفضل له مع ما فيه من السعى فى تحصيل الولد ، فإن انتفت الفوائد واجتمعت الآفات فالعزوبة أفضل له ، وإن تقابل الأمران وهو الغالب فينبغى أن يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة فى الزيادة من دينه وحظ تلك الآفات فى نقصان منه ، فإذا غلب على الظن رجحان أحدهما حكم به ، وأظهر الفوائد الولد وتسكين الشهوة ، وأظهر الآفات الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله ، فلنفرض تقابل هذه الأمور فنقول : من لم يكن فى أذية من الشهوة وكانت فائدة نكاحه فى السعى لتحصيل

الولد وكانت الآفة الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله فالعزوبة له أولى ، فلا خير فيما يشغل عن الله ، ولا خير في كسب الحرام ، ولا يني بنقصان هذين الأمرين أمر الولد ، فإن النكاح للولد سعى في طلب حياة للولد موهومة ، وهذا نقصان في الدين ناجز ، لحفظه لحياة نفسه وصونها عن الهلاك أهم من السعى في الولد وذلك ربح والدين رأس مال . وفي فساد الدين بطلان الحياة الآخروية وذهاب رأس المال ، ولا تقاوم هذه الفائدة إحدى هاتين الآفتين . وأما إذا انضاف إلى أمر الولد حاجة كسر الشهوة لتوقان النفس إلى النكاح نظر : فإن لم يقبّر لجام التقوى في رأسه وخاف على نفسه الزنا فالنكاح له أولى ، لأنه متردد بين أن يقتحم الزنا أو يأكل الحرام ، والكسب الحرام أهون الشرين ، وإن كان يثق بنفسه أنه لا يزني ولكن لا يقدر مع ذلك على غض البصر عن الحرام فترك النكاح أولى ، لأن النظر حرام والكسب من غير وجهه حرام ، والكسب يقع دائماً وفيه عصيانه وعصيان أهله ، والنظر يقع أحياناً وهو يخصه وينصرم على قرب ، والنظر زنا العين ولكن إذا لم يصدقه الفرج فهو إلى العفو أقرب من أكل الحرام ، إلا أن يخاف إفضاء النظر إلى معصية الفرج فيرجع ذلك إلى خوف العنت ؛ وإذا ثبت هذا فالحالة الثالثة : وهو أن يقوى على غض البصر ولكن لا يقوى على دفع الأفكار الشاغلة للقلب فذلك أولى بترك النكاح ، لأن عمل القلب إلى العفو أقرب ، إنما يراد فراغ القلب للعبادة ولا تتم عبادة مع الكسب الحرام وأكله وإطعامه ، فهكذا ينبغي أن توزن هذه الآفات بالفوائد ويحكم بحسبها ، ومن أحاط بهذا لم يشكك عليه شيء بما نقلنا عن السلف من ترغيب في النكاح مرة ورغبة عنه أخرى ، إذ ذلك بحسب الأحوال صحيح .

• فإن قلت : فمن أمن الآفات فما الأفضل له . التخلي لعبادة الله ، أو النكاح ؟ • فأقول : يجمع بينهما ، لأن النكاح ليس مانعاً من التخلي لعبادة الله من حيث إنه عقد ، ولكن من حيث الحاجة إلى الكسب ، فإن قدر على الكسب الحلال فالنكاح أيضاً أفضل ، لأن الليل وسائر أوقات النهار يمكن التخلي فيه للعبادة ، والمواظبة على العبادة من غير استراحة غير ممكن ، فإن فرض كونه مستغرقاً بالكسب حتى لا يبقى له وقت سوى أوقات المكتوبة والنوم والاكل وقضاء الحاجة ، فإن كان الرجل ممن لا يسلك سبيل الآخرة إلا بالصلاة النافلة أو الحج وما يجري مجراه من الأعمال البدنية فالنكاح له أفضل ، لأن في كسب الحلال والقيام بالأهل والسعى في تحصيل الولد والصبر على أخلاق النساء أنواعاً من العبادات لا يقصر فضلها عن نوافل العبادات وإن كان عبادته بالعلم والفكر وسير الباطن ، والكسب يشوش عليه ذلك ، فترك النكاح أفضل .

• فإن قلت : فلم ترك عيسى عليه السلام النكاح مع فضله ؟ وإن كان الأفضل التخلي لعبادة الله فلم استكثر رسولنا صلى الله عليه وسلم من الأزواج ؟ فاعلم أن الأفضل الجمع بينهما في حق من قدر ومن قوت منته وعلت همته فلا يشغله عن الله شاغل ، ورسولنا عليه السلام أخذ بالقوة ، وجمع بين فضل العبادة والنكاح ، ولقد كان مع تسع من النسوة ^(١) متخلياً لعبادة الله ، وكان قضاء الوطر بالنكاح في حقه غير مانع ، كما لا يكون قضاء الحاجة في حق المشغولين بتدبيرات الدنيا مانعاً لهم عن التدبير ، حتى يشتغلون في الظاهر بقضاء الحاجة وقلوبهم مشغوفة بهمهمهم غير غافلة عن مهماتهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلو درجته لا يمتنعه أمر هذا العالم عن حضور القلب مع الله تعالى ، فكان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته ^(٢) ، ومتى سلم مثل هذا المنصب لغيره فلا يبعد أن يغير السواقي

(١) حديث « جده » صلى الله عليه وسلم بين تسع نسوة » أخرجه البخاري من حديث أنس ، وله من حديثه أيضاً « ومن إحدى عشرة » . (٢) حديث « كان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته » أخرجه البخاري من حديث أنس « بإسالة لا يؤذي في عائشة فانه والله ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها » .

مالا يغير البحر الحضم ، فلا ينبغي أن يقاس عليه غيره . وأما عيسى صلى الله عليه وسلم فإنه أخذ بالحزم لا بالقوة ، واحتاط لنفسه ، ولعل حالته كانت حالة يؤثر فيها الاشتغال بالأهل ، أو يتعذر معها طلب الحلال ، أو لا يتيسر فيها الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة فأثر التخلي للعبادة ، وهم أعلم بأسرار أحوالهم وأحكام أعصارهم في طيب المكاسب وأخلاق النساء ، وما على الناكح من غوائل النكاح وماله فيه ، ومهما كانت الأحوال منقسمة حتى يكون النكاح في بعضها أفضل وتركه في بعضها أفضل ؛ فحقنا أن نزل أفعال الأنبياء على الأفضل في كل حال والله أعلم .

الباب الثاني : فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشرط العقد

أما العقد فأركاناه وشرطه لينعقد ويفيد الحل أربعة : (الأول) إذن الولي ؛ فإن لم يكن فالسلطان (الثاني) رضا المرأة إن كانت ثيبا بانغا أو كانت بكرا بالغا ، ولكن يزوجه غير الأب والحد (الثالث) حضور شاهدين ظاهري العدالة ، فإن كانا مستورين حكنا بالانقضاء للحاجة (الرابع) إيجاب وقبول متصل به بلفظ الإنكاح أو التزويج أو معناهما الخاص بكل لسان من شخصين مكلفين ليس فيهما امرأة ، سواء كان هو الزوج أو الولي أو وكيلهما .
وأما آدابه . فتقديم الخطبة مع الولي لاني حال عدة المرأة ، بل بعد انقضائها إن كانت معتدة ، ولاني حال سبق غيره بالخطبة ، إذ نهى عن الخطبة على الخطبة ^(١) . ومن آدابه . الخطبة قبل النكاح ، ومزج التحميد بالإيجاب والقبول فيقول المزوج : الحمد لله والصلاة على رسول الله زوجتك ابنتي فلانة . ويقول الزوج : الحمد لله والصلاة على رسول الله قبلت نكاحها على هذا الصداق . وليكن الصداق معلوما خفيفا ، والتحميد قبل الخطبة أيضا مستحب . ومن آدابه . أن يلتقي أمر الزوج إلى سمع الزوجة وإن كانت بكرا فذلك أخرى وأولى بالآلفة ؛ ولذلك يستحب النظر إليها قبل النكاح فإنه أخرى أن يؤدم بينهما . ومن الآداب : إحصار جمع من أهل الصلاح زيادة على الشاهدين اللذين هما ركنان للصحة ، ومنها : أن ينوى بالنكاح إقامة السنة وغض البصر وطلب الولد وسائر الفوائد التي ذكرناها ، ولا يكون قصده مجرّد الهوى والتمتع ، فيصير عمله من أعمال الدنيا ، ولا يمنع ذلك هذه النيات ، فرب حق يوافق الهوى . قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إذا وافق الحق الهوى فهو الزبد بالنرسيان ، ولا يستحيل أن يكون كل واحد من حفظ النفس وحق الدين باعثا معا ، ويستحب أن يعقد في المسجد وفي شهر شوال . قالت عائشة رضي الله عنها : تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال ، وبني بي في شوال ^(٢) .

وأما المنكوحة فيعتبر فيها نوعان : أحدهما للحل . والثاني لطيب المعيشة وحصول المقاصد :

النوع الأول ما يعتبر فيها للحل : وهو أن تكون خلية عن موانع النكاح والموانع تسعة عشر : (الأول) أن تكون منكوحة للغير (الثاني) أن تكون معتدة للغير سواء كانت عدة وفاة أو طلاق أو وطء شبهة أو كانت في استبراء وطء عن ملك يمين (الثالث) أن تكون مرتدة عن الدين لجريان كلمة على لسانها من كلمات الكفر (الرابع) أن تكون مجوسية (الخامس) أن تكون وثنية أو زنديقة لا تنسب إلى نبي وكتاب ومنهن المعتقدات لمذهب الإباحة فلا يحل نكاحهن وكذلك كل معتقدة مذهب فاسدا يحكم بكفر معتقده (السادس) أن تكون كسائية قد دانت بدينهم بعد التبديل أو بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فليست من نسب بني إسرائيل ، فإذا عديمت كلتا الخصلتين

الباب الثاني : فيما يراعى حالة العقد

(١) حديث النهي عن الخطبة على الخطبة : متفق عليه من حديث ابن عمر ، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله وبأذن له . (٢) حديث عائشة : تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال وبني أبي في شوال . رواه مسلم .

لم يحل نكاحها ، وإن عدمت النسب فقط ففيه خلاف (السابع) أن تكون رقيقة والنكاح حزا قادرا على طول الحرة أو غير خائف من العنت ، (الثامن) أن تكون كلها أو بعضها مملوكا للنكاح ملك يمين (التاسع) أن تكون قريبة للزوج بأن تكون من أصوله أو فصوله ، أو من أول أصوله ، أو من أول فصل من كل أصل بعده أصل ، وأغنى بالأصول : الأمهات والجدات ، وبفصوله : الأولاد والأحفاد ، وبفصول أول أصوله : الإخوة وأولادهم ، وبأول فصل من كل أصل بعده أصل : العمات والخالات دون أولادهن (العاشر) أن تكون محترمة بالرضاع ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب من الأصول والفصول كما سبق ، ولكن المحرم خمس رضعات وما دون ذلك لا يحرم (الحادى عشر) المحرم بالمصاهرة : وهو أن يكون النكاح قد نكح ابنتها أو جدتها أو ملك يعقد أو شبهة عقد من قبل ، أو وطن بالشبهة في عقد أو وطئ أمها أو إحدى جداتها بعقد أو شبهة عقد ؛ فجرد العقد على المرأة يحرم أمهاتها ، ولا يحرم فروعهما إلا بالوطء ، أو يكون قد نكحها أبوه أو ابنه قبل (الثانى عشر) أن تكون المنكوحه خامسة أى يكون تحت النكاح أربع سواها إما في نفس النكاح أو في عدة الرجعة ، فإن كانت في عدة بينونة لم تمنع الخامسة . (الثالث عشر) أن يكون تحت النكاح أختها أو عمتها أو خالتها ، فيكون بالنكاح جامعا بينهما ، وكل شخصين بينهما قرابة لو كان أحدهما ذكرا والآخرة أثنى لم يحز بينهما النكاح ، فلا يجوز أن يجمع بينهما (الرابع عشر) أن يكون هذا النكاح قد طلقها ثلاثا فهي لا تحل له مالم يطأها زوج غيره في نكاح صحيح (الخامس عشر) أن يكون النكاح قد لاعنها فإنها تحرم عليه أبدا بعد اللعان (السادس عشر) أن تكون محرمة بحج أو عمرة أو كان الزوج كذلك فلا ينكحها إلا بعد تمام التحلل (السابع عشر) أن تكون ثيبا صغيرة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ . (الثامن عشر) أن تكون يتيمة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ (التاسع عشر) أن تكون من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن توفى عنها أو دخل بها فإنهن أمهات المؤمنين وذاتك لا يوجد في زماننا ؛ فهذه هي الموانع المحترمة .

أما الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده ثمانية : الدين ، والخلق ، والحسن ، وخفة المهر ، والولادة ، والبكارة ، والنسب ، وأن لا تكون قرابة قريبة (الأولى) أن تكون سالحة ذات دين ، فهذا هو الأصل وبه ينبغي أن يقع الاعتناء ، فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها و فرجها أزرت بزوجه وسودت بين الناس وجهه وشوشت بالغيرة قلبه وتنقص بذلك عيشه ، فإن سلك سبيل الحية والغيرة لم يزل في بلاء ومحنة ؛ وإن سلك سبيل التساهل كان متهاونا بدينه وعرضه ومنسوبا إلى قلة الحية والألفة ، وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشد ، إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها ، ويكون كالذى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله إن لى امرأة لا ترد يد لامس . قال : طلقها ؛ فقال : لى أحبها . قال : أمسكها^(١) وإنما أمره بأمسكها خوفا عليه بأنه إذا طلقها أتبعها نفسه وفسد هو أيضا معها ؛ فرأى ما فى دوام نكاحه من دفع الفساد عنه من ضيق قلبه أولى ، وإن كانت فاسدة الذين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشا معه . فإن سكت ولم ينكره كان شريكا في المعصية بخالفا لقوله تعالى ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ وإن أنكره وخاصم تنقص العمر ، ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحريض على ذات الدين فقال : تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها

(١) حديث « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن لى امرأة لا ترد يد لامس ، قال : طلقها ... الحديث » رواه أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس ؛ قال النسائي : ليس بثابت ، والمرسل أولى بالصواب . وقال أحمد : حديث منكر ، وذكره ابن الجوزى في الموضوعات .

ودينها فعليك بذات الدين تربت يداك^(١) ، وفي حديث آخر « من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم جمالها ومالها ، ومن نكحها لدينها رزقه الله مالها وجمالها^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يريدها ، ولا لمالها فلعل مالها يطفئها » وانكح المرأة لدينها^(٣) ، وإنما بالغ في الحث على الدين لأن مثل هذه المرأة تكون عوناً على الدين ؛ فأما إذا لم تكن متدينة كانت شاغلة عن الدين ومشوشة له . (الثانية) حسن الخلق ، وذلك أصل مهم في طلب الفراغة والاستعانة على الدين : فإنها إذا كانت سليطة بذية اللسان سيئة الخلق كافرة للنعم ، كان الضرر منها أكثر من النفع ، والصبر على لسان النساء بما يمتحن به الأولياء . قال بعض العرب . لا تنكحوا من النساء ستة : لا أنانة . ولا منانة ، ولا حنافة ؛ ولا تنكحوا حنافة : ولا براقة ، ولا شذافة . أما الأنانة فهي التي تكثر الأنين والتشكي وتعصب رأسها كل ساعة ؛ فنكاح الممرضة أو نكاح المتأرضة لا خير فيه ، والمنانة : التي تمن على زوجها فتقول : فعلت لاجلك كذا وكذا ، والحنافة : التي تحن إلى زوج آخر أو ولدها من زوج آخر ، وهذا أيضا بما يجب اجتنابه ، والحنافة : التي ترى إلى كل شيء بحدة فتشبهه وتكلف الزوج شراؤه ، والبراقة تحتل معنيين : أحدهما أن تكون طول النهار في تصقيل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق يحصل بالصنع ، والثاني أن تغضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها وتستقل نصيبها من كل شيء ، وهذه لغة يمانية يقولون : برقت المرأة وبرق الصبي الطعام إذا غضب عنده ، والشذافة : المتشدقة بالكثيرة الكلام ، ومنه قوله عليه السلام « إن الله تدمي يبخض الثرائين المتشدين^(٤) » ، وحكى أن السامع الأزدي لقي إلياس عليه السلام في سياحته فأمره بالتزوج ونهاه عن التبتل ، ثم قال لا تنكح أربعا : المختلة ، والمبارية ، والعاهرة ، والناشر ، فأما المختلة : فهي التي تطلب الخلع كل ساعة من غير سبب ، والمبارية : المباهية بغيرها المفاخرة بأسباب الدنيا ، والعاهرة : الفاسقة التي تعرف بخليل وخدن وهي التي قال الله تعالى ﴿ ولا متخذات أخدان ﴾ والناشر : التي تعلو على زوجها بالفعال والمقال . والنشر : العالي من الأرض ، وكان على رضى الله عنه يقول : شر خصال الرجال خير خصال النساء . البخل ، والزهو والجبن ؛ فإن المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها ، وإذا كانت مزهوة استنكفت أن تكلم كل أحد بكلام لين مريب وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء فلم تخرج من بيتها واتقت مواضع التهمة خيفة من زوجها ؛ فهذه الحكايات ترشد إلى مجامع الأخلاق المطلوبة في النكاح . (الثالثة) حسن الوجه ؛ فذلك أيضا مطلوب ، إذ به يحصل التحصن والطبع لا يكتفى بالدسمة غالبا ، كيف والغالب أن حسن الخلق والخلق لا يفترقان . وما نقلناه من الحث على الدين وأن المرأة لا تنكح لجمالها ليس زاجر عن رعاية الجمال ، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين ؛ فإن الجمال وحده في غالب الأمر يرغب في النكاح ويهون أمر الدين ويدل على الالتفات إلى معنى الجمال أن الالفة والمودة تحصل به غالبا وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الالفة ولذلك استحسب النظر فقال « إذا أوقع الله في نفس

(١) حديث « تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها ، فعليك بذات الدين » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث « من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها . الحديث » رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس « من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزد الله إلا فقرا ، ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يفض بصره ويحسب فرجه أو يصل رحمه بآرك الله له فيها وباركها فيه » ورواه ابن حبان في الضعفاء . (٣) حديث « لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يريدها » أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف . (٤) حديث « إن الله يبخض الثرائين المتشدين » رواه الترمذي وحسنه من حديث جابر « وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني يوم القيامة الثرائون والمتفهبون » ولأبي داود والترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن عمرو « إن الله يفض البليغ من الرجال الذي يتخال بلسانه تخلل البقرة بلسانها » .

أحدكم من امرأة فليُنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما^(١) ، أى يؤلف بينهما ، من وقوع الأدمة على الأدمة : وهى الجلدة الباطنة . والبشرة ، الجلدة الظاهرة . وإنما ذكر ذلك للبالغة فى الائتلاف . وقال عليه الصلاة والسلام : إن فى أعين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فليُنظر إليهن^(٢) ، قيل كان فى أعينهن عشم . وقيل : صغر ، وكان بعض الورعين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور . قال الأعمش . كل تزويج يقع على غير نظر فأخره هم وغم . ومعلوم أن النظر لا يعرف الخلق والدين والمال ، وإنما يعرف الجلال من القبح . وروى أن رجلاً تزوج على عهد عمر رضى الله عنه وكان قد خضب فوصل خضابه ، فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا : حسبناء شاباً : فأوجعه عمر ضرباً وقال : غررت القوم : وروى أن بلالاً وصهبياً أتيا أهل بيت من العرب فخطبا إليهم فقيل لهما ، من أنتما فقال بلال : أنا بلال وهذا أخى صهيب ، كنا ضالين فهدانا الله وكنا عاكفين فاعتقنا الله ، وكنا عاتلين فأغنانا الله ؛ فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فسيحان الله ، فقالوا بل تزوجا والحمد لله . فقال صهيب : لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اسكت فقد صدقت فأحكك الصدق . والغرور يقع فى الجلال والخلق جميعاً فيستحب إزالة الغرور فى الجلال بالنظر ، وفى الخلق بالوصف والاستيصال فينبغى أن يقدم ذلك على النكاح ، ولا يستوصف فى أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن ولا يميل إليها فيفرط فى الثناء ، ولا يحسدها فيقصر ، فالطباع مائلة فى مبادئ النكاح ووصف المتكسحات إلى الإفراط والتفريط ، وقل من يصدق فيه ويقتصد ، بل الخداع والإغراء أغلب ، والاحتياط فيه مهم لمن يخشى على نفسه التشوف إلى غير زوجته . فأما من أراد من الزوجة مجرد السنة أو الولد أو تدبير المنزل ، فلو رغب عن الجلال فهو إلى الزهد أقرب لأنه على الجملة باب من الدنيا وإن كان قد يعين على الدين فى حق بعض الأشخاص . قال أبو سليمان الداراني : الزهد فى كل شيء حتى فى المرأة يتزوج الرجل العجوز لإثارة الزهد فى الدنيا . وقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول . يترك أحدكم أن يتزوج بليمة فيؤجر فيها إن أطعمها وكساها تكون خفيفة المؤنة ترضى باليسير ويتزوج بنت فلان وفلان يعنى أبناء الدنيا فتشتم عليه الشهوات وتقول اكسنى كذا وكذا ! واختار أحد بن خبل عوراء على أختها وكانت أختها جميلة ، فسأل : من أعتقهما ؟ فقيل : العوراء ، فقال : زوجوني إياها ، فهذا دأب من لم يقصد التمتع ، فأما من لا يأمن على دينه مالم يكن له مستمتع فليطلب الجمال ، فالتلذذ بالمباح حصن للدين . وقد قيل : إذا كانت المرأة حسناء خيرة الأخلاق سوداء الحدقة والشعر كبيرة العين بيضاء اللون محبة لزوجها قاصرة الطرف عليه فهى على صورة الحور العين ؛ فإن الله تعالى وصف نساء أهل الجنة بهذه الصفة فى قوله ﴿ خيرات حسان ﴾ أراد بالخيرات حسنات الأخلاق ، وفى قوله ﴿ قاصرات الطرف ﴾ وفى قوله ﴿ عرباً آراباً ﴾ العروب : هى العاشقة لزوجها المشتبهة للوقوع وبه تتم اللذة والحوار : البياض والحواراء : شديدة بياض العين شديدة سوادها فى سواد الشعر والعيناء الواسعة العين . وقال عليه الصلاة والسلام : خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرتة وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله^(٣) ، وإنما يسر بالنظر إليها إذا كانت محبة للزوج (الرابعة) أن تكون خفيفة المهر .

(١) حديث « إذا أوقع الله فى نفس أحدكم من امرأة فليُنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما » أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف من حديث أحمد بن مسleme دون قوله « فإنه أحرى » وللمزمذ وحسنه والنسائى وابن ماجه من حديث المنيرة بن شعبة : أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » (٢) حديث « ان فى أعين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فليُنظر إليهن » رواه مسلم من حديث أبى هريرة نحوه . (٣) حديث « خير نسائكم التى إذا نظر إليها زوجها سرتة ، وإن أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله » أخرجه النسائى من حديث أبى هريرة نحوه بسند صحيح وقال « ولا تخافه فى نفسها ولا مالها » وعند أحمد « فى نفسها وماله » ولأبى داود نحوه من حديث ابن عباس بسند صحيح .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا ^(١) ، وقد نهى عن المغالاة في المهر ^(٢) تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نساؤه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان رحي يدوجرة ووسادة من آدم حشوها ليف ^(٣) ، وأولم على بعض نساؤه بمدين من شعير ^(٤) ، وعلى أخرى بمدين من تمر ومدين من سويق ^(٥) ، وكان عمر رضى الله عنه ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول : ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم ^(٦) ، ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تزوج بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على نواة من ذهب قيمتها خمسة دراهم ^(٧) وزوج سعيد بن المسيب ابنته من أبي هريرة رضى الله عنه على درهمين ، ثم حملها هو إليه ليلا فأدخلها هو من الباب ثم انصرف ، ثم جاءها بعد سبعة أيام فسلم عليها ولو تزوج على عشرة دراهم للخروج من خلاف العلماء فلا بأس به . وفي الخبر « من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها ، أى الولادة » ويسر مهرها ^(٨) ، وقال أيضا « أبركهن أقلهن مهرا ^(٩) » وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة فيسكره السؤال عن مالها من جهة الرجل . ولا ينبغي أن ينكح طمعا في المال . قال الثوري : إذا تزوج وقال : أى شيء للمرأة ، فأعلم أنه لص ، وإذا أهدى إليهم فلا ينبغي أن يهدى ليضطرهم إلى المقابلة بأكثر منه ، وكذلك إذا أهدوا إليه فنية طلب الزيادة نية فاسدة ؛ فأما التهادى فمستحب وهو سبب المودة . قال عليه السلام « تهادوا تحابوا » ^(١٠) ، وأما طلب الزيادة فداخل في قوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أى تعطى لتطلب أكثر ، وتحت قوله تعالى (وما آتيتكم من ربا ليروا في أموال الناس) فإن الربا هو الزيادة ، وهذا طلب زيادة على الجلة ، وإن لم يكن في الأموال الربوية فكل ذلك مكروه وبدعة في النكاح يشبه التجارة والقمار ويفسد مقاصد النكاح . (الخامسة) أن تكون المرأة ولودا ؛ فإن عرفت بالعقر فليمتنع عن تزويجها . قال عليه السلام « عليكم

(١) حديث « خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا » أخرجه ابن حبان من حديث ابن عباس « خيرهن أسبرهن صداقا » وله من حديث عائشة « من يمن المرأة تسهيل أمرها وقلة صداقها » وروى أبو عمر التوفاني في كتاب معاشر الأهلين « إن أعظم النساء بركة أصبحن وجوها وأقلهن مهرا » وصححه .

(٢) حديث « النهى عن المغالاة في المهر » رواه أصحاب السنن الأربعة موقفا على عمر وصححه الترمذى . (٣) حديث « تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نساؤه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان رحي يدوجرة ووسادة من آدم حشوها ليف » رواه أبو داود الطيالسي والبخاري من حديث أنس : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة على متاع بيت قيمته عشرة دراهم . قال البخاري : ورأيت في موضع آخر تزويجها على متاع بيت ورحى قيمته أربعون درهما . ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد وكلاهما ضعيف . ولا أحد من حديث علي لما تزوجه فاطمة بنت معها بخيلة ووسادة آدم حشوها ليف ورحيتين وسقاء وجرتين « ورواه الحاكم وصححه إسناده ، وابن حبان مختصرا . (٤) حديث « أولم على بعض نساؤه بمدين من شعير » أخرجه البخاري من حديث عائشة . (٥) حديث « وأولم على أخرى بمدى تمر ومدى سويق » رواه الأربعة من حديث أنس : أولم على صفية بسويق وتمر . ولمسلم : لجعل الرجل يحس بفضل التمر وفصل السويق . وفي الصحيحين : التمر والأقط والسمن ، وليس على شيء من الأصول تهديد التمر والسويق بمدين . (٦) حديث : كان عمر ينهى عن المغالاة ويقول : ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم . رواه الأربعة من حديث عمر . قال الترمذى : حسن صحيح .

(٧) حديث . تزوج بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على وزن نواة من ذهب يقال قيمتها خمسة دراهم . متفق عليه من حديث أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج على ذلك وتقوعها بخمسة دراهم . رواه البيهقي . (٨) حديث « من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها » أى الولادة وتيسر مهرها . رواه أحمد والبيهقي من حديث عائشة « من يمن المرأة أن تيسر خيلتها وأن يتيسر صداقها وأن يتيسر رحمها » قال عروة : يعنى الولادة ، وإسناده جيد . (٩) حديث « أبركهن أقلهن مهرا » رواه أبو عمر التوفاني في معاشر الأهلين من حديث عائشة « إن أعظم النساء بركة أصبحن وجوها وأقلهن مهرا » وقد تقدم ، ولا أحد والبيهقي « إن أعظم النساء بركة أسبرهن صداقا » وإسناده جيد .

(١٠) حديث « تهادوا تحابوا » أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد ، والبيهقي من حديث أبي هريرة بسند جيد .

بالولود الودود ^(١) فإن لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فيراعى صحتها وشبابها ، فإنها تكون ولودا في الغالب مع هذين الوصفين (السادسة) أن تكون بكرأ قال عليه السلام لجابر : وقد نكح ثيباً « هلا بكرأ تلاعبها وتلاعبك » ^(٢) ، في البكارة ثلاث فوائد ، إحداهما : أن تحب الزوج وتألفه فيؤثر في معنى الود ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالودود » والطباع مجبولة على الأنس بأول مألوف . وأما التي اختبرت الرجال ومارست الأحوال فربما لا ترضى بعض الأوصاف التي تخالف ما ألفتته فتقتل الزوج : الثانية : أن ذلك أكل في مودته لها فإن الطبع ينفر عن التي مسها غير الزوج نفرة ما ، وذلك يشغل على الطبع مهما يذكر وبعض الطباع في هذا أشد نفورا . الثالثة : أنها لا تنجس إلى الزوج الأول وأكد الحب ما يقع مع الحبيب الأول غالباً . (السابعة) أن تكون نسبية أعنى أن تكون من أهل بيت الدين والصالح فإنها ستربي بناتها وبنيها ، فإذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية ، ولذلك قال عليه السلام « إياكم وخضراء الدمن » ، فقيل : ما خضراء الدمن : قال « المرأة الحسناء في المنبت السوء » ^(٣) ، وقال عليه السلام تخبروا لنطفكم فإن العرق نزاع ^(٤) ، الثامنة : أن لا تكون من القرابة القريبة : فإن ذلك يقلل الشهوة : قال صلى الله عليه وسلم « لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاوياً » ^(٥) ، أى نحيفاً ، وذلك لتأثيره في تضعيف الشهوة ، فإن الشهوة إنما تنبعث بقوة الإحساس بالنظر واللبس وإنما يقوى الإحساس بالأمر الغريب الجديد ، فأما المعهود الذي دام النظر إليه مدة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ولا تنبعث به الشهوة ، فهذه هي الحصال المرغوبة في النساء ، ويجب على الولي أيضاً أن يراعى خصال الزوج ولينظر لكريمته فلا يزوجها من ساء خلقه أو خلقه ، أو ضعف دينه ، أو قصر عن القيام بحقوقها أو كان لا يكافئها في نسبها ، قال عليه السلام « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته » ^(٦) ، والاحتياط في حقها أهم لأنها رقيقة بالنكاح لا يخلص لها ، والزوج قادر على الطلاق بكل حال ، ومهما زوج ابنته ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو شارب خمر فقد جنى على دينه وتعرض لسخط الله لما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار . وقال رجل للحسن : قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوجها ؟ قال ، بمن يتقى الله ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها . وقال عليه السلام « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها » ^(٧) .

- (١) حديث « عليكم بالودود الولود » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار « تزوجوا الودود الولود » وإسناده صحيح . (٢) حديث قال لجابر وقد نكح ثيباً « هلا بكرأ تلاعبها وتلاعبك » متفق عليه من حديث جابر . (٣) حديث « إياكم وخضراء الدمن » ؛ فقيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء » رواه الدارقطني في الأفراد ، والرامهرمزي في الأمثال من حديث أبي سعيد الخدري ، قال الدارقطني : تفرد به الواقدي وهو ضعيف . (٤) حديث « تخبروا لنطفكم فإن العرق نزاع » رواه ابن ماجه من حديث عائشة مختصراً دون قوله « فإن العرق » وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس « تزوجوا الحجار الصالح فإن العرق دساس » وروى أبو موسى المديني في كتاب تضييع العمر والأيام من حديث ابن عمر « وانظر في أى نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس » وكلاهما ضعيف . (٥) حديث « لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاوياً » قال ابن الصلاح : لم أجده أصلاً معتقداً . قلت : إنما يحرف من قول عمر أنه قال لآل السائب « قد أضويتم فانكحوا في النواصي » رواه إبراهيم الحربي في غريب الحديث . وقال : معناه تزوجوا الغرباء قال : ويقال : اغربوا لا تنصوا . (٦) حديث « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته » رواه أبو عمر التوفاني في معاشرة الأهلين موقفاً على عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر . قال البيهقي . وروى ذلك مرفوعاً والموقوف أصبح (٧) حديث « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها » رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أنس ، ورواه في الثقات من قول الذهبي بإسناده صحيح .

الباب الثالث: في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح

والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة . أما الزوج فعليه مراعاة الاعتدال والآداب في اثني عشر أمرا : في الوليمة ، والمعاشرة ، والدعابة ، والسياسة ، والغيرة . والنفقة ، والتعليم ، والقسم ، والتأديب في النشوز ، والوقاع ، والولادة ، والمفارقة بالطلاق .

الأدب الأول : الوليمة ، وهي مستحبة ، قال أنس رضي الله عنه : « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أثر صفرة فقال « ما هذا » فقال . تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب . فقال « بارك الله لك » أولم ولو بشاة ^(١) « وأولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية بتمر وسويق ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم « طعام أول يوم حق ، وطعام الثاني سنة ، وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع سمع الله به ^(٣) » ولم يرفعه إلا زياد بن عبد الله وهو غريب . وتستحب تهنيئة فيقول من دخل على الزوج : بارك الله لك وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير ^(٤) . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام أمر بذلك ، ويستحب إظهار النكاح . قال عليه السلام ، فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت ^(٥) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف ^(٦) » وعن الربيع بنت معوذ قالت « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل غداة بني بن فجلس على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفهن ويندن من قتل من آبأى إلى أن قالت إحداهن « وفينا نبي يعلم ما في غد » فقال لها : اسكتي عن هذه وقولي الذي كنت تقولين قبلها ^(٧) » .

الأدب الثاني . حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن ترحا عليهن لقصور عقلمن . وقال الله تعالى ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ وقال في تعظيم حقهن ﴿ وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾ وقال ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ قيل هي المرأة وآخر ما وصي به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه : جعل يقول : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهن مالا يطيقون . الله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم - يعني أسرا - أخذتموهن بأمانة الله واستحلتم فروجهن بكلمة الله ^(٨) » ، وقال عليه السلام « من صبر على سوء خلق امرأته

الباب الثالث : في آداب المعاشرة

(١) حديث أنس : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف أثر الصفرة فقال : « هذا ؟ » قال : تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب ، فقال « بارك الله لك » ، أولم ولو بشاة « متفق عليه » (٢) حديث « أولم على صفية بسويق وتمر » رواه الأربعة من حديث أنس ، ولمسلم نحوه وفيه تقدم (٣) حديث « طعام أول يوم حق ، وطعام الثاني سنة ، وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع سمع الله به » قال المصنف : لم يرفعه إلا زياد بن عبد الله . قلت . هكذا قال الترمذي بعد أن أخرجه من حديث ابن مسعود وضعفه (٤) حديث أبي هريرة في تهنيئة الزوج « بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير » رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وتقدم في الدعوات (٥) حديث « فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت » رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث محمد بن حاطب (٦) حديث « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدف » رواه الترمذي من حديث عائشة وحسنه وضعفه البيهقي (٧) حديث الربيع بنت معوذ : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على غداة بني بن فجلس على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفوفهن ... الحديث ، رواه البخاري وقال . يوم بدروقع في بعض نسخ الإحياء : يوم بسات ، وهو وهم .

(٨) حديث « آخر ما أوصي به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث : كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه ، جعل يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهن مالا يطيقون ، الله الله في النساء فإنهن عوان عندكم ... الحديث » أخرجه النسائي في الكبرى ، وابن ماجه من حديث أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الموت جعل يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » فما زال يقولها وما يقبض بها لسانه ، وأما الوصية بالنساء فالمعروف أن ذلك كان في حجة الوداع . رواه مسلم من حديث جابر الطويل ، وفيه . « فاهوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ... » الحديث

أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ، ومن ضبرت على سوء خلق زوجها أعطاه الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون ^(١) . وأعلم أنه ليس حسن الخلق معها كفى الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانت أزواجه تراجعته بالكلام ، وتهجره الواحدة منهن يوما إلى الليل ^(٢) . وراجعت امرأة عمر رضى الله عنه عمر في الكلام فقال أتراجعيني بالكلام ؟ فقالت : إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك ^(٣) ؛ فقال عمر : خابت حفصة وخسرت إن راجعته ؛ ثم قال لحفصة . لا تغترى بآبنة ابن أبي قحافة فإنها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفها من المراجعة . وروى أنه دفعت لإحدها في صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها ، فقال عليه السلام : دعها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك ^(٤) . وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلها بينهما أبا بكر رضى الله عنه حكما واستشهده ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمين أو أتكلم فقالت بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقا ، فطمعها أبو بكر حتى دى فوها وقال : يا عادية نفسها ، أويقول غير الحق ! فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا ^(٥) . وقالت له مرة في كلام غضبت عنده : أنت الذى تزعم أنك نبي الله ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتمل ذلك حلما وكما ^(٦) . وكان يقول لها « إني لأعرف غضبك من رضاك » قالت : وكيف تعرفه ؟ قال « إذا رضيت قلت لا وإله محمد ، وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم » قالت : صدقت إنما أجهز اسمك ^(٧) ، ويقال إن أول حب وقع في الإسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها ^(٨) . وكان يقول لها : كنت لك كأبي زرع لأم زرع ، غير أني لا أطلقك ^(٩) ، وكان يقول لنسائه « لا تؤذوني في عائشة » فإنه والله ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منك غيرها ^(١٠) ، وقال أنس رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان ^(١١) .

(١) حديث « من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ... الحديث » لم أقف له على أصل (٢) حديث : كان أزواجه صلى الله عليه وسلم يراجعنه الحديث وتهجره الواحدة منهن يوما إلى الليل . متفق عليه من حديث عمر في الحديث الطويل في قوله تعالى (فان تظاهرا عليه)

(٣) حديث : وراجعت امرأة عمر عمر في الكلام فقال : أتراجعيني بالكلام ؟ قالت : إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك . الحديث ، هو الحديث الذى قبله وليس فيه قوله : بالكلام ، ولا قولها : هو خير منك .

(٤) حديث : دفعت لإحدها في صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها ، فقال صلى الله عليه وسلم « دعها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك » لم أقف له على أصل (٥) حديث : جرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخل بينهما أبا بكر حكما ... الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط والحطيب في التاريخ من حديث عائشة بسند ضعيف (٦) حديث : قالت لعائشة مرة غضبت عنده : وأنت الذى تزعم أنك نبي ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه أبو يعلى في مسنده وأبو الشيخ في كتاب الأمثال من حديث عائشة ، وفيه ابن اسحق وقد عنفنه .

(٧) حديث : كان يقول لعائشة « إني لأعرف غضبك من رضاك ... الحديث » متفق عليه من حديثها . (٨) حديث « أول حب وقع في الإسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة » رواه البيهقي من حديث عمرو بن العاص أنه قال : أى الناس أحب إليك يا رسول الله ؟ قال « عائشة ... الحديث » وأما كونه أول فرواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أنس ، ولعله أراد بالمدينة كما في الحديث الآخر أن ابن الزبير أول مولود ولد في الإسلام بريد بالمدينة ، وإلا فحجة النبی صلى الله عليه وسلم بالحديجة أمر معروف تشهد له الأحاديث الصحيحة (٩) حديث : كان يقول لعائشة « كنت لك كأبي زرع لأم زرع غير أني لا أطلقك » متفق عليه من حديث عائشة دون الاستثناء ، ورواه بهذه الزيادة الزبير بن بكار والحطيب . (١٠) حديث « لا تؤذوني في عائشة فإنه والله ما أنزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منك غيرها » رواه البخاري من حديث عائشة . (١١) حديث أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان . رواه مسلم بالفظ . مارأيت أحدا كان أرحم بالعباد من رسول الله صلى الله عليه وسلم زاد على بن عبد العزيز والبيهقي : والصبيان .

الثالث : أن يريد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزاح والملاعبة ؛ فهي التي تطيب قلوب النساء ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق ، حتى روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يسابق عائشة في العدو فسبقته يوما ، وسبقها في بعض الأيام ، فقال عليه السلام « هذه بتلك » ^(١) . وفي الخبر : أنه كان صلى الله عليه وسلم من أفكه الناس مع نسائه ^(٢) . وقالت عائشة رضي الله عنها « سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء ؛ فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتجبن أن ترى لعبهم قالت قلت نعم ، فأرسل إليهم فجاءوا ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين ، فوضع كفه على الباب ومد يده ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وأنظر ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حسبك » وأقول اسكت مرتين أو ثلاثا ، ثم قال « يا عائشة حسبك » فقلت نعم ، فأشار إليهم فأنصرفوا ^(٣) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » ^(٤) ، وقال عليه السلام « خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي » ^(٥) ، وقال عمر رضي الله عنه مع خشوته : يلغى للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي ؛ فإذا التمسوا ماعنده وجد رجلا . وقال لقمان رحمه الله : ينبغي للعقل أن يكون في أهله كالصبي ، وإذا كان في القوم وجد رجلا . وفي تفسير الخبر المروي « إن الله يبغض الجعظري الجواظ » ^(٦) ، قيل هو الشديد على أهله المتكبر في نفسه ؛ وهو أحد ما قيل في معنى قوله تعالى ﴿ عتِل ﴾ قيل العتل : هو الفظ للسان الغليظ القلب على أهله . وقال عليه السلام لجابر « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك » ^(٧) ، ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت : والله لقد كان ضحوكا إذا ولج سكينتا إذا خرج ، آكلا ما وجد . غير مسائل عما فقد .

الرابع : أن لا يتبسط في الدعابة وحسن الخلق والمواظقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيئته عندها ، بل يراعى الاعتدال فيه فلا يدع الهيبة والانتقاض مهما رأى منكرا ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة ، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تتمر وامتنع . قال الحسن : والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبه الله في النار . وقال عمر رضي الله عنه : خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة . وقد قيل : شاوروهن وخالقوهن . وقد قال عليه السلام « تمس عبد الزوجة » ^(٨) ، وإنما قال ذلك لأنه إذا أطاعها في هواها فهو عبدها

(١) حديث مسابقتها صلى الله عليه وسلم لعائشة فسبقته ثم سبقها وقال « هذه بتلك » رواه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث عائشة بسند صحيح .

(٢) حديث : كان من أفكه الناس مع نسائه . رواه الحسن بن سفيان في مسنده من حديث أنس دون قوله : مع نسائه . ورواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط فقالا : مع صبي . وفي إسناده ابن لهيعة . (٣) حديث عائشة : سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون يوم عاشوراء فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتجبن أن ترى لعبهم » الحديث ، متفق عليه مع اختلاف دون ذكر يوم عاشوراء ، وإنما قال : يوم عيد ، ودون قولها : اسكت . وفي رواية للنسائي في الكبرى : قلت : لا تعجل ، صهين . وفيه فقال : يا جبراء ، وسنده صحيح . (٤) حديث « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » رواه الترمذي والنسائي واللفظ له ، والحاكم وقال : رواه ثقات على شرط الشيخين . (٥) حديث « خياركم خيركم للنساء وأنا خيركم للنسائي » أخرجه الترمذي وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله « وأنا خيركم للنسائي » وله من حديث عائشة وصححه « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » .

(٦) حديث « إن الله يبغض الجعظري الجواظ » رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بسند ضعيف ، وهو في الصحيحين من حديث جارية بن وهب الخزاعي بلفظ « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » ولأبي داود « لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري » (٧) حديث قال لجابر « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك » متفق عليه من حديثه ، وقد تقدم (٨) حديث « تمس عبد الزوجة » لم أقب له على أصل ، والمعروف « تمس عبد الدينار وعبد الدرهم ... الحديث » رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

وقد تعس فإن الله ملكه المرأة فلعلها نفسه فقد عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً ، وقد سمي الله الرجال قوامين على النساء وسمى الزوج سيدياً ، فقال تعالى ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ فإذا انقلب السيد مستخراً فقد بدل نعمة الله كفراً ، ونفس المرأة على مثال نفسك : إن أرسلت عنانها قليلاً جمحت بك طويلاً ، وإن أرخيت عذارها فتراها جذبتك ذراعاً ، وإن كبحتها وشدت يدك عليها في محل الشدة ملكتها . قال الشافعي رضي الله عنه : ثلاثة إن أكرمهم أهانوك وإن أهتمهم أكرموك : المرأة ، والخدام ، والنبطي : أراد به إن محضت الإكرام ولم تمزج غاظك بليتك وفضاظتك برفقك . وكانت نساء العرب يعلمن بناتهن اختبار الأزواج ، وكانت المرأة تقول لابنتها : اختبري زوجك قبل الإقدام والجرامة عليه انزعى زج رمحه ، فإن سكت فقطعي اللحم على ترسه ، فإن سكت فكسري العظام بسيفه ، فإن سكت فاجعلي الإكاف على ظهره وامتطيه فإنما هو حمارك . وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والأرض ، فكل ما جاوز حده انعكس على ضده ، فينبغي أن تسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة وتتبع الحق في جميع ذلك لتسلم من شرهن ، فإن كيدهن عظيم وشرهن فاش ، والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل ، ولا يعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف بمزوج بسياسة . وقال عليه السلام « مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب ^(١) » ، والأعصم يعني الأبيض البطن . وفي وصية لقمان لابنه : يابني اتق المرأة السوء فإنها تشيك قبل الشيب ، واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير ، وكن من خيارهن على حذر . وقال عليه السلام « استعيذوا من الفواق الثلاث ^(٢) » ، وعدمهن المرأة السوء فإنها المشيبة قبل الشيب . وفي لفظ آخر « إن دخلت عليها سبتك ، وإن غبت عنها خانتك » ، وقد قال عليه السلام في خيرات النساء « إنكن صواحب يوسف ^(٣) » ، يعني إن صرفكن أبا بكر عن التقدم في الصلاة ميل منكن عن الحق إلى الهوى . قال الله تعالى حين أفشين سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت وقال ذلك في خير أزواجه ^(٤) ، وقال عليه السلام « لا يفلح قوم تملكتهم امرأة ^(٥) » ، وقد زبر عمر رضي الله عنه امرأته لما راجعته وقال : ما أنت إلا لعبة في جانب البيت إن كانت لنا إليك حاجة وإلا جلست كما أنت ، فإذا فيهن شر وفيهن ضعف ؛ فالسياسة والحشونة علاج الشر ، والمطايبة والرحمة علاج الضعف ، فالطيب الحاذق هو الذي يقدر العلاج بقدر الداء ، فلينظر الرجل أولاً إلى أخلاقها بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها .

الخامس : الاعتدال في الغيرة : وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها ، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنن وتجسس البواطن ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء ^(٦) وفي لفظ آخر :

(٦) حديث « مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب » رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ولأحمد من حديث عمرو بن العاص : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن الظهران ، فإذا بران كثيرة فيها غراب أعصم أحر المقار فقال « لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب في هذه الغراب » وأسناده صحيح ، وهو في السنن الكبرى للنسائي . (٢) حديث « استعيذوا من الفواق الثلاث وعدمهن المرأة السوء فإنها المشيبة قبل الشيب » وفي لفظ آخر « إن دخلت عليها لسبتك ، وإن غبت عنها خانتك » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . واللفظ الآخر رواه الطبراني من حديث فضالة بن عبيد « ثلاث من الفواق : وذكر منها وامرأ أن حضرت آذاك وإن غبت عنها خانتك » وسنده حسن . (٣) حديث « إنكن صواحب يوسف » متفق عليه من حديث عائشة (٤) حديث نزول قوله تعالى ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ في خير أزواجه متفق عليه من حديث عمر ، والمرأان عائشة وحفصة . (٥) حديث « لا يفلح قوم تملكتهم امرأة » رواه البخاري من حديث أبي بكره نحوه . (٦) حديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء رواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر : نهى أن تتطلب عورات النساء ، والحديث عند مسلم بلفظ : نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً =

أن تبغ النساء . ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره قال قبل دخول المدينة « لا تطرقوا النساء ليلا » تخالفه رجلان فسبقا ، فرأى كل واحد في منزله ما يكره ^(١) وفي الخير المشهور « المرأة كالضلع إن قومت كسرت » فدعه تستمتع به على عوج ^(٢) ، وهذا في تهذيب أخلاقها . وقال صلى الله عليه وسلم « إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة ^(٣) ، لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه ، فإن بعض الظن لثم . وقال على رضي الله عنه : لا تكثر الغيرة على أهلك فترى بالسوء من أجلك . وأما الغيرة في محالها فلا بد منها وهي محمودة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يغار والمؤمن يغار وغيرة الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه ^(٤) » وقال عليه السلام « أتعجبون من غيرة سعد أنا والله أغير منه والله أغير مني ^(٥) » ولأجل غيرة الله تعالى حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ولذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب إليه المدح من الله ولأجل ذلك وعد الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أُمرى بي في الجنة قصرا وبفنائها جارية ؛ فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقيل : لعمر ؛ فأردت أن أنظر إليها فذكرت غيرتك يا عمر : فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ^(٦) » وكان الحسن يقول : أتدعون نساءكم ليذاخن العلوج في الأسواق قبض الله من لا يغار ، وقال عليه الصلاة والسلام « إن من الغيرة ما يحببه الله ومنها ما يبغضه الله ، ومن الخيلاء ما يحببه الله ومنها ما يبغضه الله ، فأما الغيرة التي يحبها الله فالغيرة في الريبة ، والغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة ، والاختيال الذي يحبه الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدمة ، والاختيال الذي يبغضه الله الاختيال في الباطل ^(٧) » وقال عليه الصلاة والسلام « إني لغيور ، وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب ^(٨) » ، والطريق المغنى عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال وهي لا تخرج إلى الأسواق . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بنته فاطمة عليها السلام « أى شيء خير للمرأة ؟ » قالت : أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل ، فضمها إليه وقال « ذرية بعضها من بعض ^(٩) » فاستحسن قولها . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستدون الكوى والثقب في الحيطان لئلا تطلع النسوان إلى الرجال . ورأى معاذ امرأته تطلع في الكوة فضرها ، ورأى امرأته قد دفعت إلى غلامه تفاحة قد أكلت منها فضرها . وقال عمر رضي الله عنه : أعروا النساء يلزم الحجال ، وإنما قال ذلك لأنهن لا يرغبن في

= يخونهم أو يطلب عثراتهم واقصر البخارى منه على ذكر النهى عن الطروق ليلا (١) حديث أنه قال قل دخول المدينة « لا تطرقوا أهلكم ليلا » تخالفه رجلان فسبقا إلى منازلهما فرأى كل واحد في بيته ما يكره . رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند جيد . (٢) حديث « المرأة كالضلع إن أردت تحبه كسرت » الحديث « متفق عليه من حديث أبى هريرة (٣) حديث « غيرة يبغضها الله وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة » رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث جابر بن عتيك . (٤) حديث « الله يغار والمؤمن يغار ، وغيرة الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه » متفق عليه من حديث أبى هريرة ولم يقل البخارى : والمؤمن يغار (٥) حديث « أتعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه والله أغير مني ... الحديث » متفق عليه من حديث المنيرة بن شعبة .

(٦) حديث « رأيت ليلة أُمرى بي في الجنة قصرا وبفنائها جارية ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقيل لعمر ... الحديث » متفق عليه من حديث جابر دون ذكر ليلة أُمرى بي ولم يذكر الجارية ، وذكر الجارية في آخر متفق عليه من حديث أبى هريرة « بينما أنا نائم رأيتني في الجنة ... الحديث » (٧) حديث « إن من الغيرة ما يحببه الله تعالى ومنها ما يبغضه الله تعالى ... الحديث » رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث جابر بن عتيك ، وهو الذى تقدم قبله بأربعة أحاديث . (٨) حديث « إني لغيور وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب » تقدم أوله . وأما آخره فرواه أبو عمر التوفاني في كتاب ماثرة الأهلين من رواية عبد الله بن محمد مرسلا ، والظاهر أنه عبد الله بن الحنفية (٩) حديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بنته فاطمة « أى شيء خير للمرأة ؟ » فقالت : أن لا ترى رجلا ... الحديث . رواه البزار والدارقطني في الأفراد من حديث على بسند ضعيف .

الخروج في الهيئة الرثة . وقال عودوا نساءكم ، لا ، وكان قد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء في حضور المسجد ^(١) والصواب الآن المنع إلا العجائز ، بل استصوب ذلك في زمان الصحابة حتى قالت عائشة رضي الله عنها ، لو علم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج ^(٢) . ولما قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » فقال بعض ولده : بلى والله لئلمنعن ، فضربه وغضب عليه وقال تسمعي أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا » فتقول : بلى ^(٣) ، وإنما استجراً على المخالفة لعلبه بتغير الزمان ، وإنما غضب عليه لإطلاقه اللفظ بالمخالفة ظاهراً من غير إظهار العذر ، وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن لمن في الأعياد خاصة أن يخرجن ^(٤) ولكن لا يخرجن إلا برضا أزواجهن ، والخروج الآن مباح للمرأة العفيفة برضا زوجها ولكن القعود أسلم وينبغي أن لا يخرج إلا لمهم ، فإن الخروج للظنارات والأموال التي ليست مهمة تقدر في المروءة وربما تفضي إلى الفساد ، فإذا خرجت فينبغي أن تغض بصرها عن الرجال ، ولسنا نقول إن وجه الرجل في حقها عورة كوجه المرأة في حقها ، بل هو كوجه الصبي الأمرد في حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط ، فإن لم تكن فتنة فلا : إذ لم يزل الرجال على عمر الزمان مكشوفى الوجوه والنساء يخرجن منتقيات ولو كان وجوه الرجال عورة في حق النساء لأمروا بالتنقيب أو منعن من الخروج إلا لضرورة .

السادس : الاعتدال في النفقة فلا ينبغي أن يقتصر عليهن في الإنفاق ، ولا ينبغي أن يسرف ، بل يقتصد . قال تعالى ﴿ وكأوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم خيركم لأهله ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك : أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك ^(٦) » ، وقيل : كان لعلي رضي الله عنه أربع نسوة ، فكان يشتري لكل واحدة في كل أربعة أيام لحماً بدرهم ، وقال الحسن رضي الله عنه : كانوا في الرجال مخاصيب ، والإناث والثياب مجاديب . وقال ابن سيرين : يستحب : للرجل أن يعمل لأهله في كل جمعة فانوذجة ، وكان الحلاوة وإن لم تكن من المهمات ولكن تركها بالسكينة تقتير في العادة ، وينبغي أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام وما يفسد لو ترك فهذا أقل درجات الخير ، وللرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير صريح لإذن من الزوج ، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بما كوله طيب فلا يطعمهم منه ، فإن ذلك مما يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف ، فإن كان مزماً على ذلك فليأكله بخفية بحيث لا يعرف أهله ولا ينبغي أن يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه ، وإذا أكل فيمعد العيال كلهم على مائدته ، فقد قال سفيان رضي الله عنه : بلغنا أن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة ، وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإنفاق أن يطعمها من الحلال ولا يدخل مداخل السوء لأجلها ، فإن ذلك جناية عليها لامرأته لها وقد أوردنا الأخبار الواردة في ذلك عند ذكر آفات التكاح .

(١) حديث الإذن للنساء في حضور المساجد . متفق عليه من حديث ابن عمر « ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد » .

(٢) حديث قالت عائشة : لو علم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج . متفق عليه . قال البخاري : لمنعهن من المساجد (٣) حديث ابن عمر « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » فقال بعض ولده : بلى والله ... الحديث متفق عليه . (٤) حديث « الإذن لمن في الأعياد » متفق عليه من حديث أم عطية . (٥) حديث « خيركم خيركم لأهله » أخرجه الترمذي من حديث عائشة وصححه ، وقد تقدم . (٦) حديث « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك : أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

السابع : أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحتترز به الاحترار الواجب ، ويعلم زوجته أحكام الصلاة وما يقضى منها في الحيض وما لا يقضى ، فإنه أمر بأن يقيها النار بقوله تعالى ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ فعليه أن يلقتها اعتقاد أهل السنة ويرى عن قلبها كل بدعة إن استمعت إليها ، ويخوفها في الله إن تساهلت في أمر الدين ، ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه وعلم الاستحاضة يطول ؛ فأما الذي لابد من إرشاد النساء إليه في أمر الحيض بيان الصلوات التي تقضيها ، فإنها مهما انقطع دمها بقيت المغرب بمقدار ركعة فعليها قضاء الظهر والعصر ، وإذا انقطع قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء ، وهذا أقل ما يراعيه النساء ، فإن كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء وإن قصر علم الرجل ولكن ناب عنها في السؤال فأخبرها بجواب المفتي فليس لها خروج ، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك ويعصى الرجل بمنعها ومهما تعلمت ما هو من الفرائض عليها فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر ولا إلى تعلم فضل الإبرضاء ومهما أهملت المرأة حكماً من أحكام الحيض والاستحاضة ولم يعلمها الرجل خرج الرجل معها وشاركها في الإثم .

الثامن : إذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهن ولا يميل إلى بعضهن ، فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أفرع بينهن ^(١) ، كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ظلم امرأة بليتها قضى لها ، فإن القضاء واجب عليه ، وعند ذلك يحتاج إلى معرفة أحكام التسمي وذلك يطول ذكره ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له امرأتان فمال إلى إحدهما دون الأخرى - وفي لفظ - ولم يعدل بينهما ؛ جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل ^(٢) » ، وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت ، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار . قال الله تعالى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ أى أن تعدلوا في شهوة القلب وميل النفس ، ويتبع ذلك التفاوت في الوقاع . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بينهن في العطاء والبيتوتة في الليالي ويقول « اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك ^(٣) » ، بمعنى الحب . وقد كانت عائشة رضي الله عنها أحب نساءه إليه ^(٤) وسائر نساءه يعرفن ذلك . وكان يطاف به محمولا في مرضه في كل يوم وكل ليلة ، فبييت عند كل واحدة منهن ويقول : أين أنا غدا ، ففطنت لذلك امرأة منهن فقالت : إنما يسأل عن يوم عائشة ؛ فقلن يا رسول الله قد أذننا لك أن تكون في بيت عائشة فإنه يشق عليك أن تحمل في كل ليلة ؛ فقال « وقد رضيتن بذلك ؟ فقلن : نعم . قال : فخلوني إلى بيت عائشة ^(٥) » ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها ورضى الزوج بذلك ثبت الحق لها . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نساءه ، فقصد أن يطلق سودة بنت زمعة لما كبرت

(١) حديث القرعة بين أزواجه إذا أراد سفرأ : متفق عليه من حديث عائشة . (٢) حديث « من كان له امرأتان فمال إلى إحدهما دون الأخرى » وفي لفظ آخر « لم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث أبي هريرة : قال أبو داود وابن حبان « قال مع إحدهما » وقال الترمذي « فلم يعدل بينهما » . (٣) حديث : كان يعدل بينهن ويقول « اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث عائشة نحوه . (٤) حديث : كانت عائشة أحب نساءه إليه : متفق عليه من حديث عمرو بن العاص أنه قال : أى الناس أحب إليك يا رسول الله ؟ قال « عائشة » وقد تقدم . (٥) حديث : كان يطاف به محمولا في مرضه كل يوم وليلة فبييت عند كل واحدة ويقول « أين أنا غدا ... الحديث » رواه ابن سعد في الطبقات من رواية محمد بن علي بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحمل في ثوب يطاف به على نساءه وهو مريض يقسم بينهن . وفي مرسل آخر له : لما نزل قال « أين أنا غدا ؟ » قالوا : عند فلانة . قال « فأين أنا بعد غد ؟ » قالوا عند فلانة ، ففرف أزواجه أنه يريد عائشة .. الحديث . وللبخاري من حديث عائشة : كان يمال في مرضه القى مات فيه : « أين أنا غدا ؟ » يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء وفي الصحيحين : لما نزل استأذن أزواجه أن يعرض في بيتي فأذن له .

فوهبت ليلتها لعائشة وسألته أن يقرها على الزوجية حتى تحشر في زمرة نسائه ، فتركها وكان لا يقسم لها ويقسم لعائشة ليلتين واسائر أزواجه ليلة ليلة ^(١) ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لحسن عدله وقوته كان إذا تأقت نفسه إلى واحدة من النساء في غير نوبتها فجاءها طاف في يومه أوليلته على سائر نسائه ؛ فمن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف على نسائه في ليلة واحدة ^(٢) . وعن أنس أنه عليه السلام طاف على تسع نسوة في ضحوة نهار ^(٣) .

التاسع : في النشوز ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما : فإن كان من جانبيهما جميعا أو من الرجل فلا تسلط الزوجة على زوجها ولا يقدر على إصلاحهما فلا بد من حكيم : أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما (إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما) وقد بعث عمر رضي الله عنه حكما إلى زوجين ، فعاد ولم يصلح أمرهما فعلاه بالدرة وقال : إن الله تعالى يقول (إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما) فعاد الرجل وأحسن النية وتلطف بهما فأصلح بينهما . وإما إذا كان النشوز من المرأة خاصة فالرجال قوامون على النساء ، فله أن يؤدبها ويحكمها على الطاعة قهراً ، وكذا إذا كانت تاركة للصلاة فله حملها على الصلاة قهراً ، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها : وهو أن يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويف ، فإن لم ينجح ولاها ظهره في المضجع أو انفرد عنها بالفرش وهجرها وهو في البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال . فإن لم ينجح ذلك فيها ضربها غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظام ولا يدمى لها جسم . ولا يضرب وجهها فذلك منهى عنه . وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حق المرأة على الرجل ؟ قال : يطعمها إذا طعم . وبكسوها إذا اكتسى . ولا يقبض الوجه . ولا يضرب إلا ضرباً غير مبرح . ولا يهجرها إلا في المبيت ^(٤) ، وله أن يغضب عليها ويهجرها في أمر من أمور الدين إلى عشر وإلى عشرين وإلى شهر . فعلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أرسل إلى زينب بهدية فردتها عليه . فقالت له التي هو في بيتها : لقد أقمتك إذ ردت عليك هديتك ^(٥) . أي أذلتك واستصغرتك . فقال صلى الله عليه وسلم : أتئن أهون على الله أن تقمثنى ، ثم غضب عليهن كلهن شهراً إلى أن عاد إليهن .

العاشر : في آداب الجماع . ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى ويقرأ قل هو الله أحد أولاً ويكبر ويهمل ويقول : بسم الله العلي العظيم . اللهم اجعلها ذرية طيبة إن كنت قدرت أن تخرج ذلك من صلبى . وقال عليه الصلاة والسلام : لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا . فإن كان بينهما ولد لم يضره

(١) حديث : كان يقسم بين نسائه ، فقصده أن يطأن بسودة بنت زمعة لما كبرت ، فوهبت ليلتها لعائشة ... الحديث رواه أبو داود من حديث عائشة : قالت سودة حين أسفت وفرقت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله يومى لعائشة ... الحديث ، والطبراني : أراد أن يفارقها . وهو عند البخارى بلفظ : لما كبرت سودة وهبت يومها لعائشة وكان يقسم لها بيوم سودة ، وللبهقي مراسلاً : طلق سودة فقالت : أريد أن أحشر في أزواجك ... الحديث . (٢) حديث عائشة : طاف على نسائه في ليلة واحدة . متفق عليه بلفظ : كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف على نسائه ثم أصبح بمصر ما يضح طيباً (٣) حديث أنس : أنه طاف على تسع نسوة في ضحوة نهار ، رواه ابن عدى في الكامل ، والبخارى : كان يطوف على نسائه في ليلة واحدة وله تسع نسوة . (٤) حديث : قيل له : ما حق المرأة على الرجل ؟ فقال : يطعمها إذا طعم ، وبكسوها إذا اكتسى ، ولا يقبض الوجه ، ولا يضرب إلا ضرباً غير مبرح ، ولا يهجرها إلا في البيت ، رواه أبو داود والنسائي في الكبرى ، وابن ماجه من رواية معاوية بن حيدة بسند جيد ، وقال : ولا يضرب الوجه ولا يقبض . وفي رواية لأبي داود : ولا تقبض الوجه ولا تضرب . (٥) حديث هجرة صلى الله عليه وسلم لسانه شهراً لما أرسل بهدية إلى زينب فردتها فقالت له التي في بيتها : لقد أقمتك ... الحديث ، ذكره ابن الجوزي في الوفاء بنبر السناد . وفي الصحيحين من حديث عمر : كان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن . وفي رواية من حديث جابر : ثم اعترهن شهراً (٧ - لمحياء علوم الدين - ٢)

الشیطان^(١) ، وإذا قربت من الإنزال فقل في نفسك ولا تحرك شفتيك : الحمد لله الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً . وكان بعض أصحاب الحديث يكبر حتى يسمع أهل الدار صوته ، ثم ينحرف عن القبلة ولا يستقبل القبلة بالواقع إكراماً للقبلة ، وليخط نفسه وأهله بثوب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغطى رأسه ويضع صوته ويقول للمرأة « عليك بالسكينة^(٢) » وفى الخبر « إذا جامع أحدكم أهله فلا يتجردان تجرد العبرين^(٣) » ، أى الحمارين ، وليقدم التلطف بالكلام والتقيل قال صلى الله عليه وسلم « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة ، وليكن بينهما رسول ، قيل وما الرسول يا رسول الله ؟ قال « القبلة والكلام^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم (ثلاث من العجز فى الرجل : أن يلقي من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعلم اسمه ونسبه ، والثاني : أن يكرمه أحد فيرد عليه كرامته ، والثالث : أن يقارب الرجل جاريته أو زوجته فيضيها قبل أن يحدها ويؤانسها ، ويضاجعها فيقضى حاجته منها قبل أن تقضى حاجتها منه^(٥)) ويكره له الجماع فى ثلاث ليال من الشهر : الأول ، والآخر ، والنصف . يقال : إن الشيطان يحضر الجماع فى هذه الليالى ، ويقال : إن الشياطين يجامعون فيها ، وروى كراهة ذلك عن على ومعاوية وأبى هريرة رضى الله عنهم . ومن العلماء من استحجب الجماع يوم الجمعة وليلته تحقيقاً لأحد التأويلين من قوله صلى الله عليه وسلم (رحم الله من غسل واغتسل^(٦)) الحديث . ثم إذا قضى وطره فليستهل على أهله حتى تقضى هى أيضاً نعمتها ، فإن إنزالها ربما يتأخر فيسبغ شهورتها ، ثم القعود عنها لإيذاء لها ، والاختلاف فى طبع الإنزال يوجب التنازل مهما كان الزوج سابقاً إلى الإنزال ، والتوافق فى وقت الإنزال ألدعندها ليشغل الرجل بنفسه عنها ، فإنها ربما تستحى . وينبغى أن يأتيها فى كل أربع ليال مرة فهو أعدل ، إذ عدد النساء أربعة فجاز التأخير إلى هذا الحد ، نعم ينبغى أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها فى التحصين ، فإن تحصينها واجب عليه ، وإن كان لا يثبت المطالبة بالوطء فذلك لعسر المطالبة والوفاء بها ، ولا يأتيها فى الحيض . ولا بعد انتقضائه وقبل الغسل ، فهو محرم بنص الكتاب ، وقيل : إن ذلك يورث الجذام فى الولد ، وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض ولا يأتيها فى غير المأنى ، إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى ، والأذى غير المأنى دائم فهو أشد تحريماً من إتيان الحائض . وقوله تعالى (فاتوا حرائكم انى شئتم) أى أى وقت شئتم ، وله أن يستمنى بيديها ، وأن يستمتع بما تحت الإزار بما يشتهى سوى الواقع . وينبغى أن تنزل المرأة بإزار من حقوها إلى فوق الركبة فى حال الحيض ، فهذا من الأدب ، وله أن يؤاكل الحائض ، ويخالطها فى المضاجعة وغيرها ، وليس عليه اجتنابها ، وإن أراد أن يجامع ثانياً بعد أخرى فليغسل فرجه أولاً ، وإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول ، ويكره الجماع فى أول الليل حتى لا ينام على غير طهارة ، فإن أراد النوم أو الأكل فليتوضأ أولاً وضوء الصلاة فذلك سنة . قال ابن عمر : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أينام أحدنا وهو جنب ؟ قال « نعم إذا توضأ^(٧) » ولكن قد وردت فيه رخصة قالت عائشة رضى الله

(١) حديث « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبنا الشيطان ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس .
(٢) حديث . كان يغطى رأسه ويضع صوته ويقول للمرأة « عليك بالسكينة » رواه الخطيب من حديث أم سلمة بسند ضعيف .
(٣) حديث « إذا جامع أحدكم امرأته فلا يتجردان تجرد العبرين » أخرجه ابن ماجه من حديث شعبة بن عبد بسند ضعيف .
(٤) حديث « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة ... الحديث » رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس وهو منكر .
(٥) حديث « ثلاث من العجز فى الرجل . أن يلقي من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعرف اسمه ... الحديث » رواه أبو منصور الديلمى من حديث أخضر مته وهو بعض الحديث الذى قبله . (٦) حديث « رحم الله من غسل واغتسل » تقدم فى الباب الخامس من الصلاة . (٧) حديث ابن عمر : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أينام أحدنا وهو جنب ؟ قال « نعم إذا توضأ » متفق عليه من حديثه أن عمر سأل ، لأن هبة الله هو السائل .

عنها . كان النبي صلى الله عليه وسلم ينام جنباً لم يمس ماء ^(١) ، ومهما عاد إلى فراشه فليمسح وجهه فراشه أو لينفضه ، فإنه لا يدري ما حدث عليه بعده ، ولا ينبغي أن يخلق أو يقلم أو يستحد أو يخرج الدم أو يبين من نفسه جزءاً وهو جنب ؛ إذ ترد إليه سائر أجزائه في الآخرة فيعود جنباً ، ويقال : إن كل شعرة تطالبه بجنباتها ومن الآداب أن لا يعزل ، بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث وهو الرحم ، فإمن نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة ^(٢) هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن عزل فقد اختلف العلماء في إباحته وكراهته على أربع مذاهب ، فمن مبيح مطلقاً بكل حال ، ومن محرم بكل حال ، ومن قائل يحل برضاها ولا يحل دون رضاها ، وكأن هذا القائل يحرم الإيذاء دون العزل ، ومن قائل يباح في المملوكة دون الحرة . والصحيح عندنا أن ذلك مباح ، وأما الكراهية فإنها تطلق انتهى التحريم ونهى التنزيه ولترك الفضيلة ، فهو مكروه بالمعنى الثالث أى فيه ترك فضيلة ، كما يقال : يكره للقاعد في المسجد أن يقعد فارغاً لا يشتغل بذكر أو صلاة ، ويكره للحاضر في مكة مقبائها أن لا يهيج كل سنة ، والمراد بهذه الكراهية ترك الأولى والفضيلة فقط ، وهذا ثابت لما بيناه من الفضيلة في الولد ، ولما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن الرجل ليجامع أهله فيكتب له بجماعه أجر ولد ذكر قاتل في سبيل الله فقتل ^(٣) ، وإنما قال ذلك لأنه لو ولد له مثل هذا الولد لكان له أجر التسبب إليه ، مع أن الله تعالى خالقه وبحييه ومقويه على الجهاد ، والذي إليه من التسبب فقد فعله وهو الوقاع ، وذلك عند الإمناء في الرحم . وإنما قلنا لا كراهة بمعنى التحريم والتنزيه ، لأن إثبات النهي إنما يمكن بنص أو قياس على منصوص ولا نص ولا أصل يقاس عليه ، بل ههنا أصل يقاس عليه وهو ترك النكاح أصلاً أو ترك الجماع بعد النكاح أو ترك الإنزال بعد الإيلاج ، فكل ذلك ترك للأفضل وليس بارتكاب نهى ولا فرق ، إذ الولد يتكون بوقوع النطفة في الرحم ، ولها أربعة أسباب : النكاح ، ثم الوقاع ، ثم الصبر إلى الإنزال بعد الجماع ، ثم الوقوف لينصب المنى في الرحم ، وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض ، فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث ، وكذا الثالث كالثاني ، والثاني كالأول ، وليس هذا كالإجهاض والوآد ، لأن ذلك جنائية على موجود حاصل ، وله أيضاً مراتب وأول مراتب الرجود أن تقع النطفة في الرحم وتختلط بماء المرأة وتستعد لقبول الحياة وإفساد ذلك جنائية ، فإن صارت مضغة وعلقة كانت الجناية ألحش ، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجنائية تفاشها ، ومنتهى التفاشش في الجناية بعد الانفصال حياً . وإنما قلنا مبدأ سبب الوجود من حيث وقوع المنى في الرحم لا من حيث الخروج من الإحليل ، لأن الولد لا يخلق من منى الرجل وحده بل من الزوجين جميعاً إما من مائه ومائها أو من مائه ودم الحيض ، قال بعض أهل التشريح : إن المضغة تخلق بتقدير الله من دم الحيض ، وإن الدم منها كاللبن من الرائب ، وإن النطفة من الرجل شرط في خثور دم الحيض وافتقاده كالأنفحة للبن ، إذ بها ينعقد الرائب ، وكيفما كان فإما المرأة ركن في الانعقاد فيجربى الماءان مجرى الإيجاب والقبول في الوجود الحكيم في العقود ، فمن أوجب ثم رجع قبل القبول لا يكون جانباً على العقد بالنقض والفسخ ، ومهما اجتمع الإيجاب والقبول كان الرجوع بعده رفعا وفسخاً وقطعاً ، وكما أن النطفة في الفقار لا يتخلق منها الولد فكذلك بعد الخروج من الإحليل ما لم يمتزج بماء المرأة ودمها ، فهذا هو القياس الجلي .

(١) حديث عائشة : كان ينام جنباً لم يمس ماء رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه . وقال يزيد بن هارون : إنه وهم ، ونقل البيهقي عن الحافظ الطعن فيه ، قال : وهو صحيح من جهة الرواية .

(٢) حديث « مامن نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة » متفق عليه من حديث أبي سعيد .

(٣) حديث « إن الرجل ليجامع أهله فيكتب له من جماعه أجر ولد ذكر يقاتل في سبيل الله » لم أجده أصلاً .

* فإن قلت : فإن لم يكن العزل مكروها من حيث إنه دفع لوجود الولد فلا يبعد أن يكره لأجل النية الباعثة عليه ، إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة فيها شيء من شوائب الشرك الخفي * فأقول : النيات الباعثة على العزل خمس : الأولى في السرارى وهو حفظ الملك عن الهلاك باستحقاق العتاق وقصد استبقاء الملك بترك الإعتاق ودفع أسبابه ليس بمنهى عنه . الثانية : استبقاء جمال المرأة ومنعها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفا من خطر الطلق ، وهذا أيضا ليس منهي عنه . الثالثة : الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء ، وهذا أيضا غير منهي عنه ، فإن قلت الحرج معين على الدين ، نعم السكال والفضل في التوكل والثقة بضم الله حيث قال ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ولا جرم فيه سقوط عن ذروة السكال وترك الأفضل ، ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره مع كونه منافضا للتوكل لا نقول إنه منهي عنه . الرابعة : الخوف من الأولاد الإناث لما يعتقد في تزويجهم من المعرفة كما كانت من عادة العرب في قتلهم الإناث ، فهذه نية فاسدة لو ترك بسببها أصل النكاح أو أصل الوقاع أثم بها لا بترك النكاح والوطء ، فكذا في العزل ، والفساد في اعتقاد المعرفة في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد ، وينزل منزلة امرأة تركت النكاح استنكافا من أن يعلوها رجل فكانت تنفبه بالرجال ، ولا ترجع الكراهة إلى عين ترك النكاح . الخامسة : أن تمتنع المرأة لتعززها ومبالغتها في النظافة والتحرز من الطلق والنفاس والرضاع ، وكان ذلك عادة نساء الخوارج لمبالغتهن في استعمال المياه ، حتى كن يقضين صلوات أيام الحيض ولا يدخلن الخلاء إلا عراة ، فهذه بدعة تخالف السنة ، فهي نية فاسدة ؛ واستأذنت واحدة منهن على عائشة رضی الله عنها لما قدمت البصرة فلم تأذن لها ، فيكون القصد هو الفساد دون منع الولادة .

* فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا ثلاثا »^(١) . قلت : فالعزل كترك النكاح . وقوله « ليس منا » أى ليس موافقا لنا على سنتنا وطريقتنا وسنتنا فعل الأفضل . هـ فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم في العزل « ذاك الوأد الخفي » وقرأ : وإذا المودة سئلت^(٢) ، وهذا في الصحيح . قلنا : وفي الصحيح أيضا أخبار صحيحة^(٣) في الإباحة ، وقوله ، الوأد الخفي ، كقوله (الشرك الخفي) وذلك يوجب كراهة لا تحريما .

* فإن قلت : فقد قال ابن عباس : العزل هو الوأد الأصغر ، فإن المنوع وجوده به هو المودة الصغرى . قلنا : هذا قياس منه لدفع الوجود على قطعه وهو قياس ضعيف ، ولذلك أنكره عليه على رضی الله عنه ، لماسمعه قال : ولا تكون مودة إلا بعد سبع ، أى بعد الأخرى سبعة أطوار ، وتلا الآية الواردة في أطوار الخلقة وهي قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ إلى قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ أى نفخنا فيه الروح ، ثم تلا قوله تعالى في الآية ﴿ وإذا المودة سئلت ﴾ وإذا نظرت إلى ما قدمناه في طريق القياس والاعتبار ، ظهر لك تفاوت منصب على وابن عباس رضی الله عنهما في الغوص على المعاني ودرك

(١) حديث « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا » تقدم في أوائل النكاح . (٢) حديث قال صلى الله عليه وسلم في العزل « ذاك الوأد الخفي » أخرجه مسلم من حديث جذاعة بنت وهب . (٣) أحاديث لإباحة العزل ، رواها مسلم من حديث أبي سعيد : أنهم سألوه عن العزل فقال « لا عليكم أن لا تنكحوا » ورواه النسائي من حديث أبي هريرة ، وللشيعين من حديث جابر : كنا نزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زاد مسلم : فبلغ ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا . والنسائي من حديث أبي هريرة سئل عن العزل فقيل : اليهود تزعم أنها المودة الصغرى ؛ فقال : كذبت يهود . قال البيهقي : رواه الإباحة أكثر وأحفظ .

العلوم ، كيف وفي المتفق عليه في الصحيحين على جابر أنه قال (كنا نزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل) وفي لفظ آخر (كنا نزل فبلغ ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا ^(١)) وفيه أيضا عن جابر أنه قال (إن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لي جارية خادمتنا وسافقتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل ، فقال عليه الصلاة والسلام (اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها) فلبث الرجل ما شاء الله ثم أماته فقال : إن الجارية قد حملت ، فقال (قد قلت سيأتيها ما قدر لها ^(٢)) كل ذلك في الصحيحين .

الحادي عشر : في آداب الولادة وهي خمسة : (الأول) أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى ، فإنه لا يدرى الخير له في أيهما ، فكم من صاحب ابن يتعنى أن لا يكون له ، أو يتعنى أن يكون بنتا ، بل السلامة منهن أكثر والثواب فيهن أجزل قال صلى الله عليه وسلم (من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاها وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة ^(٣)) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتهما إلا أدخلناه الجنة ^(٤)) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما صحبتهما كنت أنا وهو في الجنة كهاتين ^(٥)) وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشتري شيئا لحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه ^(٦)) وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حل لهم صدقة حتى يضعها فيهم وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإنه من فزع أنثى فكأنما بكى من خشية الله ومن بكى من خشية حرم الله بدنه على النار ^(٧)) وقال أبو هريرة : قال صلى الله عليه وسلم (من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصب على لأوائهن وضرائهن أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن ، فقال رجل : وثنتان يا رسول الله ؟ قال : وثنتان . فقال رجل : أو واحدة ؟ فقال وواحدة ^(٨)) (الأدب الثاني) . أن يؤذن في أذن الولد : روى رافع عن أبيه قال (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم قد أذن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة رضي الله عنها ^(٩)) وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى دفعت عنه أم الصبيان ^(١٠)) ويستحب أن يلقنوه أول انطلاق لسانه

- (١) حديث جابر المتفق عليه في الصحيحين : كنا نزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا ، هو كما ذكر متفق عليه ، لا أن قوله « فلم ينهنا » انفرد بها مسلم . (٢) حديث جابر : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن لي جارية وهي خادمتنا وسافقتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل ؟ فقال : انزل عنها إن شئت . الحديث ، ذكر المصنف أنه في الصحيحين وليس كذلك ، وإنما انفرد به مسلم .
- (٣) حديث « من كانت له ابنة فأدبها وأحسن أدبها وغذاها فأحسن غذاها .. الحديث » أخرجه الطبراني في الكبير ، والخراطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٤) حديث ابن عباس « ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتهما إلا أدخلناه الجنة » أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٥) حديث أنس « من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما صحبتهما كنت أنا وهو في الجنة كهاتين » رواه الخراطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف . ورواه الترمذي بنقط « من عال جارتين » وقال حسن غريب . (٦) حديث أنس « من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشتري شيئا لحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه » أخرجه الخراطي بسند ضعيف .
- (٧) حديث أنس « من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حل لهم صدقة » أخرجه الخراطي بسند ضعيف جدا ، وأخرجه ابن عدي في الكامل . وقال ابن الجوزي : حديث موضوع . (٨) حديث أبي هريرة « من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصب على لأوائهن وضرائهن » الحديث « رواه الخراطي واللفظ له والحاكم ولم يقل : أو أخوات وقال . صحيح الإسناد .
- (٩) حديث أبي رافع : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة . أخرجه أحمد واللفظ له وأبو داود والترمذي وصححه ، لا أنها قالا « الحسن » مكبرا ، وضفه ابن القطان . (١٠) حديث « من ولد له مولود وأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى دفعت عنه أم الصبيان » أبو يعلى الموصلي وابن السني في اليوم واليلة ، والبيهقي في شعب الإيمان =

لا إله إلا الله ، ليكون أول حديثه ، والختان في اليوم السابع ورد به خبر ^(١) (الآداب الثالث) : أن تسميه اسما حسنا ؛ فذلك من حق الولد . وقال صلى الله عليه وسلم : إذا سميتم فعبدوا ^(٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام : أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ^(٣) ، وقال : سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي ^(٤) ، قال العلماء : كان ذلك في عصره صلى الله عليه وسلم إذ كان ينادى يا أبا القاسم والآن فلا بأس ، نعم لا يجمع بين اسمه وكنيته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي ^(٥) ، وقيل : إن هذا أيضا كان في حياته ، وتسمى رجل أبا عيسى فقال عليه السلام : إن عيسى لأب له ^(٦) ، فيكره ذلك ، والسقط ينبغي أن يسمى . قال عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية : بلغني أن السقط يصرخ يوم القيامة وراء أبيه فيقول : أنت ضيعتني وتركنتي لا اسم لي ؛ فقال عمر بن عبد العزيز : كيف وقد لا يدري أنه غلام أو جارية فقال عبد الرحمن : من الأسماء ما يجمعهما كحزمة وعمارة وطلحة وعتبة ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم ^(٧) ، ومن كان له اسم يكره يستحب تبديله ، أبدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم الماص بعبد الله ^(٨) . وكان اسم زينب برة ، فقال عليه السلام : تركي نفسها ، فسمها زينب ^(٩) ، وكذلك ورد النهي في تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة ^(١٠) لأنه يقال : أثم بركة ؟ فيقال : لا (الرابع) الحقيقة هن الذكر بشاتين ، وعن الأنثى بشاة ذكر كان أو أنثى . وروى عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر في الغلام أن يعق بشاتين مكافتين ، وفي الجارية بشاة ^(١١) . وروى : أنه عرق عن الحسن بشاة ^(١٢) وهذا رخصة في الاختصار على واحدة وقال صلى الله عليه وسلم : مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دما وأميطوا عنه الأذى ^(١٣) ، ومن السنة أن يتصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة ؛ فقد ورد فيه خبر : أنه عليه السلام أمر فاطمة رضي الله عنها يوم سابع حسين أن تحلق شعره وتتصدق بزنة شعره فضة ^(١٤) ،

= من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف . (١) حديث : الختان في اليوم السابع ، رواه الطبراني في الصغير من حديث جابر بسند ضعيف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرق عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام وإسناده ضعيف . واختلاف في إسناده فقيل : عبد الملك بن إبراهيم بن زهير عن أبيه عن جده . (٢) حديث : إذا سميتم فعبدوا ، رواه الطبراني من حديث عبد الملك ابن أبي زهير عن أبيه معاذ ، وصحح إسناده والبيهقي من حديث عائشة .

(٣) حديث : أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٤) حديث : سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي ، متفق عليه من حديث جابر . وفي لفظ : سموا . (٥) حديث : لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي ، رواه أحمد وابن حبان من حديث أبي هريرة ، ولأبي داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث جابر . من سمي باسمي فلا يكتني بكنيتي ، ومن تكتني بكنيتي فلا يتسمى باسمي . (٦) حديث : أن عيسى لأب له ، أخرجه أبو عمر التوفاني في كتاب معاشرة الأهلين من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، ولأبي داود أن عمر ضرب ابنه تكتني أبا عيسى ، وأنكر على المنيرة بن شعبة تكتني بأبي عيسى ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم كناني ، وإسناده صحيح . (٧) حديث : إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم ، أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء . قال النووي : بإسناد جيد ، وقال البيهقي لأنه مرسل . (٨) حديث : بدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم الماص بعبد الله ، رواه البيهقي من حديث عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدي بسند صحيح . (٩) حديث قال صلى الله عليه وسلم لزيب وكان اسمها برة تركي نفسها فسمها زينب ، متفق عليه من حديث أبي هريرة . (١٠) حديث النهي في تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة ، أخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب إلا أنه جعل مكان بركة رباعاً ، وله من حديث جابر : أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يسمي بيلى وبركة . الحديث (١١) حديث عائشة : أمر في الغلام بشاتين مكافتين ، وفي الجارية بشاة ، أخرجه الترمذي وصححه (١٢) حديث : عرق عن الحسن بشاة ، أخرجه الترمذي من حديث علي وقال : ليس إسناده بمقتل ، ووصله الحاكم ، إلا أنه قال حسين . ورواه أبو داود من حديث ابن عباس إلا أنه قال : كسبها . (١٣) حديث : مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دما وأميطوا عنه الأذى ، أخرجه البخاري من حديث سلمان بن عامر الضبي . (١٤) حديث : أمر فاطمة يوم سابع حسين أن تحلق شعره وتتصدق بزنة شعره فضة ، أخرجه الحاكم وصححه من حديث علي ، وهو عند الترمذي منقطع بلقط « حسن » وقال : ليس إسناده بمقتل ، ورواه أحمد من حديث أبي رافع .

قالت عائشة رضى الله عنهما : لا يكسر للعقيقة عظم . (الخامس) أن يحنكه بتمر أو حلوة . وروى عن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما قالت « ولدت عبد الله بن الزبير بقاء ، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت في حجره ثم دعا بتمر فضعها ثم نفل في فيه ^(١) ، فكان أول شيء دخل جوفه ربق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حنكه بتمر ثم دعاه وبرك عليه ، وكان أول مولود ولد في الإسلام ، ففرحوا به فرحاً شديداً لأنهم قيل لهم : إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم .

الثاني عشر : في الطلاق ، وليعلم أنه مباح ، ولكنه أبغض المباحات إلى الله تعالى ، وإنما يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل ، ومهما طلقها فقد آذاها ، ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبها ، قال الله تعالى ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ أى لا تطلبوا حيلة للفرار وإن كرهها أبوه فليطلقها . قال ابن عمر رضى الله عنهما ، كان تحتى امرأة أحبها وكان أبى يكرهها ويأمرنى بطلاقها ، فراجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن عمر طلق امرأتك ^(٢) ، فهذا يدل على أن حق الوالد مقدم ، ولكن والد يكرهها - لا لغير فاسد - مثل عمر ، ومهما آذت زوجها وبذت على أهله فهي جانية ، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين . قال ابن مسعود في قوله تعالى ﴿ ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ مهما بذت على أهله وآذت زوجها فهو فاحشة ، وهذا أريد به في العدة ولكنه تنبيه على المقصود . وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدى ببذل مال ، يكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى فإن ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع . قال تعالى (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) فرد ما أخذته فسادونه لائق بالفداء . فإن سألت الطلاق بغير ما بأس فهي آثمة ، قال صلى الله عليه وسلم « أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة ^(٣) » ، وفي لفظ آخر ، فالجنة عليها حرام ، وفي لفظ آخر : أنه عليه السلام قال « المختلعات هن المناقات ^(٤) » ، ثم ليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور (الأول) أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه ، فإن الطلاق في الحيض أو الطهر الذى جامع فيه يدعى حرام وإن كان واقعاً ، لما فيه من تطويل العدة عليها ؛ فإن فعل ذلك فليراجعها : طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال صلى الله عليه وسلم لعمر : مره فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء طلقها وإن شاء أمسكها ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء ^(٥) ، وإنما أمره بالصبر بعد الرجعة طهرين لئلا يكون مقصود الرجعة الطلاق فقط (الثاني) أن يقتصر على طلبة واحدة فلا يجمع بين الثلاث ، لأن الطلقة الواحدة بعد العدة تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة إن ندم في العدة وتجديد النكاح إن أراد بعد العدة ، وإذا طلق ثلاثاً ربما ندم فيحتاج إلى أن يتزوجها محلل وإلى الصبر مدة ، وعقد المحلل منهي عنه ، ويكون هو الساعى فيه ثم يكون قلبه معلقاً بزوجة الغير وتطبيقه - أعنى زوجة المحلل بعد أن زوج منه - ثم يورث ذلك تنقيراً من الزوجة ، وكل ذلك ثمرة الجمع ، وفي الواحدة

(١) حديث أسماء : ولدت عبد الله بن الزبير بقاء ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه في حجره ثم دعا بتمر فضعها ثم نفل في فيه ... الحديث : متفق عليه . (٢) حديث ابن عمر : كانت تحتى امرأة أحبها وكان أبى يكرهها ، فأمرنى بطلاقها ... الحديث . رواه أصحاب السنن ، وقال الترمذى : حسن صحيح . (٣) حديث « أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة » وفي لفظ « فالجنة عليها حرام » رواه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث ثوبان . (٤) حديث « المختلعات هن المناقات » رواه النسائى من حديث أبي هريرة وقال : لم يسمع الحسن من أبي هريرة . قال : ومع هذا لم أسمعه إلا من حديث أبي هريرة . قلت : رواه الطبرانى من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف . (٥) حديث : طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر « مره فليراجعها ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر .

كفاية في المقصود من غير محذور ، ولست أقول بالجمع حرام ، لكنه مكروه بهذه المعاني ، وأعني بالكراهة تركه النظر
نفسه . (الثالث) أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف ، وتطبيب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع
والجبر لما فجعا به من أذى الفراق . قال تعالى (ومتعوهن) وذلك واجب مهما لم يسم لها مهر في أصل النكاح .
كان الحسن بن علي رضي الله عنهما مطلقا ومنسكحا ، ووجه ذات يوم بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نسائه وقال :
قل لها اعتدا ، وأمره أن يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم ، ففعل ، فلما رجع إليه قال : ماذا فعلتا ؟ قال
أما إحداها فنكست رأسها وتنكست ، وأما الأخرى فبكت وانتجت وسمعتها تقول : متاع قليل من حبيب مفارق
فأطرق الحسن وترحم لها وقال : لو كنت مراجعا امرأة بعد ما فارقتها لراجعتها ، ودخل الحسن ذات يوم على
عبد الرحمن بن الحارث بن هشام - فقيه المدينة ورئيسها ولم يكن له بالمدينة نظير وبه ضربت المثل عائشة رضي الله
عنها حيث قالت لولم أسر مسيرى ذلك لكان أحب إلى من أن يكون لي ستة عشر ذكرا من رسول الله صلى الله
عليه وسلم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : فدخل عليه الحسن في بيته ، فعظمه عبد الرحمن وأجلسه في مجلسه
وقال : ألا أرسلت إلى فكنت أجيبك ، فقال : الحاجة لنا . قال : وما هي ؟ قال جئتكم خاطبا بابتك ، فأطرق
عبد الرحمن ثم رفع رأسه وقال : والله ما على وجه الأرض أحد يمشی عليها أعز على منك ، ولكنك تعلم أن ابنتي
بضعة مني يسومني ما ساءها ويسرنى ما سرها ، وأنت مطلق ، فأخاف أن تطلقها ، وإن فعلت خشيت أن يتغير
قلبي في محبتك وأكره أن يتغير قلبي عليك ، فأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن شرطت أن لا تطلقها
زوجتك ، فسكت الحسن وقام وخرج وقال بعض أهل بيته . سمعته وهو يمشی ويقول : ما أراد عبد الرحمن إلا أن
يجعل ابنته طوقا في عنقي . وكان على رضي الله عنه يضجر من كثرة تطليقه ، فكان يعتذر منه على المنبر ويقول في
خطبته ، إن حسنا مطلقا فلا تنكحوه ، حتى قام رجل من همدان فقال : والله بأمر المؤمنين لتنكحنه ما شاء ،
فإن أحب أمسك وإن شاء ترك ، فسر ذلك عليا وقال :

لو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام

وهذا تنبيه على أن من طعن في حبيبه من أهل وولد بنوع حياء فلا ينبغي أن يوافق عليه ، فهذه الموافقة قبيحة ، بل الأدب
المخالفة ما أمكن ، فإن ذلك أسر لقلبه وأوفق لباطن ذاته ، والقصد من هذا بيان أن الطلاق مباح ، وقد وعد الله الغني
في الفراق والنكاح جميعا فقال (وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله
من فضله) وقال سبحانه وتعالى (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) . (الرابع) أن لا يفشى سرها لافي
الطلاق ولا عند النكاح ، فقد ورد في إفشاء سر النساء في الخبر الصحيح وعيد عظيم ^(١) . ويروى عن بعض الصالحين
أنه أراد طلاق امرأة ، فقيل له : ما الذي يرييك فيها ؟ فقال : العاقل : لا يهتك ستر امرأته ، فلما طلقها قيل له .
لم تطلقها ؟ فقال : مالي ولا امرأة غیری ، فهذا بيان ما على الزوج .

القسم الثاني من هذا الباب : النظر في حقوق الزوج عليها

والقول الشافي فيه أن النكاح نوع رق ، فهي رقيقة له ، فعليها طاعة الزوج مطلقا في كل ما طلب منها في
نفسها بما لا معصية فيه ، وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أيما امرأة

(١) حديث الوعيد في إفشاء سر المرأة . رواه مسلم من حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أعظم
الخيانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم يفضي سرها » .

ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة ^(١) . . . وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفلى وكان أبوها في السفلى ، فرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذن في النزول إلى أبيها ، فقال صلى الله عليه وسلم « أطيعي زوجك » ، فماتت فاستأمرته فقال « أطيعي زوجك » ، فدفن أبوها فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها يخبرها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها » ^(٣) ، وأضاف طاعة الزوج إلى مباني الإسلام ؟ وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء فقال « حاملات والداك مرضعات رحيمات بأولادهن لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخل مصلياتهن الجنة » ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « اطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء ، فقلن : لم يا رسول الله ؟ قال يكثرن اللعن ويكفرن العشير » ^(٥) ، يعني الزوج المعاصر . وفي خبر آخر « اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء ، فقلت : أين النساء ؟ قال : شغلن الأحرار الذهب والزعفران » ^(٦) ، يعني الحلى ومصبغات الثياب : وقالت عائشة رضى الله عنها : أت فتاة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إني فتاة أخطب فأكره التزويج ، فما حق الزوج على المرأة ؟ قال « لو كان من فرقه إلى قدمه صديد فلجسته ما أدت شكره » ، قالت : أهلا أتزوج ؟ قال « بلى تزوجي فإنه خير » ^(٧) ، قال ابن عباس : « أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني امرأة أيم وأريد أن تزوج ، فما حق الزوج ؟ قال : إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها فراودها عن نفسها وهي على ظهر بعير لا تمنعه ، ومن حقه أن لا تعطى شيئا من بيته إلا بإذنه ، فإن فعلت ذلك كان الوزر عليها والأجر له ، ومن حقه أن لا تصوم تطوعا إلا بإذنه ، فإن فعلت جاعت وعطشت ولم يتقبل منها ، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب » ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » ^(٩) . . . وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها إذا كانت في قصر بيتها ، وإن صلاتها في صحن دارها أفضل من صلاتها في المسجد ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في صحن دارها ، وصلاتها

(١) حديث « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » أخرجه الترمذى وقال حسن غريب ، وابن ماجه من حديث أم سلمة .

(٢) حديث : كان رجل خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفلى وكان أبوها في السفلى فرض . . . الحديث ، أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف ، لا أنه قال : غفر لأبيها . (٣) حديث « إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها . . . الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة . (٤) حديث : ذكر النساء فقال « حاملات والداك مرضعات . . . الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي أمامة دون قوله « مرضعات » وهي عند الطبراني في الصغير . (٥) حديث « اطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء . . . الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٦) حديث « اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء ، فقلت : أين النساء ؟ قال : شغلن الأحرار الذهب والزعفران » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ، وقال « الحرير » بدل « الزعفران » ولمسلم من حديث عزة الأشجعية « ويل للنساء من الأحرار : الذهب والزعفران » وسنده ضعيف . (٧) حديث عائشة : أت فتاة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا نبي الله ، إني فتاة أخطب وإني أكره التزويج فما حق الزوج على المرأة ؟ الحديث ، أخرجه الحاكم وصححه إسناد من حديث أبي هريرة دون قوله « بلى تزوجي فإنه خير » ولم أره من حديث عائشة . (٨) حديث ابن عباس : أت امرأة من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني امرأة أيم وأريد أن أتزوج فما حق الزوج ؟ الحديث ، أخرجه البيهقي مقتصرا على شطر الحديث ، ورواه بتمامه من حديث ابن عمر وفيه ضعف . (٩) حديث « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والولد لأبيه من عظم حقهما عليهما » أخرجه الترمذى وابن حبان من حديث أبي هريرة دون قوله « والولد لأبيه » فلم أره وكذلك رواه أبو داود من حديث قيس بن سعد ، وابن ماجه من حديث عائشة ، وابن حبان من حديث ابن أبي أوفى .

في مذهبها أفضل من صلاتها في بيتها ^(١) ، والمخدع : بيت في بيت ، وذلك للستر ، ولذلك قال عليه السلام « المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان » ^(٢) ، وقال أيضا « للمرأة عشر عورات ، فإذا تزوجت ستر الزوج عورة واحدة ؛ فإذا ماتت ستر القبر العشر عورات » ^(٣) ، فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة ، وأهمها أمران ، أحدهما : الصيانة والستر . والآخر : ترك المطالبة بما وراء الحاجة ، والتعفف عن كسبه إذا كان حراما ، وهكذا كانت عادة النساء في السلف : كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته : إياك وكسب الحرام فلنا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار . وهم رجل من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره ، فقالوا لزوجته : لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقه ؟ فقالت : زوجي منذ عرفته عرفته أكالا وما عرفته رزاقا ، ولي رب رزاق : يذهب الأكال ويبقى الرزاق . وخطبت رابعة بنت إسماعيل أحمد بن أبي الحواري ، فكره ذلك لما كان فيه من العبادة وقال لها : والله مالى همة في النساء لشغلي بحالى ، فقالت : إني لأشغل بحالى منك ومالى شهوة ، ولكن ورثت مالا جزيلا من زوجي فأردت أن تنفقه على إخوانك ، وأعرف بك الصالحين فيكون لى طريقا إلى الله عز وجل ، فقال : حتى استأذن أستاذي ، فرجع إلى أبي سليمان الداراني ، قال : وكان ينهاني عن التزويج ويقول : ما تزوج أحد من أصحابنا إلا تغير ؛ فلما سمع كلامها قال : تزوج بها فإنها ولية لله ، هذا كلام الصديقين ، قال : فتزوجتها فكان في منزلنا كن من جص ففنى من غسل أيدي المستعجلين للخروج بعد الأكل فضلا عن غسل بالأشنان . قال : وتزوجت عليها ثلاث نسوة فكانت تطعمني الطيبات وتطيبني وتقول : اذهب بذشاطك وقوتك إلى أزواجك ، وكانت رابعة هذه تشبه في أهل الشام برابعة العدوية بالبصرة . ومن الواجبات عليها : أن لا تفرط في ماله بل تحفظه عليه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذى يخاف فساد ، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره ، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر ^(٤) ، ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة ، وآداب العشرة مع الزوج كما روى أن أسماء بنت خارجة الفزارى قالت لا بنتها عند التزوج إنك خرحت من العش الذى فيه درجت فصرت إلى فراش لم تعرفه ، وقرين لم تألفه ، فكوني له أرضا يكن لك سماء وكوني له مهادا يكن لك عماداً وكوني له أمة يكن لك عبداً ، لا تلحنى به فيقلاك ولا تباعدى عنه فينساك إن دنا منك فأقربى منه ، وإن نأى فأبعدى عنه ، واحفظى أنفه وسمعه وعينه ، فلا يشمن منك إلا طيبا ، ولا يسمع إلا حسنا ، ولا ينظر إلا جميلا . وقال رجل لزوجته :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ولا تنطقى فى سورتي حين أغضب

(١) حديث « أقرب ما تكون المرأة من ربها إذا كانت في قعر بيتها فان صلاتها في سجن دارها أفضل من صلاتها في المسجد ... الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود بأول الحديث دون آخره ، وآخره رواه أبو داود مختصراً من حديثه دون ذكر سجن الدار . ورواه البيهقي من حديث عائشة بلفظ « ولأن تصلى في الدار خير لها من أن تصلى في المسجد » وإسناده حسن ؛ ولا بن حبان من حديث أم حبيب نحوه . (٢) حديث « المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان » رواه الترمذى وقال حسن صحيح وابن حبان من حديث ابن مسعود . (٣) حديث « للمرأة عشر عورات فإذا تزوجت ستر الزوج عورة ... الحديث » أخرجه الحافظ أبو بكر محمد بن عمر الجمالي في تاريخ الطالبيين من حديث علي بن مسعود ومطهر بن في الصنبر من حديث ابن عباس « للمرأة ستران . قيل : وماهما ؟ قال : الزوج والقبر » . (٤) حديث « لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام ... الحديث » أخرجه أبو داود الطيالسي والبيهقي من حديث ابن عمر في حديث فيه « ولا تعطى من بيته شيئاً إلا بإذنه ؛ فان فعلت ذلك كان له الأجر وعليها الوزر » ولأبي داود من حديث سعد : قالت امرأة يارسوله الله ، إنا كل على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا ، فما يحل لنا من أموالهم ؟ قال « الرطب تأكله وتهديته » وصحح الدارقطني في اللؤلؤ أن سعداً هذا رجل من الأنصار لبس ابن أبي وقاص ، واختاره ابن النطان ، وسلم من حديث عائشة « إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ، ولزوجها أجره بما كسب » .

ولا تنقريني نقرك الدف مرة فإنك لا تدريين كيف المغيب
ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى وبأباك قلبي والقلوب تقلب
فإن رأيت الحب في القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل : أن تكون قاعدة في قعر بيتها لازمة لمغزلها ، لا يكثر صعودها وإطلاعا ، قليلة الكلام لجيرانها ، لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول ، تحفظ بعلها في غيبته ، وتطلب مسرته في جميع أمورها ، ولا تخونه في نفسها وماله ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، فإن خرجت بإذنه فخشية في هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق ، محتززة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها لا تتعرف إلى صديق بعلها في حاجاتها ، بل تتكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه ، مهما صلاح شأنها وتدير بيتها مقبلة على صلاتها وصيامها ، وإذا استأذن صديق لبعلمها على الباب وليس البعل حاضرا لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام غيرة على نفسها وبعلمها ، وتكون قاذرة من زوجها بما رزق الله ، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها ، مختلفة في نفسها مستعدة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء ، مشفقة على أولادها ، حافظة للستر عليهم ، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أنا وامرأة سفهاء الخدين كهاتين في الجنة : امرأة آمت من زوجها وحبست نفسها على بناتها حتى ثابوا أو ماتوا ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « حرم الله على كل آدمي الجنة يدخلها قبل ، غير أني أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرنى إلى باب الجنة فأقول : ما لهذه تبادرنى ؟ فيقال لى : يا محمد ، هذه امرأة كانت حسناء جميلة وكان عندها يتامى لها ، فصبرت عليهن حتى بلغ أمرهن الذى بلغ فشكر الله لها ذلك ^(٢) » ، ومن آدابها : أن لا تتفاخر على الزوج بمجاهلها ولا تزدري زوجها لقبه ، فقد روى أن الأصمعى قال : دخلت البادية فإذا أنا بامرأة من أحسن الناس وجها تحت رجل من أقبح الناس وجها ، فقلت لها : يا هذه أترضين لنفسك أن تكوني تحت مثله ؟ فقالت : يا هذا اسكت فقد أسأت في قولك ، لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلنى ثوابه ، أو لعل أسأت فيما بيني وبين خالقي فجعله عقوبتي ، أفلا أرضى بما رضى الله لى فأسكتنى . وقال الأصمعى : رأيت في البادية امرأة عليها قميص أحمر وهى محتضبة ويدها سبعة ، فقلت : ما أبعد هذا من هذا ؟ فقالت :

ولله منى جانب لا أضيعه وللهم منى والبطالة جانب

فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تزين له . ومن آداب المرأة ملازمة الصلاح والانتباض في غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها ، ولا ينبغي أن تؤذى زوجها بحال . روى عن معاذ ابن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذى امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا ^(٣) » ، وما يجب عليها من حقوق النكاح إذا مات عنها زوجها أن لا تتحد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة ، قالت زينب بنت أبي سلمة : دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين توفى أبوها أبو سفيان بن حرب ،

(١) حديث « أنا وامرأة سفهاء الخدين كهاتين .. الحديث » رواه أبو داود من حديث أبي مالك الأشجعي بسند ضعيف .

(٢) حديث « حرم الله على كل آدمي الجنة أن يدخل قبل غير أني أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرنى إلى باب الجنة » رواه

الحفاظي في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٣) حديث معاذ « لا تؤذى امرأة زوجها في الدنيا

إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه .. الحديث » رواه الترمذي وقال حسن غريب ، وابن ماجه .

فذهبت بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره ، فدهنت به جارية ، ثم مست بعارضها ، ثم قالت : والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يجل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً^(١) ، ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة ، وليس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا للضرورة . ومن آدابها : أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها ، فقد روى عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنها قالت : تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النوى لناضحه وأعلفه وأستقي الماء وأخرز غربه وأعجن ، وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ حتى أرسل إلى أبو بكر بجارية فكفتي سياسة الفرس فكأنما أعتقني^(٢) . ونقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ومعه أصحابه والنوى على رأسي فقال صلى الله عليه وسلم : أخ أخ ، لينبيخ ناقته ويحملني خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيره وكان أغبر الناس ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أني قد استحييت ، فجلست الزبير فحكيت له ما جرى ، فقال : والله لملك النوى على رأسك أشد على من ركوبك معه .

تم كتاب آداب النكاح بحمد الله ومنه وصلى الله على كل عبد مصطفى

كتاب آداب الكسب والمعاش

وهو الكتاب الثالث من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد موحد انمحق في توحيد ما سوى الواحد الحق وتلاشر . ونمجده تمجيد من يصرح بأن كل شيء ما سوى الله باطل ولا يتحاشى . وأن كل من في السموات والأرض أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ولا فراشا . ونشكره إذ رفع السماء لعباده سقفا مبنيا ، ومهد الأرض بساطا لهم وفراشا . وكور الليل على النهار فجعل الليل لباسا والنهار معاشا . لينتسروا في ابتغاء فضله وينتسروا به عن ضراعة الحاجات انتعاشا ، ونصلى على رسوله الذي يصدر المؤمنون عن حوضه رواء بعد ورودهم عليه عطاشا . وعلى آله وأصحابه الذين لم يدعوا في نصرة دينه تشمرا وانكاشا . وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإن رب الأرباب ومسبب الأسباب . جعل الآخرة دار الثواب والعقاب ، والدنيا دار التجل والاضطراب . والتشمر والاكتساب . وليس التشمر في الدنيا مقصوراً على المعادون المعاش ، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه ، فالدنيا مزنة الآخرة ومدرجة إليها . والناس ثلاثة : رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الفاترين ، والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذي شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين . وإن ينال رتبة

(١) حديث أم حبيبة : لا يجل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً متفق عليه . (٢) حديث أسماء : تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرس وناضح ، فكنت أعلف فرسه ... الحديث ، متفق عليه .

الاقتصاد من لم يلزم في طلب المعيشة منهج السداد ، وإن ينهض من طلب الدنيا وسيلة إلى الآخرة وذريعة ، مالم يتأدب في طلبها بآداب الشريعة وما نحن نورد آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتسابات وسننها ونشرحها في خمسة أبواب (الباب الأول) فضل الكسب والحث عليه (الباب الثاني) في علم صحيح البيع والشراء والمعاملات (الباب الثالث) في بيان العدل في المعاملة (الباب الرابع) في بيان الإحسان فيها (الباب الخامس) في شفقة التاجر على نفسه ودينه .

الباب الأول : في فضل الكسب والحث عليه

أما من الكتاب فقوله تعالى ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ فذكره في معرض الامتنان . وقال تعالى ﴿ وجعلنا لكم فيها معاشاً قليلاً ما تشكرون ﴾ فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها . وقال تعالى ﴿ ليس عليكم جناح أن تبغوا فضلاً من ربكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ وقال تعالى ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ وأما الأخبار ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمة في طلب المعيشة »^(١) ، وقال عليه الصلاة والسلام « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حلالاً وتعففاً عن المسئلة وسعيًا على عياله وتعطفًا على جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر »^(٣) ، وكان صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله ؛ فقال صلى الله عليه وسلم « لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسئلة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ! وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو في سبيل الشيطان »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغني بها عن الناس ، ويغض العبد يتعلم العلم يتخذ مهنة »^(٥) ، وفي الخبر « إن الله تعالى يحب المؤمن المحترف »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم (أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور »^(٧)

كتاب آداب الكسب : الباب الأول في فضل الكسب والحث عليه

(١) حديث « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمة في طلب المعيشة » تقدم في النسكاج . (٢) حديث « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء » أخرجه الترمذي والحاكم من حديث أبي سعيد . قال الترمذي : حسن ، وقال الحاكم : إنه من مراسيل الحسن ، ولابن ماجه والحاكم نحوه من حديث ابن عمر . (٣) حديث « من طلب الدنيا حلالاً وتعففاً عن المسئلة وسعيًا على عياله » الحديث « أخرجه أبو الشيخ في كتاب التواب ، وأبو نعيم في الحلية . والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٤) حديث : كان صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا ، لو كان جلده في سبيل الله ... الحديث « أخرجه الطبراني في معاجزه الثلاثة من حديث كعب بن عجرة بسند ضعيف . (٥) حديث « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغني بها عن الناس » الحديث « لم أجده هكذا ، وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي « إن الله يحب أن يرى عبده تبتاً في طلب الحلال » وفيه محمد بن سهل العطار قال الدارقطني : يضع الحديث . (٦) حديث « إن الله يحب المؤمن المحترف » أخرجه الطبراني وابن عدي وضمفه من حديث ابن عمر . (٧) حديث « أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور » أخرجه أحمد من حديث رافع بن خديج ، قيل : يارسول الله أي الكسب أطيب ؟ قال : عمل الرجل بيده وكل عمل مبرور . ورواه البزار والحاكم من رواية سعيد بن عمير عن عمه . قال الحاكم : صحيح الإسناد ، قال : وذكر يحيى بن معين أن عم سعيد : البراء بن عازب . ورواه البيهقي من رواية سعيد بن عمير مرسلًا ، وقال : هذا هو المحفوظ ، وخطأ قول من قال عن عمه ، وحكاة عن البخاري ، ورواه أحمد والحاكم من رواية جميع ابن عمير عن خاله أبي بردة ، وجميع ضعيف والله أعلم .

وفي خبر آخر (أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح ^(١)) وقال عليه الصلاة والسلام (عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق ^(٢)) وروى أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال : ما تصنع ؟ قال : أتعبد . قال : من يعولك ؟ قال أخى . قال : أخوك أعبد منك . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (إني لا أعلم شيئاً يقربكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا أمرتكم به ، وإني لا أعلم شيئاً يبعدكم من الجنة ويقربكم من النار إلا نهيتكم عنه ، وإن الروح الأمين نفث في روعي : إن نسا لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب) أمر بالإجمال في الطلب ولم يقل اتركوا الطلب ، ثم قال في آخره (ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى ، فإن الله لا ينال ما عنده بمعصيته ^(٣)) وقال صلى الله عليه وسلم (الأسواق موائد الله تعالى ، فمن أتاها أصاب منها ^(٤)) وقال عليه السلام (لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه ^(٥)) وقال (من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر ^(٦)) . وأما الآثار ، فقد قال لقمان الحكيم لابنه : يا بني ، استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة في دينه ، وضعف في عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاث : استخفاف الناس به . وقال عمر رضي الله عنه : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقني ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وكان زيد بن مسلفة يغرس في أرضه فقال له عمر رضي الله عنه : أصبت ، استغن عن الناس يكن أصولك وكرم لك عليهم ، كما قال صاحبكم أحبيحة :

فلن أزال على الزوراء أغمرها إن الكريم على الإخوان ذو المال

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لاني أمر دنياه ولا في أمر آخرته . وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق ، أهو أحب إليك أم المتفرغ للعبادة ؟ قال التاجر الصدوق أحب إلي لأنه في جهاد يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان ومن قبل الأخذ والعطاء فيجابهده ، وخالفه الحسن البصري في هذا . وقال عمر رضي الله عنه : مامن موضع يأتي الموت فيه أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهل أبيع وأشتري . وقال الهيثم : ربما يبلغني عن الرجل يقع في فأذكر استغنائاً عنه فيهن ذلك على . وقال أيوب : كسب فيه شيء أحب إلى من سؤال الناس . وجاءت ريح عاصفة في البحر ، فقال أهل السفينة لإبراهيم بن أدهم رحمه الله وكان معهم فيها : أما ترى هذه الشدة ؟ فقال : ماهذه الشدة ، وإنما الشدة الحاجة إلى الناس . وقال أيوب قال لي أبو قلابة : الزم السوق فإن الغنى من العافية ، يعنى الغنى عن الناس . وقيل لأحمد : ما تقول فيمن جلس في بيته

(١) حديث « أحل ما أكل العبد كسب الصانع إذا نصح » رواه أحمد من حديث أبي هريرة « خير الكسب كسب العامل إذا نصح » وإسناده حسن . (٢) حديث « عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق » رواه إبراهيم الحارثي في غريب الحديث من حديث نعيم بن عبد الرحمن « تسعة أعشار الرزق في التجارة » ورجاله ثقات ، ونعم هذا قال فيه ابن مده : ذكر في الصحابة ولا يصح . وقال أبو حاتم الرازي وابن حبان : أنه تابعي فالحديث مرسل . (٣) حديث « إني لا أعلم شيئاً يبعدكم من الجنة ويقربكم من النار إلا نهيتكم عنه فإن الروح الأمين نفث في روعي أن نسا لن تموت حتى تستوفى رزقها ... الحديث » رواه ابن أبي الدنيا في القناعة ، والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهداً لحديث أبي حميد وجابر وصححه على شرط الشيخين ، وهذا مختصران ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان وقال : لأنه منقطع . (٤) حديث « الأسواق موائد الله فمن أتاها أصاب منها » رواه في الطيوريات من قول الحسن البصري ، ولم أجده مرفوعاً . (٥) حديث « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٦) حديث « من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر » رواه الترمذي من حديث أبي كعبشة الأعماري « ولا تفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » أو كلمة نحوها ، وقال : حسن صحيح .

أو مسجده وقال لأعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي ؟ فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي »^(١) ، وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال « تغذو خالصاً وتروح بطاناً »^(٢) ، فذكر أنها تغدو في طلب الرزق ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخلهم والقذوة بهم . وقال أبو قلابة لرجل : لأن أراك تطلب معاشك أحب إلى من أن أراك في زاوية المسجد . وروى أن الأوزاعي لقي إبراهيم بن أدهم رحمه الله وعلى عنقه حزمة حطب ؛ فقال له : يا أبا أسحق إلى متى هذا ؟ إخوانك يكفونك ؛ فقال : دعني عن هذا يا أبا عمرو ، فإنه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة . وقال أبو سليمان النخعي : ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك بقوتك ؛ ولكن أبدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه . ينادى مناد يوم القيامة : أين بغضاء الله في أرضه ؛ فيقوم سؤال المساجد ، فهذه مذمة الشرع للسؤال والاتكال على كفاية الأغيار . ومن ليس له مال موروث فلا ينجي من ذلك إلا الكسب والتجارة .

فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم « ما أوحى إلى أن اجمع المال وكن من التاجرين ، ولكن أوحى إلى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »^(٣) ، وقيل لسلمان الفارسي . أوصنا ؛ فقال : من استطاع منكم أن يموت حاجاً أو غازياً أو عامراً لمسجد ربه فليفعل ، ولا يتن تاجراً ولا خائناً فالجواب : أن وجه الجمع بين هذه الأخبار تفصيل الأحوال ؛ فنقول : لسنا نقول التجارة أفضل مطلقاً من كل شيء ، ولكن التجارة إما أن تطلب بها الكفاية أو الثروة أو الزيادة على الكفاية ؛ فإن طلب منها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وإدخاره لا يلصرف إلى الخيرات والصدقات فهي مذمومة ، لأنه إقبال على الدنيا التي حجبها رأس كل خطيئة ، فإن كان مع ذلك ظالمًا خائناً فهو ظلم وفسق ، وهذا ما أراد سلمان بقوله ؛ لا تمت تاجراً ولا خائناً ، وأراد بالتاجر : طالب الزيادة ، فأما إذا طلب بها الكفاية لنفسه وأولاده وكان يقدر على كفايتهم بالسؤال فالتجارة تعفنا عن السؤال أفضل ، وإن كان لا يحتاج إلى السؤال وكان يعطى عن غير سؤال فالكسب أفضل ، لأنه إنما يعطى لأنه سائل بلسان حاله ومناد بين الناس بفقره ، فالتعفف والتستر أوفى من البطالة ، بل من الاشتغال بالعبادات البدنية وترك الكسب أفضل للأربعة : عابد بالعبادات البدنية ؛ أو رجل له سير بالباطن وعمل بالقلب في علوم الأحوال والمكاشفات ، أو عالم مشغول بتربية علم الظاهر مما ينتفع الناس به في دينهم كالمفتي والمفسر والمحدث وأمثالهم ، أو رجل مشغول بمصالح المسلمين وقد تكفل بأمرهم كالسلطان والقاضي والشاهد ، فهؤلاء إذا كانوا يكفون من الأموال المرصدة للمصالح أو الأوقاف المسبلة على الفقراء أو العلماء ، فإقبالهم على ما هم فيه أفضل من اشتغالهم بالكسب ، ولهذا أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ولم يوح إليه أن كن من التاجرين لأنه كان جامعاً لهذه المعاني الأربعة إلى زيادات لا يحيط بها الوصف ، ولهذا أشار الصحابة على أبي بكر رضي الله عنهم بترك التجارة لمساوئ الخلافة إذ كان ذلك يشغله عن المصالح ، وكان يأخذ كفايته من مال المصالح ؛ ورأى ذلك أولى ثم لما توفي أوصى برده إلى بيت المال ، ولكنه رآه في الابتداء أولى ، ول هؤلاء الأربعة حالتان أخريان : (أحدهما)

(١) حديث « إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي » رواه أحمد من حديث ابن عمر « جعل رزقي تحت ظل رمحي » وإسناده صحيح . (٢) حديث : ذكر الطير فقال « تغذو خالصاً وتروح بطاناً » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذي : حسن صحيح . (٣) حديث « ما أوحى إلى أن اجمع المال وكن من التاجرين ، ولكن أوحى إلى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين » رواه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند فيه لين .

أن تكون كفايتهم عند ترك المكسب من أيدي الناس وما يتصدق به عليهم من زكاة أو صدقة من غير حاجة إلى سؤال ، فترك الكسب والاشتغال بما هم فيه أولى ، إذ فيه إعانة الناس على الخيرات وقبول منهم لما هو حق عليهم وأفضل لهم . (الحالة الثانية) الحاجة إلى السؤال ، وهذا في محل النظر ، والتشديدات التي روينها في السؤال وذمه تدل ظاهرا على أن التعفف عن السؤال أولى وإطلاق القول فيه من غير ملاحظة الأحوال والأشخاص عسير ، بل هو موكل إلى اجتهد العبد ونظره لنفسه بأن يقابل ما يلقي في السؤال من المذلة وهتك المروءة والحاجة إلى التثقل والإلحاح بما يحصل من اشتغاله بالعلم والعمل من الفائدة له ولغيره ، فرب شخص تكثر فائدة الخلق وفائدته في اشتغاله بالعلم أو العمل ، ويهون عليه بأدنى تعريض في السؤال تحصيل الكفاية ، وربما يكون بالعكس ، وربما يتقابل المطلوب والمخدور ، فينبغي أن يستفتي المريد فيه قلبه وإن أفتاه المفتون ، فإن الفتاوى لا تحيط بتفاصيل الصور ودقائق الأحوال ولقد كان في السلف من له ثلثمائة وستون صديقا ينزل على كل واحد منهم ليلة ومنهم من له ثلاثون ، وكانوا يشتغلون بالعبادة لعلهم بأن المتكفين بهم يتقلدون منة من قبولهم لمبراتهم ، فكان قبولهم لمبراتهم خيرا مضافا لهم إلى عباداتهم ، فينبغي أن يدقق النظر في هذه الأمور فإن أجر الآخذ كأجر المعطى مهما كان الآخذ يستعين به على الدين والمعطى يعطيه عن طيب قلب . ومن اطلع على هذه المعاني أمكنه أن يتعرف حال نفسه ويستوضح من قلبه ما هو الأفضل له بالإضافة إلى حاله ووقته ، فهذه فضيلة الكسب ، وليكن العقد الذي به الاكتساب جامعا لأربعة أمور : الصحة ، والعدل ، والإحسان ، والشفقة على الدين . ونحن نعقد في كل واحد بابا ، ونبتدئ بذكر أسباب الصحة في الباب الثاني .

الباب الثاني في علم الكسب بطريق البيع والربا والسلم والإجارة والقراض والشركة

وبيان شروط الشرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع

اعلم أن تحصيل علم هذا الباب واجب على كل مسلم مكتسب ، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وإنما هو طلب العلم المحتاج إليه ، والمكتسب يحتاج إلى علم الكسب ، ومهما حصل علم هذا الباب وقف على مفسدات المعاملة فيتقيا ، وما شذ عنه من الفروع المشككة فيقع على سبب إشكالها فيتوقف فيها إلى أن يسأل ، فإنه إذا لم يعلم أسباب الفساد بعلم جملي فلا يدري متى يجب عليه التوقف والسؤال ، ولو قال لأقدم العلم ولكنني أصبر إلى أن تقع لي الواقعة فعندها أعلم وأستفتي ، فيقال له : وبم تعلم وقوع الواقعة مهما لم تعلم جل مفسدات العقود ، فإنه يستمر في التصرفات ويظنها صحيحة مباحة ، فلا بد له من هذا القدر من علم التجارة لتمييز له المباح عن المحظور ، وموضع الإشكال عن موضع الوضوح : ولذلك روى عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول : لا يبيع في سوقنا إلا من يفقه ، وإلا أكل الربا شاء أم أبى ، وعلم العقود كثير ولكن هذه العقود الستة لا تنفك المكاسب عنها : وهي البيع والربا والسلم والإجارة والشركة والقراض ، فلنشرح شروطها :

العقد الأول : البيع

وقد أحله الله تعالى وله ثلاثة أركان : العاقد . والمعقود عليه ، واللفظ .

الركن الأول : العاقد ، ينبغى للتاجر أن لا يعامل بالبيع أربعة : الصبي ، والمجنون ، والعبد ، والأعمى ، لأن الصبي غير مكلف ، وكذا المجنون ، ويجهل باطل ، فلا يصح بيع الصبي وإن أذن له فيه الولي عند الشافعي ، وما أخذه منهما مضمون عليه لهما

وماسله في المعاملة إلهما فضاء في أيديهما فهو المضيق له . وأما العبد العاقل فلا يصح بيعه وشراؤه إلا باذن سيده فعلى البقال والحجاز والقصاب وغيرهم أن لا يعاملوا العبيد مالم تأذن لهم السادة في معاملتهم ، وذلك بأن يسمعه صريحا أو ينتشر في البلد أنه مأذون له في الشراء لسيدته وفي البيع له ، فيقول على الاستفاضة أو على قول عدل يخبره بذلك ، فإن عامله بغير إذن السيد فعقده باطل ، وما أخذه منه مضمون عليه لسيدته ، وماسله إن ضاع في يد العبد لا يتعلق برقبته ولا يضمه سيده ، بل ليس له إلا المطالبة إذا عتق . وأما الأعمى فإنه يبيع ويشترى مالا يرى فلا يصح ذلك ، فليأمره بأن يوكل وكيلًا بصيرا ليشتري له أو يبيع ، فيصح توكيله ويصح بيعه وكيله ، فإن عامله التاجر بنفسه فالمعاملة فاسدة ، وما أخذه منه مضمون عليه بقيمته . وما سله إليه أيضا مضمون له بقيمته . وأما الكافر فتجوز معاملته لكن لا يباع منه المصحف ولا العبد المسلم ، ولا يباع منه السلاح إن كان من أهل الحرب ، فإن فعل فبي معاملات مردودة وهو عاص بها ربه . وأما الجندي من الأتراك والتركيانية والعرب والأكراد والسراق والخونة وأكلة الربا والظلمة وكل من أكثر ماله حرام ، فلا ينبغي أن يملك مما في أيديهم شيئا لأجل أنها حرام إلا إذا عرف شيئا بعينه أنه حلال ، وسيأتى تفصيل ذلك في كتاب الحلال والحرام .

الركن الثاني في العقود عليه : وهو المال المقصود نقله من أحد العاقلين إلى الآخر ثمنا كان أو مئنا فيعتبر فيه ستة شروط . (الأول) أن لا يكون نجسا في عينه فلا يصح بيع كلب وخنزير ، ولا بيع زبل وعذرة ، ولا بيع العاج والاوراق المتخذة منه ، فإن العظم نجس بالموت ، ولا يطهر الفيل بالدج ، ولا يطهر عظمه بالتذكية ، ولا يجوز بيع الخمر ولا بيع الدوك النجس المستخرج من الحيوانات التي لا تؤكل ، وإن كان يصلح للاستصباح أو طلاء السفن ، ولا بأس ببيع الدهن الطاهر في عينه الذي نجس بوقوع نجاسة أو موت فأرة فيه ، فإنه يجوز الانتفاع به في غير الأكل ، وهو في عينه ليس بنجس ، وكذلك لأرى بأسا ببيع بزر القز ، فإنه أصل حيوان ينتفع به ، وتشبيهه بالبيض وهو أصل حيوان أولى من تشبيهه بالروث . ويجوز بيع فأرة المسك ويقضى بطهارتها إذا انفصلت من الظية في حالة الحياة . (الثاني) أن يكون منتفعا به فلا يجوز بيع الحشرات ولا الفأرة ولا الحية ، ولا التفات إلى انتفاع المشعبد بالحية ، وكذا لا التفات إلى انتفاع أصحاب الخلق بإخراجها من السلة وعرضها على الناس ، ويجوز بيع الهرة والنحل وبيع الفهد والأسد وما يصلح لصيد أو ينتفع بجده ، ويجوز بيع الفيل لأجل الحمل ، ويجوز بيع الطوطى وهي الببغاء والطاوس والطيور المليحة الصور وإن كانت لا تؤكل ، فإن التفرج بأصواتها والنظر إليها غرض مقصود مباح ، وإنما الكلب هو الذي لا يجوز أن يقتنى إعجابا بصورته لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ^(١) . ولا يجوز بيع العود والصنج والمزامير والملاهي فإنه لا منفعة لها شرعا ، وكذا بيع الصور المصنوعة من الطين كالحوانات التي تباع في الأعياد للعب الصبيان فإن كسرها واجب شرعا ، وصور الأشجار متسامح بها ، وأما الثياب والأطباق وعليها صور الحيوانات فيصح بيعها وكذا الستور ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها « اتخذى منها نمارق ^(٢) » ، ولا يجوز استعمالها منصوبة ، ويجوز موضوعة ، وإذا جاز الانتفاع من وجه صح البيع لذلك الوجه . (الثالث) أن يكون المتصرف فيه مملوكا للعائد أو مأذونا من جهة المالك ، ولا يجوز أن يشتري من غير المالك انتظارا للإذن من المالك ، بل لو رضى بعد ذلك وجب استئناف العقد ، ولا ينبغي أن يشتري من الزوجة مال

الباب الثاني : في علم الكسب

- (١) حديث : النهى عن اقتناء الكلب : متفق عليه من حديث ابن عمر « من اقتنى كلبا إلا كلب ماشية أو ضاريا نقص من عمله كل يوم فبراطان » . (٢) حديث « اتخذى منها نمارق » يقوله لعائشة : متفق عليه من حديثها .
(٩ - إحياء علوم الدين - ٢)

الزوج ولا من الزوج مال الزوجة ، ولا من الوالد مال الولد ولا من الولد مال الوالد . اعتمادا على أنه لو عرف لرضى ، فإنه إذا لم يكن الرضا متقدماً لم يصح البيع ، وأمثال ذلك مما يجري في الأسواق ؛ فواجب على العبد المتدين أن يحتز منه . (الرابع) أن يكون المعقود عليه مقدورا على تسليمه شرعا وحسا ؛ فما لا يقدر على تسليمه حسا لا يصح بيعه كالأبق والسماك في الماء والجنين في البطن وعصب الفحل ؛ وكذلك بيع الصوف على ظهر الحيوان ، واللبن في الضرع لايحوز ، فإنه يتعذر تسليمه لاختلاط غير المبيع بالمبيع ، والمعجوز عن تسليمه شرعا كالمرهون والموقوف ، والمستولدة فلا يصح بيعها أيضا ، وكذا بيع الأم دون الولد إذا كان الولد صغيرا ، وكذا بيع الولد دون الأم ؛ لأن تسليمه تفريق بينهما وحرام ، فلا يصح التفريق بينهما بالبيع . (الخامس) أن يكون المبيع معلوم العين والقدر والوصف ، أما العلم بالعين فبأن يشير إليه بعينه ، فلو قال : بعثك شاة من هذا القطيع أى شاة أردت ، أو ثوبا من هذه الثياب التي بين يديك ، أو ذراعا من هذا الكرياس ، وخذه من أى جانب شئت ، أو عشرة أذرع من هذه الأرض ، وخذه من أى طرف شئت ، فالبيع باطل ، وكل ذلك مما يعتاده المتساهلون في الدين إلا أن يبيع شائعا ، مثل أن يبيع نصف الشيء أو عشره ، فإن ذلك جائز . وأما العلم بالقدر فأنما يحصل بالكيل أو الوزن أو النظر إليه ، فلو قال بعثك هذا الثوب بما باع به فلان ثوبه وهما لا يدريان ذلك فهو باطل ، ولو قال : بعثك بزنة هذه الصنجة فهو باطل ، إذا لم تكن الصنجة معلومة ، ولو قال : بعثك هذه الصبرة من الخنطة فهو باطل : أو قال : بعثك بهذه الصرة من الدراهم أو بهذه القطعة من الذهب وهو يراها . صح البيع وكان تخمينه بالنظر كافيا في معرفة المقدار . وأما العلم بالوصف فيحصل بالرؤية في الأعيان ، ولا يصح بيع الغائب إلا إذا سبقت رؤيته مدة لا يغلب التغير فيها ، والوصف لا يقوم مقام العيان . هذا أحد المذهبين ، ولا يحوز بيع الثوب في المنسج اعتمادا على الرقوم ، ولا بيع الخنطة في سبلها ، ويحوز بيع الأرض في قشرته التي يدخر فيها ، وكذا بيع الجوز واللوز في القشرة السفلى ، ولا يحوز في القشرتين ، ويحوز بيع الباقلاء الرطب في قشرته للحاجة ، ويتساح ببيع الفقاع لجريان عادة الأولين به ولكن نجمله لإباحة بعوض ، فإن اشتراه لبيعه فالقياس بطلانه لأنه ليس مستترا ستر خلقة ، ولا يبعد أن يتساح به ، إذنى إخراجا لإفساده كالرمان وما يستر بستر خلق ممة . (السادس) أن يكون المبيع مقبوضا إن كان قد استفاد ملكه بمعاوضة ، وهذا شرط خاص ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع مالم يقبض ^(١) ويستوى فيه العقار والمنقول ، فكل ما اشتراه أو باعه قبل القبض فيبيعه باطل ، وقبض المنقول بالنقل ، وقبض العقار بالتخلية ، وقبض ما ابتاعه بشرط الكيل لا يتم إلا بأن يكتاله ، وأما بيع الميراث والوصية والوديعة ومالم يكن المالك حاصلا فيه بمعاوضة ، فهو جائز قبل القبض .

الركن الثالث : لفظ العقد ، فلا بد من جريان إيجاب وقبول متصل به بلفظ دال على المقصود ، مفهوم إما صريح أو كناية ، فلو قال : أعطيتك هذا بذاك ، بدل قوله : بعثك ، فقال : قبلته ، جاز مهما قصدا به البيع ، لأنه قد يتحمل الإعارة إذا كان في ثوبين أو دابتين ، والنية تدفع الاحتمال ، والصريح أقطع للخصومة ، ولكن الكناية تفيد الملك أيضا والحل فيما يختاره ، ولا ينبغي أن يقرر بالبيع شرطا على خلاف مقتضى العقدة ، فلو شرط أن يزيد شيئا آخر ، وأن يحمل المبيع إلى داره ، أو اشترى الحطب بشرط النقل إلى داره : كل ذلك فاسد إلا إذا أفرد استجاره على النقل بأجرة معلومة منفردة عن الشراء للمنقول ، ومهما لم يجر بينهما إلا المعاطاة بالفعل دون التلطف باللسان لم يتعد البيع

(١) حديث النهي عن بيع مالم يقبض : متفق عليه من حديث ابن عباس .

عند الشافعي أصلا ، وانعقد عند أبي حنيفة إن كان في المحقرات ثم ضبط المحقرات عسير ؛ فإن رد الأمر إلى العادات فقد جاوز الناس المحقرات في المعاطاة ، إذ يتقدم الدلال إلى البزاز يأخذ منه ثوبا دياجا قيمته عشرة دنانير مثلا ويحمله إلى المشتري ويعود إليه بأنه ارتضاه ، فيقول له ؛ خذ عشرة ، فيأخذ من صاحبه العشرة ويحملها ويسلها إلى البزاز ، فيأخذها ويتصرف فيها ، ومشتري الثوب يقطعه ولم يجر بينهما إيجاب وقبول أصلا ، وكذلك يجتمع المجهزون على حانوت البيع ، فيعرض متاعا قيمته مائة دينار مثلا فيمن يزيد ، فيقول أحدهم : هذا على بتسعين ، ويقول الآخر : هذا على بخمسة وتسعين ، ويقول الآخر : هذا بمائة ، فيقال له زن ، فيزن ويسلم ويأخذ المتاع من غير إيجاب وقبول ؛ فقد استمرت به العادات ، وهذه من المعضلات التي ليست تقبل العلاج ، إذ الاحتمالات ثلاثة : إمافتح باب المعاطاة مطلقا للحقير والتفيس - وهو محال ، إذ فيه نقل الملك من غير لفظ دال عليه ، وقد أحل الله البيع ، والبيع اسم للإيجاب والقبول ، ولم يجر ولم ينطلق اسم البيع على مجرد فعل بتسليم وتسلم ، فبماذا يحكم بانتقال الملك من الجانيين ، لاسيما في الجوارى والعبيد والعقارات والدواب النفيسة وما يكثر التنازع فيه ؛ إذ للسلم أن يرجع ويقول : قد ندمت وما بعته ، إذ لم يصدر مني إلا مجرد تسليم ، وذلك ليس ببيع . (الاحتمال الثاني) أن نسد الباب بالسكينة كما قال الشافعي رحمه الله من بطلان العقد ، وفيه إشكال من وجهين ، أحدهما : أنه يشبه أن يكون ذلك في المحقرات معتادا في زمن الصحابة : ولو كانوا يتكفون الإيجاب والقبول من البقال والحجاز والقصا لثقل عليهم فعله ، ولنقل ذلك نقلا منتشرا ، ولما كان يشتهر وقت الإعراض بالسكينة عن تلك العادة ؛ فإن الأعصار في مثل هذا تتفاوت . والثاني : أن الناس الآن قد انهمكوا فيه فلا يشتري الإنسان شيئا من الأطعمة وغيرها إل ويعلم أن البائع قد ملكه بالمعاطاة ، فأى فائدة في تلفظه بالعقد إذا كان الأمر كذلك ، (الاحتمال الثالث) أن يفصل بين المحقرات وغيرها كما قاله أبو حنيفة رحمه الله ، وعند ذلك يتعسر الضبط في المحقرات ، ويشكل وجه نقل الملك من غير لفظ يدل عليه ، وقد ذهب ابن سريج إلى تخريج قول للشافعي رحمه الله على وفقه وهو أقرب الاحتمالات إلا الاعتدال ، فلا بأس لو ملنا إليه لمسيس الحاجات ، ولعموم ذلك بين الخلق ، ولما يغلب على الظن بأن ذلك كان معتادا في الأعصار الأولى . فأما الجواب عن الإشكالين : فهو أن نقول : أما الضبط في الفصل بين المحقرات وغيرها فليس علينا تكلفه بالتقدير ، فإن ذلك غير ممكن ، بل له طرفان واختان إذ لا يخفى أن شراء البقل وقليل من الفواكه والخنز والحم من المحدود من المحقرات التي لا يعتاد فيها إلا المعاطاة ، وطالب الإيجاب والقبول فيه يعد مستقصيا ويستبرد تكليفه لذلك ويستقل وينسب إلى أنه يقيم الوزن لأمر حقير ووجهه هذا طرف الحقارة ، والطرف الثاني الدواب والعبيد والعقارات والثياب النفيسة فذلك مما لا يستبعد تكلف الإيجاب والقبول فيها ؟ وبينهما أوساط متشابهة يشك فيها في محل الشبهة ؛ فحق ذي الدين أن يميل فيها إلى الاحتياط وجميع ضوابط الشرع فيما يعلم بالعادة كذلك ينقسم إلى أطراف واضحة وأوساط مشكلة . وأما الثاني - وهو طلب سبب لنقل الملك ، فهو أن يجعل الفعل باليد أخذا وتسليما سببا لعينه بل لدلالته ، وهذا الفعل قد دل على مقصود البيع دلالة مستمرة في العادة ، وانضم إليه لمسيس الحاجة وعادة الأولين وأطراف جميع العادات بقبول الهدايا من غير إيجاب وقبول مع التصرف فيها ، وأي فرق بين أن يكون فيه عوض أو لا يكون ، إذ الملك لا بد من نقله في الهبة أيضا ، إلا أن العادة السالفة لم تفرق في الهدايا بين الحقير والتفيس ، بل كان طلب الإيجاب والقبول يستقبح فيه كيف كان ، وفي المبيع لم يستقبح في غير المحقرات هذا ما نراه أعدل الاحتمالات وحق الورع المتدين أن لا يدع الإيجاب والقبول للخروج عن شبهة الخلاف ، فلا ينبغي أن يمتنع من ذلك لأجل

أن البائع قد تملكه بغير إيجاب وقبول ؛ فإنّ ذلك لا يعرف تحقيقاً ؛ فربما اشتراه بقبول وإيجاب ، فإن كان حاضراً عند شرائه أو أفقر البائع به فيمتنع منه وليشتر من غيره ، فإن كان الشيء محقراً وهو إليه محتاج فليتلطف بالإيجاب والقبول فإنه يستفيد به قطع الخصومة في المستقبل معه ، إذ الرجوع من اللفظ الصريح غير ممكن ، ومن الفعل ممكن .

فإن قلت : فإن أمكن هذا فيما يشتره ، فكيف يفعل إذا حضر في ضيافة أو على مائدة وهو يعلم أن أصحابها يكتفون بالمعاطاة في البيع والشراء أو سمع منهم ذلك أو رآه ؟ أيجب عليه الامتناع من الأكل ؟ فأقول : يجب عليه الامتناع من الشراء إذا كان ذلك الشيء الذي اشتروه مقداراً نفيساً ولم يكن من المحقرات . وأما الأكل ، فلا يجب الامتناع منه ، فإنني أقول ؛ إن ترددنا في جعل الفعل دلالة على نقل الملك ، فلا ينبغي أن لانجعل دلالة على الإباحة ، فإن أمر الإباحة أوسع ، وأمر نقل الملك أضيق ، فكل مطعوم جرى فيه بيع معاطاة فتسلم البائع إذن في الأكل يعلم ذلك بقرينة الحال ، كما إذا دخل الحمام ، والإذن في الإطعام لمن يريده المشتري فينزل منزلة مالو قال : أبحث لك أن تأكل هذا الطعام ، أو تطعم من أردت ؛ فإنه يحل له ولو صرح وقال : كل هذا الطعام ثم أغرم لي عرضه ، حل الأكل ويلزمه الضمان بعد الأكل ، هذا قياس الفقه عندى ، ولكنه بعد المعاطاة أكل ملكه ومتلفاً له فعليه الضمان وذلك في ذمته ، والثمن الذي سلمه لمن كان مثل قيمته فقد ظفر المستحق بمثل حقه ، فله أن يملكه مهما عجز عن مطالبة من عليه ، وإن كان قادراً على مطالبته فإنه لا يملك ما ظفر به من ملكه ، لأنه ربما لا يرضى بذلك العين أن يصرفها إلى دينه فعليه المراجعة . وأما ههنا فقد عرف رضاه بقرينة الحال عند التسليم ، فلا يبعد أن يجعل الفعل دلالة على الرضاء بأن يستوفى دينه مما يسلم إليه فيأخذه بحقه ، لكن على كل الأحوال جانب البائع أغرض لأن ما أخذه قد يريد المالك ليتصرف فيه ولا يمكنه التملك إلا إذا أ تلف عين طعامه في يد المشتري ، ثم ربما يفترق إلى استئناف قصد التملك ، ثم يكون قد تملك بمجرد رضا استفادته من الفعل دون القول . وأما جانب المشتري للطعام وهو لا يريد إلا الأكل فهين ، فإن ذلك يباح بالإباحة المفهومة من قرينة الحال ، ولكن ربما يلزم من مشاورته أن الضيف يضمن ما أ تلفه ، وإنما يسقط الضمان عنه إذا تملك البائع ما أخذه من المشتري فيسقط ، فيكون كالقاضي دينه والمتحمل عنه ، فهذا ما نراه في قاعدة المعاطاة على غموضها ، والعلم عند الله وهذه احتمالات وظنون رددناها ، ولا يمكن بناء الفتوى إلا على هذه الظنون ، وأما الورع فإنه ينبغي أن يستفتى قلبه ويتق مواضع الشبه .

العقد الثاني : عقد الربا

وقد حرمه الله تعالى وشدد الأمر فيه ، ويجب الاحتراز منه على الصياغة المتعاملين على التقدين ، وعلى المتعاملين على الأطمعة ، إذ لا ربا إلا في نقد أو في طعام . وعلى الصيرفي أن يحترز من النسيئة والفضل . أما النسيئة فإن لا يبيع شيئاً من جواهر النقدين بشيء من جواهر النقدين إلا يداً بيد : وهو أن يجري التقابض في المجلس ، وهذا احتراز من النسيئة ، وتسليم الصيارفة الذهب إلى دار الضرب وشراء الدنانير المضروبة حرام من حيث النساء ، ومن حيث إن الغالب أن يجري فيه تفاضل ، إذ لا يرد المضروب بمثل وزنه . وأما الفضل ، فيحترز منه في ثلاثة أمور : في بيع المكسر بالصحيح ، فلا تجوز المعاملة فيهما إلا مع المماثلة . وفي بيع الجيد بالردىء ، فلا ينبغي أن يشتري رديئاً بجيد دونه في الوزن ، أو يبيع رديئاً بجيد فرقه في الوزن ، أعنى إذا باع الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، فإن اختلف الجنس فلا حرج في الفضل . والثالث في المركبات من الذهب والفضة كاللؤلؤة من الذهب والفضة : إن كان

مقدرا الذهب مجهولا لم تصح المعاملة عليها أصلا إلا إذا كان ذلك نقدا جاريا في البلد فإننا نرخص في المعاملة عليه إذا لم يقابل بالنقد ، وكذا الدراهم المغشوشة بالنحاس إن لم تكن رائجة في البلد لم تصح المعاملة عليها ، لأن المقصود منها النقرة وهي مجهولة ، وإن كان نقدا رائجا في البلد رخصنا في المعاملة لأجل الحاجة وخروج النقرة عن أن يقصد استخراجها ، ولكن لا يقابل بالنقرة أصلا ، وكذلك كل حلى مركب من ذهب وفضة فلا يجوز شراؤه لا بالذهب ولا بالفضة ، بل ينبغي أن يشتري بمتاع آخر إن كان قدر الذهب منه معلوما ، إلا إذا كان بموهها بالذهب تمريها لا يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار ، فيجوز بيعها بمثلها من النقرة بما أريد من غير النقرة ، وكذلك لا يجوز للصيرفي أن يشتري قلادة فيها خرز وذهب بذهب ، ولا أن يبيعه ، بل بالفضة يدا بيد إن لم يكن فيها فضة ولا يجوز شراء ثوب منسوج بذهب يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار بذهب ، ويجوز بالفضة غيرها وأما المتعاملون على الأطعمة فعليهم التقابض في المجلس ، يختلف جنس الطعام المبيع والمشتري أو لم يختلف ؛ فإن اتحد الجنس فعليهم التقابض ومراعاة المائلة ، والمعتاد في هذا معاملة القصاب بأن يسلم إليه الغنم ويشترى بها اللحم نقدا أو نسيئة فهو حرام ، ومعاملة الخباز بأن يسلم إليه الخنطة ويشترى بها الخبز نسيئة أو نقدا فهو حرام ، ومعاملة العصار بأن يسلم إليه البزر والسمسم والزيتون ليأخذ منه الأدهان فهو حرام ، وكذا اللبان يعطى اللبني ليؤخذ منه الجبن والسمن والزبد وسائر أجزاء اللبني ، فهو أيضا حرام ، ولا يباع الطعام بغير جنسه من الطعام إلا نقدا ، وبجنسه إلا نقدا ومتائلا ، وكل ما يتخذ من الشيء المطعوم فلا يجوز أن يباع به متائلا ولا متفاضلا ، فلا يباع بالخنطة دقيق وخبز وسويق ، ولا بالعنب والتمر دبس وخل وعصير ، ولا باللبن سمن وزبد ومخيض ومصل وجبن ، والمائلة لا تنفذ إذا لم يكن الطعام في حال كمال الادخار ، فلا يباع الرطب بالرطب والعنب بالعنب متفاضلا ومتائلا ، فهذه جل مقنعة في تعريف البيع والتنبيه على ما يشعر التاجر بمثارات الفساد حتى يستفتى فيها إذا تشكك والتبس عليه شيء منها ، وإذا لم يعرف هذا لم يتفطن لمواضع السؤال ، واقتحم الربا والحرام وهو لا يدري .

العقد الثالث : السلم

وليراع التاجر فيه عشرة شروط : (الأول) أن يكون رأس المال معلوما على مثله حتى لو تعذر تسليم المسلم فيه أمكن الرجوع إلى قيمة رأس المال : فإن أسلم كفا من الدراهم جزافا في كثر خنطة لم يصح في أحد القولين . (الثاني) أن يسلم رأس المال في مجلس العقد قبل التفريق فلو تفترقا قبل القبض انفسخ السلم . (الثالث) أن يكون المسلم فيه مما يمكن تعريف أوصافه كالحبوب والحيوانات والمعادن والقطن والصوف والإبريسم والألبان واللحوم ومتاع العطارين وأشباهها ، ولا يجوز في المعجونات والمركبات وما تختلف أجزاؤه كالقسي المنوعة والنبل المعمول والخفاف والنعال المختلفة أجزاؤها وصنعها وجلود الحيوانات . ويجوز السلم في الخبز . وما يتطرق إليه من اختلاف قدر الملح والماء بكثرة الطبخ وقلته يعني عنه ويتسامح فيه . (الرابع) أن يستقصى وصف هذه الأمور القابلة للوصف . حتى لا يبق وصف تتفاوت به القيمة تفاوتا لا يتغابن بمثله الناس إلا ذكره . فإن ذلك الوصف هو القائم مقام الرؤية في البيع . (الخامس) أن يجعل الأجل معلوما إن كان مؤجلا فلا يؤجل إلى الحصاد ولا إلى إدراك الثمار بل إلى الأشهر والأيام فإن الإدراك قد يتقدم وقد يتأخر . (السادس) أن يكون المسلم فيه مما يقدر على تسليمه وقت الحبل ويؤمن فيه وجوده غالبا . فلا ينبغي أن يسلم في العنب إلى أجل لا يدرك فيه . وكذا سائر الفواكه ، فإن كان الغالب وجوده وجاء المحل ويجز عن التسليم بسبب آفة . فله أن يمهله إن شاء أو يفسخ ويرجع في رأس المال

إن شاء . (السابع) أن يذكر مكان التسليم فيما يختلف الغرض به كي لا يشير ذلك نزاعاً (الثامن) أن لا يعلقه بمعين فيقول : من حنطة هذا الزرع ، أو ثمرة هذا البستان ، فإن ذلك يبطل كونه ديناً . نعم لو أضاف إلى ثمرة بلد أو قرية كبيرة ، لم يضر ذلك . (التاسع) أن لا يسلم في شيء نفيس عزيز الوجود مثل درة موصوفة يعز وجود مثلها ، أو جارية حسناء معها ولدها ، أو غير ذلك مما لا يقدر عليه غالباً . (العاشر) أن لا يسلم في طعام مهما كان رأس المال طعاماً سواء كان من جنسه أو لم يكن ، ولا يسلم في نقد إذا كان رأس المال نقداً ، وقد ذكرنا هذا في الربا .

العقد الرابع : الإجارة

وله ركنان : الأجرة ، والمنفعة . فأما العاقد واللفظ فيعتبر فيه ما ذكرناه في البيع والأجرة كائناً ، فينبغي أن يكون معلوماً وموصوفاً بكل ما شرطناه في المبيع إن كان عيناً ، فإن كان ديناً فينبغي أن يكون معلوم الصفة والقدر ، وليحترز فيه عن أمور جرت العادة بها ، وذلك مثل كراء الدار بعبارتها فذلك باطل ، إذ قدر العمارة مجهول . ولو قدر دراهم وشرط على المكترى أن يصرفها إلى العمارة لم يحجز ، لأن عمله في الصرف إلى العمارة مجهول . ومنها استئجار السلاخ على أن يأخذ الجلد بعد السلخ ، واستئجار حامل الجيف بجلد الجيفة ، واستئجار الطحان بالنخالة أو بعض الدقيق فهو باطل ، وكذلك كل ما يتوقف حصوله وانفصاله على عمل الأجير ، فلا يجوز أن يجعل أجرة . ومنها : أن يقدر في إجارة الدور والخوانيت مبلغ الأجر ، فلو قال لكل شهر دينار ولم يقدر أشهر الإجارة كانت المدة مجهولة ولم تنعقد الإجارة .

الركن الثاني : المنفعة المقصودة بالإجارة وهي العمل وحده إن كان عمل مباح معلوم يلحق العامل فيه كلفة ويتطوع به الغير عن الغير ، فيجوز الاستئجار عليه ؛ وجملة فروع الباب تدرج تحت هذه الرابطة ، ولكننا لا نطوّل شرحها فقد طولنا القول فيها في الفقهيات ، وإنما نشير إلى ما تعم به البلوى ، فليراع في العمل المستأجر عليه خمسة أمور : (الأول) أن يكون متقوماً ، بأن يكون فيه كلفة وتعب . فلو استأجر طعاماً ليزين به الدكان . أو أشجاراً ليحفف عليها الثياب ؛ أو دراهم ليزين بها الدكان . لم يحجز ، فإن هذه المنافع تجري مجرى حبة سمسم وحبة بر من الأعيان وذلك لا يجوز بيعه ، وهي كالنظر في مرآة الغير ، والشرب من بئر ، والاستغلال بجداره ، والاقتباس من ناره ولهذا لو استأجر يباعاً على أن يتسكّم بكلمة يروج بها سلعته لم يحجز . وما يأخذه البياعون عوضاً عن حشمتهم وجاههم وقبول قولهم في ترويج السلع فهو حرام ، إذ ليس يصدر منهم إلا كلمة لائعب فيها ولا قيمة لها ، وإنما يحل لهم ذلك إذ تعبوا بكثرة التردد أو بكثرة الكلام في تأليف أمر المعاملة . ثم لا يستحقون إلا الأجرة المثل ، فأما ما تواطأ عليه الباعة فهو ظلم وليس مأخوذاً بالحق . (الثاني) أن لا تتضمن الإجارة استيفاء عين مقصودة فلا يجوز إجارة الكرم لارتفاعه . ولا إجارة المواشى للبها . ولا إجارة البساتين لثمارها . ويجوز استئجار المربعة ويكون اللبن تابعا : لأن أفراد غير ممكن . وكذا يتسامح بحجر الورق وخيط الخياط . لأنهما لا يقصدان على حيالهما . (الثالث) أن يكون العمل مقدوراً على تسليمه حساً وشرعاً . فلا يصح استئجار الضعيف على عمل لا يقدر عليه . ولا استئجار الأخرس على التعليم ونحوه وما يحرم فعله فالشرع يمنع من تسليمه . كالأستئجار على قلع سن سليمة أو قطع عضو لا يرخص الشرع في قطعه ؛ أو استئجار الخائض على كذب المسجد . أو المعلم على تعليم السحر أو الفحش . أو استئجار زوجة الغير على الإرضاع دون إذن زوجها . أو استئجار المصور على تصوير الحيوانات . أو استئجار الصائغ على صيغة الألوان من الذهب والفضة فكل ذلك باطل . (الرابع) أن لا يكون العمل واجباً على الأجير . أو لا يكون بحيث لا تجري

النيابة فيه عن المستأجر . فلا يجوز أخذ الأجرة على الجهاد ولا سائر العبادات التي لا نيابة فيها . إذ لا يقع ذلك عن المستأجر . ويجوز عن الحج وغسل الميت وحفر القبور ودفن الموتى وحمل الجنازة . وفي أخذ الأجرة على إمامة صلاة التراويح وعلى الأذان وعلى التصدي للتدريس وإقراء القرآن خلاف . أما الاستئجار على تعليم مسألة بعينها أو تعليم سورة بعينها لشخص معين فصحيح . (الخامس) أن يكون العمل والمنفعة معلوما . فالخياط يعرف عمله بالثوب . والمعلم يعرف عمله بتعيين السورة ومقدارها . وحمل الدواب يعرف بمقدار المحمول وبمقدار المسافة . وكل ما يثير خصومة في العادة فلا يجوز إهماله . وتفصيل ذلك يطول . وإنما ذكرنا هذا القدر ليعرف به جليات الأحكام ويتفطن به لمواقع الإشكال . فيسأل . فإن الاستقصاء شأن المفتي لأشأن العوام .

العقد الخامس : القراض

وليراع فيه ثلاثة أركان :

الركن الأول : رأس المال ، وشرطه أن يكون نقدا معلوما مسلما إلى العامل ؛ فلا يجوز القراض على القلوس ولا على العروض ؛ فإن التجارة تضيق فيه . ولا يجوز على صرة من الدراهم ، لأن قدر الربح لا يتبين فيه ، ولو شرط مالك اليد لنفسه لم يجز ، لأن فيه تضيق طريق التجارة .

الركن الثاني : الربح ، وليكن معلوما بالجزئية بأن يشترط له الثلث أو النصف أو ما شاء ، فلو قال : على أن لك من الربح مائة والباقي لي ، لم يجز إذ ربما لا يكون الربح أكثر من مائة فلا يجوز تقديره بمقدار معين بل بمقدار شائع .

الثالث : العمل الذي على العامل ، وشرطه أن يكون تجارة غير مضيقه عليه بتعيين وتأقيت ، فلو شرط أن يشتري بالمال ماشية ليطلب نسلها فيتقاسمان النسل ، أو حنطة فيخبزها ويتقاسمان الربح ، لم يصح ، لأن القراض مأذون فيه في التجارة وهو البيع والشراء وما يقع من ضرورتهما فقط ، وهذا حرف - أعني الخبز ورعاية المواشي ، ولو ضيق عليه وشرط أن لا يشتري إلا من فلان أو لا يتجر إلا في الحز الآخر ، أو شرط ما يضيق باب التجارة فسد العقد ، ثم مهما انعقد فالعامل وكيل فيتصرف بالغطه تصرف الوكيل ، ومهما أراد المالك الفسخ فله ذلك ، فإذا فسخ في حالة المال كله فيها فقد لم يخف وجه القسمة وإن كان عروضاً ولا ربح فيه رد عليه ولم يكن للمالك تكليفه أن يرده إلى النقد ، لأن العقد قد انفسخ وهو لم يلتزم شيئا ، وإن قال العامل : ابيعه ، وأبى المالك ، فالتبوع رأى المالك ، إلا إذا وجد العامل زبونا يظهر بسببه ربح على رأس المال ، ومهما كان ربح فعلى العامل بيع مقدار رأس المال بجنس رأس المال لا بنقد آخر ، حتى يتميز الفاضل ربما فيشتركان فيه ، وليس عليهم بيع الفاضل على رأس المال ، ومهما كان رأس السنة فعليهم تعرف قيمة المال لأجل الزكاة : فإذا كان قد ظهر من الربح شيء فالأفيس أن زكاة نصيب العامل على العامل وأنه يملك الربح بالظهور ، وليس للعامل أن يسافر بمال القراض دون إذن المالك ، فإن فعل صحت تصرفاته ، ولكنه إذا فعل ضمن الأعيان والأثمان جميعا ، لأن عدوانه بالنقل يتعدى إلى ثمن المنقول ، وإن سافر بالإذن جاز ونفقة النقل وحفظ المال على مال القراض ، كما أن نفقة الوزن والكيل والحل الذي لا يعتاد التاجر مثله على رأس المال ، فأما نشر الثوب وطيه والعمل اليسير المعتاد فليس له أن يبذل عليه أجرة . وعلى العامل نفقته وسكناء في البلد ، وليس عليه أجرة الخانوت . ومهما تجرد في السفر لمال القراض فنفقته في السفر على مال القراض ، فإذا رجع فعليه أن يرد بقايا آلات السفر من المطهرة والسفرة وغيرها .

العقد السادس : الشركة

وهي أربعة أنواع : ثلاثة منها باطلة : (الأول) شركة المفاوضة ؛ وهو أن يقولوا : تفاوضنا للنشترك في كل مالنا وعلينا ومالاها بمتازان ، فهي باطلة ، (الثاني) شركة الأبدان : وهو أن يتشارطا الاشتراك في أجرة العمل فهي باطلة . (الثالث) شركة الوجوه : وهو أن يكون لأحدهما حشمة وقول مقبول فيكون من جهته التنفيل ومن جهة غيره العمل ، فهذا أيضا باطل . وإنما الصحيح العقد الرابع المسمى شركة العنان : وهو أن يختلط مالاها بحيث يتعذر التمييز بينهما إلا بقسمة ، وبأذن كل واحد منهما لصاحبه في التصرف ، ثم حكمهما توزيع الربح والخسران على قدر المالين ، ولا يجوز أن يغير ذلك بالشرط ، ثم بالعزل يتمتع التصرف عن المعزول ، وبالقسمة يفصل الملك عن الملك ، والصحيح أنه يجوز عقد الشركة على العروض المشتراة ، ولا يشترط النقد ، بخلاف القراض .

فهذا القدر من علم الفقه يجب تعلمه على كل مكتسب ، ولما اقتحم الحرام من حيث لا يدري . وأمام معاملة القصاب والخباز والبقال فلا يستغنى عنها المكتسب وغير المكتسب ، والخلل فيها من ثلاثة وجوه : من إهمال شروط البيع ، أو إهمال شروط السلم ، أو الاقتصار على المعاطاة ، إذ العادات جارية بكتبه الخطوط على هؤلاء بحاجات كل يوم ، ثم المحاسبة في كل مدة ، ثم التقويم بحسب ما يقع عليه التراضي ، وذلك مما نرى القضاء بإباحته للحاجة ، ويحمل تسليمهم على إباحة تناول مع انتظار العوض فيحل أكله ، ولكن يجب الضمان بأكله وتلزم قيمته يوم الإلتلاف ، فتجتمع في الذمة تلك القيم ، فإذا وقع التراضي على مقدار ما فينبغي أن يلتزم منهم الإبراء المطلق لاتبقي عليه عهدة إن تطرق إليه تفاوت في التقويم ، فهذا ما يجب القناعة به ، فإن تكليف وزن الثمن لكل حاجة من الحوائج في كل يوم وكل ساعة تكليف شطط ، وكذا تكليف الإيجاب والقبول وتقدير ثمن كل قدر يسير منه فيه عسر ، وإذا كثر كل نوع سهل تقويمه ، والله الموفق .

الباب الثالث : في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

اعلم أن المعاملة قد تجرى على وجه يحكم المفتى بصحتها وانعقادها ولكنها تشتمل على ظلم يتعرض به المعامل لسنخ الله تعالى ، إذ ليس كل نهى يقتضي فساد العقد ، وهذا الظلم يعني به ما استضر به الغير ، وهو منقسم إلى ما يعم ضرره وإلى ما يخص المعامل .

القسم الأول : فيما يعم ضرره . وهو أنواع :

النوع الأول : الاحتكار فبائع الطعام يدخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار ، وهو ظلم عام ، وصاحبه مذموم في الشرع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره ^(١) » ، وروى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه ^(٢) » ، وقيل : فكأنما قتل الناس جميعا ، وعن علي رضي الله عنه : من احتكر الطعام أربعين يوما

الباب الثالث : في بيان العدل

(١) حديث « من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي ، والخطيب في التاريخ من حديث أنس بن مالك بن شبيب ضعيفين . (٢) حديث ابن عمر « من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه » رواه أحمد وأحمد بن حنبل ، وقال ابن عدي : ليس بمحفوظ من حديث ابن عمر .

قسا قلبه . وعنه أيضا أنه أحرق طعام محتكر بالنار . وروى في فضل ترك الاحتكار عنه صلى الله عليه وسلم « من جلب طعاما فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به » ، وفي لفظ آخر « فكأنما أعتق رقبة ^(١) » ، وقيل في قوله تعالى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ إن الاحتكار من الظلم وداخل تحته في الوعيد . وعن بعض السلف أنه كان بواسط فجهز سفينة حنطة إلى البصرة وكتب إلى وكيله : بيع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد ؛ فوافق سعة في السعر فقال له التجار : لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله ، وكتب إلى صاحبه بذلك ؛ فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا ، إنا كنا نقعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين فقد جنيت علينا جناية ؛ فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة ، وليتني أنجو من لائم الاحتكار كفافا لأعلى ولألى . واعلم أن النهي مطلق ويتعلق النظر به في الوقت والجنس ، أما الجنس فيطرد النهي في أجناس الأقوات ، أما ما ليس بقوت ولا هو معين على القوت كالأدوية والعقاقير والزعفران وأمثاله ، فلا يتعدى النهي إليه وإن كان مطعوما . وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يستد مسدا يغني عن القوت في بعض الأحوال وإن كان لا يمكن المداومة عليه ، فهذا في محل النظر ؛ فمن العلماء من طرد التحريم في السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجري مجراه ؛ وأما الوقت فيحتمل أيضا طرد النهي في جميع الأوقات ، وعليه تدل الحكاية التي ذكرنا في الطعام الذي صادف بالبصرة سعة في السعر ، ويحتمل أن يخص بوقت قلة الأظعمة وحاجة الناس إليه حتى يكون في تأخير بيعه ضررا ؛ فأما إذا اتسعت الأظعمة وكثرت واستغنى الناس عنها ولم يرغبوا فيها إلا بقيمة قليلة فانتظر صاحب الطعام ذلك ولم ينتظر قحطا ؛ فليس في هذا إضرار . وإذا كان الزمان زمان قحط كان في ادخار العسل والسمن والشيرج وأمثاله إضرارا ؛ فينبغي أن يقضى بتحريمه ويعول في نفي التحريم وإثباته على الضرر فإنه مفهوم قطعاً من تخصيص الطعام ، وإذا لم يكن ضرر فلا يخلو احتكار الأقوات عن كراهية ، فإنه ينتظر مبادئ الضرر وهوار تفاعل الأسعار ، وانتظار مبادئ الضرر محذور كأنه ينتظر عين الضرر ولكنه دونه ، وانتظار عين الضرر أيضا هو دون الإضرار ، فبقدر درجات الإضرار تتفاوت درجات الكراهية والتحريم . وبالجملة التجارة في الأقوات مما لا يستحب لانه طلب ربح ، والأقوات أصول خلقت قواما ، والربح من المزايا ، فينبغي أن يطلب الربح فيما خلق من جملة المزايا التي لا ضرورة للخلق إليها ولذلك أوصى بعض التابعين رجلا وقال : لاتسلم ولدك في بيعتين ولا في صنعتين : بيع الطعام ، وبيع الأكفان فإنه يتمنى الغلاء وموت الناس . والصنعتان . أن يكون جزارا فإنها صنعة تقسى القلب ، أو صقواغا فإنه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة .

النوع الثاني : ترويح الزيف من الدراهم في أثناء النقد فهو ظلم ، إذ يستضر به المعامل إن لم يعرف ، وإن عرف فسيروجه على غيره ، فكذلك الثالث والرابع ، ولا يزال يتردد في الأيدي ويعم الضرر ويتسع الفساد ويكون وزر السكل ووباله راجعا عليه ، فإنه هو الذي فتح هذا الباب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا ^(٢) » . وقال بعضهم : إنفاق درهم

(١) حديث « من جلب طعاما فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به » وفي لفظ آخر « فكأنما أعتق رقبة » أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف : « مامن جالب يجلب طعاما إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد » وللتاكم من حديث البيع بن المغيرة « لمن الجالب إلى سوقا كالمجاهد في سبيل الله » وهو مرسل (٢) حديث « من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء » أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله .

زيف أشد من سرقة مائة درهم ، لأن السرقة معصية واحدة وقد تمت وانقطت ، وإنفاق الزيف بدعة أظهرها في الدين وسنة سيئة يعمل بها من بعده فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة ، أو مائتي سنة .. إلى أن يفنى ذلك الدرهم ، ويكون عليه مافسد من أموال الناس بسنته ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة أو أكثر يعذب بها في قبره ويسئل عنها إلى آخر انقراضها ، وقال تعالى ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ أى نكتب أيضا ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدموه ، وفي مثله قوله تعالى ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ وإنما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره . وليعلم أن في الزيف خمسة أمور : (الاول) أنه إذا رد عليه شيء منه فينبغي أن يطرحه في بئر بحيث لا يمتد إليه اليد ، وإياه أن يروجه في بيع آخر . وإن أفسده بحيث لا يمكن التعامل به جاز . (الثاني) أنه يجب على التاجر تعلم النقد لا يستقصى لنفسه ولكن لئلا يسلم إلى مسلم زيفا وهو لا يدري فيكون آثما بتقصيره في تعلم ذلك العلم . فكل علم عمل به يتم نصيح المسلمين . فيجب تحصيله ومثل هذا كان السلف يتعلمون علامات النقد نظراً لدينهم لا لدنياهم . (الثالث) أنه إن سلم وعرف المعامل أنه زيف لم يخرج عن الإثم . لأنه ليس يأخذه إلا ليروجه على غيره ولا يخبره ، ولولم يعزم على ذلك لكان لا يرغب في أخذه أصلا . فإنما يتخلص من إثم الضرر الذى يخص معامله فقط . (الرابع) أن يأخذ الزيف ليعمل بقوله صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء »^(١) ، فهو داخل في بركة هذا الدعاء إن عزم على طرحه في بئر . وإن كان عازما على أن يروجه في معاملة فهذا شر روجه الشيطان عليه في معرض الخير فلا يدخل تحت من تساهل في الاقتضاء . (الخامس) أن الزيف نعى به مالا نقرة فيه أصلا بل هو مؤه . أو مالا ذهب فيه أغنى في الدناير . أما مافيه نقرة فإن كان مخلوطا بالنحاس وهو نقد البلد فقد اختلف العلماء في المعاملة عليه ، وجل رأينا الرخصة فيه إذا كان ذلك نقد البلد ، سواء علم مقدار النقرة أو لم يعلم . وإن لم يكن هو نقد البلد لم يجز إلا إذا علم قدر النقرة ، فإن كان في ماله قطعة نقرتها ناقصة عن نقد البلد فعليه أن يخبر به معامله ، وأن لا يعامل به إلا من لا يستحل الترويح في جملة النقد بطريق التليس ، فأما من يستحل ذلك فتسليمه إليه تسليط له على الفساد ، فهو كبيع الغيب ممن يعلم أنه يتخذه خمرأ ، وذلك محظور وإعانة على الشر ومشاركة فيه ، وسلوك طريق الحق بمثال هذا في التجارة أشد من المواظبة على نوافل العبادات والتخلي لها ، ولذلك قال بعضهم : التاجر الصدوق أفضل عند الله من المتعبد ، وقد كان السلف يحتاطون في مثل ذلك حتى روى عن بعض الخزاة في سبيل الله أنه قال : حملت على فرسى لأقتل عرجا ، فقصر بي فرسى فرجعت ثم دنا مني العرج لحملت ثمانية فقصر فرسى فرجعت ، ثم حملت الثالثة فنفر مني فرسى وكنت لا أعتاد ذلك منه ، فرجعت حزينا وجلست منكس الرأس منكسر القلب لما فاتني من العرج وما ظهر لي من خلق الفرس ، فوضعت رأسي على عمود الفسطاط وفرسى قائم فرأيت في النوم كأن الفرس يخاطبني ويقول لي : بالله عليك أردت أن تأخذ على العرج ثلاث مرات وأنت بالأمس اشتريت لي علفا ودفعت في ثمنه درهما زائفا لا يكون هذا أبدا . قال : فانتبهت فزعا فذهبت إلى العلاف وأبدلت ذلك الدرهم ، فهذا مثال ما يعم ضرره وليقس عليه أمثاله .

القسم الثاني : ما يخص ضرره المعامل

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم ، وإنما العدل لا يضر بأخيه المسلم ، والضابط السكلى فيه : أن لا يجب

(١) حديث « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء » أخرجه البخارى من حديث جابر .

لأخيه إلا ما يجب لنفسه ؛ فكل ما لو عومل به شق عليه وثقل على قلبه فيقبض أن لا يعامل غيره به ؛ بل يذبح أن يستوى عنده درهمه ودرهم غيره . قال بعضهم : من باع أخاه شيئا بدرهم وليس يصلح له لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دنانير فإنه قد ترك النصيحة المأمور به في المعاملة ولم يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، هذه جملة .

فأما تفصيله ففي أربعة أمور . أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها ، وأن لا يكتف من عيوبها وخفايا صفاتها شيئا أصلا ، وأن لا يكتف في وزنها ومقدارها شيئا ، وأن لا يكتف من سعرها ما لو عرفه المعامل لا تمتنع عنه :

أما الأول ، فهو ترك الثناء ؛ فإن وصفه للسلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب ، فإن قبل المشتري ذلك فهو تلبس وظلم مع كونه كاذبا ، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة ، إذ الكذب الذي لا يروج قد لا يقدح في ظاهر المروءة ، وإن أتى على السلعة بما فيها فهو هذيان وتكلم بكلام لا يعنيه . وهو محاسب على كل كلمة تصدر منه أنه لم تكلم بها . قال الله تعالى ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ إلا أن يثنى على السلعة بما فيها بما لا يعرفه المشتري ما لم يذكره ، كما يصفه من خفي أخلاق العبيد والجواري والدواب ؛ فلا بأس بذكر القدر الموجود منه من غير مبالغة وإطناب ، وليكن قصده منه أن يعرفه أخوه المسلم فيرغب فيه ويتقضى بسببه حاجته ، ولا ينبغي أن يحلف عليه ألبته ؛ فإنه إن كان كاذبا فقد جاء بالبين الغموس وهي من الكبائر التي تذر الديار بلاقع ، وإن كان صادقا فقد جعل الله تعالى عرضة لإيمانه ، وقد أساء فيه ، إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويحها بذكر اسم الله من غير ضرورة ، وفي الخبر « ويل للتاجر من بلى والله ولا والله ، وويل للصانع من غد وبعد » ^(١) وفي الخبر « البين الكاذبة متفقة للسلعة ممحقة للبركة » ^(٢) وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة . عتل مستكبر ، ومنان بعطيته ، ومنفق سلعته يمينه » ^(٣) فإذا كان الثناء على السلعة مع الصدق مكروها من حيث إنه فضول لا يزيد في الرزق فلا يخفى التغليظ في أمر البين ؛ وقد روى عن يونس بن عبيد وكان خزازا : أنه طلب منه خز للشراء ، فأخرج غلامه سقط الخنز ونشره ونظر إليه وقال : اللهم ارزقنا الجنة ، فقال لغلامه : رده إلى موضعه ولم يبعه ، وخاف أن يكون ذلك تعريضا بالثناء على السلعة ، فثل هؤلاء الذين اتجروا في الدنيا ولم يضيئوا دينهم في تجارتهم ، بل علموا أن ربح الآخرة أولى بالطلب من ربح الدنيا .

الثاني : أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها ولا يكتف منها شيئا ، فذلك واجب ، فإن أخفاه كان ظالما غاشا والغش حرام ، وكان تاركا للنصح في المعاملة والنصح واجب ، ومهما أظهر أحسن وجهي الثوب وأخفى الثاني كان غاشا ، وكذلك إذا عرض الثياب في المواضع المظلمة ، وكذلك إذا عرض أحسن فردى الخف أو النعل وأمثاله ويدل على تحريم الغش ما روى : أنه مر عليه الصلاة والسلام برجل يبيع طعاما فأعجبه ، فأدخل يده فيه فرأى بللا ، فقال : « ما هذا ؟ » قال : أصابته السماء ، فقال « فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا » ^(٤) ، ويدل على وجوب النصيحة بإظهار العيوب ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع جريرا على الإسلام ذهب

(١) حديث « ويل للتاجر من بلى والله ولا والله ، وويل للصانع من غد وبعد غد » لم أفت له على أصل ، وذكر صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه . (٢) حديث « البين الكاذبة متفقة للسلعة ممحقة للبركة » متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ « الحلف » وهو عند البيهقي بلفظ المصنف . (٣) حديث أبي هريرة « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : عاتل مستكبر ، ومنان بعطيته . ومنفق سلعته يمينه » أخرجه مسلم من حديثه لا أنه لم يذكر فيها إلا : عاتل مستكبر ، ولهما « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعة لقد أعطى فيها أكثر مما أعطى وهو كاذب ... الحديث » ولمسلم من حديث أبي ذر : « المنان ، والمسبل لزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » . (٤) حديث : صر برجل يبيع طعاما فأعجبه فأدخل يده فرأى بللا فقال « ما هذا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

لينصرف لجذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم^(١) ، فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها ثم خيره وقال : إن شئت فخذ وإن شئت فترك ، فقيل له : إنك إذا فعلت مثل هذا لم تنفذ لك بيع ، فقال : إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . وكان وائلة بن الأسقع واقفا فباع رجل ناقة له بثلاثمائة درهم ، ففعل وائلة وقد ذهب الرجل بالناقة ، فسعى وراءه وجعل يصيح به : يا هذا ، اشتريتها للحم أو للظهر ؟ فقال : بل للظهر ، فقال : إن بخفها نقبا قد رأيته ، وإنما لا تتابع السير ، فعاد فردها فنقصها البائع مائة درهم وقال لوائلة : رحمتك الله أفسدت على بيعي ، فقال : إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم ، وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يحل لأحد يبيع بيعا إلا أن يبين آفته ، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا تبينه »^(٢) ، فقد فهموا من النصح أن لا يرضى لأخيه إلا ما يرضاه لنفسه ، ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات ، بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم ، وهذا أمر يشق على أكثر الخلق ، فلذلك يختارون التخلي للعبادة والاعتزال عن الناس ، لأن القيام بحقوق الله مع المخاططة والمعاملة مجاهدة لا يقوم بها إلا الصديقون ، ولن يتيسر ذلك على العبد إلا بأن يعتقد أمرين : (أحدهما) أن تليسه العيوب وتروى بوجه السلع لا يزيد في رزقه ، بل يحقه ويذهب ببركته ، وما يجمعه من مفزقات التليسات يهلكه الله دفعة واحدة ، فقد حكى أن واحدا كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيعه ، فجاء سيل ففترق البقرة ، فقال بعض أولاده : إن تلك المياه المتفرقة التي صبينها في اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة . كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم ، البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما ، وإذا كتما وكذبا نزع بركة بيعهما^(٣) ، وفي الحديث : يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا ، فإذا تخاونا رفع يده عنهما^(٤) ، فإذا لا يزيد مال من خيانة ، كما لا ينقص من صدقة ، ومن لا يعرف الزيادة والنقصان إلا بالميزان لم يصدق بهذا الحديث . ومن عرف أن الدرهم الواحد قد يبارك فيه حتى يكون سببا لسعادة الإنسان في الدنيا والدين ، والآلاف المؤلفة قد ينزع الله البركة منها حتى تكون سببا لهلاك مالكها بحيث يتشنى الإفلاس منها ويراه أصلح له في بعض أحواله ، فيعرف معنى قولنا : إن الخيانة لا تزيد في المال والصدقة لا تنقص منه (والمعنى الثاني) الذي لا بد من اعتقاده ليت له النصح ويتيسر عليه : أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا ، وأن فوائد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر وتبقى مظالمها وأوزارها فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، والخير كله في سلامة الدين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال لاله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثرأ صفة دنياهم على آخرتهم »^(٥) ، وفي لفظ آخر « ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم بسلامة دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا : لا إله إلا الله ، قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين ، وفي حديث آخر « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة . قيل . وما إخلاصه ؟ قال . أن يحزه عما حرم الله »^(٦) ، وقال أيضا . ما آمن بالقرآن من استحل محارمه ، ومن علم

(١) حديث جرير بن عبد الله : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . متفق عليه . (٢) حديث وائلة « لا يحل لأحد يبيع بيعا إلا يبين آفته ، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا تبينه » أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، والبيهقي . (٣) حديث « البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما » الحديث « متفق عليه من حديث حكيم بن حزام . (٤) حديث « يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا ، فإذا تخاونا رفع يده عنهما » رواه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال : صحيح الإسناد . (٥) حديث « لا تزال لاله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثرأ صفة دنياهم على آخرتهم ... الحديث » رواه أبو يلى والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف . وفي رواية لترمذي الحكيم في النوادر « حتى إذا نزلوا بالمزلة القى لا يبالون ما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم » الحديث . ولطبراني في الأوسط نحوه من حديث عائشة ، وهو ضعيف أيضا . (٦) حديث « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » قيل : وما إخلاصها ؟ قال « تعجزه عما حرم الله » أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم في معجمه الكبير والأوسط بإسناد حسن .

أن هذه الأمور قاذحة في إيمانه ، وأن إيمانه رأس ماله في الآخرة لم يضيع رأس ماله المعد لعمر لا آخره بسبب ربح ينتفع به أياما معدودة . وعن بعض التابعين أنه قال : لودخلت الجامع ومع وهو غاص بأهله وقيل لي : من خير هؤلاء ؟ قلت : من أنصحهم لهم ؟ فإذا قالوا : هذا ، قلت : هو خيرهم . ولو قيل لي : من شرهم ؟ قلت : من أغشهم لهم ؟ فإذا قيل : هذا ، قلت : هو شرهم . والغش حرام في البيوع والصنائع جميعا ، ولا ينبغي أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لو عامله به غيره لما ارتضاه لنفسه ، بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها ، ثم يبين عيبها إن كان فيها عيب ، فبذلك يتخلص . وسأل رجل حذاء بن سالم فقال : كيف لي أن أسلم في بيع النعال ؟ فقال : اجعل الوجهين سواء ، ولا تفضل البني على الأخرى ، وجود الحشو ، وليكن شيئا واحدا تاما ، وقارب بين الحرز ، ولا تطبق إحدى النعلين على الأخرى . ومن هذا الفن ما سئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث لا يتبين ، قال : لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه ، وإنما يحل للرفا إذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريده للبيع .

* فإن قلت : فلا تتم المعاملة مهما وجب على الإنسان أن يذكر عيوب المبيع ؟ فأقول : ليس كذلك ، إذ شرط التاجر أن لا يشتري للبيع إلا الجيد الذي يرتضيه لنفسه لو أمسكه ثم يقنع في بيعه بربح يسير ، فيبارك الله له فيه ، ولا يحتاج إلى تلبس ، وإنما تعذر هذا لأنهم لا يقنعون بالربح اليسير ، وليس يسلم الكثير إلا بتلبس ، فمن تعود هذا لم يشتري المعيب ، فإن وقع في يده معيب نادرا فليذكره وليقنع بقيمته . باع ابن سيرين شاة فقال للشترى : أبرا إليك من عيب فيها إنها تقلب العلف برجلها . وباع الحسن بن صالح جارية فقال للشترى : إنها تنخمت مرة عندما دما ، فهكذا كانت سيرة أهل الدين ، فمن لا يقدر عليه فليترك المعاملة أو ليوطن نفسه على عذاب الآخرة .

الثالث : ألا يكتم في المقدار شيئا وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفي الكيل ، فينبغي أن يكيل كما يكتال قال الله تعالى ﴿ ويل للمطففين ﴾ الذين إذا اكتملوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون ﴿ ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجع إذا أعطى ، وينقص إذا أخذ ، إذ العدل الحقيقي قلما يتصور ، فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان ، فإن من استقصى حقه بكاله يوشك أن يتعداه . وكان بعضهم يقول : لا أشتري الويل من الله بحبة ، فكان إذا أخذ نقص نصف حبة ، وإذا أعطى زاد حبة ، وكان يقول : ويل لمن باع بحبة جنة عرضها السموات والأرض ؛ وما أخسر من باع طوبى بويل . وإنما بالغوا في الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم لا يمكن التوبة منها ، إذ لا يعرف أصحاب الحبات حتى يجمعهم ويؤدى حقوقهم ، ولذلك لما اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قال للوزان لما كان يزن ثمنه « زن وأرجع ^(١) » ونظر فضليل إلى ابنه وهو يغسل دينارا يريد أن يصرفه ويزيل تكحيله وينقيه حتى لا يزيد وزنه بسبب ذلك فقال : يا بني فعلك هذا أفضل من حجتين وعشرين عمرة . وقال بعض السلف : عجبت للتاجر والبائع كيف ينجو ، يزن ويحلف بالنهار ، وينام بالليل . وقال سليمان عليه السلام لابنه : يا بني كما تدخل الحبة بين الحجرين ، كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين . وصلى بعض الصالحين على محتث ؛ فقيل له : إنه كان فاسقا ، فسكت ، فأعيد عليه فقال : كأنك قلت لي : كان صاحب ميزانين يعطى بأحدهما وبأخذ بالآخر ، أشار به إلى أن فسقه مظلمة بينه وبين الله تعالى ، وهذا من مظالم العباد ، والمساحمة والعفو فيه أبعد ، والتشديد في أمر الميزان عظيم ، والخلاص منه يحصل بحبة ونصف حبة . وفي قراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ﴿ لا تطغوا في الميزان ﴾ وأقيموا الوزن باللسان ولا تخسروا الميزان ﴿ أى لسان الميزان ، فإن التقصان والرجحان

(١) حديث : قال للوزان « زن وأرجع » رواه أصحاب السنن والحاكم من حديث سويد بن قيس . قال الترمذي : حسن صحيح وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

يظهر بمبلة ، وبالجملة كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو في كلة ولا ينصف بمثل ما ينتصف ، فهو داخل تحت قوله تعالى ﴿ ويل للمطففين ﴾ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ الآيات ، فإن تحريم ذلك في المكيل ليس لكونه مكيلا ، بل لكونه أمرا مقصودا ترك العدل والنصفة فيه ، فهو جار في جميع الأعمال ، فصاحب الميزان في خطر الويل ، وكل مكلف فهو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته ، فالويل له إن عدل عن العدل ومال عن الاستقامة ، ولولا تعذر هذا واستحالته لما ورد قوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ فلا ينفك عبد ليس معصوما عن الميل عن الاستقامة ، إلا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتا عظيما ، فذلك تفاوت مدة مقامهم في النار إلى أوان الخلاص ، حتى لا يبقى بعضهم إلا بقدر تحلة القسم ، ويبقى بعضهم ألفا وألوف سنين ، فنسأل الله تعالى أن يقربنا من الاستقامة والعدل ، فإن الاشتداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه ، غير مطموع فيه ، فإنه أدق من الشعرة وأحد من السيف ، ولولاه لكان المستقيم عليه لا يقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار الذي من صفته أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف ، وبقدر الاستقامة على هذا الصراط المستقيم يخف العبد يوم القيامة على الصراط ، وكل من خلط بالطعام ترابا أو غيره ثم كاله فهو من المطففين في الكيل ، وكل قصاب وزن مع اللحم عظام لم تخر العادة بمثله ، فهو من المطففين في الوزن ، وقس على هذا سائر التقديرات ، حتى في الذرع الذي يتعاطاه البزاز ، فإنه إذا اشترى أرسل الثوب في وقت الذرع ولم يمدده مدا ، وإذا باعه مده في الذرع ليظهر تفاوتا في القدر ، فكل ذلك من التطفيف المعرض صاحبه للويل .

الرابع : أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفى منه شيئا ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلقى الركبان^(١) ونهى عن النجش^(٢) ، أما تلقى الركبان ، فهو أن يستقبل الرفقة ويتلقى المتاع ويكذب في سعر البلد ، فقد قال صلى الله عليه وسلم لا تلقوا الركبان ، ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق ، وهذا الشراء منعقد ، ولكنه إن ظهر كذبه ثبت للبائع الخيار ، وإن كان صادقا ففي الخيار خلاف لتعارض عموم الخبر مع زوال التلبس ، ونهى أيضا أن يبيع حاضر لباد^(٣) : وهو أن يقدم البدوى البلد معه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه ، فيقول له الحضري اتركه عندي حتى أغالى في ثمنه وانتظر ارتفاع سعره ، وهذا في القوت محرم ، وفي سائر السلع خلاف ، والأظهر تحريمه لعموم النهي ، ولأنه تأخير للتضييق على الناس على الجملة من غير فائدة للفضولي المضيق ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجش . وهو أن يتقدم إلى البائع بين يدي الراغب المشتري ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريد بها ، وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها ، فهذا إن لم تجر مواطاة مع البائع فهو فعل حرام من صاحبه والبيع منعقد ، وإن جرى مواطاة ففي ثبوت الخيار خلاف ، والأولى لإثبات الخيار لأنه تقرير بفعل يضاهي التغيرير في المصرة وتلقى الركبان ، فهذه المناهى تدل على أنه لا يجوز أن يلبس على البائع والمشتري في سعر الوقت ويكتم منه أمرا لو علمه لما أقدم على العقد ، ففعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب ، فقد حكى عن رجل من التابعين أنه كان بالبصرة وله غلام بالسوس يجهز إليه السكر ، فكتب إليه غلامه : إن قصب السكر قد أصابته آفة في هذه السنة ، فاشترى السكر ، قال : فاشترى سكرا كثيرا ، فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفا ، فأنصرف إلى منزله فأفكر

(١) حديث النهي عن تلقى الركبان : متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة : (٢) حديث النهي عن النجش : متفق عليه من حديث ابن عمر وأبي هريرة . (٣) حديث النهي عن بيع الحاضر للبادي : متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة وأنس .

ليلته وقال : ربحت ثلاثين ألفاً وخسرت نصبح رجل من المسلمين ، فلما أصبح غداً إلى بائع السكر فدفع إليه ثلاثين ألفاً وقال : بارك الله لك فيها ، فقال : ومن أين صارت لي ؟ فقال : إني كنتك حقيقة الحال وكان السكر قد غلا في ذلك الوقت ، فقال : رحمك الله قد أعلمتني الآن وقد طيبتها لك ، قال : فرجع بها إلى منزله وتفكر وبات ساهراً وقال : ما نصحتني ، فلعله استحيا مني فتركها لي فبكر إليه من الغد وقال : عافاك الله ، خذ مالك إليك فهو أطيب لقلبي ، فأخذ منه ثلاثين ألفاً . فهذه الأخبار في المناهي والحكايات تدل على أنه ليس له أن يعتنم فرصة ويفتخر غفلة صاحب المتاع ويغني من البائع غلاء السعر أو من المشتري تراجع الأسعار ، فإن فعل ذلك كان ظالماً تاركا للعدل والنصح للمسلمين ، ومهما باع مربحة بأن يقول : بعث بما قام على أو بما اشتريته ، فعليه أن يصدق ، ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان ، ولو اشترى إلى أجل وجب ذكره ، ولو اشترى مساحمة من صديقه أو ولده يجب ذكره . لأن المعامل يقول على عادته في الاستقصاء أنه لا يترك النظر لنفسه ، فإذا تركه بسبب من الأسباب فيجب إخباره ، إذ الاعتماد فيه على أمانته .

الباب الرابع : في الإحسان في المعاملة

وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً ، والعدل سبب النجاة فقط ، وهو يجري من التجارة يجري رأس المال . والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة ، وهو يجري من التجارة يجري الربح ، ولا يعد من الخفلاء من قع في معاملات الدنيا برأس ماله ، فكذا في معاملات الآخرة ، فلا ينبغي للمدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان ، وقد قال الله ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ وقال عز وجل ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ وقال سبحانه ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ ونعني بالإحسان : فعل ما ينتفع به المعامل ، وهو غير واجب عليه ، ولكنه تفضل منه ، فإن الواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم وقد ذكرناه ، وتعال رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور .

الأول : في المغالبة ، فينبغي أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة ، فأما أصل المغالبة فأذن فيه : لأن البيع للربح ، ولا يمكن ذلك إلا بغبن ما ، ولكن يراعى فيه التقريب ، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد إما لشدة رغبته أو لشدة حاجته في الحال إليه ، فينبغي أن يمتنع من قبوله ، فذلك من الإحسان . ومهما لم يكن تليس لم يكن أخذ الزيادة ظلماً وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الغبن بما يزيد على الثلث يوجب الخيار ، ولنا نرى ذلك ، ولكن من الإحسان أن يحيط ذلك الغبن . يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان : ضرب قيمة كل حلة منها بأربعائة ، وضرب كل حلة قيمتها مائتان ، فر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان ، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعائة فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها ، فاشتراها فضى بها وهي على يديه ، فاستقبله يونس فعرف حلتها ، فقال للأعرابي : بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعائة ، فقال : لا تساوى أكثر من مائتين فارجع حتى تردها ، فقال : هذه تساوى في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها ، فقال له يونس : انصرف فإن النصيح في الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم ، وخاصم ابن أخيه في ذلك وقائله وقال : أما استحيت ، أما اتقيت الله ، تربح مثل الثمن وترك النصيح للمسلمين ، فقال : والله ما أخذها إلا وهو راض بها . قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ، وهذا إن كان فيه إخفاء سعر وتليس ، فهو من

باب الظلم وقد سبق ، وفي الحديث « غبن المسترسل حرام »^(١) ، وكان الزبير بن عدي يقول : أدركت ثمانية عشر من الصحابة ما منهم أحد يحسن يشتري لحما بدرهم ، فغبن مثل هؤلاء المسترسلين ظلم : إن كان من غير تلبيس فهو من ترك الإحسان ، وقلنا يتم هذا إلا بنوع تلبيس وإخفاء سعر الوقت .

ولمّا الإحسان المحض ما نقل عن السرى السقطي أنه اشترى كزّ لوز بستين ديناراً وكتب في روزناجه ثلاثة دنانير ربحه ، وكأنه رأى أن يربح على العشرة نصف دينار ، فصار اللوز بتسعين ، فأناه الدلال وطلب اللوز فقال : خذه . قال : بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين ، فقال الدلال وكان من الصالحين : فقد صار اللوز بتسعين ، فقال السرى : قد عقدت عقداً لا أحله ، لست أبيع إلا بثلاثة وستين ، فقال الدلال : وأنا عقدت بيني وبين الله أن لا أغش مسلماً ، لست آخذ منك إلا بتسعين . قال : فلا الدلال اشترى منه ، ولا السرى باعه ، فهذا محض الإحسان من الجانبين ، فإنه مع العلم بحقيقة الحال .

وروى عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضها بخمسة وبعضها بعشرة ، فباع غلامه في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة ، فلما عرف لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده ، فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة ، فقال : يا هذا قد رضيت ، فقال : وإن رضيت فإننا لانرضي لك إلا ما نرضاه لأنفسنا ، فاختر إحدى ثلاث خصال : إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك ، وإما أن نرد عليك خمسة ، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك ، فقال : أعطني خمسة ، فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابي يسأل ويقول : من هذا الشيخ ؟ فقيل له : هذا محمد بن المنكدر ، فقال لإله إلا الله ، هذا الذي نستسقي به في البوادي إذا قحطنا . فهذا إحسان في أن لا يربح على العشرة إلا نصفاً أو واحداً على ما جرت به العادة في مثل ذلك المتساع في ذلك المكان ، ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته واستفاد من تكررها ربها كثيراً ، وبه تظهر البركة . كان على رضى الله عنه يدور في سوق الكوفة بالدرة ويقول : معاشر التجار ، خذوا الحق تسلموا ، لاتردوا قليل الربح فتحرموا كثيره .

قيل لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : ما سبب يسارك ؟ قال : ثلاث ، مارددت ربها قط ، ولا طلب مني حيوان فأخرت بيعه ، ولا بعت بنسيئة . ويقال : إنه باع ألف ناقة فاشترى بها ربحاً لا عقلاً بدرهم فربح فيها ألفاً وربح من نفقته عليها ليومه ألفاً .

الثاني : في احتمال الغبن ، والمشتري إن اشترى طعاماً من ضعيف أو شيئاً من فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل ، ويكون به محسناً وداخلاً في قوله عليه السلام « رحم الله امرأً سهل البيع سهل الشراء » ، فأما إذا اشترى من غنى تاجر يطلب الربح زيادة على حاجته ، فاحتمال الغبن منه ليس محموداً ، بل هو تضييع مال من غير أجر ولا حمد ، فقد ورد في حديث من طريق أهل البيت « المغبون في الشراء لا محمود ولا مأجور »^(٢) ، وكان لمياس ابن معاوية بن قرّة قاضي البصرة وكان من عقلاء التابعين يقول : لست بحب والحب لا يغبنني ولا يغبن ابن سيرين ولكن يغبن الحسن ويغبن أبي - يعني معاوية بن قرّة ، والسكّال في أن لا يغبن ولا يغبن ، كما وصف بعضهم عمر

الباب الرابع : الإحسان في المعاملة

(١) حديث « غبن المسترسل حرام » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ، والبيهقي من حديث جابر بسند جيد ، وقال « ربا » بدل « حرام » . (٢) حديث « المغبون في الشراء لا محمود ولا مأجور » أخرجه الترمذى المحكم في النوادر من رواية عبيد الله بن الحسن عن أبيه عن جده ، ورواه أبو يعلى من حديث الحسين بن علي يرفعه . قال الذهبي : هو منكسر .

رضي الله عنه فقال : كان أكرم من أن يخدع ، وأعدل من أن يخدع . وكان الحسن والحسين وغيرهما من خيار السلف يستقصون في الشراء ثم يهبون مع ذلك الجزيل من المال ، فقيل لبعضهم : تستقصي في شرائك على اليسير ثم تهب الكثير ولا تبالي ! فقال : إن الواهب يعطي فضله وإن المغبون يغبن عقله . وقال بعضهم : إنما أغبن عقلی وبصری فلا أمكن الغابن منه ، وإذا وهبت أعطى الله ولا أستكثر منه شيئاً .

الثالث : في استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه : مرة بالمساحة وحط البعض ، ومرة بالإمهال والتأخير ، ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد ، وكل ذلك مندوب إليه ومحث عليه : قال النبي صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرءاً سهل البيع سهل الشراء سهل الاقتضاء »^(١) ، فليقتنم دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « اسمع يسمع لك »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أنظر معسراً أو ترك له حاسبه الله حساباً يسيراً ، وفي لفظ آخر « أظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله »^(٣) . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً كان مسرفاً على نفسه : حوسب فلم يوجد له حسنة ، فقيل له : هل عملت خيراً قط ؟ فقال : لا إلا أني كنت رجلاً أداين الناس فأقول لفتيانى : ساحوا المورس وأنظروا المعسر »^(٤) . وفي لفظ آخر « وتجاوزوا عن المعسر » فقال الله تعالى : نحن أحق بذلك منه ، فتجاوز الله عنه وغفر له ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله ، فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة »^(٥) ، وقد كان من السلف من لا يجب أن يقضى غريمه الدين لأجل هذا الخبر ، حتى يكون كالمصدق بجميعه في كل يوم . وقال صلى الله عليه وسلم « رأيت على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمان عشرة »^(٦) ، فقيل في معناه : إن الصدقة تقع في يد المحتاج وغير المحتاج ، ولا يحتمل ذل الاستقراض إلا محتاج . ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل يلزم رجلاً بدين ، فأومأ إلى صاحب الدين بيده أن يضع الشطر ففعل ، فقال للديون : قم فأعطه »^(٧) ، وكل من باع شيئاً وترك ثمنه في الحال ولم يرهق إلى طلبه فهو في معنى المقرض .

وروى أن الحسن البصري باع بغلة له بأربعمائة درهم ، فلما استوجب المال قال له المشتري : اسمع يا أبا سعيد . قال : قد أسقطت عنك مائة ، قال له : فأحسن يا أبا سعيد ، فقال : قد وهبت لك مائة أخرى ، فقبض من حقه مائتي درهم . فقيل له : يا أبا سعيد ، هذا نصف الثمن ، فقال : هكذا يكون الإحسان وإلا فلا . وفي الخبر « خذ حقتك في كفاف وعفاف واف أو غير واف ، يحاسبك الله حساباً يسيراً »^(٨) .

(١) حديث « رحم الله امرءاً سهل البيع سهل الشراء » تدم في الباب قبله . (٢) حديث « اسمع يسمع لك » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس ورجاله ثقات . (٣) حديث « من أنظر معسراً أو ترك له حاسبه الله حساباً يسيراً » وفي لفظ آخر « أظله الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله » رواه مسلم باللفظ الثاني من حديث أبي اليسر كعب بن عمرو . (٤) حديث : ذكر رجلاً كان مسرفاً على نفسه حوسب فلم يوجد له حسنة ، هيل له : هل عملت خيراً قط ، فقال : لا إلا أني كنت رجلاً أداين الناس فأقول لفتيانى : ساحوا المورس ... الحديث . رواه مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري ، وهو متفق عليه بنحوه من حديث حذيفة . (٥) حديث « من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله . فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة » أخرجه ابن ماجه من حديث بريدة « من أنظر معسراً كان له كل يوم صدقة ؛ ومن أنظره بعد أجله كان له مثله في كل يوم صدقة » وسنده ضعيف ، ورواه أحمد والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

(٦) حديث « رأيت على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمان عشرة » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف . (٧) حديث « أومأ إلى صاحب الدين بيده وضع الشطر » الحديث « متفق عليه من حديث كعب بن مالك » .

(٨) حديث « خذ حقتك في عفاف » الحديث . أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد حسن دون قوله « يحاسبك الله حساباً يسيراً » وله ولابن حبان والحاكم وصححه نحوه من حديث ابن عمر وعائشة .

الرابع : في توفية الدين . ومن الإحسان فيه حسن القضاء ، وذلك بأن يمشى إلى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشى إليه يتقاضاه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم ، خيركم أحسنكم قضاء ^(١) ، ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليه ولو قبل وقته ، وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن ، وإن عجز فلينبؤ قضاءه مهما قدر . قال صلى الله عليه وسلم « من أذن ديناً وهو ينوي قضاءه وكل الله به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه » ^(٢) ، وكان جماعة من السلف يستقرضون من غير حاجة لهذا الخبر ، ومهما كلبه صاحب الحق بكلام خشن فليحتمله وليقابل به بالطف ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم : إذ جاءه صاحب الدين عند حلول الأجل ولم يكن قد اتفق قضاؤه ، فجعل الرجل يشتد الكلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم به أصحابه فقال : دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً ^(٣) ، ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض ، فالإحسان أن يكون الميل الأكثر للمتوسطين إلى من عليه الدين ، فإن المقرض يقرض عن غنى والمستقرض يستقرض عن حاجة ، وكذلك ينبغي أن تكون الإعانة للمشتري أكثر ؛ فإن البائع راغب عن السلعة ينبغي ترويجها ، والمشتري محتاج إليها : هذا هو الأحسن ، إلا أن يتعدى من عليه الدين حده ، فعند ذلك نصرته في منعه عن تعذبه وإعانة صاحبه ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . فقيل : كيف تنصره ظالماً ؟ فقال : منعك إياه من الظلم نصرة له » ^(٤) .

الخامس : أن يقيّل من يستقيله ، فإنه لا يستقيّل إلا متتدّم مستضر بالبيع ، ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه : قال صلى الله عليه وسلم « من أقال نادماً صفقته أقال الله عشرته يوم القيامة » ^(٥) ، أو كما قال .

السادس : أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة ، فقد كان في صالحى السلف من له دفتران للحساب : أحدهما ترجمته بجهولة ، فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء ، وذلك أن الفقير كان يرى الطعام أو الناكهة فيشتهيه فيقول : أحتاج إلى خمسة أروطال مثلاً من هذا وليس معي ثمنه ، فكان يقول : خذه واقض ثمنه عند الميسرة ولم يكن يعتد هذا من الخيار ، بل عد من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في الدفتر أصلاً ولا يجعله ديناً ، لكن يقول : خذ ما تريد ، فإن يسرك فاقض ، وإلا فأنت في حل منه وسعة : فهذه طرق تجارات السلف وقد اندرست ، والقائم به محي لهذه السنة ، وبالجمل : التجارة محك الرجال ، وبها يمتحن دين الرجل وورعه ، ولذلك قيل :

لا يغررك من المر * قبيص رقعته أو لزار فوق كع * ب الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه * أثر قد قلعه ولدى درهم فانظر * غيه أو ورعه

ولذلك قيل : إذا أتى على الرجل جيرانه في الحضر وأصحابه في السفر ومعاملوه في الأسواق فلا تشكوا في صلاحه .

وشهد عند عمر رضى الله عنه شاهد فقال : ائتني بمن يعرفك ، فأتاه برجل فأثنى عليه خيراً ، فقال عمر : أنت

(١) حديث « خيركم أحسنكم قضاء » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « من أذن ديناً وهو ينوي قضاءه وكل به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه » أخرجه أحمد من حديث عائشة « مامن عبد كانت له نيتة في أداء دينه إلا كان معه من الله عون وحافظ » وفي رواية له « لم يزل معه من الله حارس » وفي رواية لقطراني في الأوسط « لا كان معه عون من الله عليه حتى يقضيه عنه » . (٣) حديث « دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس . (٥) حديث « من أقال نادماً صفقته أقال الله عشرته يوم القيامة » أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال : صحيح على شرط مسلم .

جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ؛ فقال كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الاخلاق ؟ فقال : لا ، قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا ، قال : أظنك رأيته قائما فى المسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم ، فقال : اذهب فليست تعرفه . وقال للرجل . اذهب فالتقى بمن يعرفك .

الباب الخامس : فى شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته

ولا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده ، فيكون عمره ضائعا وصفقته خاسرة ، وما يفوته من الربح فى الآخرة لا يبنى به ما ينال فى الدنيا ، فيكون اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، بل العاقل ينبغي أن يشفق على نفسه ، وشفقته على نفسه يحفظ رأس ماله ، ورأس ماله دينه وتجارته فيه . قال بعض السلف : أولى الأشياء بالعاقل أحوجه إليه فى العاجل ، وأحوج شيء إليه فى العاجل أحده عاقبة فى الآجل . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه فى وصيته : إنه لا بد لك من نصيبك فى الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج فابدأ بنصيبك من الآخرة ، فخذ فإنك ستمر على نصيبك من الدنيا فتنظمه . قال الله تعالى ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أى لا تنس فى الدنيا نصيبك منها للآخرة ، فإنها مزرعة الآخرة ، وفيها تكتسب الحسنات .
ولما تم شفقة التاجر على دينه بمراعاة سبعة أمور :

الأول : حسن النية والعقيدة فى ابتداء التجارة ، فلينبهها الاستغفاف عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس استغناء بالحلال عنهم ، واستعانة بما يكسبه على الدين ، وقيامه بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين به ، ولينصح للمسلمين ، وأن يجب لسائر الخلق ما يجب لنفسه ، ولينوا اتباع طريق العدل والإحسان فى معاملته كاذكرناه ، ولينوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فى كل ما يراه فى السوق ، فإذا أضمر هذه العقائد والنيات كان عاملا فى طريق الآخرة ، فإن استفاد مالا فهو مزيد ، وإن خسر فى الدنيا ربح فى الآخرة .

الثانى : أن يقصد القيام فى صناعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات ، فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعاش وهلك أكثر الخلق . فانتظام أمر الكل بتعاون الكل وتكفل كل فريق بعمل ، ولوأقبل كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقي وهلكوا ، وعلى هذا حمل بعض الناس قوله صلى الله عليه وسلم « اختلاف أمتى رحمة ^(١) » أى اختلاف مهمهم فى الصناعات والحرف . ومن الصناعات ما هى مهمة ، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب النعم والتزين فى الدنيا ، فلا يشتغل بصناعة مهمة ليكون فى قيامه بها كافيا عن المسلمين مهما فى الدين ، وليجتنب صناعة النقش والصياغة وتشديد البنیان بالجلس وجميع ما تزخر به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين ، فأما عمل الملاحى والآلات التى يحرم استعمالها فاجتناب ذلك من قبيل ترك الظلم ، ومن جملة ذلك خياطة الحيايط القباء من الإبريسم للرجال ، وصياغة الصائغ مراكب الذهب أو خواتيم الذهب للرجال فكل ذلك من المعاصى والأجرة المأخوذة عليه حرام ، ولذلك أوجبنا الزكاة فيها وإن كنا لانوجب الزكاة فى الحلى ، لأنها إذا قصدت للرجال فهى محزنة ، وكونها مهياة للنساء لا يلحقها بالحلى المباح ، مالم يقصد ذلك بها فيكتسب حكمها من القصد . وقد ذكرنا أن يبيع الطعام ويبيع الأكفان مكروه لأنه يوجب انتظار موت الناس وحاجتهم بغلاء السعر ،

الباب الخامس : فى شفقة التاجر على دينه

(١) حديث « اختلاف أمتى رحمة » تقدم فى العلم .

ويكره أن يكون جزارا ، لما فيه من قساوة القلب ، وأن يكون حجاما أو كناسا لما فيه من مخامرة النجاسة ، وكذا الدباغ وما في معناه ، وكره ابن سيرين الدلالة ، وكره قتادة أجرة الدلال ، ولعل السبب فيه قلة استغناء الدلال عن الكذب والإفراط في الثناء على السلعة لترويجها ، ولأن العمل فيه لا يتقدر فقد يقل وقد يكثر ، ولا ينظر في مقدار الأجرة إلى عمله بل إلى قدر قيمة الثوب ، هذا هو العادة ، وهو ظلم ، بل ينبغي أن ينظر إلى قدر التعب ، وكرهوا شراء الحيوان للتجارة ، لأن المشتري يكره قضاء الله فيه وهو الموت الذي يصدده لاحالة وحلوله . وقيل : بيع الحيوان واشترى الموتان ، وكرهوا الصرف ، لأن الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير ، ولأنه طلب لدقائق الصفات فيما لا يقصد أعيانها وإنما يقصد رواجها ، وقلما يتم للصيرفي ربح إلا باعتماد جهالة معاملته بدقائق النقد ؛ فقلما يسلم الصيرفي وإن احتاط ، ويكره للصيرفي وغيره كسر الصحيح والدنانير إلا عند الشك في جودته أو عند ضرورة . قال أحمد بن حنبل رحمه الله : وردني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وعن أصحابه في الصياغة من الصحاح ، وأنا أكره الكسر ، وقال : يشتري بالدنانير دراهم ثم يشتري بالدرهم ذهبا ويصوغه ، واستحبوا تجارة البز . قال سعيد بن المسيب : ما من تجارة أحب إلى من البز ، ما لم يكن فيها أيمان . وقد روى « خير تجارتكم البز وخير صناعتكم الخرز » ^(٢) ، وفي حديث آخر « لو اتجر أهل الجنة لا تجروا في البز ، ولو اتجر أهل النار لا تجروا في الصرف » ^(٣) ، وقد كان غالب أعمال الأختار من السلف عشر صنائع : الخرز ، والتجارة ، والحل ، والخياطة ، والحذو ، والقصارة ، وعمل الخفاف وعمل الحديد ، وعمل المغازل ، ومعالجة صيد البر والبحر ، والوراقة : قال عبد الوهاب الوراق . قال لي أحمد بن حنبل : ما صنعتك ؟ قلت : الوراقة . قال : كسب طيب ، ولو كنت صانعا يبدى لصنعت صنعتك ، ثم قال لي : لا تكتب إلا بواسطة ، واستبق الخواشي وظهور الأجزاء . وأربعة من الصنائع موسومون عند الناس بضعف الرأي : الحماكة ، والقطانون ، والمغازليون ، والمعلبون . ولعل ذلك لأن أكثر مخالطتهم مع النساء والصبيان ، ومخالطة ضعفاء العقول تضعف العقل ، كما أن مخالطة العقلاء تزيد في العقل . وعن مجاهد : أن مريم عليها السلام مرت في طلبها لعيسى عليه السلام بحماكة ، فطلبت الطريق فأرشدوها غير الطريق ، فقالت : اللهم انزع البركة من كسبهم ، وأمتهم فقراء ، وحقرهم في أعين الناس ، فاستجيب دعائهما . وكره السلف أخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات وفروض الكفايات كفصل الموق ودفنهم ، وكذا الأذان وصلاة التراويح ، وإن حكم بصحة الاستئجار عليه ، وكذا تعليم القرآن وتعليم علم الشرع ، فإن هذه أعمال حقها أن يتجر فيها للأخرة ، وأخذ الأجرة عليها استبدال بالدنيا عن الآخرة ولا يستحب ذلك .

الثالث ، أن يمنع سوق الدنيا عن سوق الآخرة ، وأسواق الآخرة المساجد . قال الله تعالى ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ وقال الله تعالى ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ فينبغي أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته فيلزم المسجد ويواظب على الأوراد . كان عمر رضي الله عنه يقول للتجار : اجعلوا أول نهاركم لآخرتكم وما بعده لدنياكم . وكان صالحو السلف يجعلون أول

(١) حديث النهي عن كسر الدينار والدرهم ، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم من رواية علقمة بن عبد الله بن أبيه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس . زاد الحاكم : أن يكسر الدرهم فيجعل فضة ، ويكسر الدينار فيجعل ذهبا ، وضعفه ابن حبان . (٢) حديث « خير تجارتكم البز ، وخير صناعتكم الخرز » لم أقف له على إسناد ، وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب . (٣) حديث « لو اتجر أهل الجنة لا تجروا في البز ، ولو اتجر أهل النار لا تجروا في الصرف » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف . وروى أبو يعلى والعملي في الضعفاء الشطر الأول من حديث أبي بكر الصديق .

النهار وآخره للأخرة والوسط للتجارة ، ولم يكن يبيع الهريسة والرموس بكرة إلا للصبيان وأهل الذمة ، لأنهم كانوا في المساجد بعد . وفي الخبر ، إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد وفيها في أول النهار وفي آخره ذكر الله وخير : كفر الله عنهما ما بينهما من سيئ الأعمال ^(١) ، وفي الخبر ، تلتقي ملائكة الليل والنهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر ، فيقول الله تعالى وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، ورجعناهم وهم يصلون ؛ فيقول الله سبحانه وتعالى : أشهدكم أني قد غفرت لهم ^(٢) ، ثم مهما سمع الأذان في وسط النهار للأول والعصر ، فينبغي أن لا يعرج على شغل ، وينزعج عن مكانه ، ويدع كل ما كان فيه ، فإني فوته من فضيلة التكبير الأولى مع الإمام في أول الوقت لا توازيها الدنيا بما فيها ، ومهما لم يحضر الجماعة عصي عند بعض العلماء . وقد كان السلف يبتدرون عند الأذان ويخلون الأسواق للصبيان وأهل الذمة ، وكانوا يستأجرون بالقراريط لحفظ الحوانيت في أوقات الصلوات ، وكان ذلك معيشة لهم . وقد جاء في تفسير قوله تعالى ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ أنهم كانوا حنّادين وخرّازين ؛ فكان أحدهم إذا رفع المطرقة أو غرز الإشبقي فسمع الأذان لم يخرج الإشبقي من الغرز ولم يوقع المطرقة ورعى بها وقام إلى الصلاة . الرابع . أن لا يقتصر على هذا بل يلزم ذكر الله سبحانه في السوق ويشغل بالتهليل والتسبيح ، فذكر الله في السوق بين الغافلين أفضل . قال صلى الله عليه وسلم : ذاكر الله في الغافلين كالقاتل خلف الفازين ، وكالحى بين الأموات ، وفي لفظ آخر : كالشجرة الخضراء بين الهشيم ، وقال صلى الله عليه وسلم : من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ^(٣) ، وكان ابن عمر وسالم بن عبد الله ومحمد بن واسع وغيرهم يدخلون السوق قاصدين لنيل فضيلة هذا الذكر . وقال الحسن : ذاكر الله في السوق يحى يوم القيامة له ضوء كضوء القمر ، وبرهان كبرهان الشمس . ومن استغفر الله في السوق غفر الله له بعدد أهلها . وكان عمر رضي الله عنه إذا دخل السوق قال : اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفسوق ، ومن شر ما أحاطت به السوق ، اللهم إني أعوذ بك من يمين فاجرة وصفقة خاسرة . وقال أبو جعفر الفرغاني : كنا يوما عند الجنيد ، فخرج ذكر ناس يجلسون في المساجد ويتشبهون بالصوفية ويقصرون عما يجب عليهم من حق الجلوس ويعيون من يدخل السوق ؛ فقال الجنيد : كم ممن هو في السوق حكاه أن يدخل المسجد ؟ يأخذ بأذن بعض من فيه فيخرجه ويجلس مكانه ، وإني لأعرف رجلا يدخل السوق ورده كل يوم ثلثمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة . قال : فسبق إلى ومي أنه يعني نفسه ، فهكذا كانت تجارة من يتجر لطلب الكفاية لا للتنعم في الدنيا ؛ فإن من يطلب الدنيا للاستعانة بها على الآخرة كيف يدع ربح الآخرة ، والسوق والمسجد والبيت له حكم واحد ، وإنما النجاة بالتقوى . قال صلى الله عليه وسلم : اتق الله حيثما كنت ^(٤) ، فوظيفة التقوى لا تقطع عن المتجزيين للدين كيفما تقلبت بهم الأحوال ، وبه تكون حياتهم وعيشتهم ، إذ فيه يرون تجارتهم وربحهم . وقد قيل : من أحب الآخرة عاش ، ومن أحب الدنيا طاش ، واللاحق يقدر ويروح في لاش ، والعاقل عن عيوب نفسه فتاش .

(١) حديث « إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد في أول النهار وآخره ذكر الله وخير كفر الله ما بينهما من سيئ الأعمال » أخرجه أبو يعل من حديث أسى بسند ضعيف بمعناه . (٢) حديث « تلتقي ملائكة الليل وملائكة النهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر ، فيقول الله وهو أعلم : كيف تركتم عبادي ؟ .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفداة وصلاة العصر ... الحديث . (٣) حديث « من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... الحديث » تقدم في الأذكار .

(٤) حديث « اتق الله حيثما كنت » أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وصححه .

الخامس : أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج ، وبأن يركب البحر في التجارة ، فهما مكروهان ، يقال إن من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق . وفي الخبر « لا يركب البحر إلا لحج أو عمرة أو غزو »^(١) ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول : لا يمكن أول داخل في السوق ولا آخر خارج منها ، فإن بها باض الشيطان وفرخ . روى عن معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر : أن ليليس يقول لولده زلتبور : سر بكتائبك فأت أصحاب الأسواق ، زين لهم الكذب والحلف والخديعة والمكر والحيانة ، وكن مع أول داخل وآخر خارج منها . وفي الخبر « شر البقاع الأسواق ، وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجاً »^(٢) ، وتما هذا الاحتراس أن يراقب وقت كفايته ، فإذا حصل كفاية وقته انصرف واشتغل بتجارة الآخرة هكذا كان صالحو السلف ، فقد كان منهم من إذا ربح دانقاً انصرف قناعة به . وكان حماد بن سلة يبيع الخبز في سبط بين يديه ، فكان إذا ربح حبتين رفع سبطه وانصرف . وقال إبراهيم بن بشار : قلت لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : أمر اليوم أعمل في الطين فقال : يا ابن بشار ، إنك طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته وتطلب ما قد كفيته ، أما رأيت حريصاً محروماً وضعيفاً مرزوقاً ؟ فقلت : إن لي دانقاً عند البقال ؛ فقال عز على بك ، تملك دانقاً وتطلب العمل ؟ وقد كان فيهم من ينصرف بعد الظهر ، ومنهم بعد العصر ، ومنهم من لا يعمل في الأسبوع إلا يوماً أو يومين وكانوا يكتفون به .

السادس : أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواقع الشبهات ومظان الرب ولا ينظر إلى الفتاوى بل يستفتي قلبه ، فإذا وجد فيه حزاة اجتنبه ، وإذا حمل إليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف ولا أكل الشبهة . وقد حمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لبن ، فقال « من أين لكم هذا ؟ » فقالوا : من الشاة ، فقال « ومن أين لكم هذه الشاة ؟ » فقيل : من موضع كذا ، فشرب منه ثم قال « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيباً ولا نعمل إلا صالحاً »^(٣) ، وقال « إن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ »^(٤) فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أصل الشيء وأصل أصله ولم يزد ، لأن ما وراء ذلك يتعذر . وسنن في كتاب الحلال والحرام موضع وجوب هذا السؤال ، فإنه كان عليه السلام لا يسأل عن كل ما يحمل إليه^(٥) ، وإنما الواجب أن ينظر التاجر إلى من يعامله ، فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله ، وكذا الأجناد والظلة لا يعاملهم ألبتة ولا يعامل أصحابهم وأعوانهم ، لأنه معين بذلك على الظلم . وحكى عن رجل أنه تولى عمارة سور لثغر من الثغور . قال : فوقع في نفسى من ذلك شيء - وإن كان ذلك العمل من الخيرات بل من فرائض الإسلام ، ولكن كان الأمير الذى تولى في محلته من الظلمة . قال : فسألت سفيان رضي الله

- (١) حديث « لا تترك البحر إلا لحجة أو عمرة أو غزو » أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو ، وقيل لأنه منقطع .
- (٢) حديث « شر البقاع الأسواق ، وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجاً » تقدم صدر الحديث في الباب السادس من العلم . وروى أبو نعيم في كتاب حرمة المساجد من حديث ابن عباس « أبغض البقاع إلى الله الأسواق وأبغض أهلها إلى الله أولهم دخولا وآخرهم خروجاً » .
- (٣) حديث سؤاله عن لبن والشاة ، وقوله « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيباً ولا نعمل إلا صالحاً » رواه الطبراني من حديث أم عبد الله أخت شداد بن أوس بسند ضعيف .
- (٤) حديث « إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .
- (٥) حديث : كان لا يسأل عن كل ما يحمل إليه . رواه أحمد من حديث جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه صهروا امرأة فذبحت لهم شاة ... الحديث ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم لقمة فلم يستطع أن يسيغها ، فقال : هذه شاة ذبحت بنير أذن أهلها ... الحديث ، وله من حديث أبي هريرة : كان إذا أتى بطعام من غير أهله سأل عنه . . الحديث ، واسناده جيد . وفي هذا أنه كان لا يسأل عما أتى به من عند أهله ، والله أعلم .

عنه فقال : لا تكن عوناً لهم على قليل ولا كثير ؛ فقلت : هذا سور في سبيل الله للسليين ! فقال نعم ، ولكن أقل ما يدخل عليك أن تحب بقاءهم ليو فوقك أجرك ؛ فتسكون قد أحببت بقاء من يعصى الله . وقد جاء في الخبر « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه »^(١) ، وفي الحديث « إن الله ليفضب إذا مدح الفاسق »^(٢) ، وفي حديث آخر « من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام »^(٣) ، ودخل سفيان على المهدي وبه درج أبيض ، فقال : ياسفيان أعطى الدواة حتى أكتب ، فقال : أخبرني أى شيء تكتب ، فإن كان حقاً أعطيتك . وطلب بعض الأمراء من بعض العلماء المحبوسين عنده أن يناوله طيناً ليختم به الكتاب ، فقال : ناولني الكتاب أولاً حتى أنظر ما فيه ، فهكذا كانوا يحترزون عن معاونة الظلمة ومعاملتهم أشد أنواع الإعانة : فينبغي أن يحتذوا ذور الدين ما وجدوا إليه سبيلاً . وبالجملة فينبغي أن ينقسم الناس عنده إلى من يعامل ومن لا يعامل ، وليكن من يعامله أقل ممن لا يعامله في هذا الزمان . قال بعضهم : أتى على الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ويقول : من ترون لي أن أعامل من الناس فيقال له : عامل من شئت . ثم أتى زمان آخر كانوا يقولون : عامل من شئت إلا فلاناً وفلاناً ثم أتى زمان آخر فكان يقال : لاتعامل أحداً إلا فلاناً وفلاناً ، وأخشى أن يأتي زمان يذهب هذا أيضاً . وكأنه قد كان الذي كان يحذر أن يكون ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

السابع : ينبغى أن يراقب جميع مجارى معاملته مع واحد من معامليه ، فإنه مراقب ومحاسب ، فليعدّ الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل فعلة وقولة لأنه لم أقدم عليها ؟ ولأجل ماذا ؟ فإنه يقال : إنه يوقف التاجر يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئاً وقفة ، ومحاسب عن كل واحد فهو محاسب على عدد من عامله . قال بعضهم : رأيت بعض التجار في النوم ، فقلت : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : نشر على خمسين ألف صحيفة ، فقلت : هذه كلها ذنوب ، فقال ، هذه معاملات الناس بعدد كل إنسان عاملته في الدنيا : لكل إنسان صحيفة مفردة فيما بيني وبينه من أول معاملته إلى آخرها فهذا ما على المكتسب في عمله من العدل والإحسان والشفقة على الدين ، فإن اقتصر على العدل كان من الصالحين ، وإن أضاف إليه الإحسان كان من المقربين ، وإن راعى مع ذلك وظائف الدين كما ذكر في الباب الخامس كان من الصديقين والله أعلم بالصواب .

تم كتاب الكسب والمعيشة بحمد الله ومنه

(١) حديث « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » لم أجده مرفوعاً ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت من قول الحسن ، وقد ذكره المصنف هكذا على الصواب في آفات اللسان . (٢) حديث « إن الله لينضب إذا مدح الفاسق » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت ، وابن عدى في الكامل ، وأبو يعلى والبيهقي في الشعب . من حديث أنس بسند ضعيف . (٣) حديث « من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام » غريب بهذا اللفظ ، والمعروف « من وقر صاحب بدعة ... الحديث » رواه ابن عدى من حديث عائدة ، والضرائق في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية . من حديث عبد الله بن بسر بأسانيد ضعيفة قال ابن الجوزي : كلها موضوعة .

كتاب الحلال والحرام

وهو الكتاب الرابع من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى خلق الإنسان من طين لازب وصلصال ، ثم ركب صورته فى أحسن تقويم وأتم اعتدال ، ثم غذاه فى أول نشوه بلبن استصفاه من بين فرث ودم سائغا كالماء الزلال ، ثم حماه بما آتاه من طيبات الرزق عن دواعى الضعف والانحلال ، ثم قيد شهوته المعادية له عن السطوة والصيال وقهرها بما افترضه عليه من طلب القوات الحلال ، وهزم بكسرهما جند الشيطان المتشمر للإضلال ، ولقد كان يجرى من ابن آدم مجرى الدم السيل ، فضيق عليه عزة الحلال المجرى والمجال ، إذ كان لا يبذره إلى أعماق العروق إلا الشهوة المائلة إلى الغلبة والاسترسال ؛ فبقى لما زمت بزمام الحلال خائبا خاسرا ماله من ناصر ولا وائل . والصلاة على محمد الهادى من الضلال وعلى آله خير آل ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد فقد قال صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة على كل مسلم »^(١) ، رواه ابن مسعود رضى الله عنه ، وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض : أعصاها على العقول فهما ، وأثقلها على الجوارح فعلا ، ولذلك اندرس بالكلية علما وعملا ، وصار غموض علمه سببا لاندراس عمله ، إذ ظن الجهال أن الحلال مفقود ، وأن السبيل دون الوصول إليه مسدود ، وأنه لم يبق من الطيبات إلا الماء الفرات ، والحشيش التابت فى الموات ، وما عداه فقد أخبثته الأيدى العادية ، وأفسدته المعاملات الفاسدة ، وإذا تعذرت القناعة بالحشيش من النبات لم يبق وجه سوى الاتساع فى المحرمات ؛ فرفضوا هذا القطب من الدين أصلا ، ولم يدركوا بين الأموال فرقا وفصلا ، وهيهات هيهات ، فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات ؛ ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات كيفما تقلبت الحالات . ولما كانت هذه بدعة عم فى الدين ضررها ، واستطارت فى الخلق شررها ، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة على وجه التحقيق والبيان ، ولا يخرج منه التضييق عن حيز الإمكان .

ونحن نوضح ذلك فى سبعة أبواب : (الباب الأول) فى فضيلة طلب الحلال ومذمة الحرام ودرجات الحلال والحرام . (الباب الثانى) فى مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام . (الباب الثالث) فى البحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانها فى الحلال والحرام . (الباب الرابع) فى كيفية خروج التائب عن المظالم المالية (الباب الخامس) فى إدارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم . (الباب السادس) فى الدخول على السلاطين ومخالطتهم . (الباب السابع) فى مسائل متفرقة .

كتاب الحلال والحرام

(١) حديث ابن مسعود « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » هدم فى الزكاة دون قوله « على كل مسلم » والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس « واجب على كل مسلم » وأسناده ضعيف .

الباب الأول : في فضيلة الحلال ومذمة الحرام

وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه

فضيلة الحلال ومذمة الحرام

قال الله تعالى ﴿ كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ﴾ أمر بالآكل من الطيبات قبل العمل . وقيل : إن المراد به الحلال . وقال تعالى ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ ثم قال ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ ثم قال ﴿ وإن تبتم فلكم رموس أموالكم ﴾ ثم قال ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ جعل آكل الربا أول الأمر مؤذنا بمحاربة الله ، وفي آخره متعرضا للنار ، والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى . وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : طلب الحلال فريضة على كل مسلم ، ولما قال صلى الله عليه وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ^(١) ، قال بعض العلماء : أراد به طلب علم الحلال والحرام ، وجعل المراد بالحديثين واحدا .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : من سعى على عياله من حله فهو كالجهاد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا في عفاف كان في درجة الشهداء ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ^(٣) ، وفي رواية : زهده الله في الدنيا ، وروى : أن سعدا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله تعالى أن يجعله مجاب الدعوة ، فقال له : أطب طعمتك تستجيب دعوتك ^(٤) ، ولما ذكر صلى الله عليه وسلم الحريص على الدنيا قال : رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام ، يرفع يديه فيقول : يارب يارب ، فأني يستجاب لذكرك ^(٥) ، وفي حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن لله ملكا على بيت المقدس ينادى كل ليلة : من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل ^(٦) ، فقيل : الصرف النافلة ، والعدل الفريضة . وقال صلى الله عليه وسلم : من اشترى ثوبا

(١) حديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » تقدم في العلم . (٢) حديث « من سعى على عياله من حله فهو كالجهاد في سبيل الله » ، ومن طلب الدنيا في عفاف كان في درجة الشهداء » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة « من سعى على عياله في سبيل الله » ولأبي منصور في مسند الفردوس « من طلب مكسبة من باب حلال يكف بها وجهه عن مشكلة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين » وإسنادهما ضعيف . (٣) حديث « من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أيوب « من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ولابن عدى نحوه من حديث أبي موسى ، وقال : حديث منكر . (٤) حديث . أن سعدا سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله أن يجعله مجاب الدعوة ، فقال له « أطب طعمتك تستجيب دعوتك » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه . (٥) حديث « رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ : ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ... الحديث . (٦) حديث ابن عباس « إن لله ملكا على بيت المقدس ينادى كل ليلة : من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل » لم أقف له على أصل ؛ ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود « من أكل أكلة من حرام لم تقبل منه صلاة أربعين ليلة ... الحديث » وهو منكر .

بشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته مادام عليه منه شيء ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل لحم نبت من حرام فالنار أولاه » ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار » ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في طلب الحلال » ^(٤) ، روى هذا مرفوعاً وموقوفاً على بعض الصحابة أيضاً . وقال صلى الله عليه وسلم « من أمسى وانى من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راض » ^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفق في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قذفه في النار » ^(٦) ، وقال عليه السلام « خير دينكم الورع » ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من لقي الله ورعاً أعطاه الله ثواب الإسلام كله » ^(٨) ، ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه : وأما الورعون فأنا أستحي أن أحاسبهم . وقال صلى الله عليه وسلم « درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنية في الإسلام » ^(٩) ، وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه « المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة ، وإذا سقمت صدرت بالسقم » ^(١٠) ، ومثل الطعنة من الدين مثل الأساس من البنيان ، فإذا ثبت الأساس وقوى استقام البنيان وارتفع ، وإذا ضعف الأساس واعوج انهار البنيان ووقع . وقال الله عز وجل ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ﴾ الآية . وفي الحديث « من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه ، وإن تركه ورأه كان زاده إلى النار » ^(١١) ، وقد ذكرنا جملة من الأخبار في كتاب آداب الكسب تكشف عن فضيلة الكسب الحلال .

وأما الآثار : فقد ورد أن الصديق رضى الله عنه شرب لبنا من كسب عبده ثم سأل عبده فقال : تكهنت لقوم فأعطوني ، فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء حتى ظننت أن نفسه ستخرج ، ثم قال : اللهم إني أعوذ بك عما حملت العروق وخالط الأمعاء ^(١٢) . وفي بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال : أوعلمتم . أن الصديق

(١) حديث « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم في ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته وعليه منه شيء » رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (٢) حديث « كل لحم نبت من الحرام فالنار أولاه » أخرجه الترمذي من حديث كعب بن عجرة وحسنه ، وقد تقدم (٣) حديث « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله عز وجل من أين أدخله النار » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر . قال ابن العربي في طارضة الأحوذى شرح الترمذي : لأنه باطل لم يصح ولا يصح . (٤) حديث « العبادة عشرة أجزاء ، قسمة منها في طلب الحلال » رواه أبو منصور الديلمي من حديث أسس ، لما أنه قال « تسعة منها في الصمت والعاشرة كسب اليد من الحلال » وهو مفسك . (٥) حديث « من أمسى وانى من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راض » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس « من أمسى كالا من عمل يديه أمسى مغفوراً له » وفيه ضعف . (٦) حديث « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفق في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قذفه في النار » رواه أبو داود في المراسيل من رواية القاسم بن مخيمرة مرسل . (٧) حديث « خير دينكم الورع » تقدم في العلم . (٨) حديث « من لقي الله ورعاً أعطاه ثواب الإسلام كله » لم أقف له على أصل . (٩) حديث « درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنية في الإسلام » رواه أحمد والدارقطني من حديث عبد الله بن حنظلة وقال : « ستة وثلاثين » ورجاله ثقات ، وقيل : عن حنظلة الزاهد عن كعب مرفوعاً ، ولطبراني في الصغير من حديث ابن عباس « ثلاثة وثلاثين » وسنده ضعيف . (١٠) حديث أبي هريرة « المعدة حوض البدن » والعروق إليها واردة ... الحديث « أخرجه الطبراني في الأوسط ، والقبلي في الضعفاء وقال : باطل لأصل له . (١١) حديث « من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه » وإن تركه ورأه كان زاده إلى النار » رواه أحمد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ؛ ولابن حبان من حديث أبي هريرة « من جمع مالا من حرام ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه » . (١٢) حديث : إن أبا بكر شرب لبنا من كسب عبده ثم سأله فقال : تكهنت لقوم فأعطوني فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء . وفي بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر بذلك قال : أو ما علمتم أن الصديق لا يدخل جوفه إلا طيباً . رواه البخاري من حديث عائشة : كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يوماً بغيره فأكل منه أبو بكر ، فقال له السلام : أندرى ما هذا؟ فقال : وما هو ؟ قال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية . فذكره ، دون المرفوع منه ، فلم أجده .

لا يدخل جوفه إلا طيباً ؛ وكذلك شرب عمر رضى الله عنه من لبن لبّل الصدقة غلطاً ، فأدخل أصبعه وتقيأ . وقالت عائشة رضى الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة ، هو الورع . وقال عبدالله بن عمر رضى الله عنه : لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصتمتم حتى تكونوا كالآوتار ، لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجر . وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله : ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه . وقال الفضيل : من عرف ما يدخل جوفه كتب الله صديقاً ، فانظر عند من تفطر يامسكين . وقيل لإبراهيم بن آدم رحمه الله : لم لا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لى دلو شربت منه . وقال سفيان الثوري رضى الله عنه : من أنفق من الحرام فى طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول والثوب النجس لا يظهر إلا الماء ، والذنب لا يكفره إلا الحلال . وقال يحيى بن معاذ الطاعة خزنة من خزائن الله إلا أن مفتاحها الدعاء ، وأسنانها لقم الحلال . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يقبل الله صلاة امرئ فى جوفه حرام ، وقال سهل التستري : لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسنة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب النهى من الظاهر والباطن ، والصبر على ذلك إلى الموت . وقال : من أحب أن يكشف بآيات الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً ولا يعمل إلا فى سنة أو ضرورة . ويقال : من أكل الشبهة أربعين يوماً أظلم قلبه ، وهو تأويل قوله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال ابن المبارك : رد درهم من شبهة أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف ، حتى بلغ إلى ستمائة ألف . وقال بعض السلف : إن العبد يأكل أكله فيقلب قلبه ، فينغل كما ينغل الأديم ولا يعود إلى حاله أبداً . وقال سهل رضى الله عنه : من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى ، علم أو لم يعلم . ومن كانت طعمته حلالاً أطاعته جوارحه ووفقت للخيرات وقال بعض السلف : إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنوبه ، ومن أقام نفسه مقام ذل فى طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر . وروى فى آثار السلف أن الواظظ كان إذا جلس للناس قال العلماء : تفقدوا منه ثلاثاً ، فإن كان معتقداً لبدة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق ، وإن كان سىء الطعمة فعن الهوى ينطق ، فإن لم يكن مكين العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح فلا تجالسوه . وفى الأخبار المشهورة عن على عليه السلام وغيره : إن الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب . وزاد آخرون : وشبهتها عتاب . وروى أن بعض الصالحين دفع طعاماً إلى بعض الأبدال فلم يأكل ؛ فسأله عن ذلك فقال : نحن لا نأكل إلا حلالاً ، فلذلك تستقيم قلوبنا ويدوم حالنا ونكاشف الملكوت ونشاهد الآخرة ، ولو أكلنا بما تأكلون ثلاثة أيام لما رجعنا إلى شيء من علم اليقين ولذهب الخوف والمشاهدة من قلوبنا ؛ فقال له الرجل : فإنى أصوم الدهر وأختم القرآن فى كل شهر ثلاثين مرة ، فقال له البذل : هذه الشربة التى رأيتى شربتها من الليل أحب إلى من ثلاثين ختمة فى ثلاثمائة ركعة من أعمالك ، وكانت شربته من لبن ظبية وحشية . وقد كان بين أحمد بن حنبل ويحيى بن معين حبة طويلة ، فهجره أحمد إذ سمعه يقول : إني لأسأل أحداً شيئاً ، ولو أعطانى الشيطان شيئاً لا أكلته ، حتى اعتذر يحيى وقال : كنت أمرح ، فقال : تمزح بالدين ؛ أما علمت أن الأكل من الدين قدمه الله تعالى على العمل الصالح فقال ﴿ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ وفى الخبر : أنه مكتوب فى التوراة : من لم يبال من أين مطعمه لم يبال الله من أى أبواب النيران أدخله ، وعن على رضى الله عنه أنه لم يأكل بعد قتل عثمان ونهب الدار طعاماً إلا محتوماً حذراً من الشبهة . واجتمع الفضيل بن عياض وابن عيينة وابن المبارك وهيب بن الورد بمكة ، فذكروا الرطب ، فقال وهيب ؛ هو من أحب الطعام إلى ، إلا أنى لا آكله لاختلاط رطب مكة ببساتين زبيدة وغيرها ، فقال له

ابن المبارك : إن نظرت في مثل هذا ضاق عليك الخبز . قال : وما سببه ؟ قال : إن أصول الضياع قد اختلط بالصواني ، فغشى على وهيب ؛ فقال سفيان : قتلت الرجل ؛ فقال ابن المبارك : ما أردت إلا أن أهون عليه ؛ فلما أفاق قال : لله على أن لا أكل خبزا أبدا حتى ألقاه . قال : فكان يشرب اللبن ، قال فأتته أمه بلبن فسالها فقالت : هو من شاة بنى فلان ، فسأل عن ثمنها وأنه من أين كان لهم فذكرت : فلما أدناه من فيه قال : بقي أنها من أين كانت ترعى ؟ فسكتت ، فلم يشرب لأنها كانت ترعى من موضع فيه حق للسليين ؛ فقالت أمه : اشرب فإن الله يغفر لك ؛ فقال ، ما أحب أن يغفر لي وقد شربته فأنا لم مغفرته بمعصيته . وكان بشر الحافي رحمه الله من الورعين ؛ فقيل له : من أين تأكل ، فقال : من حيث تأكلون ، ولكن ليس من يأكل وهو يبكي كمن يأكل وهو يضحك . وقال : يد أقصر من يد ولقمة أصغر من لقمة ، وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات .

أصناف الحلال ومداخله

اعلم أن تفصيل الحلال والحرام إنما يتولى بيانه كتب الفقه ، ويستغنى المريد عن تطويله بأن يكون له طعمة معينة يعرف بالفتوى حلها لا يأكل من غيرها ؛ فأما من يتوسع في الأكل من وجوه متفرقة فيفتقر إلى علم الحلال والحرام كله كما فصلناه في كتب الفقه . ونحن الآن نشير إلى مجامعه في سياق تقسيم : وهو أن المال إنما يحرم إما لمعنى في عينه أو لخلل في جهة اكتسابه .

القسم الأول : الحرام لصفة في عينه كالخمر والخنزير وغيرهما

وتفصيله أن الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أقسام ، فإنها إما أن تكون من المعادن كاللح والطين وغيرهما ، أو من النبات ، أو من الحيوانات . أما المعادن : فهي أجزاء الأرض وجميع ما يخرج منها ، فلا يحرم أكله إلا من حيث إنه يضر بالآكل ، وفي بعضها ما يجرى مجرى السم ، والخبز لو كان مضرا لحرم أكله ، والطين الذي يعتاد أكله لا يحرم إلا من حيث الضرر . وقائدة قولنا : إنه لا يحرم مع أنه لا يؤكل ، أنه لو وقع شيء منها في مرقاة أو طعام مائع لم يصير به محرما . وأما النبات : فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل أو يزيل الحياة أو الصحة ؛ فزيل العقل : البنج والخمر وسائر المسكرات ، ومزيل الحياة : السموم ؛ ومزيل الصحة : الأدوية في غير وقتها ، وكأن مجموع هذا يرجع إلى الضرر إلا الخمر والمسكرات ؛ فإن الذي لا يسكر منها أيضا حرام مع قلته لعينه ولصفته ، وهي الشدة المطربة . وأما السم فإذا خرج عن كونه مضرا لقلته أو لعجنه بغيره فلا يحرم

وأما الحيوانات : فتقسم إلى ما يؤكل وإلى ما لا يؤكل ، وتفصيله في كتاب الأطعمة ، والنظر يطول في تفصيله ، لاسيما في الطيور الغريبة وحيوانات البر والبحر ، وما يحل أكله منها فإنما يحل إذا ذبح ذبحا شرعيا روعى فيه شروط الذابح والآلة والذبح ، وذلك مذکور في كتاب الصيد والذبائح ؛ وما لم يذبح ذبحا شرعيا أو مات فهو حرام ، ولا يحل إلا ميتتان : السمك والجراد ، وفي معناهما ما يستحيل من الأطعمة كدود التفاح والخل والجبن ، فإن الاحتراز منهما غير ممكن ؛ فأما إذا أفردت وأكلت لحكمها حكم الذباب والخنفساء والعقرب وكل ما ليس له نفس سائلة : لاسبب في تحريمها إلا الاستقذار ، ولو لم يكن لكان لا يكره ، فإن وجد شخص لا يستقذره لم يلتفت إلى خصوص طبعه فإنه التحق بالخبائث لعموم الاستقذار ، فيكره أكله ، كما لوجع المخاط وشربه كره

ذلك ، وليست الكراهة لنجاستها فإن الصحيح أنها لا تنجس بالموت ، إذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يملأ الذباب في الطعام إذا وقع فيه ^(١) ، وربما يكون حارا ويكون ذلك سبب موته ، ولو تهرت نملة أو ذبابة في قدر لم يجب إزالتها ، إذ المستقدر هو جرمه إذا بقي له جرم ، ولم ينجس حتى يحرم بالنجاسة ، وهذا يدل على أن تحريمه للاستقذار ، ولذلك نقول : لو وقع جزء من آدمى ميت في قدر ولو وزن دائق حرم الكل بالنجاسته ، فإن الصحيح أن الآدمي لا ينجس بالموت ، ولكن لأن أكله محرم احتراماً لاستقذاراً . وأما الحيوانات المأكولة إذا ذبحت بشرط الشرع فلا تحل جميع أجزائها بل يحرم منها الدم والفرث وكل ما يقضى بنجاسته منها ، بل تناول النجاسة مطلقاً محرم ، ولكن ليس في الأعيان شيء محرم نجس إلا من الحيوانات . وأما من النبات فالمسكرات فقط دون ما يزيل العقل ولا يسكر كالبنج ، فإن نجاسة المسكر تغليظ للزجر عنه لكونه في مغلة التشؤف ، ومهما وقعت قطرة من النجاسة أو جزء من نجاسة جامدة في مرقة أو طعام أو دهن حرم أكل جميعه ، ولا يحرم الانتفاع به لغير الأكل ، فيجوز الاستصباح بالدهن النجس ، وكذا طلاء السفن والحيوانات وغيرها ، فهذه مجامع ما يحرم لصفة في ذاته .

القسم الثاني : ما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه

وفية يتسع النظر فنقول ؛ أخذ المال إما أن يكون باختيار المالك أو بغير اختياره فالذي يكون بغير اختياره كالإلثام ، والذي يكون باختياره إما أن لا يكون من مالك كنييل المعادن ، أو يكون من مالك ، والذي أخذ من مالك فيما أن يؤخذ قهراً أو يؤخذ تراضياً ، والمأخوذ قهراً إما أن يكون لسقوط عصمة المالك كالغنائم ، أو لاستحقاق الأخذ كزكاة الممتنعين والنفقات الواجبة عليهم ، والمأخوذ تراضياً إما أن يؤخذ بعوض كالبيع والهدايا والآجرة ، وإما أن يؤخذ بغير عوض كالهبة والوصية ، فيحصل من هذا السياق ستة أقسام :

الأول : ما يؤخذ من غير مالك : كنييل المعادن ، وإحياء الموات ، والاصطياد ، والاحتطاب ، والاستقاء من الأنهار ، والاحتشاش ، فهذا حلال بشرط أن لا يكون المأخوذ مختصاً بذى حرمة من الآدميين ، فإذا انفك من الاختصاصات ملكها آخذها . وتفصيل ذلك في كتاب إحياء الموات .

الثاني : المأخوذ قهراً من لاهرمة له وهو النقي والغنيمة وسائر أموال الكفار والمخربين ، وذلك حلال للمسلمين إذا أخرجوا منها الجنس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر لاهرمة وأمان وعهد . وتفصيل هذه الشروط في كتاب السير من كتاب النقي والغنيمة وكتاب الجزية .

الثالث : ما يؤخذ قهراً باستحقاق عند امتناع من وجب عليه ، فيؤخذ دون رضاه ، وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق وتم وصف المستحق الذي به استحقاقه واقتصر على القدر المستحق ، واستوفاه من يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحق : وتفصيل ذلك في كتاب تفريق الصدقات وكتاب الوقف وكتاب النفقات ، إذ فيها النظر في صفة المستحقين للزكاة والوقف والنفقة وغيرها من الحقوق ، فإذا استوفيت شرائطها كان المأخوذ حلالاً .

الرابع : ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة ، وذلك حلال إذا روعي شرط العوضين وشرط العاقدين وشرط اللفظين : أعني الإيجاب والقبول ، مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة . وبيان ذلك في كتاب البيع والسلم والإجارة والحوالة والضمان والقراض والشركة والمساقاة والشفعة والصلح والخلع والكتابة والصدقات

(١) حديث الأمر بأن يملأ الذباب في الطعام إذا وقع فيه . رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

وسائر المعاوضات .

الخامس : ما يؤخذ عن رضا من غير عوض ، وهو حلال إذا روعى فيه شرط المعقود عليه وشرط العاقدين وشرط العقد ولم يؤد إلى ضرر بوارث أو غيره وذلك مذكور في كتاب الهبات والوصايا والصدقات .
السادس . ما يحصل بغير اختيار كالميراث ، وهو حلال إذا كان الموروث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال ، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا وتعديل القسمة بين الورثة وإخراج الزكاة والحج والكفارة إن كان واجبا ، وذلك مذكور في كتاب الوصايا والفرائض : فهذه مجامع مدخل الحلال والحرام أو مانا إلى جعلها ليعلم المرید أنه إن كانت طعمته متفرقة لامن جهة معينة فلا يستغنى عن علم هذه الأمور ؛ فكل ما يأكله من جهة من الجهات ينبغي أن يستغنى فيه أهل العلم ولا يقدم عليه بالجهل ، فإنه كما يقال للعالم : لم خالفت علمك ؟ يقال للجاهل : لم لازمت جهلك ولم تتعلم بعد أن قبل لك طلب العلم فريضة على كل مسلم ؟

درجات الحلال والحرام

اعلم أن الحرام كله خبيث ، لكن بعضه أخبث من بعض ، والحلال كله طيب ، ولكن بعضه أطيب من بعض وأصنى من بعض ، وكما أن الطيب يحكم على كل حلو بالحرارة ولكن يقول : بعضها حار في الدرجة الأولى كالسكر ، وبعضها حار في الثانية كالقانيذ ، وبعضها حار في الثالثة كالذبس ، وبعضها حار في الرابعة كالعسل . كذلك الحرام بعضه خبيث حار في الدرجة الأولى ، وبعضه في الثانية أو الثالثة أو الرابعة : وكذا الحلال تتفاوت درجات صفاته وطيبه ، فلفقت بأهل الطب في الاصطلاح على أربع درجات تقريبا . وإن كان التحقيق لا يوجب هذا الحصر ، إذ يتطرق إلى كل درجة من الدرجات أيضا تفاوت لا ينحصر ، فإن من السكر ما هو أشد حرارة من سكر آخر ، وكذا غيره ، فلذلك نقول : الورع عن الحرام على أربع درجات :

الأولى : ورع العدول ، وهو الذي يجب الفسق باقتحامه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه : وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء .

الثانية : ورع الصالحين ، وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم ، ولكن المفتى يرخص في تناول بناء على الظاهر ، فهو من مواقع الشبهة على الجملة ، فلنسم التحرج عن ذلك ورع الصالحين وهو في الدرجة الثانية .

الثالثة : مالا تحترمه الفتوى ولا شبهة في حله ، ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم ، وهو ترك مالا بأس به مخافة مما به بأس ، وهذا ورع المتقين . قال صلى الله عليه وسلم ، لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس (١) .

الرابعة : مالا بأس به أصلا ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس ، ولكنه يتناول لغير الله وعلى غير نية التقوى به على عبادة الله ، أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية ، والامتناع منه ورع الصديقين ، فهذه درجات الحلال جملة إلى أن نفصلها بالأمثلة والشواهد .

وأما الحرام الذي ذكرناه في الدرجة الأولى وهو الذي يشترط التورع عنه في العدالة واطراح سمة الفسق ، فهو أيضا على درجات في الخبث ، فالأخوذ بعقد فاسد كالمعاطاة مثلا فيا لا يجوز فيه المعاطاة حرام ، ولكن ليس في درجة المصوب على سبيل القهر ، بل المصوب أغلظ ، إذ فيه ترك طريق الشرع في الاكتساب وإيذاء الغير ،

(١) حديث « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به بأس » رواه ابن ماجه ، وقد تقدم .

وليس في المعاطاة إيذاء ، وإنما فيه ترك طريق التعبد فقط ، ثم ترك طريق التعبد بالمعاطاة أهون من تركه بالربا ، وهذا التفاوت يدرك بتشديد الشرع ووعيده وتأكيده في بعض المناهي ، على ما سيأتي في كتاب التوبة عند ذكر الفرق بين الكبيرة والصغيرة ، بل المأخوذ ظلماً من فقير أو صالح أو من يتيم أخبث وأعظم من المأخوذ من قوى أو غنى أو فاسق ، لأن درجات الإيذاء تختلف باختلاف درجات المؤذي ، فهذه دقائق في تفاصيل الخبائث لا ينبغي أن يذهل عنها ، فلو اختلفت درجات العصاة لما اختلفت درجات النار وإذا عرفت مشاركات التغليظ فلا حاجة إلى حصره في ثلاث درجات أو أربعة ، فإن ذلك جار مجرى التحكم والتشهي ، وهو طلب حصر فيما لا حصر له ، ويدلك على اختلاف درجات الحرام في الخبث ما سيأتي في تعارض المحذورات وترجيح بعضها على بعض ، حتى إذا اضطر إلى أكل ميتة أو أكل طعام الغير أو أكل صيد الحرم فإننا نقدم بعض هذا على بعض .

أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدا

أما الدرجة الأولى : وهي ورع العدول ، فكل ما اقتضى الفتوى تحريمه مما يدخل في المداخل الستة التي ذكرناها من مداخل الحرام لفقد شرط من الشروط ، فهو الحرام المطلق الذي ينسب مقتحمه إلى الفسق والمعصية ، وهو الذي نريده بالحرام المطلق ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد .

وأما الدرجة الثانية : فأمثلتها : كل شبهة لا توجب اجتنابها ولكن يستجيب اجتنابها كما سيأتي في باب الشبهات إذ من الشبهات ما يجب اجتنابها فتلحق بالحرام ، ومنها ما يكره اجتنابها فالورع عنها ورع الموسوسين ، كمن يمتنع من الاصطياد خوفاً من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان أخذه وملكه ، وهذا وسواس . ومنها ما يستحب اجتنابها ولا يجب وهو الذي ينزل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »^(١) ، ونحمله على نهى التنزيه ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « كل ما أصميت ودع ما أنميت »^(٢) ، والإنياء : أن يجرى الصيد فيغيث عنه ثم يدركه ميتاً ، إذ يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر ، والذي نخشاه كما سيأتي : أن هذا ليس بحرام ولكن تركه من ورع الصالحين . وقوله « دع ما يريبك » أمر تنزيه ، إذ ورد في بعض الروايات « كل منه وإن غاب عنك ما لم تجد فيه أثراً غير سهمك » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم في السكب المعلم « وإن أكل فلا تأكل فإن أأف أن يكون إنما أمسك على نفسه ، على سبيل التنزيه لأجل الخوف . إذ قال لأبي ثعلبة الخشني « كل منه » فقال : « وإن أكل منه ؟ فقال « وإن أكل »^(٣) ، وذلك لأن حالة أبي ثعلبة وهو فقير مكتسب لا تحتمل هذا الورع ، وحال عدي كان يحتمله . يحكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم لأنه حاك في قلبه شيء ، مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به ، فأمثله هذه الدرجة نذكرها في التعرض لدرجات الشبهة فكل ما هو شبهة لا يجب اجتنابه فهو مثال هذه الدرجة

أما الدرجة الثالثة : وهي ورع المتقين ، فيشهد لها قوله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس » ، وقال عمر رضي الله عنه . كسنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن تقع في الحرام .

(١) حديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » أخرجه النسائي والترمذي والحاكم وصحاحه من حديث الحسن بن علي .

(٢) حديث « كل ما أصميت ودع ما أنميت » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس والبيهقي موقوفاً عليه وقال : « إن المرفوع ضعيف . » (٣) حديث قال لأبي ثعلبة « كل منه » ؟ فقال : « وإن أكل ؟ قال : « وإن أكل » رواه أبو داود من رواية عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده . ومن حديث أبي ثعلبة أيضاً مختصراً وإسنادهما جيد ، والبيهقي موقوفاً عليه وقال : « إن المرفوع ضعيف . »

وقيل : إن هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال أبو الدرداء : إن من تمام التقوى أن يتقى العبد في مثال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما حتى يكون حجابا بينه وبين النار ، ولهذا كان لبعضهم مائة درهم على إنسان ، فعملها إليه ، فأخذ تسعة وتسعين وتوزع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة . وكان بعضهم يتحززون ، فكل ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبة وما يعطيه يوفيه بزيادة حبة ، ليكون ذلك حاجزا من النار ، ومن هذه الدرجة الاحتراز عما يتساع به الناس ، فإن ذلك حلال في الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجز إلى غيره وتآلف النفس الاسترسال وترك الورع : فمن ذلك ما روى عن علي بن معبد أنه قال : كنت ساكنا في بيت بكراء ، فكتبت كتابا وأردت أن آخذ من تراب الحائط لأتربه وأجففه ، ثم قلت : الحائط ليس لي ، فقالت لي نفسي : وما قدر تراب من حائط ، فأخذت من التراب حاجتي ، فلما نمت فإذا أنا بشخص واقف يقول : يا علي بن معبد ، سيعلم غدا الذي يقول : وما قدر تراب من حائط ، ولعل معنى ذلك أنه يرى كيف يحط من منزلته ، فإن للتقوى درجة تفوت بفوات ورع المتقين ، وليس المراد به أن يستحق عقوبة على فعله . ومن ذلك ما روى أن عمر رضى الله عنه وصله مسك من البحرين فقال : وددت لو أن امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين ، فقالت امرأته عاتكة : أنا أجيد الوزن فسكت عنها ، ثم أعاد القول فأعادت الجواب ، فقال : لا أحببت أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك فأصيب بذلك فضلا على المسلمين . وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين . فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة وقال : وهل يفتنع منه إلا بريحه لما استبعد ذلك منه . وأخذ الحسن رضى الله عنه ثمرة من تمر الصدقة وكان صغيرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كخ كخ »^(١) ، أى ألقها . ومن ذلك ما روى بعضهم أنه كان عند محتضر ، فأت ليلا فقال : أطفئوا السراج قد حدث للورثة حق في الدهن . وروى سليمان التيمي عن نعيمة العطاراة قالت : كان عمر رضى الله عنه يدفع إلى امرأته طيباً من طيب المسلمين لتبئعه ، فباعته طيباً فجعلت تقوم وتريد وتمتص وتمكسر بأبنائها ، فتعلق بأصبعها شيء منه فقالت به هكذا بأصبعها ، ثم مسحته بخمارها فدخل عمر رضى الله عنه فقال : ماهذه الرائحة ؟ فأخبرته فقال : طيب المسلمين تأخذينه ، فانتزع الخمار من رأسها وأخذ جزءاً من الماء فجعل يصب على الخمار ثم يدلكه في التراب ثم يشمه ، ثم يصب الماء ثم يدلكه في التراب ويشمه ، حتى لم يبق له ريح ، قالت : ثم أتيتها مرة أخرى فلما وزنت علني منه شيء بأصبعها ، فأدخلت أصبعها فيها ثم مسحته به التراب ، فهذا من عمر رضى الله عنه ورع التقوى ، لخوف أداء ذلك إلى غيره ، وإلا ففصل الخمار ما كان يعيد الطيب إلى المسلمين ، ولكن أتلفه عليها زجراً وردعاً واثقاً من أن يتعدى الأمر إلى غيره . ومن ذلك ما سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل يكون في المسجد يحمل بحجرة لبعض السلاطين ويخير المسجد بالعود فقال : ينبغي أن يخرج من المسجد ، فإنه لا ينتفع من العود إلا برائحته ، وهذا قد يقارب الحرام ، فإن القدر الذي يعقب بثوبه من رائحة الطيب قد يقصد وقد ييخل به ، فلا بدري أنه يتساع به أم لا . وسئل أحمد بن حنبل عن سقطت منه ورقة فيها أحاديث ، فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردّها ؟ فقال : لا بل يستأذن ثم يكتب ، وهذا أيضا قد يشك في أن صاحبها هل يرضى به أم لا ، فاهو في محل الشك والأصل تحريمه فهو حرام ، وتركه من الدرجة الأولى . ومن ذلك التورع عن الزينة لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها - وإن كانت الزينة مباحة في نفسها . وقد سئل أحمد بن حنبل عن النعال السبئية فقال : أما أنا فلا أستعملها ولكن إن كان للطين فأرجو ، وأما من أراد الزينة فلا ، ومن ذلك أن عمر

(١) حديث : أخذ الحسن بن علي ثمرة من الصدقة وكان صغيراً فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كخ كخ » ، ألقها ، أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

رضي الله عنه لما ولي الخلافة كانت له زوجة يحبها ، فطلقها خيفة أن تشير عليه بشفاعة في باطل فيطيعها ويطلب رضاها ، وهذا من ترك مالا بأس به مخافة مما به البأس : أى مخافة من أن يفضى إليه ، وأكثر المباحات داعية إلى المحظورات ، حتى استكثر الأكل واستعمال الطيب للتعزب فإنه يحرك الشهوة ، ثم الشهوة تدعو إلى الفكر ، والفكر يدعو إلى النظر ، والنظر يدعو إلى غيره ، وكذلك النظر إلى دور الأغنياء وتجملهم ، مباح في نفسه ولكن يبيح الحرص ويدعو إلى طلب مثله ، ويلزم منه ارتكاب ما لا يحل في تحصيله ، وهكذا المباحات كلها إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة في وقت الحاجة مع التحرز من غوائلها بالمعرفة أولاً ثم بالحذر ثانياً ، فقلما تخلو عاقبتها عن خطر ، وكذا كل ما أخذ بالشهوة فقلما يخلو عن خطر ، حتى كره أحمد بن حنبل تجصيص الحيطان وقال : أما تجصيص الأرض فيمنع التراب ، وأما تجصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه ، حتى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها ، واستدل بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه سئل أن يكحل المسجد ، فقال « لا ، عريش كعريش موسى ^(١) » ، وإنما هو شيء مثل الكحل يطلى به ، فلم يرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وكره السلف الثوب الرقيق وقالوا : من رق ثوبه رق دينه ، وكل ذلك خوفاً من سريان اتباع الشهوات في المباحات إلى غيرها ، فإن المحذور والمباح تشبهيهما النفس بشهوة واحدة ، وإذا تعددت الشهوة المسامحة استرسلت ، فاقترض خوف التقوى الورع عن هذا كله ، فكل حلال انفك عن مثل هذه المخافة فهو الحلال الطيب في الدرجة الثالثة ، وهو كل ما لا يخاف أداؤه إلى معصية ألبتة .

أما الدرجة الرابعة : وهو ورع الصديقين ، فالحلال عندهم كل ما لا يتقدم في أسبابه معصية ولا يستعان به على معصية ولا يقصد منه في الحال ، المآل قضاء وطر ، بل يتناول الله تعالى فقط وللتقوى على عبادته واستبقاء الحياة لأجله ، وهؤلاء هم الذين يرون كل ما ليس لله حراماً ، امثالاً لقوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ وهذه رتبة الموحدين المتجزيين عن حظوظ أنفسهم ، المنفردين لله تعالى بالقصد ، ولا شك في أن من يتوزع عما يوصل إليه أو يستعان عليه بمعصية ليتوزع عما يقترن بسبب اكتسابه معصية أو كراهية : فمن ذلك ما روى عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء ، فقالت له امرأته : لو تمشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء ، فقال : هذه مشية لا أعرفها ، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة ، فكأنه لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق بالدين ، فلم يحز الإقدام عليها . وعن سري رحمه الله أنه قال : انتهيت إلى حشيش في جبل وماء يخرج منه ، فتناولت من الحشيش وشربت من الماء ، وقلت في نفسي : إن كنت قد أكلت يوماً حلالاً طيباً فهو هذا اليوم ، فهتف بي هاتف : إن القوة التي أوصلتك إلى هذا الموضع من أين هي ؟ فرجعت وندمت . ومن هذا ما روى عن ذى النون المصري أنه كان جائعاً محبوساً ، فبعثت إليه امرأة صالحة طعاماً على يد السجناء ، فلم يأكل ، ثم اعتذر وقال : جاءني على طبق ظالم ، يعني أن القوة التي أوصلت الطعام إلى لم تكن طيبة ، وهذه الغاية القصوى في الورع . ومن ذلك أن بشراً رحمه الله كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها الأمراء ، فإن النهر سبب لجريان الماء ووصوله إليه وإن كان الماء مباحاً في نفسه فيكون كالمستفيع بالنهر المحفور بأعمال الأجراء وقد أعطوا الأجرة من الحرام ؛ ولذلك امتنع بعضهم من العنب الحلال من كرم حلال ، وقال لصاحبه . أفسدته إذ سقيته من الماء الذي يجري في النهر الذي حفرته الظلمة ، وهذا أبعد عن الظلم من شرب نفس الماء ، لأنه احتراز من استمداد العنب من ذلك الماء . وكان بعضهم إذا مر في طريق الحج لم يشرب من المصانع التي عملتها الظلمة ، مع أن الماء مباح ، ولكنه بقي محفوظاً

(١) حديث : أنه سئل أن يكحل المسجد فقال « لا ، عريش كعريش موسى » أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث أبي الرداء وقال : غريب .

بالمصنع الذي عمل به بمال حرام ، فكأنه انتفاع به . وامتناع ذى النون من تناول الطعام من يد السجان أعظم من هذا كله ؛ لأن يد السجان لا توصف بأنها حرام ، بخلاف الطبق المغصوب إذا حمل عليه ، ولكنه وصل إليه بقوة اكتسبت بالغذاء الحرام ، ولذلك تقياً الصديق رضى الله عنه من اللبن خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوة مع أنه شربه عن جهل ، وكان لا يجب لإخراجه ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصديقين ، ومن ذلك ؛ التورع من كسب حلال اكتسبه خياط يخطط في المسجد ؛ فإن أحمد رحمه الله كره جلوس الخياط في المسجد . وسئل عن المغازلي يجلس في قبة في المقابر في وقت يخاف من المطر ؛ فقال : إنما هي من أمر الآخرة وكره جلوسه فيها . وأطفاً بعضهم سراجاً أسرجه غلامه من قوم يكره ما لهم . وامتنع من تسجير تنور للخبز وقد بقي فيه جمر من حطب مكروه . وامتنع بعضهم من أن يحكم شمع نعله في مشعل السلطان ، فهذه دقائق الورع عند سالكي طريق الآخرة

والتحقيق فيه أن الورع له أول وهو الامتناع عما حرّمته الفتوى وهو ورع العدول وله غاية وهو ورع الصديقين ، وذلك هو الامتناع من كل ما ليس لله مما أخذ بشهوة أو توصل إليه بمكروه ، أو اتصل بسببه مكروه وبينهما درجات في الاحتياط ، فكلما كان العبد أشد تشديداً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة وأسرع جوازاً على الصراط ، وأبعد عن أن ترجع كفة سيئاته على كفة حسناته ، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع ، كما تتفاوت درجات النار في حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام في الخبيث ، وإذا علت حقيقة الأمر فالإليك الخيار ، فإن شئت فاستكثر من الاحتياط ، وإن شئت فرخص فلنفسك تحتاط وعلى نفسك ترخص ، والسلام .

الباب الثاني : في مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع في الشبهات وأقع الحرام ، كالراهي حول الحمى يوشك أن يقع فيه ^(١) ، فهذا الحديث نص في إثبات الأقسام الثلاثة ، والمشكل منها القسم المتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس وهو الشبهة ، فلا بد من بيانها وكشف الغطاء عنها ، فإنّ ما لا يعرفه الكثير فقد يعرفه القليل ، فنقول : الحلال المطلق : هو الذي خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم في عينه ، وانحل عن أسبابه ما تنطرق إليه تحريم أو كراهية ، ومثاله الماء الذي يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد يكون هو واقفاً عند جمعه وأخذه من الهواء في ملك نفسه أو في أرض مباحة .

والحرام المحض : هو ما فيه صفة محزمة لا يشك فيها ، كالشدة المطربة في الخمر ، والنجاسة في البول . أو حصل بسبب منهى عنه قطعاً كالحصل بالظلم والربا ونظائره ؛ فهذان طرفان ظاهران ، ويلتحق بالطرفين ما يتحقق أمره ولكنه احتمل تغيره ، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه ؛ فإنّ صيد البر والبحر حلال ؛ ومن أخذ ظبية فيحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم افلست منه ، وكذلك السمك يحتمل أن يكون قد تولق من الصياد بعد وقوعه في يده وخريطته ؛ فثل هذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء المطر المختطف من الهواء ، ولكنه في معنى ماء المطر ،

الباب الثاني : في مراتب الشبهات

(١) حديث « الحلال بين والحرام بين ... الحديث » متفق عليه من حديث الثمان بن بشير .

والاحتراز منه وسواس ، ولنسم هذا الفن ورع الموسوسين ، حتى تلتحق به أمثاله وذلك لأن هذا وهم مجرد لادلالة عليه ، نعم لو دل عليه دليل : فإن كان قاطعاً كما لو وجد حلقة في أذن السمكة ، أو كان محتماً كما لو وجد على الظبية جراحة يحتمل أن يكون كذا لا يقدر عليه إلا بعد الضبط . ويحتمل أن يكون جرماً ، فهذا موضع الورع ، وإذا انتفت الدلالة من كل وجه فالاحتمال المعلوم دلالة كالأحتمال المعلوم في نفسه ، ومن هذا الجنس من يستعير داراً فيغيب عنه المعبر فيخرج ويقول : لعله مات وصار الحق للوارث ؛ فهذا وسواس إذ لم يدل على موته سبب قاطع أو مشكك إذ الشبهة المخدورة مانتشاً من الشك ، والشك عبارة عن اعتقادين متقابلين نشأ عن سببين ، فما لا سبب له لا يثبت عقده في النفس حتى يساوى العقد المقابل له فيصير شكاً ، ولهذا نقول : من شك أنه صلى ثلاثاً أو أربعاً أخذ بالثلاث إذ الأصل عدم الزيادة . ولوسئل إنسان أن صلاة الظهر التي أداها قبل هذا بعشر سنين كانت ثلاثاً أو أربعاً لم يتحقق قطعاً أنها أربعة ، وإذا لم يقطع جواز أن تكون ثلاثة ، وهذا التجويز لا يكون شكاً ، إذ لم يحضره سبب أو وجب اعتقاد كونها ثلاثاً ، فلتفهم حقيقة الشك حتى لا يشتبه الوهم والتجويز بغير سبب فهذا يلتحق بالحلال المطلق . ويلتحق بالحرام المحض ما تحقق تحريمه وإن أمكن طريان محل ولكن لم يدل عليه سبب ، كمن في يد طعام لمورثه الذي لا وارث له سواه ، فغاب عنه فقال : يحتمل أنه مات وقد انتقل الملك إلى فآ كله ، فأقدمه عليه لإقدام على حرام محض ، لأنه احتمال لا مستند له ، فلا يلغى أن يعتد هذا النمط من أقسام الشبهات ، وإنما الشبهة لغنى بها ما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين . ومشارت الشبهة خمسة :

المشار الأول : الشك في السبب المحلل والمحرم

وذلك لا يخلو إما أن يكون متعادلاً ، أو غلب أحد الاحتمالين ، فإن تعادل الاحتمالين كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك ، وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب ، ولا يتبين هذا إلا بالأمثال والشواهد ، فلتقسمه إلى أقسام أربعة :

القسم الأول : أن يكون التحريم معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل ، فهذه شبهة يجب اجتنابها ويحرم الإقدام عليها . مثاله أن يرى إلى صيد فيجرحه ويقع في الماء فيصادفه ميتاً ولا يدرى أنه مات بالفرق أو بالجرح ، فهذا حرام لأن الأصل التحريم ، إلا إذا مات بطريق معين وقد وقع الشك في الطريق فلا يترك اليقين بالشك ، كما في الأحداث والنجاسات وركعات الصلاة وغيرها ، وعلى هذا ينزل قوله صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم « لا تأكله فلعله قتله غيرك » (١) ، فلذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا أتى بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هدية سأل عنه حتى يعلم أيهما هو (٢) . وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أرق ليلة فقالت له بعض نساءه : أرق يا رسول الله ، فقال : أجل ، وجدت ثمرة نخشيت أن تكون من الصدقة » (٣) ، وفي رواية « فأكلتها نخشيت أن تكون من الصدقة » ، ومن ذلك ما روى عن بعضهم أنه قال : « كنا في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابنا الجوع ، فزلنا منزلاً

(١) حديث « لا تأكله فلعله قتله غيرك » قاله لعدي بن حاتم متفق عليه من حديثه . (٢) حديث « كان إذا أتى بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هبة يسأل عنه » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . (٣) حديث : « أنه أرق ليلة فقال له بعض نساءه . أرق يا رسول الله ! فقال : « أجل ، وجدت ثمرة فأكلتها ، نخشيت أن تكون من الصدقة » أخرجه أحمد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بإسناد حسن .

كثير الضباب فيينا القدور تغلى بها إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمة مسخت من بني إسرائيل أخشى أن تكون هذه ، فأكفأنا القدور ^(١) » ، ثم أعلمه الله بعد ذلك أنه لم يمسح الله خلقا فجعل له نسلا ^(٢) . وكان امتناعه أولا لأن الأصل عدم الحل وشك في كون الذبح محلا .

القسم الثاني أن يعرف الحل ويشك في المحرم ، فالأصل الحل وله الحكم . كما إذا نكح امرأتين رجلان وطار طائر ، فقال أحدهما : إن كان هذا غرابا فأمرأتى طالق ، وقال الآخر : إن لم يكن غرابا فأمرأتى طالق . والتبس أمر الطائر فلا يقضى بالتحريم في واحدة منهما ولا يلزمهما اجتنابهما ، ولكن الورع اجتنابهما وتطليعهما حتى يحلا لسائر الأزواج ، وقد أمر مكحول بالاجتناب في هذه المسئلة ، وأفتى الشعبي بالاجتناب في رجلين كانا قد تازعا ، فقال أحدهما للآخر : أنت حسود ، فقال الآخر : أحسدنا زوجته طالق ثلاثا ، فقال الآخر : نعم ، وأشكل الأمر ، وهذا إن أراد به اجتناب الورع فصحيح ، وإن أراد التحريم المحقق فلا وجه له ، إذ ثبت في المياه والنجاسات والأحداث والصلوات أن اليقين لا يجب تركه بالشك ، وهذا في معناه .

ه فإن قلت : وأي مناسبة بين هذا وبين ذلك ؟ فاعلم أنه لا يحتاج إلى المناسبة ، فإنه لازم من غير ذلك في بعض الصور ، فإنه مهما تيقن طهارة الماء ثم شك في نجاسته جاز له أن يتوضأ به ، فكيف لا يجوز أن يشربه ؟ وإذا جوز الشرب فقد سلم أن اليقين لا يزال بالشك ، إلا أن ههنا دقيقة : وهو أن وزان الماء أن يشك في أنه طلق زوجته أم لا ؟ فيقال : الأصل أنه مطلق ووزان مسئلة الطائر أن يتحقق نجاسة أحد الإنامين ويشتبه عينه ؛ فلا يجوز أن يستعمل أحدهما بغير اجتهاد ، لأنه قابل يقين النجاسة ييقين الطهارة فيبطل الاستصحاب ، فكذلك ههنا قد وقع الطلاق على إحدى الزوجين قطعا ، والتبس عين المطلقة بغير المطلقة ، فنقول : يختلف أصحاب الشافعي في الإنامين على ثلاثة أوجه ، فقال قوم : يستصحب بغير اجتهاد ، وقال قوم : بعد حصول يقين النجاسة في مقابلة يقين الطهارة يجب الاجتناب ولا يفتى الاجتهاد . وقال المقتصدون : يجتهد وهو الصحيح ، ولكن وزانه أن تكون له زوجتان فيقول إن كان غرابا فزنب طالق ، وإن لم يكن فعمرة طالق ، فلا جرم لا يجوز له غشيانهما بالاستصحاب ولا يجوز الاجتهاد ، إذ لا علامة ، ونحوهما عليه لأنه لو وطئهما كان مقتحما للحرام قطعا ، وإن وطئ إحداهما وقال : أقصر على هذه ، كان متحكما بتعيينهما من غير ترجيح . ففي هذا افتراق حكم شخص واحد أو شخصين ، لأن التحريم على شخص واحد متحقق ، بخلاف الشخصين . إذ كل واحد شك في التحريم في حق نفسه .

فإن قيل : فلو كان الإنامان لشخصين فينبغي أن يستغنى عن الاجتهاد ويتوضأ كل واحد بإيمانه لأنه ييقن طهارته وقد شك الآن فيه ، فنقول . هذا محتمل في الفقه والأرجح في ظني المنع ، وإن تعدد الشخصين ههنا كاتحاده ، لأن صحة الوضوء لا تستدعي ملكا ، بل وضوء الإنسان بماء غيره في رفع الحدث كوضوئه بماء نفسه ، فلا يتبين لاختلاف الملك واتحاده أثر ، بخلاف الوطء لزوجته الغير فإنه لا يحل ، ولأن للعلامات مدخلا في النجاسات ، والاجتهاد فيه ممكن بخلاف الطلاق ، فوجب تقوية الاستصحاب بعلامة ليدفع بها قوة يقين النجاسة المقابلة ليقين الطهارة ، وأبواب الاستصحاب والترجيحات من غوامض الفقه ودقائقه ، وقد استقصيناه في كتب الفقه ، ولسنا نقصد الآن إلا التنبيه على قواعدها .

(١) حديث : كما في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمانا الجوع ، فدلنا مزالا كثير الضباب ، فيينا القدور تغلى بها إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمة من بني إسرائيل مسخت فأخاف أن تكون هذه » فأكفأنا القدور . أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث عبد الرحمن وحسنه . وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه حديث ثابت بن زيد نحوه مع اختلاف قال البخاري : وحديث ثابت أصح . (٢) حديث : أنه لم يمسح الله خلقا فجعل له نسلا . أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

القسم الثالث : أن يكون الأصل التحريم ، ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب ، فهو مشكوك فيه ، والغالب حله ؛ فهذا ينظر فيه ؛ فإن استند غلبة الظن إلى سبب معتبر شرعا فالذى نختار فيه أنه يحل ، واجتنابه من الورع . مثاله : أن يرى إلى صيد فيغيب ثم يدركه ميتا وليس عليه أثر سوى سهمه ، ولكن يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر ، فإن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى التحق بالقسم الأول . وقد اختلف قول الشافعي رحمه الله في هذا القسم ، واختار أنه حلال ، لأن الجرح سبب ظاهر وقد تحقق ، والأصل أنه لم يطرأ غيره عليه ، فطريانه مشكوك فيه ، فلا يدع اليقين بالشك .

فإن قيل : فقد قال ابن عباس : كل ما أصميت ودغ ما أنميت . وروى عائشة رضي الله عنها : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأرنب فقال : رميتي عرفت فيها سهمي ، فقال « أصميت أو أنميت ؟ » فقال : بل أنميت ، قال « إن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذي خلقه ، فاعله أعان على قتله شيء ^(١) » وكذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم في كلبه المعلم « وإن أكل فلا تأكل ، فإن أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه ^(٢) » والغالب أن الكلب المعلم لا يسمى خلقه ولا يمسك إلا على صاحبه ، ومع ذلك نهى عنه ، وهذا التحقيق : وهو أن الحل إنما يتحقق إذا تحقق تمام السبب ، وتمام السبب بأن يفرض الموت سليما من طريان غيره عليه ، وقد شك فيه فهو شك في تمام السبب حتى اشتبه أن موته على الحل أو على الحرمة ، فلا يكون هذا في معنى ما تحقق موته على الحل في ساعته ثم شك فيما يطرأ عليه . فالجواب : أن نهى ابن عباس ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم محمول على الورع والتنزيه ، بدليل ما روى في بعض الروايات أنه قال « كل منه وإن غاب عنك مالم تجد فيه أثرا غير سهمك ^(٣) » ، وهذا تنبيه على المعنى الذي ذكرناه : وهو أنه إن وجد أثرا آخر فقد تعارض السببان بتعارض الظن ، وإن لم يجد سوى جرحه حصل غلبة الظن فيحكم به على الاستصحاب ، كما يحكم على الاستصحاب بخبر الواحد والقياس المظنون والعمومات المظنونة وغيرها . وأما قول القائل : إنه لم يتحقق موته على الحل في ساعة فيكون شكا في السبب فليس كذلك ، بل السبب قد تحقق ، إذ الجرح سبب الموت ، فطريان الغير شك فيه ، ويدل على صحة هذا : الإجماع ، على أن من جرح وغاب فوجد ميتا فيجب القصاص على جرحه ، بل إن لم يغيب يحتمل أن يكون موته بهيجان خلط في باطنه ، كما يموت الإنسان فجأة ، فينبغي أن لا يجب القصاص إلا بحر الرقبة والجرح المذنف ، لأن العلل القاتلة في الباطن لا تؤمن ، ولأجلها يموت الصحيح فجأة ، ولا قائل بذلك ، مع أن القصاص مبناه على الشبهة ، وكذلك جنين المذكاة حلال ، ولعله مات قبل ذبح الأصل لا بسبب ذبحه أو لم ينفخ فيه الروح ، وغرة الجنين يجب ، ولعل الروح لم ينفخ فيه ، أو كان قد مات قبل الجناية بسبب آخر ، ولكن يبنى على الأسباب الظاهرة ، فإن الاحتمال الآخر إذا لم يستند إلى دلالة تدل عليه التحق بالوهم والوسواس كما ذكرناه ، فكذلك هذا . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه » فللشافعي رحمه الله

(١) حديث عائشة أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأرنب فقال : رميتي عرفت فيها سهمي ، فقال « أصميت أو أنميت ؟ » قال : بل أنميت . قال « إن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذي خلقه لعله أعان على قتله شيء » . ليس هذا من حديث عائشة ، وإنما رواه موسى بن أبي عائشة عن أبي رزين قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصيد فقال : لاني رميته من الليل فأعياني ، ووجدت سهمي فيه من الند وعرفت سهمي ؛ فقال « الليل خلق من خلق الله عظيم ، لعله أعانك عليها شيء » . رواه أبو داود في المراسيل ، والبيهقي وقال : أبو رزين اسمه مسعود ، والحديث مرسل ، قال البخاري . (٢) حديث : قال لعدي بن حاتم في كلبه المعلم « وإن أكل فلا تأكل فإن أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه » . متفق عليه من حديثه . (٣) حديث « كل منه وإن غاب عنك مالم تجد فيه أثر سهم غيرك » . متفق عليه من حديث عدي بن حاتم .

في هذه الصورة قولان ، والذي نختاره الحكم بالتحريم : لأن السبب قد تعارض ، إذ السبب المعلم كالألة والوكيل يمسك على صاحبه فيحل ، ولو استرسل المعلم بنفسه فأخذ ، لم يحل ؛ لأنه يتصور منه أن يصطاد لنفسه ، ومهما نبعت بإشارته ثم أكل دل ابتداء انبعائه على أنه نازل منزلة آله وأنه يسعى في وكالته ونيابته ، ودل أكله آخر على أنه أمسك لنفسه للصاحبه ، فقد تعارض السبب الدال فيتعارض الاحتمال ، والأصل التحريم فيستصحب ، ولا يزال بالشك ، وهو كما لو وكل رجلا بأن يشتري له جارية فأشترى جارية ومات قبل أن يبين أنه اشتراها لنفسه أو لموكله يحل للموكل وطؤها ، لأن للوكيل قدرة على الشراء لنفسه ولموكله جميعا ، ولا دليل مرجح والأصل التحريم ؛ فهذا يلتحق بالقسم الأول لا بالقسم الثالث .

القسم الرابع : أن يكون الحل معلوما ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعا ، فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم ، إذ بان لنا أن الاستصحاب ضعيف ولا يبقى له حكم مع غالب الظن ، ومثاله أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتقاد على علامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شربه كما أوجبت منع الوضوء به ، وكذا إذا قال : إن قتل زيد عمرا أو قتل زيد صيدا منفردا بقتله فامرأتي طالق فخرجه وغاب عنه فوجد ميتا : حرمت زوجته ، لأن الظاهر أنه منفرد بقتله كما سبق ، وقد نص الشافعي رحمه الله أن من وجد في الغدران ماء متغيرا احتمل أن يكون تغيره بطول المكث أو بالنجاسة فيستعمله ، ولو رأى ظبية بالت فيه ثم وجده متغيرا واحتمل أن يكون بالبول أو بطول المكث لم يحز استعماله ، إذ صار البول المشاهد دلالة مقلبة لاحتمال النجاسة وهو مثال ما ذكرناه وهذا في غلبة ظن استند إلى علامة متعلقة بعين الشيء ، فأما غلبة الظن لامن جهة علامة تتعلق بعين الشيء فقد اختلف قول الشافعي رضي الله عنه في أن أصل الحل هل يزال به إذا اختلف قوله في التوضؤ من أواني المشركين ، ومدمن الخمر والصلاة في المقابر المنبوشة والصلاة مع طين الشوارع ، أعنى المقدار الرائد على ما يتعذر الاحتراز عنه ، وعبر الأصحاب عنه بأنه إذا تعارض الأصل والغالب فأيهما يعتبر ، وهذا جار في حل الشرب من أواني مدمن الخمر والمشركين ، لأن النجس لا يحل شربه ، فإذا أخذ النجاسة والحل واحد ، فالتردد في أحدهما يوجب التردد في الآخر ، والذي أختاره أن الأصل هو المعتبر ، وأن العلامة إذا لم تتعلق بعين المتناول لم توجب رفع الأصل ، وسيأتي بيان ذلك وبرهانه في المثار الثاني للشبهة وهي شبهة الخلط ، فقد اتضح من هذا حكم حلال شك في طريان محرم عليه أو ظن ، وحكم حرام شك في طريان محلل عليه أو ظن ، وبان الفرق بين ظن يستند إلى علامة في عين الشيء وبين ما لا يستند إليه ، وكل ما حكنا في هذه الأقسام الأربعة بحله فهو حلال في الدرجة الأولى والاحتياط تركه ، فالمقدم عليه لا يكون من زمرة المتقين والصالحين بل من زمرة العدول الذين لا يقضى في فتوى الشرع بفسقهم وعصيانهم واستحقاقهم العقوبة ، إلا ما ألحقناه برتبة الوسواس فإن الاحتراز عنه ليس من الورع أصلا .

المثار الثاني للشبهة : شك منشؤه الاختلاط

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ويشبه الأمر ولا يتميز ، والخلط لا يخلو : إما أن يقع بعدد لا يحصر من الجانين أو من أحدهما ، أو بعدد محصور ، فإن اختلط بمحصور فلا يخلو : إما أن يكون اختلاط امتزاج بحيث لا يتميز بالإشارة كاختلاط المسائعات . أو يكون اختلاط استيهام مع التميز للأعيان كاختلاط الأعدب والدور والأفراس ، والذي يختلط بالاستيهام فلا يخلو : إما أن يكون مما يقصد عينه كالعروض ، أولا يقصد كالنقود ،

فيخرج من هذا التقسيم ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن تستبهم العين بعدد محصور ، كالأو اختلطت الميتة بمذكاة أو بعشر مذكيات ، أو اختلطت رضية بعشر نسوة ، أو يتزوج إحدى الاختين ثم تلتبس ، فهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع ، لأنه لا مجال للاجتهاد والعلامات في هذا ، وإذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشيء الواحد ، فتقابل فيه يقين التحريم والتحليل ، ولا فرق في هذا بين أن يثبت حل فيطراً اختلاطاً بمحرم ، كما لو أوقع الطلاق على إحدى زوجتين في مسألة الطائر ، أو يختلط قبل الاستحلال كما لو اختلطت رضية بأجنبية فأراد استحلال واحدة ، وهذا قد يشكل في طريان التحريم كطلاق إحدى الزوجتين لما سبق من الاستصحاب . وقد نهينا على وجه الجواب : وهو أن يقين التحريم قابل يقين الحل فضعف الاستصحاب وجانب الحظر أغلب في نظر الشرع ، فلذلك ترجح ، وهذا إذا اختلط حلال محصور بحرام محصور . فإن اختلط حلال محصور بحرام غير محصور ، فلا يخفى أن وجوب الاجتناب أولى .

القسم الثاني : حرام محصور بحلال غير محصور ، كما لو اختلطت رضية أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير ، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح نساء أهل البلد ، بل له أن ينكح من شاء منهن ، وهذا لا يجوز أن يعطل بكثرة الحلال ، إذ يلزم عليه أن يجوز النكاح إذا اختلطت واحدة حرام بتسع حلال ولا قائل به ، بل العلة الغلبة والحاجة جميعاً ، إذ كل من ضاع له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرة أو سبب من الأسباب فلا يمكن أن يستد عليه باب النكاح ، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً لا يلزمه ترك الشراء والأكل ؛ فإن ذلك حرج ، وما في الدين من حرج . ويعلم هذا بأنه لما سرق في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بجن (١) وغل واحد في الغنيمة عبادة (٢) ، لم يمتنع أحد من شراء المجان والعباء في الدنيا ، وكذلك كل ماسرق ، وكذلك كان يعرف أن في الناس من يربي في الدراهم والدنانير . وماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم والدنانير بالكلية (٣) . وبالجملة إنما تتفك الدنيا عن الحرام إذا عصم الخلق كلهم عن المعاصي ، وهو محال . وإذا لم يشترط هذا في الدنيا لم يشترط أيضاً في بلد إلا إذا وقع بين جماعة محصورين ، بل اجتناب هذا من ورع الموسوسين ، إذ لم ينقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة ، ولا يتصور الوفاء به في ملة من الملل ولا في عصر من الأعصار .

هـ فإن قلت : فكل عدد محصور في علم الله ، فما حد المحصور ؟ ولو أراد الإنسان أن يحصر أهل بلد لقدر عليه أيضاً إن تمكن منه هـ فاعلم أن تحديد أمثال هذه الأمور غير ممكن ، وإنما يضبط بالتقريب . فنقول : كل عدد لو اجتمع على صعيد واحد لعسر على الناظر عددهم بمجرد النظر ، كالألف والألفين فهو غير محصور ، وما سهل كالعشرة والعشرين فهو محصور ، وبين الطرفين أوساط متشابهة تلحق بأحد الطرفين بالظن ، وما وقع الشك فيه استفتى فيه القلب ، فإن الإثم حراز القلوب . وفي مثل هذا المقام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ابصرت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك (٤) ، وكذا الأقسام الأربعة التي ذكرناها في المثال الأول يقع فيها أطراف متقابلة واضحة في النفي والإثبات وأوساط متشابهة ، فالمتقى يقضى بالظن ، وعلى المستفتى أن يستفتى

(١) حديث سرقه الجن في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم : متفق عليه من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع سارقاً في جن قيمته ثلاثة دراهم . (٢) حديث « غل واحد من الغنائم عبادة » رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر ، واسم النال : كركرة . (٣) حديث : أن في الناس من كان يربي في الدراهم والدنانير ، وماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم بالكلية ، هذا معروف ، وسيأتي حديث جابر بعده بحديث . وهو يدل على ذلك . (٤) حديث « استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك » قاله لو ابصرت قلبك .

قلبه ، فإن حاك في صدره شيء فهو الإثم بينه وبين الله ، فلا ينبغي في الآخرة فتوى المفتي ، فإنه يفتي بالظاهر والله يتولى السرائر .

القسم الثالث : أن يختلط حرام لا يحصر بجلال لا يحصر ، تحكم الأموال في زماننا هذا ، فالذى يأخذ الأحكام من الصور قد يظن أن نسبة غير المحصور إلى غير المحصور كنسبة المحصور إلى المحصور ، وقد حكناهم بالتحريم ، فلنحكم هنا به : والذى نتخاره خلاف ذلك : وهو أنه لا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه احتمال أنه حرام وأنه حلال ، إلا أن يقرن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام ، فإن لم يكن في العين علامة تدل على أنه من الحرام فتركه ورع وأخذه حلال لا يفسق به آكله : ومن العلامات : أن يأخذه من يد سلطان ظالم ، إلى غير ذلك من العلامات التي سيأتى ذكرها ، ويدل عليه الأثر والقياس ، فأما الأثر . فما علم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعده ، إذ كانت أئمان الخمر ودراهم الربا من أيدي أهل الذمة محتلطة بالأموال ، وكذا غلول الأموال ، وكذا غلول الغنيمة ، ومن الوقت الذى نهى صلى الله عليه وسلم عن الربا إذ قال : « أول ربا أضعه ربا العباس »^(١) ، مترك الناس الربا بأجمعهم كما لم يتركوا شرب الخمر وسائر المعاصي ، حتى روى أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باع الخمر ، فقال عمر رضى الله عنه . لعن الله فلانا هو أول من سبى الخمر ، إذ لم يكن قد فهم أن تحريم الخمر تحريم لثمنها . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن فلانا يجرى في النار عبادة قد غلها »^(٢) ، وقتل رجل فضتسوا متاعه فوجدوا فيه خمرات من خمر اليهود لا تساوى درهمين قد غلها^(٣) ، وكذلك أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة ولم يمتنع أحد منهم عن الشراء والبيع في السوق بسبب نهب المدينة وقد نهى أصحاب يزيد ثلاثة أيام ، وكان من يمتنع من تلك الأموال مشارا إليه في الورع ، والأكثرون لم يمتنعوا مع الاختلاط وكثرة الأموال المنهوبة في أيام الظلمة . ومن أوجب مالم يوجب السلف الصالح وزعم أنه تفتن من الشر مالم يتفتنوا له فهو موسوس مختل العقل ولو جاز أن يزداد عليهم في أمثال هذا لجاز مخالفتهم في مسائل لا مستند فيها سوى اتفاقهم كقولهم : « إن الجدة كالأم في التحريم وابن الابن كالابن وشعر الخنزير وشحمه كاللحم المذكور تحريمه في القرآن ، والربا جار فيما عدا الأشياء الستة . وذلك محال فإنهم أولى بفهم الشرع من غيرهم . وأما القياس فهو أنه لو فتح هذا الباب لانسدت باب جميع التصرفات وخرب العالم إذ الفسق يغلب على الناس ويتساهلون بسببه في شروط الشرع في العقود ويؤدى ذلك لاحتمال الاختلاط .

« فإن قيل . فقد قلتم أنه صلى الله عليه وسلم امتنع من الضرب وقال : « أخشى أن يكون مما مسخه الله » وهو في اختلاط غير المحصور ؟ قلنا يحمل ذلك على التنزه والورع أو نقول الضرب شكل غريب ربما يدل على أنه من المسخ فهي دلالة في عين المتناول .

« فإن قيل هذا معلوم في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة بسبب الربا والسرقة والنهب وغلول الغنيمة وغيرها ولكن كانت هي الأقل بالإضافة إلى الحلال فماذا تقول في زماننا وقد صار الحرام أكثر مافي أيدي الناس لفساد المعاملات وإهمال شروطها وكثرة الربا وأموال السلاطين الظلمة ، فنأخذ مالا لم يشهد

(١) حديث « أول ربا أضعه ربا العباس » أخرجه مسلم من حديث جابر .

(٢) حديث « لعن فلانا في النار يجرى عبادة قد غلها » رواه البخارى من حديث عبدالله بن عمر ، وتقدم قبله بثلاثة أحاديث .

(٣) حديث : « قتل رجل فضتسوا متاعه فوجدوا فيه خمرات من خمر اليهود لا تساوى درهمين قد غلها » . رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث زيد بن خالد الجهني .

عليه علامة معينة في عينه للتحريم فهل هو حرام أم لا ؟ فأقول ليس ذلك حراما وإنما الورع تركه وهذا الورع أهم من الورع إذا كان قليلا .

ولكن الجواب عن هذا أن قول القائل أكثر الأموال حرام في زماننا غلط محض ومنشؤه الغفلة عن الفرق بين الكثير والآخر فأكثر الناس بل أكثر الفقهاء يظنون أن ماليس بنادر فهو الآخر ويتوهمون أنهما قسمان متقابلان ليس بينهما ثالث وليس كذلك بل الأقسام ثلاثة قليل وهو النادر وكثير وأكثر ومثاله أن الخنثى فيما بين الخلق نادر وإذا أضيف إليه المريض وجد كثير وكذا السفر حتى يقال المرض والسفر من الأعداء العامة والاستحاضة من الأعداء النادرة ، ومعلوم أن المرض ليس بنادر وليس بالآخر أيضاً بل هو كثير . والفقهاء إذا تساهل وقال المرض والسفر غالب وهو عذر عام أراد به أنه ليس بنادر فإن لم يرد هذا فهو غلط والصحيح والمقيم هو الآخر والمسافر والمريض كثير والمستحاضة والخنثى نادر . فإذا فهم هذا فنقول : قول القائل الحرام أكثر باطل لأن مستند هذا القائل إما أن يكون كثرة الظلة والجندية أو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة أو كثرة الأيدي التي تكررت من أول الإسلام إلى زماننا هذا على أصول الأموال الموجودة اليوم . أما المستند الأول فباطل فإن الظالم كثير وليس هو بالآخر فإنهم الجندية إذ لا يظلم إلا ذو غلبة وشوكه وهم إذا أضيفوا إلى كل العالم لم يبلغوا عشر عشرين ، فكل سلطان يجتمع عليه من الجنود مائة ألف مثلاً فيملك إقليماً يجمع ألف ألف وزيادة ولعل بلدة واحدة من بلاد مملكته يزيد عددها على جميع عسكره ، ولو كان عدد السلاطين أكثر من عدد الرعايا لهلك الكل إذ كان يجب على كل واحد من الرعية أن يقوم بعشرة منهم مثلاً مع تنعمهم في المعيشة ولا يتصور ذلك بل كفاية الواحد كان منهم يجمع من ألف من الرعية وزيادة ، وكذا القول في السراق فإن البلدة الكبيرة تشتمل منهم على قدر قليل . وأما المستند الثاني وهو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة فهي أيضاً كثيرة وليست بالآخر إذ أكثر المسلمين يتعاملون بشروط الشرع فعدد هؤلاء أكثر والذي يعامل بالربا أو غيره فلو عددت معاملاته وحده لكان عدد الصحيح منها يزيد على الفاسد إلا أن يطلب الإنسان بوجهه في البلد مخصوصاً بالمجانة والخبث وقلة الدين حتى يتصور أن يقال معاملاته الفاسدة أكثر ، ومثل ذلك المخصوص نادر وإن كان كثيراً فليس بالآخر لو كان كل معاملاته فاسدة كيف ولا يخلو هو أيضاً عن معاملات صحيحة تساوى الفاسدة أو تزيد عليها وهذا مقطوع به لمن تأمله وإنما غلب هذا على النفوس لاستكثار النفوس الفساد واستعاضها بإياه واستعظامها له وإن كان نادراً حتى ربما يظن أن الربا وشرب الخمر قد شاع كما شاع الحرام فيتخيل أنهم الآكثرون وهو خطأ فإنهم الآفلون وإن كان فيهم كثرة . وأما المستند الثالث وهو أخيلها أن يقال الأموال إنما تحصل من المعادن والنبات والحيوان ، والنبات والحيوان حاصلان بالتوالد ، فإذا نظرنا إلى شاة مثلاً وهي تلد في كل سنة فيكون عدداً أصولها إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قريباً من خمسمائة ولا يخلو هذا أن يتطرق إلى أصل من تلك الأصول غضب أو معاملة فاسدة فكيف يقدر أن تسلم أصولها عن تصرف باطل إلى زماننا هذا ؟ وكذا بذور الحبوب والفواكه تحتاج إلى خمسمائة أصل أو ألف أصل مثلاً إلى أول زمان الشرع ولا يكون هذا حلالاً ما لم يكن أصله وأصل أصله كذلك إلى أول زمان النبوة حلالاً وأما المعادن فهي التي يمكن نيلها على سبيل الابتداء وهي أقل الأموال وأكثر ما يستعمل منها الدراهم والدنانير ولا تخرج إلا من دار الضرب وهي في أيدي الظلمة مثل المعادن في أيديهم يمنعون الناس منها ويلزمون الفقراء استخراجهما بالأعمال الشاقة ثم يأخذونها منهم غصباً فإذا نظر إلى هذا علم أن بقاء دينار واحد بحيث لا يتطرق إليه عقد فاسد

ولا ظلم وقت النيل ولا وقت الضرب في دار الضرب ولا بعده في معاملات الصرف والربا بعيد نادر أو محال فلا يبقى إذن حلال إلا الصيد والحشيش في الصحارى الموات والمفاوز والخطب المباح ثم من يحصله لا يقدر على أكله فيفتقر إلى أن يشتري به الحبوب والحيوانات التي لا تحصل إلا بالاستنابات والتوالد فيكون قد بذل حلالا في مقابلة حرام فهذا هو أشد الطرق تحيلا . والجواب أن هذه الغلبة لم تنشأ من كثرة الحرام المخلوط بالحلال فخرج عن النمط الذى نحن فيه والتحقق بما ذكرناه من قبل وهو تعارض الأصل والغالب إذ الأصل في هذه الأموال قبولها للتصرفات وجواز التراضى عليها وقد عارضه سبب غالب يخرج عن الصلاح له فيصاها هذا محل القولين للشافعى رضى الله عنه في حكم النجاسات ، والصحيح عندنا أنه تجوز الصلاة في الشوارع إذا لم يجد فيها نجاسة فإن طين الشوارع طاهر وأن الرضوء من أواني المشركين جائز وأن الصلاة في المقابر المنبوشة جائزة فثبت هذا أولا ثم نقى ما نحن فيه عليه ، ويدل على ذلك توضؤ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مزادة مشركة ، وتوضؤ عمر رضى الله عنه من جرة نصرانية مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون عما نجسه شرعا ، فكيف تسلم أوانيهم من أيديهم ؟ بل نقول نعلم قطعاً أنهم كانوا يلبسون الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة والمقصورة ، ومن تأمل أحوال الدباغين والقصارين والصباغين علم أن الغالب عليهم النجاسة ، وأن الطهارة في تلك الثياب محال أو نادر ، بل نقول نعلم أنهم كانوا ياكلون خبز البر والشعير ولا يغسلونه مع أنه يداس بالبقر والحيوانات وهي تبول عليه وتروث وقلبا يخلص منها وكانوا يركبون الدواب وهي تعرق وما كانوا يغسلون ظهورها مع كثرة تمرغها في النجاسات بل كل دابة تخرج من بطن أمها وعليها رطوبات نجسة قد تزيلها الأمطار وقد لا تزيلها وما كان يحترز عنها ، وكانوا يمشون حفاة في الطرق وبالنعال ويصلون معها ويجلسون على التراب ويمشون في الطين من غير حاجة ، وكانوا لا يمشون في البول والغدرة ولا يجلسون عليهما ويستنزهن منه ، ومتى تسلم الشوارع عن النجاسات مع كثرة السكالك وأبوالها وكثرة الدواب وأروائها ؟ ولا ينبغي أن نظن أن الأعصار أو الأمصار تختلف في مثل هذا حتى يظن أن الشوارع كانت تغسل في عصرهم أو كانت تحرس من الدواب هيئات فذلك معلوم استحالة بالعادة قطعاً فدل على أنهم لم يحترزوا إلا من نجاسة مشاهدة أو علامة على النجاسة دالة على العين . فأما الظن الغالب الذى يستثار من رد الدراهم إلى مجارى الأحوال فلم يعتبروه وهذا عند الشافعى رحمه الله وهو يرى أن الماء القليل ينجس من غير تغير واقع إذ لم يزل الصحابة يدخلون الحمامات ويتوضئون من الحياض وفيها المياه القليلة والأيدى المختلفة تغمس فيها على الدوام ، وهذا قاطع في هذا الغرض ومهما ثبت جواز التوضؤ من جرة نصرانية ثبت جواز شربه والتحق حكم الحل بحكم النجاسة .

* فإن قيل : لا يجوز قياس الحل على النجاسة إذ كانوا يتوسعون في أمور الطهارات ويحترزون من شبهات الحرام غاية التحرز فكيف يقاس عليها ؟ قلنا إن أريد به أنهم صلوا معها مع النجاسة والصلاة معصية وهي عماد الدين فبئس الظن بل يجب أن نعتقد فيهم أنهم احترزوا عن كل نجاسة وجب اجتنابها وإنما تسامحوا حيث لم يجب وكان في محل تسامحهم هذه الصورة التي تعارض فيها الأصل والغالب فبان أن الغالب الذى لا يستند إلى علامة تتعلق بعين ما فيه النظر مطرح ، وأما تورعهم في الحلال فكان بطريق التقوى وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس لأن أمر الأموال مخوف والنفس تميل إليها إن لم تضبط عنها ، وأمر الطهارة ليس كذلك فقد امتنع طائفة منهم عن الحلال المحض خيفة أن يشغل قلبه . وقد حكى عن واحد منهم أنه احترز من الرضوء بماء البحر وهو الطهور المحض ، فالافتراق في ذلك لا يقدح في الغرض الذى أجمعنا فيه ، على أننا نجرى في هذا المستند

على الجواب الذى قدمنا فى المستندين السابقين ولا نسلم مذكروه من أن الأكثر هو الحرام لأن المال وإن كثرت أصوله فليس بواجب أن يكون فى أصوله حرام بل الأموال الموجودة اليوم مما تطرق الظلم إلى أصول بعضها دون بعض ، وكما أن الذى يبتدأ غصبه اليوم هو الأقل بالإضافة إلى مالا يغصب ولا يسرق فهكذا كل مال فى كل عصر وفى كل أصل فالمغصوب من مال الدنيا والمتناول فى كل زمان بالفساد بالإضافة إلى غيره أقل ، ولسنا ندرى أن هذا الفرع بعينه من أى القسمين ؟ فلا نسلم أن الغالب تحريمه فإنه كما يريد المغصوب بالتوالد يريد غير المغصوب بالتوالد فيكون فرع الأكثر لاحالة فى كل عصر وزمان أكثر ، بل الغالب أن الحبوب المغصوبة تغصب للأكل لا للبذر وكذا الحيوانات المغصوبة أكثرها يؤكل ولا يقتنى للتوالد فكيف يقال إن فروع الحرام أكثر ولم تزل أصول الحلال أكثر من أصول الحرام ؟ وليتفهم المسترشد من هذا طريق معرفة الأكثر فإنه منزلة قدم وأكثر العلماء يغلطون فيه فكيف العوام ؟ هذا فى المتولادات من الحيوانات والحبوب فأما المعادن فإنها بخلاف مسيلة يأخذها فى بلاد الترك وغيرها من شاء ولكن قد يأخذ السلاطين بعضها منهم أو يأخذون الأقل لا محالة لا الأكثر ، ومن حاز من السلاطين معدنا فظلمه يمنع الناس منه فأما ما يأخذه الآخذ منه فيأخذه من السلطان بأجرة والصحيح أنه يجوز الاستنابة فى إثبات اليد على المباحات والاستئجار عليها ، فالمستأجر على الاستقاء إذا حاز الماء دخل فى ملك المستقى له واستحق الأجرة فكذلك النيل فإذا فرعنا على هذا لم نحرم عين الذهب إلا أن يقدر ظلمه بنقصان أجرة العمل وذلك قليل بالإضافة ثم لا يوجب تحريم عين الذهب بل يكون ظلما ببقاء الأجرة فى ذمته ، وأما دار الضرب فليس الذهب الخارج منها من أعيان ذهب السلطان الذى غصبه وظلم به الناس بل التجار يحملون إليهم الذهب المسبوك أو النقد الرديء ويستأجرونهم على السبك والضرب ويأخذون مثل وزن ماسلوهم إليهم إلا شيئا قليلا يتركونه أجرة لهم على العمل وذلك جائز ، وإن فرض دنائير مضروبة من دنائير السلطان فهو بالإضافة إلى مال التجار أقل لا محالة ، نعم السلطان يظلم أجرا دار الضرب بأن يأخذ منهم ضريبة لأنه خصصهم بها من بين سائر الناس حتى توفر عليهم مال بحشمة السلطان فما يأخذه السلطان عوض من حشمة وذلك من باب الظلم وهو قليل بالإضافة إلى ما يخرج من دار الضرب فلا يسلم لأهل دار الضرب والسلطان من جملة ما يخرج منه من المائة واحد وهو عشر العشير فكيف يكون هو الأكثر ؟ فهذه أغاليط سبقت إلى القلوب بالوهم وتشمز لتزيينها جماعة ممن رقى دينهم حتى قبجوا الورع وسدوا بابه واستبحروا تمييز من يميز بين مال ومال وذلك عين البدعة والضلال .

• فإن قيل : فلو قدر غلبة الحرام وقد اختلط غير محصور بغير محصور فإذا تعلق فيه إذا لم يكن فى العين المتناولة علامة خاصة ؟ فنقول الذى نراه أن تركه ورع وأن أخذه ليس بجرام لأن الأصل الحل ولا يرفع إلا بعلامة معينة كما فى طين الشوارع ونظائرها . بل أزيد وأقول : لو طبق الحرام الدنيا حتى علم يقينا أنه لم يبق فى الدنيا حلال لكنت أقول نستأنف تهديد الشروط من وقتنا ونعفو عما سلف ونقول ما جاوز حده انعكس إلى ضده فهما حرم الكل حل الكل : وبرهانه أنه إذا وقعت هذه الواقعة فالاحتمالات خمسة (أحدها) أن يقال يدع الناس الأكل حتى يموتوا من عند آخرهم . (الثانى) أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسد الرمق يزجون عليها أيا ما إلى الموت . (الثالث) أن يقال يتناولون قدر الحاجة كيف شاءوا سرقة وغصبا وتراضيا من غير تمييز بين مال ومال وجهة وجهة . (الرابع) أن يتبعوا شروط الشرع ويستأنفوا قواعده من غير اقتصار على قدر الحاجة . (الخامس)

أن يقتصروا مع شروط الشرع على قدر الحاجة . أما الأول فلا يخفى بطلانه . وأما الثاني فباطل قطعاً لأنه إذا اقتصر الناس على سد الرق وزجوا أوقاتهم على الضعف فشا فيهم الموتان وبطلت الأعمال والصناعات وخربت الدنيا بالكلية . وفي خراب الدنيا خراب الدين لأنها مزرعة الآخرة . وأحكام الخلافة والقضاء والسياسات بل أكثر أحكام الفقه مقصودها حفظ مصالح الدنيا ليتها مصالح الدين . وأما الثالث وهو الاقتصار على قدر الحاجة من غير زيادة عليه مع التسوية بين مال ومال بالغصب والسرقة والتراخي وكيفما اتفق فهو رفع لسد الشرع بين المفسدين وبين أنواع الفساد فتتبدل الأيدي بالغصب والسرقة وأنواع الظلم ولا يمكن زجرهم منه إذ يقولون ليس يتميز صاحب اليد باستحقاق عنا فإنه حرام عليه وعلينا وذواليد له قدر الحاجة فقط فإن كان هو محتاجاً فإننا أيضاً محتاجون وإن كان الذي أخذته في حقي زائداً على الحاجة فقد سرقته بمن هو زائد على حاجته يومه وإذ لم يراع حاجته اليوم والسنة فما الذي نراعي وكيف يضبط ؟ وهذا يؤدي إلى بطلان سياسة الشرع ولأغراء أهل الفساد بالفساد ، فلا يبقى إلا الاحتمال الرابع وهو أن يقال كل ذي يد على ما في يده وهو أولى به لا يجوز أن يؤخذ منه سرقة وغصبا بل يؤخذ برضاه والتراخي هو طريق الشرع وإذ لم يحز إلا بالتراخي فللتراخي أيضاً مناج في الشرع تتعلق به المصالح ، فإن لم يعتبر فلم يتمين أصل التراخي وتعطل تفصيله ؟ وأما الاحتمال الخامس وهو الاقتصار على قدر الحاجة مع الاكتساب بطريق الشرع من أصحاب الأيدي فهو الذي نراه لا تقا بالورع لمن يريد سلوك طريق الآخرة ولكن لا وجه لإيجابه على الكافة ولا لإدخاله في فتوى العامة لأن أيدي الظلمة تمتد إلى الزيادة على قدر الحاجة في أيدي الناس وكذا أيدي السراق ، وكل من غلب سلب وكل من وجد فرصة سرق ويقول لا حق له إلا في قدر الحاجة وأنا محتاج ولا يبقى إلا أن يجب على السلطان أن يخرج كل زيادة على قدر الحاجة من أيدي الملاك ويستوعب بها أهل الحاجة ويدبر على الكل الأموال - يوماً فيوماً أو سنة فسنة - وفيه تكليف شطط وتضييع أموال ، أما تكليف الشطط فهو أن السلطان لا يقدر على القيام بهذا مع كثرة الخلق بل لا يتصور ذلك أصلاً وأما التضييع فهو أن ما فضل عن الحاجة من الفواكه واللحوم والحبوب ينبغي أن يلقي في البحر أو يترك حتى يتعفن فإن الذي خلقه الله من الفواكه والحبوب زائد عن قدر توسع الخلق وترفعهم فكيف على قدر حاجتهم ؟ ثم يؤدي ذلك إلى سقوط الحج والزكاة والكفارات المالية وكل عبادة نيطة بالغنى عن الناس إذا أصبح الناس لا يملكون إلا قدر حاجتهم وهو في غاية القبح ، بل أقول لو ورد نبي في مثل هذا الزمان لوجب عليه أن يستأنف الأمر ويمهد تفصيل أسباب الأملاك بالتراخي وسائر الطرق ويفعل ما يفعله لو وجد جميع الأموال حلالاً من غير فرق . وأعني بقولي : يجب عليه ، إذا كان النبي من بعث لمصلحة الخلق في دينهم ودنياهم إذ لا يتم الصلاح برد الكافة إلى قدر الضرورة والحاجة إليه فإن لم يبعث للصلاح لم يجب هذا . ونحن نجوز أن يقدر الله سبباً يهلك به الخلق عن آخرهم فيفوت دنياهم ويضلون في دينهم فإنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ويميت من يشاء ويحيى من يشاء ولكننا نقدر الأمر جارياً على ما ألف من سنة الله تعالى في بعث الأنبياء لصلاح الدين والدنيا . ومالي أقدر هذا وقد كان ما أقدره ، فلقد بعث الله نبينا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل وكان شرع عيسى عليه السلام قد مضى عليه قريب من ستمائة سنة والناس منقسمون إلى مكذبين له من اليهود وعبداء الأوثان وإلى مصدقين له قدشاع الفسق فيهم كما شاع في زماننا الآن والكفار مخاطبون بفروع الشريعة . والأموال كانت في أيدي المكذبين له والمصدقين ، أما المكذبون فكانوا يتعاملون بغير شرع عيسى عليه السلام وأما المصدقون فكانوا يتساهلون مع أصل النصدق

كما يتساهل الآن المسلمون مع أن العهد بالنبوة أقرب فكانت الأموال كلها أو أكثرها أو كثير منها حراما . وعفا صلى الله عليه وسلم عما سلف ولم يتعرض له وخصص أصحاب الأيدي بالأموال ومهد الشرع وما ثبت تحريمه في شرع لا ينقلب حلالة لبعثة رسول ولا ينقلب حلالة بأن يسلم الذي في يده الحرام ، فإننا لا نأخذ في الجزية من أهل الذمة ما نعرفه بعينه أنه ثمن خمر أو مال ربا فقد كانت أموالهم في ذلك الزمان كأموالنا الآن ، وأمر العرب كان أشد لعموم النهب والغارة فيهم . فبان أن الاحتمال الرابع متعين في الفتوى ، والاحتمال الخامس هو طريق الورع ، بل تمام الورع الاقتصار في المباح على قدر الحاجة وترك التوسع في الدنيا بالكلية وذلك طريق الآخرة . ونحن الآن نتكلم في الفقه المنوط بمصالح الخلق وفتوى الظاهر له حكم ومنهاج على حسب مقتضى المصالح وطريق الدين الذي لا يقدر على سلوكه إلا الآحاد ولو اشتغل الخلق كلهم به لبطل النظام وخرب العالم فإن ذلك طلب ملك كبير في الآخرة ولو اشتغل كل الخلق بطلب ملك الدنيا وتركوا الحرف الدينية والصناعات الخسيسة لبطل النظام ثم يبطل ببطالانه الملك أيضا . فالمحترفون إنما سحروا لينتظم الملك للولك وكذلك المقبولون على الدنيا سحروا ليسلم طريق الدين لذوى الدين وهو ملك الآخرة ولولاه لما سلم لذوى الدين أيضا دينهم فشرط سلامة الدين لهم أن يعرض الآكثرون عن طريقهم ويشغولوا بأموال الدنيا وذلك قسمة سبقت بها المشيئة الأزلية وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ .

• فإن قيل : لا حاجة إلى تقدير عموم التحريم حتى لا يبقى حلال فإن ذلك غير واقع وهو معلوم ولا شك في أن البعض حرام وذلك البعض هو الأقل أو الأكثر فيه نظر ، وما ذكرتموه من أنه الأقل بالإضافة إلى الكل جلي ولكن لا بد من دليل محصل على تجويزه ليس من المصالح المرسله وما ذكرتموه من التفسيرات كلها مصالح مرسله فلا بد لها من شاهد معين تقاس عليه حتى يكون الدليل مقبولا بالاتفاق فإن بعض العلماء لا يقبل المصالح المرسله ؟ • فأقول : إن سلم أن الحرام هو الأقل فيكفينا برهانا عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة مع وجود الربا والسرقة والغلول والنهب وإن قدر زمان يكون الأكثر الحرام هو فيحل التناول أيضا فبرهانة ثلاثة أمور : (الأول) التقسيم الذي حصرناه وأبطلنا منه أربعة وأثبتنا القسم الخامس فإن ذلك إذا أجرى فيما إذا كان الكل حراما كان أخرى فيما إذا كان الحرام هو الأكثر أو الأقل ، وقول القائل : هو مصلحة مرسله : هوس ، فإن ذلك إنما تخيل من تخيله في أمور مظنونة وهذا مقطوع به فإننا لا نشك في أن مصلحة الدين والدنيا مراد الشرع وهو معلوم بالضرورة ، وليس بمظنون ولا شك في أن رد كافة الناس إلى قدر الضرورة أو الحاجة أو إلى الحشيش والصيد مخرب للدنيا أولا وللدن بواسطة الدنيا ثانيا ، فما لا يشك فيه لا يحتاج إلى أصل يشهد له وإنما يستشهد على الخيالات المظنونة المتعلقة بأحاد الأشخاص . (البرهان الثاني) أن يعزل بقياس محرر مردود إلى أصل يتفق الفقهاء الآنسون بالأفيسة الجزئية عليه وإن كانت الجزئيات مستحقة عند المحصلين بالإضافة إلى مثل ما ذكرناه من الأمر الكلى الذى هو ضرورة النبي لو بحث في زمان عم التحريم فيه حتى لو حكم بغيره لحرب العالم ، والقياس المحرر الجزئى هو أنه قد تعارض أصل وغالب فيما انقطعت فيه العلامات المعينة من الأمور التي ليست محصورة فيحكم بالأصل لا بالغالب قياسا على طين الشوارع وجزرة النصرانية وأوانى المشركين ، وذلك قد أثبتناه من قبل بفعل الصحابة ، وقولنا : انقطعت العلامات المعينة ، احتراز عن الأوانى التي يتطرق الاجتهاد إليها . وقولنا : ليست محصورة ، احتراز عن التباس الميتة والرضيعة باله كية والأجنبية .

* فإن قيل : كون الماء طهورا مستيقن وهو الأصل ومن يسلم أن الأصل في الأموال الحل بل الأصل فيها التحريم ؟
 * فنقول : الأمور لا تحرم لصفة في عينها حرمة الحر والخنزير خلقت على صفة تستعد لقبول المعاملات بالتراضي كما خلق الماء مستعدا للوضوء وقد وقع الشك في بطلان هذا الاستعداد منهما فلا فرق بين الأمرين فإنها تخرج عن قبول المعاملة بالتراضي بدخول الظلم عليها كما يخرج الماء عن قبول الوضوء بدخول النجاسة عليه ولا فرق بين الأمرين . والجواب الثاني : أن اليد دلالة ظاهرة دالة على الملك نازلة منزلة الاستصحاب وأقوى منه بدليل أن الشرع ألحقه به إذ من ادعى عليه دين فالقول قوله لأن الأصل براءة ذمته وهذا استصحاب . ومن ادعى عليه ملك في يده فالقول أيضا قوله لإقامة اليد مقام الاستصحاب فكل ما وجد في يد إنسان فالأصل أنه ملكه ما لم يدل على خلافه علامة معينة .

(البرهان الثالث) هو أن كل ما دل على جنس لا يحصر ولا يدل على معين لم يعتبر وإن كان قطعاً فبأن لا يعتبر إذا دل بطريق الظن أولى ويبانه أن ما علم أنه ملك زيد لحقه يمنع من التصرف فيه بغير إذنه ولو علم أن له مالكا في العالم ولكن وقع اليأس عن الوقوف عليه وعلى وارثه فهو مال مرصود لمصالح المسلمين يجوز التصرف فيه بحكم المصلحة ولو دل على أن له مالكا محصورا في عشرة مثلا أو عشرين امتنع التصرف فيه بحكم المصلحة فالذي يشك في أن له مالكا سوى صاحب اليد أم لا ؟ لا يزيد على الذي يتيقن قطعاً أن له مالكا ولكن لا يعرف عينه فليجز التصرف فيه بالمصلحة والمصلحة ما ذكرناه في الأقسام الخمسة ، فيكون هذا الأصل شاهدا له وكيف لا وكل مال ضائع فقد مالكة يصرفه السلطان إلى المصالح ومن المصالح الفقراء وغيرهم ، فلو صرف إلى فقير ملكه ونفذ فيه تصرفه فلو سرقه منه سارق قطعت يده فكيف نفذ تصرفه في ملك الغير ليس ذلك إلا لحكمتنا بأن المصلحة تقتضي أن ينتقل الملك إليه ويحل له فقضينا بموجب المصلحة .

* فإن قيل : ذلك يختص بالتصرف فيه السلطان ؟ فنقول : والسلطان لم يجوز له التصرف في ملك غيره بغير إذنه لأسباب له إلا المصلحة وهو أنه لو ترك اضاع فهو مردد بين تضييعه وصرفه إلى مهم والصرف إلى مهم أصلح من التضييع فرجع عليه والمصلحة فيما يشك فيه ولا يعلم تحريره أن يحكم فيه بدلالة اليد ويترك على أرباب الأيدي إذ انتزعها بالشك وتكليفهم الاقتصار على الحاجة يؤدي إلى الضرر الذي ذكرناه ، وجهات المصلحة تختلف فإن السلطان تارة يرى أن المصلحة أن يبني بذلك المال قنطرة وتارة أن يصرفه إلى جند الإسلام وتارة إلى الفقراء ويدور مع المصلحة كيفما دارت ، وكذلك الفتوى في مثل هذا تدور على المصلحة وقد خرج من هذا أن الخلق غير مأخوذون في أعيان الأموال بظنون لا تستند إلى خصوص دلالة في ملك الأعيان كما لم يؤخذ السلطان والفقراء الآخذون منه بعلهم أن المال له مالك حيث لم يتعلق العلم بعين مالك مشار إليه ، ولا فرق بين عين المالك وبين عين الأملاك في هذا المعنى فهذا بيان شبهة الاختلاط ولم يبق إلا النظر في امتزاج المسامعات والدرهم والعروض في يد مالك واحد وسيأتي بيانه في باب تفصيل طريق الخروج من المظالم .

المثار الثالث للشبهة : أن يتصل بالسبب المحلل معصية

إما في قرائنه وإما في لواحقه وإما في سوابقه أو في عوضه وكانت من المعاصي التي لا توجب فساد العقد وإبطال السبب المحلل .

مثال المعصية في القرائن : البيع في وقت النداء يوم الجمعة والذبح بالسكين المغصوبة والاحتطاب بالقدم المغصوب

والبيع على بيع الغير والسوم على سومه فكل نهى ورد في العقود ولم يدل على فساد العقد فإن الامتناع من جميع ذلك ورع ، وإن لم يكن المستفاد بهذه الأساليب محكوما بتحريمه . وتسمية هذا النظم شبهة فيه تسامح لأن الشبهة في غالب الأمر تطلق لإرادة الاشتباه والجهل ولا اشتباه ههنا بل العصيان بالذبح بسكين الغير معلوم وحل الذبيحة أيضاً معلوم ولكن قد تشتق الشبهة من المشابهة ، وتناول الحاصل من هذه الأمور مكروه والكراهة تشبه التحريم فإن أريد بالشبهة هذا قسمية هذا شبهة له وجه وإلا فينبغي أن يسمى هذا كراهة لا شبهة ، وإذا عرف المعنى فلا مشاحفة في الاسمى فعادة الفقهاء التسامح في الاطلاقات . ثم اعلم أن هذه الكراهة لها ثلاث درجات : الأولى منها تقرب من الحرام والورع عنه مهم والأخيرة تنتهي إلى نوع من المبالغة تكاد تلتحق بورع الموسوسين وبينهما أوساط نازعة إلى الطرفين ، فالكراهة في صيد كلب مغضوب أشد منها في الذبيحة بسكين مغضوب أو المقتنص بسهم مغضوب إذ الكلب له اختيار وقد اختلف في أن الحاصل به لمالك الكلب أو للصياد ، ويليه شبهة البذر المزروع في الأرض المغصوبة فإن الزرع لمالك البذر ولكن فيه شبهة ولو أثبتنا حق الحبس لمالك الأرض في الزرع لكان كالمثلن الحرام ، ولكن الأفيس أن لا يثبت حق حبس كما لو طحن بطاحونة مغصوبة واقتنص بشبكة مغصوبة إذا لا يتعلق حق صاحب الشبكة في منفعتها بالصيد ، ويليه الاحتطاب بالقدم المغضوب ثم ذبحه ملك نفسه بالسكين المغضوب إذ لم يذهب أحد إلى تحريم الذبيحة ، ويليه البيع في وقت النداء فإنه ضعيف التعلق بمقصود العقد وإن ذهب قوم إلى فساد العقد إذ ليس فيه إلا أنه اشتغل بالبيع عن واجب آخر كان عليه ، ولو أفسد البيع بمثله لأفسد بيع كل من عليه درهم زكاة أو صلاة فائتة وجوبها على الفور أوفى ذمته مظلمة دائق فإن الاشتغال بالبيع مانع له عن القيام بالواجب فليس للجمعة إلا الوجوب بعد النداء ، وينجز ذلك إلى أن لا يصح نكاح أولاد الظلة وكل من في ذمته درهم لأنه اشتغل بقوله عن الفعل الواجب عليه ؛ إلا من حيث ورد في يوم الجمعة نهى على الخصوص ربما سبق إلى الأفهام خصوصية فيه فتكون الكراهة أشد ولا بأس بالحذر منه ولكن قد ينجر إلى الوسواس حتى يتخرج عن نكاح بنات أرباب المظالم وسائر معاملاتهم . وقد حكى عن بعضهم أنه اشترى شيئاً من رجل فسمع أنه اشتراه يوم الجمعة ، فرده خيفة أن يكون ذلك مما اشتراه وقت النداء وهذا غاية المبالغة أنه رد بالشك . ومثل هذا الوهم في تقدير المناهي أو المفسدات لا ينقطع عن يوم السبت وسائر الأيام والورع حسن والمبالغة فيه أحسن ولكن إلى حدم معلوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « هلك المنتطعون ^(١) » ، فليحذر من أمثال هذه المبالغات فإنها وإن كانت لا تضر صاحبها ربما أوهم عند الغير أن مثل ذلك مهم ثم يعجز عما هو أيسر منه فيترك أصل الورع وهو مستند أكثر الناس في زماننا هذا إذ ضيق عليهم الطريق فأيسوا عن القيام به فاطرحوه ، فكما أن الموسوس في الطهارة قد يعجز عن الطهارة فيتركها فكذا بعض الموسوسين في الحلال سبق إلى أوهامهم أن مال الدنيا كله حرام فتوسعوا فتركوا التمييز وهو عين الضلال .

وأما مثال اللواحق : فهو كل تصرف يفضى في سياقه إلى معصية وأعلاء بيع الغنم من الخمار وبيع الغلام من المعروف بالفجور بالغلمان وبيع السيف من قطاع الطريق . وقد اختلف العلماء في صحة ذلك وفي حل الثمن المأخوذ منه . والأفيس أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص بعقده كما يعصى بالذبح بالسكين المغضوب والذبيحة حلال ولكنه يعصى عصيان الإعانة على المعصية إذ لا يتعلق ذلك بعين العقد فالمأخوذ من هذا مكروه كراهية شديدة وتركه من الورع المهم وليس بجرام ، ويليه في الرتبة بيع الغنم ممن يشرب الخمر ولم يكن خماراً وبيع السيف ممن

(١) حديث « هلك المنتطعون » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود ، وتقدم في قواعد الفقهاء .

يغزو ويظلم أيضاً لأن الاحتمال قد تعارض . وقد كره السلف بيع السيف في وقت الفتنة خيفة أن يشتريه ظالم فهذا ورع فوق الأول والكراهية فيه أخف ، ويليها ما هو مبالغه ويكاد يلتحق بالوسواس وهو قول جماعة أنه لا يجوز معاملة الفلاحين بآلات الحارث لأنهم يستعينون بها على الحراثة ويبيعون الطعام من الظلمة ولا يبيع منهم البقر والفدان وآلات الحرث وهذا ورع الوسوسة إذ ينجز إلى أن لا يبيع من الفلاح طعام لأنه يتقوى به على الحراثة ولا يسقى من الماء العام لذلك ، وينتهي هذا إلى حد التنطع المنهى عنه . وكل متوجه إلى شيء على قصد خير لا بد وأن يسرف إن لم يذمه العلم المحقق ، وربما يقدم على ما يكون بدعة في الدين ليستضر الناس بعده بها وهو يظن أنه مشغول بالخير ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي »^(١) ، والمتنطعون هم الذين يخشى عليهم أن يكونوا من قيل فيهم ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وبالجملة لا ينبغي للإنسان أن يشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن فإنه إذا جاوز ما رسم وتصرف بذمته من غير سماع كان ما يفسده أكثر مما يصلحه . وقد روى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه أحرق كرمه خوفاً من أن يباع العنب ممن يتخذه خمرًا . وهذا لأعرف له وجهها إن لم يعرف هوسبها خاصا يوجب الإحراق ؟ إذ ما أحرق كرمه ونخله من كان أرفع قدراً منه من الصنابة . ولوجاز هذا الجاز قطع الذكر خيفة من الزنا وقطع اللسان خيفة من الكذب إلى غير ذلك من الإلتلافات .

وأما المقدمات : فلتطرق المعصية إليها ثلاث درجات : (الدرجة العليا) التي يشتد الكراهة فيها : ما بقي أثره في المتناول كالأكل من شاة علفت بعلف مغصوب أو رعت في مرعى حرام فإن ذلك معصية وقد كان سبباً لبقائها وربما يكون الباقي من دمها ولحمها وأجزائها من ذلك العلف ، وهذا الورع مهم وإن لم يكن واجبا ، ونقل ذلك عن جماعة من السلف . وكان لأبي عبد الله الطوسي التروغندي شاة يحملها على رقبتة كل يوم إلى الصحراء ويرعاها وهو يصلي وكان يأكل من لبنها فغفل عنها ساعة فتناولت من ورق كرم على طرف بستان فتركها في البستان ولم يستحل أخذها .

* فإن قيل : فقد روى عن عبد الله بن عمر وعبيد الله أنهما اشتريا إبلًا فبعثاها إلى الحمى فرعته إلهما حتى سمعت ؛ فقال عمر رضي الله عنه : أرعيتها في الحمى ؟ فقالا : نعم ؟ فشاطرهما . فهذا يدل على أنه رأى اللحم الحاصل من العلف لصاحب العلف فليوجب هذا تحريما * قلنا : ليس كذلك فإن العلف يفسد بالأكل واللحم خلق جديد وليس عين العلف فلا شركة لصاحب العلف شرعا ولكن عمر غرمهما قيمة الكلا* ورأى ذلك مثل شطر الإبل فأخذ الشطر بالاجتهاد ، كما شاطر سعد بن أبي وقاص ماله لما أن قدم من الكوفة ، وكذلك شاطر أبا هريرة رضي الله عنه إذ رأى أن كل ذلك لا يستحقه العامل ورأى شطر ذلك كافيا على حق عملهم وقدره بالشطر اجتهدا .

(الرتبة الوسطى) ما نقل عن بشر بن الحارث من امتناعه عن الماء المساق في نهر احتفزه الظلمة لأن النهر موصل إليه وقد عصي الله بحفره . وامتنع آخر عن عنب كرم يسقى بماء يجري في نهر حفر ظلما وهو أرفع منه وأبلغ في الورع . وامتنع آخر من الشرب من مصانع السلاطين في الطرق . وأعلى من ذلك امتناع ذى النون من طعام حلال أوصل إليه على يد بجان ، وقوله : إنه جاءني على يد ظالم ، ودرجات هذه الرتبة لا تنحصر . (الرتبة الثالثة) وهي قريب من الوسواس والمبالغة : أن يمتنع من حلال وصل على يد رجل عصي الله بالزنا أو القذف وليس هو كالعصى بأكل

(١) حديث « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي » تقدم في العلم .

الحرام فإن الموصل قوته الحاصلة من الغذاء الحرام والزنا والقذف لا يوجب قوة يستعان بها على الحل بل الامتناع من أخذ حلال وصل على يد كافر وسواس ، بخلاف أكل الحرام إذ الكفر لا يتعلق بحمل الطعام وينجر هذا إلى أن لا يؤخذ من يد من عصى الله ولو بغية أو كذبة وهو غاية التنطع والإسراف فليضبط ما عرف من ورع ذي النون وبشر بالمعصية في السبب الموصل كالنهر وقوة اليد المستفاد من الغذاء الحرام . ولو امتنع عن الشرب بالكوز لأن صانع الفخار الذي عمل الكوز كان قد عصى الله يوما بضرب إنسان أو شتمه لكان هذا وسواسا . ولو امتنع من لحم شاة ساقها أكل حرام فهذا أبعد من يد السجن لأن الطعام يسوقه قوة السجن والشاة تمشى بنفسها والسائق يمنعها عن العدول في الطريق فقط فهذا قريب من الوسواس . فانظر كيف تدرجنا في بيان ما تدعى إليه هذه الأمور . واعلم أن كل هذا خارج عن فتوى علماء الظاهر فإن فتوى الفقيه تختص بالدرجة الأولى التي يمكن تكليف عامة الخلق بها ولو اجتمعوا عليه لم يخرب العالم دون ماعده من ورع المتقين والصالحين . والفتوى في هذا ما قاله صلى الله عليه وسلم لو ابصت إدا قال « استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك » وعرف ذلك إذ قال « الإثم حزاز القلوب (١) » وكل ما حاك في صدر المريد من هذه الأسباب فلو أقدم عليه مع حزازة القلب استضر به وأظلم قلبه بقدر الحزازة التي يجدها بل لو أقدم على حرام في علم الله وهو يظن أنه حلال لم يؤثر ذلك في قساوة قلبه ، ولو أقدم على ما هو حلال في فتوى علماء الظاهر ولكنه يجد حزازة في قلبه فذلك يضره . وإنما الذي ذكرناه في النهي عن المبالغة أردنا به أن القلب الصافي المعتدل هو الذي لا يجد حزازة في مثل تلك الأمور فإن مال قلب موسوس عن الاعتدال ووجد الحزازة فأقدم مع ما يجد في قلبه فذلك يضره لأنه مأخوذ في حق نفسه بينه وبين الله تعالى بفتوى قلبه . وكذلك يشدد على الموسوس في الطهارة ونية الصلاة فإنه إذا غلب على قلبه أن المساء لم يصل إلى جميع أجزائه بثلاث مرات لغلبة الوسوسة عليه فيجب عليه أن يستعمل الرابعة وصار ذلك حكما في حقه وإن كان مخطئا في نفسه ، أولئك قوم شددوا فشدد الله عليهم ، وإن ذلك شدد على قوم موسى عليه السلام لما استقصوا في السؤال عن البقرة ولو أخذوا أولا بعموم لفظ البقرة وكل ما ينطلق عليه الاسم لأجزأهم ذلك . فلا تغفل عن هذه الدقائق التي رددناها نفيا وإثباتا فإن من لا يطلع على كنه الكلام ولا يحيط بمجامعه يوشك أن يزل في درك مقاصده .

وأما المعصية في العوض فله أيضا درجات (الدرجة العليا) التي تشتد الكراهة فيها أن يشتري شيئا في الذمة ويقضى ثمنه من غضب أو مال حرام فينظر فإن سلم إليه البائع الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلبه فأكله قبل قضاء الثمن فهو حلال وتركه ليس بواجب بالإجماع أعنى قبل قضاء الثمن ولا هو أيضا من الورع المؤكد فإن قضى الثمن بعد الأكل من الحرام فكأنه لم يقض الثمن ، ولو لم يقضه أصلا لكان متقلدا للظلمة بترك ذمته مرتبهة بالدين ولا ينقلب ذلك حراما . فإن قضى الثمن من الحرام وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام فقد برئت ذمته ولم يبق عليه إلا مظلمة تصرفه في الدرام الحرام بصرفها إلى البائع وإن أبرأه على ظن أن الثمن حلال فلا تحصل البراءة لأنه يبرئه مما أخذه إبراء استيفاء ولا يصلح ذلك للإيفاء . هذا حكم المشتري والأكل منه وحكم الذمة وإن لم يسلم إليه بطيب قلب ولكن أخذه فأكله حرام سواء أكله قبل توفية الثمن من الحرام أو بعده لأن الذي توى الفتوى به ثبوت حق الحبس للبائع حتى يتعين ملكه بإقباض النقد كما تعين ملك المشتري ، وإنما يبطل حق حبسه إما بالإبراء

(١) حديث « الإثم حزاز القلوب » تقدم في العلم .

أو الاستيفاء ولم يجر شيء منهما ولكنه أكل ملك نفسه وهو عاص به عصيان الراهن للطعام إذا أكله بغير إذن المرتن ، وبينه وبين أكل طعام الغير فرق ولكن أصل التحريم شامل ، هذا كله إذا قبض قبل توفية الثمن إما بطيبة قلب البائع أو من غير طيبة قلبه . فأما إذا وفي الثمن الحرام أولا ثم قبض فإن كان البائع عالما بأن الثمن حرام ومع هذا أقبض المبيع بطل حق حبسه وبقي له الثمن في ذمته إذا ما أخذه ليس بشئ ولا يصير أكل المبيع حراما بسبب بقاء الثمن فأما إذا لم يعلم أنه حرام وكانت بحيث لو علم لما رضى به ولا أقبض المبيع فحق حبسه لا يبطل بهذا التليس فأكله حرام تحريم أكله المرهون إلى أن يبرمه أو يوفى من حلال أو يرضى هو بالحرام ويبرى فيصح إبراؤه ولا يصح رضاه بالحرام فهذا مقتضى الفقه وبيان الحكم في الدرجة الأولى من الحلال والحرمه فأما الامتناع عنه فمن الورع المهم لأن المعصية إذا تمكنت من السبب الموصل إلى الشيء تشتد الكراهية فيه - كما سبق - وأقوى الأسباب الموصلة للثمن ولولا الثمن الحرام لما رضى الله البائع بتسليمه إليه فراضاه لا يخرج عنه كونه مكروها كراهية شديدة ولكن العدالة لا تنخرم به وترزول به درجة التقوى والورع . ولو اشترى سلطان مثلاثوباً وأرضاني الذمة وقبضه برضا البائع قبل توفية الثمن وسلمه إلى فقيه أو غيره صلة أو خلعة وهو شاك في أنه سيقضى ثمنه من الحلال أو الحرام فهذا أخف إذ وقع الشك في تطرق المعصية إلى الثمن وتفاوت خفته بتفاوت كثرة الحرام وقلته في مال ذلك السلطان وما يغلب على الظن فيه وبعضه أشد من بعض والرجوع فيه إلى ما ينقدح في القلب (الرتبة الوسطى) أن لا يكون العوض غصباً ولا حراماً ولكن يتهيأ لمعصية ، كما لو سلم عوضاً عن الثمن عنياً والآخذ شارب الخمر أو سيفاً وهو قاطع طريق فهذا لا يوجب تحريماً في مبيع اشتراه في الذمة ولكن يقتضى فيه كراهية دون الكراهية التي في الغصب . وتتفاوت درجات هذه الرتبة أيضاً بتفاوت غلبة المعصية على قابض الثمن وندوره ومهما كان العوض حراماً فبذله حرام وإن احتمل تحريمه ولكن أبيح بظن فبذله مكروه وعليه ينزل عندى النهى عن كسب الحجام وكراهته ^(١) إذ نهى عنه عليه السلام مرات ثم أمر بأن يعلف الناضح ^(٢) وما سبق إلى الوهم من أن سببه مباشرة النجاسة والقذر فاسد إذ يجب طرده في الدباغ والكناس ولا قائل به وإن قيل به فلا يمكن طرده في القصاب إذ كيف يكون كسبه مكروها وهو بدل عن اللحم واللحم في نفسه غير مكروه ومخامرة القصاب النجاسة أكثر منه للحجام والفصاد فإن الحجام يأخذ الدم بالمحجمة ويمسحه بالقطن ، ولكن السبب أن في المحجمة والفصد تخريب بنية الحيوان وإخراجها لدمه وبه قوام حياته والأصل فيه التحريم وإنما يحل بضرورة وتعلم الحاجة والضرورة بحسد واجتهاد وربما يظن نافعاً ويكون ضاراً فيكون حراماً عند الله تعالى ولكن يحكم بحله بالظن والحدس . ولذلك لا يجوز للفصاد فصد صبي وعبد ومعتوه إلا بإذن وليه وقول طيب ولولا أنه حلال في الظاهر لما أعطى عليه السلام أجره الحجام ^(٣) ولولا أنه يحتمل التحريم لما نهى عنه فلا يمكن الجمع بين إعطائه ونهيه إلا باستنباط هذا المعنى . وهذا كان ينبغي أن نذكره في القرائن المقررة بالسبب فإنه أقرب إليه . (الرتبة السفلى) وهي درجة الموسوسين وذلك أن يحلف لإنسان على

(١) حديث النهى عن كسب الحجام وكراهته : رواه ابن ماجه من حديث أبي مسعود الأنصارى ، والنسائي من حديث أبي هريرة بإسنادين صحيحين : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجام ، ولليخارى من حديث أبي جحيفة : نهى عن ثمن الدم ، وسلم من حديث رافع بن خديج « كسب الحجام خيث » . (٢) حديث : نهى عنه مرات ثم أمر بأن يعلف الناضح ، رواه أبو داود والترمذى وحسنه ، وابن ماجه من حديث بحيفة أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في إجارة الحجام ، فقها عنها ، فلم يزل يسأل ويستأذن حتى قال : أعلفه ناضحك وأطعمه رقيقك . وفي رواية لأحمد أنه زجره عن كسبه فقال : ألا أطعمه أيتاماً ، قال : لا ؛ قال : أفلا أصدق به ؟ قال : لا ، فرخص له أن يعلفه ناضحه . (٣) حديث : أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجره الحجام . متفق عليه من حديث ابن عباس .

أن لا يلبس من غزل أمه فباع غزلها واشترى به ثوباً فهذا لا كراهية فيه والورع عنه وسوسة . وروى عن المغيرة أنه قال في هذه الواقعة : لا يجوز ، واستشهد بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله اليهود حرمت عليهم الخمر فباعوها وأكلوا أثمانها »^(١) ، وهذا غلط لأن بيع الخمر باطل إذ لم يبق للخمر منفعة في الشرع وثمن البيع الباطل حرام ، وليس هذا من ذلك بل مثال هذا أن يملك الرجل جارية هي أخته من الرضاع فتباع بجارية أجنبية فليس لأحد أن يتورع منه وتشبيه ذلك ببيع الخمر غاية السرف في هذا الطرف . وقد عرفنا جميع الدرجات وكيفية التدرج فيها وإن كان تفاوت هذه الدرجات لا ينحصر في ثلاث أو أربع ولا في عدد ولكن المقصود من التعدد التقريب والتفهم .

* فإن قيل : فقد قال صلى الله عليه وسلم « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم فبأداهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما كان عليه »^(٢) ، ثم أدخل ابن عمر أصبعيه في أذنيه وقال : صمتا إن لم أكن سمعته منه . قلنا ذلك محمول على ما لو اشترى بعشرة بعينها لا في الذمة وإذا اشترى في الذمة فقد حكمتا بالتحريم في أكثر الصور فليحمل عليها ، ثم كم من ملك يتورع عليه بمنع قبول الصلاة لمعصية تطرفت إلى سببه وإن لم يدل ذلك على فساد العقد كالمشتري في وقت النداء وغيره .

المثار الرابع : الاختلاف في الأدلة

فإن ذلك كالاختلاف في السبب لأن السبب سبب لحكم الحل والحرم . والدليل سبب لمعرفة الحل والحرم فهو سبب في حق المعرفة ولم يثبت في معرفة الغير فلا فائدة لثبوته في نفسه وإن جرى سببه في علم الله ، وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع أو لتعارض العلامات الدالة أو لتعارض التشابه .

القسم الأول : أن تتعارض أدلة الشرع مثل تعارض عمومين من القرآن أو السنة أو تعارض قياسين أو تعارض قياس وعموم . وكل ذلك يورث الشك ويرجع فيه إلى الاستصحاب أو الأصل المعلوم قبله إن لم يكن ترجيح ، فإن ظهر ترجيح في جانب الحظر وجب الأخذ به وإن ظهر في جانب الحل جاز الأخذ به ولكن الورع تركه . واتفقوا مواضع الخلاف مهم في الورع في حق المفتي والمقلد . وإن كان المقلد يجوز له أن يأخذ بما أفتى له مقلده الذي يظن أنه أفضل علماء بلده ويعرف ذلك بالتسامع كما يعرف أفضل أطباء البلد بالتسامع والقرائن وإن كان لا يحسن الطب . وليس للمستفتي أن ينتقد من المذاهب أو سمعها عليه ؛ بل عليه أن يبحث حتى يغلب على ظنه الأفضل ثم يتبعه فلا يخالفه أصلاً ، نعم إن أفتى له إمامه بشيء وإمامه فيه مخالف فالفرار من الخلاف إلى الإجماع من الورع المؤكد وكذا المجتهد إذا تعارضت عنده الأدلة ورجح جانب الحل بحدس وتخمين وظن فالورع له الاجتناب . فلقد كان المفتون يفتون بحل أشياء لا يقدمون عليها قط تورعاً منها وحذراً من الشبهة فيها فلنقسم هذا أيضاً على ثلاث مراتب (الرتبة الأولى) ما يتأكد الاستصحاب في التورع عنه وهو ما يقوى فيه دليل الخائف ويدق وجه ترجيح المذهب الآخر عليه . فن المهمات التورع عن فريسة السكب المعلم إذاً كل منها وإن أفتى المفتي بأنه حلال لأن الترجيح فيه غامض ، وقد اخترنا أن ذلك حرام وهو أقيس قول الشافعي رحمه الله . ومهما وجد للشافعي

(١) حديث المنيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن اليهود إذ حرمت عليهم الخمر فباعوها : لم أجده هكذا ، والمعروف أن ذلك في الشحوم ؛ ففي الصحيحين من حديث جابر « قال الله اليهود لأن الله لما حرم عليهم شحومها جلوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه » ، (٢) حديث « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم .. الحديث » تقدم في الباب قبله .

قول جديد موافق لمذهب أبي حنيفة رحمه الله أو غيره من الأئمة كان الورع فيه مهما وإن أفتى المفتي بالقول الآخر . ومن ذلك الورع عن متروك التسمية وإن لم يختلف فيه قول الشافعي رحمه الله لأن الآية ظاهرة في إيجابها والأخبار متواترة فيه فإنه صلى الله عليه وسلم قال لكل من سأله عن الصيد ، إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت عليه اسم الله فكل ^(١) ، ونقل ذلك على التكرار وقد شهر الذبح بالبسملة ^(٢) وكل ذلك يقوى دليل الاشتراط ولكن لما صح قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن يذبح على اسم الله تعالى سمي أو لم يسم ^(٣) » ، واحتمل أن يكون هذا عاما موجبا لصرف الآية وسائر الأخبار عن ظواهرها ويحتمل أن يخص هذا بالناسي ويترك الظواهر ولا تأويل ، وكان حمله على الناسي ممكنا تمهيدا لعذره في ترك التسمية بالنسيان وكان تعميمه وتأويل الآية ممكنا إمكانا أقرب رجحنا ذلك ولا ننكر رفع الاحتمال المقابل له فالورع عن مثل هذا مهم واقع في الدرجة الأولى .

(الرتبة الثانية) وهي مزاحمة لدرجة الوسواس أن يتورع الإنسان عن أكل الجنين الذي يصادف في بطن الحيوان المذبوح وعن الضب . وقد صح في الصحاح من الأخبار حديث الجنين ؛ إن ذكاته ذكاة أمه ^(٤) صحة لا يتطرق احتمال إلى مثته ولا ضعف إلى سنده وكذلك صح أنه أكل الضب على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) وقد نقل ذلك في الصحيحين . وأظن أن أبا حنيفة لم تبلغه هذه الأحاديث ولو بلغته لقال بها وإن أنصف وإن لم ينصف منصف فيه كان خلافه غلطا لا يعتد به ولا يورث شبهة كما لو لم يخالف وعلم الشيء بخبر الواحد .

(الرتبة الثالثة) أن لا يشتبه في المسألة خلاف أصلا ولكن يكون الحل معلوما بخبر الواحد فيقول القائل قد اختلف الناس في خبر الواحد فمنهم من لا يقبله فأنا أتورع . فإن الثقله وإن كانوا عدولا فالغلط جائز عليهم والكذب لغرض خفي جائز عليهم ، لأن العدل أيضاً قد يكذب والوهم جائز عليه فإنه قد يسبق إلى سمعهم خلاف ما يقوله القائل وكذلك إلى فهمهم فهذا ورع لم ينقل مثله عن الصحابة فيما كانوا يسمعون من عدل تسكن نفوسهم إليه . وأما إذا تطرقت شبهة بسبب خاص ودلالة معينة في حق الراوى فالتوقف وجه ظاهر وإن كان عدلا . وخلاف من خالف في أخبار الآحاد غير معتد به وهو خلاف النظام في أصل الإجماع . وقوله إنه ليس بحجة ولو جاز مثل هذا الورع لكان من الورع أن يمتنع الإنسان من أن يأخذ ميراث الجد أبي الأب ويقول ليس في كتاب الله ذكر إلا للبني وإلحاق ابن الابن بالابن بإجماع الصحابة وهم غير معصومين والغلط عليهم جائز إذ خالف النظام فيه ، وهذا هوس ويتداعى إلى أن يترك ما علم بعمومات القرآن إذ من المتكلمين من ذهب إلى أن

(١) حديث « إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل » متفق عليه من حديث عدى بن حاتم ، ومن حديث أبي نعيم الحاشي

(٢) حديث التسمية على الذبح : متفق عليه من حديث رافع بن خديج « ما أثير الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا ، ليس السن والظفر »

(٣) حديث « المؤمن يذبح على اسم الله سمي أو لم يسم » قال المصنف إنه صح . قلت : لا يعرف بهذا اللفظ فضلا عن صحته ؛ ولأبي داود في المراسيل من رواية الصلت صرقوا « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر » وللطبراني في الأوسط ، والدارقطني ، وابن عدى ، والبيهقي من حديث أبي هريرة . قال رجل : يا رسول الله ، الرجل منا يذبح وينسي أن يسمي الله ؛ فقال « اسم الله على كل مسلم » قال ابن عدى : منكر ، والدارقطني والبيهقي من حديث ابن عباس « المسلم يكفيه اسمه ؛ فإن نسي أن يسمي حين يذبح فليس يذبح » وليذكر اسم الله ثم ليأكل » فيه محمد بن سنان ، ضعفه الجمهور . (٤) حديث « ذكاة الجنين ذكاة أمه » قال المصنف : إنه صح صحه لا يتطرق احتمال إلى مثته ولا ضعف إلى سنده ، وأخذ هذا من إمام الحرمين ؛ فإنه كذا قال في الأساليب ، والحديث رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان من حديث أبي هريرة وقال : صحيح الإسناد ، وليس كذلك . وللطبراني في الصغير من حديث ابن عمر بسند جيد . وقال عبد الحق : لا يحتج بأسانيد أهلها (٥) حديث أكل الضب على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال المصنف : هو في الصحيحين ، وهو كما ذكره من حديث

ابن عمر وابن عباس وخالد بن الوليد .

العمومات لاصيغة لها وإنما يحتاج بما فهمه الصحابة منها بالقرائن والدلالات وكل ذلك وسواس ؛ فإذا نظر لأطراف الشبهات إلا وفيها غلو وإسراف فليفهم ذلك . ومهما أشكل أمر من هذه الأمور فليستفت فيه القلب وليدع الورع ما يريه إلى ما لا يريه وليترك حزاز القلوب وحكاكات الصدور وذلك يختلف بالأشخاص والوقائع ولكن ينبغي أن يحفظ قلبه عن دواعي الوسواس حتى لا يحكم إلا بالحق فلا ينطوى على حزازة في مظان الوسواس ولا يخلو عن الحزازة في مظان الكراهة ؛ وما أعز مثل هذا القلب ولذلك لم يرد عليه السلام كل أحد إلى فتوى القلب وإنما قال ذلك لو أبصرت لما كان قد عرف من حاله ^(١) .

القسم الثاني : تعارض العلامات الدالة على الحل والحزمة فإنه قد ينهب نوع من المتاع في وقت ويندر وقوع مثله من غير النهب فيرى مثلاً في يد رجل من أهل الصلاح ، فيدل صلاحه على أنه حلال ويدل نوع المتاع وندوره من غير المنهوب على أنه حرام فيتعارض الأمران . وكذلك يخبر عدل أنه حرام وآخر أنه حلال أو تتعارض شهادة فاسقين أو قول صبي وبالغ ، فإن ظهر ترجيح حكمه بالورع والاجتناب ، وإن لم يظهر ترجيح وجب التوقف وسيأتي تفصيله في باب التعرف والبحث والسؤال .

القسم الثالث : تعارض الأشباه في الصفات التي تناط بها الأحكام . مثاله أن يوصى بمال للفقهاء فيعلم أن الفاضل في الفقه داخل فيه وأن الذي ابتدأ التعلم من يوم أو شهر لا يدخل فيه وبينهما درجات لا تحصى يقع الشك فيها ، فالمفتي يفتي بحسب الظن والورع والاجتناب ، وهذا أغضض ماثرات الشبهة فإن فيها صوراً بتحرير المفتي فيها تحيراً لازماً لاحيلة له فيه إذ يكون المتصف بصفة في درجة متوسطة بين الدرجتين المتقابلتين لا يظهر له ميله إلى أحدهما . وكذلك الصدقات المصروفة إلى المحتاجين فإن من لا شيء له معلوم أنه محتاج ومن له مال كثير معلوم أنه غني ويتصدى بينهما مسائل غامضة كمن له دار وأثاث وثياب وكتب فإن قدر الحاجة منه لا يمنع من الصرف إليه والفاضل يمنع والحاجة ليست محدودة وإنما تدرك بالتقريب ، ويتعدى منه النظر في مقدار سرعة الدار وأبنيتها ومقدار قيمتها لكونها في وسط البلد ووقوع الاكتفاء بدار دونها ، وكذلك في نوع أثاث البيت إذا كان من الصفر لامن الخزف وكذلك في عددها وكذلك في قيمتهما وكذلك فيما لا يحتاج إليه كل يوم وما يحتاج إليه كل سنة من آلات الشتاء وما لا يحتاج إليه إلا في سنين ، وشيء من ذلك لا حد له . والوجه في هذا ما قاله عليه السلام « دع ما يريك إلى ما لا يريك » ^(٢) ، كل ذلك في محل الريب إن توقف المفتي فلا وجه إلا التوقف وهو أهم مواقع الورع . وكذلك ما يجب بقدر الكفاية من نفقة الأقارب وكسوة الزوجات وكفاية الفقهاء والعلماء على بيت المال إذ فيه طرفان يعلم أن أحدهما قاصر وأن الآخر زائد وبينهما أمور متشابهة تختلف باختلاف الشخص والحال . والمطلع على الحاجات هو الله تعالى وليس للبشر وقوف على حدودها ، فما دون الرطل المسكى في اليوم قاصر عن كفاية الرجل الضخم وما فوق ثلاثة أربال زائد على الكفاية وما بينهما لا يتحقق له حد . فليدع الورع ما يريه وهذا جار في كل حكم نيط بسبب يعرف ذلك السبب بلفظ العرب ، إذ العرب وسائر أهل اللغات لم يقدروا متضمنات اللغات بحدود محدودة تنقطع أطرافها عن مقابلاتها كلفظ الستة فإنه لا يحتمل مادونها وما فوقها من الأعداد وسائر ألفاظ الحساب والتقدير ، فليست الألفاظ اللغوية كذلك فلا لفظ في كتاب الله وسنة رسول الله

(١) حديث : لم يرد كل أحد إلى فتوى قلبه وإنما قال ذلك لو أبصرت ، وتقدم حديث وابصة ، وروى الطبراني من حديث وابصة أنه قال ذلك لو أبصرت ، وفيه العلاء بن ثعلبة مجهول . (٢) حديث « دع ما يريك إلى ما لا يريك » تقدم في الباب قبله

صلى الله عليه وسلم إلا ويتطرق الشك إلى أوساط في مقتضياتها تدور بين أطراف متقابلة فتعظم الحاجة إلى هذا الفن في الوصايا والأوقاف على الصوفية مثلاً مما يصح ومن الداخل تحت موجب هذا اللفظ هذا من الغوامض فكذلك سائر الألفاظ . وسنشير إلى مقتضى لفظ الصوفي على الخصوص ليعلم به طريق التصرف في الألفاظ والإفلامطمع في استيفائها ، فهذه اشتباهاً تثار من علامات متعارضة تجذب إلى طرفين متقابلين ، وكل ذلك من الشبهات يجب اجتنابها إذا لم يترجح جانب الحل بدلالة تغلب على الظن أو باستصحاب بموجب قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، وبموجب سائر الأدلة التي سبق ذكرها . فهذه ماثرات الشبهات وبعضها أشد من بعض ولو تظاهرت شبهات شتى على شيء واحد كان الأمر أغلظ مثل أن يأخذ طعاماً مختلفاً فيه عوضاً عن عنب باعه من خمار بعد النداء يوم الجمعة والبائع قد خالط ماله حرام وليس هو أكثر ماله ولكنه صار مشتبهاً به فقد يؤدي ترادف الشبهات إلى أن يشتد الأمر في اقتحامها ، فهذه مراتب عرفنا طريق الوقوف عليها وليس في قوة البشر حصرها فما اتضح من هذا الشرح أخذ به وما التبس فليجتنب فإن الإثم حراز القلب . وحيث قضينا باستفتاء القلب أردنا به حيث أباح المفتي أما حيث حزمه فيجب الامتناع . ثم لا يقول على كل قلب فرب موسوس ينفر عن كل شيء ورب شره متساهل يطمئن إلى كل شيء ولا اعتبار بهذين القلبين وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الأحوال وهو المحك الذي يمتحن به خفايا الأمور ، وما أعز هذا القلب في القلوب فمن لم يثق بقلب نفسه فليتمس النور من قلب بهذه الصفة وليعرض عليه واقعته ، وجاء في الزبور « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : قل لبني إسرائيل إني لأنظر إلى صلاتكم ولاصيامكم ولكن أنظر إلى من شك في شيء فتركه لأجل فذاك الذي أنظر إليه وأقريده بنصري وأباهي به ملائكتي .

الباب الثالث : في البحث ، والسؤال ، والهجوم ، والإهمال ومظاهرها

اعلم أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تهيب فليس لك أن تفتش عنه وتسال وتقول : هذا بما لا أنحقق حله فلا آخذه بل أفقش عنه . وليس لك أيضاً أن تترك البحث فتأخذ كل ما لا يتيقن تحريمه بل السؤال واجب مرة وحرام مرة ومندوب مرة ومكروه مرة فلا بد من تفصيله ، والقول الشافي فيه هو أن مظنة السؤال مواقع الريية . ومنشأ الريية ومثارها إما أمر يتعلق بالمال أو يتعلق بصاحب المال .

المثار الأول : أحوال المالك

وله بالإضافة إلى معرفتك ثلاثة أحوال : إما أن يكون مجهولاً أو مشكوكاً فيه أو معلوماً بنوع ظن يستند إلى دلالة . الحالة الأولى : أن يكون مجهولاً والمجهول هو الذي ليس معه قرينة تدل على فساده وظلمه كزى الأجناد ، ولا ما يدل على صلاحه ككتاب أهل التصوف والتجارة والعلم وغيرها من العلامات . فإذا دخلت قرية لا تعرفها فرأيت رجلاً لا تعرف من حاله شيئاً ولا عليه علامة تنسبه إلى أهل صلاح أو أهل فساد فهو مجهول ؛ وإذا دخلت بلدة غريباً ودخلت سوقاً ووجدت رجلاً خبازاً أو قصاباً أو غيره ولا علامة تدل على كونه مريباً أو خاتماً ولا ما يدل على نفيه فهو مجهول ولا يدري حاله ، ولا نقول إنه مشكوك فيه لأن الشك عبارة عن اعتقادين متقابلين لهما سببان متقابلان ، وأكثر الفقهاء لا يدركون الفرق بين ما لا يدري وبين ما يشك فيه ؛ وقد عرفت بما سبق أن الورع ترك ما لا يدري . قال يوسف بن أسباط : منذ ثلاثين سنة ما حاك في قلبي شيء إلا تركته . وتكلم جماعة في أشق الأعمال

فقالوا : هو الورع ؛ فقال لهم حسان بن أبي سنان : ما شيء عندى أهمل من الورع ، إذا حاك في صدرى شيء تركته . فهذا شرط الورع ، وإنما نذكر الآن حكم الظاهر ، فنقول : حكم هذه الحالة أن المجبول إن قدم إليك طعاما أو حمل إليك هدية أو اردت أن تشتري من دكانه شيئا فلا يلزمك السؤال بل يده وكونه مسلما دلتان كافتان في الهجوم على أخذه . وليس لك أن تقول الفساد والظلم غالب على الناس فهذه وسوسة وسوء ظن بهذا المسلم بعينه وإن بعض الظن إثم . وهذا المسلم يستحق بإسلامه عليك أن لا تسمي الظن به فإن أسأت الظن به في عينه لأنك رأيت فسادا من غيره فقد جئت عليه وأثمت به في الحال نقدا من غير شك ، ولو أخذت المال لكان كونه حراما مشكوكا فيه . ويدل عليه أنا نعلم أن الصحابة رضى الله عنهم في غزواتهم وأسفارهم كانوا ينزلون في القرى ولا يردون القرى ويدخلون البلاد ولا يحتززون من الأسواق ، وكان الحرام أيضا موجودا في زمانهم وما نقل عنهم سؤال إلا عن ريبة إذ كان صلى الله عليه وسلم لا يسأل عن كل ما يحمل إليه بل سأل في أول قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه : أصدقة أم هدية ^(١) ؟ لأن قرينة الحال تدل وهو دخول المهاجرين المدينة وهم فقراء فغلب على الظن أن ما يحمل إليهم بطريق الصدقة ، ثم لإسلام المعطى ويده لا يدلان على أنه ليس بصدقة . وكان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل : أصدقة أم لا ^(٢) ؟ إذ العادة ما جرت بالتصدق بالضيافة . ولذلك دعت أم سليم ^(٣) ودعا الخياط ^(٤) كما في الحديث الذى رواه أنس بن مالك رضى الله عنه وقدم إليه طعاما فيه قرع ، ودعا الرجل الفارسى فقال عليه الصلاة والسلام أنا وعائشة ؟ فقال : لا ، فقال : فلا . ثم أجابه بعد فذهب هو وعائشة يتساقطان فقرب إليهما إهالة ^(٥) ، ولم ينقل السؤال في شيء من ذلك ، وسأل أبو بكر رضى الله عنه عبده عن كسبه لما رآه من أمره ، وسأل عمر رضى الله عنه الذى سقاه من لبن إبل الصدقة إذ رآه وكان أعجبه طعمه ولم يكن على ما كان بألفه كل مرة . وهذه أسباب الريبة وكل من وجد ضيافة عند رجل مجبول لم يكن عاصيا بإجابته من غير تفتيش ، بل لورأى في داره تجملا ومالا كثيرا فليس له أن يقول الحلال عزيز وهذا كثير فمن أين يجتمع هذا من الحلال ؟ بل هذا الشخص بعينه يحتمل أن يكون ورث مالا أو اكتسبه فهو بعينه يستحق إحسان الظن به ، وازيد على هذا وأقول : ليس له أن يسأله بل إن كان يتورع فلا يدخل جوفه إلا ما يدرى من أين هو فهو حسن فليتلطف في الترك ، وإن كان لا بدله من أكله فليأكل كل بغير سؤال إذ السؤال إيذاء وهتك ستر وإيجاش وهو حرام بلا شك .

« فإن قلت : لعله لا يتأذى ؟ فأقول . لعله يتأذى فإن تسأل حذرا من « لعل » فإن قنعت فلعل ماله حلال وليس الإثم المحذور في إيذاء مسلم بأقل من الإثم في أكل الشبهة والحرام ، والغالب على الناس الاستيحاش بالتفتيش ولا يجوز له أن يسأل من غيره من حيث يدرى هو به لأن الإيذاء في ذلك أكثر ، وإن سأل من حيث لا يدرى هو ففيه إساءة ظن وهتك ستر وفيه تجسس وفيه تشبث بالغيبة وإن لم يكن ذلك صريحا . وكل ذلك منهى عنه في آية

الباب الثالث : في البحث والسؤال

(١) حديث سؤاله في أول قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه أصدقة أم هدية : رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة أتاه سلمان بطعام ، فسأله عنه أصدقة أم هدية ... الحديث ، تقدم في الباب قبله من حديث أبي هريرة . (٢) حديث كان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل أصدقة أم لا : هذا معروف مشهور ، من ذلك في الصحيحين من حديث أبي مسعود الأنصارى في صنيع أبي شعيب طعاما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا خمس خمسة (٣) حديث دعت أم سليم : متفق عليه من حديث أنس . (٤) حديث أنس : أن خباطا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم إليه طعاما فيه قرع : متفق عليه . (٥) حديث دعا الرجل الفارسى فقال « أنا وعائشة ... الحديث » رواه مسلم عن أنس .

واحدة قال الله تعالى ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ وكم زاهد جاهل يوحش القلوب في التفتيش ويتكلم الكلام الخشن المؤذى وإنما يحسن الشيطان ذلك عنده طلبا للشهرة بأكل الحلال ، ولو كان باعته محض الدين لكان خوفه على قلب مسلم أن يتأذى أشد من خوفه على بطنه أن يدخله ما لا يدري وهو غير مؤاخذ بما لا يدري إذ لم يكن ثم علامة توجب الاجتناب فليعلم أن طريق الورع الترك دون التجسس ، وإذا لم يكن بدم الأكل فالورع الأكل وإحسان الظن ؛ هذا هو المألوف من الصحابة رضي الله عنهم ومن زاد عليهم في الورع فهو ضال مبتدع وليس بمتبع فلن يبلغ أحمد أحدهم ولا نصيفه ولو انفق ما في الأرض جميعا كيف وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام بريرة فقيل : إنه صدقة ؛ فقال : هو لها صدقة ولنا هدية ^(١) ، ولم يسأل على المتصدق عليها فكان مجهولا عنده ولم يمتنع .

الحالة الثانية : أن يكون مشكوكا فيه بسبب دلالة أورثت ريبة فلنذكر صورة ريبة ثم حكمها .

أما الخلقة : فبأن يكون على خلقة الأتراك والبوادي والمعروفين بالظلم وقطع الطريق ، وأن يكون طويل الشارب ، وأن يكون الشعر مفرقا على رأسه على دأب أهل الفساد . وأما الثياب : فالقباء والقلسوة وزى أهل الظلم والفساد من الأجناد وغيرهم . وأما الفعل والقول : فهو أن يشاهد منه الإقدام على ما لا يحل ؛ فإن ذلك يدل على أنه يتساهل أيضا في المال يأخذ ما لا يحل ؛ فهذه مواضع الريبة . فإذا أراد أن يشتري من مثل هذا شيئا يأخذ منه هدية أو يجيبه إلى ضيافة وهو غريب مجهول عنده لم يظهر له منه إلا هذه العلامات ؛ فيحتمل أن يقال إن اليد تدل على الملك وهذه الدلالات ضعيفة فالإقدام جائز والترك من الورع . ويحتمل أن يقال إن اليد دلالة ضعيفة وقد قبلها مثل هذه الدلالة فأورثت ريبة فالهجوم غير جائز ، وهو الذي نختاره ونفتي به لقوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ^(٢) ، فظاهره أمر وإن كان يحتمل الاستحباب لقوله صلى الله عليه وسلم « الإثم حراز القلوب » ^(٣) ، وهذا له وقع في القلب لا ينكر ولأن النبي صلى الله عليه وسلم سأل : أصدقه هو أو هدية ؟ وسأل أبو بكر رضي الله عنه غلامه . وسأل عمر رضي الله عنه . وكل ذلك كان في موضع الريبة وحمله على الورع وإن كان ممكنا ولكن لا يحمل عليه إلا بقياس حكيم والقياس ليس يشهد بتحليل هذا فإن دلالة اليد والإسلام وقد عارضتها هذه الدلالات أورثت ريبة فإذا تقابلا فالاستحلال لا مستند له . وإنما لا يترك حكم اليد والاستصحاب بشك لا يستند إلى علامة كما إذا وجدنا الماء متغيرا واحتمل أن يكون بطول المكث فإن رأينا ظبية بالث فيه ثم احتمل أن التغيير به تركنا الاستصحاب وهذا قريب منه . ولكن بين هذه الدلالات تفاوت فإن طول الشوارب ولبس القباء وهيئة الأجناد يدل على الظلم بالمال . أما القول والفعل المخالفان للشرع إن تعلقا بظلم المال فهو أيضا دليل ظاهر كما لو سمعه يأمر بالغصب والظلم أو يعقد عقد الربا . فأما إذا رآه قد شتم غيره في غضبه أو اتبع نظره امرأة مرت به فهذه الدلالة ضعيفة فكم من إنسان يتحرج في طلب المال ولا يكسب إلا الحلال ومع ذلك فلا يملك نفسه عند هيجان الغضب والشهوة ؟ فليتنبه لهذا التفاوت ولا يمكن أن يضبط هذا بحد فليستفت العبد في مثل ذلك قلبه . وأقول إن هذا إن رآه من مجهول فله حكم وإن رآه من عرفه بالورع في الطهارة والصلاة وقراءة القرآن فله حكم آخر إذ تعارضت

(١) حديث أكله طعام بريرة فقيل إنها صدقة فقال « هو لها صدقة ولنا هدية » متفق عليه من حديث أنس (٣) حديث « دع ما يريبك » تقدم في البابين قبله . (٣) حديث « الإثم حراز القلوب » تقدم في العلم .

الدلالات بالإضافة إلى المال وتساقطنا وعاد الرجل كالمجهول إذ ليست إحدى الدالتين تناسب المال على الخصوص فكم من متخرج في المال لا يتخرج في غيره وكم من محسن للصلاة والوضوء والقراءة ويأكل من حيث يجد فالحكم في هذه المواقع ما يميل إليه القلب فإن هذا أمر بين العبد وبين الله فلا يبعد أن يناط بسبب خفي لا يطلع عليه إلا هو ورب الآرباب وهو حكم حرازة القلب . ثم ايتنبه لدقيقة أخرى وهو أن هذه الدلالة ينبغي أن تكون بحيث تدل على أن أكثر ماله حرام بأن يكون جنديا أو عامل سلطان أو نائحه أو مغنية فإن دل على أن في ماله حراما قليلا لم يكن السؤال واجبا بل كان السؤال من الورع .

الحالة الثالثة : أن تكون الحالة معلومة بنوع خبرة وممارسة بحيث يوجب ذلك ظنا في حل المال أو تحريره مثل أن يعرف صلاح الرجل وديانته وعدالته في الظاهر وجوز أن يكون الباطن بخلافه فهنا لا يجب السؤال ولا يجوز كما في المجهول ؛ فالأولى الإقدام . والإقدام ههنا أبعد عن الشبهة من الإقدام على طعام المجهول فإن ذلك بعيد عن الورع وإن لم يكن حراما . وأما أكل طعام أهل الصلاح فدأب الأنبياء والأولياء قال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعاما تقى ولا يأكل طعامك تقى »^(١) ، فأما إذا علم بالخبرة أنه جندى أو مغن أو مرب وامتنع عن الاستدلال عليه بالهيئة والشكل والثياب ، فههنا السؤال واجب لمحالة كما في موضع الرية بل أولى .

المثار الثاني : ما يستند الشك فيه إلى سبب المال لا في حال المالك

وذلك بأن يختلط الحلال بالحرام كما إذا طرح في سوق أحوال من طعام غضب واشتراها أهل السوق فليس يجب على من يشتري في تلك البلدة وذلك السوق أن يسأل عما يشتره إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام فنقد ذلك يجب السؤال ، فإن لم يكن هو الأكثر فالتفتيش من الورع وليس بواجب . والسوق الكبير حكمه حكم بلد . والدليل على أنه لا يجب السؤال والتفتيش إذا لم يكن الأغلب الحرام أن الصحابة رضی الله عنهم لم يمتنعوا من الشراء من الأسواق وفيها دراهم الربا وغلول الغنيمة وغيرها ، وكانوا لا يسألون في كل عقد ، وإنما السؤال نقل عن آحادهم نادرا في بعض الأحوال وهي محال الرية في حق ذلك الشخص المعين ، وكذلك كانوا يأخذون الغنائم من الكفار الذين كانوا قد قاتلوا المسلمين ، وربما أخذوا أموالهم واحتمل أن يكون في تلك الغنائم شيء مما أخذوه من المسلمين وذلك لا يحل أخذه مجانا بالاتفاق بل يرد على صاحبه عند الشافعي رحمه الله ، وصاحبه أولى به بالثمن عند أبي حنيفة رحمه الله ، ولم ينقل قط التفتيش عن هذا . وكتب عمر رضي الله عنه إلى أذريقجان : إنكم في بلاد تذبج فيها الميتة فانظروا ذكبه من ميتة . أذن في السؤال وأمر به ولم يأمر بالسؤال عن الدراهم التي هي أثمانها لأن أكثر دراهمهم لم تكن أثمان الجلود وإن كانت هي أيضا تباع وأكثر الجلود كان كذلك . وكذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : إنكم في بلاد أكثر قصايها المجوس فانظروا الذكي من الميتة فخص بالأكثر الأمر بالسؤال . ولا يتضح مقصود هذا الباب إلا بذكر صور وفرض مسائل يكثر وقوعها في العادات فلنفرضا :

مسألة : شخص معين خالط ماله الحرام مثل أن يباع على دكان طعام منصوب أموال منهوب ، ومثل أن يكون القاضي أو الرئيس أو العامل أو الفقيه الذي له إدرار على سلطان ظالم له أيضا مال موروث ودهقة أو تجارة أو رجل

(١) حديث : لا تأكل إلا طعاما تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى . تقدم في الزكاة .

تاجر يعامل بمعاملات صحيحة ويربى أيضا . فإن كان الأكثر من ماله حراما لا يجوز الأكل من ضيقته ولا قبول هديته ولا صدقته إلا بعد التفطيش ، فإن ظهر أن المأخوذ من وجه حلال فذاك ولا ترك ، وإن كان الحرام أقل والمأخوذ مشتبها فهذا في محل النظر لأنه على رتبة بين الرتبين ، إذ قضينا بأنه لو اشتبه ذكية بعشر ميات مثلا وجب اجتناب الكل وهذا يشبهه من وجه من حيث إن مال الرجل الواحد كالمحصور لاسيما إذا لم يكن كثير المال مثل السلطان ، ويخالفه من وجه إذ الميئة يعلم وجودها في الحال يقينا والحرام الذى غالط ماله يحتمل أن يكون قد خرج من يده وليس موجودا في الحال وإن كان المال قليلا ، وعلم قطعا أن الحرام موجود في الحال فهو ومسألة اختلاط الميئة واحد . وإن كثر المال واحتمل أن يكون الحرام غير موجود في الحال فهذا أخف من ذلك ويشبه من وجه الاختلاط بغير محصور كما في الأسواق والبلاد ولكنه أغلظ منه لاختصاصه بشخص واحد ، ولا يشك في أن الهجوم عليه بعيد من الورع جدا ولكن النظر في كونه فسقا مناقض للعدالة ، وهذا من حيث النقل أيضا غامض لتجاذب الأشياء ، ومن حيث النقل أيضا غامض لأن ما ينقل فيه عن الصحابة من الامتناع في مثل هذا وكذا عن التابعين يمكن حمله على الورع ولا يصادف فيه نص على التحريم . وما ينقل من إقدام على الأكل كأكل أبي هريرة رضى الله عنه طعام معاوية مثلا إن قدر في جملة ما في يده حرام فذلك أيضا يحتمل أن يكون إقدامه بعد التفطيش واستبانة أن عين ما يأكله من وجه مباح . فالأفعال في هذا ضعيفة الدلالة ومذاهب العلماء المتأخرين مختلفة حتى قال بعضهم : لو أعطاني السلطان شيئا لاخذته وطرده الإباحة فيما إذا كان الأكثر أيضا حراما مهما لم يعرف عين المأخوذ واحتمل أن يكون حلالا ، واستدل بأخذ بعض السلف جوائز السلاطين - كما سيأتى في باب بيان أموال السلاطين فأما إذا كان الحرام هو الأقل واحتمل أن لا يكون موجودا في الحال لم يكن الأكل حراما ، وإن تحقق وجوده في الحال - كما في مسألة اشتباه الذكية بالميئة - فهذا مما لا أدري ما أقول فيه وهو من المتشابهات التي يتحير المفتي فيها لأنها مترددة بين مشابهة المحصور وغير المحصور . والرضيعة إذا اشتبهت بقرية فيها عشر نسوة وجب الاجتناب وإن كانت ببلدة فيها عشرة آلاف لم يجب . وبينهما أعداد ، ولو شئت عنها لكنت لا أدري ما أقول فيها ، ولقد توقف العلماء في مسائل هي أوضح من هذه إذ سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل رى صيدا فوقع في ملك غيره أيكون الصيد للرأى أو للمالك الأرض ؟ فقال : لا أدري ، فراجع فيه مرات فقال : لا أدري . وكثيرا من ذلك حكيناه عن السلف في كتاب العلم فليقطع المفتي طمعه عن درك الحكم في جميع الصور . وقد سأل ابن المبارك صاحبه من البصرة عن معاملته قوما يعاملون السلاطين ، فقال : إن لم يعاملوا سوى السلطان فلا تعاملهم وإن عاملوا السلطان وغيره فعاملهم . وهذا يدل على المسامحة في الأقل ويحتمل المسامحة في الأكثر أيضا . وبالجملة فلم ينقل عن الصحابة أنهم كانوا يهجون بالكلية معاملة القصاب والخباز والتاجر لتعاطيه عقدا واحدا فاسدا أو لمعاملة السلطان مرة ؛ وتقدير ذلك فيه بعد والمسألة مشكلة في نفسها .

* فإن قيل : فقد روى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه رخص فيه وقال : خذ ما يعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر من الحرام . وسئل ابن مسعود رضى الله عنه ذلك فقال له السائل : إن لي جارا لأعلمه إلا خبيثا يدعوننا أو نحتاج فستسلفه فقال : إذا دعاك فأجبه وإذا احتجت فاستسلفه فإن لك المهنأ وعليه المأثم . وأفتى سلمان بن مثيل ذلك . وقد علل على بالكثرة وعلل ابن مسعود رضى الله عنه بطريق الإشارة بأن عليه المأثم لأنه يعرفه ولك المهنأ أى أنت لا تعرفه . وروى أنه قال لرجل لابن مسعود

رضى الله عنه . إن لي جاراً يأكل الربا فيدعوننا إلى طعامه أفأنتاه ؟ فقال : نعم . وروى في ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه روايات كثيرة مختلفة وأخذ الشافعي ومالك رضي الله عنهما جوائز الخلفاء والسلاطين مع العلم بأنه قد خالط ما لهم الحرام ؟ قلنا : أما ما روى عن علي رضي الله عنه فقد اشتهر من ورعه ما يدل على خلاف ذلك فإنه كان يمتنع من مال بيت المال حتى يبيع سيفه ولا يكون له إلا قيص واحد في وقت الغسل لا يجد غيره . ولست أنكر أن رخصته صريح في الجواز وفعله محتمل للورع ولكنه لو صح فمال السلطان له حكم آخر فإنه بحكم كثرته يكاد يلتحق بما لا يحصر . وسيأتي بيان ذلك . وكذا فعل الشافعي ومالك رضي الله عنهما متعلق بمال السلطان . وسيأتي حكمه . وإنما كلامنا في آحاد الخلق وأموالهم قريبة من الحصر . وأما قول ابن مسعود رضي الله عنه فقيل إنه إنما نقله خوات التيمى وإنه ضعيف الحفظ والمشهور عنه ما يدل على توقي الشبهات إذ قال : لا يقولن أحدكم أخاف وأرجو فإن الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتهات فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك . وقال : اجتنبوا الحكايات ففيها الإثم .

• فإن قيل : فلم قلتم إذا كان الأكثر حراماً لم يجوز الأخذ مع أن المسأخذ ليس فيه علامة تدل على تحريمه على الخصوص ، واليد علامة على الملك حتى إن من سرق مال مثل هذا الرجل قطعت يده والكثرة توجب ظناً مرسلات لا يتعلق بالعين فليكن كغالب الظن في طين الشوارع وغالب الظن في الاختلاط بغير محصور إذا كان الأكثر هو الحرام ، ولا يجوز أن يستدل على هذا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، لأنه مخصوص ببعض المواضع بالاتفاق وهو أن يريبه بعلامة في عين الملك بدليل اختلاط القليل بغير المحصور فإن ذلك يوجب ريباً ومع ذلك قطعتم بأنه لا يحرم ؟ فالجواب أن اليد دلالة ضعيفة كالاستصحاب وإنما تؤثر إذا سلمت عن معارض قوى . فإذا تحققنا الاختلاط وتحققنا أن الحرام المخالط موجود في الحال ، والمال غير خال عنه ، وتحققنا أن الأكثر هو الحرام وذلك في حق شخص معين يقرب ماله من الحصر ظهر وجوب الإعراض عن مقتضى اليد وإن لم يحمل عليه قوله عليه السلام « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، لا يبقى له حمل إذ لا يمكن أن يحمل على اختلاط قليل بحلال غير محصور إذ كان ذلك موجوداً في زمانه وكان لا يدعه . وعلى أي موضع حمل هذا كان هذا في معناه . وحله على التنزيه صرف له عن ظاهره بغير قياس فإن تحريم هذا غير بعيد عن قياس العلامات والاستصحاب ، والكثرة تأثير في تحقيق الظن وكذا للحصر وقد اجتمع حتى قال أبو حنيفة رضي الله عنه : لا يتجهد في الأواني إلا إذا كان الطاهر هو الأكثر . فاشترط اجتماع الاستصحاب والاجتهاد بالعلامة وقوة الكثرة : ومن قال يأخذ أي آنية أراد بلا اجتهاد بناء على مجرد الاستصحاب فيجوز الشرب أيضاً فيلزمه التجوز ههنا بمجرد علامة اليد . ولا يجري ذلك في بول اشتبه بماء إذ لا استصحاب فيه ولا نظرده أيضاً في ميتة اشتبهت بذكاة إذ لا استصحاب في الميتة ، واليد لا تدل على أنه غير ميتة وتدل في الطعام المباح على أنه ملك . فههنا أربع متعلقات . استصحاب ، وقلة في المخلوط أو كثرة ، وانحصار أو اتساع في المخلوط ، وعلامة خاصة في عين الشيء يتعلق بها الاجتهاد . فمن يغفل عن مجموع الأربعة ربما يغلط فيشبه بعض المسائل بما لا يشبهه . فحصل مما ذكرناه أن المختلط في ملك شخص واحد إما أن يكون الحرام أكثره أو أقله وكل واحد إما أن يعلم بيقين أو بظن عن علامة أو توهم . فالسؤال يجب في موضعين : وهو أن يكون الحرام أكثر يقيناً أو ظناً كما لو رأى تركيا مجهولاً يحتمل أن يكون كل ماله من غنينة وإن كان الأقل معلوماً باليقين فهو محل التوقف وتكاد تسير سير أكثر السلف وضرورة الأحوال إلى الميل إلى الرخصة . وأما الأقسام الثلاثة الباقية

فالسؤال واجب فيها أصلا .

مسألة : إذا حضر طعام لإنسان علم أنه دخل في يده حرام من إدرار كان قد أخذه أو وجه آخر ولا يدري أنه بقي إلى الآن أم لا ، قله الأكل ولا يلزمه التفتيش وإنما التفتيش فيه من الورع ، ولو علم أنه قد بقي منه شيء ولكن لم يدرك أنه الأقل أو الأكثر فله أن يأخذ بأنه الأقل . وقد سبق أن أمر الأقل لمشكل وهذا يقرب منه .

مسألة : إذا كان يد المتولى للخيرات أو الأوقاف أو الوصايا مالان يستحق هو أحدهما ولا يستحق الثاني لأنه غير موصوف بتلك الصفة فهل له أن يأخذ ما يسلمه إليه صاحب الوقف ؟ نظر ، فإن كانت تلك الصفة ظاهرة يعرفها المتولى وكان المتولى ظاهر العدالة فله أن يأخذ بغير بحث لأن الظن بالمتولى أنه لا يصرف إليه ما يصرفه لإلزام المال الذي يستحقه ، وإن كانت الصفة خفية وإن كان المتولى ممن عرف حاله أنه يخلط ولا يزال كيف يفعل فعليه السؤال ، إذ ليس ههنا يد ولا استصحاب يعقل عليه ، وهو زان سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصدقة والهدية عند تردده فيهما لأن اليد لا تخصص الهدية عن الصدقة ولا الاستصحاب فلا ينبغي منه إلا السؤال ، فإن السؤال حيث أسقطناه في المجهول أسقطناه بعلامة اليد والإسلام ، حتى لو لم يعلم أنه مسلم وأراد أن يأخذ من يده لحما من ذبيحته واحتمل أن يكون مجوسيا لم يجر له ما لم يعرف أنه مسلم إذ اليد لا تدل في الميتة ولا الصورة تدل على الإسلام إلا إذا كان أكثر أهل البلدة مسلمين ، فيجوز أن يظن بالذي ليس عليه علامة الكفر أنه مسلم وإن كان الخطأ بمكنافيه فلا ينبغي أن تلتبس المواضع التي تشهد فيها اليد والحال بالتي لا تشهد .

مسألة : له أن يشتري في البلد دارا وإن علم أنها تشتمل على دور مغصوبة لأن ذلك الاختلاط بغير محصور ولكن السؤال احتياط وورع . وإن كان في سكة عشر دور مثلا إحداها مغصوب أو وقف لم يجز الشراء ما لم يتميز ويجب البحث عنه . ومن دخل بلدة وفيها رباطات خصص بوقفها أرباب المذاهب وهو على مذهب واحد من جملة تلك المذاهب فليس له أن يسكن أيها شاء وبأكل من وقفها بغير سؤال لأن ذلك من باب اختلاط المحصور فلا بد من التمييز ، ولا يجوز الهجوم مع الإيهام لأن الرباطات والمدارس في البلد لابد أن تكون محصورة .

مسألة : حيث جعلنا السؤال من الورع فليس له أن يسأل صاحب الطعام والمال إذا لم يأمن غضبه وإنما أوجبنا السؤال إذا تحقق أن أكثر ماله حرام وعند ذلك لا يزال بغضب مثله ، إذ يجب إبداء الظالم بأكثر من ذلك . والغالب أن مثل هذا لا يغضب من السؤال . نعم إن كان يأخذ من يد وكيله أو غلامه أو تلميذه أو بعض أهله عن هو تحت رعايته فله أن يسأل مهما استراب لأنهم لا يغضبون من سؤاله ، ولأن عليه أن يسأل ليعلمهم طريق الحلال ولذلك سأل أبو بكر رضي الله عنه غلامه ، وسأل عمر من سقاء من لبل الصدقة ، وسأل أبا هريرة رضي الله عنه أيضا لما أن قدم عليه بهال كثير فقال : ويحك أكل هذا طيب ؟ من حيث إنه تعجب من كثرة وكان هو من رعيته لاسيما وقد رفق في صيغة السؤال ، وكذلك قال على رضي الله عنه : ليس شيء أحب إلى الله تعالى من عدل إمام ورفقه ولا شيء أبغض إليه من جوره وخرقه .

مسألة . قال الحارث المحاسبي رحمه الله : لو كان له صديق أو أخ وهو يأمن غضبه لو سأله فلا ينبغي أن يسأله لأجل الورع ، لأنه ربما يبدو له ما كان مستورا عنه فيكون قد حمل على هتك الستر ثم يؤدي ذلك إلى البغضاء ، وما ذكره حسن لأن السؤال إذا كان من الورع لامن الوجوب فالورع في مثل هذه الأمور الاحتراز عن هتك الستر ، وإثارة البغضاء أهم . وزاد على هذا فقال : وإن رآه منه شيء أيضا لم يسأله ويظن به أنه يطعمه من الطيب

ويجب عليه الخبيث فإن كان لا يطمئن قلبه إليه فيحترز متلطفا ولا يهتك ستره بالسؤال ، قال : لأنني لم أر أحدا من العلماء فعله ، فهذا منه مع ما اشتهر به من الزهد يدل على مسامحة فيما إذا خالط المال الحرام القليل ولكن ذلك عند التوهم لا عند التحقيق لأن لفظ الريبة يدل على التوهم بدلالة تدل عليه ولا يوجب اليقين فليراع هذه الدقائق بالسؤال .

مسألة : ربما يقول القائل : أى فائدة في السؤال من بعض ماله حرام ومن يستحل المال الحرام ربما يكذب فإن وثق بأمانته فليثق بديانته في الحلال ؟ فأقول : مهما علم مخالطة الحرام لمال إنسان وكان له غرض في حضورك ضيافته أو قبولك هديته فلا تحصل الثقة بقوله فلا فائدة للسؤال منه ، فينبغي أن يسأل من غيره ، وكذا إن كان يباعا وهو يرغب في البيع لطلب الربح فلا تحصل الثقة بقوله لأنه حلال ولا فائدة في السؤال منه وإنما يسأل من غيره . وإنما يسأل من صاحب اليد إذا لم يكن متهما كما يسأل المتولى على المال الذي يسلمه أنه من أى جهة وكما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهدية والصدقة فإن ذلك لا يؤدي ولا يثبهم القائل فيه ، وكذلك إذا اتهمه بأنه ليس يدري طريق كسب الحلال ؛ فلا يثبهم في قوله إذا أخبر عن طريق صحيح ، وكذلك يسأل عبده وخادمه ليعرف طريق اكتسابه . فهنا يفيد السؤال فإذا كان صاحب المال متهما فليسأل من غيره فإذا أخبره عدل واحد قبله وإن أخبره فاسق يعلم من قرينة حاله أنه لا يكذب حيث لا غرض له فيه جاز قبوله لأن هذا أمر بينه وبين الله تعالى والمطلوب ثقة النفس ، وقد يحصل من الثقة بقول فاسق مالا يحصل بقول عدل في بعض الأحوال ، وليس كل من فسق يكذب ولا كل من ترى العدالة في ظاهره يصدق . وإنما نيطت الشهادة بالعدالة الظاهرة لضرورة الحكم فإن البواطن لا يطلع عليها وقد قبل أبو حنيفة رحمه الله شهادة الفاسق . وكمن شخص تعرفه وتعرف أنه قد يقتحم المعاصي ثم إذا أخبرك بشيء وثقت به . وكذلك إذا أخبر به صبي يميز من عرفته بالثبوت فقد تحصل الثقة بقوله فيحل الاعتماد عليه . فأما إذا أخبر به مجهول لا يدري من حاله شيء أصلا فهذا ممن جوزنا الأكل من يده لأن يده دلالة ظاهرة على ملكه . وربما يقال لإسلامه دلالة ظاهرة على صدقه ؛ وهذا فيه نظر ، ولا يخلو قوله عن أثر ما في النفس حتى لو اجتمع منهم جماعة تفيد ظنا قويا إلا أن أثر الواحد فيه في غاية الضعف فليُنظر إلى حد تأثيره في القلب فإن المفتي هو القلب في مثل هذا الموضع والقلب التفاتات إلى قرائن خفية يضيق عنها نطاق النطق فليتأمل فيه . ويدل على وجوب الالتفات إليه ما روى عن عقبة بن الحارث ، أنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لاني تزوجت امرأة لجماء أمة سوداء فرعمت أنها قد أرضعتنا وهي كاذبة ، فقال : دعها ، فقال : إنها سوداء - يصغر من شأنها - فقال عليه السلام : فكيف وقد زعمت أنها قد أرضعتكما ؟ لا خير لك فيها دعها عنك ^(١) - وفي انظر آخر - كيف وقد قيل ، ومهما لم يعلم كذب المجهول ولم تظهر أماره غرض له فيه كان له وقع في القلب لا محالة ؛ فلذلك يتأكد الأمر بالاحتراز فإن اطمأن إليه القلب كان الاحتراز حتما واجبا .

مسألة : حيث يجب السؤال فلو تعارض قول عدلين تساقطا وكذا قول فاسقين ، ويجوز أن يرجح في قلبه قول أحد العدلين أو أحد الفاسقين ، ويجوز أن يرجح أحد الجانبين بالكثرة أو بالاختصاص بالخبرة والمعرفة وذلك بما يتشعب تصويره .

مسألة : لو نهب متاع مخصوص فصادف من ذلك النوع متاعا في يد إنسان وأراد أن يشتريه واحتمل أن لا يكون

(١) حديث عقبة : لاني تزوجت امرأة لجماء أمة سوداء فرعمت أنها قد أرضعتنا وهي كاذبة . رواه البخاري من حديث عقبة ابن الحارث .

من المغصوب فإن كان ذلك الشخص ممن عرفه بالصالح جاز الشراء وكان تركه من الورع . وإن كان الرجل مجهولاً لا يعرف منه شيئاً فإن كان يكثر نوع ذلك المتاع من غير المغصوب فله أن يشتري . وإن كان لا يوجد ذلك المتاع في تلك البقعة إلا نادراً وإنما كثر بسبب الغصب فليس يدل على الحل إلا البعد وقد عارضته علامة خاصة من شكل المتاع ونوعه ، فالامتناع عن شرائه من الورع المهم ، ولكن الوجوب فيه نظر فإن العلامة متعارضة . ولست أقدر على أن أحكم فيه بحكم إلا أرده إلا قلب المستفتي لينظر ما الأقوى في نفسه فإن كان الأقوى أنه مغصوب لزمه تركه وإلا حل له شراؤه . وأكثر هذه الوقائع يلتبس الأمر فيها فهي من المتشابهات التي لا يعرفها كثير من الناس فمن توقعها فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن اقتحمها فقد حام حول الحمى وخاطر بنفسه .

مسألة : لو قال قائل : قد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبن قدم إليه فذكر أنه من شاة فسأل عن الشاة من أين هي فذكر له فسكت عن السؤال ^(١) فيجب السؤال عن أصل المال أم لا ، وإن وجب فعن أصل واحد أو اثنين أو ثلاثة وما الضبط فيه ؟ فأقول : لا ضبط فيه ولا تقدير بل ينظر إلى الرية المقتضية للسؤال إما وجوباً أو ورعاً . ولا غاية للسؤال إلا حيث تنقطع الرية المقتضية له وذلك يختلف باختلاف الأحوال فإن كانت التهمة من حيث لا يدري صاحب اليد كيف طريق الكسب الحلال فإن قال : اشتريت ، انقطع بسؤال واحد ، وإن قال : من شاتي ، وقع الشك في الشاة . فإذا قال : اشتريت ، انقطع وإن كانت الرية من الظلم وذلك مما في أيدي العرب ويتوالد في أيديهم المغصوب فلا تنقطع الرية بقوله : إنه من شاتي ، ولا بقوله : إن الشاة ولدتها شاتي ، فإن أسنده إلى الوراثة من أبيه وحالة أبيه مجهولة انقطع السؤال ، وإن كان يعلم أن جميع مال أبيه حرام فقد ظهر التحريم وإن كان يعلم أن أكثره حرام فبكثر التوالد وطول الزمان وتطرق الإرث إليه لا يغير حكمه فلينظر في هذه المعاني .

مسألة : سئلت عن جماعة من سكان خانقاه الصوفية وفي يد خادهم الذي يقدم لإيهم الطعام وقف على ذلك المسكن ووقف آخر على جهة أخرى غير هؤلاء ، وهو يخطط الكل وينفق على هؤلاء وهؤلاء فأكل طعامه حلال أو حرام أو شبهة ؟ فقلت : إن هذا يلتفت إلى سبعة أصول : (الأصل الأول) أن الطعام الذي يقدم لإيهم في الغالب يشتريه بالمعاطاة والذي اخترناه صحة المعاطاة لا سيما في الأطعمة والمستحقات فليس في هذا إلا شبهة الخلاف . (الأصل الثاني) أن ينظر أن الخادم هل يشتريه بعين المال الحرام أو في الذمة ؟ فإن اشتراه بعين المال الحرام فهو حرام ، وإن لم يعرف فالغالب أنه يشتري في الذمة ويجوز الأخذ بالغالب ، ولا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال بعيد وهو شراؤه بعين مال حرام . (الأصل الثالث) أنه من أين يشتريه فإن اشتريه من أكثر ماله حرام لم يحز وإن كان أقل ماله ففيه نظر قد سبق ؛ وإذا لم يعرف جاز له الأخذ بأنه يشتريه من ماله حلال أو ممن لا يدري المشتري حاله بيقين كالمجهول ، وقد سبق جواز الشراء من المجهول لأن ذلك هو الغالب فلا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال . (الأصل الرابع) أن يشتريه لنفسه أو للقوم فإن المتولى والخادم كالتائب وله أن يشتريه لنفسه ولكن يكون ذلك بالنية أو صريح اللفظ وإذا كان الشراء يجري بالمعاطاة فلا يجري اللفظ ، والغالب أنه لا ينوي عند المعاطاة ، والقصاب والخباز ومن يعامله يعول عليه ويقصد البيع منه لا ممن لا يحضرون فيقع عن جيبته ويدخل في ملكه وهذا الأصل ليس فيه تحريم ولا شبهة ولكن يثبت أنهم يأكلون من ملك الخادم .

(١) حديث : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن قدم إليه ... الحديث ، تقدم في الباب الخامس من آداب الكسب والمعايش .

(الأصل الخامس) أن الخادم يقدم الطعام إليهم فلا يمكن أن يجعل ضيافة وهدية بغير عوض فإنه لا يرضى بذلك وإنما يقدم اعتماداً على عوضه من الوقف ، فهو معاوضة ولكن ليس ببيع ولا إقراض لأنه لو انتهض لمطالبتهم بالثمن استبعد ذلك وقرينة الحال لا تدل عليه . فأشبه أصل ينزل عليه هذه الحالة الهبة بشرط الثواب - أعنى هدية لالفظ فيها من شخص تقتضى قرينة حاله أنه يطمع في ثواب - وذلك صحيح والثواب لازم وههنا ما طمع الخادم في أن يأخذ ثواباً فيما قدمه إلا حقهم من الوقف ليقضى به دينه من الخبز والقصاب والبقال ، فهذا ليس فيه شبهة إذ لا يشترط لفظ في الهدية ولا في تقديم الطعام وإن كان مع انتظار الثواب ، ولا مبالاة بقول من لا يصحح هدية في انتظار ثواب . (الأصل السادس) أن الثواب الذى يلزم فيه خلاف ، فقيل إنه أقل متمول وقيل قدر القيمة وقيل ما يرضى به الواهب حتى له أن لا يرضى بأضعاف القيمة ، والصحيح أنه يتبع رضاه فإذا لم يرض يرد عليه وههنا الخادم قد رضى بما يأخذ من حق السكان على الوقف ، فإن كان لهم من الحق بقدر ما أكلوه فقد تم الأمر وإن كان ناقصاً ورضى به الخادم صح أيضاً ، وإن علم أن الخادم لا يرضى لولا أن في يده الوقف الآخر الذى يأخذه بقوة هؤلاء السكان فكأنه رضى في الثواب بمقدار بعضه حلال وبعضه حرام ، والحرام لم يدخل في أبدي السكان ، فهذا كالحلل المتطرق إلى الثمن - وقد ذكرنا حكمه من قبل - وأنه متى يقتضى التحريم ومتى يقتضى الشبهة؟ وهذا لا يقتضى تحريماً على ما فصلناه فلا تنقلب الهدية حراماً يتوصل المهدى بسبب الهدية إلى حرام . (الأصل السابع) أنه يقتضى دين الخبز والقصاب والبقال من ريع الواقفين فإن وفى ما أخذ من حقهم بقيمة ما أطعمهم فقد صح الأمر ، وإن قصر عنه فرضى القصاب والخباز بأى ثمن كان حراماً أو حلالاً ، فهذا خلل تطرق إلى ثمن الطعام أيضاً فليلتفت إلى ما قدمنا من الشراء في الذمة ثم قضاء الثمن من الحرام ، هذا إذا علم أنه قضاء من حرام ، فإن احتمل ذلك واحتمل غيره فالشبهة أبعد ، وقد خرج من هذا أن أكل هذا ليس بحرام ولكنه أكل شبهة وهو بعيد من الورع ، لأن هذه الأصول إذا كثرت وتطرق إلى كل واحد احتمال صار احتمال الحرام بكثرته أقوى في النفس كما أن الخبر إذا طال إسناداه صار احتمال الكذب والغلط فيه أقوى مما إذا قرب إسناداه . فهذا حكم هذه الواقعة وهي من الفتاوى وإنما أوردناها ليعرف كيفية تخريج الوقائع الملتفة الملتبسة وأنها كيف ترد إلى الأصول فإن ذلك مما يعجز عنه أكثر المفتين .

الباب الرابع: في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية

اعلم أن من تاب وفي يده محتلط فعليه وظيفة في تمييز الحرام والإخراج ووظيفة أخرى في مصرف المخرج فليُنظر فيهما .

النظر الأول : في كيفية التمييز والإخراج

اعلم أن كل من تاب وفي يده ما هو حرام معلوم العين من غضب أو ودعة أو غيره فأمره سهل ؛ فعليه تمييز الحرام . وإن كان ملتبساً مختلطاً فلا يخلو إما أن يكون في مال هو من ذوات الأمثال كالحبوب والتقود والأدهان وإما أن يكون في أعيان متمايزة كالعبيد والدور والثياب . فإن كان في المتماثلات أو كان شائماً في كله كمن اكتسب المال بتجارة يعلم أنه قد كذب في بعضها في المراجعة وصدق في بعضها ، أو من غضب دهنًا وخلطه بدهن نفسه ، أو فعل ذلك في الحبوب ، أو الدراهم والدنانير فلا يخلو ذلك إما أن يكون معلوم القدر أو مجهولاً . فإن كان معلوم القدر

مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام فعليه تمييز النصف . وإن أشكل فله طريقان أحدهما : الأخذ باليقين والآخر : الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قد قال به العلماء في اشتباه ركعات الصلاة . ونحن لا نجوز في الصلاة إلا الأخذ باليقين فإن الأصل اشتغال الذمة فيستصحب ولا يغير إلا بعلامة قوية وليس في أعداد الركعات علامات يوثق بها ، وأما ههنا فلا يمكن أن يقال : الأصل أن مافي يده حرام ، بل هو مشكل فيجوز له الأخذ بغالب الظن اجتهدا ، ولكن الورع في الأخذ باليقين . فإن أراد الورع فطريق التحري والاجتهاد أن لا يستبقى إلا القدر الذي يتيقن أنه حلال . وإن أراد الأخذ بالظن فطريقه مثلا أن يكون في يده مال تجارة فسد بعضها فيتيقن أن النصف حلال وأن الثلث مثلا حرام ويبقى سدس يشك فيه فيحكم فيه بغالب الظن . وهكذا طريق التحري في كل مال وهو أن يقتطع القدر المتيقن من الجانبين في الحل والحرم . والقدر المتردد فيه إن غلب على ظنه التحريم أخرجه وإن غلب الحل جاز له الإمساك والورع إخراجه . وإن شك فيه جاز الإمساك والورع إخراجه ، وهذا الورع أكد لأنه صار مشكوكا فيه ، وجاز إمساكه اعتادا على أنه في يده فيكون الحل أغلب عليه وقد صار ضعيفا بعد يقين اختلاط الحرام . ويحتمل أن يقال الأصل التحريم ولا يأخذ إلا ما يغلب على ظنه أنه حلال وليس أحد الجانبين بأولى من الآخر وليس يتيقن لى في الحال ترجيح وهو من المشكلات .

• فإن قيل : هب أنه أخذ باليقين لكن الذى يخرج له ليس يدري أنه عين الحرام فلعل الحرام مابقى في يده فكيف يقدم عليه ؟ ولو جاز هذا لجاز أن يقال : إذا اختلطت ميتة بتسع مذكاة فهي العشر فله أن يطرح واحدة أى واحدة كانت - ويأخذ الباقي ويستحلها ولكن يقال : لعل الميتة فيما استبقاه بل لو طرح التسع واستبقى واحدة لم تحل لاحتمال أنها الحرام ؟ فنقول : هذه الموازنة كانت تصح لولا أن المال يحل بإخراج البدل لتطرق المعاوضة إليه ، وأما الميتة فلا تطرق المعاوضة إليها فليكشف الغطاء عن هذا الإشكال بالقرض في درهم معين اشتبه بدرهم آخر فيمن له درهمان أحدهما حرام قد اشتبه عينه ، وقد سئل أحمد بن حنبل رضى الله عنه عن مثل هذا فقال : يدع الكل حتى يتبين ، وكان قد رهن آنية فلبس فلبس الدين حمل إليه المرتين آنيتين وقال : لا أدري أيتهما آنيته فتركهما فقال المرتن : هذا الذى هو لك وإنما كنت اختبرك ؟ فقضى دينه ولم يأخذ الرهن وهذا ورع ولكننا نقول إنه غير واجب . فلنرض المسألة في درهم له مالك معين حاضر فنقول : إذا رد أحد الدرهمين عليه ورضى به مع العلم بحقيقة الحال حل له الدرهم الآخر ، لأنه لا يخلو إما أن يكون المردود في علم الله هو المأخوذ فقد حصل المقصود وإن كان غير ذلك فقد حصل لكل واحد درهم في يد صاحبه ، فالاحتياط أن يتبايعا باللفظ وإن لم يفعلا وقع التقاص والتبادل بمجرد المعاوضة ، وإن كان المقتضوب منه قد فات له درهم في يد الغاصب وعسر الوصول إلى عينه واستحق ضمانه فلما أخذه وقع عن الضمان بمجرد القبض وهذا في جانبه واضح ، فإن المضمون له يملك الضمان بمجرد القبض من غير لفظ والإشكال في الجانب الآخر أنه لم يدخل في ملكه . فنقول : لأنه أيضا إن كان قد سلم درهم نفسه فقد فات له أيضا درهم في يد الآخر فليس يمكن الوصول إليه فهو كالفائب فيقع هذا بدلا عنه في علم الله إن كان الأمر كذلك ، ويقع هذا التبادل في علم الله كما يقع التقاص لو أتلغ رجلان كل واحد منهما درهما على صاحبه ، بل في عين مسألتنا لو ألقى كل واحد مافي يده في البحر أو أحرقه كان قد أتلغه ولم يكن عليه عهدة للآخر بطريق التقاص ، فكذا إذا لم يتلف فإن القول بهذا أولى من المصير إلى أن من يأخذ درهما حراما ويطرحه في ألف ألف درهم لرجل آخر يصير كل المال محجورا عليه لا يجوز التصرف

فيه وهذا المذهب يؤدي إليه ، فانظر ما في هذا من البعد وليس فيما ذكرناه إلا ترك اللفظ . والمعاطاة يبيع ومن لا يجعلها بيعا فحيث يتطرق إليها احتمال إذ الفعل يضعف دلالة وحيث يمكن التلطف ، وههنا هذا التسليم والتسليم للبدالة قطعاً والبيع غير ممكن لأن المبيع غير مشار إليه ولا معلوم في عينه وقد يكون مما لا يقبل البيع كما لو خلط رطل دقيق بألف رطل دقيق لغيره وكذا الدبس والرطب وكل مالا يباع البعض منه بالبعض .

« فإن قيل : فأنتم جوزتم تسليم قدر حقه في مثل هذه الصورة وجعلتموه بيعا ؟ قلنا : لانجعله بيعا بل نقول هو بدل عما فات في يده فيملكه كما يملك المتلف عليه من الرطب إذا أخذ مثله ؛ هذا إذا ساعده صاحب المال فإن لم يساعده وأضر به وقال : لا آخذ درهما أصلا إلا عين ملكي فإن استهم فأتركه ولا أهبه وأعطل عليك مالك . فأقول على القاضي أن ينوب عنه في القبض حتى يطيب للرجل ماله فإن هذا محض التغت والتضييق والشرع لم يرد به فإن عجز عن القاضي ولم يجده فليحكم رجلا متدينا ليقبض عنه فإن عجز فيتولى هو بنفسه ويفرد على نيه الصرف إليه درهما ويتعين ذلك له ويطيب له الباقي ، وهذا في خلط المائعات أظهر وألزم .

« فإن قيل فينبغي أن يحل له الأخذ وينتقل الحق إلى ذمته فأى حاجة إلى الإخراج أولا ثم التصرف في الباقي ؟ قلنا : قال قائلون يحل له أن يأخذ مادام يبقى قدر الحرام ولا يجوز أن يأخذ الكل ولو أخذ لم يجز له ذلك . وقال آخرون : ليس له أن يأخذ مالم يخرج قدر الحرام بالتوبة وقصد الإبدال ، وقال آخرون يجوز للأخذ في التصرف أن يأخذ منه وأما هو فلا يعطى فإن أعطى عصي هو دون الأخذ منه ، وما جوز أحد أخذ الكل وذلك لأن المالك لو ظهر فله أن يأخذ حقه من هذه الجملة إذ يقول لعل المصروف إلى يقع عين حق . وبالتعيين والإخراج حق الغير وتمييزه بندفع هذا الاحتمال فهذا المال يرجح بهذا الاحتمال على غيره وما هو أقرب إلى الحق مقدم كما يقدم المثل على القيمة والعين على المثل فكذلك ما يمتثل فيه رجوع المثل مقدم على ما يمتثل فيه رجوع القيمة وما يمتثل فيه رجوع العين يقدم على ما يمتثل فيه رجوع المثل ولو جاز لهذا أن يقول ذلك لجاز لصاحب الدرهم الآخر أن يأخذ الدرهمين ويتصرف فيهما ويقول على قضاء حقتك من موضع آخر ؛ إذ الاختلاط من الجانبين وليس ملك أحدهما بأن يقدر قائما بأولى من الآخر إلا أن ينظر إلى الأقل فيقدر أنه قائم فيه أو ينظر إلى الذي خلط فيجعل بفعله متلفا لحق غيره وكلاهما بعيدان جدا . وهذا واضح في ذوات الأمثال فإنها تقع عوضا في الإطلاقات من غير عقد فأما إذا اشتبه دار بدور أو عبد بعبيد فلا سبيل إلى المصالحة والتراضي فإن أبي أن يأخذ إلا عين حقه ولم يقدر عليه وأراد الآخر أن يعوق عليه جميع ملكه ، فإن كانت متباعدة القيم فالطريق أن يبيع القاضي جميع الدور ويوزع عليهم الثمن بقدر النسبة وإن كانت متفاوتة أخذ من طالب البيع قيمة أنفس الدور وصرف إلى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل ، ويوقف قدر التفاوت إلى البيان أو الإصلاح لأنه مشكل ، وإن لم يوجد القاضي فللذي يريد الخلاص وفي يده الكل أن يتولى ذلك بنفسه ، هذه هي المصلحة وما عداها من الاحتمالات ضعيفة لا تختارها وفيما سبق تنبيه على العلة ، وهذا في الحنطة ظاهر ، وفي النقود دونه ، وفي العروض أغمض ، إذ لا يبيع البعض بدلا عن البعض ، فلذلك احتيج إلى البيع ولترسم مسائل يتم بها بيان هذا الأصل :

مسألة : إذا ورث مع جماعة وكان السلطان قد غصب ضيعة لمورثهم فرد عليه قطعة معينة فهي لجميع الورثة . ولو رد من الضيعة نصفا وهو قدر حقه ساهمه الورثة ، فإن النصف الذي له لا يتميز حتى يقال : هو المردود ، والباقي هو المغصوب ، ولا يصير مميزا بنية السلطان ، وقصده حصر الغصب في نصيب الآخرين .

مسألة . إذا وقع في يده مال أخذه من سلطان ظالم ثم تاب والمال عقار وكان قد حصل منه انتفاع ؛ فينبغي أن يحسب أجر مثله لطول تلك المدة ، وكذلك كل مغصوب له منفعة أو حصل منه زيادة ، فلا تصح توبته ما لم يخرج أجره المغصوب ، وكذلك كل زيادة حصلت منه وتقدير أجره العبيد والثياب والأواني وأمثال ذلك مما لا يعتاد إجارتها مما يسر ولا يدرك ذلك إلا باجتهاد وتخمين ، وهكذا كل التقويمات تقع بالاجتهاد وطريق الورع الأخذ بالأنصى ، وماربجه على المال المغصوب في عقود عقدها على الذمة وقضى الثمن منه ، فهو ملك له ولكن فيه شبهة ، إذ كان ثمنه حراما كما سبق حكمه ، وإن كان بأعيان تلك الأموال فالعقود كانت فاسدة ، وقد قيل : تنفذ بإجازة المغصوب منه للصلحة فيكون المغصوب منه أولى به ، والقياس أن تلك العقود تفسخ وتسترد الثمن وترد الأعيان فإن عجز عنه لكثرة فهي أموال حرام حصلت في يده فللمغصوب منه قدر رأس ماله ، والفضل حرام يجب إخراجه لتصدق به ، ولا يحل للغاصب ولا للمغصوب منه ، بل حكمه حكم كل حرام يقع في يده .

مسألة : من ورث مالا ولم يدر أن مورثه من أين اكتسبه أمن حلال أم من حرام ولم يكن ثم علامة ، فهو حلال باتفاق العلماء ، وإن علم أن فيه حراما وشك في قدره أخرج مقدار الحرام بالتحري ، فإن لم يعلم ذلك ولكن علم أن مورثه كان يتولى أعمالا للسلطين واحتمل أنه لم يكن يأخذ في عمله شيئا ، أو كان قد أخذ ولم يبق في يده منه شيء لطول المدة ، فهذه شبهة يحسن التورع عنها ولا يجب ، وإن علم أن بعض ماله كان من الظلم فيلزمه إخراج ذلك القدر بالاجتهاد . وقال بعض العلماء : لا يلزمه والإثم على المورث ، واستدل بما روى أن رجلا من ولى عمل السلطان مات ، فقال صحابي : الآن طاب ماله : أى لوارثه ، وهذا ضعيف ، لأنه لم يذكر اسم الصحابي ولعله صدر من متساهل ، فقد كان في الصحابة من يتساهل ، ولكن لا نذكره لحرمة الصحبة ، وكيف يكون موت الرجل ميسحا للحرام المتيقن المختلط ومن أين يؤخذ هذا ؟ نعم إذا لم يتيقن يجوز أن يقال : هو غير مأخوذ بما لا يدري ، فيطيب لوارث لا يدري أن فيه حراما يقينا .

النظر الثاني : في المصرف

فإذا أخرج الحرام فله ثلاثة أحوال :

إما أن يكون له مالك معين فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه ، وإن كان غائبا فينتظر حضوره أو الإيصال إليه ، وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره .

وإما أن يكون لمالك غير معين وقع اليأس من الوقوف على عيبه ولا يدري أنه مات عن وارث أم لا ، فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ويوقف حتى يتضح الأمر فيه ، وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك ، كغلول الغنيمة فإنها بعد تفرق الغزاة ، كيف يقدر على جمعهم ، وإن قدر فكيف يفرق دينارا واحدا مثلا على ألف أو ألفين ، فهذا ينبغي أن يتصدق به .

وإما من مال الفئ والاموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك إلى القناطر والمساجد والرباطات ومصانع طريق مكة ، وأمثال هذه الأمور التي يشترك في الانتفاع بها كل من يمر بها من المسلمين ، ليكون عاما للمسلمين ، وحكم القسم الأول لا شبهة فيه . أما التصديق وبناء القناطر فينبغي أن يتولاه القاضي فيسلم إليه المال إن وجد قاضيا متدينا ، وإن كان القاضي مستحلا فهو بالتسليم إليه ضامن لو ابتدأ به فيما لا يضمنه ، فكيف يسقط عنه به ضمان قد استقر عليه ، بل يحكم من أهل البلد عالمنا متدينا ، فإن التحكيم أولى من الانفراد ، فإن عجز فليتول

ذلك بنفسه ، فإن المقصود الصرف . وأما عين الصارف فإنما نطلبه لمصارف دقيقة في المصالح ، فلا يترك أصل الصرف بسبب العجز عن صارف هو أولى عند القدرة عليه .

* فإن قيل : ما دليل جواز التصديق بما هو حرام ؟ وكيف يتصدق بما لا يملك ؟ وقد ذهب جماعة إلى أن ذلك غير جائز لأنه حرام . وحكى عن الفضيل أنه وقع في يده درهمان فلما علم أنهما من غير وجههما رماهما بين الحجارة وقال : لا أتصدق إلا بالطيب ولا أرضى لغيري مالا أرضاه لنفسى . * فنقول : نعم ، ذلك له وجه واحتمال . وإنما اخترنا خلافه للخبر والأثر والقياس : أما الخير فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاة المصلية التي قدمت إليه فكلمته بأنها حرام ، إذ قال صلى الله عليه وسلم أطعموها الأسارى ^(١) ولما نزل قوله تعالى ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ كذبه المشركون وقالوا للصحابه : ألا ترون ما يقول صاحبكم ، يزعم أن الروم ستغلب ، فخطبهم أبو بكر رضي الله عنه يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما حقق الله صدقه وجاء أبو بكر رضي الله عنه بما قامرهم به قال عليه الصلاة والسلام : هذا سحت ، فتصدق به وفرح المؤمنون بنصر الله ، وكان قد نزل تحريم القمار بعد إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم له في المخاطرة مع الكفار ^(٢) وأما الأثر فإن ابن مسعود رضي الله عنه اشترى جارية فلم يظفر بها لكها لينقده الثمن ، فطلبه كثيرا فلم يجده ، فتصدق باثمن وقال : اللهم هذا عنه إن رضي وإلا فالأجر لي . وسئل الحسن رضي الله عنه عن توبة الغال وما يؤخذ منه بعد تفرق الجيش ، فقال يتصدق به . وروى أن رجلا سئلت له نفسه فقل مائة دينار من الغنيمة ، ثم أتى أميره ليردها عليه فأبى أن يقبضها وقال له : تفرق الناس ، فأتى معاوية فأبى أن يقبض ، فأتى بعض الناس فقال : ادفع خمسها إلى معاوية ، وتصدق بما يبقى ، فبلغ معاوية قوله ، فتلطف إذ لم يخطر له ذلك ، وقد ذهب أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وجماعة من الورعين إلى ذلك .

وأما القياس فهو أن يقال : إن هذا المال مرده بين أن يضيع وبين أن يصرف إلى خير ، إذ قد وقع اليأس من مالكة ، وبالضرورة يعلم أن صرفه إلى خير أولى من إلقائه في البحر ، فإنما إن رميناه في البحر فقد فوتناه على أنفسنا وعلى المالك ولم تحصل منه فائدة : وإذا رميناه في يد فقير يدعو لمالكة حصل للمالك بركة دعائه وحصل للفقير سد حاجته ، وحصول الأجر للمالك بغير اختياره في التصديق لا ينبغي أن ينكر . فإن في الخبر الصحيح « إن للزارع والغارس أجرا في كل ما يصيبه الناس والطيور من ثماره وزرعه » ^(٣) ، وذلك بغير اختياره ، وأما قول القائل : لا تتصدق إلا بالطيب ، فذلك إذا طلبنا الأجر لأنفسنا ونحن الآن نطلب الخلاص من المظلمة لا الأجر

الباب الرابع : في كيفية خروج التائب عن المظالم

(١) حديث : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاة المصلية التي قدمت بين يديه وكلته بأنها حرام ، إذ قال « أطعموها الأسارى » رواه أحمد من حديث رجل من الأنصار قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة ، فلما رجنا لقينا راعي أسراء من قريش فقال : إن فلانة تدعوك ومن ذلك لك طعام . الحديث ، وفيه : فقال « أحد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها » وفيه فقال « أطعموها الأسارى » وإسناده جيد . (٢) حديث : مخاطرة أبي بكر المشركين بأذنه صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى ﴿ الم غلبت الروم ﴾ وفيه فقال صلى الله عليه وسلم « هذا سحت » فتصدق به . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن عباس ، وليس فيه أن ذلك كان بأذنه صلى الله عليه وسلم ، والحديث عند الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه دون قوله أيضا « هذا سحت » فتصدق به .

(٣) حديث « أجر الزارع والغارس في كل ما يصيب الناس والطيور » أخرجه البخاري من حديث أنس « ما من مسلم بغرس غرسا أو يزرع زرعاً فبأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له صدقة » .

وتردنا بين التضييع وبين التصدق ورجحنا جانب التصدق على جانب التضييع . وقول القائل : لانرضى لغيرنا مالانرضاه لأنفسنا ، فهو كذلك ولكنه علينا حرام لاستثنائنا عنه وللفقير حلال إذ أحله دليل الشرع ، وإذا اقتضت المصلحة التحليل وجب التحليل وإذا حل فقد رضينا له الحلال ونقول إن له أن يتصدق على نفسه . وعياله إذا كان فقيرا . أما عياله وأهله فلا يخفى لأن الفقر لا ينتفى عنهم بكونهم من عياله وأهله بل هم أولى من يتصدق عليهم ، وأما هو فله أن يأخذ منه قدر حاجته لأنه أيضا فقير ولو تصدق به على فقير لجاز وكذا إذا كان هو الفقير ، ولنرسم في بيان هذا الأصل أيضا مسائل

مسألة : إذا وقع في يده مال من يد سلطان قال قوم : يرد إلى السلطان فهو أعلم بما تولاه فيقلده ما تقلده وهو خير من أن يتصدق به ، واختار المحاسبي ذلك وقال : كيف يتصدق به فلعل له مالكا معينا ؟ ولو جاز ذلك لجاز أن يسرق من السلطان ويتصدق به ، وقال قوم : يتصدق به إذا علم أن السلطان لا يرده إلى المالك لأن ذلك إعانة للظالم وتكثير لأسباب ظله فالرد إليه تضييع لحق المالك ، والمختار أنه إذا علم من عادة السلطان أنه لا يرده إلى مالكة فيتصدق به عن مالكة فهو خير للمالك إن كان له مالكة معين من أن يرد على السلطان لأنه ربما لا يكون له مالكة معين ويكون حق المسلمين فردة على السلطان تضييع فإن كان له مالكة معين فالرد على السلطان تضييع وإعانة للسلطان الظالم وتفويت ابركة دعاء الفقير على المالك وهذا ظاهر ، فإذا وقع في يده من ميراث ولم يتعد هو بالأخذ من السلطان فإنه شبيه باللقطة التي أيس عن معرفة صاحبها إذ لم يكن له أن يتصرف فيها بالتصدق عن المالك ولكن له أن يملكها ثم . وإن كان غنيا من حيث أنه اكتسبه من وجه مباح وهو الالتقاط وههنا لم يحصل المال من وجه مباح فيؤثر في منعه من التملك ولا يؤثر في المنع من التصدق .

مسألة : إذا حصل في يده مال لا مالكة له وجوزنا له أن يأخذ قدر حاجته لفقره ففي قدر حاجته نظر ذكرناه في كتاب أسرار الزكاة ، فقد قال قوم : يأخذ كغاية سنة لنفسه وعياله وإن قدر على شراء ضيعة أو تجارة يكتسب بها للعائلة فعل ، وهذا ما اختاره المحاسبي ولكنه قال : الأولى أن يتصدق بالكل إن وجد من نفسه قوة التوكل وينتظر لطف الله تعالى في الحلال ، فإن لم يقدر فله أن يشتري ضيعة أو يتخذ رأس مال يتعيش بالمعروف منه وكل يوم وجد فيه حلالا أمسك ذلك اليوم عنه ، فإذا فنى عاد إليه ، فإذا وجد حلالا معينا تصدق بمثل ما أنفقته من قبل ويكون ذلك قرضا عنده ، ثم إنه يأكل الخبز ويترك اللحم إن قوى عليه وإلا أكل اللحم من غير تنعم وتوسع ، وما ذكره لا مزيد عليه ولكن جعل ما أنفق قرضا عنده فيه نظر ولا شك في أن الورع أن يجعله قرضا ، فإذا وجد حلالا تصدق بمثله . ولكن مهما لم يجب ذلك على الفقير الذي يتصدق به عليه فلا يبعد أن لا يجب عليه أيضا إذا أخذه لفقره لاسيما إذا وقع في يده من ميراث ولم يكن متعديا بغصبه وكسبه حتى يغلب الأمر عليه فيه .

مسألة : إذا كان في يده حلال وحرام أو شبهة وليس يفضل الكل عن حاجته فإذا كان له عيال فليخص نفسه بالحلال لأن الحاجة عليه أوكد في نفسه منه في عبده وعياله وأولاده الصغار والكبار من الأولاد يحرسهم من الحرام إن كان لا يفيض بهم إلى ما هو أشد منه فإن أفضى فيطعمهم بقدر الحاجة . وبالجمل كل ما يحذره في غيره فهو محذور في نفسه وزيادة وهو أنه يتناول مع العلم والعيال ربما تعذر إذا لم تعلم إذ لم تتول الأمر بنفسها فليبدأ بالحلال بنفسه ثم بمن يعول ، وإذا تردد في حق نفسه بين ما يخص قوته وكسوته وبين غيره من المؤن كأجرة الحجام والصباغ والقصار والحمال والاعطالة بالنورة والدهن وعمارة المنزل وتعمد الدابة وتسجير التتور وثمان الحطب ودهن السراج فليخص

بالحلال قوته ولباسه ، فإن ما يتعلق ببدنه - ولاغنى به عنه - هو أولى بأن يكون طيبا وإذا دار الأمر بين القوت واللباس فيحتمل أن يقال يخص القوت بالحلال لأنه يمتزج بلحمه ودمه ، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به . وأما الكسوة ففائدتها ستر عورته ودفع الحز والبرد والأبصار عن بشرته وهذا هو الأظهر عندي . وقال الحارث المحاسبى يقدم اللباس لأنه يبقى عليه مدة والطعام لا يبقى عليه لما روى أنه « لا يقبل الله صلاة من عليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم فيها درهم حرام ^(١) » ، وهذا محتمل ولكن أمثال هذا قد ورد فيمن في بطنه حرام ونبت لحمه من حرام ^(٢) فإعادة اللحم والعظم أن ينبثه من الحلال أولى ، ولذلك تقياً الصديق رضى الله عنه ما شربه مع الجهل حتى لا يثبت منه لحم يثبت ويبقى .

• فإن قيل : فإذا كان الكل منصرفاً إلى أغراضه فأى فرق بين نفسه وغيره وبين جهة وجهة ومادرك هذا الفرق ؟ قلنا : عرف ذلك بما روى أن رافع بن خديج رحمه الله مات وخلف ناضحاً وعبدًا حجاماً فمثل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنهى عن كسب الحجام فروجع مرات فنع منه فقيل : إن له أيتاماً فقال : أعلفوه الناضح ^(٣) فهذا يدل على الفرق بين ما يأكله هو أو دابته فإذا انفتح سبيل الفرق فقس عليه التفصيل الذى ذكرناه .

مسألة : الحرام الذى فى يده لو تصدق به على الفقراء فله أن يوسع عليهم وإذا أنفق على نفسه فليضيق ما قدر وما أنفق على عياله فليقتصد ، وإيكن وسطاً بين التوسيع والتضييق فيكون الأمر على ثلاث مراتب . فإن أنفق على ضيف قدم عليه وهو فقير فليوسع عليه ، وإن كان غنيا فلا يطعمه إلا إذا كان فى برية أو قدم ليلاً ولم يجد شيئاً فإنه فى ذلك الوقت فقير ، وإن كان الفقير الذى حضر ضيفاً تقياً لو علم ذلك لتوقع عنه فليعرض الطعام وليخبره جعاً بين حق الضيافة وترك الخداع فلا ينبغي أن يكرم أخاه بما يكره ، ولا ينبغي أن يقول على أنه لا يدرى فلا يضره فإن الحرام إذا حصل فى المعدة أثر فى قساوة القلب وإن لم يعرفه صاحبه ، ولذلك تقياً أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وكانا قد شربا على جهل ، وهذا وإن أفتينا بأنه حلال للفقراء أحلناه بحكم الحاجة إليه فهو كالخنزير والخمر إذا أحللتاهما بالضرورة فلا يلتحق بالطيبات .

مسألة : إذا كان الحرام أو الشبهة فى يد أبويه فليمتنع عن مؤاكلتهما فإن كانا يستخطان فلا يوافقهما على الحرام المحض بل ينهما فلا طاعة لمخلوق فى معصية الله تعالى ، فإن كان شبهة وكان امتناعه للورع فهذا قد عارضه أن الورع طلب رضاها بل هو واجب فليتلطف فى الامتناع ، فإن لم يقدر فليوافق وليقل الأكل بأن يصغر اللقمة ويطول المضغ ولا يتوسع فإن ذلك عدوان والآخ والأخت قريبان من ذلك لأن حقهما أيضاً مؤكد ، وكذلك إذا ألبسته أمه ثوباً من شبهة وكانت تسخط برده فليقبل وليلبس بين يديها وليزنع فى غيبتها وليجتهد أن لا يصلى فيه إلا عند حضورها فيصلى فيه صلاة المضطر ، وعند تعارض أسباب الورع ينبغي أن يتفقد هذه الدقائق . وقد حكى عن بشر رحمه الله أنه سلمت إليه أمه رطبة وقالت : بحق عليك أن تأكلها وكان يكرهه فأكل ثم صعد غرفة فصعدت

(١) حديث « لا يقبل صلاة من عليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم وفيها درهم حرام » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر وقد تقدم . (٢) حديث الجسد نبت من الحرام تهدم . (٣) حديث : أن رافع بن خديج مات وخلف ناضحاً وعبدًا حجاماً ... الحديث . وفيه « أعلفوه الناضح » أخرجه أحمد والطبرانى من رواية عباية بن رفاعه بن خديج : أن جده حين مات ترك جارية وناضحاً وغلاماً حجاماً ... الحديث . وليس المراد بجده رافع بن خديج فإنه بقى إلى سنة أربع وسبعين فيحتمل أن المراد جده الأعلى وهو خديج ولم أره ذكرًا فى الصحابة وفى رواية للطبرانى عن عباية بن رفاعه عن أبيه قال « مات أبى » وفى رواية له عن عباية قال « مات رفاعه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث » وهو مضطرب .

مسألة : سئل أحمد بن حنبل رحمه الله فقال له قائل : مات أبي وترك مالا وكان يعامل من تكره معاملته ، فقال : تدع من ماله بقدر ما ربح ، فقال : له دين وعليه دين ، فقال : تقضى وتقضى ، فقال : أفترى ذلك ؟ فقال : أفندعه محتسبا بدينه ؟ وما ذكره صحيح وهو يدل على أنه رأى التحريم بإخراج مقدار الحرام إذ قال : يخرج قدر الربح ، وأنه رأى أن أعيان أمواله ملك له بدلا عما بذله في المعاولات الفاسدة بطريق النقص والتقابل مهما كثر التصرف وعسر الرد ، وعقل في قضاء دينه على أنه يقين فلا يترك بسبب الشبهة .

الباب الخامس : في إدرات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم

اعلم أن من أخذ مالا من سلطان فلا بد له من النظر في ثلاثة أمور : في مدخل ذلك إلى يد السلطان من أين هو ؟ وفي صفته التي بها يستحق الأخذ . وفي المقدار الذي يأخذه هل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شركائه في الاستحقاق ؟ .

النظر الأول : في جهات الدخل للسلطان

وكل ما يحل للسلطان سوى الإحياء وما يشترك فيه الرعية قسمان :

مأخوذ من الكفار - وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر - والنقم ، وهو الذي حصل من مالهم في يده من غير قتال ، والجزية وأموال المصالحة ، وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاهدة .

والقسم الثاني : المأخوذ من المسلمين - فلا يحل منه إلا قسمان : الموارث وسائر الأمور الضائعة التي لا يتعين لها مالك ، والأوقاف التي لا تموت لها . أما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان . وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وأنواع الرشوة كلها حرام .

فإذا كتب لفقير أو غيره إدرار أو صلة أو خلعة على جهة فلا يخلو من أحوال ثمانية : فإنه إما أن يكتب له ذلك على الجزية ، أو على الموارث ، أو على الأوقاف ، أو على ملك أحياء السلطان ، أو على ملك اشتراه ، أو على عامل خراج المسلمين ، أو على بيع من جملة التجار ، أو على الخزائن .

فالأول : هو الجزية وأربعة أخماسها للمصالح وخمسها للجهات معينة . فبا يكتب على الخمس من تلك الجهات أو على الأبخاس الأربعة لما فيه مصلحة وروعى فيه الاحتياط في القدر فهو حلال ، بشرط أن لا تكون الجزية لإضرار على وجه شرعى ليس فيها زيادة على دينار أو على أربعة دنائير ، فإنه أيضا في محل الاجتهاد وللسلطان أن يفعل ما هو في محل الاجتهاد ، وبشرط أن يكون الذي يؤخذ الجزية منه مكسبا من وجه لا يعلم تحريمه فلا يكون عامل سلطان ظلما ولا يبيع خمر ولا صيبا ولا امرأة ، إذ لا جزية عليهما . فهذه أمور تراعى في كيفية ضرب الجزية ومقدارها وصفة من تصرف إليه ومقدار ما يصرف فيجب النظر في جميع ذلك .

الثاني : الموارث والأموال الضائعة فهي للمصالح والنظر أن الذي خلفه هل كان ماله كله حراما أو أكثره أو أقله وقد سبق حكمه ، فإن لم يكن حراما بقى النظر في صفة من يصرف إليه بأن يكون في الصرف إليه مصلحة ثم في المقدار المصروف .

الثالث : الأوقاف ، وكذا يجرى النظر فيها كما يجرى في الميراث مع زيادة أمر وهو شرط المواقف حتى يكون المأخوذ موافقا له في جميع شرائطه .

الرابع : ما أحياء السلطان ، وهذا لا يعتبر فيه شرط إذ له أن يعطى من ملكه ما شاء لمن شاء أى قدر شاء . وإنما النظر في أن الغالب أنه أحياء لا كراه الأجراء أو بأداء أجرتهم من حرام . فإن الإحياء يحصل بحفر القناة والأنهار وبناء الجدران وتسوية الأرض ولا يتولاه السلطان بنفسه . فإن كانوا مكرهين على الفعل لم يملكه السلطان وهو حرام وإن كانوا مستأجرين ثم قضيت أجورهم من الحرام فهذا يورث شبهة قد نهينا عليها في تعلق الكراهة بالأعواض .

الخامس : ما اشتراه السلطان في الذمة من أرض أو ثياب خلعة أو فرس أو غيره فهو ملكه وله أن يتصرف فيه ولكنه سيقضى ثمنه من حرام وذلك يوجب التحريم تارة والشبهة أخرى . وقد سبق تفصيله .

السادس : أن يكتب على عامل خراج المسلمين أو من يجمع أمواله القسمة والمصادرة وهو الحرام السحت الذي لا شبهة فيه ، وهو أكثر الإدارات في هذا الزمان إلا ما على أراضي العراق فإنها وقف عند الشافعي رحمه الله على مصالح المسلمين .

السابع : ما يكتب على يباع يعامل السلطان فإن كان لا يعامل غيره فما له كال خزانة السلطان . وإن كان يعامل غير السلاطين أكثر فما يعطيه قرض على السلطان وسيأخذ بدله من الخزانة فالخلل يتطرق إلى العوض . وقد سبق حكم الثمن الحرام .

الثامن : ما يكتب على الخزانة أو على عامل يجتمع عنده من الحلال والحرام فإن لم يعرف للسلطان دخل إلا من الحرام فهو سحت محض . وإن عرف يقينا أن الخزانة تشتمل على مال حلال ومال حرام واحتمل أن يكون ما يسلم إليه بعينه من الحلال احتمالا قريبا له وقع في النفس ، واحتمل أن يكون من الحرام وهو الأغلب لأن أغلب أموال السلاطين حرام في هذه الأعصار والحلال في أيديهم معدوم أو عزيز فقد اختلف الناس في هذا فقال قوم : كل ما لا أتيقن أنه حرام فلي أن آخذه ، وقال آخرون : لا يحل أن يؤخذ ما لم يتحقق أنه حلال فلا تحل شبهة أصلا . وكلاهما إسراف ، والاعتدال ما قدمنا ذكره وهو الحكم بأن الأغلب إذا كان حراما حرم وإن كان الأغلب حلالا وفيه يقين حرام فهو موضع توقفنا فيه كما سبق .

ولقد احتج من جئوز أخذ أموال السلاطين إذا كان فيها حرام وحلال - مهما لم يتحقق أن عين المأخوذ حرام - بما روى عن جماعة من الصحابة أنهم أدركوا أيام الأئمة الظلمة وأخذوا الأموال : منهم أبو هريرة وأبو سعيد الخدري وزيد بن ثابت وأبو أيوب الأنصاري وجابر بن عبد الله وجابر وأنس بن مالك والمسور بن مخرمة . فأخذ أبو سعيد وأبو هريرة من مروان ويزيد بن عبد الملك . وأخذ ابن عمر وابن عباس من الحجاج . وأخذ كثير من التابعين منهم كالشعبي وإبراهيم والحسن وابن أبي ليلى . وأخذ الشافعي من هرون الرشيد ألف دينار في دفعة . وأخذ مالك من الخلفاء أموالا جمة وقال على رضي الله عنه : خذ ما يعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر . وإنما ترك من ترك العطاء منهم تورعا مخافة على دينه أن يحمل على ما لا يحل . ألا ترى قول أبي ذر للأحنف بن قيس : خذ العطاء ما كان نحلة فإذا كان أثمان دينكم فدعوه ؟ وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إذا أعطينا قبلنا وإذا منعنا لم نسأل . وعن سعيد بن المسيب : أن أبا هريرة رضي الله عنه كان إذا أعطاه معاوية سكت وإن منعه وقع فيه . وعن الشعبي عن مسروق : لا يزال العطاء بأهل العطاء حتى يدخلهم النار - أي يحمله ذلك على الحرام لا أنه في نفسه حرام - وروى نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن المختار كان يبعث إليه المال فيقبله ثم يقول : لا أسأل أحدا ولا أرد مارزقي الله . وأهدى إليه ناقة فقبلها وكان يقال لها ناقة المختار ، ولكن هذا يعارضه ما روى أن ابن عمر رضي الله عنهما لم يرد هدية أحد إلا هدية المختار ، والإسناد في رده أثبت . وعن نافع أنه قال : بعث ابن معمر إلى ابن عمر بستين ألفا فقسمها على الناس ، ثم جاءه سائل فاستقرض له من بعض من أعطاه وأعطى السائل . ولما قدم الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه فقال : لا جيزك بجائزة لم أجزمها أحدا قبلك من العرب ولا أجيزها أحدا بعدك من العرب ، قال : فأعطاه أربعائة ألف درهم فأخذها . وعن حبيب

ابن أبي ثابت قال : لقد رأيت جائزة المختار لابن عمر وابن عباس فقبلاها فقيل ماهي ؟ قال : مال وكسوة . وعن الزبير بن عدى أنه قال : قال سلمان إذا كان لك صديق عامل أو تاجر يقارف الربا فدعاك إلى طعام أو نحوه وأعطاك شيئا فاقبل فإن المهنة لك وعليه الوزر . فإن ثبت هذا في المربي فالظلم في معناه . وعن جعفر عن أبيه أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا يقبلان جوائز معاوية . وقال حكيم بن جبير : مررنا على سعيد بن جبيرة وقد جعل عاملا على أسفل الفرات فأرسل إلى العشارين أطعمونا بما عندكم فارسلوا بطعام فأكل وأكلنا معه . وقال العلاء بن زهير الأزدي : أتى إبراهيم أبي - وهو عامل على حلوان - فأجازه فقبل وقال إبراهيم : لأبأس بجائزة العمال إن للعمال مؤنة ورزقا . ويدخل بيت ماله الخبيث والطيب فما أعطاك فهو من طيب ماله . فقد أخذ هؤلاء كلهم جوائز السلاطين الظلمة وكلهم طعنوا على من أطاعهم في معصية الله تعالى . وزعمت هذه الفرقة أن ما ينقل من امتناع جماعة من السلف لا يدل على التحريم بل على الورع كالخلفاء الراشدين وأبي ذر وغيرهم من الزهاد فإنهم امتنعوا من الحلال المطلق زهدا ومن الحلال الذي يخاف إفضاؤه إلى محذور ورعا وتقوى . فأقدام هؤلاء يدل على الجواز وامتناع أولئك لا يدل على التحريم . وما نقل عن سعيد بن المسيب أنه ترك عطاءه في بيت المال حتى اجتمع بضعة وثلاثين ألفا وما نقل عن الحسن من قوله لا أتوضأ من ماء صيرفي ولو ضاق وقت الصلاة لأنى لأدرى أصل ماله : كل ذلك ورع لا ينكر ، واتباعهم عليه أحسن من اتباعهم على الاتساع ولكن لا يحرم اتباعهم على الاتساع أيضا . فهذه هي شبهة من يجوز أخذ مال السلطان الظالم .

والجواب ، أن ما نقل من أخذ هؤلاء محصور قليل بالإضافة إلى ما نقل من ردهم وإنكارهم ، وإن كان يتطرق إلى امتناعهم احتمال الورع فيتطرق إلى أخذ من أخذ ثلاثة احتمالات متفاوتة في الدرجة بتفاسوتهم في الورع فإن للورع في حق السلاطين أربع درجات .

الدرجة الأولى : أن لا يأخذ من أموالهم شيئا أصلا كما فعله الورعون منهم ، وكما كان يفعل الخلفاء الراشدون حتى أن أبا بكر رضى الله عنه حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال فبلغ ستة آلاف درهم فغرمها لبيت المال ، وحتى إن عمر رضى الله عنه كان يقسم مال بيت المال يوما فدخلت ابنة له وأخذت درهما من المال فنهض عمر في طلبها حتى سقطت الملحفة من أحد منكبيه ودخلت الصبية إلى بيت أهلها تبكي وجعلت الدرهم في فيها فأدخل عمر أصبعه فأخرجه من فيها وطرحه على الحراج وقال : أيها الناس ليس لعمر ولا لآل عمر إلا ما للسلمين قريبهم وبعيدهم . وكسح أبو موسى الأشعري بيت المال فوجد درهما فرأى لعمر رضى الله عنه فأعطاه إياه فرأى عمر ذلك في يد الغلام فسأله عنه فقال أعطانيه أبو موسى فقال . يا أبا موسى ما كان في أهل المدينة بيت أهون عليك من آل عمر أردت أن لا يبقى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحد إلا طلبنا بمظلمة ، ورد الدرهم إلى بيت المال . هذا مع أن المال كان حلالا ولكن خاف أن لا يستحق هو ذلك القدر فكان يستبرئ لدينه ويقتصر على الأقل امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »^(١) ، ولقوله « ومن تركها فقد استبرأ لعرضه ودينه »^(٢) ، ولما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من التشديدات في الأموال السلطانية حتى قال صلى الله عليه وسلم حين

الباب الخامس : في إدارات السلاطين

(١) حديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » تقدم في الباب الأول من الحلال والحرام . (٢) حديث « من تركها فقد استبرأ لدينه وعرضه » متفق عليه من حديث الثمان بن بشير وقد تقدم أوله في أول الباب الثاني من الحلال والحرام . (١٨ — أحياء علوم الدين — ٢)

بعث عبادة بن الصامت إلى الصدقة ، اتق الله يا أبا الوليد لا تجئ يوم القيامة بيعين تحمله على رقبتك له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها تواج فقال يارسول الله أهكذا يكون ؟ قال نعم والذي نفسي بيده إلا من رحم الله . قال فوالذي بعثك بالحق لا أعمل على شيء أبدا ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إني لأخاف عليكم أن تشركوا بعدى إنما أخاف عليكم أن تنافسوا ^(٢) ، وإنما خاف التنافس في المال . ولذلك قال عمر رضى الله عنه في حديث طويل يذكر فيه مال بيت المال : إني لم أجد نفسى فيه إلا كالوالى مال اليتيم ؛ إن استغنيت استعفت وإن افتقرت أكلت بالمعروف . وروى أن ابنا لطاوس اقتتل كتابا عن لسانه إلى عمر بن عبدالعزيز فأعطاه ثلثائة دينار ؛ فباع طاوس ضيعة له وبعث من ثمنها إلى عمر بثلثائة دينار ، هذا مع أن السلطان ليس مثل عمر بن عبد العزيز . فهذه الدرجة العليا في الورع .

الدرجة الثانية : هو أن يأخذ مال السلطان ولكن إنما يأخذ إذا علم أن ما يأخذه من جهة حلال فاشتال يد السلطان على حرام آخر لا يضره ، وعلى هذا ينزل جميع ما نقل من الآثار أو أكثرها أو ما اختص منها با كبار الصحابة والورعين منهم مثل ابن عمر فإنه كان من المبالغين في الورع فكيف يتوسع في مال السلطان ، وقد كان من أشدهم إنكارا عليهم وأشدهم ذما لأموالهم ؟ وذلك أنهم اجتمعوا عند ابن عامر - وهو في مرضه وأشفق على نفسه من ولايته وكونه مأخوذا عند الله تعالى بها - فقالوا له : إنا نلرجو لك الخير ، حفرت الآبار وسقيت الحاج وصنعت ... وصنعت ... وابن عمر ساكت ، فقال : ماذا تقول يا ابن عمر ؟ فقال : أقول ذلك إذا طاب المكسب وزكت النفقة وستر دفتري . وفي حديث آخر أنه قال إن الخبيث لا يكفر الخبيث وإنك قد وليت البصرة ولا أحسبك إلا قد أصبت منها شرا . فقال له ابن عامر : ألا تدعولى ، فقال : ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يقبل الله صلاة بغير طهورا ولا صدقة من غلول ^(٣) ، وقد وليت البصرة فهذا قوله فيما صرفه إلى الخيرات . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال في أيام الحجاج : ما شبع من الطعام منذ انتهت الدار إلى يومى هذا وروى عن على رضى الله عنه أنه كان له سويق في إناء محتوم يشرب منه فقيل : أتفعل هذا بالعراق مع كثرة طعامه ؟ فقال : أما إني لأختمه بخلاجه ولكن أكره أن يجعل فيه ما ليس منه واكره أن يدخل بطئى غير طيب ، فهذا هو المألوف منهم وكان ابن عمر لا يعجبه شيء إلا خرج عنه فطلب منه نافع بثلاثين ألفا فقال : إني أخاف أن تقتنى دراهم ابن عامر وكان هو الطالب اذهب فأنت حر . وقال أبو سعيد الخدرى : ما من أحد إلا مالت به الدنيا إلا ابن عمر ؟ فهذا يتضح أنه لا يظن به وبمن كان في منصبه أنه أخذ مالا يدرى أنه حلال .

الدرجة الثالثة : أن يأخذ ما أخذه من السلطان ليتصدق به على الفقراء أو يفرقه على المستحقين ، فإن مالا يتعين مالكة هذا حكم الشرع فيه . فإذا كان السلطان إن لم يأخذ منه لم يفرقه واستعان به على ظم فقد نقول أخذه منه وتفرقه أولى من تركه في يده ، وهذا قد رآه بعض العلماء وسيأتى وجهه . وعلى هذا ينزل ما أخذه أكثرهم ولذلك قال ابن المبارك : إن الذين يأخذون الجوائز اليوم ويحتجون بابن عمر وعائشة ما يقتدون بهما ؟ لأن ابن عمر فرق ما أخذ حتى استقرض في مجلسه بعد تفرقه ستين ألفا ، وعائشة فعلت مثل ذلك ، وجابر بن زيد جاءه مال فتصدق به وقال : رأيت أن أخذه منهم وأتصدق أحب إلى من أن أدعها في أيديهم ، وهكذا فعل الشافعى رحمه الله بما قبله

(١) حديث « قل لعبادة بن الصامت حين بعثه إلى الصدقة اتق الله يا أبا الوليد لا تجئ يوم القيامة بيعين تحمله على رقبتك . . الحديث » أخرجه الشافعى في المسند من حديث طاوس حرسلا ولأبي يعلى في المعجم من حديث ابن عمر مختصراً أنه قاله لعمد بن عبادة وإسناده صحيح . (٢) حديث « إني لأخاف عليكم أن تشركوا بعدى إنما أخاف عليكم أن تنافسوا » متفق عليه من حديث عتبة بن عامر . (٣) حديث « لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر .

من هرون الرشيد فإنه فرقه على قرب حتى لم يمسك لنفسه حبة واحدة .

الدرجة الرابعة : أن لا يتحقق أنه حلال ولا يفرق بل يستبقى ولكن يأخذ من سلطان أكثر ماله حلال ، وهكذا كان الخلفاء في زمان الصحابة رضی الله عنهم ، والتابعين بعد الخلفاء الراشدين ولم يكن أكثر مالهم حراماً . ويدل عليه تعليل على رضی الله عنه حيث قال : فإن ما يأخذه من الحلال أكثر . فهذا مما قد جوزته جماعة من العلماء تعويلاً على الأكثر . ونحن إنما توقفنا فيه في حق آحاد الناس ، ومال السلطان أشبه بالخروج عن الحصر فلا يبعد أن يؤدي اجتهاد مجتهد إلى جواز أخذ ما لم يعلم أنه حرام اعتماداً على الأغلب ، وإنما منعه إذا كان الأكثر حراماً فإذا فهمت هذه الدرجات تحققت أن إدارات الظلمة في زماننا لا تجرى مجرى ذلك وأنها تفرقه من وجهين قاطعين أحدهما : أن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها ، وكيف لا والحلال هو الصدقات والنفى والغنيمة لا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ؟ ولم يبق إلا الجزية وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط ، ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصب لإلهم من الخراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشرين .

والوجه الثاني : أن الظلمة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم ومتشوفين إلى استئالة قلوب الصحابة والتابعين وحرصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم ، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم ولا يغشون مجالسهم ولا يكثررون جمعهم ولا يحبون بقايم بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم وينكرون المنكرات منهم عليهم ، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ولم يكن يأخذهم بأس ، فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكبر بهم والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم . فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً ، وبالتردد في الخدمة ثانياً ، وبالثناء والدعاء ثالثاً ، بالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً ، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً ، وبإظهار الحب والمواودة والمناصرة له على أعدائه سادساً ، وبالستر على ظلمه ومقايحه ومساوى أعماله سابعا ، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً ؛ فإذا لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه ؟ فمن استجراً على أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدادين . ففي أخذ الأموال منهم حاجة إلى مخالطتهم ومراعاتهم وخدمة عملهم واحتمال الذل منهم والثناء عليهم والتردد إلى أبوابهم وكل ذلك معصية - على ما سنبين في الباب الذي يلي هذا - فإذا قد تبين بما تقدم مداخل أموالهم وما يحل منها وما لا يحل . فلو تصور أن يأخذ الإنسان منها ما يحل بقدر استحقاقه وهو جالس في بيته يساق إليه ذلك - لا يحتاج فيه إلى تفقد عامل وخدمته ولا إلى الثناء عليهم وتزكيتهم ولا إلى مساعدتهم - فلا يحرم الأخذ ولكن يكره لمعان سننبيه عليها في الباب الذي يلي هذا .

النظر الثاني من هذا الباب : في قدر المأخوذ وصفة الأخذ

ولنفرض المال من أموال المصالح كأربعة أخماس النية والمواريث فإن ما عداها مما قد تعين مستحقه إن كان من وقف أو صدقة أو خمس فيء أو خمس غنيمة ، وما كان من ملك السلطان بما أحياء أو اشتراه فله أن يعطى

ما شاء لمن شاء . وإنما النظر في الأموال الضائعة ومال المصالح فلا يجوز صرفه إلا إلى من فيه مصلحة عامة أو هو محتاج إليه عاجز عن الكسب ، فأما الغنى الذى لا مصلحة فيه فلا يجوز صرف مال بيت المال إليه ، هذا هو الصحيح وإن كان العلماء قد اختلفوا فيه . وفى كلام عمر رضى الله عنه ما يدل على أن لكل مسلم حقا فى بيت المال لكونه مسلما مكثرا جمع الإسلام ولكنه مع هذا ما كان يقسم المال على المسلمين كافة بل على مخصوصين بصفات . فإذا ثبت هذا فكل من يتولى أمرا يقوم به تتعدى مصلحته إلى المسلمين ولو اشتغل بالكسب لتعطل عليه ما هو فيه ، فله فى بيت المال حق الكفاية . ويدخل فيه العلماء كلهم ؛ أعنى العلوم التى تتعلق بمصالح الدين من علم الفقه والحديث والتفسير والقراءة حتى يدخل فيه المعلمون والمؤذنون . وطلبة هذه العلوم أيضا يدخلون فيه ، فإنهم إن لم يكفوا لم يتمكنوا من الطلب . ويدخل فيه العمال ، وهم الذين تربط مصالح الدنيا بأعمالهم وهم الاجناد المرتزقة الذين يحرسون المملكة بالسيوف عن أهل العداوة وأهل البغى وأعداء الإسلام . ويدخل فيه الكتاب والحساب والكلاء وكل من يحتاج إليه فى ترتيب ديوان الخراج ، أعنى العمال على الأموال الحلال لأعلى الحرام ، فإن هذا المال للبصالح . والمصلحة إما أن تتعلق بالدين أو بالدنيا فبالعلماء حراسة الدين وبالأجناد حراسة الدنيا . والدين والملك توأمان فلا يستغنى أحدهما عن الآخر . والطبيب وإن كان لا يرتبط بعلمه أمر ديني ولكن يرتبط به صحة الجسد والدين يتبعه ؛ فيجوز أن يكون له ولمن يجرى مجراه فى العلوم المحتاج إليها فى مصلحة الأبدان أو مصلحة البلاد إدارار من هذه الأموال ليتفرغوا لمعالجة المسلمين ، أعنى من يعالج منهم بغير أجر ، وليس يشترط فى هؤلاء الحاجة بل يجوز أن يعطوا مع الغنى . فإن الخلفاء الراشدين كانوا يعطون المهاجرين والأنصار ولم يرفوا بالحاجة . وليس يتقدر أيضا بمقدار بل هو إلى اجتهاد الامام وله أن يوسع ويغنى وله أن يقتصر على الكفاية على ما يقتضيه الحال وسعة المال . فقد أخذ الحسن عليه السلام من معاوية فى دفعة واحدة أربعمئة ألف درهم . وقد كان عمر رضى الله عنه يعطى لجماعة اثنى عشر ألف درهم نقرة فى السنة . وأثبت عائشة رضى الله عنها فى هذه الجريدة وجماعة عشرة آلاف وجماعة ستة آلاف وهكذا . فهذا مال هؤلاء فيوزع عليهم حتى لا يبق منه شيء . فإن خص واحدا منهم بمال كثير فلا بأس . وكذلك للسلطان أن يخص من هذا المال ذوى الخصائص بالخلع والجوائز فقد كان يفعل ذلك فى السلف ولكن ينبغى أن يلتفت فيه إلى المصلحة . ومهما خص عالم أو شجاع بصلة كان فيه بعث للناس وتحريض على الاشتغال والتشبه به فهذه فائدة الخلع والصلات وضروب التخصيصات وكل ذلك منوط باجتهاد السلطان . وإنما النظر فى السلاطين الظلمة فى شيئين (أحدهما) أن السلطان الظالم عليه أن يكف عن ولايته ، وهو إما معزول أو واجب العزل فكيف يجوز أن يأخذ من يده وهو على التحقيق ليس بسلطان ؟ (والثاني) أنه ليس يعمم بماله جميع المستحقين فكيف يجوز للأحاد أن يأخذوا ؟ أفيجوز لهم الآخذ بقدر حصصهم أم لا يجوز أصلا ؟ أم يجوز أن يأخذ كل واحد ما أعطى ؟

أما الأول : فالذى نراه أنه لا يمنع أخذ الحق ، لأن السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان فى الاستبدال به فتنة نائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له كما تجب طاعة الأمراء ، إذ قد ورد فى الأمر بطاعة الأمراء^(١) والمنع من سل اليد عن مساعدتهم^(٢) أوامر وزواجر . فالذى نراه : أن الخلافة منعقدة للتكفل

(١) حديث « الأمر بطاعة الأمراء » أخرجه البخارى من حديث أنس « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » ولمسلم من حديث أبي هريرة « عليك بالطاعة فى منشطك ومكرهك ... الحديث » وله من حديث أبي ذر « أوصاني النبي صلى الله عليه وسلم أن أسمع وأطيع ولولم يدع الأطراف » . (٢) حديث « المنع من سل اليد عن مساعدتهم » =

بها من بنى العباس رضى الله عنه ، وأن الولاية نافذة للسلطين في أقطار البلاد والمبايعين للخليفة - وقد ذكرنا في كتاب المستظهرى المستنبط من كتاب كشف الأسرار وهتك الأسرار تأليف القاضي أبى الطيب في الرد على أصناف الروافض من الباطنية ما يشير إلى وجه المصلحة فيه - والقول الوجيز أنا نراعى الصفات والشروط في السلطين تشوفا إلى مزايها المصالح . ولو قضينا بطلان الولايات الآن لبطلت المصالح رأسا فكيف بقوت رأس المال في طلب الربح ؟ بل الولاية الآن لا تتبع إلا الشوكة . فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة . ومن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة في أصل الخطبة والسكة فهو سلطان نافذ الحكم والقضاء في أقطار الأرض ولاية نافذة الأحكام . وتحقيق هذا قد ذكرناه في أحكام الإمامة من كتاب الاقتصاد في الاعتقاد فلسنا نطول الآن به .

وأما الإشكال الآخر وهو أن السلطان إذا لم يعمم بالعطاء كل مستحق فهل يجوز الواحد أن يأخذ منه ؟ فهذا مما اختلف العلماء فيه على أربع مراتب فعلا بعضهم وقال : كل ما يأخذه فالمسلمون كلهم فيه شركاء ولا يدرى أن حصته منه ذائق أو حبة فليترك الكل وقال قوم : له أن يأخذ قدر قوت يومه فقط ، فإن هذا القدر يستحقه حاجته على المسلمين . وقال قوم : له قوت سنة ، فإن أخذ الكفاية كل يوم عسير وهو ذو حق في هذا المال فكيف يتركه ؟ وقال قوم : إنه يأخذ ما يعطى والمظلوم هم الباقون . وهذا هو القياس لأن المال ليس مشتركا بين المسلمين كالغنيمة بين الغانمين ولا كالميراث بين الورثة لأن ذلك صار ملكا لهم . وهذا لو لم يتفق قسمه حتى مات هؤلاء لم يجب التوزيع على ورثتهم بحكم الميراث . بل هذا الحق غير متعين وإنما يتعين بالقبض . بل هو كالصدقات ومهما أعطى الفقراء حصتهم من الصدقات وقع ذلك ملكا لهم ولم يمتنع بظلم المالك بقية الأصناف بمنع حقهم ، هذا إذا لم يصرف إليه كل المال بل صرف إليه من المال ما لو صرف إليه بطريق الإيثار والتفضيل مع تسميم الآخرين لجاز له أن يأخذه والتفضيل جائز في العطاء . سوى أبو بكر رضى الله عنه فراجع عمر رضى الله عنه فقال : إنما فضله عند الله وإنما الدنيا بلاغ . وفضل عمر رضى الله عنه في زمانه فأعطى عائشة اثني عشر ألفا وزينب عشرة آلاف وجويرية ستة آلاف وكذا صفية . وأقطع عمر لعلى خاصة رضى الله عنهما . وأقطع عثمان أيضا من السواد خمس جنات ، وآثر عثمان عليا رضى الله عنهما بها فقبل ذلك منه ولم ينكر . وكل ذلك جائز في محل الاجتهاد وهو من المجتهدات التي أقول فيها : إن كل مجتهد مصيب ، وهى كل مسألة لا نص على عينها ولا على مسألة تقرب منها فتكون في معناها بقياس جلى كهذه المسألة ومسألة حد الشرب فإنهم جلدوا أربعين وثمانين والكل سنة وحق وأن كل واحد من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما مصيب باتفاق الصحابة رضى الله عنهم ، إذ المفضل مارد في زمان عمر شيئا إلى الفاضل مما قد كان أخذه في زمان أبى بكر ، ولا الفاضل امتنع من قبول الفضل في زمان عمر ، واشترك في ذلك كل الصحابة واعتقدوا أن كل واحد من الرايين حق . فلا يؤخذ هذا المجلس دستورا للخلافات التي يصوب فيها كل مجتهد . فأما كل مسألة شذ عن مجتهد فيها نص أو قياس جلى - بغفلة أو سوء رأى وكان في القوة بحيث ينقض حكم المجتهد - فلا نقول فيها إن كل واحد مصيب بل المصيب من أصاب النص أو ما في معنى النص . وقد تحصل من مجموع هذا أن من وجد من أهل الخصوص الموصوفين بصفة تتعلق بها مصالح الدين أو الدنيا وأخذ من السلطان خلعة أو إدراة على التركات أو الجزية لم يصرف فاسقا بمجرد أخذه ، وإنما يفسق بخدمته لهم ومعانته لإيائهم ودخوله

= أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس « ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية » ولسلم من حديث أبى هريرة « من خرج من الساعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية » وله من حديث ابن عمر « من خلع يدا من طاعة لى الله يوم القيامة ولا حجة له » .

عليهم وثأته وإطرائه لهم إلى غير ذلك من لوازم لا يسلم المال غالبا إلا بها كما سنبينه .

الباب السادس : فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم

وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والاكرام لهم

اعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال (الحالة الأولى) وهي شرها أن تدخل عليهم (والثانية) وهي دونها أن يدخلوا عليك (والثالثة) وهي الأسلم أن تعتزل عنهم فلا تراه ولا يرونك .

أما الحالة الأولى : وهي الدخول عليهم فهو مذموم جدا في الشرع وفيه تغليظات وتشديدات تواردت بها الأخبار والآثار ، فنتقلها لتعرف ذم الشرع له ، ثم نتعرض لما يحرم منه وما يباح وما يكره على ما تقتضيه الفتوى في ظاهر العلم .

أما الأخبار : فإنه لما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة قال : « فن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم »^(١) ، وذلك لأن من اعتزلهم سلم من إهمهم ولكن لم يسلم من عذاب يعمه معهم إن نزل بهم لتركه المنازعة والمنازعة . وقال صلى الله عليه وسلم : « سيكون من بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد على الخوض »^(٢) ، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم : « أبغض القراء إلى الله تعالى الذين يزورون الأمراء »^(٣) ، وفي الخبر : « خير الأمراء الذين يأنون العلماء وشر العلماء الذين يأتون الأمراء » ، وفي الخبر : « العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فأحذروهم واعتزلوهم »^(٤) ، رواه أنس رضي الله عنه .

وأما الآثار : فقد قال حذيفة : إياكم ومرافقة الفتن ! قيل : وما هي قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدق بالكذب ويقول ما ليس فيه . وقال أبو ذر لسلمة : يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وقال سفيان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك . وقال الأوزاعي : ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا . وقال سمنون : ما أسمع بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال عند الأمير . وكنت أسمع أنه يقال : إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك ، إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك مع ما أواجههم به من الغلظة والمخالفة لهواهم . وقال عبادة بن الصامت : حب القارئ الناسك الأمراء نفاق وحبه الأغنياء رياء . وقال أبو ذر : من كثر سواد قوم فهو منهم أي من كثر سواد الظلمة . وقال ابن مسعود رضي الله عنه إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولا دين له ، قيل له : ولم ؟ قال لأنه يرضيه بسخط الله . واستعمل عمر بن

الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين

- (١) حديث « فن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند ضعيف وقال « ومن خالطهم هلك » . (٢) حديث « سيكون بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد على الخوض » أخرجه النسائي والترمذي وصححه الحاكم من حديث كعب ابن عجرة . (٣) حديث أبي هريرة « أبغض القراء إلى الله عز وجل الذين يأتون الأمراء » تقدم في العلم . (٤) حديث أنس « العلماء أمناء الرسل على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان ... الحديث » أخرجه العقيلي في الضعفاء في ترجمة حسن الأبري وقال حديثه غير محفوظ تقدم في العلم .

عبد العزيز رجلا فقيل : كان عاملا للحجاج ، فعزله ، فقال الرجل : إنما عملت له شيء يسير ، فقال له عمر : حسبك بصحبته يوما أو بعض يوم شؤما وشرا . وقال الفضيل : ما زاد رجل من ذي سلطان قربا إلا زاد من الله بعدا . وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ويقول إن في هذا لغنى عن هؤلاء السلاطين . وقال وهيب : هؤلاء الذين يدخلون على الملوك لهم أضر على الأمة من المقامرين . وقال محمد بن سلمة : الذباب على العذرة أحسن من قارىء على باب هؤلاء . ولما خالط الزهري السلطان كتب أخ له في الدين إليه : عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك ، أصبحت شيخا كبيرا قد أفلتتكم نعم الله لما فهمك من كتابه وعليك من سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله تعالى (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) واعلم أن أيسر ما ارتكبت واخف ما احتملت أنك آنت وحشة الظالم وسهلت سبيل البغي بدتوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين أدناك ، اتخذوك قطبا تدور عليك رحي ظلمهم وجسرا يعبرون عليك إلى بلادهم وسلا يصعدون فيه إلى ضلالهم ويدخلون بك الشك على العلماء ، ويصادون بك قلوب الجهلاء ، فما أيسر ما عمروا في جنب ما خربوا عليك ، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك ، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾ الآية وإنك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل فداو دينك فقد دخله سقم وهي رادك فقد حضر سفر بعيد ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ والسلام

فهذه الأخبار والآثار تدل على ما في مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد ولكن نفصل ذلك تفصيلا فقهيا تميز فيه المحذور عن المكروه والمباح . فنقول : الداخل على السلطان متعرض لأن يعصى الله تعالى إما بفعله أو بسكوته وإما بقوله وإما باعتقاده فلا ينفعك عن أحد هذه الأمور .

أما الفعل : فالدخل عليهم في غالب الأحوال يكون إلى دور مغضوبة وتخطيها والدخول فيها بغير إذن الملاك حرام ؛ ولا يترتك قول القائل : إن ذلك مما يتسامح به الناس كتمرة أو فتات خبز ذلك صحيح في غير المغضوب ، أما المغضوب فلا . لأنه إن قيل : إن كل جلسة خفيفة لا تنقص الملك فهي في محل التسامح ؛ وكذلك الاجتياز فيجوز هذا في كل واحد فيجوز أيضا في المجموع والغضب إنما تم بفعل الجميع ، وإنما يتسامح به إذا انفرد إذ لو علم المالك به ربما لم يكرهه ، فأما إذا كان ذلك طريقا إلى الاستغراق بالاشتراك فحكم التحريم ينسحب على الكل ، فلا يجوز أن يؤخذ ملك الرجل طريقا اعتادا على أن كل واحد من المازين إنما يخطو خطوة لا تنقص الملك ، لأن المجموع مفتوت للملك وهو كضربة خفيفة في التعليم تباح ولكن بشرط الانفراد ، فلو اجتمع جماعة بضربات توجب القتل وجب القصاص على الجميع مع أن كل واحدة من الضربات لو انفردت لكانت لا توجب قصاصا . فإن فرض كون الظالم في موضع غير مغضوب كالموات مثلا فإن كان تحت خيمة أو مظلة من ماله فهو حرام ، والدخول إليه غير جائز لأنه انتفاع بالحرام واستغلال به . فإن فرض كل ذلك حلالا فلا يعصى بالدخول من حيث أنه دخول ولا بقوله : السلام عليكم ، ولكن إن سجد أو ركع أو مثل قاءا في سلامه وخدمته كان مكرما للظالم بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه والتواضع للظالم معصية . بل من تواضع لغنى ليس يظالم لأجل غناه - لالمعنى آخر اقتضى التواضع - نقص ثلثا دينه فكيف إذا تواضع للظالم ؟ فلا يباح إلا مجرد السلام . فأما تقبيل اليد والانحناء في الخدمة فهو معصية إلا عند الخوف ، أو الإمام عادل أو لعالم أو لمن يستحق ذلك بامر ديني . قبل

أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه يد على كثر من الله وجهه لما أن لقيه بالشام فلم ينكر عليه . وقد بالغ بعض السلف حتى امتنع عن رد جوابهم في السلام والإعراض عنهم استحقاقا لهم وعذ ذلك من محاسن القربات . فأما السكوت عن رد الجواب ففيه نظر ، لأن ذلك واجب فلا ينبغي أن يسقط بالظلم . فإن ترك الداخل جميع ذلك واقتصر على السلام فلا يخلو من الجلوس على بساطهم وإذا كان أغلب أموالهم حراما فلا يجوز الجلوس على فرشهم ؛ هذا من حيث الفعل .

فأما السكوت : فهو أنه سبى في مجلسهم من الفرش الحرير وأواني الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ما هو حرام . وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك في تلك السيئة . بل يسمع من كلامهم ما هو خفى وكذب وشتم وإيذاء والسكوت على جميع لك حرام . بل يراهم لابسين الثياب الحرام واكئين الطعام الحرام وجميع ما في أيديهم حرام والسكوت على ذلك غير جائز . فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفعله .

فإن قلت : إنه يخاف على نفسه فهو معذور في السكوت ؟ فهذا حق ولكنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر ، فإنه لو لم يدخل ولم يشاهد لم يتوجه عليه الخطاب بالحسبة حتى يسقط عنه العذر . وعند هذا أقول من علم فسادا في موضع وعلم أنه لا يقدر على إزالته فلا يجوز له أن يحضر ليجرى ذلك بين يديه وهو يشاهده ويسكت ، بل ينبغي أن يحتزم عن مشاهدته .

وأما القول : فهو أن يدعو للظالم أو يثنى عليه أو يصدق فيه يقول من باطل بصريح قوله أو بتحريك رأسه أو باستبشار في وجهه ، أو يظهر له الحب والموالة والاشتياق إلى لقائه والحرص على طول عمره وبقائه ، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام بل يتكلم ولا يمدو كلامه هذه الأقسام .

أما الدعاء له : فلا يحل إلا أن يقول : أصلحك الله أو وفقك الله للخيرات أو طول الله عمرك في طاعته أو ما يجري هذا المجرى . فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة مع الخطاب بالمولى وما في معناه فغير جائز قال صلى الله عليه وسلم « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » (١) ، فإن جاوز الدعاء إلى الثناء فسيذكر ما ليس فيه فيكون به كاذبا ومنافقا ومكرما لظالم ، وهذه ثلاث معاص . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق » (٢) ، وفي خبر آخر « من أكرم فاسقا فقد أعان على هدم الإسلام » (٣) ، فإن جاوز ذلك إلى التصديق له فيما يقول ، والتزكية والثناء على ما يعمل : كان عاصيا بالتصديق والإعانة ؛ فإن التزكية والثناء إعانة على المعصية وتحريك للرغبة فيه كما أن التكذيب والمذمة والتقبيح زجر عنه وتضعيف لدواعيه . والإعانة على المعصية معصية ولو بشرط كلية . ولقد سئل سفيان الثوري رضى الله عنه عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا ، دعه حتى يموت فإن ذلك إعانة له . وقال غيره يسقى إلى أن تثوب إليه نفسه ثم يعرض عنه . فإن جاوز ذلك إلى إظهار الحب والشوق إلى لقائه وطول بقاءه : فإن كان كاذبا عصي معصية الكذب والنفاق ، وإن كان صادقا عصي بحبه بقاء الظالم وحقه أن يبغضه في الله ويمقتة . فالبغض في الله واجب ، ومحبة المعصية والراضى بها عاص . ومن أحب ظالما فإن أحبه لظلمه فهو عاص لمحبهته وإن أحبه لسبب آخر فهو عاص من حيث إنه لم يبغضه وكان الواجب عليه أن يبغضه . وإن اجتمع في شخص خير وشر وجب أن يحب لأجل ذلك الخير ويبغض لأجل ذلك الشر . وسيأتي

(١) حديث « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » تقدم . (٢) حديث « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق » تقدم . (٣) حديث « من أكرم فاسقا فقد أعان على هدم الإسلام » تقدم أيضا .

في كتاب الإخوة والمتحابين في الله وجه الجمع بين البغض والحب . فإن سلم من ذلك كله وهيئات ! فلا يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه فإنه ينظر إلى توسعه في النعمة ويزدري نعم الله عليه ويكون مقتحماً نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « يامعشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل الدنيا فإنها مسخطة للرزق ^(١) » ، وهذا مع ما فيه من اقتداء غيره به في الدخول ومن تكثيره سواد الظلمة بنفسه وتجميله لإياهم إن كان ممن يتجمل به ، وكل ذلك إما مكروهات أو محظورات . دعى سعيد بن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان فقال : لأبابع اثنين ما يختلف الليل والنهار فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن بيعتين ^(٢) فقال : ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر ، فقال : لا والله لا يقتدى بي أحد من الناس ، فجلد مائة وألبس المسوح .

ولا يجوز الدخول عليهم إلا بعذر (أحدهما) أن يكون من جهتهم أمر إلزام لا أمر إكرام وعلم أنه لو امتنع أذى أو فسد عليهم طاعة الرعية واضطرب عليهم أمر السياسة فيجب عليه الإجابة لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لا تضطرب الولاية . (والثاني) أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواء أو عن نفسه إما بطريق الحسبة أو بطريق التظلم ، فذلك رخصة بشرط أن لا يكذب ولا يئس ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً فهذا حكم الدخول . الحالة الثانية : أن يدخل عليك السلطان الظالم زائراً لجواب السلام لا بد منه . وأما القيام والإكرام له فلا يحرم مقابلة له على إكرامه . فإنه يكرام العلم والدين مستحق للإحاد كما أنه بالظلم مستحق للإبعاد . فالإكرام بالإكرام والجواب بالسلام . ولكن الأولى أن لا يقوم إن كان معه في خلوة ليظهر له بذلك عز الدين وحقارة الظلم ، ويظهر غضبه للدين وإعراضه عن الله فأعرض عن الله تعالى عنه . وإن كان النازل عليه في جمع فراءة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا مهم فلا بأس بالقيام على هذه النية . وإن علم أن ذلك لا يورث فساداً في الرعية ولا يناله أذى من غضبه فترك الإكرام بالقيام أولى . ثم يجب عليه بعد أن وقع اللقاء أن ينصحه فإن كان يقارف ما لا يعرف تحريمه وهو يتوقع أن يتركه إذا عرف فليعرفه فذلك واجب . وأما ذكر تحريم ما يعلم تحريمه من السرف والظلم فلا فائدة فيه بل عليه أن يخوفه فيما يرتكبه من المعاصي مهما ظن أن التخويف يؤثر فيه . وعليه أن يرشده إلى طريق المصلحة إن كان يعرف طريقاً على وفق الشرع بحيث يحصل بها غرض الظالم من غير معصية ليصده بذلك عن الوصول إلى غرضه بالظلم . فإذا يجب عليه التعريف في محل جهله والتخويف فيما هو مستجرب عليه والإرشاد إلى ما هو غافل عنه مما يغنيه عن الظلم ، فهذه ثلاثة أمور تلزمه إذا توقع للكلام فيه أثراً ، وذلك أيضاً لازم على كل من اتفق له دخول على السلطان بعذر أو بغير عذر . وعن محمد بن صالح قال : كنت عند حماد بن سلة وإذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس عليه ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه عليه ومطهرة يتوضأ منها ؟ فبينما أنا عنده إذ دق داق الباب فإذا هو محمد بن سليمان فأذن له فدخل وجلس بين يديه ثم قال له : مالي إذا رأيتك امتلات منك رعباً ؟ قال حماد : لأنه قال عليه السلام « إن العالم إذا أراد بعلبه وجه الله هابه كل شيء . وإن أراد أن يكتزبه الكنوز هاب من كل شيء » ^(٣) ، ثم عرض عليه أربعين ألف درهم وقال : تأخذها وتستعين بها قال : ارددها على من ظلمتها ،

(١) حديث « يامعشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل الدنيا فإنها مسخطة للرزق » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن الفضل أفلوا الدخول على الأغنياء فإنه أجدر أن لا تردوا نعم الله عز وجل » وقال صحيح الإسناد . (٢) حديث « دعى ابن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك فقال : لأبابع اثنين ما يختلف الليل والنهار فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن بيعتين » أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناد صحيح من رواية يحيى بن سعيد . (٣) حديث حماد بن سلة مرفوعاً « إذا أراد بعلبه وجه الله هابه كل شيء وإذا أراد أن يكتزبه الكنوز هاب من كل شيء » وهذا معضل وروى أبو الصيغ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث واثلة بن الأسقع « من خاف الله خوف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله خوف الله من كل شيء » والمقبول في الضعفاء نحوه من حديث أبي هريرة وكلامه منكر (١٩ - إحياء علوم الدين - ٢)

قال : والله ما أعطيتك إلا ما ورثته ، قال : لا حاجة لي بها : فتأخذها فتقسمها ، قال : لعل إن عدلت في قسمتها أخاف أن يقول بعض من لم يرزق منها إنه لم يعدل في قسمتها فيأثم فازوها عني .

الحالة الثالثة : أن يعتزلم فلا يراهم ولا يرونه وهو الواجب إذ لا سلامة إلا فيه ؛ فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ولا يجب بقاءهم ولا يثنى عليهم ولا يستخبر عن أحوالهم ولا يتقرب إلى المتصلين بهم ولا يتأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم ؛ وذلك إذا خطر بباله أمرهم ، وإن غفل عنهم فهو الأحسن . وإذا خطرياله تتمهم فليذكر ما قاله حاتم الأصم : إنما بيني وبين الملوك يوم واحد فأما أمس فلا يجدون لذته وإني وإياهم في غد لعل وجل وإنما هو اليوم وما عسى أن يكون في اليوم ، وما قاله أبو الدرداء إذ قال : أهل الأموال بأكلون ونأكل ويشربون ونشرب ويلبسون ونلبس ولهم فضول أموال ينظرون إليها وتنظر معهم إليها وعليهم حسابها ونحن منها براء . وكل من أحاط عليه بظلم ظالم ومعصية عاص فينبغي أن يحط ذلك من درجته في قلبه . فهذا واجب عليه لأن من صدر منه ما يكره نقص ذلك من رتبته في القلب لا محالة . والمعصية ينبغي أن تكره فإنه إما أن يغفل عنها أو يرضى بها أو يكره ولا غفلة مع العلم ولا وجه للرضا فلا بد من الكراهة ، فليكن جناية كل أحد على حق الله كجنايته على حقه .

« فإن قلت : الكراهة لا تدخل تحت الاختيار فكيف تجب ؟ قلنا : ليس كذلك فإن المحب يكره بضرورة الطبع ما هو مكروه عند محبوه ومخالف له فإن من لا يكره معصية الله لا يجب الله وإنما لا يجب الله من لا يعرفه والمعرفة واجبة والمحبة لله واجبة . وإذا أحبه كره ما كرهه وأحب ما أحبه وسيأتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة والرضا .

« فإن قلت : فقد كان علماء السلف يدخلون على السلاطين ؟ فأقول : نعم تعلم الدخول منهم ثم ادخل ؛ كما حكى أن هشام بن عبد الملك قدم حاجا إلى مكة فلما دخلها قال اثنتوني برجل من الصحابة فقيل : يا أمير المؤمنين قد تفانوا فقال : من التابعين ، فأتى بطاوس البجلي فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ولكن قال : السلام عليك يا هشام ، ولم يكنه وجلس بإزائه وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضبا شديدا حتى هم بقتله ؛ فقيل له : أنت في حرم الله وحرم رسوله ولا يمكن ذلك ، فقال : يا طاوس ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟ فازداد غضبا وغیظا ؛ قال : خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تقبل يدي ولم تسلم على بإمرة المؤمنين ولم تكنني وجلست بإزائي بغير إذني وقلت : كيف أنت يا هشام ؟ قال : أما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ولا يغضب علي ، وأما قولك لم تقبل يدي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة ، وأما قولك لم تسلم على بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب ، وأما قولك لم تكنني فإن الله تعالى سمى أنبياءه وأوليائه فقال يا يحيى يا عيسى ، وكنى أعداءه فقال (تبت يدا أبي لهب) وأما قولك جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال له هشام : عظمي ، فقال سمعت من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقول : إن في جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبعال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته . ثم قام وهرب . وعن سفیان الثوري رضي الله عنه قال : أدخلت على أبي جعفر المنصور بمنى فقال لي : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت له : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلما وجورا . قال فطأ رأسه ثم رفعه فقال : ارفع إلينا

حاجتك ، فقلت : إنما أنزلت هذه المنزلة بسيف المهاجرين والأبطال وأبناؤهم يموتون جوعاً فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأ رأسه ثم رفعه فقال : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت : حج عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال لخازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر درهماً ، وأرى ههنا أموالاً لا تطيق الجمال حملها ، وخرج فهكذا كانوا يدخلون على السلاطين إذا ألزموا وكانوا يغزرون بأرواحهم للانتقام لله من ظلمهم . ودخل ابن أبي شيلة على عبد الملك بن مروان فقال له : تسلم ، فقال له : إن الناس لا ينجون في القيامة من غصصها ومراراتها ومعينة الردى فيها إلا من أَرْضَى الله بسخط نفسه ؛ فبكى عبد الملك وقال : لأجعلن هذه الكلمة مثلاً نصب عيني ما عشت . ولما استعمل عثمان بن عفان رضى الله عنه عبد الله بن عامر أتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبطأ عنه أبو ذر - وكان له صديقاً - فمات به ؛ فقال أبو ذر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عنه ^(١) ، ودخل مالك بن دينار على أمير البصرة فقال : أيها الأمير قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول ما أحق من سلطان وما أجهل من عصاة ؛ ومن أعز من اعتزى ؟ أيها الراعى السوء دفعت إليك غنماً سماناً صحاحاً فأكلت اللحم وابست الصوف وتركها عظماً تتقعقع ، فقال له والى البصرة : أندرى ما الذى يجرئك علينا ويحببنا عنك ؟ قال لا ، قال : قلة الطمع فبنا وترك الإمساك لما فى أيدينا . وكان عمر بن عبد العزيز واقفاً مع سليمان بن عبد الملك ؛ فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره على مقدمة الرجل ، فقال له عمر : هذا صوت رحمة فكيف إذا سمعت صوت عذابه ؟ ثم نظر سليمان إلى الناس فقال : ما أكثر الناس ، فقال عمر : خصاؤك يا أمير المؤمنين فقال له سليمان : ابتلاك الله بهم . وحكى أن سليمان بن عبد الملك قدم المدينة وهو يريد مكة فأرسل إلى أبي حازم فدعاه فلما دخل عليه قال له سليمان : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكبرتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب فقال : يا أبا حازم كيف القدوم على الله ؟ قال يا أمير المؤمنين أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله وأما المسىء فكالآبق يقدم على مولاه ، فبكى سليمان وقال : ليتنا شعرى ما لى عند الله ؟ قال أبو حازم اعرض نفسك على كتاب الله تعالى حيث قال ﴿ إن الأبرار لنى نعيم وإن الفجار لنى جحيم ﴾ قال : فأين رحمة الله قال : قريب من المحسنين ثم قال سليمان : يا أبا حازم أى عباد الله أكرم ؟ قال : أهل البر والتقوى قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم قال : فأى الكلام أسمع ؟ قال قول الحق عند من تخاف وترجوا قال : فأى المؤمنين أكيس ؟ قال : رجل عمل بطاعة الله ودعا الناس إليها ، قال : فأى المؤمنين أخسر ؟ قال : رجل خطا فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه غيره ، قال سليمان : ما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : أو تعفينى ؟ قال : لا بد فإنها نصيحة تلقىها إلى ، قال : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقدارتحلوا ، فلو شعرت بما قالوا وما قيل لهم ؟ فقال له رجل من جلسائه : بئسما قلت : قال أبو حازم : إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه . قال : وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد ؟ قال : أن تأخذه من حله فتضعه فى حقه ، فقال سليمان : ومن يقدر على ذلك ؟ فقال : من يطلب الجنة ويخاف من النار . فقال سليمان : ادع لى . فقال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخيرى الدنيا والآخرة وإن كان عدوك نخذ بناصيته إلى ماتحب وترضى ، فقال سليمان : أوصنى ، فقال : أوصيك وأوجز ، عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك . وقال عمر

(١) حديث أبي ذر : إن الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عز وجل منه ، لم أقف له على أصل .

ابن عبد العزيز لأبي حازم : عظمي ، فقال : اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك ثم أنظر إلى ماتحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ به الآن ، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن ، فلعل تلك الساعة قريبة . ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك ، فقال : تكلم يا أعرابي ، فقال : يا أمير المؤمنين إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته فإن وراءه ماتحب إن قبلته ، فقال : يا أعرابي إنا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ولا تأمن غشه فكيف بمن تأمن غشه ونرجو نصحه ؟ فقال الأعرابي : يا أمير المؤمنين إنه قد تكلفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك ، حرب الآخرة سلم الدنيا فلا تأتمنهم على ما اتتمنك الله تعالى عليه فإنهم لم يألوا في الأمانة تضيقا وفي الأمانة خسفا وغسفا وأنت مسئول عما اجتزحوه وليسوا بمسئولين عما اجتزحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره ، فقال له سليمان : يا أعرابي أما إنك قد سلكت لسانك وهو أقطع سيفيك . قال : أجل يا أمير المؤمنين ولكن لك لا عليك . وحكى أن أبا بكره دخل على معاوية فقال : اتق الله يا معاوية واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك وفي كل ليلة تأتي عليك لا ترداد من الدنيا إلا بعدا ومن الآخرة إلا قربا ، وعلى أترك طالب لا تفوته وقد نصب لك علما لا تجوزه فما أسرع ما تبلغ العلم وما أوشك ما يلحق بك الطالب ولما نحن فيه زائل وفي الذي نحن إليه صائرون باق إن خيرا غير وإن شرا فشر . فهكذا كان دخول أهل العلم على السلاطين أعنى علماء الآخرة فأما علماء الدنيا فيدخلون ليتقربوا إلى قلوبهم فيدلونهم على الرخص ويستنبطون لهم بدقائق الحيل طرق السعة فيما يوافق أغراضهم . وإن تكلموا بمثل ما ذكرناه في معرض الوعظ لم يكن قصدهم الإصلاح بل اكتساب الجاه والقبول عندهم . وفي هذا غروران يغتر بهما الحق (أحدهما) أن يظهر أن قصدى في الدخول عليهم لإصلاحهم بالوعظ . وربما يلبسون على أنفسهم بذلك وإنما الباعث لهم شهوة خفية للشهرة وتحصيل المعرفة عندهم ، وعلامة الصدق في طلب الإصلاح أنه لو تولى ذلك الوعظ غيره ممن هو من أفرانه في العلم ووقع موقع القبول وظهر به أثر الإصلاح فينبغى أن يفرح به ويشكر الله تعالى على كفايته هذا المهم ، كمن وجب عليه أن يعالج مريضا ضائعا فقام بمعالجته غيره فإنه يعظم به فرحه . فإن كان يصادف في قلبه ترجيحاً لكلامه على كلام غيره فهو مغرور (الثانى) أن يزعم أنى أقصد الشفاعة لمسلم في دفع ظلامة . وهذا أيضا مظنة الغرور . ومعياره ما تقدم ذكره .

وإذا ظهر طريق الدخول عليهم فلنرسم في الأحوال العارضة في مخالطة السلاطين ومباشرة أموالهم مسائل :

مسألة : إذا بعث إليك السلطان مالا لتفرقه على الفقراء فإن كان له مالك معين فلا يحل أخذه وإن لم يكن بل كان حكمه أنه يحب التصدق به على المساكين - كما سبق - فلك أن تأخذه وتولى التفرقة ولا تعصى بأخذه ولكن من العلماء من امتنع عنه فعند هذا ينظر في الأولى فنقول :

الأولى أن تأخذه إن أمنت ثلاث غوائل .

الغائلة الأولى : أن يظن السلطان بسبب أخذك أن ماله طيب ولولا أنه طيب لما كنت تمتد يدك إليه ولا تدخله في ضمانك ؛ فإن كان كذلك فلا تأخذه ، فإن ذلك محذور ولا يبنى الخير في مباشرتك التفرقة بما يحصل لك من الجرامة على كسب الحرام .

الغائلة الثانية : أن ينظر إليك غيرك من العلماء والجهال فيعتقدون أنه حلال فيقتدون بك في الأخذ ويستدلون به

على جوازه ثم لا يفرقون ، فهذا أعظم من الأول . فإن جماعة يستدلون بأخذ الشافعي رضي الله عنه على جواز الأخذ ويفعلون عن تفرقه وأخذه على نية التفرقة ؛ فالمقتدى والمتشبه به ينبغي أن يحتز عن هذا غاية الاحتراز فإنه يكون فعله سبب ضلال خلق كثير . وقد حكى وهب بن منبه أن رجلا أتى به إلى ملك بمشهد من الناس ليكرمه على أكل خنم الخنزير فلم يأكل ، فقدم إليه لحم غنم وأكره بالسيف فلم يأكل ، فقيل له في ذلك فقال : إن الناس قد اعتقدوا أني طولبت بأكل لحم الخنزير ؛ فإذا خرجت سالما وقد أكلت فلا يعلمون ماذا أكلت فيضنون . - ودخل وهب ابن منبه وطاوس على محمد بن يوسف - أخى الحجاج - وكان عاملا وكان في غداة باردة في مجلس بارز فقال لغلामه : هلم ذلك الطيلسان وألقه على أبي عبد الرحمن - أي طاوس - وكان قد قعد على كرسي فألقى عليه فلم يزل يحرك كتفيه حتى ألقى الطيلسان عنه ، فغضب محمد بن يوسف فقال وهب : كدت غنيا عن أن تغضبه لو أخذت الطيلسان وتصدقت به قال : نعم لولا أن يقول من بعدى إنه أخذه طاوس - ولا يصنع به ما أصنع به - لذن لفعلت .

الغائلة الثانية : أن يتحرك قلبك إلى حبك لتخصيصه إياك وإيثاره لك بما أنفذه إليك ، فإن كان كذلك فلا تقبل ذلك هو السم القاتل والداء الدفين أعنى ما يحبب الظلمة إليك ، فإن من أحببته لابد أن تحرص عليه وتداهن فيه . قالت عائشة رضي الله عنها : جبلت النفوس على حب من أحسن إليها . وقال عليه السلام « اللهم لا تجعل لفاجر عندى يدا فيحبه قلبي »^(١) بين صلى الله عليه وسلم أن القلب لا يكاد يتمتع من ذلك . وروى أن بعض الأمراء أرسل إلى مالك بن دينار بعشرة آلاف درهم فأخرجها كلها فأتاه محمد بن واسع فقال : ما صنعت بما أعطاك هذا المخلوق ؟ قال : سل أصحابي ؟ فقالوا . أخرجه كله ، فقال . أنشدك الله ألقبك أشد حباله الآن أم قبل أن أرسل إليك ؟ : لا بل الآن ، قال : إنما كنت أخاف هذا . وقد صدق فإنه إذا أحبه أحب بقاءه وكره وعزله ونكبته وموته وأحب اتساع ولايته وكثرة ماله ، وكل ذلك حب لأسباب الظلم وهو مذموم . قال سلمان وابن مسعود رضي الله عنهما : من رضى بأمر وإن غاب عنه كان كمن شهده قال تعالى ﴿ ولا تركبوا إلى الذين ظلموا ﴾ قيل لا ترضوا بأعمالهم فإن كنت في القوة بحيث لا تزدد جالهم بذلك فلا بأس بالأخذ . وقد حكى عن بعض عباد البصرة أنه كان يأخذ أموالا ويفرقها فقيل له : ألا تخاف أن تحبهم ؟ فقال : لو أخذ رجل يدي وأدخلني الجنة ثم عصى ربه ما أحبه قلبي ، لأن الذي سخره للأخذ يدي هو الذي أبغضه لأجله شكرا له على تصغيره إياه . وبهذا تبين أخذ المال الآن منهم وإن كان ذلك المال بعينه من وجه حلال محذور ومذموم لأنه لا ينفك عن هذه الغوائل .

مسألة : إن قال قائل : إذا جاز أخذ ماله وتفرقه فهل يجوز أن يسرق ماله أو تخفى وديعته وتسكرو وتفرق على الناس ؟ فنقول : ذلك غير جائز لأنه ربما يكون له مالك معين وهو على عزم أن يرده عليه ، وليس هذا كما لو بعته إليك ؛ فإن العاقل لا يظن به أنه يتصدق بما لم يعلم مالكة فيدل تسليمه على أنه لا يعرف مالكة فإن كان عن شكل عليه مثله فلا يجوز أن يقبل منه المال ما لم يعرف ذلك ثم كيف يسرق ويحتمل أن يكون ملكه قد حصل له بشراء في ذمته ؟ فإن اليد دلالة على الملك . فهذا لاسبيل إليه بل لو وجد لقطة وظهر أن صاحبها جندى واحتمل أن تكون له بشراء في الذمة أو غيره وجب الرد عليه . فإذا لا يجوز سرقة ما لهم ولا من أودع عنده . ولا يجوز إنكار وديعتهم ويجب الحد على سارق ما لهم إلا إذا ادعى السارق أنه ليس ملكا لهم فعند ذلك يسقط الحد بالدعوى .

(١) حديث « اللهم لا تجعل لفاجر عندى يدا فيحبه قلبي » أخرجه ابن مردويه في التفسير من رواية كثير بن هبة عن رجل لم يسم ، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وأبو موسى المدني في كتاب : تصحيح العمر والأيام مرصلا وأسانيده كلها ضيقة .

مسألة : المعاملة معهم حرام لأن أكثر ما لهم حرام فإيؤخذ عوضا فهو حرام ، فإن أدى الثمن من موضع يعلم حله فيبقى النظر فيما سلم إليهم ، فإن علم أنهم يعصون الله به كبيع الديباج منهم وهو يعلم أنهم يلبسونه فذلك حرام كبيع العنب من الخمار ، وإنما الخلاف في الصحة وإن أمكن ذلك وأمكن أن يلبسها نساء فهو شبهة مكروهة ، هذا فيما يعصى في عينه من الأموال . وفي معناه بيع الفرس منهم ، لاسيما في وقت ركوبهم إلى قتال المسلمين أو جباية أموالهم فإن ذلك إغاة لهم بفرسه وهي محظورة . فأما بيع الدراهم والدنانير منهم وما يجري مجراها مما لا يعصى في عينه بل يتوصل بها فهو مكروه لما فيه من إغائتهم على الظلم لأنهم يستعينون على ظلمهم بالأموال والدواب وسائر الأسباب ، وهذه الكراهة جارية في الإهداء إليهم وفي العمل لهم من غير أجره حتى في تعليمهم وتعليم أولادهم الكفاية والترسل والحساب ، وأما تعليم القرآن فلا يكره إلا من حيث أخذ الأجرة فإن ذلك حرام إلا من وجه يعلم حله ، ولو انتصب وكيلا لهم يشتري لهم في الأسواق من غير جعل أو أجره فهو مكروه من حيث الإغاة ، وإن اشترى لهم ما يعلم أنهم يقصدون به المعصية كالغلام والديباج للعرش واللبس والفرس للركوب إلى الظلم والقتل فذلك حرام . فهما ظهر قصد المعصية بالمبتاع حصل التحريم ومهما لم يظهر واحتمل بحكم الحال ودلائلها عليه حصلت الكراهة .

مسألة : الأسواق التي بنوها بالمسال الحرام تحرم التجارة فيها ولا يجوز سكناها ، فإن سكنها تاجر واكتسب بطريق شرعي لم يحرم كسبه وكان عاصيا بسكناءه ، وللناس أن يشتروا منهم ، ولكن لو وجدوا سوقا أخرى فالأولى الشراء منها فإن ذلك إغاة لسكنائهم وتكثير لكراه حوائثتهم ، وكذلك معاملة السوق التي لاخراج لهم عليها أحب من معاملة سوق لهم عليها خراج ، وبقد بالغ قوم حتى تحمروا من معاملة الفلاحين وأصحاب الأراضي التي لهم عليها الخراج فإنهم ربما يصرفون ما يأخذون إلى الخراج فيحصل به الإغاة ، وهذا غلو في الدين وخرج على المسلمين فإن الخراج قد عم الأراضي ولاغنى بالناس عن ارتفاع الأرض ولا معنى للنفع منه ، ولو جاز هذا لحرم على المالك زراعة الأرض حتى لا يطلب خراجها . وذلك مما يطول ويتداغى إلى حسم باب المعاش .

مسألة : معاملة قضاتهم وعماهم وخدمهم حرام كمعاملتهم بل أشد . أما القضاة فلأنهم يأخذون من أموالهم الحرام الصريح ويكثرون جمعهم ويغرون الخلق يزنهم فإنهم على زى العلماء ويختلطون بهم يأخذون من أموالهم والطباع مجبولة على التشبه والافتداء بذوى الجاه والحشمة . فهم سبب انقياد الخلق إليهم . وأما الخدم والحشم فأكثر أموالهم من النصب الصريح ولا يقع في أيديهم مال مصلحة وميراث وجزية ولا وجه حلال حتى تضعف الشبهة باختلاط الحلال بمالهم . قال طاوس : لأشهد عندهم وإن تحققت لأنى أخاف تعديهم على من شهدت عليه . وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء فلو لا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفا من إنكارهم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لاتزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما يمالئ قراؤها أمراءها » (١) ، وإنما ذكر القراء لأنهم كانوا هم العلماء وإنما كان علمهم بالقرآن ومعانيه المفهومة بالسنة . وما وراء ذلك من العلوم فهي محدثة بعدهم . وقد قال سفيان : لاتخالط السلطان ولا من يخالطه . وقال : صاحب القلم وصاحب الدواة وصاحب القراطيس وصاحب الليطة بعضهم شركاء بعض . وقد صدق فإن رسول الله

(١) حديث « لاتزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما يمالئ قراؤها أمراءها » أخرجه أبو عمرو الداني في كتاب الفتن من رواية الحسن مرسلًا ورواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ثنى وابن عمر بلفظ « ما يعظم أربابها طارها ويداهن خيارها شرارها » وإسنادها ضعيف .

صلى الله عليه وسلم لعن في الخبر عشرة حتى العاصر والمعتصر^(١) وقال ابن مسعود رضى الله عنه « آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم »^(٢) وكذا رواه جابر وعمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) وقال ابن سيرين : لا تحمل للسلطان كتابا حتى تعلم ما فيه ، وامتنع سفيان رحمه الله من مناولة الخليفة في زمانه دواة بين يديه وقال : حتى أعلم ما تكتب بها فكل من حوالبهم من خدمهم وأتباعهم ظلة مثلهم يجب بغضهم في الله جميعا . روى عن عثمان بن زائدة أنه سأله رجل من الجند وقال : أين الطريق ؟ فسكت وأظهر الصمم وخاف أن يكون متوجها إلى ظلم فيكون هو بإرشاده إلى الطريق معينا . وهذه المبالغة لم تنقل عن السلف مع الفساق من التجار والحاكمة والحجامين وأهل الحمامات والصاغة والصباغين وأرباب الحرف مع غلبة الكذب والفسق عليهم ، بل مع الكفار من أهل الذمة ، وإنما هذا في الظلمة خاصة الآكلين لأموال اليتامى والمساكين والمواطنين على إيداء المسلمين الذين تعاونوا على بطمس رسوم الشريعة وشعائرها . وهذا لأن المعصية تنقسم إلى لازمة ومتعدية ، والفسق لازم لا يتعدى ، وكذا الكفر وهو جنائية على حق الله تعالى وحسابه على الله وأمام معصية الولاية بالظلم وهو متعد فأنما يغلظ أمرهم لذلك وبقدر عموم الظلم وعموم التعدي يزدادون عند الله مقتا فيجب أن يزداد منهم اجتنابا ومن معاملتهم احترازا فقد قال صلى الله عليه وسلم ، يقال للشرطي دع سوطك وادخل النار^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أشرط الساعة رجال معهم سياط كأذناب البقر »^(٥) ، فهذا حكمهم ومن عرف بذلك منهم فقد عرف ومن لم يعرف فعلامته القباء وطول الشوارب وسائر الهيئات المشهورة . فمن روى على تلك الهيئة تعين اجتنابه ولا يكون ذلك من سوء الظن لأنه الذي جنى على نفسه إذ تزيبا بزيهم ، ومساواة الزى تدل على مساواة القلب ولا يتجان إلا مجنون ولا يتشبه بالفساق إلا فاسق ، نعم الفاسق قد يلتبس بأهل الصلاح فأما الصالح فليس له أن يتشبه بأهل الفساد لأن ذلك تكثير لسوادهم وإنما نزل قوله تعالى ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظلمى أنفسهم ﴾ في قوم من المسلمين كانوا يكثر جمع المشركين بالمخالطة ، وقد روى أن الله تعالى أوحى إلى يوشع ابن نون إلى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم ، فقال : ما بال الأختيار ؟ قال : إنهم لا يفيضون لغضبى فكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم . وبهذا يتبين أن بعض الظلمة والغضب لله عليهم واجب ، وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله لعن علماء بني إسرائيل إذ خالطوا الظالمين في معاشهم »^(٦) .

(١) حديث « أن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم لعن في الخبر عشرة حتى العاصر والمعتصر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أنس قال الترمذى حديث غريب . (٢) حديث ابن مسعود « آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم » رواه مسلم وأصحاب السنن واللفظ للنسائي دون قوله « وشاهداه » ولابن داود لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه » قال الترمذى وصححه وابن ماجه وشاهديه . (٣) حديث جابر لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه قال حم سواء » أخرجه مسلم من حديثه ، وأما حديث عمر فأشار إليه الترمذى بقوله وفي الباب ولابن ماجه من حديثه « إن آخر ما أنزلت آية الربا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يفسرها فدعوا الربا والريبة » وهو من رواية ابن المسيب عنه والجمهور على أنه لم يسمع منه . (٤) حديث « يقال للشرطي دع سوطك وادخل النار » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف . (٥) حديث « من أشرط الساعة رجال معهم سياط كأذناب البقر » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث أبي أمامة « يكون في آخر الزمان رجال معهم سياط كأذناب البقر ... الحديث » ولمسلم من حديث أبي هريرة « يوشك أن طالت بك مدة أن ترى قوما في أيديهم مثل أذناب البقر » وفي رواية له صفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر ... الحديث .

(٦) حديث ابن مسعود « لعن الله علماء بني إسرائيل إذ خالطوا الظالمين في معاشهم » أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي : نهتهم عماؤهم فلم ينتهوا فجاء السوم في مجالسهم وواكلهم وشاربهم فغضب الله قلوب بعضهم بعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم » لفظ الترمذى وقال حسن غريب .

مسألة : الموضع التي بناها الظلة كالتقاطر والرباطات والمساجد والسقايات ينبغي أن يحتاط فيها وينظر أما القنطرة فيجوز العبور عليها للحاجة ، والورع الاحترام ما أمكن وإن وجد عنه معدلاً نأكد الورع . وإنما يجوزنا العبور وإن وجد معدلاً لأنه إذا لم يعرف الأعيان مالكا كان حكمها أن ترصد للخيرات وهذا خير ، فأما إذا عرف أن الآجر والحجر قد نقل من دار معلومة أو مقبرة أو مسجد معين فهذا لا يحل العبور عليه أصلاً إلا لضرورة يحل بها مثل ذلك من مال الغير ، ثم يجب عليه الاستحلال من المالك الذي يعرفه . وأما المسجد فإن بنى في أرض مفضوعة أو بنحش مفضوب من مسجد آخر أو ملك معين فلا يجوز دخوله أصلاً ولا للجمعة بل لو وقف الإمام فيه فليصل هو خلف الإمام وليقف خارج المسجد فإن الصلاة في الأرض المفضوعة تسقط الفرض وتعمد في حق الاقتداء ، فلذلك جئنا للمقتدى الاقتداء بمن صلى في الأرض المفضوعة وإن عصي صاحبه بالوقوف في الغصب . وإن كان من مال لا يعرف مالكة فالورع العدول إلى مسجد آخر إن وجد فإن لم يجد غيره فلا يترك الجمعة والجماعة به لأنه يحتمل أن يكون من الملك الذي بناه ولو على بعد وإن لم يكن له مالك معين فهو لمصالح المسلمين . ومهما كان في المسجد الكبير بناء لسلطان ظالم فلا عذر لمن يصلي فيه مع اتساع المسجد ، أعني في الورع ، قيل لأحمد بن حنبل : ما حجتك في ترك الخروج إلى الصلاة في جماعة ونحن بالعسكر ؟ فقال . حجتى أن الحسن وإبراهيم التيمي خافا أن يقتلتهما الحجاج وأنا أخاف أن أقتل أيضاً . وأما الخلق والتجسس فلا يمنع من الدخول لأنه غير منتفع به في الصلاة وإنما هو زينة والأولى أنه لا ينظر إليه . وأما البوارى التي فرشوها فإن كان لها مالك معين فيحرم الجلوس عليها وإلا فبعد أن أرصدت لمصلحة عامة جاز اقتراشها ، ولكن الورع العدول عنها فإنها محل شبهة . وأما السقايات لحكمها ما ذكرناه وليس عن الورع الوضوء والشرب منها والدخول إليها إذا كان يخاف فوات الصلاة فيتوضأ وكذا مصانع طريق مكة . وأما الرباطات والمدارس فإن كانت رقبه الأرض مفضوعة أو الآجر منقولا من موضع معين يمكن الرد إلى مستحقه فلا رخصة للدخول فيه وإن التبس المالك فقد أرصد لجهة من الخير ، والورع اجتنابه ولكن لا يلزم الفسق بدخوله . وهذه الأبنية إن أرصدت من خدم السلاطين فالامر فيها أشد إذ ليس لهم صرف الأموال الضائعة إلى المصالح ولأن الحرام أغلب على أموالهم إذ ليس لهم أخذ مال المصالح وإنما يجوز ذلك للولاة وأرباب الأمر .

مسألة : الأرض المفضوعة إذا جعلت شارعا لم يجز أن يتخطى فيه ألبنة وإن لم يكن له مالك معين جاز ، والورع العدول إن أمكن ، فإن كان الشارع مباحا وفوقه سابات جاز العبور وجاز الجلوس تحت السابات على وجه لا يحتاج فيه إلى السقف كما يقع في الشارع لشغل ، فإذا انتفع بالسقف في دفع حر الشمس أو المطر أو غيره فهو حرام لأن السقف لا يراد إلا لذلك ، وهكذا حكم من يدخل مسجدا أو أرضا مناحة سقف أو حوط بنصب فإنه بمجرد التخطى لا يكون منتفعا بالحيطان والسقف إلا إذا كان له فائدة في الحيطان والسقف لحر أو برد تستر عن بصر أو غيره فذلك حرام لأنه انتفاع بالحرام إذ لم يحرم الجلوس على الغصب لما فيه من الماسة بل الانتفاع ، والأرض تراد للاستقرار عليها والسقف للاستغلال به فلا فرق بينهما .

الباب السابع

في مسائل متفرقة يكثر ميسر الحاجة إليها وقد سئل عنها في الفتاوى

مسألة : سئل عن خادم الصوفية يخرج إلى السوق ويجمع طعاما أو نقدا ويشتري به طعاما فن الذي يحل له أن يأكل منه ؟ وهل يختص بالصوفية أم لا ؟ فقلت : أما الصوفية فلا شبهة في حقهم إذا أكلوه وأما غيرهم فيحل لهم إذا أكلوه برضا الخادم ولكن لا يخلو عن شبهة ، أما الحل فلأن ما يعطى خادم الصوفية إنما يعطى بسبب الصوفية وله أن يطعم غير العيال إذ يبعد أن يقال لم يخرج عن ملك المعطى ولا يتسلط الخادم على الشراء به التصرف فيه ؟ لأن ذلك مصير إلى أن المعاطاة لا تكنى وهو ضعيف ، ثم لا صائر إليه في الصدقات والهدايا ، ويبعد أن يقال زال الملك إلى الصوفية الحاضرين الذين هم وقت سؤاله في الخانقاه إذ لا خلاف أن له يطعم منه من يقدم بعدم ولو ماتوا كلهم أو واحد منهم لا يجب صرف نصيبه إلى وارثه ، ولا يمكن أن يقال إنه وقع لجهة التصوف ولا يتعين له مستحق لأن إزالة الملك إلى الجهة لا توجب تسليط الآحاد على التصرف فإن الداخلين فيه لا ينحصرون بل يدخل فيه من يولد إلى يوم القيامة ، وإنما يتصرف فيه الولاة ، والخادم لا يجوز له أن ينتصب نائباً عن الجهة فلا وجه إلا أن يقال هو ملكه وإنما يطعم الصوفية بوفاء شرط التصوف والمروءة فإن منعهم عنه منعه عن أن يظهر نفسه في معرض التكفل بهم حتى ينقطع وقفه كما ينقطع عن مات عياله .

مسألة : سئل عن مال أوصى به للصوفية فن الذي يجوز أن يصرف إليه ؟ فقلت : التصوف أمر باطن لا يطلع عليه ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف في إطلاق اسم الصوفى ، والضابط الكلى أن كل من هو بصفة إذا نزل في خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكراً عندهم فهو داخل في غناهم . والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات الصلاح والفقر وزى الصوفية وأن لا يكون مشغلاً بحرفة وأن يكون مخالطاً لهم بطريق المساكنة في الخانقاه . ثم بعض هذه الصفات مما يوجب زوالها والاسم وبعضها ينجبر بالبعض فالفسق يمنع الاستحقاق لأن الصوفى بالجملة عبارة عن رجل من أهل الصلاح بصفة مخصوصة ، فالذى يظهر فسقه وإن كان على زيه لا يستحق ما أوصى به للصوفية ولسنا نعتبر فيه الصفات . وأما الحرفة والاشتغال بالكسب فإنه يمنع هذا الاستحقاق فالدهقان والعامل والتاجر والصانع في حانوته أو داره والأجير الذى يخدم بأجرة كل هؤلاء لا يستحقون ما أوصى به للصوفية ولا ينجبر هذا بالزى والمخالطة ، فأما الوراقة والحيطة وما يقرب منهما مما يليق بالصوفية تعاطيها ، فإذا تعاطاها لافى حانوت ولا على جهة اكتساب وحرفة فذلك لا يمنع الاستحقاق وكان ذلك ينجبر بمساكنته إياهم مع بقية الصفات ، وأما القدرة على الحرف من غير مباشرة فلا تمنع ، وأما الوعظ والتدريس فلا يتنافى اسم التصوف إذا وجدت بقية الخصال من الزى والمساكنة والفقر إذ لا يتناقض أن يقال صوفى مقرئ وصوفى واعظ وصوفى عالم أو مدرس ، ويتناقض أن يقال صوفى تاجر وصوفى عامل ، وأما الفقر فإن زال بغنى مفرط ينسب الرجل إلى الثروة الظاهرة فلا يجوز معه أخذ وصية الصوفية ، وإن كان له مال ولا ينفق دخله بخروجه لم يطل حقه ، وكذا إذا كان له مال قاصر عن وجوب الزكاة وإن لم يكن له خرج وهذه أمور لا دليل لها إلا العادات . وأما المخالطة لهم ومساكنتهم فلها أثر ولكن من لا يخالطهم وهو فى داره أو فى مسجد على زيه ومتخلف بأخلاقهم فهو شريك في سهمهم وكان ترك المخالطة يجبرها ملازمة الزى فإن لم يكن على زيه ووجد فيه بقية الصفات (٢٠ - إحياء علوم الدين - ٢)

فلا يستحق إلا إذا كان مساكنا لهم في الرباط فينسحب عليه حكمهم بالتبعية . فالخالطة والزي نوب كل واحد منهما عن الآخر . والفقيه الذي ليس على زيهم هذا حكمه فإن كان خارجا لم يعد صوفيا وإن كان ساكنا معهم ووجدت بقية الصفات لم يبعد أن ينسحب بالتبعية عليه حكمهم . وأما لبس المرقعة من يد شيخ من مشايخهم فلا يشترط ذلك في الاستحقاق ، وعدمه لا يضره مع وجود الشرائط المذكورة . وأما المتأهل المتردد بين الرباط والمسكن فلا يخرج بذلك عن جملتهم .

مسألة : ما وقف على رباط الصوفية وسكانه فالأمر فيه أوسع مما أوصى لهم به لأن معنى الوقف الصرف إلى مصالحهم ؛ فلغير الصوفي أن يأكل معهم برضاهم على مائدتهم مرة أو مرتين فإن أمر الاطعمة مبناه على التسامح حتى جاز الانفراد بها في الغنائم المشتركة ، وللقوال أن يأكل معهم في دعوتهم من ذلك الوقف وكان ذلك من مصالح معاشهم ، وما أوصى به للصوفية لا يجوز أن يصرف إلى قوال الصوفية بخلاف الوقف ، وكذلك من أحضروه من العمال والتجار والقضاة والفقهاء من لهم غرض في استمالة قلوبهم يحل لهم الأكل برضاهم ، فإن الواقف لا يقف إلا معتقدا فيه ما جرت به عادات الصوفية فينزل على العرف ولكن ليس هذا على الدوام ، فلا يجوز لمن ليس صوفيا أن يسكن معهم على الدوام ويأكل وإن رضوا به إذ ليس لهم تغيير شرط الواقف بمشاركه غير جنسهم . وأما الفقيه إذا كان على زيهم وأخلاقهم فله النزول عليهم ، وكونه فقيها لا ينافي كونه صوفيا ، والجهل ليس بشرط في التصوف عند من يعرف التصوف ، ولا يلتفت إلى خرافات بعض الحق بقلوبهم : إن العلم حجاب فإن الجهل هو الحجاب . وقد ذكرنا تأويل هذه الكلمة في كتاب العلم ، وأن الحجاب هو العلم المذموم دون المحمود ، وذكرنا المحمود والمذموم وشرحهما . وأما الفقيه إذا لم يكن على زيهم وأخلاقهم فله منعه من النزول عليهم فإن رضوا بنزوله فيحل له الأكل معهم بطريق التبعية فكان عدم الزي تجبره المساكنة ولكن برضا أهل الزي ، وهذه أمور تشهد لها العادات وفيها أمور متقابلة لا يخفى أطرافها في النفي والإثبات ومتشابهة أوساطها فنحترز في مواضع الاشتباه فقد استبرأ لدينه كما نهينا عليه في أبواب الشبهات .

مسألة : سئل عن الفرق بين الرشوة والهدية مع أن كل واحد منهما يصدر عن الرضا ولا يخلو عن غرض وقد حرمت إحداها دون الأخرى . فقلت : باذل المال لا يبذله قط إلا لغرض ، ولكن الغرض إما أجل كالثواب وإما عاجل ، والعاجل إما مال وإما فعل وإعانة على مقصود معين وإما تقرب إلى قلب المهدي إليه بطلب محبته إما المحبة في عينها وإما للتوصل بالمحبة إلى غرض وراءها فالأقسام الحاصلة من هذه خمسة .

الأول : ما غرضه الثواب في الآخرة وذلك إما أن يكون لكون المصروف إليه محتاجا أو عالما أو منتسبا بنسب ديني أو صالحا في نفسه متدينا . فما علم الآخذ أنه يعطاه لحاجته لا يحل له أخذه إن لم يكن محتاجا ، وما علم أنه يعطاه لشرف نسبة لا يحل له إن علم أنه كاذب في دعوى النسب ، وما يعطى لعلفه فلا يحل له أن يأخذه إلا أن يكون في العلم كما ينتقده المعطى ، فإن كان خيل إليه كالا في العلم حتى بعثه بذلك على التقرب ولم يكن كاملا لم يحل له ، وما يعطى لدينه وصلاحه لا يحل له أن يأخذه إن كان فاسقا في الباطن فسقا لو علمه المعطى ما أعطاه . وقلما يكون الصالح بحيث لو انكشف باطنه لبقيت القلوب مائلة إليه وإنما ستر الله الجليل هو الذي يحب الخلق إلى الخلق . وكان المتورعون يوكلون في الشراء من لا يعرف أنه وكيلهم حتى لا يتساعخوا في المبيع خيفة من أن يكون ذلك أكلا بالدين فإن ذلك خطر والتقى خفي لا كالعلم والنسب والفقر فينبغي أن يحتنب الآخذ بالدين ما أمكن .

القسم الثاني : ما يقصد به في العاجل غرض معين كالفقير يهدى إلى الغنى طمعا في خلعتة فهذه هبة بشرط الثواب لا يخفى حكمها وإنما تحل عند الوفاء بالثواب المطبوع فيه وعند وجود شروط العقود .

الثالث : أن يكون المراد إعانة بفعل معين كالمحتاج إلى السلطان يهدى إلى وكيل السلطان وغاصته ومن له مكانة عنده فهذه هدية بشرط ثواب يعرف بقرينة الحال ؛ فليُنظر في ذلك العمل الذي هو الثواب فإن كان حراما كالسعى في تنجيز إدرار حرام أو ظلم لإنسان أو غيره حرم الأخذ ، وإن كان واجبا كدفع ظلم متعين على كل من يقدر عليه أو شهادة متعينة فيحرم عليه ما يأخذه وهي الرشوة التي لا يشك في تحريمها ، وإن كان مباحا لا واجبا ولا حراما وكان فيه تعب بحيث لو عرف لجاز الاستئجار عليه فما يأخذه حلال مهما وفي الغرض ، وهو جار مجرى الجمالة كقوله أوصل هذه القصة إلى يد فلان أو يد السلطان ولك دينار وكان بحيث يحتاج إلى تعب وعمل متقوم ، أو قال اقترح على فلان أن يعينني في غرض كذا أو ينعم علي بكذا وافترق في تنجيز غرضه إلى كلام طويل ، فذلك جعل كبا يأخذه الوكيل بالخصومة بين يدي القاضي فليس بحرام إذا كان لا يسعى في حرام ، وإن كان مقصود يحصل بكلمة لا تعب فيها ولكن تلك الكلمة من ذي الجاه أو تلك الفعلة من ذي الجاه تفيد كقوله للبواب لا تغلق دونه باب السلطان أو كوضعه قصة بين يدي السلطان فقط ، فهذا حرام لأنه عوض من الجاه ، ولم يثبت في الشرع جواز ذلك بل ثبت ما يدل على النهي عنه - كما سيأتى في هدايا الملوك - وإذا كان لا يجوز العوض عن إسقاط الشفعة والرد بالعيب ودخول الأغصان في هواء الملك وجملة من الأغراض مع كونها مقصودة فكيف يؤخذ عن الجاه ؟ ويقرب من هذا أخذ الطبيب العوض على كلمة واحدة ينه بها على دواء ينفرد بمعرفته كواحد ينفرد بالعلم بنبت يطلع البواسير أو غيره فلا يذكره إلا بعوض فإن عمله بالتلفظ به غير متقوم كسبة من سسم فلا يجوز أخذ العوض عليه ولا على غيره ، إذ ليس ينتقل عليه إلى غيره وإنما يحصل لغيره مثل عمله ويبقى هو عالما به ، ودون هذا : الحاذق في الصناعة كالصيقلي مثلا الذي يزيل اعوجاج السيف أو المرأة بدقة واحدة لحسن معرفته بموضع الخلل ، ولخذه بإصابته فقد يزيد بدقة واحدة مال كثير في قيمة السيف والمرأة فهذا لا أرى بأسا بأخذ الأجرة عليه ، لأن مثل هذه الصناعات يتعب الرجل في تعلمها ليكتسب بها ويخفف عن نفسه كثرة العمل .

الرابع : ما يقصد به المحبة وجلبها من قبل المهدي إليه لا لغرض معين ولكن طلبا للاستئناس وتأكيده للصحة وتوددا إلى القلوب فذلك مقصود للعقلاء ومندوب إليه في الشرع قال صلى الله عليه وسلم « تهادوا تحابوا »^(١) ، وعلى الجملة فلا يقصد الإنسان في الغالب أيضا محبة غيره لعين المحبة بل لفائدة في محبته ولكن إذا لم تتعين تلك الفائدة ولم يتمثل في نفسه غرض معين يبعثه في الحال أو المال سمي ذلك هدية وحل أخذها .

الخامس : أن يطلب التقرب إلى قلبه وتحصيل محبته لا لمحبة ولا للأنس به من حيث إنه أنس فقط بل ليتوصل بجاهه إلى أغراض له ينحصر جنسها وإن لم ينحصر عينها وكان لولا جاهه وحشمته لكان لا يهدى إليه ، فإن كان جاهه لأجل علم أو نسب فالأمر فيه أخف وأخذه مكروه فإن فيه مشابهة الرشوة ولكنها هدية في ظاهرها ، فإن كان جاهه بولاية تولاهها من قضاء أو عمل أو ولاية صدقة أو جباية مال أو غيره من الأعمال السلطانية حتى ولاية الأوقاف مثلا ، وكان لولا تلك الولاية لكان لا يهدى إليه فهذه رشوة عرضت في معرض الهدية إذ قصد

الباب السابع : في مسائل متفرقة

(١) حديث « تهادوا تحابوا » أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة ، وضعفه ابن عدي .

بها في الحال طلب التقرب واكتساب المحبة ولكن الامر ينحصر في جنسه إذ ما يمكن التوصل إليه بالآيات لا يخفى وآية أنه لا ينبغي المحبة أنه لو ولى في الحال غيره لسلم المال إلى ذلك الغير ، فهذا مما اتفقوا على أن الكراهة فيه شديدة واختلفوا في كونه حراما ، والمعنى فيه متعارضا فإنه دائر بين الهدية المحضنة وبين الرشوة المبذولة في مقابلة جاه في غرض معين ، وإذا تعارضت المشابهة القياسية وعصدت الأخبار والآثار أحدهما تعين الميل إليه ، وقد دلت الأخبار على تشديد الامر في ذلك قال صلى الله عليه وسلم « يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعظة يقتل البريء لتوعظ به العامة »^(١) ، وسئل ابن مسعود رضي الله عنه عن السحت فقال : يقضى الرجل الحاجة فتهدى له الهدية ولعله أراد قضاء الحاجة بكلمة لا تعب فيها أو تبرع بها لاعلى قصد أجرة ، فلا يجوز أن يأخذ بعده شيئا في معرض العوض ، شفع مسروق شفاعته فأهدى إليه المشفوع له جارية فغضب ورددها وقال : لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك ولا أتكلم فيما بقي منها . وسئل طاوس عن هدايا السلطان فقال : سحت . وأخذ عمر رضي الله عنه ربح مال القراض الذي أخذه ولداه من بيت المال وقال : إنما أعطيتا لمكانكما مني إذ علم أنهما أعطيا لأجل جاء الولاية . وأهدت امرأة أبي عبيدة بن الجراح إلى خاتون ملكة الروم خلوقا فكافأتهما بجوهر فأخذه عمر رضي الله عنه فباعه وأعطاهما ثمن خلوقها ورد باقيه إلى بيت مال المسلمين . وقال جابر وأبو هريرة رضي الله عنهما : هدايا الملوك غلول . ولما رد عمر بن عبد العزيز الهدية قيل له « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية فقال : كان ذلك له هدية وهو لنا رشوة »^(٢) ، أي كان يتقرب إليه لنبوته لالولايته ونحن إنما نعطي للولاية . وأعظم من ذلك كله ما روى أبو حميد الساعدي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث واليا على صدقات الأزدي فلما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك بعض ماله وقال : هذا لكم وهذا لي هدية ، فقال عليه السلام : ألا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ، ثم قال : مالي أستعمل الرجل منكم فيقول هذا لكم وهذا لي هدية ألا جلست في بيت أمه ليهدي له والذي نفسي بيده لا يأخذ منكم أحد شيئا بغير حقه إلا أتى الله يحمله فلا يأتين أحدكم يوم القيامة يبيع له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رأيت بباض لبطيه ، ثم قال : اللهم هل بلغت »^(٣) ، وإذا ثبتت هذه التشديدات فالتقاضى والولى ينبغي أن يقدر نفسه في بيت أمه وأبيه فما كان يعطى بعد العزل وهو في بيت أمه يجوز له أن يأخذه في ولايته ، وما يعلم أنه ، إنما يعطاه لولايته لحرام أخذه ، وما أشكل عليه في هدايا أصدقائه أنهم هل كانوا يعطونه لو كان معزولا ؟ فهو شبهة فليجتنبه .

تم كتاب الحلال والحرام بحمد الله ومنه وحسن توفيقه والله أعلم

(١) حديث « يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعظة ، يقتل البريء لبوعظ به العامة » لم أقف له على أصل . (٢) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية . أخرجه البخاري من حديث عائشة . (٣) حديث أبي حميد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث واليا إلى صدقات الأزدي فلما جاء قال : هذا مالكم وهذا هدية لي . الحديث متفق عليه .

كتاب آداب الألفة والاخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

وهو الكتاب الخامس من ربيع العادات الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي غمر صفوة عباده بلطائف التخصيص طولا وامتانا . وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا . ونزع الغل من صدورهم فظلوا في الدنيا أصدقاء وأخذانا . وفي الآخرة رفقاء وخلانا . والصلاة والسلام على محمد المصطفى وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه واقتدوا به قولا وفعلًا وعدلا وإحسانا . أما بعد : فإن التحاب في الله تعالى والاخوة في دينه من أفضل القربات ، وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجارى العادات . ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمحتاجين في الله تعالى وفيها حقوق براعاتها تصفو الاخوة عن شوائب الكدورات وزغاث الشيطان ، فبالقيام بحقوقها يتقرب إلى الله زلي وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى ، ونحن نبين مقاعد هذا الكتاب في ثلاثة أبواب (الباب الأول) في فضيلة الألفة والاخوة في الله تعالى وشروطها ودرجاتها وفوائدها . (الباب الثاني) في حقوق الصحبة وآدابها وحقيقتها ولوازمها . (الباب الثالث) في حق المسلم والرحم والجوار والملك وكيفية المعاشرة مع من قد بلى بهذه الأسباب .

الباب الأول : في فضيلة الألفة والاخوة وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها

فضيلة الألفة والاخوة

أعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق ، والتفرق ثمرة سوء الخلق . لحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابير ، ومهما كان المشر محمدا كانت الثمرة محدودة . وحسن الخلق لا يتحقق في الدين فضيلته وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام إذ قال ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق ^(١) ، وقال أسامة بن شريك : قلنا يا رسول الله ما خير ما أعطى الإنسان ؟ فقال : خلق حسن ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : بعثت لأتمم محاسن الإخلاق ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أنقل ما يوضع في الميزان خلق حسن ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما حسن الله خلق امرئ وخلقه فيطعمه النار ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق ،

كتاب آداب الصحبة

الباب الأول : في فضيلة الألفة والاخوة

(١) حديث « أول ما يدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق » أخرجه الترمذى والحاكم من حديث أبي هريرة وقال : صحيح الإسناد وقد تقدم . (٢) حديث أسامة بن شريك : يا رسول الله ، ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال : خلق حسن » أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح . (٣) حديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه أحمد والبيهقي ، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « أنقل ما يوضع في الميزان خلق حسن » رواه أبو داود والترمذى من حديث أبي الدرداء وقال : حسن صحيح . (٥) حديث « ما حسن الله خلق امرئ وخلقه فيطعمه النار » أخرجه ابن عدى والطبراني في مكارم الأخلاق وفي الأوسط ، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة . قال ابن هدى : في إسناده بعض التسكرة .

قال أبو هريرة رضى الله عنه : وما حسن الخلق يا رسول الله ؟ قال : تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك ^(١) ، ولا يخفى أن ثمرة الخلق الحسن الالفه وانقطاع الوحشة ومهما طاب الشمر طابت الثمرة ، وكيف وقد ورد في الثناء على نفس الالفه سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحب الله من الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقنع ، قال الله تعالى مظهرا عظيم منته على الخلق بنعمة الالفه ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ وقال ﴿ فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ أى بالالفه ، ثم ذم التفرقة وزجر عنها فقال عز من قائل ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا - إلى - لعلمكم تهتدون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم في الثناء على الاخوة في الدين « من أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا إن نسي ذكره وإن ذكر أعاه ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الأخوين إذ التقيا مثل اليمين تغسل إحداهما الأخرى وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرا ^(٥) » وقال عليه السلام في الترغيب في الأخوة في الله « من آخى أخا في الله رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله ^(٦) » ، وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ : إني أحبك في الله ، فقال له : أبشر ثم أبشر فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفرح الناس وهم لا يفرحون ويخاف الناس وهم لا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقال : هم المتحابون في الله تعالى ^(٧) » ، ورواه أبو هريرة رضى الله عنه وقال فيه « إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور وجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء ينبطهم النبيون والشهداء ، فقالوا ، يا رسول الله صفهم لنا ؛ فقال : هم المتحابون في الله والمتجالسون في الله »

(١) حديث « يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق » قال : وما حسن الخلق ؟ قال « تصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك » رواه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه . (٢) حديث « إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » رواه الطبراني في معجم الأئمة من حديث جابر بسند ضعيف .

(٣) حديث « المؤمن ألف مألوف ولاخير فيمن لا يألف ولا يؤلف » رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد ، والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه . (٤) حديث « من أراد الله به خيرا رزقه أخا صالحا لمن نسي ذكره وإن ذكر أعاه » غريب بهذا اللفظ ، والمعروف أن ذلك في الأمير . ورواه أبو داود من حديث عائشة « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق لمن أسي ذكره وإن ذكر أعاه ... الحديث » ضعفه ابن عدى ، ولأبي عبد الرحمن السلمى في آداب الصلوة من حديث علي « من سمعة المرء أن يكون لمخوانه صالحين » . (٥) حديث « مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليمين تغسل إحداهما الأخرى » الحديث رواه السلمى في آداب الصلوة ، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس ، وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي كذاب ، وهو من قول سلمان الفارسي في الأول من الخزيات . (٦) حديث « من آخى أخا في الله عز وجل رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوة من حديث أنس « ما أحدث عبد أخا في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة » وإسناده ضعيف . (٧) حديث قال أبو إدريس الخولاني لمعاذ : إني أحبك في الله فقال : أبشر ثم أبشر ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة ... الحديث » أخرجه أحمد والحاكم في حديث طويل : أن أبا إدريس قال : قلت والله إني لأحك في الله قال : فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن المتحابين بجلال الله في ظل عرشه يوم لا ظل الا ظه » قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ، وهو عند الترمذى من رواية أبي مسلم الخولاني عن معاذ بلفظ « المتحابون في جلال لهم منابر من نور ينبطهم النبيون والشهداء » قال حديث حسن صحيح ، ولأحمد من حديث أبي مالك الأشعري « أن الله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء ينبطهم الأنبياء والشهداء على منازلهم وقرىهم من الله ... الحديث » وفيه « تحابوا في الله وتصافوا به يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فتجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا يفرح الناس يوم القيامة ولا يفرحون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وفيه شهر بن حوشب مختلف فيه .

والتزاورون في الله ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما تحاب اثنان الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما جبا لصاحبه ^(٢) ، ويقال : إن الأخوين في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه وأنه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالأبوين ، والأهل بعضهم ببعض لأن الأخوة إذا اكتسبت في الله لم تكن دون أخوة الولادة . قال عز وجل ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يقول حقت محبتي للذين يتزاورون من أجل وحقت محبتي للذين يتحابون من أجل وحقت محبتي للذين يتقاربون من أجل ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله تعالى ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما زار رجل رجلا في الله شوقا إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه ملك من خلقه طبت وطاب ممشاك وطابت لك الجنة ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن رجلا زار أخاه في الله ، فأرصد الله له ملكا فقال : أين تريد ؟ قال : أريد أن أزور أخي فلانا ، فقال : لحاجة لك عنده ؟ قال : لا ، قال : لقرابة بينك وبينه ؟ قال : لا ، قال : فبنعمة له عندك ؟ قال : لا ، قال : فبم ؟ قال أحبه في الله قال . فإن الله أرسلني إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ^(٨) ، فلهذا يجب أن يكون للرجل أعداء يبغضهم في الله كما يكون له أصدقاء وإخوان يحبهم في الله . ويروي أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء : أما زهدك في الدنيا فقد تعطلت الراحة وأما انقطاعك إلى فقد تعزبت بي ولكن هل عادت في عدوا أهل البيت في وليا ؟ وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم لا تجعل لفاجر على مئة قرزقة مني حجة ^(٩) ، ويروي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام ، لو أنك عبدتني بعبادة أهل السماوات والأرض وحب في الله ليس وبغض في الله ليس ما أغني عنك ذلك شيئا ، وقال عيسى عليه السلام : تحبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم والتسوا رضا الله بسخطهم ، قالوا : ياروح الله فن نجالس ؟ قال : جالسوا من تذكركم الله رؤيته ومن يزيد في عملكم كلامه ومن يرفعكم في الآخرة عمله . وروي في الأخبار السالفة أن الله عز وجل أوحى إلى موسى

(١) حديث أبي هريرة « إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور لبسوا بأنبياء ولا شهداء ... الحديث » أخرجه النسائي في سننه الكبرى ورجاله ثقات . (٢) حديث « ما تحاب اثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما جبا لصاحبه » أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال : صحيح الإسناد . (٣) حديث « إن الله يقول : حقت محبتي للذين يتزاورون من أجل ، وحقت محبتي للذين يتحابون من أجل ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث عمرو بن عبسة وحديث عبادة بن الصامت ، ورواه الحاكم وصححه . (٤) حديث « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » أخرجه مسلم . (٥) حديث أبي هريرة « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله لإمام عادل : الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم . (٦) حديث « ما زار رجل رجلا في الله شوقا إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه ملك من خلقه طبت وطابت لك الجنة » أخرجه ابن عدى من حديث أنس دون قوله « شوقا إليه ورغبة في لقائه » ولترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة « من عاد صريضا أو زارا أخا في الله ناداه مناد من السماء طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا » قال الترمذي : غريب . (٧) حديث « إن رجلا زار أخاه في الله فأرصد الله له ملكا فقال : أين تريد ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٨) حديث « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » رواه أحمد من حديث البراء بن عازب ، وفيه ليث بن أبي سليم يختلف فيه . والخراطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٩) حديث « اللهم لا تجعل لفاجر على مئة ... الحديث » تقدم في الكتاب الذي قبله .

عليه السلام . يا ابن عمران كن يقظانا وارشد نفسك لإخواننا وكل خدن وصاحب لا يوازرك على مسرق فهو لك عدو وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال : ياداوود مالى أراك منتبذا وحيدا ؟ قال : إلهى فليت الخلق من أجلك ، فقال : ياداوود كن يقظانا وارشد نفسك أخداننا وكل خدن لا يوافقك على مسرق فلا تصاحبه فإنه لك عدو يقضى قلبك ويواعدك منى . وفى أخبار داود عليه السلام أنه قال : يارب كيف لى أن يحبنى الناس كلهم وأسلم فيما بينى وبينك ؟ قال : خالق الناس بأخلاقهم وأحسن فيما بينى وبينك . وفى بعضها : خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم ، إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم إلى الله المشامون بالنيمة المرفقون بين الإخوان ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إن لله ملكا نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول : اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألفت بين قلوب عبادك الصالحين ^(٢) ، وقال أيضا ، ما أحدث عبد أخافى الله إلا أحدث له درجة فى الجنة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، المتحاربون فى الله على عمود من ياقوتة حمراء فى رأس العمود سبعون ألف غرفة يشرفون على أهل الجنة يضىء حسنهم لأهل الجنة كما تضىء الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة : انطلقوا بنا ننظر إلى المتحاربين فى الله فيضىء حسنهم لأهل الجنة كما تضىء الشمس ، عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم : المتحاربون فى الله ^(٤) .

الآثار : قال على رضى الله عنه : عليكم بالإخوان فإنهم عدة فى الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار ﴿ فإنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ وقال عبدالله بن عمر رضى الله عنهما : والله لو صمت النهار لا أفطره وقت الليل لا أنامه وأنفقت مالى غلقا غلقا فى سبيل الله أموت يوم أموت وليس فى قلبى حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله مانعنى ذلك شيئا . وقال ابن السماك عند موته : اللهم إنك تعلم أنى إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك فأجعل ذلك قرينة لى إليك . وقال الحسن - على ضده - يا ابن آدم لا يغرنك قول من يقول المرء مع من أحب فإنه لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم . وهذه إشارة إلى أن مجرد ذلك من غير موافقة فى بعض الأعمال أو كلها لا ينفع وقال الفضيل فى بعض كلامه : هاهنا تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن فى داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؟ بأى عمل عملته ؟ بأى شهوة تركتها ؟ بأى غيظ كظمته ؟ بأى رحم قاطع وصلتها ؟ بأى زلة لأخيك غفرتها ؟ بأى قريب باعدته فى الله ؟ بأى بعيد قاربته فى الله ؟ ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : هل عملت لى عملا قط ؟ فقال : إلهى لى صليت لك وصمت وتصدقت وزكيت ، فقال : إن الصلاة لك برهان والصوم جنة والصدقة ظل والزكاة نور فأى عمل عملت لى قال موسى إلهى دلتى على عمل هو لك ؟ قال : ياموسى هل واليت لى ولما قط ؟ وهل عادت فى عدو قط ؟ فلم موسى أن أفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : لو أن رجلا قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب . وقال الحسن رضى الله عنه : مصارمه الفاسق قربان إلى الله وقال رجل ل محمد بن واسع : انى لأحبك فى الله ، فقال : أحببك الذى أحببتى له . ثم حوّل وجهه وقال : اللهم انى

(١) حديث « إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والمصنوع من حديث أبى هريرة بسند ضعيف . (٢) حديث « إن لله ملكا نصفه من النار ونصفه من الثلج يقول : اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألفت بين قلوب عبادك الصالحين » رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث معاذ بن جبل والعمري بن سارية بسند ضعيف (٣) حديث « ما أحدث عبد أخافى الله تعالى إلا أحدث الله له درجة فى الجنة » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخوان من حديث أنس وقد تقدم . (٤) حديث « المتحاربون فى الله على عمود من ياقوتة حمراء فى رأس العمود سبعون ألف غرفة ... الحديث » رواه الحكيم الترمذى فى النوادر من حديث ابن مسعود بسند ضعيف .

أعوذ بك أن أحب فيك وأنت لي مبغض . ودخل رجل على داود الطائي فقال له : ما حاجتك ؟ فقال : زيارتك ، فقال : أما أنت فقد عملت خيرا حين زرت ، ولكن انظر ماذا ينزل بي أنا إذا قيل لي : من أنت فتزار ؟ أمن الزهاد أنت ؟ لا والله ، أمن العبادات ؟ لا والله أمن الصالحين أنت ؟ لا والله . ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول : كنت في الشبهة فاسقا فلما شئت صرت مرائيا والله للمرائي شر من الفاسق وقال عمر رضى الله عنه : إذا أصاب أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك . وقال مجاهد : المتحابون في الله إذا التقوا فكشروا بعضهم إلى بعض تتحات عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر في الشتاء إذا يبس . وقال الفضيل : نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة.

بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من الأخوة في الدنيا

اعلم أن الحب في الله والبغض في الله غامض وينكشف الغطاء عنه نمانذ كره : وهو أن الصحبة تنقسم إلى ما يقع بالانفاق ، كالصحبة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب أو في المدرسة أو في السوق أو على باب السلطان أو في الأسفار ، وإلى ما ينشأ اختيارا ويقصد ، وهو الذي نريد بيانه إذ الأخوة في الدين واقعة في هذا القسم لاحالة إذ لا أبواب إلا على الأفعال الاختيارية ولا ترغيب إلا فيها . والصحبة عبارة عن المجالسة والمجاورة . وهذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه فإن غير المحبوب يجتنب ويأعد ولا تقصد مخالطته ، والذي يجب فإما أن يحب لذاته لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراه وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود ، وذلك المقصود إما أن يكون مقصورا على الدنيا وحظوظها وإما أن يكون متعلقا بالآخرة وإما أن يكون متعلقا بالله تعالى فهذه أربعة أقسام :

أما القسم الأول وهو حبك الإنسان لذاته فذلك ممكن وهو أن يكون في ذاته محبوبا عندك على معنى أنك تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له ، فإن كل جميل لذيد في حق من أدرك جماله وكل لذيد محبوب . واللذة تتبع الاستحسان والاستحسان يتبع المناسبة والملاءمة والموافقة بين الطباع ، ثم ذلك المستحسن إما أن يكون هو الصورة الظاهرة أعني حسن الخلقة وإما أن يكون هو الصورة الباطنة أعني كمال العقل وحسن الاخلاق ، ويتبع حسن الاخلاق حسن الأفعال لاحالة ويتبع كمال العقل غزارة العلم ، وكل ذلك مستحسن عند الطبع السليم والعقل المستقيم ، وكل مستحسن فستلذ به ومحبوب ، بل في اتلاف القلوب أمر أغرض من هذا فإنه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير ملاحظة في صورة ولا حسن في خلق وخلق ولكن لمناسبة توجب الالفة والموافقة فإن شبه الشيء يجذب إليه بالطبع ، والأشياء الباطنة خفية ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حيث قال « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ^(١) » ، فالتناكر نتيجة التباين والائتلاف نتيجة التناسب الذي عبر عنه بالتعارف . وفي بعض الألفاظ « الأرواح جنود مجندة تلتقي فتتشام في الهواء ^(٢) » وقد كنى بعض العلماء عن هذا بأن قال : إن الله تعالى خلق الأرواح فخلق بعضها فلحقا وأطافها حول العرش فأى روحين من فلقنتين تعارفا هناك فالتقيا توأما في الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم « إن أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط ^(٣) » ، وروى « أن امرأة بمكة كانت تضحك

(١) حديث « الأرواح جنود مجندة فا تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة والبخاري تعليقا من حديث عائشة . (٢) حديث « الأرواح تلتقي فتتشام في الهواء » أخرجه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث علي « أن الأرواح في الهواء جند مجندة تلتقي فتتشام ... الحديث » . (٣) حديث « أن أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ « تلتقي » وقال « أحدهم » وفيه ابن أبي عمير عن دراج (٢١ - لجاء علوم الدين - ٢)

النساء وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المسكية على المدينة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فأضحكتها ، فقالت : أين نزلت ؟ فذكرت لها صاحبها ، فقالت : صدق الله ورسوله ^(١) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأرواح جنود مجندة ... الحديث » ، والحق في هذا أن المشاهدة والتجربة تشهد للاتلاف عند التناسب والتناسب في الطباع والأخلاق باطنا وظاهرا أمر مفهوم . وأما الأسباب التي أوجبت تلك المناسبة فليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، وغاية هذيان المنجم أن يقول ، إذا كان طالعه على تسديس طالع غيره أو تثلثه فهذا نظر الموافقة والمودة فتقتضى التناست والتواد ، وإذا كان على مقابلته أو تريعه اقتضى التباغض والعداوة . فهذا لو صدق بكونه كذلك في مجارى سنة الله في خلق السموات والأرض لكن الإشكال فيه أكثر من الإشكال في أصل التناسب ، فلا معنى للخوض فيما لم يكشف سره للبشر فما أوتينا من العلم إلا قليلا ، ويكفي في التصديق بذلك التجربة والمشاهدة فقد ورد الخبر به قال صلى الله عليه وسلم « لو أن مؤمنا دخل إلى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد لجاء حتى يجلس إليه ، ولو أن منافقا دخل إلى مجلس فيه مائة مؤمن ومنافق واحد لجاء حتى يجلس إليه » ^(٢) ، وهذا يدل على أن شبه الشيء منجذب إليه بالطبع وإن كان هو لا يشعر به وكان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر ، وإن أجناس الناس كأجناس الطير ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبة ، قال فرأى يوما غرابا مع حمامة فعجب من ذلك فقال : اتفقا وليس من شكل واحد ، ثم طارا فإذا هما أعرجان فقال : من ههنا اتفقا ؛ ولذلك قال بعض الحكماء : كل إنسان يأنس إلى شكله كما أن كل طير يطير مع جنسه ، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الحال فلا بد أن يفترقا ، وهذا معنى خفي تفطن له الشعراء حتى قال قائلهم :

وقائل كيف تفارقتما فقلت قولاً فيه إنصاف

لم يلك من شكلي ففارقته والناس أشكال وألأف

فقد ظهر من هذا أن الإنسان قد يحب لذاته لا لفائدة تنال منه في حال أو مآل بل لمجرد المجانسة والمدة في الطباع الباطنة والأخلاق الخفية . ويدخل في هذا القسم الحب للجمال إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة فإن الصور الجميلة مستلذة في عينها وإن قدر فقد أصل الشهوة حتى يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار والتفاح المشرب بالحرمة وإلى الماء الجاري والخضرة من غير غرض سوى عينها . وهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله بل هو حب بالطبع وشهوة النفس ، ويتصور ذلك ممن لا يؤمن بالله إلا أنه إن اتصل به غرض مذموم صار مذموماً كحب الصورة الجميلة لقضاء الشهوة حيث لا يحل قضاؤها . وإن لم يتصل به غرض مذموم فهو مباح لا يوصف بمحمد ولا ذم ، إذ الحب إما محمود وإما مذموم وإما مباح لا يحمده ولا يذمه .

القسم الثاني : أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته فيكون وسيلة إلى محبوب غيره والوسيلة إلى المحبوب محبوب ، وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة . ولكن الطريق إلى المحبوب محبوب ولذلك أحب الناس الذهب

(١) حديث : ان امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المسكية على المدينة فدخلت على عائشة فذكرت حديث « الأرواح جنود مجندة » أخرجه الحسن بن سفيان في مستدركه بالقصة بسند حسن ، وحديث عائشة عند البخاري تعليقاً مختصراً أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على ابن مسعود ، وذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ بن جبل ، ولم يخرجوه ولمه في المستدرك .

والفضة ولا غرض فيهما إذ لا يطعم ولا يلبس ولكنهما وسيلة إلى المحبوبات فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث إنه وسيلة إلى المقصود إذ يتوصل به إلى نيل جاه أو مال أو علم كما يحب الرجل سلطانا لا انتفاعه بماله أو جاهه ويحب خواصه لتحسين حاله عنده وتمهيد أمره في قلبه ، فالتوصل إليه إن كان مقصور الفائدة على الدنيا لم يكن حبه من جملة الحب في الله ، وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ولكنه ليس يقصد به إلا الدنيا كحب التلميذ لأستاذه فهو أيضا خارج عن الحب لله فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه فحجبه العلم ، فإذا كان لا يقصد العلم للتقرب إلى الله بل لينال به الجاه والمال والقبول ، عند الخلق فحجبه الجاه والقبول ، والعلم وسيلة إليه والأستاذ وسيلة إلى العلم ، فليس في شيء من ذلك حب لله إذ لا يتصور كل ذلك من لا يؤمن بالله تعالى أصلا . ثم ينقسم هذا أيضا إلى مذموم ومباح فإن كان يقصد به التوصل إلى مقاصد مذمومة من قهر الأقران وحباسة أموال اليتامى وظلم الرعاة بولاية القضاء أو غيره كان الحب مذموما ، وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح وإنما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد المتوصل إليه فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها .

القسم الثالث : أن يحبه لالذاته بل لغيره وذلك الغير ليس راجعا إلى حظوظه في الدنيا بل يرجع إلى حظوظه في الآخرة فهذا أيضا ظاهر لا غموض فيه ، وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة فهذا من جملة المحبين في الله ، وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويرقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء ، إذ قال عيسى صلى الله عليه وسلم من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء . ولا يتم التعليم إلا بتعلم فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال ، فإن أحبه لأنه آلة له إذ جعل صدره مزرعة لحرثه الذي هو سبب ترقيه إلى رتبة التعظيم في ملكوت السماء فهو محب في الله ، بل الذي يتصدق بأمواله لله ويجمع الضيافان ويهيئ لهم الأطعمة اللذيذة الغريبة تقربا إلى الله فأحب طباعا لحسن صنعته في الطبخ فهو من جملة المحبين في الله ، وكذا لو أحب من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين فقد أحبه في الله ، بل نزيد على هذا ونقول : إذا أحب من يخدمه بنفسه في غسل ثيابه وكسب بيته وطبخ طعامه ويفرغه بذلك للعلم أو العمل ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب في الله ، بل نزيد عليه ونقول : إذا أحب من يتفق عليه من ماله ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع أغراضه التي يقصدها في دنياه ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرب إلى الله فهو محب في الله . فقد كان جماعة من السلف تكفل بكفائتهم جماعة من أولى الثروة وكان المواسي والمواسي جميعا من المتحابين في الله ، بل نزيد عليه ونقول : من نكح امرأة صالحة ليتحصن بها عن وسواس الشيطان يصون بها دينه أو ليولد منها له ولد صالح يدعو له وأحب زوجته لأنها آلة إلى هذه المقاصد الدينية فهو محب في الله . ولذلك وردت الأخبار بوفور الأجر والثواب على الإنفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل في فم امرأته ^(١) بل نقول : كل من استهتر بحب الله وحب رضاه وحب لقائه في الدار الآخرة فإذا أحب غيره كان محبا في الله لأنه لا يتصور أن يحب شيئا إلا لمناسبته لما هو محبوب عنده وهو رضا الله عز وجل ، بل أزيد على هذا وأقول : إذا اجتمع في قلبه محبتان محبة الله ومحبة الدنيا واجتمع في شخص واحد المعنيين جميعا حتى صلح لأن يتوصل به إلى الله وإلى الدنيا فإذا أحبه لصلاحه للأمرين فهو من المحبين في الله ، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة في المال فأحبه من حيث إن في طبعه طلب الراحة في الدنيا

(١) حديث « الأجر في الإنفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل في فم امرأته » تقدم .

والسعادة في الآخرة فهو وسيله إليهما فهو محب في الله ، وليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجل حظا ألبته إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة ومن ذلك قولهم ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ وقال عيسى عليه السلام في دعائه : اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تسوي صديقي ولا تجعل مصيبتى لديني ولا تجعل الدنيا أكبر همى فدفع شماته الأعداء من حظوظ الدنيا ، ولم يقل : ولا تجعل الدنيا أصلا من همى ، بل قال : لا تجعلها أكبر همى . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه : اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة ^(١) ، وقال : اللهم عافني من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ^(٢) ، وعلى الجملة فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة منافضا لحب الله تعالى لحب السلامة والضحة والكفاية والكرامة في الدنيا كيف يكون منافضا لحب الله؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحدهما أقرب من الأخرى فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غدا ولا يحبها اليوم؟ وإنما يحبا غدا لأن الغد سيصير حالا راهنة فالحالة الراهنة لابد أن تكون مطلوبة أيضا ، إلا أن الحظوظ العاجلة منقسمة إلى ما يصاد حظوظ الآخرة ويمنع منها وهي التي احترز عنها الأنبياء والأولياء وأمروا بالاحتراز عنها وإلى ما لا يصاد وهي التي لم يمتنعوا منها كالنكاح الصحيح وأكل الحلال وغير ذلك ، فما يصاد حظوظ الآخرة فحق العاقل أن يكرهه ولا يحبه أعنى أن يكرهه بعقله لا بطبعه ، كما يكره التناول من طعام لذيذ الملك من الملوك يعلم أنه لو أقدم عليه لقطعته يده أو حزت رقبتة لا بمعنى أن الطعام اللذيذ يصير بحيث لا يشتبه بطبعه ولا يستلذه لو أكله فإن ذلك محال ، ولكن على معنى أنه يزجره عقله عن الإقدام عليه وتحصل فيه كراهة الضرر المتعلق به . والمقصود من هذا أنه لو أحب أستاذه لأنه يواسيه ويعلمه أو تليذه لأنه يتعلم منه ويخدمه وأحدهما حظ عاجل والآخر أجل لكان في زمرة المتحابين في الله ، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون بحيث لو منعه العلم مثلا أو تعذر عليه تحصيله منه لنقص حبه بسببه فالقدر الذي ينقص بسبب فقدده هو الله تعالى ، وله على ذلك القدر ثواب الحب في الله وليس بمستكر أن يشتد حبك لإنسان لجملة أغراض ترتبط لك به فإن امتنع بعضها نقص حبك وإن زاد زاد الحب ، فليس حبك الذهب كحبك للفضة إذا تساوى مقدارهما لأن الذهب يوصل إلى أغراض هي أكثر مما توصل إليه الفضة ، فإذا زيد الحب بزيادة الغرض ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والآخورية فهو داخل في جملة الحب لله . وحده هو أن كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتصور وجوده فهو حب في الله ، وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان بالله لم تكن تلك الزيادة فتلك الزيادة من الحب في الله فذلك وإن دق فهو عزيز . قال الجريري : تعامل الناس في القرن الأول بالدين حتى رق الدين وتعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء وفي الثالث بالمرودة حتى ذهبت المرودة ولم يبق إلا الرهبة والرغبة .

القسم الرابع : أن يحب لله وفي الله لالينال منه علما أو عملا أو يتوسل به إلى أمر وراه ذاته وهذا أعلى الدرجات وهو أدقها وأغضها ، وهذا القسم أيضا ممكن فإن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد ، فمن أحب انسانا حبا شديدا أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثنى عليه محبوبه وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه ، حتى قال بقية بن الوليد : إن المؤمن إذا أحب المؤمن أحب كلبه ؛ وهو كما قال : ويشهد له التجربة في أحوال العشاق ويدل عليه أشعار الشعراء ولذلك يحفظ

(١) حديث « اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة » أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس في الحديث الطويل في دعائه صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الليل وقد تقدم . (٢) حديث « اللهم عافني من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة » أخرجه أحمد من حديث بشر بن أبي أرطاة نحوه بسند جيد .

ثوب المحبوب ويخفيه تذكرة من جهته ويحب منزله ومحلته وجيرانه حتى قال مجنون بنى عامر :

أمر على الديار ديار للى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

فإذن المشاهدة والتجربة تدل على أن الحب يتعدى من ذات المحبوب إلى ما يحيط به ويتعلق بأسبابه ويناسبه ولو من بعد ؛ ولكن ذلك من خاصية فرط المحبة فأصل المحبة لا يمكن فيه ويكون اتساع الحب في تعديه من المحبوب إلى ما يكتنفه ويحيط به ويتعلق بأسبابه بحسب إفراط المحبة وقوتها ، وكذلك حب الله سبحانه وتعالى إذا قوى وغلب على القلب واستولى عليه حتى انتهى إلى حد الاستهتار فيتعدى إلى كل موجود سواء ، فإن كل موجود سواء أثر من آثار قدرته ومن أحب إنسانا أحب صنعته وخطه وجميع أفعاله ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال : إنه قريب العهد برئنا ^(١) وحب الله تعالى تارة يكون لصدق الرجاء في مواعيده وما يتوقع في الآخرة من نعيمه ، وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته ، وتارة لذاته لا لأمر آخر وهو أدق ضرب المحبة وأعلاها - وسيأتى تحقيقها في كتاب المحبة من ربيع المنجيات إن شاء الله تعالى - وكيفما اتفق حب الله فإذا قوى تعدى إلى كل متعلق به ضربا من التعلق حتى يتعدى إلى ما هو في نفسه مؤلم مسكروه واسكن فرط الحب يضعف الإحساس بالألم والفرح بفعل المحبوب وقصده إياه بالإيلام يغمر إدراك الألم ، وذلك كالفرح بضربة من المحبوب أو قرصة فيها نوع معاناة فإن قوة المحبة تثير فرحا يغمر إدراك الألم فيه وقد انتهت محبة الله بقوم إلى أن قالوا لا نفرق بين البلاء والنعمة فإن الكل من الله ولا نفرح إلا بما فيه رضاه حتى قال بعضهم لا أريد أن أنال مغفرة الله بمعصية الله . وقال سمنون :

وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاختبرنى

وسيأتى تحقيق ذلك في كتاب المحبة . والمقصود أن حب الله إذ قوى أثمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل وأثر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن أو تأدب بأداب الشرع . وما من محب للآخرة ومحب لله إلا إذا أخبر عن حال رجلين أحدهما عالم عابد والآخرة جاهل فاسق إلا وجد في نفسه ميلا إلى العالم العابد ، ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته وبحسب ضعف حبه لله وقوته وهذا الميل حاصل وإن كانا غائبين عنه بحيث يعلم أنه لا يصيبه منهما خير ولا شر في الدنيا ولا في الآخرة ، فذلك الميل هو حب في الله والله من غير حظ فإنه إنما يحب لأن الله يحبه ولأنه مرضى عند الله تعالى ولأنه يحب الله تعالى ولأنه مشغول بعبادة الله تعالى إلا أنه إذا ضعف لم يظهر أثره ولا يظهر به ثواب ولا أجر ، فإذا قوى حمل على الموالاة والنصرة والذب بالنفس والمال واللسان وتتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله عز وجل ، ولو كان الحب مقصورا على حظ ينال من المحبوب في الحال أو المال لما تصور حب الموتى من العلماء والعباد ومن الصحابة والتابعين بل من الأنبياء المنقرضين صلوات الله عليهم وسلامه ، وحب جميعهم مكنون في قلب كل مسلم متدين ، ويتبين ذلك بغضبه عند طعن أعدائهم في واحد منهم ويفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم وكل ذلك حب لله لأنهم خواص عباد الله

(١) حديث : كان إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال إنها قريب عهد برئنا . أخرجه الطبراني في الصغير من حديث ابن عباس ، وأبو داود في المراسيل ، والبيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة دون قوله « وأكرمها » الخ ، وقال : إنه غير محفوظ ، وحديث أبي هريرة في الباكورة عند بقية أصحاب السنن دون : مسح عينيه بها وما بعده ، وقال الترمذي حسن صحيح .

ومن أحب ملكاً أو شخصاً جليلاً أحب خواصه وخدمه وأحب من أحبه إلا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظ إلا فيما هو حظ المحبوب ، وعنه عبر قول من قال :

أريد وصاله ويريد هجرى فأتى ما أريد لما يريد

وقول من قال : وما لجرح إذا أرضاكم ألم ؟ وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض كمن تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله أو في ثلثه أو في عشره فقادير الأموال موازين المحبة إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحسوب يترك في مقابلته ؛ فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يمسك لنفسه شيئاً مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه لم يترك لنفسه أهلاً ولا مالا فسلم ابنته التي هي قرة عينه وبذل جميع ماله . قال ابن عمر رضي الله عنهما : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال إذ نزل جبريل عليه السلام فقرأه عن الله السلام وقال له : يا رسول الله ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال ؟ فقال : أنفق ماله على قبل الفتح ، قال : فأقره من الله السلام وقل له يقول لك ربك أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط ؟ قال : فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر وقال : يا أبا بكر هذا جبريل يقرئك السلام من الله ويقول أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط ؟ قال : فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال : أعلى ربي أسخط أنا عن ربي راض ^(١) ، . فحصل من هذا أن كل من أحب عالماً أو عابداً أو أحب شخصاً راغباً في علم أو في خير فإنما أحبه في الله والله وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه ، فهذا شرح الحب في الله ودرجاته وبهذا يتضح البغض في الله ولكن نزيد بياناً .

بيان البغض في الله

اعلم أن كل من يحب في الله لابد أن يبغض في الله فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحسوب عند الله فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه عاص لله وعقوق عند الله ، ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر وهو مطرد في الحب والبغض في العادات ولكن كل واحد من الحب والبغض داء دفين في القلب ، وإنما يترشح عند الغلبة ويترشح بظهور أفعال الحبين والمبغضين في المقاربة والمباعدة وفي المخالفة والموافقة فإذا ظهر في الفعل سمى موالاته ومعاداة ، ولذلك قال الله تعالى : هل واليت في وليا وهل عاديت في عدوا ؟ كما نقاه ، وهذا واضح في حق من لم يظهر لك إلا طاعاته تقدر على أن تحبه أو لم يظهر لك إلا فسقه وفجوره وأخلاقه السيئة فتقدر على أن تبغضه ، وإنما المشكل إذا اختلطت الطاعات بالمعاصي فإنك تقول كيف أجمع بين البغض والمحبة وهما متناقضان ؟ وكذلك تتناقض ثمرتهما من الموافقة والمخالفة والموالات والمعاداة وأقول ذلك غير متناقض في حق الله تعالى كما لا يتناقض في الحظوظ البشرية ؛ فإنه مهما اجتمع في شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه ، فمن زوجة حسنة فاجرة أو ولد ذكي خديم ولكنه فاسق فإنه يحبه من وجه ويبغضه من وجه ويكون معه على حالة بين حالتين ، إذ لو فرض له ثلاثة أولاد أحدهم ذكي بار والآخر بليد عاق والآخر بليد بار أو ذكي عاق فإنه يصادف نفسه معهم على ثلاثة أحوال متفاوتة بحسب تفاوت خصالهم ، فكذلك ينبغي أن تكون حالك بالإضافة إلى من غلب عليه الفجور ومن غلبت

(١) حديث ابن عمر : بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال فنزل جبريل فقرأه من ربه السلام . الحديث ، أخرجه ابن حبان والعليل في الضعفاء ، قال الذهبي في الميزان : هو كذب .

عليه الطاعة ومن اجتمع فيه كلاهما متفاوتة على ثلاث مراتب ، وذلك بأن تعطى كل صفة حظها من البغض والحب والإعراض والإقبال والصحة والقطيعة وسائر الأفعال الصادرة منه .

* فإن قلت : كل مسلم فإسلامه طاعة منه فكيف أبغضه مع الإسلام ؟ فأقول : تحبه لإسلامه وتبغضه لمعصيته وتكون معه على حالة لو قسيتها بحال كافر أو فاجر أدركت تفرقة بينهما وتلك التفرقة حب للإسلام وقضاء لحقه وقدر الجناية على حق الله والطاعة له كالجناية على حقه والطاعة لك . فمن وافقك على غرض وخالفك في آخر فكن معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال وبين الإقبال والإعراض وبين التودد إليه والتوحش عنه ، ولا تبالغ في إكرامه مبالغتك في إكرام من يوافقك على جميع أغراضك ، ولا تبالغ في إهانتك مبالغتك في إهانة من خالفك في جميع أغراضك . ثم ذلك التوسط تارة يكون ميلاً إلى طرف الإهانة عند غلبة الجناية وتارة إلى طرف الجمالة والإكرام عند غلبة الموافقة ؛ فهكذا ينبغي أن يكون فيمن يطيع الله تعالى ويعصيه ويتعرض لرضاه مرة ولسخطه أخرى .

* فإن قلت : فياذا يمكن إظهار البغض ؟ فأقول أما في القول فبكف اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة وبالاستخفاف والتغليظ في القول أخرى . وأما في الفعل فبقطع السعي في إعانتة مرة وبالسعي في إساءته وإفساد مآربه أخرى . وبعض هذا أشد من بعض وهي بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه . أما ما يجري مجرى الهفوة التي يعلم أنه متدم عليها ولا يصير عليها فالأولى فيه الستر والإغماض . أما ما أصر عليه من صغيرة أو كبيرة فإن كان ممن تأكدت بينك وبينه مودة وصحبة وأخوة فله حكم آخر - وسيأتي وفيه خلاف بين العلماء - وأما إذا لم تتأكد أخوة وصحبة فلا بد من إظهار أثر البغض إما في الإعراض والتباعد عنه وقلة الالتفات إليه وإما في الاستخفاف وتغليظ القول عليه . وهذا أشد من الإعراض وهو بحسب غلظ المعصية وخفتها ، وكذلك في الفعل أيضاً رتبتان ؛ إحداها : قطع المعونة والرفق والنصرة عنه وهو أقل الدرجات ، والأخرى : السعي في إفساد أغراضه عليه كفعل الأعداء المبغضين ، وهذا لا بد منه ولكن فيما يفسد عليه طريق المعصية . أما ما لا يؤثر فيه فلا ، مثاله رجل عصي الله بشرب الخمر وقد خطب امرأة لو تيسر له نكاحها لكان مغبوطاً بها بالمال والجمال والجاه إلا أن ذلك لا يؤثر في منعه من شرب الخمر ولا في بعث وتحريض عليه ، فإذا قدرت على إعانتة لیتم له غرضه ومقصوده وقدرت على تشويشة ليفوته غرضه فليس لك السعي في تشويشه . أما الإعانة فلو تركتها لإظهارا للغضب عليه في فسقه فلا بأس ، وليس يجب تركها إذ ربما يكون لك نية في أن تتلطف بإعانتته وإظهار الشفقة عليه ليعتقد مودتك ويقبل نصحتك فهذا حسن ، وإن لم يظهر لك ولكن رأيت أن تعينه على غرضه قضاء لحق لإسلامه فذلك ليس بممنوع بل هو الأحسن إن كانت معصيته بالجناية على حقه أو حق من يتعلق بك . وفيه نزل قوله تعالى ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ إذ تكلم مسطح بن أثانة في واقعة الإفك^(١) خلف أبو بكر أن يقطع عنه رفقته - وقد كان يواسيه بالمال - فنزلت الآية - مع عظم معصية مسطح ، وأية معصية تزيد على التعرض لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإطالة اللسان في مثل عائشة رضي الله عنها ، إلا أن الصديق رضي الله عنه كان كالجنى عليه في نفسه بتلك الواقعة والعفو عن ظلم والإحسان إلى من أساء من أخلاق الصديقين . وإنما يحسن الإحسان إلى من ظلمك ، فأما من ظلم غيرك وعصى الله به فلا يحسن إحسانك إليه لأن في الإحسان إلى الظالم إساءة إلى المظلوم

(١) حديث : كلام مسطح في الإفك وهجر أبي بكر له حتى نزلت : ولا يأتل أولوا الفضل منكم . الآية . متفق عليه من حديث عائشة .

وحق المظلوم أولى بالمرعاة وتقوية قلبه بالإعراض عن الظالم أحب إلى الله من تقوية قلب الظالم فأما إذا كنت أنت المظلوم فالأحسن في حثك العفو والصفح وطرق السلف قد اختلفت في إظهار البغض مع أهل المعاصي وكلهم اتفقوا على إظهار البغض للظلمة والمبتدعة وكل من عصى الله بمعصية متعدية منه إلى غيره ، فأما من عصى الله في نفسه فمنهم من نظر بعين الرحمة إلى العصاة كلهم ، ومنهم من شدد الإنكار واختار المهاجرة . فقد كان أحمد بن حنبل يهجر الأكابر في أدنى كلمة ، حتى هجر يحيى بن معين لقوله : إني لا أسأل أحدا شيئا ولو حمل السلطان إلى شيئا لأخذته . وهجر الحارث المحاسبي في تصنيفه في الرد على المعتزلة وقال : إنك لا بد تورث أولاد شبهتهم وتحمل الناس على التفكير فيها ثم ترد عليهم ، وهجر أبانور في تأويله قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته ^(١) » ، وهذا أمر يختلف باختلاف النية وتختلف النية باختلاف الحال ، فإن كان الغالب على القلب النظر إلى اضطراب الخلق وعجزهم وأنهم مسخرون لما قدروا له أورث هذا تساهلا في المعادة والبغض وله وجه ولكن قد تلبس به المداينة فأكثر البواعث على الإغضاء عن المعاصي المداينة ومراعاة القلوب والخوف من وحشتها ونفارها ، وقد يلبس الشيطان ذلك على النبي الآخر بأنه ينظر بعين الرحمة ويحس ذلك أن ينظر إليه بعين الرحمة إن جنى على خاص حقه ويقول إنه قد سخر له والقدر لا ينفع منه الخذر ، وكيف لا يفعلوه وقد كتب عليه فقتل هذا قد تصح له نية في الإغضاء عن الجناية على حق الله وإن كان يغتاض عند الجناية على حقه ويترحم عند الجناية على حق الله فهذا مداينة مغرور بمكيدة من مكاييد الشيطان فليتب به .

* فإن قلت : فأقل الدرجات في إظهار البغض الهجر والإعراض وقطع الرفق والإعانة فهل يجب ذلك حتى يعصى العبد بتركه ؟ فأقول : لا يدخل ذلك في ظاهر العلم تحت التكليف والإيجاب فإننا نعلم أن الذين شربوا الخمر وتعاطوا الفواحش في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة ما كانوا يهجون بالكلمة بل كانوا منقسمين فيهم إلى من يغلظ القول عليه ويظهر البغض له ، وإلى من يعرض عنه ولا يتعرض له ، وإلى من ينظر إليه بعين الرحمة ولا يؤثر المقاطعة والتباعد . فهذه دقائق دينية تختلف فيها طرق السالكين لطريق الآخرة ويكون عمل كل واحد على ما يقتضيه حاله ووقته ، ومقتضى الأحوال في هذه الأمور إما مكروهة أو مندوبة فتكون في رتبة الفضائل ولا تنتهي إلى التحريم والإيجاب فإن الداخل تحت التكليف أصل المعرفة لله تعالى وأصل الحب وذلك قد لا يتعدى من المحبوب إلى غيره وإنما المتعدى لإفراط الحب واستيلاؤه ، وذلك لا يدخل في الفتوى ونحو ظاهر التكليف في حق عوام الخلق أصلا .

بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم

* فإن قلت : إظهار البغض والعداوة بالفعل إن لم يكن واجبا فلا شك أنه مندوب إليه والعصاة والفساق على مراتب مختلفة فكيف ينال الفضل بمعاملتهم وهل يسلك بجميعهم مسلكا واحدا أم لا ؟ فأعلم أن المخالف لأمر الله سبحانه لا يخلو إما أن يكون مخالفا في عقده أو في عمله ، والمخالف في العقد إما مبتدع أو كافر والمبتدع إما دافع إلى بدعته أو ساكت والساكت إما بعجزه أو باختياره : فأقسام الفساد في الاعتقاد ثلاثة : الأول : الكفر ؛ فالكافر إن كان محاربا فهو يستحق القتل والإرقاق وليس بعد هذين إهانة ، وأما الذي فإنه لا يجوز إبدائه إلا بالإعراض عنه والتحقيق له بالاضطرار إلى أضييق الطرق وترك المفاتحة بالسلام ، فإذا قال :

(١) حديث « إن الله خلق آدم على صورته » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

السلام عليك ، قلت : وعليك . والاولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومواكلته وأما الانبساط معه والاسترسال إليه كما يسترسل إلى الأصدقاء فهو مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهي ما يقوى منها إلى حد التحريم قال الله تعالى ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ﴾ الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم : المسلم والمشرک لا تترامى ناراهما ^(١) ، وقال عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوتكم أولياء ﴾ الآية .

الثاني : المبتدع الذي يدعو إلى بدعته . فإن كانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذي لأنه لا يقتر بحجة ولا يساح بعقد ذمة وإن كان ممن لا يكفر به فأمره بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لا محالة ولكن الأمر في الإنكار عليه أشد منه على الكافر لأن شر الكافر غير متعد ، فإن المسلمين اعتقدوا كفره فلا يلتفتون إلى قوله إذ لا يدعى لنفسه الإسلام واعتقاد الحق . أما المبتدع الذي يدعو إلى البدعة ويزعم أن ما يدعو إليه حق فهو سبب لغواية الخلق فشره متعد ، فالاستحباب في إظهار بغضه ومعاداته والانتقاطع عنه وتحقيره والتشنيع عليه بيدعته وتغيير الناس عنه أشد ، وإن سلم في خلوة فلا بأس برد جوابه ، وإن علمت أن الإعراض عنه والسكوت عن جوابه يوجب في نفسه بدعته ويؤثر في زجره فترك الجواب أولى لأن جواب الإسلام وإن كان واجبا فيسقط بأذني غرض فيه مصلحة حتى يسقط بكون الإنسان في الحمام أوفى قضاء حاجته وغرض الزجر أهم من هذه الأغراض ، وإن كان في ملا فترك الجواب أول تنفير للناس عنه وتقييحا لبدعته في أعينهم وكذلك الأولى كف الإحسان إليه والإعانة له لاسيما فيما يظهر للخلق قال عليه السلام : من اتهم صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا ومن أهان صاحب بدعة أمناه الله يوم الفرع الأكبر ومن ألان له وأكرمه أولقيه ببشر فتمد استخف بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ^(٢) .

الثالث : المبتدع العاى الذي لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الافتداء به فأمره أهون فالأولى أن لا يقابح بالتغليظ والإهانة بل يتلطف به في النصيح فإن قلوب العوام سريعة القلب ، فإن لم ينفع النصيح وكان في الإعراض عنه تقييح لبدعته في عينه تأكد الاستحباب في الإعراض ، وإن علم أن ذلك لا يؤثر فيه لجود طبعه ورسوخ عقده في قلبه فالإعراض أولى لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقييحا شاعت بين الخلق وعم فسادها . وأما العاصى بفعله وعمله لا باعتقاده فلا يخلو إما أن يتكرر بحيث يتأذى به غيره كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والتضريب بين الناس والمشى بالنيمة وأمثالها . أو كان مما لا يقتصر عليه ويؤذى غيره وذلك ينقسم إلى ما يدعو غيره إلى الفساد كصاحب الماخور الذي يجمع بين الرجال والنساء ويهيئ أسباب الشرب والفساد لأهل الفساد أو لا يدعو غيره إلى فعله كالذى يشرب ويبنى ، وهذا الذى لا يدعو غيره إما أن يكون عصيانه بكبيرة أو بصغيرة ، وكل واحد فإما أن يكون مصرا عليه أو غير مصر ، فهذه التقسيمات يتحصل منها ثلاثة أقسام ولكل قسم منها رتبة وبعضها أشد من بعض ولانسلك بالكل مسلكا واحدا .

(القسم الأول) وهو أشدها : ما يتضرر به الناس كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنيمة فهؤلاء الأول الإعراض عنهم وترك مخالطتهم والانتقاض عن معاملتهم لأن المعصية شديدة فيما يرجع إلى إيذاء الخلق . ثم هؤلاء

(١) حديث « المؤمن والمشرک لا تترامى ناراهما » رواه أبو داود والترمذى من حديث جرير « أنا برى من كل مسلم يقم بين أظهر المشرکين » قالوا : يا رسول الله ولم ؟ قال « لا تترامى ناراهما » ورواه النسائى مرسلًا وقال البخارى : الصحيح أنه مرسل (٢) حديث « من اتهم صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية والمروى في ذم الكلام من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

ينقسمون إلى من يظلم في الدماء وإلى من يظلم في الأموال وإلى من يظلم في الأعراض وبعضها أشد من بعض فلاستجباب في إهانتهم والإعراض عنهم مؤكدا جدا ومهما كان يتوقع من الإهانة زجرا لهم أو لغيرهم كان الأمر فيه أكد وأشد . (الثاني) صاحب الماخور الذي يهيئ أسباب الفساد ويسهل طريقه على الخلق فهذا لا يؤذي الخلق في دنياهم ولكن يختلس بفعله دينهم ، وإن كان وفق رضاهم فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه فإن المعصية بين العبد وبين الله تعالى إلى العفو أقرب ولكن من حيث إنه متعدي على الجملة إلى غيره فهو شديد ، وهذا أيضا يقتضي الإهانة والإعراض والمقاطعة وترك جواب السلام إذا ظن أن فيه نوعا من الزجر له أو لغيره . (الثالث) الذي يفسد في نفسه بشرب خمر أو ترك واجب أو مقارفة محظور يخصه فالأمر فيه أخف ولكنه في وقت مباشرته إن صودف يجب منعه بما يتمتع به منه ولو بالضرب والاستخفاف فإن النهي عن المنكر واجب ، وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العود إليه وجب النصح وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر بالتلطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع ، فأما الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصبر وأن النصح ليس ينفعه ، فهذا فيه نظر وسير العلماء فيه مختلفة ، والصحيح أن ذلك يختلف باختلاف نية الرجل فعند هذا يقال ، الأعمال بالنيات إذ في الرفق والنظر بعين الرحمة إلى الخلق نوع من التواضع وفي العنف والإعراض نوع من الزجر والمستفتي فيه القلب فما يراه أميل إلى هواه ومقتضى طبعه فالأولى ضده إذ قد يكون استخفافه وعنفه عن كبر وعجب والتذاذ بإظهار العلو والإدلال بالصلاح ، وقد يكون رفقته عن مداينة واستمالة قلب للوصول به إلى غرض أو الخوف من تأثير وحشته ونفرته في جاه أو مال بظن قريب أو بعيد وكل ذلك مردد على إشارات الشيطان وبعيد عن أعمال أهل الآخرة وكل راغب في أعمال الدين يجتهد مع نفسه في التفتيش عن هذه الدقائق ومراقبة هذه الأحوال ، والقلب هو المفتي فيه وقد يصيب الحق في اجتهاده وقد يخطئ وقد يقدم على اتباع هواه وهو عالم به وقد يقدم وهو بحكم الغرور ظان أنه عامل لله وسالك طريق الآخرة . وسأتي بيان هذه الدقائق في كتاب الغرور من ربح الملسكات . ويدل على تخفيف الأمر في الفسق القاصر الذي هو بين العبد وبين الله ما روى أن شارب خمر ضرب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعود ، فقال واحد من الصحابة . لعنه الله ما أكثر ما يشرب ، فقال صلى الله عليه وسلم « لا تكن عوناً للشيطان على أخيك »^(١) ، أو لفظا هذا معناه وكان هذا إشارة إلى أن الرفق أولى من العنف والتغليظ .

بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته

اعلم أنه لا يصلح للصحة كل إنسان . قال صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »^(٢) ، ولا بد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحة إذ معنى الشرط ما لا بد منه للوصول إلى المقصود فبالإضافة إلى المقصود تظهر الشروط . ويطلب من الصحة فوائد دينية ودينية : أما الدينية فكالاتفاع بالمسال أو الجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة وليس ذلك من أغراضنا . وأما الدينية فيجتمع فيها أيضا أغراض مختلفة إذ منها الاستفادة من العلم والعمل ، ومنها الاستفادة من الجاه تحصانه عن إبداء من يشوش القلب ويصد عن العبادة ، ومنها الاستفادة من المال للاكتفاء نه عن تبذير الأوقات

(١) حديث « أن شارب خمر ضرب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث » وفيه « لا تكن عوناً للشيطان على أخيك » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة (٢) حديث « المرء على دين خليله .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح إن شاء الله .

في طلب القوت ، ومنها الاستعانة في المهمات فيكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال ، ومنها التبرك بمجرد الدعاء ، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة فقد قال السلف : استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة فلعلك تدخل في شفاعة أخيك . وروى في غريب التفسير في قوله تعالى ﴿ ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾ قال يشفعهم في إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم . ويقال إذا غفر الله للعبد شفع في إخوانه ؛ ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والالفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد ؛ فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شروطا لا تحصل إلا بها ، ونحن نفصلها : أما على الجملة فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال أن يكون عاقلا حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا . أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة اللاحق فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طاللت . قال على رضي الله عنه :

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه فكم من جاهل أرى حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

كيف واللاحق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري ولذلك قال الشاعر :

إني لآمن من عدو عاقل وأخاف خلا يعتريه جنون

فالعقل فن واحد وطريقه أدرى فأرصدوا الجنون فنون

ولذلك قيل : مقاطعة اللاحق قربان إلى الله . وقال الثوري : النظر إلى وجه اللاحق خطيئة مكتوبة ، ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه إما بنفسه وإما إذا فهم . وأما حسن الخلق فلا بد منه إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه فلا خير في صحبته . وأما الفاسق المصغر على الفسق فلا فائدة في صحبته لأن من يخاف الله لا يصير على كبيرة ومن لا يخاف الله لا يؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض . وقال تعالى ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه ﴾ وقال تعالى ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ وقال ﴿ واتبع سبيلا من أناب إلى ﴾ وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق . وأما المبتدع ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدى شؤمها إليه فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته ؟ وقد قال عمر رضي الله عنه في الحث على طلب التدين في الصديق فيما رواه سعيد بن المسيب قال : عليك يا أخوان الصديق تعش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء رضع أمر أخيك على أحسنه حتى يحين لك ما يغلبك منه واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين من القوم ولا أمين إلا من خشى الله فلا تصحب الفاجر فتعلم من فجوره ولا تطعه على شرك واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى . وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة الطاطري في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال : يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك وإن صحبته زانك وإن قعدت بك مؤنة مانك ، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى سيئة سدها ، اصحب من إذا سأله أعطاك وإن سكت ابتدأك وإن نزلت بك نازلة واساك ، اصحب من إذا قلت صدق قولك وإن حاولت ما أمرا أمرك وإن تنازعنا آثرك ؛ فكانه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائما بجميعها . قال ابن أكرم : قال المأمون فأبن هذا ؟ فقيل له : أتدري لم أوصاه بذلك ؟ قال

لا . قال : لأنه أراد أن لا يصحب أحدا . وقال بعض الأدباء : لا تصحب من الناس إلا من يكتم سره ويستتر عيبك فيكون معك في الثواب ويؤثر بك بالغائب وينشر حسناتك ويطوى سيئاتك فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك . وقال على رضي الله عنه :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب زمان صدعك شئت فيه شمله ليجمعك

وقال بعض العلماء : لا تصحب إلا أحد رجلين : رجل تتعلم منه شيئا في أمر دينك فينفعك ، أو رجل تعلمه شيئا في أمر دينه فيقبل منك والثالث فاهرب منه وقال بعضهم : الناس أربعة : فواحد حلو كله فلا يشيع منه . وآخر مر كله فلا يؤكل منه ، وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك ، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط . وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : لا تصحب خمسة : الكذاب فإنه على غرور وهو مثل السراب يقرب منك البعيد ويبعد منك القريب ، والاحمق فإنه لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرك . والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه ، والجبان فإنه يسلك ويفر عند الشدة ، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها ، فقيل : وما أقل منها ؟ قال : الطمع فيها ثم لا ينالها . وقال الجنيد : لأن يصحبنى فاسق حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبنى قارىء سيء الخلق . وقال ابن أبي الحواري : قال لي أستاذي أبو سليمان : يا أحمد لا تصحب إلا أحد رجلين : رجلا ترتفق به في أمر دنيائك ، أو رجلا تزيد معه وتنتفع به في أمر آخرتك ، والاشتغال بغير هذين خلق كبير . وقال سهل بن عبد الله اجتنب محبة ثلاثة من أصناف الناس : الجبابرة الغافلين ، والقزاة المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين . واعلم أن هذه الكلمات أكثرها غير محيط بجميع أغراض الصحة ، والمحيط ما ذكرناه من ملاحظة المقاصد ومراعاة الشروط بالإضافة إليها فليس ما يشترط للصحة في مقاصد الدنيا مشروطا للصحة في الآخرة والأخوة كما قال بشر : الإخوان ثلاثة : أخ لآخرتك وأخ لدنيائك وأخ لتأنس به . وقلما تجتمع هذه المقاصد في واحد بل تتفرق على جمع فتتفرق الشروط فيهم لا محالة . وقد قال المأمون : الإخوان ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه ، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت ، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط : ولكن العبد قد يبتلى به وهو الذي لا تأنس فيه ولا نفع . وقد قيل : مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات ، فمنها ماله ظل وليس له ثمر وهو مثل الذي ينتفع به في الدنيا دون الآخرة فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال ، ومنها ماله ثمر وليس له ظل وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا ، ومنها ماله ثمر وظل جميعا ، ومنها ماله ليس له واحد منهما كأم غيلان تمزق الثياب ولا تطعم فيهما ولا شراب ، ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب ، كما قال تعالى ﴿ يدعون لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ وقال الشاعر .

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم لا يستون كما لا يستوى الشجر
هذا له ثمر حلو مذاقته وذاك ليس له طعم ولا ثمر

فإذا لم يجد رفيقا يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به . قال أبو ذر رضي الله عنه : الوحدة خير من الجليس السوء والجليس الصالح خير من الوحدة ، ويروى مرفوعا . وأما الديانة فوعدم الفسق فقد قال الله تعالى ﴿ واتبع سبيل من أناب الى ﴾ ولأن مشاهدة الفسق والفساق تهون أمر المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها . قال سعيد بن المسيب : لا تنظروا الى الظلمة فتجهد أعمالكم الصالحة بل هؤلاء لاسلامة في مخالطتهم وإنما

السلامة في الانقطاع عنهم . قال الله تعالى ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ أى سلامة والآلاف بدل من الهاء ، ومعناه إنا سلمنا من إثمكم وأنتم سلمتم من شرنا ، فهذا ما أردنا أن نذكره من معاني الأخوة وشروطها وفوائدها فلنرجع في ذكر حقوقها ولوازمها وطرق القيام بحقوقها . وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والافتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه ، فبجاسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص وبجاسة الزاهد تزهّد في الدنيا فلذلك تنكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة . قال على عليه السلام : أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيا منه . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أوقعني في بلية إلا صحبة من لا أحشمه . وقال لقمان : يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن القلوب لتتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر .

الباب الثاني : في حقوق الأخوة والصحة

اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين ، وكما يقتضى النكاح حقوقا يجب الوفاء بها قياما بحق النكاح - كما سبق ذكره في كتاب آداب النكاح - فكذا عقد الأخوة ، فلاخيك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف وذلك يجمعه ثمانية حقوق :

الحق الأول : في المال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى (١) » ، وإنما شبههما باليدين لابلد والرجل لأنهما يتعاونان على غرض واحد فكذا الأخوان إنما تم أخوتهما إذا ترافقا في مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد ، وهذا يقتضى المساهمة في السراء والضراء والمشاركة في المال والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار . والمواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب .

أدناها : أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك ، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم تحوجه إلى السؤال فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة . الثانية : أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال قال الحسن : كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه .

الثالثة : وهي العليا أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين ومن ثمار هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضا ، كما روى أنه سعى بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسين النورى فبادر إلى السيف ليكون هو أول مقتول فقيل له في ذلك فقال : أحببت أن أؤثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة ، فكان ذلك سبب نجاة جميعهم في حكاية طويلة ، فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم يتعقد بعد في الباطن وإنما الجارى بينكما مخالطة رسمية لاوقع لها في العقل والدين ، فقد قال ميمون بن مهران : من رضى من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور . وأما الدرجة الدنيا فليست أيضا مرضية عند ذوى الدين ، روى أن عتبة الغلام جاء إلى منزل رجل

الباب الثاني : في حقوق الأخوة والصحة

(١) حديث « مثل الأخوين مثل اليدين .. الحديث » تقدم في الباب قبله .

كان قد آخاه فقال أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف فقال خذ ألفين فأعرض عنه وقال آثرت الدنيا على الله أما استحييت أن تدعى الأخوة في الله وتقول هذا ، ومن كان في الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغي أن لا تعامله في الدنيا قال أبو حازم : إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دنياك وإنما أراد به من كان في هذه الرتبة .

وأما الرتبة العليا : فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله ﴿ وأمرهم شورى بينهم وبما رزقناهم ينفقون ﴾ أى كانوا خلطاء في الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض ، وكان منهم من لا يصحب من قال : نعلي ، لأنه أضافه إلى نفسه . وجاء فتاح الموصلي إلى منزل لأخ له وكان غائبا ، فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته فأخبرت الجارية مولاهما فقال : إن صدقت فأنت حرة لوجه الله سرورا بما فعل . وجاء رجل إلى أبي هريرة رضى الله عنه وقال : إني أريد أن أواخيك في الله فقال : أتدرى ماحق الإخاء ؟ قال : عرفني ، قال : أن لا تكون أحق بدنيارك ودرهمك مني ، قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد ؟ قال : فاذهب عني . وقال علي بن الحسين رضى الله عنهما لرجل هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه وكيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه ؟ قال لا . قال فلستم بإخوان . ودخل قوم على الحسن رضى الله عنه فقالوا : يا أبا سعيد أصليت ؟ قال : نعم ، قالوا : فإن أهل السوق لم يصلوا بعد ، قال : ومن يأخذ دينه من أهل السوق ؟ بلغني أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم ! قاله كالمتعجب منه . وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم رحمه الله وهو يريد بيت المقدس فقال : إني أريد أن أرافقك ، فقال له إبراهيم : على أن أكون أملك لشيئك منك : قال : لا ، قال : أعجبني صدقك ، قال : فكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله إذا رافقه رجل لم يخالفه وكان لا يصحب إلا من يوافقه وصحبه رجل شراك فأهدى رجل إلى إبراهيم في بعض المنازل قصعة من ثريد ففتح جراب رفيقه وأخذ حزمة من شراك وجعلها في القصعة وردها إلى صاحب الهدية ، فلما جاء رفيقه قال : أين الشراك ؟ قال : ذلك الثريد الذي أكلته إيش كان ؟ قال : كنت تعطيه شراكين أو ثلاثة . قال : إسمح يسمح لك . وأعطى مرة حمارا كان لرفيقه - بغير إذنه - رجلا رآه راجلا فلما جاء رفيقه سكت ولم يكره ذلك . قال ابن عمر رضى الله عنهما : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال : أخى فلان أحوج مني إليه فبعث به إليه فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة . وروى أن مسروقاً ادان ديناً ثقيلاً وكان على أخيه خيشمة دين قال : فذهب مسروق ففرض دين خيشمة وهو لا يعلم وذهب خيشمة ففرض دين مسروق وهو لا يعلم ولما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمسال والنفس فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فيهما ^(١) فأثره بما آثره به ، وكأنه قبله ثم آثره به وذلك مساواة البداية لإيثار الإيثار أفضل من المساواة . وقال أبو سليمان الداراني : لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقلت لها . وقال أيضاً : إني لألقم اللقمة أحاً من إخواني فأجد طعمها في حلقى . كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء قال علي رضى الله تعالى عنه : لعشرون درهما أعطيا أخى في الله أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين . وقال أيضاً : لأن أصنع صاعاً من طعام وأجمع عليه إخواني في الله أحب إلى من أن أعشق رقبة . واقثناء الكل في الإيثار برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتني منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم إلى صاحبه ، فقال له : يا رسول الله كنت والله أحق بالمستقيم مني فقال : ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعة من النهار إلا سئل عن صحبته هل أقام فيها حق الله أم أضاعه ^(٢) ، فأشار بهذا إلى أن الإيثار

(١) حديث « لما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمسال والنفس فقال عبد الرحمن بارك الله فيهما » رواه البخاري من حديث أس . (٢) حديث « أنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتني منها سواكين =

هو القيام بحق الله في الصلابة . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر يغتسل عندهما فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب وقام يستتر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اغتسل ثم جلس حذيفة ليغتسل فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الثوب وقام يستتر حذيفة عن الناس فأبى حذيفة وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا تفعل فأبى عليه السلام إلا أن يستتره بالثوب حتى اغتسل^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : ما اصطحب اثنين قط إلا كان أحدهما إلى الله أرفقهما بصاحبه^(٢) ، وروى أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن وكان غائبا فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل فقال له مالك : كف يدك حتى يجيء صاحب البيت : فلم يلتفت محمد إلى قوله وأقبل على الأكل ، وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقا فدخل الحسن وقال : يا مويلك هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضا حتى ظهرت أنت وأصحابك . وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الآخرة كيف وقد قال الله تعالى ﴿ أو صديقكم ﴾ وقال ﴿ أو ماملتكم مفاتيحه ﴾ إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفتوز له بالتصرف كما يريد ، وكان أخوه يتخرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية وإذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء .

الحق الثاني : في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة

وهذه أيضا لها درجات كما للمواساة بالمال فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنّة : قال بعضهم : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسي فإن لم يقضها فكبر عليه وقرأ هذه الآية ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاء بهدية ، فقال : ما هذا ؟ قال : لما أسديتني إلى : فقال : خذ مالك عافاك الله ، إذ سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده في الموتى . قال جعفر بن محمد : إنى لا تسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردمهم فيستغنوا عني : هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء ؟ وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمسحونهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته ، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول : هل لكم زيت ، هل لكم ملح ، هل لكم حاجة ؟ وكان يقوم بها حيث لا يعرفه أخوه . وبهذا تظهر الشفقة والآخرة فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها . قال ميمون ابن مهران : من لم تلتفت بصداقة لم تضر عداوته . وقال صلى الله عليه وسلم : ألا وإن الله أوفى في أرضه وهي القلوب فأحب الأوفى إلى الله تعالى أصفاه وأصلها وأرقها ، أصفاه من الذنوب وأصلها في الدين وأرقها على الإخوان^(٣) ، وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك ، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك ، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة ، بل

= أحدهما معوج والآخر مستقيم إلى صاحبه ... الحديث « لم أفق له على أصل (١) حديث « ستر حذيفة للنبي صلى الله عليه وسلم بثوب حتى اغتسل ثم ستره صلى الله عليه وسلم لحذيفة حتى اغتسل » لم أجده أيضا (٢) حديث « ما اصطحب اثنين قط إلا كان أحدهما إلى الله أرفقهما بصاحبه » تقدم في الباب قبله بلفظ « أحدهما جبا لصاحبه » .
(٣) حديث « إن الله أوفى في أرضه وهي القلوب فأحب الأوفى إلى الله أصفاه وأصلها » أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني لا أنه قال « أليها وأرقها » وإسناده جيد .

تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قت بها ، ولا ترى لنفسك حقاً بسبب قيامك بها بل تتقصد منه بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره . ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد . كان الحسن يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا ؛ لأن أهلنا يذكروننا بالدينا وإخواننا يذكروننا بالآخرة . وقال الحسن : من شيع أخاه في الله بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة . وفي الأثر « مازار رجل أخا في الله شوقاً إلى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة ^(١) » ، وقال عطاء : تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث فإن كانوا مرضى فعودوهم أو مشاغل فأعينوهم أو كانوا نسوا فذكروهم . وروى « إن ابن عمر كان يلتفت يمينا وشمالا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك فقال : أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه فقال : إذا أحببت أحداً فسله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فإن كان مريضاً عدته وإن كان مشغولاً أعنته ^(٢) » ، وفي رواية : وعن اسم جدته وعشيرته . وقال الشعبي في الرجل يجالس الرجل فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه : تلك معرفة النوكي . وقيل لابن عباس : من أحب الناس إليك ؟ قال : جليسي ، وقال : ما اختلف رجل إلى جليسي ثلاثاً من غير حاجة له إلى فعلت مامكافاته من الدنيا . وقال سعيد بن العاص : لجليسي على ثلاث : إذا دنا رحبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له . وقد قال تعالى ﴿ رحماء بينهم ﴾ إشارة إلى الشفقة والإكرام . ومن تمام الشفقة أن لا ينفرد بطعام لذيقه أو بحضور في مسرة دونه بل يتنخض لفراقه ويستوحش بانفراده عن أخيه .

الحق الثالث : في اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى

أما السكوت فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله ، وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأله عنه فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه ، وليسكت عن أسرار التي بها إليه ولا يبثها إلى غيره ألبتة ولا إلى أخص أصدقائه ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن ، وأن يسكت عن القدح في إجابته وأهله وولده ، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، فإن الذي سبك من بلغك . وقال أنس « كان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً بشيء يكرهه ^(٣) » ، والتأذي يحصل أولاً من المبلغ ثم من القائل ، نعم لا ينبغي أن يخفى ما يسمع من الشاء عليه فإن السرور به أولاً يحصل من المبلغ للقدح ثم من القائل ، وإخفاء ذلك من الحسد . وبالجملة فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً إلا إذا وجب عليه النطق في أمر معروف أو نهى عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت فإذا ذاك لا يبالي بكراهته فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر .

أما ذكر مساوية وعبوبه ومساوى أهله فهو من الغيبة وذلك حرام في حق كل مسلم ويزجر عنه أمران : أحدهما : أن تطالع أحوال نفسك فإن وجدت فيها شيئاً واحداً مذموماً فهتؤن على نفسك ما تراه من أخيك

(١) حديث « مازار رجل أخا في ... الحديث » تقديم في الباب قبله . (٢) حديث ابن عمر « إذا أحببت أحداً فأسأله عن اسمه واسم أبيه ومنزله وعشيرته ... الحديث » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق والبيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف ورواه الترمذي من حديث يزيد بن نامة وقال غريب ، ولا يعرف يزيد بن نامة سماع من النبي صلى الله عليه وسلم . (٣) حديث أنس « كان لا يواجه أحداً بشيء يكرهه » أخرجه أبو داود والترمذي في المعاني والنسائي في اليوم واليلة بسند ضعيف .

وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة فأى الرجال المهذب ؟ وكل ما لا تصادفه من نفسك في حق الله فلا تنتظره من أخيك في حق نفسك فليس حقاك عليه بأكثر من حق الله عليك .

والأمر الثاني : أنك تعلم أنك لو طلبت منزلها عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة ولن تجد من تصاحبه أصلا فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساو فإذا غلبت المحاسن المساوى فهو الغاية والمنتهى ، فالمؤمن الكريم أبدا يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام ، وأما المنافق اللئيم فإنه أبدا يلاحظ المساوى والعيوب . قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات . وقال الفضيل : الفتوة العفو عن زلات الإخوان ولذلك قال عليه السلام : استعينوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيرا ستره وإن رأى شرا أظهره ^(١) ، وما من شخص إلا ويمكن تحسين حاله بخصال فيه ويمكن تقييده أيضا . روى أن رجلا أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد ذمه فقال عليه السلام : أنت بالأمس ثنتي عليه واليوم تذهمه ؟ فقال : والله لقد صدقت عليه بالأمس وما كذبت عليه اليوم إنه أَرْضَانِي بِالْأَمْسِ فَقُلْتُ أَحْسَنَ مَا عَلِمْتُ فِيهِ وَأَغْضَبْنِي الْيَوْمَ فَقُلْتُ أَقْبَحَ مَا عَلِمْتُ فِيهِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » ^(٢) ، وكأنه كره ذلك فشبهه بالسحر ، ولذلك قال في خبر آخر : « البذاء والبيان شعبتان من النفاق » ^(٣) ، وفي الحديث الآخر : « إِنْ أَلَّهِ يَكْرَهُ لَكُمْ الْبَيَانُ كُلَّ الْبَيَانِ ، وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : مَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَطِيعُ اللَّهَ وَلَا يَعْصِيهِ وَلَا أَحَدٌ يَعْصِي اللَّهَ وَلَا يَطِيعُهُ . فَمَنْ كَانَتْ طَاعَتُهُ أَغْلَبَ مِنْ مَعَاصِيهِ فَهُوَ عَدْلٌ وَإِذَا جَعَلَ مِثْلَ هَذَا عَدْلًا فِي حَقِّ اللَّهِ فَبِأَن تَرَاهُ عَدْلًا فِي حَقِّ نَفْسِكَ وَمَقْتَضَى أَخَوَاتِكَ أَوْلَى . وَكَمَا يَجِبُ عَلَيْكَ السَّكُوتُ بِلِسَانِكَ عَنْ مَسَاوِيهِ يَجِبُ عَلَيْكَ السَّكُوتُ بِقَلْبِكَ وَذَلِكَ بِتَرْكِ إِسَاءَةِ الظَّنِّ فَسَوْءُ الظَّنِّ غِيْبَةٌ بِالْقَلْبِ وَهُوَ مَنَهَى عَنْهُ أَيْضًا ، وَحَدُّهُ أَنْ لَا تَحْمِلَ فِعْلَهُ عَلَى وَجْهِ فَاسِدٍ مَا أَمْسَكَ أَنْ تَحْمِلَهُ عَلَى وَجْهِ حَسَنٍ . فَأَمَّا مَا أَنْتَ كَشَفَ بَيَقِينَ وَمُشَاهَدَةً فَلَا يُمْكِنُ أَنْ لَا تَعْلَمَ وَعَلَيْكَ أَنْ تَحْمِلَ مَا تَشَاهَدُ عَلَى سَهْوٍ وَنِسْيَانٍ إِنْ أَمْسَكَ ، وَهَذَا الظَّنُّ يَنْقَسِمُ إِلَى مَا يَسْمَى تَفَرُّسًا وَهُوَ الَّذِي يَسْتَنْدُ إِلَى عَلَامَةٍ فَإِنْ ذَلِكَ يَحْرِكُ الظَّنَّ تَحْرِيكًا ضَرُورِيًّا لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ ، وَإِلَى مَا مَنْشُؤُهُ سَوْءُ اعْتِقَادِكَ فِيهِ حَتَّى يَصْدُرَ مِنْهُ فِعْلٌ لَهُ وَجْهَانِ ، فَيَحْمِلُكَ سَوْءُ الِاعْتِقَادِ فِيهِ عَلَى أَنْ تَنْزِلَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَرْدَى مِنْ غَيْرِ عَلَامَةٍ تَخْصُهُ بِهِ ، وَذَلِكَ جُنَايَةٌ عَلَيْهِ بِالْبَاطِنِ وَذَلِكَ حَرَامٌ فِي حَقِّ كُلِّ مُؤْمِنٍ . إِذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ أَلَّهِ قَدْ حَرَّمَ عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُؤْمِنِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَعَرْضَهُ وَأَنْ يَظُنَّ بِهِ ظَنِّ السَّوِّءِ » ^(٤) ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لِيَا كُمْ وَالظَّنُّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » ^(٥) ، وَسَوْءُ الظَّنِّ

(١) حديث « استعينوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيرا ستره وإن رأى شرا أظهره » أخرجه البخاري في التاريخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف والنسائي من حديث أبي هريرة وأبو سعيد بسند صحيح « تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام » . (٢) حديث أن رجلا أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد ذمه ... الحديث « وفيه » فقال صلى الله عليه وسلم : « إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » ... أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرک من حديث أبي بكرة إلا أنه ذكر المدح والذم في مجلس واحد لا يؤمن ورواه الحاكم من حديث ابن عباس أطول منه بسند ضعيف أيضا .

(٣) حديث « البذاء والبيان شعبتان من النفاق » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة بسند ضعيف . (٤) حديث « إِنْ أَلَّهِ حَرَّمَ مِنَ الْمُؤْمِنِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَعَرْضَهُ وَأَنْ يَظُنَّ بِهِ ظَنِّ السَّوِّءِ » أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس دون قوله « وعرضه » ورجاله ثقات إلا أن أبا علي النيسابوري قال : ليس هذا عندى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو عندى من كلام ابن عباس . ولا بن ماجه نحوه من حديث ابن عمر ، وسلم من حديث أبي هريرة « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » . (٥) حديث « لِيَا كُمْ وَالظَّنُّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

يدعو إلى التجسس والتحسس ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا »^(١) ، والتجسس في تطلع الأخبار والتجسس بالمراقبة بالعين . فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين . ويكفيك تنفيها على كمال الرتبة في ستر القبيح وإظهار الجليل أن الله تعالى وصف به في الدعاء فقيل : يا من أظهر الجليل وستر القبيح . والمرضى عند الله من تخلق بأخلاقه فإنه ستر العيوب وغفار الذنوب ومتجاوز عن العيب فكيف لا تتجاوز أنت عن هو مثلك أو فوقك وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك ؟ وقد قال عيسى عليه السلام للحواريين : كيف تصنعون إذا رأيتم أحاكم نائما وقد كشف الريح ثوبه عنه ؟ قالوا : نستره ونغطي ، قال : بل تكشفون عورته ! قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟ فقال : أحدكم يسمع بالكلمة في أخيه فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها . واعلم أنه لا يتم لإيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وأقل درجات الاخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة والسكوت على المساوى والعيوب ، ولو ظهر له منه نقيض ما ينتظره اشتد عليه غيظه وغضبه فما أبعد إذا كان ينتظر منه مالا يضره له ولا يعزم عليه لأجله ، وويل له في نص كتاب الله تعالى حيث قال (ويل للمطففين الذين إذا ائتمروا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) وكل من يلتبس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية . ومنشأ التقصير في ستر العورة أو السعي في كشفها الداء الدفين في الباطن وهو الحقد والحسن فإن الحقوق الحسود يملأ باطنه بالحب ولكن يحبس في باطنه ويخفيه ولا يبديه مهما لم يجد له مجالا وإذا وجد فرصة انحلت الرابطة وارتفع الحياء وبرز الباطن بخبئه الدفين . ومهما انطوى الباطن على حقد وحسد فالانقطاع أولى ، قال بعض الحكماء : ظاهر العتاب خير من مسكون الحقد ، ولا يزيد لطف الحقوق إلا وحشة منه ، ومن في قلبه سخيمة على مسلم فإيمانه ضعيف وأمره مخطر وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله . وقد روى عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أنه قال : كنت باليمن ولي جار يهودي يخبرني عن التوراة فقدم على اليهودي من سفر فقلت إن الله قد بعث فينا نبيا فدعانا إلى الإسلام فأسلنا وقد أنزل علينا كتابا مصدقا للتوراة ، فقال اليهودي صدقت ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به ، إنا نجد نعته ونعت أمته في التوراة : إنه لا يحل لامرئ أن يخرج من عتبة بابه وفي قلبه سخيمة على أخيه المسلم . ومن ذلك أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه ، وله أن ينكره وإن كان كاذبا فليس الصدق واجبا في كل مقام ، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب فله أن يفعل ذلك في حق أخيه فإن أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن . هذه حقيقة الاخوة وكذلك لا يكون بالعمل بين يديه مرائيا وخارجا عن أعمال السر إلى أعمال العلانية فإن معرفة أخيه بعمله كعرفته بنفسه من غير فرق وقد قال عليه السلام « من ستر عورة أخيه ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة »^(٢) ، وفي خبر آخر « فكأنما أحيا موءودة »^(٣) . وقال عليه السلام « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة »^(٤) ، وقال « المجالس بالأمانة

(١) حديث « لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » متفق عليه من حديث أبي هريرة وهو بعض الحديث الذي قبله . (٢) حديث « من ستر عورة أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقال « يوم القيامة » ولم يقل « في الدنيا » ولمسلم من حديث أبي هريرة « من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة » ولم يخبر من حديث ابن عمر « من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » . (٣) حديث « فكأنما أحيا موءودة من قبرها » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم من حديث عتبة بن عامر « من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة » زاد الحاكم « من قبرها » وقال صحيح الإسناد . (٤) حديث « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث جابر وقال حسن .

إلا ثلاثة مجالس : مجلس يسفك فيه دم حرام ومجلس يستحل فيه فرج حرام ومجلس يستحل فيه مال من غير حله ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة ولا يحل لأحدهما أن يفشى على صاحبه ما يكره ^(٢) » ، قيل لبعض الأدباء : كيف حفظك السر ؟ قال . أنا قبره . وقد قيل : صدور الأحرار قبور الأسرار . وقيل : إن قلب الأحق في فيه ولسان العاقل في قلبه ، أى لا يستطيع الأحق إخفاء ما في نفسه فيديه من حيث لا يدري به . فمن هذا يجب مقاطعة الحق والتوق عن صحبتهم بل عن مشاهدتهم . وقد قيل لآخر . كيف تحفظ السر ؟ قال : أجدد الخبر وأحلف للمستخبر . وقال آخر : أستره واستر أنى أستره وعبر عنه ابن المعتز فقال :

ومستودعى سرا تبوأ كتمه . فأودعته صدرى فصار له قبرا

وقال آخر وأراد الزيادة عليه :

وما السر في صدرى كشوا بقبره لأنى أرى المقبور ينتظر النشر
ولكننى أنساه حتى كأتى بما كان منه لم أخط ساعة خبرا
ولو جاز كتم السر بينى وبينه عن السر والأحشاء لم تعلم السرا

وأفشى بعضهم سرا له إلى أخيه ثم قال له . حفظت ؟ فقال : بل نسيت . وكان أبو سعيد الثورى يقول : إذا أردت أن تواخى رجلا فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك ، فإن قال خيرا وكتم سرى فأصعبه . وقيل لأبي يزيد : من تصحب من الناس ؟ قال : من يعلم منك ما يعلم الله ثم يستر عليك كما يستره الله . وقال ذو النون : لاخير في صحبة من لا يجب أن يراك إلا معصوما ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها . وقد قال بعض الحكماء . لا تصحب من يتغير عليك عند أربع : عند غضبه ورضاه ، وعند طمعه وهواه . بل ينبغي أن يكون صدق الأخوة ثابتا على اختلاف هذه الأحوال ولذلك قيل :

وترى الكريم إذا تصرم وصله يخفى القبيح ويظهر الإحسانا
وترى اللئيم إذا تقضى وصله يخفى الجميل ويظهر البهتان

وقال العباس لابنه عبد الله : إني أرى هذا الرجل - يعنى عمر رضى الله عنه - يقدمك على الأشياخ فاحفظ عني خمسا : لا تفشى له سرا ولا تغتاب عنده أحدا ولا تجرين عليه كذبا ، ولا تعصين له أمرا ، ولا يطلعن منك على خيانة فقال الشعبي : كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف . ومن ذلك السكوت عن المماراة والمدافعة في كل ما يتكلم به أخوك قال ابن عباس : لا تمار سفها فيؤذيك ولا حليا فيقلبك . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ^(٣) » ، هذا مع أن تركه مبطلا واجب ، وقد جعل ثواب النفل أعظم لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل وإنما الأجر على قدر النصب . وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المماراة والمنافسة فإنها عين التدابر والتقاطع فإن التقاطع

(١) حديث « المجالس بالأمانة للاثلاثة مجالس .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث جابر من رواية ابن أخيه غير مسمى عنه
(٢) حديث « إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة لا يحل لأحدهما أن يفشى على صاحبه ما يكره » أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية أبي بكر بن حزم مرسلًا والمالك وصححه من حديث ابن عباس « أنكم تجالسون بينكم بالأمانة » .

(٣) حديث « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة ... الحديث » تقدم في العلم .

يقع أولاً بالآراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان . وقال عليه السلام « لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله بحسب المراء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ^(١) » ، وأشد الاحتقار المماراة فإن من رد على غيره كلامه فقد نسب إلى الجهل والحق أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه وكل ذلك استحقار وإيغار للصدر وإيجاش . وفي حديث أبي أمامة الباهلي قال « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتجاري فغضب وقال : ذروا المراء لقله خيره وذروا المراء فإن نفعه قليل وإنه يهيج العداوة بين الإخوان ^(٢) » ، وقال بعض السلف : من لاحى الإخوان وماراهم قلت مروءته وذهبت كرامته . وقال عبد الله ابن الحسن إياك ومماراة الرجال فإنك إن تعدم مكر حلیم أو مفاجأة لئیم . وقال بعض السلف : أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم وكثرة المماراة توجب التضییع والقطیعة وتورث العداوة وقد قال الحسن : لا تشتت عداوة رجل بمودة ألف رجل . وعلى الجملة فلا باع على المماراة إلا إظهار التمييز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه بإظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والشتم بالحق والجهل ولا معنى للمعاداة إلا هذا فكيف تضامنه الأخوة والمصافاة ؟ فقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه ^(٣) » ، وقد قال عليه السلام « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط وجه وحسن خلق ^(٤) » ، والمماراة مضادة لحسن الخلق . وقد انتهى السلف في الحذر عن المماراة والحض على المساعدة إلى حد لم يروا السؤال أصلا . وقالوا : إذا قلت لأخيك قم فقال إلى أين ؟ فلا تصحبه بل قالوا ينبغي أن يقوم ولا يسأل . وقال أبو سليمان الناراني : كان لي أخ بالعراق فكنت أجيئه في الثواب فأقول : أعطني من مالك شيئا ، فكان يلقى إلى كيسه فأخذ منه ما أريد ، لحيته ذات يوم فقلت : أحتاج إلى شيء . فقال : كم تريد ؟ فخرجت حلالة لإخائه من قلبي . وقال آخر : إذا طلبت من أخيك مالا فقال : ماذا تصنع به ؟ فقد ترك حق الإعفاء . وأعلم أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة . قال أبو عثمان الحيري موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم ، وهو كما قال .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق

فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضي أيضا النطق بالحجاب بل هو أخص بالأخوة لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور ، وإنما تراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص عن أذاهم ، والسكوت معناه كف الالذى فعليه أن يتودد إليه بلسانه ويتفقده في أحواله التي يجب أن يتفقدها فيها كاسؤال عن عارض إن عرض وإظهار شغل القلب بسببه واستبطاء العافية عنه ، وكذا جملة أحواله التي يكرها ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعاله كراحتها ، وجملة أحواله التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها . فعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء وقد

(١) حديث « لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأوله متفق عليه من حديثه وحديث أنس وقد تقدم بهه قل هذا بسبعة أحاديث (٢) حديث أبي أمامة « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتجاري فغضب وقال ذروا المراء لقله خيره فإن نفعه قليل فإنه يهيج العداوة بين الإخوان » أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة وأبي الدرداء وائلة وأنس دون ما بعد قوله « لقله خيره » ومن هنا إلى آخر الحديث رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة فقط واسنادهما ضعيف .

(٣) حديث ابن عباس « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه » أخرجه الترمذي وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه يعني من حديث ليث بن أبي سليم وضعفه الجمهور . (٤) حديث « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » أخرجه أبو يعلى الموصلي والطبراني في معارج الأئمة وابن عدي في الكامل وضعفه والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة .

قال عليه السلام : إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره ^(١) ، وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب فإن عرف أنك تحبه أحببك بالطبع لا محالة ، فإذا عرفت أنه أيضا يحبك زاد حبك لا محالة فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف . والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحجوب في الدين ولذلك علم فيه الطريق فقال : تهادوا تحابوا ^(٢) ، ومن ذلك أن يدعو بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضوره . قال عمر رضي الله عنه : ثلاث يصفين لك ود أخيك : أن تسلم عليه إذا لقيتَه أولاً ، وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه . ومن ذلك أن تثنى عليه بماتعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة ، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعتة وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به وذلك من غير كذب وإفراط ولكن تحسين ما يقبل التحسين لا بد منه وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح فإن إخفاء ذلك محض الحسد ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقلك بل على نيته وإن لم يتم ذلك . قال علي رضي الله عنه : من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمد على حسن الصنعة . وأعظم من ذلك تأثيراً في جلب المحبة الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض لحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكي المتعنت وتغليظ القول عليه والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير في حق الأخوة . وإنما شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخوين باليدين تغسل إحداها الأخرى لينصرا أحدهما الآخر وينوب عنه ^(٣) وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يغذله ولا يثله ^(٤) ، وهذا من الائتلاف والخذلان فإن إهماله لتزريق عرضه كإهماله لتزريق لحمه . فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت لا تحرك الشفقة والحية للدفع عنك ! وتمزق الاعراض أشد على النفوس من تمزق اللحوم ولذلك شبه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال ﴿ أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ﴾ والملك الذي يمثله في المنام ما تطالعه الروح من اللوح المحفوظ بالأمثلة المحسوسة يمثل الغيبة بأكل لحوم الميتة ، حتى إن من يرى أنه يأكل لحم ميتة فإنه يغتاب الناس لأن ذلك الملك في تمثيله يراعى المشاركة والمناسبة بين الشيء وبين مثاله في المعنى الذي يجري من المثال مجرى الروح ؛ لا في ظاهر الصور . فإذا نجا الأخوة بدفع ذم الأعداء وتعنت المتعنتين واجب في عقد الأخوة . وقد قال مجاهد : لا تذكر أخاك في غيبته إلا كما تحب أن يذكرك في غيبتك . فإذا نك فيه معياران ؛ أحدهما : أن تقدر أن الذي قيل فيه لو قيل فيك وكان أخوك حاضراً ما الذي كنت تحب أن يقوله أخوك فيك ؟ فينبغي أن تعامل المتعرض لعرضه به . والثاني : أن تقدر أنه حاضراً وراء جدار يسمع قولك ويظن أنك لا تعرف حضوره ؛ فما كان يتحرك في قلبك من النصرة له بسمع منه ومراى ؟ فينبغي أن يكون في مغيبه كذلك فقد قال بعضهم : ما ذكر أخ لي بغيث إلا تصورت جالسا فقلت فيه ما يجب أن يسمعه لو حضر : وقال آخر : ما ذكر أخ لي إلا تصورت نفسي في صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال في . وهذا من صدق الإسلام وهو أن لا يرى لأخيه إلا ما يراه لنفسه . وقد نظر أبو الدرداء إلى ثورين يجران في فدان فوقف أحدهما يحك جسمه فوقف الآخر ؛ فبكى وقال : هكذا الإخوان في الله يعملان لله فإذا وقف أحدهما واقفه الآخر . وبالموافقة يتم الإخلاص ومن لم يكن مخلصاً في إخائه فهو منافق . والإخلاص استواء الغيب والشهادة

(١) حديث « إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والحاكم من حديث المقدم بن معديكر . (٢) حديث « تهادوا تحابوا » أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة وقد تقدم غير مرة . (٣) حديث « تمويه الأخوين باليدين » تقدم في الباب قبله . (٤) حديث « المسلم أخو المسلم » تقدم في أثناء حديث قبله بسبعة أحاديث .

واللسان والقلب والسر والعلانية والجماعة والخلو والاختلاف ، والتفاوت في شيء من ذلك مماذقة في المودة وهو دخل في الدين ووليعة في طريق المؤمنين ، ومن لا يقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة فإن حق الصعبة ثقيل لا يطيقه إلا محقق فلا جرم أجره جزيل لا يناله إلا موفق . ولذلك قال عليه السلام « أبا هر أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة صاحبك تكن مؤمناً ^(١) » ، فانظر كيف جعل الإيمان جزاء الصعبة والإسلام جزاء الجوار ؟ فالفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام على حد الفرق بين المشقة في القيام بحق الجوار والقيام بحق الصعبة . فإن الصعبة تقتضي حقوقاً كثيرة في أحوال متقاربة مترادفة على الدوام والجوار لا يقتضي إلا حقوقاً قريبة في أوقات متباعدة لا تدوم . ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال : فإن كنت غنيا بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا ، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائده تركه وتحذيره بما يكرهه في الدنيا والآخرة لينزجر عنه وتنبه على عيوبه وتقبح القبيح في عينه وتحسن الحسن ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة إذ قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن مرآة المؤمن ^(٢) » أي يرى منه ما لا يرى من نفسه فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ولو انفرد لم يستفد كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة . وقال الشافعي رضي الله عنه : من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه . وقيل لمسعر : أنجب من يجبرك بعيوبك ؟ فقال : إن نصحتني فيما بيني وبينه فنعيم وإن قرعني بين الملأ فلا . وقد صدق ، فإن النصيح على الملأ فضيحة والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه في ظل ستره فيوقفه على ذنوبه سرا ، وقد يدفع كتاب عمله محتوماً إلى الملائكة الذين يحفون به إلى الجنة ، فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب محتوماً ليقراه ، وأما أهل المقعد فينادون على رموس الأشهاد وتستنطق جوارحهم بفصاحتهم فيزدادون بذلك خزيًا وافتضاحاً ونعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر . فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء . فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن . وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناسبة ولا مع النفس إلا بالمخالفة ولا مع الشيطان إلا بالعداوة .

* فإن قلت : فإذا كان في النصيح ذكر العيوب ففيه إيحاء للقلب فكيف يكون ذلك من حق الأخوة ؟ فاعلم أن الإيحاء إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة وهو استمالة القلوب ، أعني قلوب العقلاء ، وأما الحق فلا يلتفت إليهم فإن من ينهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها كان كمن ينهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همت بإهلاكك ، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حملك ! والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألها أشد بما يلدغ الظواهر والأجساد وهي مخلوقة من نار الله الموقدة ، ولذلك كان عمر رضي الله عنه

(١) حديث « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً » أخرجه الترمذي وابن ماجه واللفظ له من حديث أبي هريرة بالشر الأول فقط وقال الترمذي « مؤمناً » قال « وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً » وقال ابن ماجه « مؤمناً » قال الدارقطني والحديث ثابت ورواه القضاعي في مسند الشهاب بلفظ المصنف .

(٢) حديث « المؤمن مرآة المؤمن » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد حسن .

يستهدى ذلك من إخوانه ويقول: رحم الله امرأاً أهدى إلى أخيه عيوبه، ولذلك قال عمر لسلمان وقد قدم عليه: ما الذى بلغك عنى مما تكره؟ فاستغنى، فأخ عليه فقال: بلغنى أن لك حلتين تلبس إحداها بالنهار والأخرى بالليل وبلغنى أنك تجمع بين إدامين على مائدة واحدة، فقال عمر رضى الله عنه: أما هذان فقد كفيتهما فهل بلغك غيرهما؟ فقال: لا. وكتب حذيفة المرعشى إلى يوسف بن أسباط: بلغنى أنك بعث دينك بحبتين: وقفت على صاحب لبن فقلت: بكم هذا؟ فقال: بسدس، فقلت له: لا... شمن! فقال: هو لك، وكان يعرفك. اكشف عن رأسك فناع الغافلين وانتبه عن رقدة الموتى واعلم أن من قرأ القرآن ولم يستغن وآثر الدنيا لم آمن أن يكون آيات الله من المستهزئين، وقد وصف الله تعالى الكاذبين بيفضهم للناسحين إذ قال ﴿ولكن لا تحبون الناسحين﴾ وهذا فى عيب هو غافل عنه فأما ما علمت أنه يعلمه من نفسه فإنما هو مقهور عليه من طبعه فلا ينبغي أن يكشف فيه ستره إن كان يخفيه، وإن كان يظهره فلا بد من التلطف فى النصيح بالتعريض مرة وبالتصریح أخرى إلى حد لا يؤدى إلى الإيحاء، فإن علمت أن النصيح غير مؤثر فيه وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليه فالسكوت عنه أولى، وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك فى دينه أو دنياه، أما ما يتعلق بتقصيره فى حقك فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعاضى عنه، والتعرض لذلك ليس من النصيح فى شيء، نعم إن كان بحيث يؤدى استمراره عليه إلى القطيعة فالعتاب فى السر خير من القطيعة والتعريض به خير من التصریح والمكاتبة خير من المشافهة والاحتمال خير من الكل، إذ ينبغي أن يكون قصدك من أخيك لإصلاح نفسك بمرأعاتك إياه وقيامك بحقه واحتمالك تقصيره لا الاستعانة به والاسترفاق منه. قال أبو بكر السكتاني: صحبتني رجل وكان على قلبي ثقيلاً فوهبت له يوماً شيئاً على أن يزول ما في قلبي فلم يزول، فأخذت بيده يوماً إلى البيت وقلت له: ضع رجلك على خدي، فأبى، فقلت: لا بد، ففعل، فزال ذلك من قلبي. وقال أبو علي الرباطي: صحبت عبد الله الرازي وكان يدخل البادية فقال على أن تكون أنت الأمير أو أنا فقلت بل أنت فقال وعليك الطاعة فقلت نعم فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد وحملها على ظهره فإذا قلت له أعطني قال ألسنت قلت أنت الأمير؟ فعليك الطاعة فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسي إلى الصباح وعليه كساء وأنا جالس يمنع عني المطر فكنت أدول مع نفسي ليتني مت ولم أقل أنت الأمير.

الحق الخامس: العفو عن الزلات والهفوات

وهفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون فى دينه بارتكاب معصية أو فى حقك بتقصيره فى الأخوة. أما ما يكون فى الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف فى نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله. فإن لم تقدر وبقي مصراً فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين فى لإدامة حق مؤدته أو مقاطعته. فذهب أبو ذر رضى الله عنه إلى الانقطاع وقال: إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابغضه من حيث أحببته، ورأى ذلك من مقتضى الحب فى الله والبغض فى الله. وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا إلى خلافه؛ فقال أبو الدرداء: إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى. وقال إبراهيم النخعي لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً. وقال أيضاً: لا يتحدثوا الناس بزلّة العالم فإن الزلّة ثم يتركها. وفى الخبر: اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته (١)، وفى حديث عمر وقد سأل عن أخ كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه وقال:

(١) حديث «انفوا زلة العالم ولا تطعروا وانتظروا فيئته» رواه البهيمى فى المعجم وابن عدى فى الكامل من حديث عمرو بن عوف المزني وضفاء.

ما فعل أخى ؟ قال : ذلك أخو الشيطان قال : مه ، قال : إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر . قال : إذا أردت الخروج فأذن فكتب عند خروجه إليه د بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ الآية ، ثم عاتبه تحت ذلك وعذله . فلما قرأ الكتاب بكى وقال : صدق الله ونصح لي عمر فتاب ورجع . وحكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه وقال : إني قد اعتللت فإن شئت أن لا تمتد على صحبتي لله فافعل ، فقال : ما كنت لأحل عقد أخوتك لأجل خطيئتك أبدا ، ثم عقد أخوه بينه وبين الله أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافى الله أخاه من هواه ، فطوى أربعين يوما في كلها يسأله عن هواه فكان يقول : القلب مقيم على حاله . وما زال هو ينحل من الغم والجوع حتى زال الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين فأخبره بذلك فأكل وشرب بعد أن كاد يتلف هزالا وضرا . وكذلك حكى عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه : ألا تقطعه وتهجره ، فقال : أخرج ما كان إلى في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن أخذ بيده وأتلف له في المعاتبة وأدعوه بالعود إلى ما كان عليه . وروى في الإسرائيليات أن أخوين عابدين كانا في جبل نزل أحدهما ليشتري من المصر لحما بدرهم فرأى بغيا عند اللحم فرمقها وعشقها واجتذبها إلى خلوة وواقعها ، ثم أقام عندهما ثلاثا واستحيا أن يرجع إلى أخيه حياء من جنائته . قال : فافتقده أخوه واهتم بشأته فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دل عليه فدخل إليه وهو جالس معها فاعتقه وجعل يقبله ويلتزمه وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لغرط استحياؤه منه فقال : قم يا أخى فقد علمت شأنك وقصتك وما كنت قط أحب إلى ولا أعز من ساعتك هذه ، فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فأنصرف معه . فهذه طريقة قوم وهى ألطف وأفقه من طريقة أبي ذر رضى الله عنه ، وطريقته أحسن وأسلم .

« فإن قلت : ولم قلت هذا ألطف وأفقه ومقارن هذه المعصية لا تجوز مؤاخاتة ابتداء فتجب مقاطعته انتهاه لأن الحكم إذا ثبت بعلّة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلّة عقد الأخوة التعاون في الدين ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية فأقول : أما كونه ألطف فلما فيه من الرقق والاستمالة والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة ، ومهما قوطع وانقطع طمعه عن الصحبة أصر واستمر . وأما كونه أفقه فمن حيث إن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء ووجب العقد ، ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره وفقير الدين أشد من فقر المال ، وقد أصابته جائحة وألمت به آفة افتقر بسببها في دينه فينبغي أن يراقب ويراعى ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الواقعة التي ألمت به . فالأخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان وهذا من أشد النوائب ، والفاجر إذا صحب تقياً وهو ينظر إلى خوفه ومدامته فسيرجع على قرب ويستحي من الإصرار بل الكسلان يصحب الحريص في العمل فيحرص حياء منه . قال جعفر بن سليمان : مهما فترت في العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع إلى نشاطي في العبادة وفارقتي الكسل وعملت عليه أسبوعاً وهذا التحقيق وهو أن الصداقة لحمة كجملة النسب والقريب لا يجوز أن يهجر بالمعصية ، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في عشرينه ﴿ فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون ﴾ ولم يقل إني برىء منكم مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب . وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ فقال : إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى وأخوة الدين أؤكد من أخوة القرابة . ولذلك قيل للحكيم : أيما أحب إليك أخوك أو صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقاً لي . وكان الحسن يقول : كم من أخ لم تلده أمك ؟ ولذلك قيل :

القرابة تحتاج إلى مودة والمودة لا تحتاج إلى قرابة وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : مودة يوم صلة ومودة شهر قرابة ومودة سنة رحم مائة من قطعها قطع الله . فإذا الوفاء بعقد الأخوة إذا سبق انعقادها واجب . وهذا جوابنا عن ابتداء المؤاخاة مع الفاسق فإنه لم يتقدم له حق فإن تقدمت له قرابة فلا جرم لا ينبغي أن يقاطع بل يجامل . والدليل عليه أن ترك المؤاخاة والصحة ابتداء ليس مذموما ولا مكروها بل قال قائلون : الانفراد أولى ؛ فأما قطع الأخوة عن دوامها فمنهى عنه ومذموم في نفسه ونسبته إلى تركها ابتداء كنسبة الطلاق إلى ترك النكاح ، والطلاق أفضى إلى الله تعالى من ترك النكاح قال صلى الله عليه وسلم : شرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة ^(١) ، وقال بعض السلف في ستر زلات الإخوان : ود الشيطان أن يلقي على أخيك مثل هذا حتى تهجره وتقطعوه ، فإذا اتقيتم من محبة عدوكم . وهذا لأن التفريق بين الأحياء من محاب الشيطان كما أن مفارقة العصيان من محابه ؛ فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني ، وإلى هذا أشار عليه السلام في الذي شتم الرجل الذي أتى فاحشة إذ قال : مه ، وزبره وقال : لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك ^(٢) ، فهذا كله يتبين الفرق بين الدوام والابتداء لأن مخالطة الفاسق محذورة ، ومفارقة الأحياء والإخوان أيضا محذورة ، وليس من سلم عن معارضة غيره كالذي لم يسلم وفي الابتداء قد سلم فرأينا أن المهاجرة والتباعد هو الأولى وفي الدوام تعارضا فكان الوفاء بحق الأخوة أولى ، هذا كله في زلته في دينه .

أما زلته في حقه بما يوجب إحقاشه فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتمال بل كل ما يحتمل تنزيهه على وجه حسن ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة ، فقد قيل : ينبغي أن تستبسط لزلة أخيك سبعين عذرا ؛ فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك ، فنقول لقلبك : ما أقساك ! يعتذر إليك أخوك سبعين عذرا فلا تقبله ، فأنت المعيب لا أخوك ، فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين فينبغي أن لا تغضب إن قدرت ، ولكن ذلك لا يمكن وقد قال الشافعي رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان . فلا تكن حمارا ولا شيطانا ، واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك ، واحترز أن تكون شيطانا إن لم تقبل . قال الأخف : حق الصديق أن تحتل منه ثلاثا : ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم المفوة . وقال آخر : ما شتمت أحدا قط : لأنه إن شتمني كريم فأنا أحق من غفرها له أو لئيم فلا أجعل عرضي له غرضا ثم تمثل وقال :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكريما

وقد قيل :

خذ من خليلك ما صفا ودع الذي فيه الكدر
فالعمر أقصر من معا تبة الخليل على الخير

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبا كان أو صادقا فاقبل عذره . قال عليه السلام : من اعتذر إليك أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل لئيم صاحب المكس ^(٣) ، وقال عليه السلام : المؤمن سريع الغضب سريع الرضا ^(٤) ، فلم يصفه بأنه

(١) حديث « شرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة » رواه أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بسند ضعيف
(٢) حديث « لا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيك » رواه البخاري من حديث أبي هريرة ويهدم في الباب قبله .
(٣) حديث « من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل لئيم صاحب مكس » أخرجه ابن ماجه وأبو داود في المراسيل من حديث جودان واختلف في صحبته وجهه أبو حاتم ورواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر بسند ضعيف .
(٤) حديث « المؤمن سريع الغضب سريع الرضا » لم أجده هكذا ولا ترمذى وحسنه من حديث أبي سعيد الخدري « ألا أن بني آدم خلقوا على طبقات شتى . . . الحديث » وفيه « ومنهم سريع النى تلك تلك »
(٢٤ — لمحياء علوم الدين — ٢)

لا يفضى . وكذلك قال الله تعالى ﴿ والكاذمين الغيظ ﴾ ولم يقل والفاقرين الغيظ ، وهذا لأن العادة لا تنتهي إلى أن يجرح الإنسان فلا يتألم ، بل تنتهي إلى أن يصبر عليه ويحتمل ، وكما أن التألم بالجرح مقتضى طبع البدن فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب ، ولا يمكن قله ولكن ضبطه وكظمه والعمل بخلاف مقتضاه ، فإنه يقتضى التشنج والانتقام والمكافأة ، وترك العمل بمقتضاه ممكن ، وقد قال الشاعر :

ولست بمستبق أخا لا تله على شعث أى الرجال المهذب ؟

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الخوارى : إذا واخيت أحدا في هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه ، فإنك لا تأمن من أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول ، قال : تجربته فوجدته كذلك . وقال بعضهم : الصبر على مفضى الأخ خير من معاتبته ، والمعاتبة خير من القطيعة ، والقطيعة خير من الوقعة . وينبغي أن لا يبالغ في البغضة عند الوقعة . قال تعالى ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ وقال عليه السلام : أحب حييكم هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما : (١) ، وقال عمر رضى الله عنه : لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا : وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكك .

الحق السادس

الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يجبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به ، فتدعو له كما تدعو لنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه ، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك » (٢) ، وفي لفظ آخر « يقول الله تعالى بك أبدا يا عبدي » (٣) ، وفي الحديث « يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه » (٤) ، وفي الحديث « دعوة الرجل لأخته في ظهر الغيب لا ترد » (٥) ، وكان أبو الدرداء يقول : إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودى أسميهم بأسمائهم . وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول : وأين مثل الأخ الصالح ؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت ، وهو منفرد بمجزئك مهمم بما قدمت وما صرت إليه ، يدعوك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى ، وكأن الأخ الصالح يقتدى بالملائكة ، إذ جاء في الخبر « إذا مات العبد قال الناس : ما خلفت ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ » (٦) ، يفرحون له بما قدم ويسألون عنه ويشفقون عليه ، ويقال : من بلغه موت أخيه فترحم عليه واستغفر له كتب له كأنه شهد جنازته وصلى عليه . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب » (٧) ، ولأنه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال . وقال بعض السلف الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء ، فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول : هذه

(١) حديث « أحب حييكم هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقال غريب قلت رجاله ثقات رجاله مسلم لسكن الراوى تردد في رفعه .

(٢) حديث « إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قال الملك ولك بمثل ذلك » أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء .
(٣) حديث « الدعاء للأخ بظهر الغيب » وفيه « يقول الله بك أبدا يا عبدي » لم أجد هذا اللفظ (٤) حديث « يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه » لم أجد هذا اللفظ ولأبي داود والترمذى وضعفه من حديث عبد الله بن عمرو « لأن أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لنايب » (٥) حديث « دعوة الأخ لأخيه في الغيب لا ترد » أخرجه الدارقطني في اللؤلؤ من حديث أبي الدرداء وهو عند مسلم إلا أنه قال « مستجابة » مكان « لا ترد » (٦) حديث « إذا مات العبد قال الناس ما خلفت وقالت الملائكة ما قدم » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٧) حديث « مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ينتظر دعوة من ولد أو والد . . الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة قال انتهى في الميزان أنه خبر منكر جدا .

هدية لك من عند أخيك فلان ، من عند قريبك فلان . قال : فيفرح بذلك كما يفرح الحى بالهدية .

الحق السابع : الوفاء والاخلاص

ومعنى الوفاء : الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، فإن الحب إنما يراى للأخرة ، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعى ، ولذلك قال عليه السلام « فى السبعة الذين يظلمهم الله فى ظله » ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ^(١) ، وقال بعضهم : قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره فى حال الحياة ، ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم أكرم عجوزا دخلت عليه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين ^(٢) ، فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ، ومراعاتهم أوقع فى قلب الصديق من مراعاة الأخ فى نفسه ، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر ، إذ لا يدل على قوة الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به ، حتى الكلب الذى على باب داره ينبغى أن يميز فى القلب عن سائر الكلاب ، ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة شمت به الشيطان ، فإنه لا يحسد متعاونين على بر كما يحسد متواخين فى الله ومتحابين فيه فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما قال الله تعالى ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ وقال مخبرا عن يوسف ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ﴾ ويقال ماتواخى اثنان فى الله فتنفرق بينهما إلا بذنب يرتكبه أحدهما . وكان بشرى يقول : إذا قصر العبد فى طاعة الله سلبه الله من يؤنسه . وذلك لأن الإخوان مسلاة للهموم وعون على الدين . ولذلك قال ابن المبارك : ألد الأشياء مجالسة الإخوان والانقلاب إلى كفاية ، والمودة الدائمة هى التى تكون فى الله ، وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض . ومن ثمرات المودة فى الله أن لا تكون مع حسد فى دين ودنيا وكيف يحسده وكل ما هو لأخيه فإنه يرجع فائدة ؟ وبه وصف الله تعالى المحبين فى الله تعالى فقال ﴿ ولا يحقدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ﴾ ووجود الحاجة هو الحسد . ومن الوفاء أن لا يتغير حاله فى التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لوم . قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فى المنزل الحشن

وأوصى بعض السلف ابنه فقال : يا بنى لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك وإن استغنى عنه لم يطمع فيك وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك . وقال بعض الحكماء : إذا ولى أخوك ولاية فثبت على نصف مودته لك فهو كثير . وحكى الربيع : أن الشافعى رحمه الله أخى رجلا بيغداد ثم إن أخاه ولى السييين فتغير له عما كان عليه ، فكتب إليه الشافعى بهذه الأبيات :

أذهب فودك من فؤادى طالق أبدا وليس طلاق ذات البين
فإن أروعيت فإنها تطليقة ويدوم ودك لى على ثنتين
وإن امتنعت شفعتها بمثلها فتكون تطليقتين فى حيضين
وإذا الثلاث أتنك منى بته لم تغن عنك ولاية السييين

(١) حديث « سبعة يظالمهم الله فى ظله ... الحديث » تقدم غير مرة .

(٢) حديث « أكرامه صلى الله عليه وسلم لعجوز دخلت عليه » وقوله لأنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان » أخرجه الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين وليس له علة .

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين بل الوفاء له المخالفة ، فقد كان الشافعي رضي الله عنه آخى محمد بن عبد الحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول ما يقيمني بمصر غيره ؛ فاعتل محمد فعاده الشافعي رحمه الله تعالى فقال :

مرض الحبيب فعدته فرضت من حذرى عليه
وأقى الحبيب يعودنى فبرئت من نظرى إليه

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفرض أمر حلقته إليه بعد وفاته ، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله تعالى عنه : إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله ؟ فاستشف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليؤم إليه ؛ فقال الشافعي : سبحان الله أيشك في هذا أبو يعقوب البويطي ؟ فانكسر لها محمد ومال أصحابه إلى البويطي مع أن محمدا كان قد حمل عنه مذهبه كله ، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع . فنصح الشافعي لله وللسلمين وترك المداينة ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى . فلما توفي انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه ورجع إلى مذهب أبيه ودرس كتب مالك رحمه الله ، وهو من كبار أصحاب مالك رحمه الله . وآثر البويطي الزهد والخول ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة واشتغل بالعبادة وصنف كتاب الآم ، الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به ، وإنما صنفه البويطي ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه ، فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره . والمقصود أن الوفاء بالحجة من تمامها النصح لله . قال الأحنف : الإخاء جوهرة رقيقة إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير . ومن آثار الصدق والإخلاص وتام الوفاء أن تكون شديد الجزع من المفارقة ، نفور الطبع عن أسبابها كما قيل :

وجدت مصيبات الزمان جميعها سوى فرقة الأحباب هيئة الخطب

وأشد ابن عينة هذا البيت وقال : لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يخيل إلى أن حسرتهم ذهبت من قلبي . ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه لاسيما من يظهر أولا أنه محب لصديقه - كيلا يتهم - ثم يلقي الكلام عرضا وينقل عن الصديق ما يوغر القلب فذلك من دقائق الحيل في التضريب ومن لم يحتز منه لم تدم مودته أصلا . قال واحد الحكماء : قد جئت خاطبا لمودتك ، قال : إن جعلت مهرها ثلاثا فعلت ، قال : وما هي ؟ قال : لا تسمع على بلاغة ولا تخالفني في أمر ولا توطئني عشوة . ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه . قال الشافعي رحمه الله : إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشترك في عداوتك .

الحق الثامن : التخفيف وترك التكلف والتكليف

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه بل يروح سره من مهماته وحاجاته ويرفقه عن أن يحمله شيئا من أعبائه ، فلا يستمد منه من جاء ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى تبركا بدعائه واستئناسا بلقائه واستعانة به على دينه وتقربا إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته . قال بعضهم : من اقتضى من إخوانه ما لا يقضونه فقد ظلمهم ، ومن اقتضى منهم مثل ما يقضونه فقد آتبعهم ، ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم . وقال بعض الحكماء : من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا ، ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتبعهم ، ومن جعلها دون قدره سلم وسلوا وتام التخفيف بطي بساط التكليف

حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه . وقال الجنيد : ماتواخي اثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلا لعله في أحدهما . وقال علي عليه السلام : شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى اعتذار . وقال الفضيل : إنما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه . وقالت عائشة رضي الله عنها : المؤمن أخو المؤمن لا يفتنمه ولا يحتشمه . وقال الجنيد : صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة - كل طبقة ثلاثون رجلا - حارثا المحاسبي وطبقته ، وحسنا المسروحي وطبقته ، وسريا السقطي وطبقته ، وابن الكربي وطبقته ، فما تواخى اثنان في الله واحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش إلا لعله في أحدهما . وقيل لبعضهم : من نصحب ؟ قال : من يرفع عنك ثقل التكلف وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ . وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول : أثقل إخواني على من يتكاف لي وأتحفظ منه ، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي . وقال بعض الصوفية : لا تعاشر من الناس إلا من لا يزيد عنده ببر ولا تنقص عنده بإثم يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء ، وإنما قال هذا لأن به يتخلص عن التكلف والتحفظ . وإلا فالطبع يحمله على أن يتحفظ منه إذا علم أن ذلك ينقصه عنده . وقال بعضهم : كن مع أبناء الدنيا بالأدب ومع أبناء الآخرة بالعلم ومع العارفين كيف شئت ! وقال آخر : لا تصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت ويعتذر إليك إذا أسأت ويحمل مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه . وقائل هذا قد ضيق طريق الأخوة على الناس وليس الأمر كذلك بل ينبغي أن يواخي كل متدين عاقل ويعزم على أن يقوم بهذه الشرائط ولا يكلف غيره هذه الشروط حتى تكثر إخوانه ، إذ به يكون مواخيا في الله وإلا كانت مواخاته لحظوظ نفسه فقط . ولذلك قال رجل للجنيد : قد عز الإخوان في هذا الزمان أين أخ لي في الله ؟ فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثا ، فلما أكثر قال له الجنيد : إن أردت أخا يكفيك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمري قليل ، وإن أردت أخا في الله تحمل أنت مؤنته وتصبر على أذاه فعندى جماعة أعرفهم لك . فسكت الرجل . واعلم أن الناس ثلاثة : رجل تلتفع بصحبته ، ورجل تقدر على أن تنفعه ولا تتضرره ولكن لا تلتفع به . ورجل لا تقدر أيضا على أن تنفعه وتتضرر به وهو الآخر أو السيء الخلق فهذا الثالث ينبغي أن تتجنبه ، فأما الثاني فلا تتجنبه لأنك تلتفع في الآخرة بشفاعته وبدعائه وبثوابك على القيام به ، وقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إن أطعني فما أكثر إخوانك أي إن واسيتهم واحتملت منهم ولم تحسدهم . وقد قال بعضهم : صحبت الناس خمسين سنة فإوقع بيني وبينهم خلاف فإني كنت معهم على نفسي ومن كانت هذه شيمته كثر إخوانه . ومن التخفيف وترك التكلف أن لا يعترض في نوافل العبادات . كان طائفة من الصوفية يصطحبون على شرط المساواة بين أربع معان : إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم ، وإن صام الدهر كله لم يقل له أفطر ، وإن نام الليل كله لم يقل له قم ؟ وإن صلى الليل كله لم يقل له : نم ، وتستوى حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان لأن ذلك إن تفاوت حرك الطبع إلى الرياء والتحفظ لا محالة . وقد قيل : من سقطت كلفته دامت ألفتة من خفت مؤنته دامت مودته . وقال بعض الصحابة : إن الله لعن المتكلفين وقال صلى الله عليه وسلم : أنا والأنبياء من أمتي برآء من التكلف ^(١) ، وقال بعضهم : إذا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به ^(٢) إذا أكل عنده ، ودخل الخلاء ، وصلى . ونام . فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال : بقيت خامسة وهو أن يحضر مع الأهل في بيت أخيه ويحاجمها ، لأن البيت يتخذ للاستخفاء في الأمور الخس ،

(١) حديث « أنا وأمتي برآء من التكلف » أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث الزبير بن العوام « ألا ترى من التكلف وصلحو أمتي » وإسناده ضعيف (٢) حديث « إذا صنع الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به . الحديث » لم أجده أسلا .

ولأفالمساجد أروح لقلوب المتعبدين ، فإذا فعل هذه الخمس فقد تم الإخاء وارتفعت الحشمة وتأكد الانبساط .
وقول العرب في تسليمهم يشير إلى ذلك ، إذ يقول أحدهم لصاحبه : مرحبا وأهلا وسهلا ، أى لك عندنا مرحب
وهو السعة في القلب والمكان ، ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة لك منا ، ولك عندنا سهولة في ذلك كله ، أى
لا يشتد علينا شيء مما تريد . ولا يتم التخفيف وترك التكاف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه ويحسن الظن بهم ويسىء
الظن بنفسه فإذا رآهم خيرا من نفسه فعند ذلك يكون هو خيرا منهم وقال أبو معاوية الأسود : إخواني كلهم خير
منى ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : كلهم يرى لى الفضل عليه ومن فضلنى على نفسه فهو خير منى وقد قال صلى الله عليه
وسلم « المرء على دين خليله ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له »^(١) ، فهذه أقل الدرجات وهو النظر بعين
المساواة والكمال في رؤية الفضل للأخ . ولذلك قال سفيان : إذا قيل لك ياشر الناس فخصبت فأنت شر الناس أى
ينبغي أن تكون معتقدا ذلك في نفسك أبدا . وسيأتى وجه ذلك في كتاب الكبير والعجب . وقد قيل في معنى التواضع
ورؤية الفضل للإخوان أبيات :

تذلل لمن إن تذلل له يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لا يرا ل على الأصدقاء يرى الفضل له
وقال آخر : كم صديق عرفته بصديق صار أخطى من الصديق العتيق
ورفيق رأيته في طريق صار عندي هو الصديق الحقيقي

ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه وهذا في عموم المسلمين مذموم . قال صلى الله عليه وسلم « بحسب المؤمن
من الشر أن يحقر أخاه المسلم »^(٢) ، ومن تنمة الانبساط وترك التكلف أن يشاور إخوانه في كل ما يقصده ويقبل
إشاراتهم فقد قال تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وينبغي أن لا يخفى عنهم شيئا من أسرارهم كما روى أن يعقوب
ابن أخى معروف قال : جاء أسود بن سالم إلى عمى معروف وكان مواخيا له فقال : إن بشر بن الحرث يحب مؤاخاتك
وهو يستحى أن يشافهك بذلك وقد أرسلنى إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوة يحسبها ويعتد بها إلا أنه
يشترط فيها شروطا : لا يحب أن يشتهر بذلك ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقة فإنه يكره كثرة الالتقاء ،
فقال معروف : أما أنا لو أخيت أحدا لم أحب مفارقتة ليلا ولانهارا ولزورته في كل وقت وآثرته على نفسه في كل
حال ، ثم ذكر من فضل الأخوة والحب في الله أحاديث كثيرة ، ثم قال فيها . وقد أخى رسول الله صلى الله عليه
وسلم عليا فشاركه في العلم^(٣) وقاسمه في البدن^(٤) وأنكحه أفضل بناته وأحبهن إليه وخصه بذلك لمؤاخاته^(٥) وأنا

(١) حديث « المرء على دين خليله ولاخير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له » تقدم الشطر الأول منه في الباب قبله
وأما الشطر الثاني فرواه ابن عدى في الكامل من حديث أنس بسند ضعيف (٢) حديث « بحسب امرئ من الشر أن يحقر
أخاه المسلم » أخرجه مسلم من حديث أنس هزيمة وتقدم في أثناء حديث « لاتدابروا » في هذا الباب
(٣) حديث « أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وشاركه في العلم » أخرجه النسائي في الخصائص من سننه الكبرى
من حديث علي قال « جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب ... الحديث » وفيه « فأيسكم يبايعنى على أن يكون أخى
وصاحي ووارثي فلم يبق عليه أحد فقلت عليه » وفيه « حتى إذا كان في الثالثة ضرب بيده على يدي » وله ولعناكم من حديث
ابن عباس « أن عليا كان يقول في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لئن لأخوه ووليه ووارثه عليه ... الحديث » وكل ماورد
في أخوته ضعيف لا يصح منه شيء ولا ترمذى من حديث ابن عمر « وانت أخى في الدنيا والآخرة » ولعناكم من حديث ابن عباس
« أنا مدينة العلم وعلى بابها » وقال صحيح الإسناد وقال ابن حبان لأصل له وقال ابن طاهر أنه موضوع وللترمذى من حديث علي
« أنا دار الحكمة وعلى بابها » وقال غريب (٤) حديث « مقاسمة عليا للبدن » أخرجه مسلم في حديث جابر الطويل « ثم أعطى
عليا فحضر ماعبر وأشركه في هديه » (٥) حديث « أنه أنكح عليا أفضل بناته وأحبهم إليه » هذا معلوم مشهور في الصحيحين
من حديث علي « لما أردت أن أبني بغاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم واعدت رجلا صواغا ... الحديث » ولعناكم من حديث =

أشهدك أني قد عقدت له أخوة بيني وبينه وعقدت لإخاءه في الله لرسالتك ولمسألتك على أن لا يزورني إن كره ذلك ولكنني أزوره متى أحببت ، ومره أن يلقاني في مواضع نلتقي بها ، ومره أن لا يخفى علي شيئا من شأنه وأن يطلني على جميع أحواله ، فأخبر ابن سالم بشرا بذلك فرضي وسر به . فهذا جامع حقوق الصحبة وقد أجملناه مرة وفصلناه أخرى ، ولا يتم ذلك إلا بأن تكون على نفسك للإخوان ولا تكون لنفسك عليهم وأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك .

أما البصر فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك وتنظر إلي محاسنهم وتتعاوى عن عيوبهم ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يعطى كل من جلس إليه نصيبا من وجهه وما استصغاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مسأله وتوجهه للجالس إليه ^(١) وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة ، وكان عليه السلام أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعجبا بما يحدثونه به ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء منهم بفعله وتوقيرا له عليه السلام .

وأما السمع فبأن تسمع كلامه مثلثا بسماعه ومصدقا به ومظهرا للاستبشار به ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادة ولا منازعة ومداخلة واعتراض فإن أرمقك عارض اعتذرت إليهم وتحرس سمعك عن سماع ما سكرهون .
وأما اللسان فقد ذكرنا حقوقه فإن القول فيه يطول ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون .

وأما اليدان فإن لا يقبضهما عن معاونتهم في كل ما يتعاطى باليد .
وأما الرجلان فإن يمشي بهما وراهم مشى الاتباع لا مشى المتبوعين ولا يتقدمهم إلا بقدر ما يقدمونه ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه ويقوم لهم إذا أقبلوا ولا يقعد إلا بقعودهم ويقعد متواضعا حيث يقعد . ومهما تم الاتحاد خف حمله من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء فإنها من حقوق الصحبة وفي ضمنها نوع من الأجنية والتكلف فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالسكينة فلا يسلك به إلا مسلك نفسه لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب . ومهما صفت القلوب استغنى عن تكلف إظهار ما فيها ، ومن كان نظره إلى صحبة الخلق فتارة يعوج وتارة يستقيم ، ومن كان نظره إلى الخالق لزم الاستقامة ظاهرا وباطنا وزين باطنه بالحب لله ولخلقه وزين ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده فإنها أعلى أنواع الخدمة لله إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق ، ويدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة .

= أم أيمن « زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة عليا ... الحديث » وقال صحيح الاسناد وفي الصحيحين من حديث عائشة عن فاطمة « فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين . . الحديث » (١) حديث « كان يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه ... الحديث » أخرجه الترمذي في المعاني من حديث علي في أثناء حديث فيه « يعطى كل جلسائه نصيبه لا يحجب جلسيه أن أحدا أكرم عليه ممن جالسه ومن سأله حاجة لم يرد له إلا بها أو يعيد من القول » ثم قال « مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة » وفيه « يضحك مما يضحكون منه ويتمتع بما يتعجبون منه » وللترمذي من حديث عبد الله بن عمار بن جزء « ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقال غريب .

خاتمة لهذا الباب

نذكر فيها جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق
ملتقطة من كلام بعض الحكماء

إن أردت حسن العشرة فالق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم ، وتوقير من غير كبر ، وتواضع في غير مذلة . وكن في جميع أمورك في أوسطها فكلما طرفي قصد الأمور ذميم . ولا تنظر في عطفيك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات وإذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعيب بلحيتك وغاتمك وتحليل أسنانك وإدخال أصبعك في أنفك وكثرة بصافك وتنخمك وطرده الذباب من وجهك وكثرة التظلي والتشاوب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها ، وليكن مجلسك هاديا وحديثك منظوما مرتبا واصنع إلى الكلام الحسن من حديثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته ، واسكت عن المضاحك والحكايات ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر ما يخصك ، ولا تصنع تصنع المرأة في التزين ولا تبدل تبدل العبد وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن ، ولا تلج في الحاجات ولا تشجع أحدا على الظلم ولا تعلم أهلك وولدك فضلا عن غيرهم مقدار مالك فإنهم إن رأوه قليلا هنت عندهم وإن كان كثيرا لم تبلغ قط رضاهم ، وخوفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك ، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك ولا تكثر الإشارة بيديك ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك ولا تبحث على ركبتك ، وإذا هدأ غيظك فتكلم وإن قربك سلطان فكن منه على مثل حد السنان فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك وارفق به رفقك بالصبي وكلمه بما يشتهي مالم يكن معصية ، ولا يحملنك لطمه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه وإن كنت لذلك مستحقا عنده فإن سقطه الداخل بين الملك وبين أهله سقطه لا تعش وزلة لا تقال ، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ، وإذا دخلت مجلسا فالأدب فيه البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع ، وأن تحي بالسلام من قرب منك عند الجلوس .

ولا تجلس على الطريق ، فإن جلست فأدبه غض البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والارتياح لموضع البصاق ، ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى .

ولا تجالس الملوك ، فإن فعلت فأدبه ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والإعراب في الخطاب ، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم - وإن ظهرت لك المودة - وأن لا تتجشأ بحضرتهم ولا تتخلل بعد الأكل عنده ، وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إفشاء السر والقدح في الملك والتعرض للحرم .

ولا تجالس العامة ، فإن فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء أفعالهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم . وإياك أن تمازح ليديا أو غير لبيب فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يجرئ عليك لأن المزاح يخرق الهيبة ويسقط ماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بجلاوة الودويشين فقه الفقيه ويجترئ

السفيه ويسقط المنزلة عند الحكيم ويمقت المتقون ، وهو يمت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة وبورث الذلة وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب . وقد قيل : لا يكون المزاج إلا من سخط أو بطر . ومن يلى في مجلس بمزاج أو لخط فليذكر الله عند قيامه قال النبي صلى الله عليه وسلم « من جلس في مجلس فكثر فيه لخطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك . إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك » (١) .

الباب الثالث : في حق المسلم والرحم والجوار والمالك

وكيفية المعاشرة مع من يدل بهذه الأسباب

اعلم أن الإنسان إما أن يكون وحده أو مع غيره وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة . وكل مخالط في مخالطته أدب والآداب على قدر حقه وحقه على قدر رابطته التي بها وقعت المخالطة . والرابطه إما القرابة وهي أخصها أو أخوة الإسلام وهي أعمها ، وينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحبة ، وإما الجوار ، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس ، وإما الصداقة أو الأخوة .

ولكل واحد من هذه الروابط درجات . فالقرابة لها حق ولكن حق الرحم المحرم أكد ، وللحرم حق ولكن حق الوالدين أكد . وكذلك حق الجار ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده ، ويظهر التفاوت عند النسبة حتى إن البلدى في بلاد الغربية يجرى مجرى القريب في الوطن لاختصاصه بحق الجوار في البلد . وكذلك حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة . وللمعارف درجات فليس حق الذي عرف بالمشاهدة كحق الذي عرف بالسماع بل أكد منه والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط . وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها كحق الصحبة في الدرس والمكتب أكد من حق صحبة السفر . وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قويت صارت أخوة فإن ازدادت صارت حبة فإن ازدادت صارت خلة ، والخليل أقرب من الحبيب ؛ فالحبة ما تتمكن من حبة القلب والخلة ما تتخلل سر القلب ؛ فكل خليل حبيب وليس كل حبيب خليلا ، وتفاوت درجات الصداقة لا يخفى بحكم المشاهدة والتجربة فأما كون الخلة فوق الأخوة فمعناه أن لفظ الخلة عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة وتعرفه من قوله صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذًا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله » (٢) ، إذ الخليل هو الذي يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهرا وباطنا ويستوعبه ولم يستوعب قلبه عليه السلام سوى حب الله وقد منعته الخلة عن الاشتراك فيه مع أنه اتخذ عليا رضي الله عنه أخا فقال « على منى بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة » (٣) ، فعدل بعلى عن النبوة كما عدل بأبي بكر عن الخلة ، فشارك أبا بكر عليا رضي الله عنهما في الأخوة وزاد عليه بمقاربة الخلة وأهليته لها لو كان للشركة في الخلة مجال ، فإنه نبه عليه بقوله « لاتخذت أبا بكر خليلا ، وكان صلى الله عليه وسلم حبيب الله وخليله ، وقد روى أنه صعد المنبر يوما مستبشرا فرحا فقال « إن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ، فأنا حبيب الله وأنا خليل الله تعالى » (٤) ، فإذا لم يكن قبل

(١) حديث « من جلس في مجلس فكثر فيه لخطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وصححه .

الباب الثالث : في حقوق المسلم والرحم والجوار

(٢) حديث « لو كنت متخذًا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري

(٣) حديث « على منى بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص .

(٤) حديث « إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا .. » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ،

دون قوله « فأنا حبيب الله وأنا خليل الله »

المعرفة رابطة ولا بعد الخلة درجة ، وماسواهما من الدرجات بينهما . وقد ذكرنا حق الصلابة والاخوة ويدخل فيهما ما وراءهما من المحبة والخلة ، وإنما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كما سبق بحسب تفاوت المحبة والاخوة ، حتى ينتهي أقصاها إلى أن يوجب الإيثار بالنفس والمال ، كما أثر أبو بكر رضي الله عنه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكما أثره طلحة بيده إذ جعل نفسه وقاية لشخصه العزيز صلى الله عليه وسلم ، فنحن الآن نريد أن نذكر حق أخوة الإسلام وحق الرحم وحق الوالدين ، وحق الجوار ، وحق الملك - أعني ملك البين - فإن ملك النكاح قد ذكرنا حقوقه في كتاب آداب النكاح .

حقوق المسلم

هي : أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتجيبه إذا دعاك ، وتشتمه إذا عطس ، وتعوده إذا مرض ، وتشهد جنازته إذا مات ، وتبر قسمه إذا أقسم عليك ، وتنصح له إذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ماتحب لنفسك وتكره له ماتكره لنفسك ^(١) ورد جميع ذلك في أخبار وآثار . وقد روى أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أربع من حق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم ، وأن تستغفر لمذنبهم ، وأن تدعو لمدبرهم وأن تحب تائبهم » ^(٢) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى (رحماء بينهم) قال : يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحيهم ، فإذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبتته عليه وانفعنا به ، وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال : اللهم أهده وتب عليه واغفر له عثرته . ومنها أن يحب المؤمنين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه قال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مثل المؤمن في توادم وتراحهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائر به بالحمى والسهرة » ^(٣) ، وروى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ^(٤) ، ومنها أن لا يؤذى أحدا من المسلمين بفعل ولا قول ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث طويل يأمر فيه بالفضائل : « فإن لم تقدر فذع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك » ^(٦) ، وقال أيضا : « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده » ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم أتدرون من المسلم ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، قالوا : فمن المؤمن ؟ قال : « من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم ، قالوا : فمن المهاجر ؟ قال : « من هجر السوء واجتنبه » ^(٨) ، وقال رجل يارسول الله ما الإسلام

الأخبار الواردة في حقوق المسلم على المسلم

- (١) هو أن يسلم عليه إذا لقيه فذكر عشر خصال . أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض - واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشيت المأطس » وفي رواية لمسلم « حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته تسلم عليه ، وإذا استنصحك فانصح له ، ولترمذى وابن ماجه من حديث علي « للمسلم على المسلم ست » فذكر منها « ويحب له ما يحب لنفسه » وقال « وينصح له إذا غاب أو شهد » ولأحمد من حديث معاذ « وأن تحب الناس ماتحب لنفسك وتكره لهم ماتكره لنفسك » وفي الصحيحين من حديث البراء : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع فذكر منها « وإبرار القسم ونصر المظلوم » (٢) حديث أنس « أربع من حقوق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم ، وأن تستغفر لمذنبهم ، وأن تدعو لمدبرهم وأن تحب تائبهم » ذكره صاحب الفردوس ولم أجده له إسنادا (٣) حديث النعمان بن بشير « مثل المؤمن في توادم وتراحهم كمثل الجسد ... الحديث » متفق عليه (٤) حديث أبي موسى « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » متفق عليه (٥) حديث « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٦) حديث « فإن لم تقدر فذع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك » متفق عليه من حديث أبي ذر (٧) حديث « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده » متفق عليه من حديث أبي موسى (٨) حديث « أتدرون من المسلم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم » قال « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه الطبراني والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد « ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمجاهد من ...

قال : أن يسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك ، وقال مجاهد : يسلم على أهل النار الجرب فيحتكون حتى يذهب عظم أحدهم من جلده ، فينادى : يا فلان : هل يؤذيك هذا ؟ فيقول : نعم ، فيقول : هذا بما كنت تؤذى المؤمنين . وقال صلى الله عليه وسلم : لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين ^(١) ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه ؟ يا رسول الله ، علمني شيئا أنتفع به . قال : اعزل الأذى عن طريق المسلمين ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له به حسنة ، ومن كتب الله له حسنة أوجب له بها الجنة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا يحل لمسلم أن يشر إلى أخيه بنظرة تؤذيه ، وقال : لا يحل لمسلم أن يروع مسلما ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله يكره أذى المؤمنين ^(٥) ، وقال الربيع ابن خثيم : الناس رجلان ، مؤمن فلا تؤذه ، وجاهل فلا تجاهله . ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه ، فإن الله لا يحب كل مختال فخور . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ^(٦) ، ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ وعن ابن أبي أوفى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشی مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته ^(٧) ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض . قال صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة قتات ^(٨) ، وقال الخليل بن أحمد : من نم لك نم عليك ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك . ومنها أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه . قال أبو أيوب الأنصاري : قال صلى الله عليه وسلم : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام ^(٩) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم من أقال مسلما عشرته أقاله الله يوم القيامة ^(١٠) ، قال عكرمة قال الله تعالى ليوسف بن يعقوب ، بعفوك عن إخوانك رفعت ذكرك في الدارين . قالت عائشة رضي الله عنها : ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله ^(١١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما عفا رجل عن مظلة إلا زاده الله بها عزا . وقال

= جاهد نفسه في طاعة الله ، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب ، ورواه ابن ماجه مقتصرا على « المؤمن والمهاجر » والحاكم من حديث أنس وقال : على شرط مسلم ، والمهاجر من هجر السوء ؛ ولأحمد بإسناد صحيح من حديث عمر بن عبسة : قال رجل يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك ^(١) حديث « لقد رأيت رجلا في الجنة يتقلب في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ^(٢) حديث أبي هريرة : يا رسول الله ، علمني شيئا أنتفع به ، قال : اعزل الأذى عن طريق المسلمين « أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة » قلت يائي الله ... فذكره ^(٣) حديث « من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له به حسنة ، ومن كتب الله له حسنة أوجب له بها الجنة » رواه أحمد من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف ^(٤) حديث « لا يحل لمسلم أن ينظر إلى أخيه بنظر يؤذيه » أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية حمزة بن عبيد مرسل بسند ضعيف ، وفي البر والصلة له من زيادات الحسين المروزي حمزة بن عبد الله بن أبي سمي وهو الصواب ^(٥) حديث « إن الله تعالى يكره أذى المؤمنين » أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية عكرمة بن خالد مرسل بإسناد جيد ^(٦) حديث « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » أخرجه أبو داود وابن ماجه واللفظ له من حديث عباس بن جاز ورجاله رجال الصحيح ^(٧) حديث ابن أبي أوفى : كان لا يأنف ولا يتكبر أن يمشی مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته ، أخرجه النسائي بإسناد صحيح ، والحاكم وقال : على شرط الشيخين .

(٨) حديث « لا يدخل الجنة قتات » متفق عليه من حديث أبي أيوب ^(٩) « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث .. الحديث » متفق عليه ^(١٠) حديث « من أقال مسلما عشرته أقاله الله يوم القيامة » أخرجه أبو داود والحاكم ، وقد تقدم ^(١١) حديث عائشة : ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط ، إلا أن تصاب حرمة الله فينتقم لله . متفق عليه بلفظ : إلا أن تنتهك .

صلى الله عليه وسلم « ما نقص مال من صدقة وما زاد الله رجلا بعفو إلا عزاً وما من أحد تواضع لله إلا رفعه الله »^(١) ، ومنها أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم ما استطاع ليميز بين الأهل وغير الأهل . روى علي بن الحسين على أبيه عن جده رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله فإن أصبت أهله فهو أهله وإن لم تصب أهله فأنت من أهله »^(٢) ، وعنه بإسناده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر »^(٣) ، قال أبو هريرة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسلها ولم تكن ترى ركبته خارجة عن ركبته جلسه ولم يكن أحد يكلمه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه »^(٤) ، ومنها أن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف . قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الاستئذان ثلاث فالأولى يستصتون والثانية يستصلحون والثالثة يأذنون أو يردون »^(٥) ، ومنها أن يخالف الجميع بخلق حسن ويعاملهم بحسب طريقته فإنه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم والامى بالفقه والعبي بالبيان آذى وتأذى . ومنها أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان . قال جابر رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من إجلال الله لإكرام ذى الشبهة المسلم »^(٧) ، ومن تمام توقير المشايخ أن لا يتكلم بين أيديهم إلا بالإذن ، وقال جابر « قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم فقام غلام ليتكلم فقال صلى الله عليه وسلم : مه فأين الكبير »^(٨) ؟ ، وفي الخبر « ما وقر شاب شيخنا إلا قبض الله له في سنة من يوقره »^(٩) ، وهذه بشارة بدوام الحياة فليتنبه لها فلا يوفق لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظاً والمطر قيظاً وتفيض اللثام فيضاً وتفيض الكرام غيضاً ويجتري الصغير على الكبير والقيم على الكريم »^(١٠) ، « والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(١١) . « كان صلى الله عليه وسلم يقدم من السفر فيلتقاء الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه

- (١) حديث « ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده « اصنع المعروف إلى أهله ، فإن لم تصب أهله فأنت أهله » ذكره الدارقطني في العلل وهو ضعيف ، ورواه القضاة في مسند الشهاب من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلًا بسند ضعيف (٣) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده « رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر » أخرجه الطبراني في الأوسط ، والخطابي في تاريخ الطالبين ، وعند أبو نعيم في الحلية دون قوله « واصطناع ... إلى آخره » وقال الطبراني « التجب » (٤) حديث أبي هريرة : « كان لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسلها ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن . ولأبي داود والترمذي وابن ماجه نحوه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث أبي هريرة « الاستئذان ثلاث ! فالأولى يستصتون ، والثانية يستصلحون ، والثالثة يأذنون أو يردون » أخرجه الدارقطني في الأفراد بسند ضعيف . وفي الصحيحين من حديث أبي موسى « الاستئذان ثلاث ؟ فإن أذن لك وإلا فارجع . » (٦) حديث جابر « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا » رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف ، وهو عند أبي داود ، والبخارى في الأدب من حديث عبد الله بن عمرو بسند حسن (٧) حديث « من إجلال الله لإكرام ذى الشبهة المسلم » أخرجه أبو داود من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن (٨) حديث جابر : « قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام غلام ليتكلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : مه فأين الكبير ؟ » أخرجه الحاكم وصححه (٩) حديث « ما وقر شاب شيخنا إلا قبض الله له في سنة من يوقره » أخرجه الترمذي من حديث أنس بلفظ « ما أكرم ، ومن يكرمه » وقال حديث غريب . وفي بعض النسخ حسن ، وفيه أبو الرجال وهو ضعيف (١٠) حديث « لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظاً والمطر قيظاً ... الحديث » رواه الحارثي في مكارم الأخلاق من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن مسعود . وإسنادهما ضعيف (١١) حديث التلطف بالصبيان أخرجه البزار من حديث أنس : « كان من أفسك الناس مع صبي ، وقد تقدم في النكاح . وفي الصحيحين « يا أبا عمير ما فعل النمر » وغير ذلك

ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم^(١) ، فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض : حملني رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه وحملك أنت ورائه ، ويقول بعضهم : أمر أصحابه أن يحملوك ورائهم وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعوه بالبركة وليسميه فيأخذه فيضعه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من يراه فيقول : لا تزرموا الصبي بوله فيدعه حتى يقضى بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ويبلغ سرور أهله فيه لئلا يروا أنه تأذى ببوله فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده^(٢) ، ومنها أن يكون مع كافة الخلق مستبشرا طلق الوجه رفيقا . قال صلى الله عليه وسلم « أتدرون على من حرمت النار ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال . على الذين الهين السهل القريب^(٣) » ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب السهل الطلق الوجه^(٤) » ، وقال بعضهم « يا رسول الله دأبني على عمل يدخلني الجنة ، فقال : إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام^(٥) » ، وقال عبد الله بن عمر : إن البر شيء هين ؛ وجه طليق وكلام لين . وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ؛ فقال أعرابي : لمن هي يا رسول الله ؟ قال لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام^(٧) » ، وقال معاذ بن جبل : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وخفض الجناح^(٨) » ، وقال أنس رضي الله عنه « عرضت لنبي الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت : لي معك حاجة ؛ وكان معه ناس من أصحابه ، فقال : اجلسي في أي نواحي السكك شئت أجلس إليك ، ففعلت فجلس إليها حتى قضت حاجتها^(٩) » ، وقال وهب بن منبه : إن رجلا من بني إسرائيل صام سبعين سنة يفطر في كل سبعة أيام ، فسأل الله تعالى أنه يريه كيف يغوى الشيطان الناس ؟ فلما طال عليه ذلك ولم يجب قال : لو اطلعت على خطيئتي وذنبي

- (١) حديث : كان يقدم من السفر فتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمرهم برفع يديهم إليه ... الحديث . رواه مسلم من حديث عبد الله بن جعفر : كان إذا قدم من سفر تلقى بيا . قال : فليق بي وبالحسن ، وقال : غل أحدنا بين يديه والآخر خلقه وفي رواية : تلقى بعبدين أهل بيته وأنه قدم من سفر فسبق بي إليه فحملني بين يديه ثم جرى بأحد ابني فاطمة فأردف خلقه . وفي الصحيحين أن عبد الله بن جعفر قال لابن الزبير : أتذكر إذ تلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأنت وابن عباس ؟ قال : نعم خبلنا وتركك ، لفظ مسلم . وقال البخاري : إن ابن الزبير قال لابن جعفر ، فأنه أعلم^(٢) . حديث : كان يؤتى بالصبي الصغير ليدعوه بالبركة ويسميه فيأخذه ويضعه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من رآه .. الحديث . رواه مسلم من حديث عائشة كان يؤتى بالصبيان فيركب عليهم ويحسبهم فأتى بصبي فبال عليه فدعا بسام فأقبه بوله ولم ينسله . وأصلا متفق عليه . وفي رواية لأحمد : فیدعو لهم ، وفيه « صبا عليه المساء صبا والدارقطني : بال ابن الزبير على النبي صلى الله عليه وسلم فأخذه أخذ عنيفا ... الحديث ، وفيه الحجاج بن أرطاة ضعيف . ولأحمد بن منيع من حديث حسن بن علي عن امرأة منهم : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستلقيا على ظهره يلعب صبيا إذ بال ، فقامت لتأخذه وتضربه فقال : « دعيه ، انتوي بكوز من ماء ... الحديث » وإسناده صحيح (٣) حديث « أتدرون على من حرمت النار ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال علي الهين السهل القريب » أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود ولم يقل « الهين » وذكرها الخرائطي من رواية محمد بن أبي معيقب عن أمه قال الترمذي حسن غريب (٤) حديث أبي هريرة « إن الله يحب السهل الطلق » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف ورواه من رواية موري العجلي مرسل (٥) حديث « إن من واجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام » أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه والطبراني والخرائطي في معارج الأخلاق واللفظ له والبيهقي في شعب الإيمان من حديث هاشم بن يزيد بإسناد جيد (٦) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة ... الحديث » متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وتقدم في الزكاة (٧) حديث « إن في الجنة غرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث علي وقال حديث غريب . قلت وهو ضعيف (٨) حديث « معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث » أخرجه الخرائطي في معارج الأخلاق والبيهقي في كتاب الزهد وأبو نعيم في الحلية ولم يقل البيهقي « وخفض الجناح » وإسناده ضعيف (٩) حديث أنس « عرضت لنبي الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت لي معك حاجة فقال اجلسي في أي نواحي السكك شئت أجلس إليك ... الحديث » رواه مسلم

يبنى وبين ربى لكان خيرا الى من هذا الامر الذى طلبته ، فأرسل الله إليه ملكا فقال له : إن الله أرسلني إليك وهو يقول لك : إن كلامك هذا الذى تكلمت به أحب إلى مما مضى من عبادتك ، وقد فتح الله بصرك فانظر ، فنظر فإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذئاب فقال : أى رب من ينجو من هذا ؟ قال : الورع اللين . ومنها أن لا يعد مسلما بوعده إلا ويبنى به قال صلى الله عليه وسلم « العدة عطية ^(١) » ، وقال « العدة دين ^(٢) » ، وقال « ثلاث فى المنافق : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ^(٣) » ، وقال « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى ^(٤) » ، وذكر ذلك ومنها أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتى إليهم إلا بما يحب أن يؤتى إليه قال صلى الله عليه وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإنفاق من الإقتار والإنصاف من نفسه وبذل السلام ^(٥) » ، وقال عليه السلام « من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ^(٧) » ، قال الحسن : أوحى الله تعالى إلى آدم صلى الله عليه وسلم بأربع خصال وقال : فيهن جماع الأمر لك ولولدك ، واحدة لى واحدة لك واحدة بينى وبينك واحدة بينك والخلق ، فأما التى لى : تعبدنى ولا تشرك بى شيئا ، وأما التى لك : فعملك أجزيك به أفقر ماتكون إليه ، وأما التى بينى وبينك : فعليك الدعاء وعلى الإجابة ، وأما التى بينك وبين الناس فتصحبهم بالذى تحب أن يصحبوك به وسأل موسى عليه السلام الله تعالى فقال : أى رب أى عبادك أعدل ؟ قال من أنصف من نفسه . ومنها أن يزيد فى توفير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته فينزل الناس منازلهم . روى أن عائشة رضى الله عنها كانت فى سفر فنزلت منزلا فوضعت طعامها ، فجاء سائل فقال عائشة : ناولوا هذا المسكين قرصا ، ثم مر رجل على دابة فقال : ادعوه إلى الطعام . فقيل لها : تعطين المسكين وتدعين هذا الغنى ؟ فقالت : إن الله تعالى أنزل الناس منازل لا بد لنا من أن ننزلهم تلك المنازل ، هذا المسكين يرضى بقرص وقبيح بنا أن نعطي هذا الغنى على هذه الهيئة قرصا . وروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوتة فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلأ ؛ فجاء جرير بن عبد الله البجلي فلم يجد مكانا فقعده على الباب فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فألقاه إليه وقال له : اجلس على هذا فأخذه جرير ووضع على وجهه وجعل يقبله ويبكى ، ثم لفه ورمى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ؛ أكرمك الله كما أكرمته ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يمينا وشمالا ثم قال « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ^(٨) » ، وكذلك كل من له عليه حق قديم

- (١) حديث « العدة عطية » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ثابت بن أشيم بسند ضعيف (٢) حديث « العدة دين » رواه الطبرانى فى معجميه الأوسط والأخر من حديث على وابن مسعود بسند فيه جهالة ورواه أبو داود فى المراسيل
- (٣) حديث « ثلاث فى المنافق : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه
- (٤) حديث « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى » رواه البخارى من حديث أبي هريرة وأصله متفق عليه ولفظ مسلم « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » وهذا ليس فى البخارى
- (٥) حديث « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإنفاق من الإقتار والإنصاف من نفسه وبذل السلام » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عمار بن ياسر ووقعه البخارى عليه (٦) حديث « من سره أن يزحزح عن النار فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص نحوه والخرائطى فى مكارم الأخلاق بلفظه (٧) حديث « يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف والمعروف أنه قاله لأبي هريرة وقد تقدم (٨) حديث « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وفى أوله قصة فى قدوم جرير بن عبد الله أخرجه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وتقدم فى الزكاة مختصرا .

فليكرمه . روى أن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أرضعت له جاءت إليه فبسط لها رداءه ثم قال لها مرحبا بأبي ثم أجلسها على الرداء ثم قال لها اشفعي تشفعى وسلي تعطى فقالت : قومي فقال : أما حق وحق بنى هاشم فهو ذلك ؛ فقام الناس من كل ناحية وقالوا : وحقنا يا رسول الله . ثم وصلها بعد وأخدمها ووهب لها سهمانته بخين ^(١) ، فيسح ذلك من عثمان بن عفان رضى الله عنه بمائة ألف درهم ، ولربما أتاه من يأتيه وهو على وسادة جالس ولا يكون فيها سعة يجلس معه فينزعها ويضعها تحت الذى يجلس إليه فإن أبى عزم عليه حتى يفعل ^(٢) ، ومنها أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلا . قال صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا : بلى قال : إصلاح ذات البين وفساد ذات البين هي الحالقة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أفضل الصدقة لإصلاح ذات البين ^(٤) ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أنس رضى الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما الذى أضحكك ؟ قال : رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما : يارب خذنى مظلمتى من هذا ، فقال الله تعالى : رد على أخيك مظلمته . فقال : يارب لم يبق لي من حسناتي شيء ، فقال الله تعالى للطلال : كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شيء ؟ فقال : يارب فليحمل عني من أوزاري . ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال : إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال : فيقول الله تعالى - أرى للظلم - ارفع بصرك فانظر في الجنان فقال : يارب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة بالؤلؤ لاى نبي هذا أو لاى صديق أو لاى شهيد ؟ قال الله تعالى : هذا لمن أعطى الثمن قال : يارب ومن يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه ، قال : بماذا يارب ؟ قال : بعفوك عن أخيك ، قال : يارب قد عفوت عنه ، فيقول الله تعالى : خذ يد أخيك فأدخله الجنة . ثم قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة ^(٥) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا ^(٦) ، وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس لأن ترك الكذب واجب ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه قال صلى الله عليه وسلم : كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب ^(٧) . فإن الحرب خدعة أو يكذب بين اثنين فيصلح بينهما أو يكذب لامرأته ليرضيها . ومنها أن يستر عورات المسلمين كلهم قال صلى الله عليه وسلم ، من ستر على مسلم ستره الله

(١) حديث « مات ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أرضعت له جاءت إليه فبسط لها رداءه .. الحديث » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي الطفيل مختصرا في بسط رداءه لها دون ما بعده

(٢) حديث « نزع صلى الله عليه وسلم وسادته ووضعها تحت الذى يجلس إليه » أخرجه أحمد من حديث ابن عمرو « أنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم فألقى إليه وسادة من آدم حشوها ليف ... الحديث » وإسناده صحيح والطبراني من حديث سلمان « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكئ على وسادة فألقاه إلى .. الحديث » وسنده ضعيف قاله صاحب الميزان هذا خبر ساقط

(٣) حديث « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى قال إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هي الحالقة » رواه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء (٤) حديث « أفضل الصدقة لإصلاح ذات البين » أخرجه الطبراني في الكبير والحراطين في مكالم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي ضعفه الجمهور .

(٥) حديث أنس « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر يا رسول الله بأبي وأمي ما الذى أضحكك ؟ قال رجلان من أمتي جثيا بين يدي الله عز وجل فقال أحدهما يارب خذنى مظلمتى من هذا ... الحديث » أخرجه الحراطين في مكالم الأخلاق والحاكم وقال صحيح الإسناد وكذا أبو يعلى الموصلى أخرجه بطول وضعفه البخاري وابن حبان

(٦) حديث « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نعى خيرا » متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

(٧) حديث « كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب ... الحديث » أخرجه الحراطين في مكالم الأخلاق من حديث النواس بن سميان وفيه انقطاع وضعف ولمسلم نحوه من حديث أم كلثوم بنت عقبة .

تعالى في الدنيا والآخرة ^(١) ، وقال « لا يستر عبد إلا ستره الله يوم القيامة » ^(٢) ، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم « لا يرى المؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة » ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم لما أخبره « لو سترته بثوبك كان خيرا لك » ^(٤) ، فأذن على المسلم أن يستر عورة نفسه حتى لإسلامه واجب عليه حتى لإسلام غيره . قال أبو بكر رضي الله عنه : لو وجدت شاربا لأحببت أن يستره الله ولو وجدت سارقا لأحببت أن يستره الله . وروى أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة فرأى رجلا وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس : رأيتم لو أن إماما رأى رجلا وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين ؟ قالوا : إنما أنت إمام ، فقال على رضي الله عنه : ليس ذلك لك ، إذا يقام عليك الحد إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود ، ثم تركهم ماشاء الله أن يتركهم ثم سألهم ، فقال القوم مقاتلهم الأولى ، فقال على رضي الله عنه : مثل مقاتله الأولى . وهذا يشير إلى أن عمر رضي الله عنه كان مترددا في أن الوالي هل له أن يقضى بعله في حدود الله ؟ فلذلك راجعهم في معرض التقدير لا في معرض الإخبار خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفا بإخباره ، ومال رأى على إلى أنه ليس له ذلك . وهذان أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش فإن أخشها الزنا ، وقد نيط بأربعة من العدول - يشاهدون ذلك منه في ذلك منها كالمرود في المكحلة - وهذا قط لا يتفق . وإن عليه القاضي تحقيقا لم يكن له أن يكشف عنه . فانظر إلى الحكمة في حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذي هو أعظم العقوبات . ثم انظر إلى كشف ستر الله كيف أسبله على العصاة من خلقه بتضييق الطريق في كشفه ؟ فرجو أن لا نكرم هذا الكرم يوم تبلى السرائر : ففي الحديث « إن الله إذا ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها مرة أخرى » ^(٥) ، وعن عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه قال : خرجت مع عمر رضي الله عنه ليلة في المدينة فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر بيدي وقال : أتدري بيت من هذا ؟ قلت : لا ، فقال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فاستري ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله عنه قال الله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم وهذا يدل على وجوب الستر وترك التتبع وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاوية « إنك إن تتبع عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » ^(٦) ، وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع عورته ومن يتبع عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته » ^(٧) ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى

(١) حديث « من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وللشيخين من حديث ابن عمر من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة (٢) حديث « لا يستر عبد إلا ستره الله يوم القيامة » رواه مسلم من حديث أبي هريرة أيضا (٣) حديث أبي سعيد الخدري « لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة » رواه الطبراني في الأوسط والصنير والخرائط في مكارم الأخلاق واللفظ له بسند ضعيف (٤) حديث « لو سترته بثوبك كان خيرا لك » رواه أبو داود والنسائي من حديث نعيم بن هزال والحاكم من حديث هزال نفسه وقال صحيح الإسناد ونعيم مختلف في صحته (٥) حديث « إن الله إذا ستر على عبده عورة في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفه في الآخرة .. الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث على « من أذنب ذنبا في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فأنه أكرم من أن يرجع في شيء قد عفا عنه ومن أذنب ذنبا في الدنيا فعوقب عليه فأنه أهمل من أن يثنى العقوبة على عبده » انظر الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولمسلم من حديث أبي هريرة « لا ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره يوم القيامة » (٦) حديث « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » قاله لمعاوية أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث معاوية (٧) حديث « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد ولترمذي من حديث ابن عمر وحسنه .

ماأخذته ولا دعوت له أحدا حتى يكون معي غيرى . وقال بعضهم : كنت قاعدا مع عبدالله بن مسعود رضى الله عنه إذ جاءه رجل بآخر ، فقال : هذا نشوان ، فقال عبدالله بن مسعود : استنكهوه فاستنكهوه فوجده نشوانا فحبسه حتى ذهب سكره ، ثم دعا بسوط فكسر ثمره ثم قال للجلاذ : اجلد وارفع يدك وأعط كل عضو حقه فجلبده وعليه قباه أو مرط : فلما فرغ قال للذى جاء به : ماأنت منه ؟ قال : عمه ، قال عبدالله : ماأدبت فأحسنت الأدب ولا سترت الحرمة ! إنه ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حد أن يقيمه وإن الله عفو يحب العفو ثم قرأ ﴿ وليعفوا وليصْفحوا ﴾ ثم قال : إني لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجهه ، فقالوا : يا رسول الله كأنك كرهت قطعه ، فقال : وما يمنعني ! لا تكفونوا عونا للشياطين على أخيكم ؟ فقالوا : ألا عفوت عنه ؟ فقال : إنه ينبغي للسلطان إذا انتهى إليه حد أن يقيمه إن الله عفو يحب العفو وقرأ ﴿ وليعفوا وليصْفحوا ﴾ ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴿ (١) ، وفي رواية فكأنما سنى في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد لشدة تغيره وروى أن عمر رضى الله عنه كان يعس بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل في بيت يتغنى فتسور عليه فوجده عنده امرأة وعنده خمر ، فقال : يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت على منصيته ؟ فقال : وأنت يا أمير المؤمنين فلا تعجل فإن كنت قد عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاثا قال الله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسس وت قال الله تعالى ﴿ وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ وقد تسورت على وقد قال الله تعالى ﴿ لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ﴾ الآية وقد دخلت بيتي بغير إذن ولا سلام ، فقال عمر رضى الله عنه . هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال نعم والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت عنى لأعود إلى مثلها أبدا فعفا عنه وخرج وتركه . وقال رجل لعبدالله بن عمر . يا أبا عبد الرحمن كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال سمعته يقول : إن الله ليدينى منه المؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس فيقول : أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا فيقول : نعم يا رب ، حتى إذا قرره بذنوبه فرأى في نفسه أنه قد هلك قال له : يا عبدى إني لم أسترها عليك في الدنيا إلا وأنا أريد أن أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسنة . وأما الكافرون والمنافقون ﴿ فتقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : كل أمتى معانى إلا المجاهرين (٣) ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل سوءا ثم يخبر به وقال صلى الله عليه وسلم : من استمع خبر قوم وهو له كارهون صب في أذنه الآنك يوم القيامة (٤) ، ومنها أن يتقى مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولا لستهم عن العيبة فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكا قال الله تعالى ﴿ ولا نسبوا الذى يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : كيف ترون من يسب أبويه فقالوا : وهل من أحد يسب أبويه ؟ فقال : نعم يسب أبوى غيره فيسبون أبويه (٥) ، وقد روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نسائه فزبه رجل فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا فلان هذه زوجتى صفية ، فقال :

(١) حديث ابن مسعود : إني لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد واخرائط في مكارم الأخلاق : فكأنما سنى في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد .. الحديث (٢) حديث ابن عمر : إن الله عز وجل ليدينى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس فيقول أتعرف ذنب كذا .. الحديث عليه (٣) حديث : كل أمتى معانى إلا المجاهرين ... الحديث ، متفق عليه من حديث أبى هريرة (٤) حديث : من استمع من قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة ، رواه البخارى من حديث ابن عباس مرفوعا وموقوفا عليه وعلى أبى هريرة أيضا . (٥) حديث : كيف ترون من سب أبويه فقالوا وهل من أحد يسب أبويه ... الحديث ، متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو نحوه .

يارسول الله من كنت أظن فيه فإني لم أكن أظن فيك ، فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ^(١) ، وزاد في رواية : إني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا وكانا رجلين فقال : على رسلكما إنها صفة ^(٢) ... الحديث ، وكانت قد زارته في العشر الأواخر من رمضان : وقال عمر رضي الله عنه : من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء به الظن . وممر برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة فقال : يا أمير المؤمنين ، إنها امرأتى فقال : هلاحيث لا يراك أحد من الناس ؟ ومنها أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه قال صلى الله عليه وسلم : إني أوتى وأسأل وتطلب إلى الحاجة وأنتم عندي فاشفعوا لتؤجروا ويقضى الله على يدي نبيه ما أحب ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اشفعوا إلى لتؤجروا إني أريد الأمر وأؤخره كي تشفعوا إلى فتؤجروا ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان قيل وكيف ذلك ؟ قال : الشفاعة يحقن بها الدم وتجربها المنفعة إلى آخر ويدفع بها المكروه عن آخر ^(٤) ، وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كآنى أنظر إليه خلفها وهو يبكي ودموعه تسيل على لحيته ، فقال صلى الله عليه وسلم للعباس : ألا تعجب من شدة حب مغيث لبريرة وشدة بغضها له ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لوراجعته فإنه أبو ولدك ، فقالت : يارسول الله أتأمرني فافعل ؟ فقال : لا إنما أنا شافع ^(٥) ، ومنها أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ويصالحه عند السلام قال صلى الله عليه وسلم : من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه حتى يبدأ بالسلام ^(٦) ، وقال بعضهم : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ارجع فقل السلام عليكم أأدخل ^(٧) ، وروى جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دخلتم بيوتكم فسلوا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته ^(٨) ، وقال أنس رضي الله عنه خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثمان حجج فقال لي : يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيت من أمتي تكثر حسناتك وإذا دخلت منزلك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك ^(٩) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا التقى المؤمنان فتصافحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسع وستون لأحسنهما بشرا ، وقال تعالى ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ وقال عليه السلام : والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم ؟ قالوا . بلى يارسول الله ،

(١) حديث أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نساءه فمر به رجل فدعا فقال يا فلان هذه زوجتي فلا ... الحديث ، وفيه : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، رواه مسلم . (٢) حديث : إني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا وقال على رسلكما إنها صفة ، متفق عليه من حديث صفة . (٣) حديث : إني أوتى وأسأل وتطلب إلى الحاجة وأنتم عندي فاشفعوا لتؤجروا ... الحديث ، متفق عليه من حديث أبي موسى نحوه . (٤) حديث : ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان .. الحديث ، أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له في الكبير من حديث سمرة بن جندب ضعيف . (٥) حديث عكرمة عن ابن عباس : أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كآنى أنظر إليه خلفها يبكي ... الحديث ، رواه البخاري . (٦) حديث : من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في اليوم واليلة واللفظ له من حديث ابن عمر بسند فيه لين . (٧) حديث : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال صلى الله عليه وسلم : ارجع فقل السلام عليكم أأدخل ، أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث كعدة بن الحنبل وهو صاحب القصة . (٨) حديث جابر : إذا دخلتم بيوتكم فسلوا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته ، أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه ضعف . (٩) حديث أنس : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثمان حجج فقال لي : يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيت من أمتي تكثر حسناتك وإذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك ، أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وإسناده ضعيف والترمذي وصححه ، إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك ،

قال : أفشوا السلام بينكم ^(١) ، وقال أيضا : إذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : إن الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم ولا يسلم عليه ^(٣) ، وقال عليه السلام : يسلم الراكب على المشاة وإذا سلم من القوم واحد أجزا عنهم ^(٤) ، وقال قتادة : كانت تحية من كان قسلكم السجود فأعطى الله تعالى هذه الأمة السلام وهي تحية أهل الجنة . وكان أبو مسلم الخولاني يمر على قوم فلا يسلم عليهم ويقول : ما يمنعني إلا أني أخشى أن لا يردوا فتلعنهم الملائكة . والمصافحة أيضا سنة مع السلام وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليكم ، فقال عليه السلام : عشر حسنات ، فجاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله فقال عشرون حسنة ، فجاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال : ثلاثون ^(٥) ، وكان أنس رضى الله عنه يمر على الصبيان فيسلم عليهم ^(٦) . ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعل ذلك . وروى عبد الحميد ابن بهرام : أنه صلى الله عليه وسلم مر في المسجد يوما وعصبة من الناس فعود فأومأ بيده بالسلام ، وأشار عبد الحميد بيده إلى الحكاية ^(٧) . فقال عليه السلام : لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه ^(٨) ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصافحوا أهل الذمة ولا تبدؤهم بالسلام فإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيق الطرق .

قالت عائشة رضى الله عنها : إن رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليكم ، قالت عائشة رضى الله عنها : فقلت بل عليكم السام واللغة فقال عليه السلام : يا عائشة إن الله يحب الرفق في كل شيء ، قالت عائشة : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : فقد قلت عليكم ^(٩) ، وقال عليه السلام : يسلم الراكب على المشاة والمشاة على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير ^(١٠) ، وقال عليه السلام : لا تشبهوا باليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع وتسليم النصارى بالإشارة بالأكف ^(١١) ، قال أبو عيسى إسناده ضعيف .

وقال عليه السلام : إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ، ثم إذا قام فليسلم فليست

(١) حديث « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث « إذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة » ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة ولم يستد له في المسند (٣) حديث : الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم فلا يسلم عليه ، لم أقبله على أصل (٤) حديث « يسلم الراكب على المشاة وإذا سلم من القوم أحد أجزا عنهم » رواه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم مرسلًا ولأبي داود من حديث علي « يجزى عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزى عن الجلوس أن يرد أحدهم » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « يسلم الراكب على المشاة ... الحديث » وسيأتي في بقية الباب (٥) حديث : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال سلام عليك فقال صلى الله عليه وسلم : عشر حسنات ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عمران ابن حصين قال الترمذي حسن غريب وقال البيهقي في الشعب إسناده حسن (٦) حديث أنس : كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ورفعهم متفق عليه (٧) حديث عبد الحميد بن بهرام : أنه صلى الله عليه وسلم مر في المسجد يوما وعصبة من الناس فعود فأومأ بيده بالتسليم وأشار عبد الحميد بيده أخرجه الترمذي من رواية عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وقال حسن وابن ماجه من رواية ابن أبي حنبل عن شهر ورواه أبو داود وقال أحمد لا بأس به (٨) حديث « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ... الحديث » رواه مسلم من حديث أبي هريرة

(٩) حديث عائشة : إن رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك ... الحديث « متفق عليه (١٠) حديث « يسلم الراكب على المشاة والمشاة على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير » متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يقل مسلم « والصغير على الكبير » (١١) حديث « لا تشبهوا اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع وتسليم النصارى بالإشارة بالأكف » أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال إسناده ضعيف

الأولى بأحق من الأخيرة^(١) ، وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا التقى المؤمنان فتصالحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسعة وستون لأحسنهما بشرا^(٢) ، وقال عمر رضي الله عنه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إذا التقى المسلمان وسلم كل واحد منهما على صاحبه وتصالحا نزلت بينهما مائة رحمة للبائت تسعون وللصافح عشرة^(٣) ، وقال الحسن : المصافحة تزيد في الود . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تمام نحياتكم المصافحة^(٤) ، وقال عليه السلام : قبله المسلم أخاه المصافحة^(٥) ، ولا بأس بقبلة يد المعظم في الدين تبركا به وتوقيرا له . وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قبلنا يد النبي صلى الله عليه وسلم^(٦) ، وعن كعب بن مالك قال : لما نزلت توبتي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده^(٧) ، وروى أن أعرابيا قال : يا رسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك قال : فأذن له ففعل^(٨) ، وأتى أبو عبيدة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فصالحه وقبل يده وتنحيا يسيكان وعن البراء بن عازب رضي الله عنه : أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه فرد عليه ومد يده إليه فصالحه فقال : يا رسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المسلمين إذا التقيا فتصالحا نحات ذنوبهما^(٩) ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه مائة خير منهم وأطيب - أو قال وأفضل -^(١٠) ، والاحتناء عند السلام منهى عنه قال أنس رضي الله عنه : قلنا يا رسول الله أينحن بعضنا لبعض ؟ قال لا ، قال : فيقبل بعضنا بعضا ؟ قال لا ، قال : فيصافح بعضنا بعضا ؟ قال نعم^(١١) ، والالتزام والتقبيل قد ورد به الخبر عند القدوم من السفر^(١٢) وقال أبو ذر رضي الله عنه : ما لقيته صلى الله عليه وسلم إلا صافحي ، وطلبتني يوما فلم أكن في البيت فلما أخبرت جئت وهو على سرير فالتزمني فكانت أجود وأجود^(١٣) .

(١) حديث « إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس » ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة ، أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أنس « إذا التقى المسلمان فتصالحا قسمت بينهما سبعون رحمة .. الحديث » أخرجه الحارثي بسند ضعيف والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة « مائة رحمة تسعة وستون لأحسنهما وأطلقهما وأبرهما وأحسنهما مسألة لأخيه » وفيه الحسن بن كثير بن يحيى بن أبي كثير مجهول (٣) حديث عمر بن الخطاب « إذا التقى المسلمان قبل كل واحد على صاحبه وتصالحا نزلت بينهما مائة رحمة ... الحديث » أخرجه البزار في مسنده والحارثي في مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وفي إسناده نظر (٤) حديث أبي هريرة « تمام نحياتكم بينكم المصافحة » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق وهو عند الترمذي من حديث أبي أمامة وضعفه (٥) حديث « قبله المسلم أخاه المصافحة » أخرجه الحارثي وابن عدي من حديث أنس وقال غير محفوظ (٦) حديث ابن عمر : قبلنا يد رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجه أبو داود بسند حسن (٧) حديث كعب بن مالك : « لما نزلت توبتي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده » أخرجه أبو بكر بن المقرئ في كتاب الرخصة في تهليل اليد . بسند ضعيف (٨) حديث : أن أعرابيا قال يا رسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك فأذن له ففعل . أخرجه الحاكم من حديث بريرة إلا أنه قال « رجلك » موضع « يدك » وقال صحيح الإسناد . (٩) حديث البراء بن عازب : أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه ومد يده إليه فصالحه .. الحديث . رواه الحارثي بسند ضعيف وهو عند أبي داود والترمذي وابن ماجه مختصرا « بامن مسلمين يلتقيان فتصالحان لا غفر لهما قبل أن يتفرقا » قال الترمذي حسن غريب من حديث أبي إسحق عن البراء (١٠) حديث « إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه مائة خير منهم وأطيب » أخرجه الحارثي والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود مرفوعا وضعف البيهقي المرفوع ورواه موقوفا عليه بسند صحيح (١١) حديث أنس : قلنا يا رسول الله أينحن بعضنا لبعض ؟ قال لا ، الحديث . أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه وضعفه أحمد والبيهقي (١٢) حدث : « الالتزام والتقبيل عند القدوم من السفر » أخرجه الترمذي من حديث عائشة قالت : قديم زيد بن حارثة ... الحديث « وفيه » فاعتنقه وقبله » وقال حسن غريب (١٣) حديث أبي ذر : ما لقيته صلى الله عليه وسلم إلا صافحي ... الحديث . أخرجه أبو داود وفيه رجل من غزوة لم يسم وسماء البيهقي في الشعب عبد الله

والأخذ بالركاب في توقير العلماء ورد به الأثر فعل ابن عباس ذلك بركاب زيد بن ثابت ^(١) وأخذ عمر يغرز زيد حتى رفعه وقال : هكذا فافعلوا بزيد وأصحاب زيد .

والقيام مكروه على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام قال أنس : ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك ^(٢) وروى أنه عليه السلام قال مرة : إذا رأيتموني فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم ^(٣) ، وقال عليه السلام : من سره أن يمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار ^(٤) ، وقال عليه السلام : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا ^(٥) ، وكانوا يحترزون عن ذلك لهذا النهي . وقال صلى الله عليه وسلم : إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا أحد أعماء فأوسع له فليأته فإنما هي كرامة أكرمه بها أخوه فإن لم يوسع له فليتنظر إلى أوسع مكان يجده فيجلس فيه ^(٦) ، وروى أنه سلم رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول فلم يجب ^(٧) فيكره السلام على من يقضى حاجته ، ويكره أن يقول ابتداء : عليك السلام ، فإنه قاله رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : إن عليك السلام تحية الموتى ، قالوا ثلاثا ، ثم قال : إذا لقي أحدكم أعماء فليقل السلام عليكم ورحمة الله ^(٨) ، ويستحب للدخول إذا سلم ولم يجد مجلسا أن لا ينصرف بل يقعد وراء الصف . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في المسجد إذا قبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها وأما الثاني فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة . أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه ^(٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا ^(١٠) ، وسلت أم هانئ على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من هذه ؟ ، فقيل له : أم هانئ فقال عليه السلام : مرحبا بأم هانئ ^(١١) .

ومنها أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ويرد عنه ويناضل دونه وينصره فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الإسلام . روى أبو الدرداء : أن رجلا نال من رجل - ند رسول الله صلى الله عليه وسلم -

- (١) حديث : أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت . تقدم في العلم
- (٢) حديث أنس : ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك . أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح . (٣) حديث : إذا رأيتموني فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم . أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة وقال : كما يقوم الأعاجم . وفيه أبو العديس مجهول (٤) حديث : من سره أن يمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار . أخرجه أبو داود والترمذي من حديث معاوية وقال حسن
- (٥) حديث : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا . متفق عليه من حديث ابن عمر
- (٦) حديث : إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا رجل أعماء فأوسع - يعني له - فليجلس فإنه كرامة من الله عز وجل ... الحديث . أخرجه البخاري في معجم الصحابة من حديث ابن شعبة ورجالته وبن شعبة هذا ذكره أبو موسى المديني في ذيله في الصحابة وقد رواه الطبراني في الكبير من رواية مصعب بن شعبة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أخصر منه ، وشعبة بن جبير والدمصور ليست له صحبة (٧) حديث : أن رجلا سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول فلم يجب . أخرجه مسلم من حديث ابن عمر بلفظ : فلم يرد عليه (٨) حديث : قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليك السلام فقال : إن عليك السلام تحية الميت ... الحديث . أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي في اليوم واليلة من حديث ابن جري المجيمي وهو صاحب القصة قال الترمذي حسن صحيح (٩) حديث : كان صلى الله عليه وسلم جالسا في المسجد إذا قبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها .. الحديث . متفق عليه من حديث أبي واقد الليثي
- (١٠) حديث : ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا . أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث البراء بن عازب (١١) حديث : سلّمت أم هانئ عليه فقال : مرحبا بأم هانئ . أخرجه مسلم من حديث أم هانئ

عليه وسلم فرد عنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم « من رد عن عرض أخيه كان له حجابا من النار »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة »^(٢) ، وعن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره أذله الله بها في الدنيا والآخرة ومن ذكر عنده أخوه المسلم فنصره نصره الله تعالى في الدنيا والآخرة »^(٣) ، وقال عليه السلام « من حى عن عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله تعالى له ملكا يحميه يوم القيامة من النار »^(٤) ، وقال جابر وأبو طلحة : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من امرئ مسلم ينصر مسلما في موضع ينتهك فيه عرصه ويستحل حرمة إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصره وبما من امرئ خدل مسلما في موطن ينتهك فيه حرمة إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته »^(٥) .

ومنها تسميت العاطس . قال عليه الصلاة والسلام في العاطس « يقول . الحمد لله على كل حال ، ويقول الذى يشمته : یرحمکم الله ، ويرد عليه العاطس فيقول : يهديكم الله ويصلح بالكم »^(٦) . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلننا يقول « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين ، فإذا قال ذلك فليقل من عنده : یرحمک الله فإذا قالوا ذلك فليقل : يغفر الله لى ولكم »^(٧) ، وشمّت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاطسا ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال « إنه حمد الله وأنت سكت »^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يشمت العاطس المسلم إذا عطس ثلاثا فإن زاد فهو زكام »^(٩) . وروى أنه شمت عاطسا ثلاثا فعطس أخرى فقال « إنك مزكوم »^(١٠) ، وقال أبو هريرة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عطس غضض صوته واستتر بثوبه أو يده »^(١١) . وروى : خر وجهه . وقال أبو موسى الأشعري : كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول یرحمکم الله فكان يقول « يهديكم الله »^(١٢) . وروى عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه : أن رجلا عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة فقال : الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يرضى ربنا ويرضى والحمد لله على كل حال ،

(١) حديث أبي الدرداء . « من رد عن عرض أخيه كان له حجابا من النار » أخرجه الترمذى وحسنه (٢) حديث « ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » أخرجه أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بنحوه والمراشلى في مكارم الأخلاق وهو عند الطبرانى بهذا اللفظ من حديث أنى الدرداء وفيهما شهر بن حوشب (٣) حديث أنس « من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره ولو بكلمة أذله الله عز وجل بها في الدنيا والآخرة ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصرًا على ما ذكره سنه وإسناده ضعيف

(٤) حديث « من حى عن عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله له ملكا يحميه يوم القيامة من النار » أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن أنس نحوه بسند ضعيف (٥) حديث جابر وأبى طلحة « ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه ويستحل حرمة ويستحل حرمة ... الحديث » أخرجه أبو داود مع تقديم وتأخير واختلف فى إسناده (٦) حديث « يقول العاطس الحمد لله على كل حال ويقول الذى يشمته یرحمک الله ويقول هو يهديكم الله ويصلح بالكم » أخرجه البخارى وأبو داود من حديث أبى هريرة ولم يقل البخارى « على كل حال » (٧) حديث أبى مسعود « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين .. الحديث » أخرجه النسائى فى اليوم والليلة وقال حديث منكر ورواه أيضاً أبو داود والترمذى من حديث سالم بن عبد الله واختلف فى إسناده

(٨) حديث : شمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاطسا ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال « إنه حمد الله وأنت سكت » متفق عليه من حديث أنس (٩) حديث « شمتوا المسلم إذا عطس ثلاثا فإن زاد فهو زكام » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة « شمت أخاك ثلاثا ... الحديث » وإسناده جيد (١٠) حديث : أنه شمت عاطسا فعطس أخرى فقال « المك مزكوم » أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (١١) حديث أبى هريرة : كان إذا عطس غضض صوته وستر بثوبه أو يده . أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح وفى رواية لأبى نعيم فى اليوم والليلة « خر وجهه وقاه » (١٢) حديث أبى موسى : كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول یرحمکم الله فكان يقول « يهديكم الله » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح .

فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من صاحب الكلمات ؟ » فقال : أنا يا رسول الله ما أردت بهن إلا خيرا ، فقال لقد رأيت اثني عشر ملكا كلهم يبتدرونها أيهم يكتبها ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من عطف نده فسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته » ^(٢) ، وقال عليه السلام : العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان فإذا تثاؤب أحدكم فليضع يده على فيه ، فإذا قال : هاها ، فإن الشيطان يضحك من جوفه ^(٣) ، وقال إبراهيم النخعي : إذا عطس في قضاء الحاجة فلا بأس بأن يذكر الله . وقال الحسن : يحمد الله في نفسه . وقال كعب : قال موسى عليه السلام يارب أقرب أنت فأناجيلك أم بعيد فأناديك ؟ فقال : أنا جليس من ذكرني فقال : فأنا نكون على حال نجلك أن نذكرك عليها كالجنابة والغائط ، فقال : اذكرني على كل حال .

ومنها أنه إذا بلى بذي شر فينبغي أن يتحمله ويتقيه قال بعضهم : خالص المؤمن خالصة وعالق الفاجر مخالفة فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن في الظاهر . وقال أبو الدرداء : إنا لنبش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم وهذا معنى المداراة وهي مع من يخاف شره قال الله تعالى ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة ﴾ قال ابن عباس في معنى قوله ﴿ ويدرمون بالحسنة السيئة ﴾ أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة . وقال في قوله تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ قال بالرغبة والرغبة والحياء والمداراة . وقالت عائشة رضي الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو ، فلما دخل ألان له القول حتى أن له عنده منزلة فلما خرج قلت له ، لما دخل قلت الذي قلت ، ثم أئنت له القول فقال : يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء خشفه ^(٤) ، وفي الخبر : ما وقى الرجل به عرضه فهو له صدقة ^(٥) .

وفي الأثر . خالطوا الناس بأعمالكم وزايلوهم بالقلوب . وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا .

ومنها أن يجتنب مخالطة الأغنياء ويختلط بالمساكين ويحسن إلى الأيتام كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرنى في زمرة المساكين » ^(٦) ، وقال كعب الأحبار . كان سليمان عليه السلام في ملكه إذا دخل المسجد فرأى مسكينا جلس إليه وقال : مسكين جالس مسكينا . وقيل ما كان من كلمة تقال لعيسى عليه السلام أحب إليه من أن يقال له يامسكين . وقال كعب الأحبار : ما في القرآن من ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فهو في التوراة « يا أيها المساكين » ، وقال عبادة بن الصامت . إن للنار سبعة أبواب ثلاثة للأغنياء وثلاثة للنساء وواحد للفقراء والمساكين وقال الفضيل : بلغني أن نبيا من الأنبياء قال : يارب كيف لي أن أعلم رضاك عني ؟ فقال . انظر كيف رضا المساكين عنك . وقال عليه الصلاة والسلام « إياكم ومجالسة الموتى ، قيل ومن الموتى يا رسول الله ؟ قال : الأغنياء » ^(٧) ، وقال موسى : إلهي أين أبغيتك ؟ قال عند المكسرة قلوبهم . وقال صلى الله عليه وسلم ، لا تعبطن فاجرا

(١) حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة : أن رجلا عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة فقال الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ... الحديث « أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه وإسناده جيد
(٢) حديث « من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته » أخرجه الطبراني في الأوسط وفي الدعاء من حديث علي بسند ضعيف
(٣) حديث « العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله « العطاس من الله » فرواه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم واليلة وقال البخاري « إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب ... الحديث »
(٤) حديث عائشة : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة ... الحديث » متفق عليه
(٥) حديث « ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة » أخرجه أبو يلى وابن عدى من حديث جابر وضعفه
(٦) حديث « اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرنى في زمرة المساكين » أخرجه ابن ماجه والمالك وصححه من حديث أنس سعيد والترمذي من حديث عائشة وقال غريب
(٧) حديث « إياكم ومجالسة الموتى وما الموتى ؟ قال الأغنياء » أخرجه الترمذي وضعفه والمالك وصححه إسناده من حديث عائشة « إياكم ومجالسة الأغنياء »

بنعمة فإنك لا تدري إلى ما يصير بعد الموت فإن من ورائه طالبا حيثاً^(١) ، وأما اليتيم فقال صلى الله عليه وسلم « من ضم يتيماً من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة ألبته^(٢) » ، وقال عليه السلام « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وهو يشير بأصبعيه^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من وضع يده على رأس يتيم ترحماً كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه^(٥) » .

ومنها النصيحة لكل مسلم والجهد في إدخال السرور على قلبه قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن يحب للمؤمن كما يحب لنفسه^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحدكم مرآة أخيه فإذا رأى فيه شيئاً فليمطه عنه^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من قضى حاجة لأخيه فكأنما خدم الله عمره^(٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أولم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين^(٩) » ، وقال عليه السلام « من فرج عن مؤمن مغموم أو أعان مظلوماً غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة^(١٠) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقيل كيف ينصره ظالماً ؟ قال « يمنع من الظلم^(١١) » ، وقال عليه السلام « إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على قلب المؤمن أو أن يفرج عنه غماً أو يقضى عنه ديناً أو يطعمه من جوع^(١٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من حمى مؤمناً من منافق يعتنه بعث الله إليه ملكاً يوم القيامة يحمى لحمه من نار جهنم » ، وقال صلى الله عليه وسلم « خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضرر لعباد الله وخصلتان ليس فوقهما شيء من البر الإيمان بالله والتفجع لعباد الله^(١٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يهتم للمسلمين فليس منهم^(١٤) » ، وقال معروف الكرخي ، من قال كل يوم ، اللهم أرحم أمة محمد كتبه الله من الأبدال - وفي رواية

(١) حديث « لا تنظن فاجراً بنعمة ... الحديث » رواه البخاري في التاريخ والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٢) حديث « من ضم يتيماً من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة البتة » أخرجه أحمد والطبراني من حديث مالك بن عمر وفيه على بن زيد بن جندب عن متسلم فيه (٣) حديث « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد ومسلم من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « من وضع يده على رأس يتيم ترحماً كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة » أخرجه أحمد والطبراني بإسناد ضعيف من حديث أبي أمامة دون قوله « ترحماً » ولابن حبان في الضعفاء من حديث ابن أبي أوفى « من مسح يده على رأس يتيم رحمه الله ... الحديث » (٥) حديث « خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وفيه ضعف (٦) حديث « المؤمن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه » تقدم بلفظ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ولم أره بهذا اللفظ . (٧) حديث « إن أحدكم مرآة أخيه .. الحديث » رواه أبو داود والترمذي وقد تقدم . (٨) حديث « من قضى لأخيه حاجة فكأنما خدم الله عمره » أخرجه البخاري في التاريخ والطبراني والمراعي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف مرسل . (٩) حديث « من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أولم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين » أخرجه الحاكم وصححه من حديث ابن عباس « لأن يحمي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته - وأشار بأصبعه - أفضل من أن يمشك في مسجدك هذا شهرين » والطبراني في الأوسط « من مشى في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكافه عمر سنين » وكلاماً ضعيف . (١٠) حديث « من فرج عن مغموم أو أعان مظلوماً غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وابن عدى من حديث أنس بلفظ « من أغاث مظلوماً » (١١) حديث « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم .

(١٢) حديث « إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على المؤمن .. الحديث » أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (١٣) حديث « خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضرر بعباد الله ... الحديث » ذكره صاحب الزبد من حديث علي ولم يستند ولده في مسنده . (١٤) حديث « من لم يهتم للمسلمين فليس منهم » أخرجه الحاكم من حديث حذيفة والطبراني في الأوسط من حديث أبي ثر وكلاماً ضعيف .

أخرى - اللهم أصلح أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد - كل يوم ثلاث مرات - كتبه الله من الأبدال ، وبكى على بن الفضيل يوماً فقبل له ما يبيحك ؟ قال : أبكى على من ظلمني إذا وقف غدا بين يدي الله تعالى وسئل عن ظله ولم تكن له حجة .

ومنها أن يعود مرضاهم فالمعرفة والإسلام كافيان في إثبات هذا الحق ونيل فضله . وأدب العائذ خفة الجلسة وقلة السؤال وإظهار الرقة والدعاء بالعافية وخض البصر عن عورات الموضع . وعند الاستئذان لا يقابل الباب ويدق برفق ولا يقول : أنا ، إذا قيل له : من ! ولا يقول ، يا غلام ، ولكن يحمد ويسبح وقال صلى الله عليه وسلم ، تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على يده ويسأله كيف هو وتمام تحياتكم المصافحة ، وقال صلى الله عليه وسلم « من عاد مريضاً فقد في مخارف الجنة حتى إذا قام وكل به سبعون ألف ملك يصلون عليه حتى الليل ^(١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا عاد الرجل المريض غاض في الرحمة فإذا قعد عنده قرت فيه ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إذا عاد المسلم أخاه أوزاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوات منزلاً في الجنة ^(٣) » ، وقال عليه السلام « إذا مرض العبد بعث الله تبارك وتعالى إليه ملكين فقال : انظرا ماذا يقول لعواده ؟ فإن هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه رفعنا ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول : لعبدى على إن توفيته إن أدخله الجنة وإن أنا شفيته أن أبدل له لما خيراً من لحيه ودما خيراً من دمه وإن أكفر عنه سيئاته ^(٤) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيراً يصب منه ^(٥) » ، وقال عثمان رضي الله عنه مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد من شرماتجده ، قالها مراراً ^(٦) » ودخل صلى الله عليه وسلم على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض فقال له « قل اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك أو صبراً على بليتك أو خروجاً من الدنيا إلى رحمتك فإنك ستعطيني إحداهن ^(٧) » ، ويستحب للعليل أيضاً أن يقول : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إذا شك أحدكم بطنه فليسال أمرأته شيئاً من صداقها ويشترى به عسلاً ويشربه بماء السماء فيجتمع له الهنيء والمرى والشفاء

(١) حديث « من عاد مريضاً فقد في مخارف الجنة ... الحديث » أخرجه أصحاب السنن والحاكم من حديث علي « من أتى أخاه المسلم عائداً معي في خرافة الجنة حتى يجلس فإذا جلس عمرته الرحمة فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي ولن كان مساء ... الحديث » لفظ ابن ماجه وصححه الحاكم وحسنه الترمذي والمسلم من حديث ثوبان « من عاد مريضاً لم يزل في خرافة الجنة » . (٢) حديث « إذا عاد الرجل المريض غاض في الرحمة فإذا قعد عنده قرت فيه » أخرجه الحاكم والبيهقي من حديث جابر وقال « انفس فيها » قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وكذا صححه ابن عبد البر ، وذكره مالك في الموطأ بلافا بلفظ « قرت فيه » ورواه الواقدي بلفظ « استقر فيها » وللطبراني في المعجم من حديث أنس « فإذا قعد عنده غمرته الرحمة » وله في الأوسط من حديث كعب بن مالك ومحمرو بن حزم « استنقع فيها » . (٣) حديث « إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبوات منزلاً في الجنة » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة لا أنه قال « ناداه مناد » قال الترمذي غريب قلت فيه عيسى بن سنان القسلي ضعفه الجمهور . (٤) حديث « إذا مرض العبد بعث الله تعالى ملكين فقال انظرا ماذا يقول لعواده الحديث » أخرجه مالك في الموطأ ومرسل من حديث عطاء بن يسار ووصله ابن عبد البر في التمهيد من روايته عن أبي سعيد الخدري وفيه عباد بن كثر الثقفى ضعيف الحديث والبيهقي من حديث أبي هريرة قال الله تعالى « إذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يشكني إلى عواده أطلقته من أسارى ثم أبدله لما خيراً من لحيه ودما خيراً من دمه ثم يستأنف العمل » وإسناده جيد : (٥) حديث « من يرد الله به خيراً يصب منه » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . (٦) حديث عثمان : مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بسم الله الرحمن الرحيم أعيذك بالله الواحد الصمد ... الحديث » أخرجه ابن السني في اليوم والليله والطبراني والبيهقي في الأدعية من حديث عثمان بن عفان بإسناد حسن . (٧) حديث : دخل على علي وهو مريض فقال « قل اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس بسند ضعيف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل وهو يشتكي ولم يسم علياً . وروى البيهقي في الدعوات من حديث عائشة : أن جبريل علمها للنبي صلى الله عليه وسلم وقال إن الله يأمرك أن تدعو بهذا الكلام .

والمبارك . وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار » قلت : بلى يا رسول الله قال « يقول لا إله إلا الله يحى ويميت وهو حي لا يموت سبحان الله رب العباد والبلاد والحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال . الله أكبر كبيرا إن كبرياء ربنا وجلاله وقدرته بكل مكان . اللهم إن أنت أمرضتني لتقبض روحي في مرضي هذا فاجعل روحي في أرواح من سبقت لهم منك الحسنى وباعدني من النار كما باعدت أوليائك الذين سبقت لهم منك الحسنى ^(١) » وروى أنه قال عليه السلام « عيادة المريض بعد ثلاث فواق ناقة ^(٢) » وقال طاوس : أفضل العيادة أخفها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : عيادة المريض مرة سنة فما ازدادت فنافلة ، وقال بعضهم : عيادة المريض بعد ثلاث . وقال عليه السلام « أغبوا في العيادة وأربعوا فيها ^(٣) » وجملة أدب المريض حسن الصبر وقلة الشكوى والضجر والفرع إلى الدعاء والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء ..

ومنها أن يشيع جنازتهم قال صلى الله عليه وسلم « من شيع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان ^(٤) » وفي الخبر « القيراط مثل أحد ^(٥) » ، ولما روى أبو هريرة هذا الحديث وسمعه ابن عمر قال : لقد فرطنا إلى الآن في قراريط كثيرة . والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار . وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال : اغدوا فإننا راثون . موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لا عقل له . وخرج مالك بن دينار خلف جنازة أخيه وهو يبكي ويقول : والله لا تقتر عيني حتى أعلم إلى ما صرت ولا والله لا أعلم ما دمت حيا . وقال الأعمش : كنا نشهد الجنائز فلاندرى لمن نعزى لحزن القوم كلهم ؟ ونظر إبراهيم الزيات إلى قوم يترحمون على ميت فقال لو ترحمون أنفسكم لكان أولى ! إنه نجا من أهوال ثلاث : وجه ملك الموت قد رأى ، ومرارة الموت قد ذاق ، وخوف الخاتمة قد أمن . وقال صلى الله عليه وسلم « يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله ^(٦) » .

ومنها أن يزور قبورهم والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب قال صلى الله عليه وسلم « ما رأيت منظرا إلا والقبر أظلم منه ^(٧) » وقال عمر رضى الله عنه : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه . فبكي وبكينا ، فقال « ما يبكيكم ؟ قلنا : بكينا ليكاثلك . قال « هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربى في زيارتها فأذن لي واستأذنته في أن أستغفر لها فأبى على فأدركنى ما يدرك الولد من الرقة ^(٨) » ، وكان عمر رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبطل لحيته ويقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر وإن لم ينج منه فما بعده أشد ^(٩) » وقال مجاهد . أول

(١) حديث أبي هريرة « ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار » أخرجه ابن أبي الدنيا في الدنيا في الدعاء وفي المرس والسكفات . (٢) حديث « عيادة المريض فواق ناقة » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس باسناد فيه جهالة . (٣) حديث « أغبوا في العيادة وأربعوا » رواه ابن أبي الدنيا وفيه أبو يعلى من حديث جابر بن عبد الله « إلا أن يكون منلوبا » وإسناده ضعيف . (٤) حديث من تبع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان أخرجه الهيثمي عن حديث أبي هريرة . (٥) حديث « القيراط مثل جبل أحد » أخرجه مسلم من حديث ثوبان وأبي هريرة وأصله متفق عليه (٦) حديث « يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد » أخرجه مسلم من حديث أنس . (٧) حديث « ما رأيت منظرا إلا والقبر أظلم منه » أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عثمان وقال صحيح الإسناد وقال الترمذي حسن غريب (٨) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى المقابر فجلس إلى قبر ... الحديث في زيارته قبر أمه . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مختصراً وأحمد من حديث بريدة وفيه : فقام إليه عمر ففداه بالأب والأم يقول يا رسول الله مالك ... الحديث (٩) حديث عثمان بن عفان « إن القبر أول منازل الآخرة ... الحديث » أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه إسناده

ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة . فهذا ما أعددت لك فا أعددت لي ؟ وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى يوم أوضع في قبري . كان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقيل له في ذلك فقال : أجلس إلى قوم يذكرونني معادي وإن قتلت عنهم لم يغتابوني . وقال حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يتفكر نفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم . وقال صلى الله عليه وسلم : ما من ليلة إلا وينادي مناد : يا أهل القبور من تغبطون ؟ قالوا : نغبط أهل المساجد لأنهم يصومون ولا نصوم ويصلون ولا نصلي ويذكرون الله ولا نذكره ^(١) ، وقال سفيان من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار . وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبراً فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع فيه ومكث ساعة ثم قال (رب ارجعون لعل أعمل صالحاً فيما تركت) ثم يقول : ياربيع قد أرجعت فأعمل الآن قبل أن لا ترجع . وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى وقال يا ميمون هذه قبور آبائي بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم أماراهم صرعى قد خلت بهم المثلاث وأصاب الهوام من أبدانهم ؟ ثم بكى وقال والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله ؟ وآداب المعزى خفض الجناح وإظهار الحزن وقلة الحديث وترك التبسم .

وآداب تشييع الجنازة لزوم الخشوع وترك الحديث وملاحظة الميت والتفكير في الموت والاستعداد له وأن يمشي أمام الجنازة بقرنها والإسراع بالجنازة سنة ^(٢) فهذه جملة آداب تنبه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق . والجملة الجامعة فيه أن لا تستصغر منهم أحداً حياً كان أو ميتاً فتهلك لأنك لا تدري لعله خير منك ؟ فإنه وإن كان فاسقاً فلعله يختم لك بمثل حاله ويختم له بالصلاح ؟ ولا تنتظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم فإن الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها . ومهما عظم أهل الدنيا في نفسك فقد عظمت الدنيا فتسقط من عين الله . ولا تبدل لهم دينك لتتال من دنياهم فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير . ولا تعادهم بحيث تظهر العداوة فيطول الأمر عليك في المعادة ويذهب دينك ودنياك فيهم ويذهب دينهم فيك ، إلا إذا رأيت منكراً في الدين فتعادي أفعالهم القبيحة وتنتظر إليهم بعين الرحمة لهم لتعرضهم لمقت الله وعقوبته بعضيائهم لحسبهم جهنم يصلونها ، فإليك تحقد عليهم ولا تسكن إليهم في مودتهم لك وثنائهم عليك في وجهك وحسن بشرهم لك فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة إلا واحداً وربما لا تجده . ولا تشك إليهم أحوالك فيسلكك الله إليهم ولا تطمع أن يكونوا لك في الغيب والسر كما في العلانية فذلك طمع كاذب وأنى تظفر به ؟ ولا تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الذل ولا تنال الغرض . ولا تعمل عليهم تكبراً لاستغنائك عنهم فإن الله يلجئك إليهم عقوبة على التكبر بإظهار الاستغناء . وإذا سألت أخاً منهم حاجة ففضاها فهو أخ مستفاد وإن لم يقض فلا تعاتبه فيصير عدواً تطول عليك مقاساته . ولا تشغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك ويعاديك ، وليكن وعظك عرضاً واسترسالاً من غير تنصيص على الشخص . ومهما رأيت منهم كرامة وخيراً فاشكر الله الذي سخرهم لك واستعد بالله أن يكلك إليهم . وإذا بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شراً أو أصابك منهم ما يسوءك فكل أمرهم إلى الله واستعد بالله من شرهم . ولا تشغل نفسك بالمكافأة فيزيد الضرر ويضيع العمر بشغله . ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعي .

(١) حديث « ما من ليلة إلا ينادي مناد يا أهل القبور من تغبطون ؟ فيقولون : نغبط أهل المساجد ... الحديث لم أجده أصلاً .

(٢) حديث : الإسراع بالجنازة . متفق عليه من حديث أبي هريرة « أسرعوا بالجنازة ... الحديث » .

واعتقد أنك لو استحققت ذلك لجعل الله لك موصفا في قلوبهم فأنه المحب والمبغض إلى القلوب وكن فيهم سمعا لحقهم أصم عن باطلهم نطوقا بحقهم صموتا عن باطلهم . واحذر صحة أكثر الناس فإنهم لا يقيلون عشرة ولا يفقرن زلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على النقيير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير ، ينتصفون ولا ينصفون ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ولا يعفون ، يغرون الإخوان على الإخوان بالقيمة والبهتان ، فصحة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان ، إن رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا فباطنهم الخلق لا يؤمنون في حقهم ولا يرجون في ملقهم ، ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب ، يقطعون بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون ، يحصون عليك العثرات في صحبتهم ليواجهوك بها في غضبهم ووحشتهم ، ولا تقول على مودة من لم تخبره حق الخبرة ، بأن تصحبه مدة في دار أو موضع واحد فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره أو تسافر معه أو تعامله في الدينار والدرهم أو تقع في شدة فتحتاج إليه ، فإن رضيته في الأحوال فاتخذة أبالك إن كان كبيرا أو ابنا لك إن كان صغيرا أو أخاك إن كان مثلك . فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق .

حقوق الجوار

اعلم أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام . فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم : الجيران ثلاثة : جاره حق واحد ، وجاره حقان ، وجاره ثلاثة حقوق ، فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذوالرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ، وأما الذى له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام ، وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك ^(١) ، فانظر كيف أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما ^(٢) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أول خصمين يوم القيامة جاران ^(٦) ، وقال عليه الصلاة والسلام : إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيت ^(٧) ، ويروى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود رضى الله عنه فقال له : إن لى جارا يؤذيني ويشتمني ويضيق على فقال اذهب فإن هو عصى الله فيك فاطع الله فيه . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها فقال صلى الله عليه وسلم ، هي في النار ^(٨) . وجاء رجل إليه عليه السلام يشكو جاره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (اصبر) ثم قال له في الثالثة أو الرابعة (اطرح متاعك في الطريق) قال : فجعل الناس يمتزون به ويقولون مالك ؟ فيقال آذاه جاره قال فجعلوا يقولون : لعنه الله ، فجاءه جاره فقال له رد متاعك فوالله لا أعود ^(٩)

(١) حديث « الجيران ثلاثة جاره له حق وجاره له حقان وجاره له ثلاثة حقوق ... الحديث » أخرجه الحسن بن سفيان والبراز في مسندهما وأبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية من حديث جابر وابن عدى من حديث عبد الله بن عمر وكلهما ضعيف .
(٢) حديث « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما » تقدم (٣) حديث « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » متفق عليه من حديث عائشة وابن عمر (٤) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » متفق عليه من حديث أنس بن مالك (٥) حديث « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك .
(٦) حديث « أول خصمين يوم القيامة جاران » أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف .
(٧) حديث « إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيت » لم أجده أصلا (٨) حديث : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها فقال صلى الله عليه وسلم ، هي في النار » أخرجه أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الإسناد (٩) حديث : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره فقال 'صبر' ثم قال له في الثالثة - أو الرابعة - اطرح متاعك في الطريق ... الحديث » أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

وروى الزهري : أن رجلاً أتى النبي عليه السلام فجعل يشكو جاره فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينادى على باب المسجد : ألا إن أربعين داراً جاراً^(١) ، قال الزهري : أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا . وقال عليه السلام : اليمن والشؤم في المرأة والمسكن والفرس ، فيمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها ، وشؤمها غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها . ويمن المسكن سعته وحسن جوار أهله . وشؤم ضيقه وسوء جوار أهله . ويمن الفرس ذله وحسن خلقه ، وشؤم صعوبته وسوء خلقه^(٢) .

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى ، فإن الجار أيضاً قد كف أذاه فليس في ذلك قضاء حق ، ولا يكتفى احتمال الأذى بل لابد من الرفق وإسداء الخبر والمعروف ، إذ يقال إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغنى يوم القيامة فيقول : يارب سل هذا لم منعني معروفه وستد بابه دوني ؟

وبلغ ابن المقفع أن جاراً له يبيع داره في دين ركه وكان يجلس في ظل داره ، فقال : ماقت إذآ بجرمة ظل داره إن باعها بعدما يدفع إليه ثمن الدار وقال : لا تبعها .

وشكا بعضهم كثرة الفأر في داره ، فقيل له : لو اقتنيت هرا ؟ فقال : أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلى دور الجيران فأكون قد أحببت لهم مالا أحب لنفسي .

وجملة حق الجار : أن يبدأه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال ، ويعوده في المرض ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في العزاء ، ويهنئه في الفرح ، ويظهر الشركة في السرور معه ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره ، ولا في مصب الماء في ميزابه ، ولا في مطرح التراب في فئاته ، ولا يضيق طريقه إلى الدار ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره ، ويستمر ما ينكشف له من عوراته ، وينعشه من صرخته إذا نابتة نائبة ، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلاماً ، ويغض بصره عن حرمة ، ولا يديم النظر إلى خادمته ، ويتلطف بولده في كلمته ، ويرشده إلى ما يجمله من أمر دينه ودنياه . هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها لعامة المسلمين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أغنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عده ، وإن مات تبع جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيت به ، ولا تستعل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذ به بقتار قدرك إلا أن تعرف له منها ، ثم قال : أتدرون ما حق الجار ؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من

(١) حديث الزهري « ألا إن أربعين داراً جاراً » أخرجه أبو داود في المراسل ووصله الطبراني من رواية الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة وقال « أربعون ذراعاً » وكلاماً ضعيف (٢) حديث « اليمن والشؤم في المرأة والمسكن والفرس فيمن المرأة خفة مهرها . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر « الشؤم في الدار والمرأة والفرس » وفي رواية له « لمن يك من الشؤم شيء حقاً » وله من حديث سهل بن سعد « لمن كان في الفرس والمرأة والمسكن » وللمزني من حديث حكيم ابن معاوية « لاشؤم وقد يكون اليمن في الدار والمرأة والفرس » ورواه ابن ماجه فسماء محمد بن معاوية والطبراني من حديث أسماء بنت عميس : قالت يا رسول الله ما سوء الدار ؟ قال « ضيق ساحتها وخبت جيرانها » قيل فما سوء الدابة ؟ قال « منها ظهرها وسوء خلقها » قيل فما سوء المرأة ؟ قال « عقم رحمها وسوء خلقها » وكلاماً ضعيف ورويناه في كتاب الخيل للديلمطي من رواية سالم بن عبد الله مرسلاً « لذا كان الفرس ضرراً فهو مشؤم ولذا كانت المرأة قد عرفت زوجها قبل زواجها فحنت إلى الزوج الأول فهي مشؤمة ولذا كانت الدار بعيدة من المسجد لا يسبح فيها الأذان والإقامة فهي مشؤمة » وإسناده ضعيف ووصله صاحب مسند الفردوس بذكر ابن عمر فيه .

رحمه الله ^(١) ، هكذا رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال مجاهد : كنت عند عبد الله بن عمر و غلام له يسلم شاة ، فقال : يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي ، حتى قال ذلك مرارا فقال له كم تقول هذا ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه ^(٢) وقال هشام : كان الحسن لا يرى بأسا أن تطعم الجار اليهودي والنصراني من أضحيتك ، وقال أبو ذر رضي الله عنه . أو صاني خليلي صلى الله عليه وسلم وقال : إذا طبخت قدرا فأكثر ماءها ، ثم انظر بعض أهل بيت في جيرانك فاغرف لهم منها ^(٣) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : قلت يا رسول الله إن لي جارين أحدهما مقبل على بابه والآخر ناء ببابه عني ، وربما كان الذي عندي لا يسمعهما ، فأيهما أعظم حقا ؟ فقال : المقبل عليك ببابه ^(٤) ورأى الصديق ولده عبد الرحمن وهو يناصي جارا له ، فقال لا تناص جارك ، فإن هذا يبق والناس يذهبون . وقال الحسن بن عيسى التيسابوري : سألت عبد الله بن المبارك فقلت : الرجل المجاور يأتيني فيشكو غلامي أنه أتى إليه أمرا والغلام ينكره ، فأكره أن أضربه ولعله يرى وأكره أن أدعه فيجد على جاري ، فكيف أصنع ؟ قال : إن غلامك لعله أن يحدث حدثا يستوجب فيه الأدب فاحفظه عليه ، فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث ، فتكون قد أرضيت جارك وأدبته على ذلك الحدث ، وهذا تطف في الجمع بين الحقين .

وقالت عائشة رضي الله عنها : خلال المسكرم عشر تكون في الرجل ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أحب : صدق الحديث ، وصدق الناس ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع وصلة الرحم ، وحفظ الأمانة ، والتذم للجار ، والتذم للصاحب ، وقرى الضيف ، ورأسن الحياء .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » ^(٥) ، قال صلى الله عليه وسلم « إن من سعادة المرء المسلم : المسكن الواسع ، والجار الصالح والمركب الهنيء » ^(٦) ، وقال عبد الله : قال رجل : يا رسول الله ، كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ، قال : إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت ، وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت ^(٧) ، وقال جابر رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه ^(٨) وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه في حائط جاره شاء أم أبي ^(٩) . وقال

(١) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أهدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته وإن استقرضك أقرضته . الحديث » أخرجه الحرائطي في مكارم الأخلاق وابن عدى في الكامل وهو ضعيف . (٢) حديث مجاهد « كنت عند عبد الله بن عمر و غلام له يسلم شاة فقال يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي . الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن غريب (٣) حديث أبي ذر : أو صاني خليلي صلى الله عليه وسلم « إذا طبخت فأكثر المرق ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها » رواه مسلم (٤) حديث عائشة : قلت يا رسول الله إن لي جارين ... الحديث ، رواه البخاري (٥) حديث أبي هريرة « ينادي المسلمون لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » رواه البخاري (٦) حديث « إن من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنيء » رواه أحمد من حديث نافع بن عبد الحارث ومعد بن أبي وقاص ، وحديث نافع أخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد (٧) حديث عبد الله : قال رجل يا رسول الله كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ؟ قال « إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت » رواه أحمد والطبراني وعبد الله هو ابن مسعود ، وإسناده جيد .

(٨) حديث جابر « من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه » أخرجه ابن ماجه والحاكم دون ذكر الجار ، وقال : صحيح الإسناد ، وهو عند الحرائطي في مكارم الأخلاق بلفظ المصنف ، ولابن ماجه من حديث ابن عباس « من كانت له أرض فأراد أن يبيعها فليعرضها على جاره » ورجاله رجال الصحيح (٩) حديث أبي هريرة : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه في حائط جاره شاء أم أبي . رواه الحرائطي في مكارم الأخلاق هكذا ، وهو متفق عليه بلفظ « لا يمنع أحدكم جاره أن يضرز خيمته في حائطه » رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف ، واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة .

ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يمنع أحدكم جاره أن يضع خشبة في جداره ، وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : ما لي أراكم عنها معرضين ، والله لأرمينها بين أكفكم . وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم « من أراد الله به خيراً عسله ، قيل : وما عسله ؟ قال : يحبيه إلى جيرانه ^(١) » .

حقوق الأقارب والرحم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أنا الرحمن وهذه الرحم شققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بئته ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه ^(٣) » ، وفي رواية أخرى « من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه فليتيق الله وليصل رحمه ، وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أفضل ؟ قال « أتقاهم لله وأوصلهم لرحمه . وأمرهم بالمعروف وأنهم عن المنكر ^(٤) » ، وقال أبو ذر رضى الله عنه « أوصاني خليلي عليه السلام بصلة الرحم وإن أدبرت وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمسكاف ^(٦) » ، ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها ^(٦) » ، وقال عليه السلام « إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون بخارا ، فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم ^(٧) » ، وقال زيد بن أسلم : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال : إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببنى مدلج ، فقال عليه السلام « إن الله قد منحنى من بنى مدلج بصلتهم الرحم ^(٨) » ، وقالت أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما : قدمت على أمي ، فقلت : يا رسول الله ، إن أمي قدمت على وهي مشركة أفأصلها ؟ قال « نعم ^(٩) » . وفي رواية : أفأعطيتها ؟ قال « نعم صليها » . وقال عليه السلام « الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان ^(١٠) » ، ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان له يعجبه عملاً بقوله تعالى « (لن تتالوا البر حتى تتفقوا مما تحبون) ^(١١) » قال :

(١) حديث « من أراد الله به خيراً عسله » رواه أحمد من حديث أبي عتبة الخولاني ، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الزهد من حديث عمرو بن الحرق . زاد الخرائطي : قيل وما عسله ؟ قال « حبيه إلى جيرانه » وقال البيهقي « يفتح له عملاً صالحاً قبل موته حتى يرضى عنه من حوله » وإسناده جيد .

(٢) حديث « يقول الله أنا الرحمن وهذه الرحم ... الحديث » متفق عليه من حديث عائشة . (٣) حديث « من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع له في رزقه فليتيق الله وليصل رحمه » متفق عليه من حديث أنس دون قوله « فليتيق الله » وهو بهذه الزيادة عند أحمد والحاكم من حديث علي بإسناد جيد . (٤) حديث : أى الناس أفضل فقال « أتقاهم لله وأوصلهم لرحمه » رواه أحمد والطبراني من حديث درة بنت أبي لهب بإسناد حسن . (٥) حديث أبي ذر : أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بصلة الرحم وإن أدبرت ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا ، رواه أحمد وابن جابر وصححه . (٦) حديث « إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمسكاف » ولكن الواصل القى إذا قطعت رحمه وصلها » أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث عبد الله بن عمرو ، وهو عند البخاري دون قوله « الرحم معلقة بالعرش » فرواها مسلم من حديث عائشة . (٧) حديث « أعجل الطاعات ثواباً صلة الرحم ... الحديث » أخرجه ابن جابر من حديث أبي بكر ، والخرائطى في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الشعب من حديث عبد الرحمن بن عوف بسند ضعيف . (٨) حديث زيد بن أسلم : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال : إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببنى مدلج ؟ فقال « إن الله منحنى من بنى مدلج بصلتهم الرحم » رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق ، وزاد « وطعنهم في آيات الإبل » وهو مرسل صحيح الإسناد . (٩) حديث أسماء بنت أبي بكر : قدمت على أمي فقلت : يا رسول الله ، قدمت على أمي وهي مشركة أفأصلها ؟ قال « نعم صليها » متفق عليه . (١٠) حديث « الصدقة على المساكين صدقة ، وعلى ذى الرحم صدقة وصلة » أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث سلمان ابن عامر الضبي . (١١) حديث : لما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان يعجبه عملاً بقوله تعالى « (لن تتالوا البر حتى تتفقوا مما تحبون) ... الحديث » أخرجه البخاري وقد تقدم .

يارسول الله ، هو في سبيل الله وللفقراء والمساكين فقال عليه السلام « وجب اجرک علی الله قسمه فی أقاربک ، وقال عليه السلام « أفضل الصدقة علی ذی الرحم الکاشح »^(١) ، وهو فی معنى قوله « أفضل الفضائل أن تصل من قطعک ، وتعطى من حرمتک ، وتصنع عن ظلمک »^(٢) ، وروى أن عمر رضی الله عنه كتب إلى عماله : مروا الأقارب أن يتزاووا ولا يتجاووا ، وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث التراحم علی الحقوق ، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم .

حقوق الوالدين والولد

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة ، فيتضاعف تأكد الحق فيها . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن یحزى ولد والده حتى یجده مملوكا فیشتريه فیعتقه »^(٣) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد فی سبیل الله »^(٤) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أصبح مرضیا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ، ومن أمسى فثل ذلك ، وإن كان واحدا فواحدا ، وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما . ومن أصبح مسخطا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ، ومن أمسى مثل ذلك ، وإن كان واحدا فواحدا ، وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الجنة یوجد ریحها من مسيرة خمسمائة عام ، ولا یجد ریحها عاق ولا قاطع رحم »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « بر أمک وأباك وأختک وأخاک ، ثم أذنک فأذنک »^(٧) .

ويروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : یاموسى ، إنه من بر والديه وعفنى كتبته بارا ، ومن برنى وعق والديه كتبته عاقا .

وقيل : لما دخل یعقوب علی یوسف علیهما السلام لم یقم له : فأوحى الله إلیه : أتتعظم أن تقوم لأبيک ، وعزى وجلالى لا أخرجت من صلبک نبیا .

وقال صلى الله عليه وسلم « ما علی أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمین فیكون لوالديه أجرها ویكون له مثل أجورهما من غیر أن ینقص من أجورهما شیء »^(٨) ، وقال مالك بن ربيعة : بینما نحن

(١) حدیث « أفضل الصدقة علی ذی الرحم الکاشح » أخرجه أحمد والطبرانی من حدیث أبی ایوب ، رفیه الحاج بن أرطاة ورواه البیهقی من حدیث أم کلثوم بثت عقبه (٢) حدیث « أفضل الفضائل أن تصل من قطعک ... الحدیث » أخرجه أحمد من حدیث معاذ بن أنس بسند ضعیف والطبرانی نحوه من حدیث أبی أمامه وقد تقدم (٣) حدیث « إن یحزى ولد والده حتى یجده مملوكا فیشتريه فیعتقه » أخرجه مسلم من حدیث أبی هريرة (٤) حدیث « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد » لم أجده هکذا . وروى أبو یعلی والطبرانی فی الصغیر والأوسط من حدیث أنس : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لانی أشتهى الجهاد ولا أقدر علی . قال : « هل بقى من والدیک أحد ؟ » قال : أبى . قال : « قابل الله فی برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتبر ومجاهد » وإسناده حسن (٥) حدیث « من أصبح مرضیا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ... الحدیث » أخرجه البیهقی فی الشعب من حدیث ابن عباس ولا یصح .

(٦) حدیث « إن الجنة یوجد ریحها من مسيرة خمسمائة عام ولا یجد ریحها عاق ولا قاطع رحم » أخرجه الطبرانی فی الصغیر من حدیث أبی هريرة دون ذکر القاطع ، وهى فی الأوسط من حدیث جابر ، لا أنه قال « من مسيرة ألف عام » وإسنادهما ضعیف . (٧) حدیث « بر أمک وأباك وأختک وأخاک ثم أذنک أدناک » أخرجه النسائی من حدیث طارق الخزازى ، وأخرجه أحمد والحاكم من حدیث أبی رزمة ، ولأبى داود نحوه من حدیث کلیب بن منبعه عن جده ، وله وللترمذی والحاكم وصحیحه من حدیث بهز بن حکیم عن أبیه عن جده : من أثر ؟ قال : « أمک ، ثم أمک ، ثم أمک » ، ثم أباک ثم الأقرب فالأقرب » وفى الصحیحین من حدیث أبی هريرة : قال رجل : من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال « أمک ثم أمک ثم أمک ثم أبوک » لم یضبط .

(٨) حدیث « ما علی أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمین ... الحدیث » أخرجه الطبرانی فی الأوسط من حدیث عمرو بن شعيب عن أبیه عن جده بسند ضعیف . دون قوله « إذا كانا مسلمین » .

عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقي على من ير أبوى شيء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقيهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي الأب ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : بر الوالدة على الولد ضعفان ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : دعوة الوالدة أسرع إجابة . قيل : يا رسول الله ، ولم ذاك ؟ قال : هي أرحم من الأب ودعوة الرحم لا تسقط ^(٤) .

وسأله رجل فقال : يا رسول الله فمن أبر ؟ فقال : د بروالديك ، فقال : ليس لي والدان ، فقال : د بر ولدك ، كما أن لوالديك عليك حقاً ، كذلك لولدك عليك حق ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : رحم الله والدا أغان ولده على برّه ^(٦) ، أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله . وقال صلى الله عليه وسلم : ساووا بين أولادكم في العطية ، وقد قيل : ولدك ريحانتك تشمها سبعا وخادمك سبعا ، ثم هو عدوك أو شريكك ، وقال أنس رضي الله عنه : قال النبي صلى الله عليه وسلم : الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى ؛ فإذا بلغ ست سنين أدب ، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه ، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب على الصلاة ، فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه ؛ ثم أخذ بيده وقال قد أدبتك وعلقتك وانكحتك ، أعوذ بالله من فتنك في الدنيا وعذابك في الآخرة ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من حق الوالد على الولد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه ^(٨) .

وقال عليه الصلاة والسلام : كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه ^(٩) ، وقال قتادة : إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها ثم توضع على يافوخ الصبي حتى يسيل عنه مثل الخيط ثم يغسل رأسه ويحلق بعد .

وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده ، فقال : هل دعوت عليه ؟ قال : نعم . قال : أنت أفسدته .

ويستحب الرفق بالولد : رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن ، فقال : إن لي

(١) حديث مالك بن ربيعة . بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه رجل من بني سلمة فقال هل بقي على من ير أبوى شيء ... الحديث . أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٢) حديث : إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه . أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٣) حديث : بر الوالدة على الولد ضعفان . غريب بهذا اللفظ وقد تقدم قبل هذا بثلاثة أحاديث من حديث بهز بن حكيم وحديث أبي هريرة وهو معنى هذا الحديث . (٤) حديث : دعوة الوالدة أسرع إجابة . الحديث . لم أقف له على أصل . (٥) حديث : قال رجل يا رسول الله من أبر ؟ قال : بروالديك . فقال ليس لي والدان فقال : ولدك فكما أن لوالديك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق . أخرجه أبو عمر التوفاني في كتاب معاشر الأهلين من حديث عثمان بن عفان دون قوله : فكما أن لوالديك . الخ وهذه القطعة رواها الطبراني من حديث ابن عمر قال الدارقطني في الملل أن الأصم وقته على ابن عمر . (٦) حديث : رحم الله والدا أغان ولده على بره . أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث علي بن أبي طالب وابن عمر بسند ضعيف ورواه التوفاني من رواية الشعبي مرسل .

(٧) حديث أنس : الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أدب فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه فإذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة والصوم فإذا بلغ ستة عشر زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال قد أدبتك وعلقتك وانكحتك أعوذ بالله من فتنك في الدنيا وعذابك في الآخرة أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الضحايا والعقيقة إلا أنه قال : وأدبوه لسبع وزوجوه لسبع عشرة ولم يذكر الصوم . وفي أسناده من لم يسم . (٨) حديث : من حق الوالد على الولد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه . أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وحديث عائشة وضعفها .

(٩) حديث : كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه . أخرجه أصحاب السنن من حديث سمرة

قال الترمذي حسن صحيح .

عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ! فقال عليه الصلاة والسلام « إن من لا يرحم لا يرحم »^(١) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما « اغسل وجه أسامة » فجعلت اغسله وأنا أنفة ، فضرب يدي ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال « قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية »^(٢) ، وتعد الحسن - والنبي صلى الله عليه وسلم على منبره - فنزل لحمله وقرأ قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ ﴾^(٣) وقال عبدالله بن شداد : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالتاس ، إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر ، فلما قضى صلاته قالوا : قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر ! فقال « إن ابني قد ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته »^(٤) ، وفي ذلك فوائد : إحداها القرب من الله تعالى فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجدا ، وفيه الرفق بالولد والبر ، وتعليم لامته . وقال صلى الله عليه وسلم « ريح الولد من ريح الجنة »^(٥) .

وقال يزيد بن معاوية : أرسل أبي إلى الأحنف بن قيس ، فلما وصل إليه قال له : يا أبا بحر ، ما تقول في الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ؛ فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، ينحوك ودهم ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا ، فيملوا حياتك ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك ؛ فقال له معاوية : لله أنت يا أحنف ، لقد دخلت على وأنا مملوء غضبا وغيظا على يزيد . فلما خرج الأحنف من عنده رضى عن يزيد وبعث إليه بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب ؛ فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب فقامه ليأها على الشطر .

فهذه هي الأخبار الدالة على تأكيد حق الوالدين وكيفية القيام بحقوقهما تعرف بما ذكرناه في حق الأخوة ؛ فإن هذه الرابطة أكد من الأخوة بل يزيد ههنا أمران (أحدهما) أن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات وإن لم تجب في الحرام المحض ، حتى إذا كانا يتنقصان بانفرادك عنهما بالطعام فعليك أن تأكل معهما ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضا الوالدين حتم . وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما ، والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام نفل ، لأنه على التأخير . والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك ، وذلك كن يسلم ابتداء في بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام فعليه الهجرة ولا يتقيد بحق الوالدين .

قال أبو سعيد الخدري : هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد ، فقال عليه السلام « هل باليمن أبواك » قال : نعم ، قال « هل أذن لك ؟ » قال : لا ، فقال عليه السلام « فارجع إلى أبويك »

(١) حديث : رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل رمله الحسن فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال « من لا يرحم لا يرحم » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . (٢) حديث عائشة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما « اغسل وجه أسامة » فجعلت أغسله وأنا أنفة ؛ فضرب يدي ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال « قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية » لم أجده هكذا ولا أحد من حديث عائشة : أن أسامة عثر بعثة الباب فدى فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمه ويقول « لو كان أسامة جارية لحببها ولكسوتها حتى أنفقتا » وإسناده صحيح . (٣) حديث : هز الحسن وهو على منبره صلى الله عليه وسلم فنزل لحمله وقرأ قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ ﴾ أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة في الحسن والحسين ما يميان ويعثران قال الترمذي حسن غريب . (٤) حديث عبدالله بن شداد : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس إذ جاء الحسن فركب عنقه . رواه النسائي من رواية عبدالله بن شداد عن أبيه وقال فيه الحسن أو الحسين على الفك ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين . (٥) حديث « ريح الولد من ريح الجنة » أخرجه الطبراني في الصغير الأوسط وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وفيه منديل بن علي ضعيف .

فأستأذنها ، فإن فعلا لجاهد ، وإلا فبرهما ما استطعت ، فإن ذلك خير ما تلقى الله به بعد التوحيد (١) . وجاء آخر إليه صلى الله عليه وسلم ليستشير في الغزو فقال « ألك والدة ؟ » قال : نعم . قال « فالزمها فإن الجنة عند رجلها (٢) » . وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة وقال : ماجئتك حتى أبكيك والدي ، فقال « ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما (٣) » .

وقال صلى الله عليه وسلم « حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد عن ولده (٤) » .

وقال عليه السلام « إذا استصعبت على أحدكم دابته أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه (٥) » .

حقوق المملوك

اعلم أن ملك النكاح قد سبقت حقوقه في آداب النكاح ، فأما ملك اليمين فهو أيضا يقتضى حقوقا في المعاشرة لا بد من مراعاتها ، فقد كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « اتقوا الله فيما ملكت أيما نكم أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببت فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ولو شاء للملكهم إياكم (٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق (٧) » ، وقال عليه السلام « لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سبي الملكة (٨) » ، وقال عبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنهما : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي سعيد الخدري : هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد فقال صلى الله عليه وسلم « باليمن أبواك ؟ » قال : نعم ... الحديث . أخرجه أحمد وابن حبان دون قوله « ما استطعت » الخ . (٢) حديث : جاء آخر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستشير في الغزو فقال « ألك والدة ؟ » فقال : نعم ، قال فالزمها فإن الجنة تحت قدميها » أخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم من حديث معاوية بن جهم : أن جهم أتى النبي صلى الله عليه وسلم . قال الحاكم صحيح الإسناد . (٣) حديث : جاء آخر فقال : ماجئتك حتى أبكيك والدي فقال « ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح الإسناد . (٤) حديث « حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة ورواه أبو داود في المراسيل من رواية سعيد بن عمرو ابن العاص مرسلًا ورواه صاحب مسند الفردوس فقال عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده سعيد بن العاص وإسناده ضعيف (٥) حديث « إذا استصعب على أحدكم دابته أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب بسند ضعيف نحوه (٦) حديث : كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « اتقوا الله فيما ملكت أيما نكم أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببت فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ولو شاء للملكهم إياكم (٧) » ، وقال صحيح الإسناد . (٨) حديث « لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سبي الملكة » أخرجه أحمد بن حنبل والترمذي ومرفقا وابن ماجه مقتصرًا على « سبي الملكة » من حديث أبي بكر وليس عند أحد منهم متكبر وزاد أحمد والترمذي البخيل والمنان وهو ضعيف وحسن الترمذي أحد طريقه .

ثم قال : اعف عنه في كل يوم سبعين مرة ^(١) ، وكان عمر رضى الله عنه يذهب إلى العوالى في كل يوم سبت ، فإذا وجد عبدا في عمل لا يطيقه وضع عنه منه . ويروى على أبي هريرة رضى الله عنه أنه رأى رجلا على دابته وغلामه يسمى خلفه فقال له : يا عبد الله احمله خلفك فإنما هو أخوك روحه مثل روحك فحملة ثم قال : لا يزال العبد يرداد من الله بعدا مامشى خلفه . وقالت جارية لأبي الدرداء : إني سمعتك منذ سنة فما عمل فيك شيئا فقال : لم فعلت ذلك ؟ فقالت : أردت الراحة منك ، فقال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله . وقال الزهري : متى قلت للمملوك أخزأك الله فهو حر . وقيل للأخنف بن قيس عن ثعلبة الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم ، فيل فما بلغ من حله ؟ قال : بينا هو جالس في داره إذا أتته خادمة له بسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن له فقعه ففات ، فدهشت الجارية ، فقال : ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق فقال لها : أنت حرة لا بأس عليك . وكان عون ابن عبد الله إذا عصاه غلامه قال : ما أشبهك بمولاك ؟ مولاك يمضى مولاه وأنت تعصى مولاك ، فأغضبه يوما فقال : إنما تريد أن أضربك اذهب فأنت حر . وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة ، فعثرت وأراقتها على رأس سيدها ميمون ؛ فقال : يا جارية أحرقتني ، قالت : يا معلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى قال : وما قال الله تعالى ؟ قالت : قال ﴿ والكاذمين الغيظ ﴾ قال : قد كظمت غيظي ، قالت ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : قد عفوت عنك ، قالت : زد فإن الله تعالى يقول ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ قال : أنت حرة لوجه الله تعالى . وقال ابن المنكدر : إن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ضرب عبدا له لجمل العبد يقول : أسألك بالله أسألك بوجه الله ، فلم يعفه فسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صياح العبد فانطلق إليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمسك يده فقال رسول الله : سألك بوجه الله فلم تعفه فلما رأيته أمسكت يدك ، قال : فإنه حر لوجه الله يارسول الله ، فقال : لو لم تفعل لسفعت وجهك النار ^(٢) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : العبد إذا نصح لسيدته وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين ^(٣) ، ولما اعتق أبو رافع بكى وقال : كان لي أجران فذهب أحدهما . وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار ، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة : فالشبيد ، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيدته ، وعفيف متعفف ذو عيال ، وأول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط وذريرة لا يعطى حق الله وفقير نفور ^(٤) ، وعن أبي مسعود الأنصاري قال : بينا أنا أضرب غلاما لي إذ سمعت صوتا من خلفي : اعلم يا أبا مسعود ، مرتين فالتفت فإذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فألقيت السوط من يدي فقال : والله الله أقدر عليك منك على هذا ^(٥) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الخلو فإنه أطيب لنفسه ^(٦) ، رواه معاذ

(١) حديث ابن عمر : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال يارسول الله كم نفعو عن الخادم ؟ فقصت ثم قال : « اعف عنه كل يوم سبعين مرة » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث ابن المنكدر : أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ضرب عبدا له لجمل العبد يقول : أسألك بالله أسألك بوجه الله ؟ فسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صياح العبد ... الحديث أخرجه ابن المبارك في الزهد ومروا في رواية لمسلم في حديث أبي مسعود الآتي ذكره : لجمل يقول : أعوذ بالله . قال لجمل يضربه فقال : أعوذ برسول الله فتركه ، وفي رواية له : فقلت هو حر لوجه الله ، فقال : « أما لك لو لم تفعل لفحطت النار » أو « لمستك النار » (٣) حديث : « إذا نصح العبد لسيدته وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين » متفق عليه من حديث ابن عمر (٤) حديث : « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار : فأول ثلاثة يدخلون الجنة : الشبيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيدته .. الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن وابن حبان من حديث أبي هريرة (٥) حديث أبي مسعود الأنصاري : بينا أنا أضرب غلاما لي سمعت صوتا من خلفي : اعلم يا مسعود ، مرتين ... الحديث . رواه مسلم . (٦) حديث معاذ : إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الخلو فإنه أطيب لنفسه أخرجه الطبراني في الأوسط والنخلة في مكارم الأخلاق بسند ضعيف .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه وليأكل معه فإن لم يفعل فليناول له لقمة ^(١) » ، وفي رواية ، « إذا كنى أحدكم مملوكه صنعة طعامه ؛ فكفاه حره ومؤنته وقربه إليه فليجلسه وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناول له أو ليأخذ أكلة فليروغها - وأشار بيده - وليضعها في يده وليقل كل هذه ودخل على سلمان رجل وهو يعجن فقال : يا أبا عبد الله ما هذا ؟ فقال : بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجتمع عليه عملين . وقال صلى الله عليه وسلم ، من كانت عنده جارية فصانها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران ^(٢) » ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ^(٣) » .

لجملة حق المملوك أن يشركه في طعمته وكسوته ، ولا يكلفه فوق طاقته ، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء وأن يعفو عن زلته ويتفكر عند غضبه عليه بهفوته أو بجنائته في معاصيه وجنائته على حق الله تعالى وتقصيره في طاعته مع أن فطرة الله عليه فوق قدرته . وروى فضالة بن عبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة لا يستل عنهم : رجل فارق الجماعة ، ورجل عصي إمامه فسات عاصيا فلا يسأل عنها ، وأمراة غاب عنها زوجها وقد كفها مؤنة الدنيا فتبرجت بعده فلا يسأل عنها . وثلاثة لا يسأل عنهم رجل ينزع الله رداءه ورداؤه الكبرياء وإزاره العز ، ورجل في شك من الله ، وقوط من رحمة الله ^(٤) » .

تم كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق .

كتاب آداب العزلة

وهو الكتاب السادس من ربيع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته بأن صرف همهم إلى مؤانسته ، وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمته ، وروح أسرارهم بمناجاته وملاطفته ، وحقر في قلوبهم النظر إلى متاع الدنيا وزهرتها حتى اغتبط بعزلته كل من طويت الحجب عن مجارى فكرته فاستأنس بمطالعة سبجات وجهه تعالى في خلوته ، واستوحش بذلك عن الانس بالانس وإن كان من أخص خاصته والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته وعلى آله وصحبه سادة الحق وأئمة .

أما بعد : فإن للناس اختلافا كثيرا في العزلة والمخالطة وتفضيل إحداهما على الأخرى ، ومع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو إلى إليها ، وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة وما ذكرناه في كتاب الصحبة من فضيلة المخالطة والمؤاخاة والمؤالفة يكاد يناقض ما مال إليه الأكثرون من اختيار الاستيحاش والخلوة ، فكشف الغطاء عن الحق في ذلك مهم . ويحصل ذلك برسم باين (الباب الأول) في نقل المذاهب والحجج فيها (الباب الثاني) في كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والغوائل .

(١) حديث أبي هريرة « وليأكل معه فإن أبي فليناول » وفي رواية « إذا كنى أحدكم مملوكه صنعة طعامه ... الحديث » متفق عليه مع اختلاف لفظ وهو في مكارم الأخلاق للخرائطى باللفظين اللذين ذكرهما المصنف غير أنه لم يذكر « علاجه » وهذه اللفظة عند البخارى

(٢) حديث « من كانت عنده جارية فصالها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران » متفق عليه من حديث أبي موسى .

(٣) حديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم . (٤) حديث فضالة بن

هييد « ثلاثة لا يسأل عنهم : رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصيا ... الحديث » أخرجه الطبراني وصححه .

الباب الأول في نقل المذاهب والآقاويل

وذكر حجج الفريقين في ذلك

أما المذاهب فقد اختلف فيها وظهر هذا الاختلاف بين التابعين . فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة : سفيان الثوري ، وإبراهيم بن أدهم ، وداود الطائي ، وفضيل بن عياض ، وسليمان الخواص ، ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي ، وبشر الحافي

وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة واستكثار اسرف والإخوان والتألف والتحبب إلى المؤمنين والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى ومال إلى هذا : سعيد بن المسيب ، والشعبي ، وابن أبي ليلى ، وهشام بن عروة ، وابن شبرمة ، وشريح ، وشريك بن عبد الله ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وجماعة . والمأثور عن العلماء من الكلمات ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأيين ، وإلى كلمات مقرونة بما يشير إلى علة الميل . فلننقل الآن مطلقات تلك الكلمات لنبين المذاهب فيها ، وما هو مقرون بذكر العلة نورد عند التعرض للغوائل والفوائد ، فنقول ؛ قد روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : خذوا بحظكم من العزلة . وقال ابن سيرين : العزلة عبادة . وقال الفضيل : كفى بالله محبا وبالقرآن مؤنسا وبالموت واعظا . وقيل : اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانبا . وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائي : عظمي ؛ قال : صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفتر من الناس فرارك من الأسد . وقال الحسن رحمه الله : كلمات أحفظهن من التوراة ؛ قنع ابن آدم فاستغنى ، اعتزل الناس فسلم ، ترك الشهوات فصار حراً ، وترك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلاً فتمتع طويلاً . وقال وهيب ابن الورد . بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس . وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار : ما أصبرك على الوحدة ؟ - وقد كان لزم البيت - فقال : كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا ؛ كنت أجالس الناس ولا أكلهم . وقال سفيان الثوري : هذا وقت السكوت وملازمة البيوت . وقال بعضهم : كنت في سفينة ومعنا شاب من العلوية فكش معنا سبعة لانسمع له كلاماً ؛ فقلنا له : يا هذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ولا نراك تتخاطبنا ولا تكلمنا ، فأنشأ يقول :

قليل الهم لا ولد يموت ولا أمر يحاذره يفوت
قضى وطر الصبا وأفاد علماً فغايته التفرد والسكوت

وقال إبراهيم النخعي لرجل تفقه ثم اعتزل ، وكذا قال الربيع بن خثيم . وقيل كان مالك بن أنس يشهد الجنائز ويعود المرضى ويعطى الإخوان حقوقهم فترك ذلك واحداً واحداً حتى تركها كلها ، وكان يقول : لا يتهياً للبر أن يجبر كل عذرله . وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو تفرغت لنا ؟ فقال : ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى وقال الفضيل : إني لأجد للرجل عندى يدا : إذا لقيني أن لا يسلم علي ، وإذا مرضت أن لا يعودني . وقال أبو سليمان الداراني . بينما الربيع ابن خثيم جالس على باب داره إذ جاءه حجر فصك جبهته فشججه ، فجعل يمسح الدم ويقول : لقد وعظت ياربيع ، فقام ودخل داره فاجلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته . وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد لوما يوتهما بالعقيق فلم يكنوا يأتیان المدينة لجمعة ولا غير هاتين مآتابا بالعقيق . وقال يوسف بن أسباط : سمعت سفيان الثوري يقول ، والله الذي لا إله إلا هو لقد حلت العزلة وقال بشر بن عبد الله : أقل من معرفة الناس فإنك لا تدري ما يكون يوم القيامة ، فإن تكن

فصيحة كان من يعرفك قليلا . ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال له . ألك حاجة ؟ قال : نعم ، قال : وما هي ؟ قال : أن لا تراني ولا أراك ولا تعرفني . وقال رجل لسهل : أريد أن أصحبك ، فقال : إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر ؟ قال : الله قال : فليصحبه الآن . وقيل للفضيل : إن عليا ابنك يقول لوددت أني في مكان أرى الناس ولا يروني ؛ فبكي الفضيل وقال : يا ربح على أفلا أتمها فقال لا أراهم ولا يروني ؟ وقال الفضيل أيضا : من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا ترى ولا ترى . فهذه أقاويل المسائلين إلى العزلة .

ذكر حجج المسائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها

احتج هؤلاء بقوله تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾ الآية وبقوله تعالى ﴿ فآلف بين قلوبكم ﴾ أمّن على الناس بالسبب المؤلف وهذا ضعيف ؛ لأن المراد به تفرق الآراء واختلاف المذاهب في معاني كتاب الله وأصول الشريعة . والمراد بالآلة نزع الغوائل من الصدور وهي الأسباب المثيرة للفتن المحركة للخصومات ، والعزلة لا تنافي ذلك .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن ألف مألوف ولاخير فيمن لا يألف ولا يؤلف »^(١) ، وهذا ضعيف لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق تمتع بسببه المؤلف ، ولا يدخل تحته الحسن الخلق الذي إن خالط ألف وألف ولكنه ترك المخالطة اشتغالا بنفسه وطلبا للسلامة من غيره .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « من فارق الجماعة شبرا خلع ربة الإسلام من عنقه » ، وقال « من فارق الجماعة فمات فينته جاهلية »^(٢) ، وبقوله صلى الله عليه وسلم « من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام داج فقد خلع ربة الإسلام من عنقه »^(٣) ، وهذا ضعيف لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بعقد البيعة فالخروج عليهم بغيره ، وذلك مخالفة بالرأي وخروج عليهم وذلك محذور لا يضطرار الخلق إلى إمام مطاع يجمع رأيهم ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر ، فالمخالفة تشويش مثير للفتنة فليس في هذا تعرض للعزلة .

واحتجوا بنبيه صلى الله عليه وسلم عن الهجر فوق ثلاث إذ قال « من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار »^(٤) ، وقال عليه السلام « لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة »^(٥) ، وقال « من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه »^(٦) ، قالوا والعزلة هجرة بالكلية . وهذا ضعيف لأن المراد به الغضب على الناس واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة ، فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلا من غير غضب . مع أن الهجر فوق ثلاث جائز في موضعين ؛ أحدهما : أن يرى فيه إصلاحا للمهجور في الزيادة . الثاني . أن يرى لنفسه سلامة فيه .

كتاب العزلة

الباب الأول : في نقل المذاهب والحجج فيها

- (١) حديث « المؤمن ألف مألوف ... الحديث » تقدم في الباب الأول من آداب الصحبة . (٢) حديث « من ترك الجماعة فمات فينته جاهلية » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في الباب الخامس من كتاب الحلال والحرام . (٣) حديث « من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام داج فقد خلع ربة الإسلام » أخرجه الطبراني والمطاني في العزلة من حديث ابن عباس بسند جيد . (٤) حديث « من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح . (٥) حديث « لا يحل لامرئ أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة » مطوق عليه من حديث أسد دون قوله « والسابق بالصلح » زاد فيه الطبراني والذي يبدأ بالصلح يسبق إلى الجنة . (٦) حديث « من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه » أخرجه أبو داود من حديث أبي خراش السلمي واسمه حنبل بن أبي حنبل وإسناد صحيح .

والنهي وإن كان عاماً فهو محمول على ما وراء الموضوعين الخصوصيين بدليل ما روى عن عائشة رضي الله عنها . أن النبي صلى الله عليه وسلم هجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر^(١) . وروى عن عمر : أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهراً وصعد إلى غرفة له وهي خزانته فلبث تسعاً وعشرين يوماً ؛ فلما نزل قيل له : إنك كنت فيها تسعاً وعشرين ، فقال : الشهر قد يكون تسعاً وعشرين^(٢) ، وروى عائشة رضي الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام إلا أن يكون ممن لا تؤمن بوائقه^(٣) ، فهذا صريح في التخصيص وعلى هذا ينزل قول الحسن رحمه الله حيث قال : هجران الأحق قرابة إلى الله فإن ذلك يدوم إلى الموت إذ الحماقة لا ينتظر علاجها . وذكر عند محمد بن عمر الواقدي رجل هجر رجلاً حتى مات ؛ فقال : هذا شيء قدم تقدم فيه قوم ؛ سعد بن أبي وقاص كان مهاجراً لعمار بن ياسر حتى مات ، وعثمان بن عفان كان مهاجراً لعبد الرحمن بن عوف وعائشة كانت مهاجرة لحفصة . وكان طاوس مهاجراً لوهب بن منبه حتى ماتا . وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم في المهاجرة . واحتجوا بما روى : أن رجلاً أتى الجبل ليتعبد فيه فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تفعل أنت ولا أحد منكم لصبر أحدكم في بعض مواطن الإسلام خير له من عبادة أحدكم وحده أربعين عاماً^(٤) ، والظاهر أن هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد مع شدة وجوبه في ابتداء الإسلام بدليل ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فررنا بشعب فيه عينة طيبة الماء ؛ فقال واحد من القوم : لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاته في أهله ستين عاماً ألا تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة اغزوا في سبيل الله فإنه من قاتل في سبيل الله فواتق ناقة أدخله الله الجنة^(٥) .

واحتجوا بما روى معاذ بن جبل أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية والناحية والشاردة ولما يك والشعاب وعليكم بالعمامة والجماعة والمساجد^(٦) ، وهذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمام الغنم ، وسيأتي بيان ذلك وأن ذلك ينهى عنه إلا للضرورة .

ذكر حجج المسائلين إلى تفضيل العزلة

احتجوا بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ﴾ الآية ثم قال تعالى ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ﴾ إشارة إلى أن ذلك ببركة العزلة . وهذا ضعيف لأن مخالطة الكفار لا فائدة فيها إلا لدعوتهم إلى الدين . وعند اليأس من إجابتهم فلا وجه

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم هجر عائشة ذا الحجة والمحرم وبعض صفر . قلت : إنما هجر زينب هذه المدة كما رواه أبو داود من حديث عائشة وسكت عليه فهو عنه صالح . (٢) حديث عمر : أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهراً . الحديث . يتفق عليه . (٣) حديث عائشة . لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إلا أن يكون ممن لا يؤمن بوائقه أخرجه ابن عدى وقال غريب المتن والإسناد وحديث عائشة عند أبي داود دون الاستثناء بإسناد صحيح . (٤) حديث : أن رجلاً أتى الجبل ليتعبد فيه فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تفعل . الحديث . أخرجه البيهقي من حديث عمار ابن سلامة قال ابن عبد البر يقولون إن حديثه مرسل وكذا ذكره ابن حبان في ثقات التابعين . (٥) حديث أبي هريرة : غزونا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فررنا بشعب فيه عينة طيبة الماء غزيرة فقال واحد من القوم : لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ... الحديث . أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم إلا أن الترمذى قال سبعة عاماً .

(٦) حديث معاذ بن جبل : الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية ، أخرجه أحمد والطبرانى ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعاً .

إلا هجرهم وإنما الكلام في مخالطة المسلمين وما فيها من البركة لما روى أنه قيل : يارسول الله الوضوء من جر خمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التي يتطهر منها الناس ؟ فقال « بل من هذه المطاهر التي يتطهر منها المسلمين »^(١) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم لم يشرب منها ؛ فإذا التمر المنقع في حياض الأدم وقد مخته الناس بأيديهم وهم يتناولون منه ويشربون ، فاستسقى منه وقال « اسقوني » فقال العباس : إن هذا البئذ شراب قد معث وخيض بالأيدي أولا آتيك بشراب أنظف من هذا من جر خمر في البيت ؟ فقال « اسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس أئتمس بركة أيدي المسلمين » فشرب منه^(٢) ، فإذن كيف يستدل باعتزال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم ؟

واحتجوا أيضا بقول موسى عليه السلام ﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ وأنه فزع إلى العزلة عند اليأس منهم وقال تعالى في أصحاب الكهف ﴿ وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أمرهم بالعزلة . وقد اعتزل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والمهجرة إلى أرض الحبشة^(٣) ، ثم تلاحقوا به إلى المدينة بعد أن أعلى الله كلمته . وهذا أيضا اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعتزل المسلمين ولا من توقع إسلامه من الكفار . وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار ، وإنما النظر في العزلة من المسلمين .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعبد الله بن عامر الجهني لما قال : يارسول الله ما النجاة ؟ قال « ليس عليك بيتك وأمسك عليك لسانك وآبك على خطيئتك »^(٤) ، وروى أنه قيل له صلى الله عليه وسلم : أى الناس أفضل ؟ قال « مؤمن مجاهد نفسه وماله في سبيل الله تعالى » قيل : ثم من ؟ قال « رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبدربه ويدع الناس من شره »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب العبد التقي الخفي »^(٦) ،

وفي الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر ، فأما قوله لعبد الله بن عامر فلا يمكن تنزيله إلا على ما عرفه صلى الله عليه وآله وسلم بنور النبوة من حاله ، وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة ، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك ، ورب شخص تكون سلامته في العزلة لائق المخالطة كما قد تكون سلامته في القعود في البيت وأن لا يخرج إلى الجهاد ،

(١) حديث : قيل له صلى الله عليه وسلم الوضوء من جر خمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التي يطهر منها الناس ؟ فقال « بل من هذه المطاهر ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر وفيه ضعف (٢) حديث : لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم لم يشرب منها فإذا التمر المنقع في حياض الأدم قد مخته الناس بأيديهم ... الحديث . وفيه فقال « اسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس » رواه الأزرقي في تاريخ مكة من حديث ابن عباس بسند ضعيف ومن رواية طاووس مرسل نحوه . (٣) حديث : اعتزل صلى الله عليه وسلم قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والمهجرة إلى الحبشة ... الحديث . رواه موسى بن عقبة في المنازى ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب مرسلا ، ورواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام مرسلا أيضا ، ووصله من رواية أبي سلمة الحضرمي عن ابن عباس إلا أن ابن سعد ذكر أن المشركين حصروا بني هاشم في الشعب ، وذكر موسى بن عقبة أن أبا طالب جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعوبهم ، ومنازى موسى بن عقبة أصبح المنازى وذكر موسى بن عقبة أيضا أنه أمر أصحابه حين دخل الشعب بالخروج إلى أرض الحبشة ، ولأبي داود من حديث أبي موسى : أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن ننتقل إلى أرض النجاشي . قال البيهقي وإسناده صحيح ولا أحد من حديث ابن مسعود : بشنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي . وروى ابن إسحق بإسناده جيد ومن طريقه البيهقي في الدلائل من حديث أم سلمة : إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فاحفظوا ببلاده ... الحديث (٤) حديث : سأله عقبة بن عامر : يارسول الله ما النجاة ؟ فقال : ليس عليك بيتك ... الحديث « أخرجه الترمذى من حديث عقبة وقال حسن (٥) حديث : أى الناس أفضل ؟ فقال « مؤمن مجاهد نفسه وماله في سبيل الله » قيل : ثم من ؟ قال : رجل معتزل ... الحديث « متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري (٦) حديث « إن الله يحب العبد التقي الخفي » أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص .

وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل . وفي مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم ^(١) ، وعلى هذا ينزل قوله عليه السلام : رجل معزول يعبد ربه ويدع الناس من شره ، فهذا إشارة إلى شرير بطبعه تتأذى الناس بمخالطته . وقوله : إن الله يحب التقي الخفي ، إشارة إلى إثارة الخول وتوقي الشهرة . وذلك لا يتعلق بالعزلة فكيف من رآه معزول تعرفه كافة الناس ؟ وكيف من خالط غاملاً لا ذكر له ولا شهرة ؟ فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة .

واحتجوا بما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : ألا أنبئكم بخير الناس ، قالوا : بلى يا رسول الله ، فأشار بيده نحو المغرب وقال : رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغير عليه ألا أنبئكم بخير الناس بعده ؟ ، وأشار بيده نحو الحجاز وقال : رجل في غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعلم حق الله في ماله اعتزل شرور الناس ^(٢) ، فإذا ظهر أن هذه الأدلة لا شفاء فيها من الجانبين فلا بد من كشف الغطاء بالتصريح بفوائد العزلة وغوائلها ومقاييس بعضها ببعض ليتبين الحق فيها .

الباب الثاني : في فوائد العزلة وغوائلها

وكشف الحق في فضلها

اعلم أن اختلاف الناس في هذا يضاهي اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة . وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص بحسب ما فصلناه من آفات النكاح وفوائده ، فكذلك القول فيما نحن فيه . فأنذكر أولاً فوائد العزلة وهي تنقسم إلى فوائد دينية ودينية . والدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم ، وإلى التخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة ، كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء . وأما الدينية فتتنقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة ؛ كتمكين المحترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة ، كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها وطعمه في الناس وطعم الناس فيه وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة والتأذى بسوء خلق المجلس في مرآته أو سوء ظنه أو نيمته أو محاسده أو التأذى بثقله وتشويه خلقته . وإلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة فلنحصرها في ست فوائد .

الفائدة الأولى

التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق ، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض ، فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة ، فالعزلة وسيلة إليه . ولهذا قال بعض الحكماء : لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتسكك بكتاب الله تعالى . والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله الذي يذكرون الله بالله عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله ولقوا الله

(١) حديث : الذي يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم « أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر ولم يسم الترمذي الصحابي قال شيخنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والطريق واحد (٢) حديث : ألا أنبئكم بخير الناس ؟ قالوا : بلى ، قال : فأشار بيده نحو المغرب وقال : « رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغير عليه » الحديث أخرجه الطبراني من حديث أم مبهر إلا أنه قال : نحو المشرق ، بدل : المغرب ، وفيه ابن مسعود روى بالنعنة والتزمه والنسائي تحصره من حديث ابن عباس قال الترمذي حديث حسن .

بذكر الله . ولا شك في أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر فالعزلة أولى بهم . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء وينزل إليه حتى قوى فيه نور النبوة (١) فكان الخلق لا يجبرونه عن الله فكان يبدنه مع الخلق وبقبله مقبلا على الله تعالى حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليفه . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن استغراق همه بالله فقال : لو كنت متخذاً خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله (٢) . ولأن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهراً والإقبال على الله سراً إلا قوة النبوة فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيقطع في ذلك ، ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء إليه . فقد نقل عن الجنيد أنه قال : أنا أكلّم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أني أكلهم . وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقاً لا يبق لغيره فيه متسع وذلك غير منكر ، ففي المشتهرين بحب الخلق من يخالط الناس يبدنه وهو لا يدري ما يقول ولا ما يقال له لفرط عشقه لمحبه . بل الذي دهاه لم يشوش عليه أمراً من أمور دنياه فقد يستغرقه الهم بحيث يخالط الناس ولا يحس بهم ولا يسمع أصواتهم لشدة استغراقه . وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء فلا تستحيل ذلك فيه ولكن الأولى بالأكثرين الاستعانة بالعزلة . ولذلك قيل لبعض الحكماء : ما الذي أرادوا بالخلة واختيار العزلة ؟ فقال : يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبت العلوم في قلوبهم ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة . وقيل لبعض الرهبان : ما أصبرك على الوحدة ؟ فقال : ما أنا وحدي أنا جالس الله تعالى إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه وإذا شئت أن أناجيته صليت . وقيل لبعض الحكماء : إلى أي شيء أفضى بكم الزهد والخلة ؟ فقال : إلى الأناش بالله . وقال سفيان بن عيينة : لقيت إبراهيم ابن أدهم رحمه الله في بلاد الشام فقلت له : يا إبراهيم تركت خراسان ؟ فقال : ماتتهأت بالعيش إلا ههنا أفر بدني من شاق إلى شاق ، فمن يراني يقول موسوس أو حال أو ملاح . وقيل لغزوان الوقاشي : هبك لا تضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك ؟ قال : إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي . وقيل للحسن يا أبا سعيد : ههنا رجل لم تره قط جالساً إلا وحده خلف سارية . فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبروني به ؛ فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن : هذا الرجل الذي أخبرناك به ؟ وأشاروا إليه ؛ ففضي إليه الحسن وقال له . يا عبد الله أراك قد حببت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة الناس ؟ فقال : أمر شغلي عن الناس ، قال : فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه ؟ فقال أمر شغلي عن الناس . وعن الحسن : فقال له الحسن وما ذاك الشغل . يرحمك الله ؟ فقال : إني أصبح وأمسى بين نعمة وذنوب فرأيت أن أشغل نفسي بشكر الله تعالى على النعمة والاستغفار من الذنوب فقال له الحسن : أنت يا عبد الله أفقه عندي من الحسن فالزم ما أفت عليه . وقيل : بينا أويس القرني جالساً إذ أتاه هرم بن حيان فقال له أويس : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأناش بك ، فقال أويس : ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأناش بغيره ؛ وقال الفضيل : إذا رأيت الليل مقبلاً فرحت به وقلت أخلو بربي ، وإذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس وأن يجيئني من يشغلني عن ربي . وقال عبد الله بن زيد : طوبى لمن عاش في الدنيا وعاش في الآخرة ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : يناجي الله في الدنيا ويجاوره في الآخرة . وقال ذو النون المصري : سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه . وقال مالك بن دينار : من لم يأناش بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قل عليه وعمى

الباب الثاني : في فوائد العزلة وغوائلها

(١) حديث : كان صلى الله عليه وسلم في أول أمره يتبتل في جبل حراء وينزل إليه . متفق عليه من حديث عائشة نحوه : فكان يخلو بدار حراء يتحنث فيه ... الحديث (٢) حديث : لو كنت متخذاً خليلاً لا تتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله . أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

قلبه وضيع عمره . وقال ابن المبارك : ما أحب حال من انقطع إلى الله تعالى ! ويروى عن بعض الصالحين أنه قال : بينا أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا بعباد خارج من بعض تلك الجبال فلما نظر إلى تنحى إلى أصل شجرة وتستر بها فقلت : سبحان الله تبخل على بالنظر إليك ؟ فقال : هذا إلى أقمت في هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمري فسألت الله تعالى أن لا يجعل حظي من أيامي في مجاهدة قلبي ، فسكنه الله عن الاضطراب وألفه الوحدة والانفراد ، فلما نظرت إليك خفت أن أقع في الأمر الأول فأليك عنى فأني أعوذ من شرك رب العارفين وحبيب القانتين ، ثم صاح : واغماء من طول المكث في الدنيا ، ثم حوّل وجهه عنى ، ثم نفّض يديه وقال : إليك عنى يا دنيا لغيري فتزيني وأهلك فغري ، ثم قال : سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهم قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسنان ، وجمع ههنا في ذكره فلا شيء ألد عندهم من مناجاته . ثم مضى وهو يقول : قدوس قدوس . فإذا في الخلوة أنس بذكر الله واستكثار من معرفة الله وفي مثل ذلك قيل .

وإني لأستغشى وما بي غشوة لعل خيالا منك يلق خيالها
وأخرج من بين الجلوس لعلني أحدث عنك النفس بالسر خالها

ولذلك قال بعض الحكماء : إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلق ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذ ملاقة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم ، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الواحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة . وقد قيل الاستئناس من علامات الإفلاس فإذا هذه فائدة جزيلة ولكن في حق بعض الخواص ومن يتيسر له بدوام الذكر بالإنس بالله أو بدوام الفكر التحقق في معرفة الله فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة . فإن غاية العبادات وثمرتها المعاملات أن يموت الإنسان محبا لله عارفا بالله ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر . وفراغ القلب شرط في كل واحد منهما ولا فراغ مع المخالطة .

الفائدة الثانية

التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالبا بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة : الغيبة والنهيمة ، والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا .

أما الغيبة فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربيع المهلكات وجوهها عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصديقون . فإن عادة الناس كافة التضمض بأعراض الناس والتفكك بها والتفيل بحلاوتها وهي طعمتهم ولذتهم وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة . فإن خالطتهم ووافقهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى ، وإن سكنت كنت شريكا ، والمستمع أحد المعتابين ، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المعتاب واغتابوك فازدادوا غيبة إلى غيبة ، وربما زادوا على الغيبة واتهموا إلى الاستخفاف والشتم .

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصول الدين وهو واجب - كما سيأتى بيانه في آخر هذا الربع - ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات فإن سكنت عصي الله به ، وإن أنكرت تعرض لأنواع من الضرر إذ ربما يحجره طلب الخلاص عنها إلى معاصي هي أكبر مما نهى عنه ابتداء . وفي العزلة خلاص من هذا فإن الأمر في إهماله شديد والقيام به شاق . وقدم قام أبو بكر رضي الله عنه خطيبا وقال : أيها الناس إنكم تقرمون هذه الآية

(يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنكم تضعونها في غير موضعها وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب »^(١) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليسأل العبد حتى يقول له ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإذا لقن الله لعبده حجته قال يارب رجوتك وخفت الناس »^(٢) ، وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا يطاق . ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر . وفي العزلة خلاص وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إثارة للخصومات وتحريك لغوائل الصدور كما قيل :

وكم سقت في آثارك من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتصح

ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالبا فإنه يجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه ؛ فإذا سقط عليه يقول ياليتني تركته مائلا . نعم لو وجد أعوانا أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام وأنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وانج بنفسك .

وأما الرياء فهو الداء العضال الذي يعسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه . وكل من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راءاهم ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كماهلكوا . وأقل ما يلزم فيه النفاق فإنه إن خالطت متعادين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغضا إليهما جميعا ، وإن جاملتهما كنت من شرار الناس . وقال صلى الله عليه وسلم : « تجدون من شرار الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »^(٣) ، وقال عليه السلام : « إن من شر الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »^(٤) ، وأقل ما يجب في مخالطة الناس لإظهار الشوق والمبالغة فيه ولا يخلو ذلك عن كذب إما في الأصل وإما في الزيادة ، وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك : كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب من همومه ، وهذا نفاق محض . قال سري : لو دخل أخ لي فسويت لحيتي بيدي لدخوله لخشيت أن أكتب في جريدة المنافقين . وكان الفضيل جالسا وحده في المسجد الحرام فجاء إليه أخ له فقال له : ما جاء بك؟ قال : الموانسة يا أبا علي فقال : هي والله بالمواشنة أشبه هل تريد إلا أن تزين لي وأزين لك وتكذب لي وأكذب لك؟ إما أن تقوم عني أو أقوم عنك . وقال بعض العلماء : ما أحب الله عبدا إلا أحب أن لا يشعر به . ودخل طاووس على الخليفة هشام فقال : كيف أنت يا هشام؟ فغضب عليه وقال : لم لم تخاطبني بأمر المؤمنين؟ فقال : لأن جميع المسلمين ما اتفقوا على خلافتك لخشيت أن أكون كاذبا . فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحتراز فيخالط الناس وإلا فليرض بإثبات اسمه في جريدة المنافقين . فقد كان السلف يتلاقون ويحتزون في قولهم كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وكيف أنت؟ وكيف حالك؟ وفي الجواب عنه . فكان سؤالهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا . قال حاتم الأصم لحامدا للنفاء : كيف أنت في نفسك؟ قال : سالم معافى : فكره حاتم جوابه وقال : يا حامد السلامة من وراء الصراط والعافية في الجنة . وكان إذا قيل لعيسى صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت؟ قال أصبحت لأملك تقديم ما أرجو ولا أستطيع دفع ما أحاذر وأصبحت مرتها بعمل والخير كله في يد غيري ولا فقير أفقر مني

(١) حديث أبي بكر إنكم تفرءون هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنكم تضعونها في غير موضعها ... الحديث . أخرجه أصحاب السنن . قال الترمذي : حسن صحيح . (٢) حديث . إن الله يسأل العبد حتى يقول ما منعك إذا رأيت المنكر في الدنيا أن تنكره ... الحديث . أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد . (٣) حديث « تجدون من شرار الناس ذا الوجهين » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « إن من شر الناس ذا الوجهين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وهو الذي قبله .

وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من ضعفاء مذنبين نستوفى أرزاقنا وننتظر آجالنا . وكان أبو الدرداء إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بخير إن نجوت من النار . وكان سفيان الثوري إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ يقول : أصبحت أشكر ذا إلى ذا وأذم ذا إلى ذا وأفر من ذا إلى ذا ، وقيل لأويس القرني : كيف أصبحت ؟ قال : كيف يصبح رجل إذا أمسى لا يدرى أنه يصبح وإذا أصبح لا يدرى أنه يمسى ؟ وقيل لمالك بن دينار كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد . وقيل لبعض الحكماء : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت لأرضى حياتي لما في ولا نفسي لربي . وقيل للحكيم : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت آكل رزق ربي وأطيع عدوه إبليس . وقيل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت ؟ قال : ما ظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة . وقيل لحامد اللفاف : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أشتى عافية يوم إلى الليل ، فقيل له : ألسنت في عافية في كل الأيام ؟ فقال : العافية يوم لأعصى الله تعالى فيه . وقيل لرجل وهو يجود بنفسه : ما حالك ؟ فقال : وما حال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ويدخل قبرا موحشا بلا مؤنس وينطلق إلى ملك عدل بلا حجة . وقيل لحسان ابن أبي سنان : ما حالك ؟ قال : ما حال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب . وقال ابن سيرين لرجل : كيف حالك ؟ فقال : وما حال من عليه خمسمائة درهم دينا وهو معيل ؟ فدخل ابن سيرين منزله فأخرج له ألف درهم فدفعها إليه وقال : خمسمائة اقض بها دينك وخمسمائة عد بها على نفسك وعيالك . ولم يكن عنده غيرها . ثم قال : والله لأسأل أحدا عن حاله أبدا . وإنما فعل ذلك لأنه خشي أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره فيكون بذلك مرائيا منافقا . فقد كان سؤا لهم عن أمور الدين وأحوال القلب في معاملة الله وإن سألوا عن أمور الدنيا فعن اهتمام وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة . وقال بعضهم : إني لأعرف أقواما كانوا لا يتلافون ولو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه ، وأرى الآن أقواما يتلافون ويتساءلون حتى عن الدجاجة في البيت . ولو انبسط أحدهم لحبة من مال صاحبه لمنعه فهل هذا إلا مجرد الرياء والتفاني ؟ وآية ذلك أنك ترى هذا يقول كيف أنت ؟ ويقول الآخر كيف أنت ؟ فالسائل لا ينتظر الجواب والمستول يشتغل بالسؤال ولا يجيب ، وذلك لمعرفتهم بأن ذلك عن رياء وتكلف . ولعل القلوب لا تنخلو عن ضغائن وأحقاد والألسنة تنطق بالسؤال . قال الحسن : إنما كانوا يقولون السلام عليكم ، إذا سلمت والله القلوب ، وأما الآن : فكيف أصبحت عافاك الله ؟ كيف أنت أصلحك الله ؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة لاكرامة فإن شاءوا غضبوا علينا ، وإن شاءوا لا . وإنما قال ذلك لأن البداية بقولك : كيف أصبحت بدعة . وقال رجل لأبي بكر بن عياش : كيف أصبحت ؟ فما أجابه . وقال دعونا من هذه البدعة . وقال : إنما حدث هذا في زمان الطاعون الذي كان يدعى طاعون عمواس بالشام من الموت الذريع ، كان الرجل يلقاه أخوه غدوة فيقول كيف أصبحت من الطاعون ؟ ويلقاه عشية فيقول : كيف أمسيت ؟ والمقصود أن الالتقاء في غالب العادات ليس ينخلو عن أنواع من التصنع والرياء والتفاني ، وكل ذلك مذموم ، بعضه محظور وبعضه مكروه . وفي العزلة الخلاص من ذلك ، فإن من لقي الخلق ولم يخالفهم بأخلاقهم مقتوه واستنقلوه واغتابوه وتشمروا لإيذائه فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم .

وأما مسارقة الطبع بما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين ، فلا يجالس الإنسان فاسقا مدة مع كونه منكرا عليه في باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في الذمرة عن الفساد واستنقاله إذ يصير للفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه له ،

ولأنما الوازع عنه شدة وقعه في القلب فإذا صار مستصغرا بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الوازعة ويدعن الطبع اللبيل إليه أولمادونه . ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استحققر الصغائر من نفسه : ولذلك يزدرى الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم في أن يستصغر ما عنده وتؤثر مجالسة الفقراء في استعظام ما أتيح له من النعم . وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة هذا تأثيره في الطبع من يقصر نظره على ملاحظه أحوال الصحابة والتابعين في العبادة والتنزه عن الدنيا فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار وإلى عبادته بعين الاستحقار : وما دام يرى نفسه مقصرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستهما للاقتداء . ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصي استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك . ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلا عن مشاهدته . وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ^(١) » ، ولأنما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله وليس ينزل عند الذكر عين ذلك ولكن سببه وهو انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير . ومبدأ الرحمة فعل الخير ومبدأ فعل الخير الرغبة ، ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين ، فهذا معنى نزول الرحمة . والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصي ، واللعنة هي البعد . ومبدأ البعد من الله هو المعاصي ، والإعراض عن الله بالإقبال على الخطوط العاجلة والشهوات الحاضرة لاعلى الوجه المشروع . ومبدأ المعاصي سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب . ومبدأ سقوط الثقل وقوع الانس بها بكثرة السماع . إذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم ؟ بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « مثل المجلس السوء كمثل الكبر إن لم يحرقك بشره علق بك من ريحه ^(٢) » فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به . وقال « مثل المجلس الصالح مثل صاحب المسك إن لم يهب لك منه تجد ريحه » ولهذا أقول من عرف من عالم زلة حرم عليه حكايتهما لعلتين ، إحداهما : أنها غيبة ، والثانية وهي أعظمهما . أن حكايتهما تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها فيكون ذلك سببا لتهوين تلك المعصية فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك دفع الاستنكار وقال كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعباد ؟ ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر لشق عليه الإقدام ، فكأن من شخص يتكالب على الدنيا ويحرص على جمعها ويتبالك على حب الرياسة وتزيينها ويهون على نفسه قبجها ويزعم أن الصحابة رضى الله عنهم لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرياسة ؟ وربما يستشهد عليه بقتال على ومعاوية ويخمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرياسة ، فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرياسة ولوازمها من المعاصي . والطبع اللبيل يميل إلى اتباع الهفوات والإعراض عن الحسنات بل إلى تقدير الهفوة فيما لاهفوة فيه بالتنزيل على مقتضى الشهوة ليتعلل به وهو من دقائق مكاييد الشيطان ، ولذلك وصف الله المرغبين للشيطان فيها بقوله « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » وضرب صلى الله عليه وسلم لذلك مثلا وقال مثل الذي يجلس يستمع الحكمة ثم لا يعمل إلا بشر ما يستمع كمثل رجل أتى راعيا فقال له ياراعى اجررلى شاة من غنمك فقال اذهب فخذ خير شاة فيها فذهب

(١) حديث « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة » ليس له أصل في الحديث المرفوع وإنما هو من قول سفيان ابن عيينة كذا رواه ابن الجوزى في مقدمة صفة الصفوة .

(٢) حديث « مثل المجلس السوء كمثل الكبر » الحديث « متفق عليه من حديث أبي موسى .

فأخذ بأذن كلب النعم^(١) وكل من ينقل هفوات الأئمة فهذا مثاله أيضا . وبما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته أن أكثر الناس إذا رأوا مسلما أفطر في نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعادا يكاد يفضي إلى اعتقادهم كفره ، وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كفرتهم عن تأخير الصوم ، مع أن صلاة واحدة يقتضى تركها الكفر عند قوم وحز الرقة عند قوم ، وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ولا سببه إلا أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها بما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب . ولذلك لولبس الفقيه ثوبا من حرير أو خاتما من ذهب أو شرب من لبناء فضة استبعدته النفوس واشتد إنكارها ، وقد يشاهد في مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياب للناس ولا يستبعد منه ذلك . والغيبة أشد من الزنا فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير ؟ ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط وقعها عن القلوب وهون على النفس أمرها ، فتبتطن لهذه الدقائق وفز من الناس فرارك من الأسد لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك في الطاعة . فإن وجدت جليسا يذكر الله رؤيته وسيرته فالزمه ولا تفارقه واغتمه ولا تستحقه فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن . وتحقق أن المجلس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من المجلس السوء . ومهما فهمت هذه المعاني ولاحظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته لم يخف عليك أن الأولى التباعد بالعزلة أو التقرب إليه بالخلطة . ولما كان أن تحكم مطلقا على العزلة أو الخلطة بأن إحداها أولى إذ كل مفصل فإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول محض ولا حق في المفصل إلا التفصيل .

الفائدة الثالثة

الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقلبا تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات ، فالمعتزل عنهم في سلامة منها . قال عبدالله بن عمرو بن العاص : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن ووصفها وقال : إذا رأيت الناس مرحت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا - وشبك بين أصابعه - ، قلت : فما تأمرني ؟ فقال : الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة^(٢) ، روى أبو سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم قال : يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن من شاهر إلى شاهر^(٣) ، وروى عبدالله بن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « سيأتي على الناس زمان لا يسلم لدى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهر إلى شاهر ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذي يروغ » قيل له : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إذا لم تزل المعيشة إلا بمعاصي الله تعالى فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة » قالوا : وكيف يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج ؟ قال : « إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فإن لم يكن له أبوان فعلى زوجه وولده فإن لم يكن فعلى قرابته » قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « يعبرونه بضيق اليد فيتكلف ما لا يطيق حتى يورده ذلك موارد الهلكة »^(٤) ، وهذا الحديث وإن كان في العزوبة فالعزلة مفهومة منه إذ لا يستغنى المتأهل عن

(١) حديث « مثل الذي يسمع المسكة ثم لا يحمل منها لا شر ما يسمع كمثل رجل آتى راعيا فقال يراعى اجر لي شاة من غنمك ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٢) حديث عبدالله بن عمرو بن العاص « لذارأيت الناس مرحت عهودهم وخفت أماناتهم ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن . (٣) حديث أبي سعيد الخدري « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » رواه البخاري (٤) حديث ابن مسعود « سيأتي على الناس زمان لا يسلم لدى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهر إلى شاهر » تقدم في النكاح

المعيشة والمخالطة ثم لا ينال المعيشة إلا بمعية الله تعالى ، ولست أقول : هذا أو أن ذلك الزمان فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر ، ولأجله قال سفيان : والله لقد حلت العزلة . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الفتنة وأيام الهرج قلت : وما الهرج ؟ قال : حين لا يأمن الرجل جليسه ، قلت : فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان ؟ قال : كف نفسك ويدك وادخل دارك ، قال : قلت يا رسول الله أرايت إن دخل على دارى ؟ قال : فادخل بيتك ، قلت : فإن دخل على بيتي ؟ قال : فادخل مسجدك واصنع هكذا ، وقبض على الكوع ، وقل رب الله حتى تموت ^(١) ، وقال سعد - لما دعى إلى الخروج أيام معاوية - لا ... إلا أن تعطوني سيفك عينا بصيرتان ولسان ينطق بالكافر فأقتله وبالمؤمن فأكف عنه ، وقال : مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على حجة بيضاء فبينما هم كذلك يسرون إذ هاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق فالتبس عليهم ؛ فقال بعضهم الطريق ذات البين فأخذوا فيها فتأهوا وضلوا ، وقال بعضهم ذات الشمال فأخذوا فيها فتأهوا وضلوا ، وأننا نحن آخرون وتوقعوا حتى ذهب الريح وتبينت الطريق فسافروا . فاعتزل سعد وجماعة معه فارقوا الفتن ولم يخاطبوا إلا بعد زوال الفتن . وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه لما بلغه أن الحسين رضي الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام فقال له : أين تريد ؟ فقال : العراق . فإذا معه طوامير وكتب ؛ فقال : هذه كتبهم ويعتهم فقال : لا تنظر إلى كتبهم ولا تأتهم ؛ فأبى ، فقال : إني أحذرك حديثا ؛ جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وإنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا يليها أحد منكم أبدا وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم ، فأبى أن يرجع ، فاعتقه ابن عمرو بكى وقال : أستودعك الله من قتيل أو أسير ^(٢) . وكان في الصحابة عشرة آلاف فما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلا . وجلس طاوس في بيته فقيل له في ذلك فقال : فساد الزمان وحيف الأئمة . ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قيل له : لزمت القصر وتركت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : رأيت مساجدكم لاهية وأسرافكم لاغية والفاحشة في فجاجكم عالية وفيها هناك عما أنتم فيه عافية . فإذا من الحذر من الخصومات ، ومثارات الفتن إحدى فوائد العزلة .

الفائدة الرابعة : الخلاص من شر الناس

فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن والتهمة بالافتراحت والاطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها ، وتارة بالنيمة أو الكذب فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فرصة للشر ، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك . ولذلك قال بعض الحكماء لغيره : أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم ؟ : ما هما ؟ قال :

أخفض الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل المقال

ليس للقول رجعة حين يبدو بقبيح يكون أو بجمال

ولا شك أن من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لا ينفك من حاسد وعدو يسوء الظن به ويتوهم أنه يستعد

(١) حديث ابن مسعود : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الفتنة وأيام الهرج قلت : وما الهرج ؟ قال : حين لا يأمن الرجل جليسه ... الحديث « أخرجه أبو داود مختصراً والخطابي في العزلة بتمامه وفي إسناده عند الخطابي انقطاع ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته . (٢) حديث ابن عمر : أنه لما بلغه أن الحسين توجه إلى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة أيام ... الحديث . وفيه : أنه صلى الله عليه وسلم خير بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة . رواه الطبراني مقتصرًا على المرفوع رواه في الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل : على مسيرة ثلاثة أيام . وكذا رواه الترمذي بنحوه وإسناده حسن .

لمعاداته ونصب المكيدة عليه وتدسيس غائلة وراءه فالتاس مهما اشتد حرصهم على أمر (يحبسون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم) وقد اشتد حرصهم على الدنيا فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها . قال المتنبي :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظفونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته فأصبح في ليل من الشك مظلم

وقد قيل : معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالآبرار . وأنواع الشر الذي يلقاه الإنسان من معارفه ومن يختلط به كثيرة : ولسنا نطول بتفصيلها ففيا ذكرناه إشارة إلى مجامعها ، وفي الدرة خلاص من جميعها . وإلى هذا أشار الأكثر من اختار العزلة . فقال أبو الدرداء : أخبر ثقله ، يروى مرفوعا . وقال الشاعر :

من حمد الناس ولم يبلهم ثم بلاهم ذم من يحمد
وصار بالوحدة مستأنسا يوحشه الأقرب والأبعد

وقال عمر رضى الله عنه : في العزلة راحة من القرين السوء . وقيل لعبد الله بن الزبير : ألا تأتي المدينة ؟ فقال : ما بقي فيها إلا حاسد نعمة أوفرح بنقمة . وقال ابن السماك : كتب صاحب لنا ، أما بعد فإن الناس كانوا دواء يتداوى به فصاروا داء لا دواء له ففرّ منهم فرارك من الأسد . وكان بعض الأعراب يلزم شجرا ويقول : هو نديم فيه ثلاث خصال ، إن سمع مني لم ينم علي ، وإن تفلت في وجهه احتمل مني ، وإن عربت عليه لم يغضب ، فسمع الرشيد ذلك فقال : زهدني في الندماء ، وكان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر فقيل لذلك فقال : لم أر أسلم من وحدة ولا أوعظ من قبر ، ولا جليسا أمتع من دفتر ، وقال الحسن رضى الله عنه : أردت الحج فسمع ثابت الباني بذلك - وكان أيضا من أولياء الله - فقال : بلغني أنك تريد الحج فأحببت أن أصحبك ، فقال له الحسن : ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا لاني أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ماتماتت عليه . وهذه إشارة إلى فائدة أخرى في العزلة وهو بقاء السر على الدين والمروءة والأخلاق والفقر وسائر العورات . وقد مدح الله سبحانه المتسترين فقال (يحبسهم الجاهل أغنياء من التعفف) وقال الشاعر :

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزول التجل

ولا يخلو الإنسان في دينه وديناه وأخلاقه وأفعاله عن عورات الأولى في الدين والدنيا سترها ولا تبقى السلامة مع انكشافها . وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقا لاشوك فيه فالتاس اليوم شولا لا ورق فيه . إذا كان هذا حكم زمانه وهو في أواخر القرن الأول فلا ينبغي أن يشك في أن الأخير شر . وقال سفيان بن عيينة : قال لي سفيان الثوري - في اليقظة في حياته وفي المنام بعد وفاته - أقلل من معرفة الناس فإن التخلص منهم شديد ولا أحسب أني رأيت ما أكره إلا من عرفت : وقال بعضهم : جئت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده ، وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته . فذهب أطرده فقال : دعه ياهذا هذا لا يضر ولا يؤذى وهو خير من جليس السوء . وقيل لبعضهم : ما حملك على أن تعتزل الناس ؟ قال : خشيت أن أسلب ديني ولا أشعر . وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوء . وقال أبو الدرداء : اتقوا الله واحذروا الناس فإنهم ماركبوا ظهر بعير إلا أدبروه ، ولا ظهر جواد إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا خربوه . وقال بعضهم : أقلل المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك ، وأخف لسقوط الحقوق عنك ، لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع . وقال بعضهم : أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف .

الفائدة الخامسة

أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس . فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد ، فإن رضا الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة وعبادة المريض وحضور الولائم والإملاكات ، وفيها تضييع الأوقات وتعرض الآفات ، ثم قد تعوق عن بعضها العوائق وتستقبل فيها المعاذير ، ولا يمكن إظهار كل الأعذار فيقولون له قمت بحق فلان وقصرت في حقنا ، ويصير ذلك سبب عداوة فقد قيل : من لم يعد مريضا في وقت العيادة انتهى موته خيفة من تنجيله إذا صح على تقصيره . ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ، ولو خصص استوحشوا . وتعميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار فكيف من له مهم يشغله في دين أو دنيا ؟ قال عمرو بن العاص : كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء . وقال ابن الرومي :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وقال الشافعي رحمه الله : أصل كل عداوة اصطناع المعروف الى اللئام . وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضا فائدة جزيلة ، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ولا يرى إلا الحثية في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك . ومهما اعتزل لم يشاهد ، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ولذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ، انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم ^(١) ، وقال عون بن عبد الله : كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مغموما ، كنت أرى ثوبا أحسن من ثوبي ودابة أفره من دابتي فجالست الفقراء فاسترحت . وحكى أن المزي رحمه الله خرج من باب جامع الفسطاط وقد أقبل ابن عبد الحكم في موكبه فبهره مارأى من حسن حاله وحسن هيئته فتلا قوله تعالى ﴿ وجعلنا بعضهم لبعض فتنة ﴾ ثم قال بلى أصبر وأرضى ، وكان فقيرا مقلا . فالذى هو في بيته لا يبتلى بمثل هذه الفتن . فإن من شاهد زينة الدنيا فأما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر إلى أن يتجرع مرارة الصبر - وهو أمر من الصبر - أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدنيا فيهلك هلاكا مؤبدا ، أما في الدنيا فبالطمع الذى يخيب في أكثر الأوقات فليس كل من يطلب الدنيا تتيسر له ، وأما في الآخرة فإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتفكرت إليه . ولذلك قال ابن الأعرابي :

إذا كان باب الدل من جانب الغنى سموت إلى الحلياء من جانب الفقر

أشار إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلا .

الفائدة السادسة

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحقى ومقاساة حقيهم وأخلاقهم ، فإن رؤية الثقل هي العمى الأصغر . قيل للأعمش : مم عمشت عيناك ؟ قال : من النظر إلى الثقلاء . ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال : في الخبر « إن من

(١) حديث « انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

سلب الله كريميته عوضه الله عنهما ما هو خير منهما ^(١) ، فما الذى عوضك ؟ فقال - فى معرض المطالبة - عوضنى الله عنهما أنه كفانى رؤية الثقلاء وأنت منهم . وقال ابن سيرين : سمعت رجلا يقول نظرت إلى ثقیل مرة فغشى على . وقال جالينوس : لكل شيء حمى وحمى الروح النظر إلى الثقلاء . وقال الشافعى رحمه الله : ما جالست ثقیلا إلا وجدت الجانب الذى يليه من بدنى كأنه أثقل على من الجانب الآخر .

وهذه الفوائد ماسوى الأوليين متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة ولكنها أيضا تتعلق بالدين . فإن الإنسان مهما تأذى بروية ثقیل لم يأمن أن يغتابه وأن يستنكر ما هو صنع الله ، فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن أو محاسبة أو نيممة أو غير ذلك لم يصبر عن مكافأته . وكل ذلك يجر إلى فساد الدين وفى العزلة سلامة عن جميع ذلك فليفهم .

آفات العزلة

اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة . فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة ، وفوائده من آفات العزلة . فانظر إلى فوائد المخالطة والدواعى إليها ما هى ، وهى التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب ، والاسيئناس والایناس ، ونيل الثواب وإنالته فى القيام بالحقوق ، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها . فلنفصل ذلك فإنها من فوائد المخالطة وهى سبع :

الفائدة الأولى : التعليم والتعلم

وقد ذكرنا فضلها فى كتاب العلم وهما أعظم العبادات فى الدنيا . ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة ، وبعضها ضرورى فى الدنيا . فالحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة . وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض فى العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل . وإن كان يقدر على التبرز فى علوم الشرع والعقل فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الحسran . ولهذا قال النخعى وغيره : تفقه ثم اعتزل فمن اعتزل قبل التعلم فهو فى الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر فى هوس ، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها ، ولا ينفك فى أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يخيب سعيه ويطل عمله بحيث لا يدري ، ولا ينفك اعتقاده فى الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ويأنس بها وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها فيكون فى أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العباد . فالعلم هو أصل الدين فلاخير فى عزلة العوام والجهال ، أعنى من لا يحسن العبادات فى الخلوة ولا يعرف جميع ما يلزم فيها . فثال النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلطف يعالجه ، فالمرضى الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف لاحتالة مرضه . فلا تليق العزلة إلا بالعالم وأما التعليم ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم . ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والاتباع فهو هلاك الدين . وقد ذكرنا وجه ذلك فى كتاب العلم .

وحكم فى العالم فى هذا الزمان أن يعتزل إن أراد سلامة دينه . فإنه لا يرى مستفيدا يطلب فائدة لدينه ، بل لاطالب لالسلام مزخرف . يستميل به العوام فى معرض الوعظ أو الجدل - معقد يتوصل به إلى إلغام الأقران ويتقرب به إلى السلطان ويستعمل فى معرض المنافسة والمباهاة ، وأقرب علم مرغوب فيه : المذهب ، ولا يطلب غالبا إلا للتوصل إلى التقدم على الأمثال وتولى الولايات واجتلاب الأموال . فهؤلاء كلهم يقتضى الدين والحزم الاعتزال عنهم ،

(١) حديث « من سلب الله كريمته عوضه الله عنهما ما هو خير منهما » أخرجه الطبرانى بإسناد ضعيف من حديث جرير « من سلبت كريمته عوضته عنها الجنة » وله لأحمد نحوه من حديث أبي أمامة بسند حسن ، والبخارى من حديث أس « يقول الله تبارك وتعالى إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة » يريد عينيه .

فإن صودف طالب لله ومتقرب بالعلم إلى الله فأكبر الكبار الاعترال عنه وكتبان العلم منه ، وهذا لا يصادف في بلدة كبيرة أكثر من واحد أو اثنين إن صودف .

ولا ينبغي أن يغتر الإنسان بقول سفيان : تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله ، فإن الفقهاء يتعلمون لغير الله ثم يرجعون إلى الله . وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا ، وهم هلكت على طلب الدنيا ومتكالبون عليها أوراغبون عنها وزاهدون فيها ، وليس الخبر كالمعاينة . واعلم أن العلم الذي أشار إليه سفيان هو علم الحديث وتفسير القرآن ومعرفة سير الأنبياء والصحابة ، فإن فيها التخريف والتحذير وهو سبب لإثارة الخوف من الله فإن لم يؤثر في الحال أثر في المال .

وأما الكلام والفقہ المجرد - الذي يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات - المذهب منه والخلاف لا يرد الراغب فيه للدنيا إلى الله ، بل لا يزال متباديا في حرصه إلى آخر عمره . ولعل ما أودعناه هذا الكتاب إن تعلمه المتعلم رغبة في الدنيا فيجوز أن يرخص فيه ، إذ يرجى أن ينزجر به في آخر عمره فإنه مشحون بالتخريف بالله والترغيب في الآخرة والتحذير من الدنيا ، وذلك مما يصادف في الأحاديث وتفسير القرآن ولا يصادف في كلام ولا في خلاف ولا في مذهب . فلا ينبغي أن يخادع الإنسان نفسه فإن المقصر العالم بتقصيره أسعد حالا من الجاهل المغرور أو المتجاهل المغبون وكل عالم اشتد حرصه على التعليم يوشك أن يكون غرضه القبول والجاه ، وحظه تلذذ النفس في الحال باستشعار الإدلال على الجهال والتكبر عليهم ، فأفة العلم الخيلاء ^(١) كما قال صلى الله عليه وسلم . ولذلك حكى عن بشر أنه دفن سبعة عشر قطرا من كتب الأحاديث التي سمعها ، وكان لا يحدث ، ويقول : إني أشتى أن أحدث فلذلك لا أحدث ولو اشتيت أن لا أحدث لحدث ، ولذلك قال « حدثنا ، باب من أبواب الدنيا ، وإذا قال الرجل « حدثنا » فإنما يقول أو سعو إلى . وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري : نعم الرجل أنت لولا رغبته في الدنيا ، قال : وفيما ذا رغبته ؟ قالت : في الحديث . ولذلك قال أبو سليمان الداراني : من تزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر فقد ركن إلى الدنيا . فهذه آفات قد نهينا عليها في كتاب العلم ، والحزم الاحتراز بالعزلة وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن ، بل الذي يطلب الدنيا بتدريسه وتعليمه فالصواب له إن كان غافلا في مثل هذا الزمان أن يتركه . فلقد صدق أبو سليمان الخطابي حيث قال : دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال ، إخوان العلانية أعداء السر ، إذا لقوك تملقوك وإذا غبت عنهم سلقوك ، من أتاك منهم كان عليك رقبيا وإذا خرج كان عليك خطيبا ، أهل نفاق ونميمة وغل وخديعة ، فلا تغتر باجتماعهم عليك فما غرضهم العلم بل الجاه والمال وأن يتخذوك سلما إلى أوطارهم وأغراضهم وحمارا في حاجاتهم ، إن قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك ، ثم يعدون ترددهم إليك دالة عليك ويرونه حقا واجبا لديك ، ويفرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم فتعادي عدوهم وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم ، وتلتهم لهم سفيها وقد كنت فقيها ، وتكون لهم تابعا خسيسا بعد أن كنت متبوعا رئيسا . ولذلك قيل : اعتزال العامة مروءة تامة . فهذا معنى كلامه وإن خالف بعض ألفاظه ، وهو حق وصدق . فإنك ترى المدرسين في رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة بمن يتردد إليهم فكأنه يهدي تحفه إليهم ويرى حقه واجبا عليهم . وربما لا يختلف إليه مالم يتكفل برزق له على الإدرار . ثم إن المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك من ماله ، فلا يزال مترددا إلى أبواب السلاطين ويقاسى الذل والشدة بمقاساة الدليل

(١) حديث « آفة العلم الخيلاء » المعروف مارواه مطين في مسنده من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف « آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء » .

المهين حتى يكتب له على بعض وجوه السحت مال حرام ، ثم لا يزال العامل يسترقه ويستخدمه ويمتنعه ويستدله إلى أن يسلم إليه ما يقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه ، ثم يبقى في مقاساة القسمة على أصحابه إن سوى بينهم مقتته المميزون ونسبوه إلى الحق وقلة التميز والقصور عن درك مصارفات الفضل والقيام بمقادير الحقوق بالعدل ، وإن فاوت بينهم سلقه السفهاء بالسنة حداد وثاروا عليه ثوران الأسود والآساد ، فلا يزال في مقاساتهم في الدنيا وفي مطالبة ما يأخذه ويفرقه عليهم في العقبي . والعجب أنه مع هذا البلاء كله ينحى نفسه بالباطيل ويدلها بجبل الغرور ويقول لها ، لا تفترى عن صنيعك فإنما أنت بما تفعلينه مريدة وجه الله تعالى ومذبة شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشرة علم دين الله وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله ، وأموال السلاطين لا مال لك لها وهي مرصدة للمصالح وأى مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم ؟ فهم يظهر الدين ويتقوى أهله . ولولم يكن ضحكة للشيطان لعلم بأدنى تأمل أن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام ، فتحفظهم أعين الجهال ويستجرون على المعاصي باستجرائهم اقتداء بهم واقتفاء لأنارهم . ولذلك قيل : ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك وما فسد الملوك إلا بفساد العلماء . فنعوذ بالله من الغرور والعمى فإنه الداء الذي ليس له دواء ،

الفائدة الثانية : النفع والانتفاع

أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة . وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة فيقع في جهاد من المخالطة أن طلب موافقة الشرع فيه - كما ذكرناه في كتاب الكسب - فإن كان معه مال لواء اكتفى به قانعا لآفته فالعزلة أفضل له إذا أنسد طرق المكاسب في الأكثر إلى من المعاصي ، إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة . فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به فهو أفضل من العزلة للاستغلال بالنسافة ، وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق في معرفة الله ومعرفة علوم الشرع ، ولا من الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى والتجرد بها لذكر الله ؛ أعنى من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصرة لآعن أوهام وخيالات فاسدة .

وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة . ففي النواص بقضاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة . ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهي أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل في عزله إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية ، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك لا يعدل به غيره ألبته .

الفائدة الثالثة : التأديب والتأدب

ونعنى به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسرا للنفس وفهرا للشهوات . وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة ، وهي أفضل من العزلة في حق من لم تهذب أخلاقه ولم تدعن لحدود الشرع شهواته ، ولهذا انتدب خدام الصوفية في الرباطات فيخالطون الناس بخدمتهم وأهل السوق للسؤال منهم كسرا لرعونة النفس واستمدادا من بركة دعاء الصوفية المنصرفين بهمهم إلى الله سبحانه . وكان هذا هو المبدأ في الأعصار الحالية والآن قد خالطته الأغراض الفاسدة ومال ذلك عن القانون كما مالت سائر شعائر الدين ، فصار يطلب من التواضع بالخدمة التكشير بالاستتباع والتذرع إلى جمع المال والاستظهار بكثرة الاتباع ، فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ولو إلى القبر ، وإن كانت النية رياضة النفس فهي خير من العزلة في حق المحتاج إلى الرياضة : وذلك مما يحتاج إليه في بداية الإرادة : فبعد حصول الارتياض ينبغي أن يفهم أن الدابة لا يطلب من رياضتها عين رياضتها بل المراد منها أن تتخذ

مركبا يقطع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به في الطريق ، فمن اشتغل طول العمر بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها ، فلا يستفيد منها إلا الخلاص في الحال في عضها ورفسها ورمحها ، وهي لعمري فائدة مقصودة ولكن مثلها حاصل في البهيمة الميته ، وإنما ترد الدابة لفائدة تحصل من حياتها ، فكذلك الخلاص من ألم الشهوات في الحال يحصل بالنوم والموت ، ولا ينبغي أن يقنع به كالراهب الذي قيل له : ياراهب ، فقال : ما أبا راهب إنما أنا كلب عقوق حبست نفسي حتى لا أعقر الناس : وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر الناس ولكن لا ينبغي أن يقتصر عليه ، فإن من قتل نفسه أيضا لم يعقر الناس ، بل ينبغي أن يتشوق إلى الغاية المقصودة بها . ومن فهم ذلك واهتدى إلى الطريق وقدر على السلوك استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة . فأفضل لمثل هذا الشخص المخالطة أولا والعزلة آخرا .

وأما التأديب فإنما نغنى به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم ، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم ، وحاله حال المعلم وحكمه ، ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرق إلى نشر العلم إلا أن مخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض أبعد منها من طلبه العلم ، ولذلك يرى فيهم قلة وفي طلبه العلم كثرة . فينبغي أن يقيس ما تيسر له من الخلوة بما تيسر له من المخالطة وتهذيب القوم ، وليقابل أحدهما بالآخر وليؤثر الأفضل ، وذلك يدرك بدقيق الاجتهاد ويختلف بالأحوال والأشخاص فلا يمكن الحكم عليه مطلقا بنفي ولا إثبات .

الفائدة الرابعة : الاستئناس والإيناس

وهو غرض من يحضر الولايم والدعوات ومواضع المعاشرة والانس ، وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال . وقد يكون ذلك على وجه حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته ، أو على وجه مباح . وقد يستحب ذلك الأمر الدين وذلك فيمن تستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كالانس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى . وقد يتعلق بحظ النفس ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتبهيج دواعي النشاط في العبادة ، فإن القلوب إذا أكرهت عميت ومهما كان في الوحدة وحشة وفي المجالسة انس يروح القلب فهي أولى ، إذ الوفاء في العبادة من حزم العبادة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يمل حتى تملا »^(١) ، وهذا أمر لا يستغنى عنه فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروح ؛ وفي تكليفها الملازمة داعية للفترة وهذا عنى بقوله عليه السلام : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين ولذلك قال ابن عباس : لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس ، وقال مرة : لدخلت بلادا لا أنيس بها ، وهل يفسد الناس إلا الناس ؟ فلا يستغنى المعتزل إذا عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته في اليوم واللييلة ساعة فليجتهد في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سائر ساعاته فقد قال صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدهم من يخالل^(٢) ، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين وحكاية أحوال القلب وشكواه وقصوره عن الثبات على الحق والاهتمام ، إلى الرشد ، ففي ذلك متنفس ومتروح للنفس ، فيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعمارا طويلة ، والراضى عن نفسه مغرور قطعا . فهذا النوع من الاستئناس في بعض أوقات النهار ربما يكون أفضل من العزلة في حق بعض الأشخاص

(١) حديث « ان الله لا يمل حتى تملا » تقدم . (٢) حديث « المرء على دين خليله » تقدم في آداب العجبة .

فليستقد فيه أحوال القلب وأحوال الجليس أو لا ثم ليجالس .

الفائدة الخامسة : في نيل الثواب وإنالته

أما النيل فبحضور الجنائز وعبادة المريض وحضور العيدين ، وأما حضور الجمعة فلا بد منه . وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضا لا رخصة في تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه ، وذلك لا يتفق إلا نادرا . وكذلك في حضور الإملاكات والدعوات ثواب من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم .

وأما إنالته فهو أن يفتح الباب لعوده الناس أو ليعزوه في المصائب أو يهنوه على النعم فإنهم ينالون بذلك ثوابا ، وكذلك إذا كان من العلماء وإذن لهم في الزيارة نالوا ثواب الزيارة ، وكان هو بالتمكين سببا فيه فينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بأفاتها التي ذكرناها ، وعند ذلك قد ترجع العزلة وقد ترجع المخالطة . فقد حكى عن جماعة من السلف مثل مالك وغيره ترك إجابة الدعوات وعبادة المرضى وحضور الجنائز بل كانوا أحلاس بيوتهم لا يخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور ، وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى قبال الجبال تفرغا للعبادة وفرارا من الشواغل .

الفائدة السادسة

من المخالطة التواضع ، فإنه من أفضل المقامات ولا يقدر عليه في الوحدة ، وقد يكون الكبر سببا في اختيار العزلة . فقد روى في الإسرائيليات أن حكيمًا من الحكماء صنف ثلثمائة وستين مصحفا في الحكمة حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة ، فأوحى الله إلى نبيه : قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقا وإني لا أقبل من نفاقك شيئا ، قال : فتخلي وانفرد في سرب تحت الأرض وقال : الآن قد بلغت رضا ربى ، فأوحى الله إلى نبيه قل له : إنك إن تبلغ رضاى حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم ، نخرج فدخل الأسواق وخالط الناس وجالسهم وواكلهم وأكل الطعام بينهم ومشى في الأسواق معهم ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه : الآن قد بلغ رضاى . فكم من معتزل في بيته وباعثه الكبر وممانعه عن المحافل أن لا يوقر أو لا يقدم ، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأتقى لطراوة ذكره بين الناس ، وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة فيتخذ البيت سترا على مقابحه إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبده من غير استغراق وقت الخلوة بذكر أو فكر ، وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا ، ويفرحون بتقرب العوام والسلاطين إليهم واجتماعهم على بابهم وطرقهم وتقبيلهم أيديهم على نسيل التبرك ، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذى يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زياراتهم له ، كحكيماؤه عن الفضيل حيث قال : وهل جئتني إلا لأتزين لك وتزين لى . وعن حاتم الأصم أنه قال للامير الذى زاره : حاجتى أن لا أراك ولا ترانى . فمن ليس مشغولا مع نفسه بذكر الله فاعتزاله عن الناس سببه شدة اشتغاله بالناس ، لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرم إليه بعين الوفاق والاحترام . والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه ، أحدها : أن التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه إذ كان على رضى الله عنه يحمل التمر والملح في ثوبه ويده ويقول :

لا ينقص الكامل من كماله ما جز من نفع إلى عياله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبي وابن مسعود رضى الله عنهم يحملون حزم الحطب وجرب الدقيق على أكتافهم

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول - وهو والى المدينة والخطب على رأسه - طرقتوا لأميركم . وكان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم يشتري الشيء فيحمله إلى بيته بنفسه ؛ فيقول له صاحبه : أعطني أحله فيقول : صاحب الشيء أحق بحمله (١) ، وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يمر بالسؤال وبين أيديهم كسر فيقولون : هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويركب ويقول (إن الله لا يحب المستكبرين) الوجه الثاني : أن الذي شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور لأنه لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً ؛ وأن ضرره ونفعه بيد الله ولا نافع ولا ضار سواه وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأخطأ عليه الناس ، بل رضا الناس غاية لا تتال ، فرضا الله أولى بالطلب . ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى : والله ما أقول لك إلا نصحا إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل ، فانظر ماذا يصلحك فافعله ؟ ولذلك قيل :

من راقب الناس مات غما وفاز بالجنة الجسور

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له : اعمل كذا وكذا - شيء أمره به - فقال : يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس ، فالتفت إلى أصحابه وقال : لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين ؛ عبد تسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالقه ، وأن أحدا لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه . وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالى بأى حال يرويه . وقال الشافعي رحمه الله : ليس من أحد إلا وله محب ومبغض فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله وقيل للحسن : يا أبا سعيد إن قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك وتعنتيك بالسؤال ؛ فتبسم وقال للقائل : هون على نفسك فإنى حدثت نفسي بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت وما حدثت نفسي بالسلامة من الناس لأنى قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم . وقال موسى صلى الله عليه وسلم يارب احبس عني ألسنة الناس فقال : يا موسى هذا شيء لم أصطفه نفسي فكيف أفعله بك ؟ وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزيز : إن لم تطب نفسا بأنى أجعلك علما في أقواء الماضفين لم أكتبك عندى من المتواضعين . فإذا من حبس نفسه في البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه فهو في عناء حاضر في الدنيا (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) فإذا لا تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات بربه ذكرا وفكرا وعبادة وعلميا بحيث لو خالطه الناس لضاعت أوقاته وكثرت آفاته ولتشوشت عليه عباداته . فهذه غوائل خفية في اختيار العزلة ينبغي أن تتقن فإنها مهلكات في صور منجيات .

الفائدة السابعة : التجارب

فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجارى أحوالهم . والعقل الغريزي ليس كافيا في تفهم مصالح الدين والدنيا . وإنما تفيدها التجربة والممارسة ، ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب ؛ فالصبي إذا اعتزل بقي غمرا جاهلا بل ينبغي أن يشتغل بالتعلم ، ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب ويكفيه ذلك ، ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال ولا يحتاج إلى المخالطة . ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك لا يقدر عليه في الخلوة ، فإن كل مجرب في الخلاء يسر ، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه وهذه الصفات مهلكات في أنفسها يجب إمالتها وقهرها ولا يكتفى تسكينها بالتباعد عما يحركها . فمثال القلب المشغون

(١) حديث : كان يشتري الشيء ويحمله إلى بيته بنفسه فيقول له صاحبه أعطني أحله فيقول : صاحب المتاع أحق بحمله أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حله السراويل الذي اشتراه .

بهذه الخبائث مثال دمل ممتلئ^(١) بالصديد والمدة وقد لا يحس صاحبه بألمه ما لم يتحرك أو يمسه غيره ، فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل في نفسه وأعتقد فقده ، ولكن لو حركة محرك أو أصابه مشرط حجام لا تفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المحتق إذا حبس عن الاسترسال ، فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تتفجر منه خباثته إذا حرك . وعن هذا كان السالكون لطريق الآخرة الطالبون لتزكية القلوب يحربون أنفسهم . فمن كان يستشعر في نفسه كبرا سعى في إباطته حتى كان بعضهم يحمل قرية ماء على ظهره بين الناس أو حزمة حطب على رأسه ويتردد في الأسواق ليحرب نفسه بذلك ؛ فإن غوائل النفس ومكايد الشيطان خفية قل من يتفطن لها ولذلك حكى عن بعضهم أنه قال : أعدت صلاة ثلاثين سنة مع أني كنت أصليها في الصف الأول ، ولكن تخلفت يوما بعدد فرأيت موقفا في الصف الأول فوفقت في الصف الثاني فوجدت نفسي تستشعر خجلة من نظر الناس إلى وقد سبقت إلى الصف الأول ، فعلمت أن جميع صلواتي التي كنت أصليها كانت مشوبة بالرياء بمزوجة بلذة نظر الناس إلى ورؤيتهم إياي في زمرة السابقين إلى الخير . فالتحالة لها فائدة ظاهرة عظيمة في استخراج الخبائث وإظهارها . ولذلك قيل : السفر يسفر عن الأخلاق فإنه نوع من المخالطة الدائمة . وستأتي غوائل هذه المعاني ودقائقها في ربيع المهلكات ، فإن بالجهل بها يحبط العمل الكثير وبالعلم بها يزكو العمل القليل ، ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل ، إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراد للصلاة إلا أفضل من الصلاة ، فإننا نعلم أن ما يراد لغيره فإن ذلك الغير أشرف منه ، وقد قضى الشرع بتفضيل العالم على العابد حتى قال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلي على أذن رجل من أصحابي »^(١) ، فمضى تفضيل العلم يرجع إلى ثلاثة أوجه (أحدها) ما ذكرناه (والثاني) عموم النفع لتعدى فائدته والعمل لا تتعدى فائدته (والثالث) أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله فذلك أفضل من كل عمل ، بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الخلق إلى الخالق لتنبه بعد الانصراف إليه لمعرفة ومحبة ، فالعمل وعلم العمل مرادان لهذا العلم ، وهذا العلم غاية المريدين والعمل كالشرط له ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ فالكلم الطيب هو هذا العلم ، والعمل كالحال الرافع له إلى مقصده فيكون المرفوع أفضل من الرافع . وهذا كلام معترض لا يليق بهذا الكلام . فلنرجع إلى المقصود فنقول : إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا خطأ ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله وإلى الخليط وحاله وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائت بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة ، ويقاس الفائد بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل ، وكلام الشافعي رحمه الله هو فصل الخطاب إذ قال يابونس ، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط . فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة ، ويختلف ذلك بالأحوال . وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل . هذا هو الحق الصراح وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر . وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال . والفرق بين العالم والصوفي في ظاهر العلم يرجع إلى هذا وهو أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حاله فلا جرم تختلف أجوبتهم في المسائل ، والعالم هو الذي يدرك الحق على ما هو عليه ولا ينظر إلى حال نفسه فيكشف الحق فيه ، وذلك بما لا يختلف فيه فإن الحق واحد أبدا ، والقاصر عن الحق كثير لا يحصى . ولذلك سئل الصوفية عن الفقر فامن واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر ، وكل ذلك حق

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أذن رجل من أصحابي تقدم في العلم .

بالإضافة إلى حاله وليس بحق في نفسه إذ الحق لا يكون إلا واحدا . ولذلك قال أبو عبدالله الجلاء - وقد سئل عن الفقر - فقال : اضرب بكملك الحائط وقل ربى الله فهو الفقر . وقال الجنيد : الفقير هو الذى لا يسأل أحدا ولا يعارض وإن عورض سكت . وقال سهل بن عبدالله : الفقير الذى لا يسأل ولا يدخر . وقال آخر : هو أن لا يكون لك فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك . وقال إبراهيم الخواص : هو ترك الشكوى وإظهار أثر البلوى . والمقصود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة قلما يتفق منها اثنان ، وذلك كله حق من وجه فإنه خبر كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه . ولذلك لا نرى اثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدما في التصوف أو يثنى عليه ، بل كل واحد منهم يدعى أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه ؛ لأن أكثر ترددهم على مقتضى الأحوال التى تعرض لقلوبهم فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يلتفتون إلى غيرهم . وغور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف . ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم في أدلة الزوال - بالنظر في الظل - فقال بعضهم هو في الصيف قدما ، وحكى عن آخر أنه نصف قدم ، وآخر يرد عليه وأنه في الشتاء سبعة أقدام ، وحكى عن آخر أنه خمسة أقدام ، وآخر يرد عليه ؛ فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم ، فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذى رآه ببلد نفسه ، فصدق في قوله وأخطأ في تخطيطه صاحبه إذ ظن أن العالم كله بلده أو هو مثل بلده ، كما أن الصوفى لا يحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه : والعالم بالزوال هو الذى يعرف علة طول الظل وقصره وعلته واختلافه بالبلاد فيخبر بأحكام مختلفة في بلاد مختلفة ويقول في بعضها لا يبقى ظل ، وفي بعضها يطول ، وفي بعضها يقصر فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة .

ه فإن قلت : فمن أثر العزلة ورآها أفضل له وأسلم فما آدابها في العزلة ؟ فنقول : إنما يطول النظر في آداب المخالطة وقد ذكرناها في كتاب آداب الصحبة . وأما آداب العزلة فلا تطول فينبغي للمعتزل أن ينوى بعزله كشف نفسه عن الناس أولا ، ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانيا ، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثا ، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعا ؛ فهذه آداب نيته . ثم ليسكن في خلوته مواظبا على العلم والعمل والذكر والفكر ليحظى ثمرة العزلة ولينعم الناس عن أن يكثرُوا غشيانَه وزيارته فيشوش أكثر وقته . وليكف عن السؤال عن أخبارهم وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به ، فإن كل ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب ، فوقع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض فلا بد أن ينبت وتتفرع عروقه وأغصانه ويتداعى بعضها إلى بعض . وأحد مهمات المعتزل قطع الوسوس الصارفة عن ذكر الله . والأخبار ينايب الوسوس وأصولها . وليقنع باليسير من المعيشة وإلا اضططره التوسع إلى الناس واحتاج إلى مخالطتهم . وليكن صبورا على ما يلقاه من أذى الجيران وليسد سمعه عن الإصغاء إلى ما يقال فيه من ثناء عليه بالعزلة أو قدح فيه بترك الخلطة ، فإن كل ذلك يؤثر في القلب ولو مدة يسيرة ، وحال اشتغال القلب به لا بد أن يكون واقفا عن سيره إلى طريق الآخرة ، فإن السير إما بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب ، وإما بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوته سمواته وأرضه ، وإما بالتأمل في دقائق الأعمال ومفاسدات القلوب وطلب طرق التحصن منها . وكل ذلك يستدعى الفراغ والإصغاء إلى جميع ذلك بما يشوش القلب في الحال . وقد يتجدد ذكره في دوام الذكر من حيث لا ينتظر . وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح لتستريح نفسه إليه في اليوم ساعة من كد المواظبة ففيه عون على بقية الساعات . ولا يتم له الصبر في العزلة إلا بقطع الظم عن الدنيا

وما الناس منهمكون فيه ، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل بأن لا يقدر لنفسه عمرا طويلا ، بل يصبح على أنه لا يمسي ويمسي على أنه لا يصبح ، فيسهل عليه صبر يوم ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخي الأجل . وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة . وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت . وأن من أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزال الموت أنسه إذ لا يهدم الموت محل الأناش والمعرفة بل يبقى حيا بمعرفته وأنسه فرحا بفضل الله عليه ورحمته ، كما قال الله تعالى في الشهداء ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ وكل متجرد لله في جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت مقبلا غير مدبر ، فالجهاد من جاهد نفسه وهواه ^(١) ، كما صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم . والجهاد الأكبر جهاد النفس كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، يعنون جهاد النفس .

تم كتاب العزلة ، ويتلوه : كتاب آداب السفر ، والحمد لله وحده

كتاب آداب السفر

وهو الكتاب السابع من ربيع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فتح بصر أوليائه بالحكم والعبر ، واستخلص همهم لمشاهدة عجائب صنعه في الحضر والسفر ، فأصبحوا راضين بمجاري القدر مزهين قلوبهم عن التلفت إلى متزهات البصر إلا على سبيل الاعتبار بما يسبح في مسارح النظر ومجاري الفكر ، فاستوى عندهم البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر . والصلاة على محمد سيد البشر وعلى وصحبه المقتفين لآثاره في الأخلاق والسير وسلم كثيرا .

أما بعد : فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه . والسفر سفران : سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والقلوات ، وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات . وأشرف السافرين السفر الباطن . فإن الواقف على الحالة التي نشأ عليها غيب الولادة ، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والاجداد ، لازم درجة القصور وقانع بمرتبة النقص ومستبدل بمسح فضاء ﴿جنة عرضها السموات والأرض﴾ ظلمة السجن وضيق الحبس ، ولقد صدق القائل :

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنعق القادرين على التمام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه في خطب خطير لم يستغن فيه عن دليل وخفير ، فاقتضى غموض السبيل وفقد الخفير والدليل وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل ، اندرس مسالكهم . فانقطع فيه الرفاق وخلا عن الطائفين متزهات الأنفس والملكوت والآفاق . وإليه دعا الله سبحانه بقوله ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وعلى القعود عن هذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى ﴿ وإنكم لتتزون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ وبقوله سبحانه ﴿ وكأين

(١) حديث « الجاهد من جاهد نفسه وهواه » أخرجه الحاكم من حديث فضالة بن عبيد وصححه دون قوله « وهواه » وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصلوة .

من آية في السموات والأرض يتركون عليها وهم عنها معرضون ﴿ فمن يسر له هذا السفر لم يزل في سيره متنوها في جنة عرضها السموات والأرض وهو ساكن بالبدن مستقر في الوطن . وهو السفر الذي لا تضيق فيه المناهل والموارد ولا يضرب فيه التزاحم والتوارد ، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه وتنضاعف ثمراته وفوائده ؛ فغنائمه دائمة غير ممنوعة وثمراته متزايدة غير مقطوعة إلا إذا بدا للمسافر فترة في سفره ووقفة في حركته فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا زاغوا أزاع الله قلوبهم وما الله بظلام للعبيد ، ولكنهم يظلمون أنفسهم ومن لم يؤهل للجولان في هذا الميدان والتطواف في متنزهات هذا البستان ربما سافر بظاهر بدنه في مدة مديدة فراسخ معدودة مغتنيا بها تجارة الدنيا أو ذخيرة للآخرة ، فإن كان مطلبه العلم والدين أو الكفاية للاستعانة على الدين كان من سالكي سبيل الآخرة ، وكان له في سفره شروط وآداب إن أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان ، وإن واطب عليها لم يخل سفره عن فوائد تلحقه بعمال الآخرة ، ونحن نذكر آدابه وشروطه في بابين إن شاء الله تعالى . (الباب الأول) في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائده وفيه فصلان . (الباب الثاني) فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات .

الباب الأول

في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائده وفيه فصلان :

الفصل الأول : في فوائد السفر وفضله ونيته

اعلم أن السفر نوع حركة ومخالطة ، وفيه فوائد وله آفات - كما ذكرناه في كتاب الصحة والعزلة . والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب . فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه ، وإما أن يكون له مقصد ومطلب .

والمهرب عنه إما أمر له نكايته في الأمور الدنيوية . كالطاعون والوباء إذا ظهر ببلد أو خوف سببه فتنة أو خصومة أو غلاء سعر . وهو إما عام كما ذكرناه أو خاص كمن يقصد بأذية في بلدة فيهرب منها . ولما أمر له نكايته في الدين كمن ابتلى في بلده بجاه ومال واتساع أسباب تصده عن التجرد لله ، فيؤثر الغربة والخول ويحتجب السعة والجاه ، أو كمن يدعى إلى بدعة فهرا أو إلى ولاية عمل لا تحمل مباشرته فيطلب الفرار منه .

وأما المطلوب فهو إما دنيوي كالمال والجاه أو ديني ، والديني إما علم وإما عمل .

والعلم إما علم من العلوم الدينية وإما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة ؛ وإما علم بآيات الأرض وعجائبها كسفر ذي القرنين وطوافه في نواحي الأرض .

والعمل إما عبادة وإما زيارة . والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد . والزيارة أيضا من القربات وقد يقصد بها مكان كسكة والمدينة وبيت المقدس . والثغور فإن الرباط بها قرينة . وقد يقصد بها الأولياء والعلماء وهم إما موق فتزار قبورهم وإما أحياء فيتبرك بمشاهدتهم ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قوة الرغبة في الاقتداء بهم .

فهذه هي أقسام الأسفار ويخرج من هذه القسمه أقسام :

القسم الأول : السفر في طلب العلم ، وهو إما واجب وإما نفل وذلك بحسب كون العلم واجبا أو نفلا . وذلك

العلم إما علم بأمور دينه أو بأخلاقه في نفسه أو بآيات الله في أرضه . وقد قال عليه السلام « من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع »^(١) ، وفي خبر آخر « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة »^(٢) ، وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد . وقال الشعبي : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعا . ورحل جابر بن عبد الله من المدينة إلى مصر مع عشرة من الصحابة فساروا شهرا في حديث بلغهم عن عبد الله أنيس الأنصاري يتحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعوه^(٣) وكل مذكور في العلم يحصل له - من زمان الصحابة إلى زماننا هذا - لم يحصل العلم إلا بالسفر وسافر لأجله ، وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك أيضا مهم فإن طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق وتهذيبه : ومن لا يطلع على أسرار باطنه وخبائث صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها . وإنما السفر هو الذي يسفر عن أخلاق الرجال وبه يخرج الله الخبء في السموات والأرض وإنما سمي السفر - سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق : ولذلك قال عمر رضي الله عنه للذي زكى عنده بعض اليهود : هل صحبتك في السفر الذي يستدل به على مكارم أخلاقه ؟ فقال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه . وكان بشر يقول : يا معشر القراء سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا ساح طاب ، وإذا طال مقامه في موضع تغير . وبالجملة فإن النفس في الوطن مع موافاة الأسباب لا تظهر خباثت أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة ، فإذا حملت وعثاء السفر وصرفت عن مألوفاتها المعتادة وامتحنحت بمشاق الغربة انكشفت غوائلها ووقع الوقوف على عيوبها فيمكن الاشتغال بعلاجها . وقد ذكرنا في كتاب العزلة فوائد المخالطة والسفر مخالطة مع زيادة اشتغال واحتمال مشاق .

وأما آيات الله في أرضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر ، ففيها قطع متجاورات وفيها الجبال والبراري والبحار وأنواع الحيوان والنبات ، وما من شيء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ومسبح له بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد . وأما الجاحدون والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فإنهم لا يبصرون ولا يسمعون لأنهم عن السمع معزولون وعن آيات ربهم محجوبون ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ وما أريد بالسمع السمع الظاهر - فإن الذين أريدوا به ما كانوا معزولين عنه - وإنما أريد به السمع الباطن ولا يدرك بالسمع الظاهر إلا الأصوات . ويشارك الإنسان فيه سائر الحيوانات . فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذي هو لفظ وراء نطق المقال يشبه قول القائل - حكاية لكلام الوجد والحائط - قال الجدار للوئد : لم تشقني ؟ فقال : سل من يدقني ، ولم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي . وما من ذرة في السموات والأرض إلا ولها أنواع شهادات لله تعالى بالوحدانية هي توحيدها ، وأنواع شهادات لصانعها بالتقدس هي تسبيحها ، ولكن لا يفقهون تسبيحها - لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن ومن ركك لسان المقال

كتاب آداب السفر

الباب الأول . في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع

(١) حديث « من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب (٢) حديث « من سلك طريقا يلتمس فيه علما ... الحديث » رواه مسلم وتقدم في العلم (٣) حديث : رحل جابر ابن عبد الله من المدينة إلى مسيرة شهر في حديث بلغه عن عبد الله بن أنيس . أخرجه الخطيب في كتاب الرحلة بإسناد حسن ولم يسم الصحابي وقال البخاري في صحيحه : رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد ورواه أحمد إلا أنه قال إلى الشام وإسناده حسن ، ولأحمد أن أبا أيوب ركب إلى عقبة بن عامر إلى مصر في حديث ، وله أن عقبة بن عامر أتى سلمة بن مخلد وهو أمير مصر في حديث آخر وكلاهما منقطع .

إلى فصاحة لسان الحال - ولو قدر كل عاجز على مثل هذا السير لما كان سليمان عليه السلام محتصا بفهم منطق الطير ولما كان موسى عليه السلام محتصا بسماع كلام الله تعالى الذي يجب تفديسه عن مشابهة الحروف والأصوات . ومن يسافر ليستقرئ هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجحادات لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقر في موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسييح من آحاد الذرات ، فماله وللتردد في القلوات وله غنية في ملكوت السموات ؟ فالشمس والقمر والنجوم بأمره مسخرات . وهى إلى أبصار ذوى البصائر مسافرات في الشهر والسنة مرات ، بل هى دائمة في الحركة على توالى الأوقات . فن الغرائب أن يدأب في الطواف بآحاد المساجد من أمرت الكعبة أن تطوف به ، ومن الغرائب أن يطوف في أكفاف الأرض من يطوف به أقطار السماء . ثم مادام المسافر مفتقرا إلى أن يبصر عالم الملك والشهادة بالبصر الظاهر فهو بعد في المنزل الأول من منازل السائر إلى الله والمسافرين إلى حضرته ، وكأنه معتكف على باب الوطن لم يفيض به المسير إلى متسع الفضاء ، ولا سبب لطول المقام في هذا المنزل إلا الجبن والقصور . ولذلك قال بعض أرباب القلوب : إنَّ الناس ليقولون افتحوا أعينكم حتى تبصروا ، وأنا أقول : غمضوا أعينكم حتى تبصروا ، وكل واحد من القولين حق إلا أنَّ الأول خبر عن المنزل الأول القريب من الوطن ، والثاني خبر عما بعده من المنازل البعيدة عن الوطن التي لا يطؤها إلا مخاطر بنفسه ؛ والمجاوز إليها ربما يقيه فيها سنين وربما يأخذ التوفيق بيده فيرشده إلى سواء السبيل ، والهالكون في التيه هم الأكثر من ركاب هذه الطريق ولكن السائحون بنور التوفيق فازوا بالنعيم والملك المقيم وهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، واعتبر هذا الملك بملك الدنيا فإنه يقل بالإضافة إلى كثرة الخلق طلابه ، ومهما عظم المطلوب قل المساعد . ثم الذى يهلك أكثر من الذى يملك . ولا يتصدى لطلب الملك العاجز الجبان لعظيم الخطر وطول التعب :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وما أودع الله العز والملك في الدين والدنيا إلا في حيز الخطر . وقد يسمى الجبان الجبن والقصور باسم الحزم والحدركا قيل :

ترى الجبناء أنَّ الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللثيم

فهذا حكم السفر الظاهر إذا أريد به السفر الباطن بمطالعة آيات الله في الأرض .

فلنرجع إلى الغرض الذى كنا نقصده ولنبين القسم الثانى : وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد وقد ذكرنا فضل ذلك وآدابه وأعماله الظاهرة والباطنة في كتاب أسرار الحج ، ويدخل في جملة زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء ، وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته . ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ولا يمنع من هذا قوله عليه السلام « لا تشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ^(١) » ، لأن ذلك في المساجد ، فإنها متماثلة بعد هذه المساجد ، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله .

وبالجملة زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات . والفائدة من زيارة الأحياء طلب بركة الدعاء وبركة النظر إليهم

(١) حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ... الحديث » تقدم في الحج .

فإن النظر إلى وجوه العلماء والصلحاء عبادة . وفيه أيضا حركة للرغبة في الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وآدابهم؛ هذا سوى ما ينتظر من الفوائد العلمية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم كيف وبمجرد زيارة الإخوان في الله فيه فضل؟ كما ذكرناه في كتاب الصحبة . وفي التوراة : سر أربعة أميال زر أخا في الله .

وأما البقاع فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة وسوى الثغور للرباط بها ، فالحديث ظاهر في أنه لا تشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى المساجد الثلاثة . وقد ذكرنا فضائل الحرمين في كتاب الحج .

وبيت المقدس أيضا له فضل كبير . خرج ابن عمر من المدينة قاصدا بيت المقدس حتى صلى فيه الصلوات الخمس ثم كر راجعا من الغد إلى المدينة . وقد سأل سليمان عليه السلام ربه عز وجل : أن من قصد هذا المسجد لا يعنيه إلا الصلاة فيه ؛ أن لا تصرف نظرك عنه مادام مقبيا فيه حتى يخرج منه ؛ وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه فأعطاه الله ذلك .

القسم الثالث : أن يكون السفر للهرب من سبب مشقوش للدين . وذلك أيضا حسن فالفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين .

ومما يجب الهرب منه الولاية والجاه وكثرة العلائق والأسباب فإن كل ذلك يشوش فراغ القلب ، والدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله ، فإن لم يتم فراغه فلا يتصور أن يشتغل بالدين . ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ؛ ولكن يتصور تخفيفها وتثقيلها وقد نجا المخفون وهلك المثقلون . والحمد لله الذي لم يعلق النجاة بالفراغ المطلق عن جميع الأوزار والأعباء ، بل قبل الخف بفضله وشمله بسعة رحمته . والخف هو الذي ليست الدنيا أكبر همه ، وذلك لا يتيسر في الوطن لمن اتسع جاهه وكثرت علاقته ، فلا يتم مقصوده إلا بالغربة والحنول وقطع العلائق التي لا بد منها حتى يروض نفسه مدة مديدة . ثم ربما يمدّه الله بمعونته فينعم عليه بما يقوى به يقينه ويطمئن به قلبه فيستوى عنده الحضر والسفر ويتقارب عنده وجود الأسباب والعلائق وعدمها فلا يصده شيء منها عما هو بصده من ذكر الله ، وذلك مما يعز وجوده جدا بل الغالب على القلوب الضعف والقصور عن الاتساع للخلق والخلق ، وإنما يسعد بهذه القوة الأنبياء والأولياء ، والوصول إليها بالكسب شديد وإن كان للاجتهاد والكسب فيها مدخل أيضا . ومثال تفاوت القوة الباطنة فيه كتفاوت القوة الظاهرة في الأعضاء ، فرب رجل قوى ذي مرة سوى شديد الأعصاب محكم البنية يستقل بحمل ما وزنه ألف رطل مثلا ، فلو أراد الضعيف المريض أن ينال رتبته بممارسة الحمل والتدريج فيه قليلا قليلا لم يقدر عليه ، ولكن الممارسة والجهد يزيد في قوته زيادة ما وإن كان ذلك لا يبلغه درجته فلا ينبغي أن يترك الجهد عند اليأس عن الرتبة العليا فإن ذلك غاية الجهل ونهاية الضلال . وقد كان من عادة السلف رضي الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن . وقال سفيان الثوري : هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل فكيف على المشتهرين ؟ هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد كلما عرف في موضع تحول إلى غيره . وقال أبو نعيم : رأيت سفيان الثوري وقد علق قلته بيده ووضع جرابه على ظهره فقلت : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : بلغنى عن قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها ، فقلت له : وتفعل هذا ؟ قال : نعم إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها فإنه أسلم لدينك وأقل لعمرك وهذا هرب من غلاء السعر . وكان سرى السقطي يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء فقد خرج أذار وأورقت الأشجار وطاب الانتشار فانتشروا . وقد كان الخواص لا يقيم ببلد أكثر من أربعين يوما . وكان من المتوكلين ويرى الإقامة اعتمادا على الأسباب قادحا في التوكل . وسيأتي أسرار

الاعتماد على الأسباب في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى .

القسم الرابع : السفر هرباً مما يقدح في البدن كالطاعون ، أو في المال كعلاء السر أو مايجرى مجراه . ولا حرج في ذلك بل ربما يجب الفرار في بعض المواضع ، وربما يستحب في بعض بحسب وجوب مايرتب عليه من الفوائد واستجابته ، ولكن يستثنى منه الطاعون فلا ينبغي أن يفتر منه لورود النهي فيه . قال أسامة بن زيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الوجع - أو السقم - رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ، ثم بقي بعد في الأرض منه ^(١) » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فناء أمتي بالطعن والطاعون فقلت : هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون ؟ قال : غدة كعدة البعير تأخذهم في مراقبهم ، المسلم الميت منه شهيد والمقيم عليه المحتسب كالمرباط في سبيل الله ، والفاز منه كالفاز من الزحف ^(٢) » وعن مكحول عن أم أيمن قالت . أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه ، لا تشرك بالله شيئاً وإن عذبت أو حرقت وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من كل شيء هو لك فاخرج منه . ولا تترك الصلاة عمداً فإن من ترك الصلاة عمداً فقد برئت ذمة الله منه ، وإياك والخمر فإنها مفتاح كل شر : وإياك والمعصية فإنها تسخط الله ، ولا تنفر من الزحف ، وإن أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاقبض فيهم ، أنفق من طولك على أهل بيتك ولا ترفع عصاك عنهم أخفهم بالله ^(٣) » فهذه الأحاديث تدل على أن الفرار من الطاعون منهي عنه وكذلك القدوم عليه . وسيأتي شرح ذلك في كتاب التوكل .

فهذه أقسام الأسفار وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى مذموم وإلى محمود وإلى مباح . والمذموم ينقسم إلى حرام كإيقاع العبد وسفر العاق ، وإلى مكروه كالخروج من بلد الطاعون . والمحمود ينقسم إلى واجب كاللحج وطلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم ، وإلى مندوب إليه كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم . ومن هذه الأسباب تدبير النية في السفر فإن معنى النية الانبعاث للسبب الباعث والانتهاض لإجابة الداعية . ولتكن نيته الآخرة في جميع أسفاره ، وذلك ظاهر في الواجب والمندوب ؛ ومحال في المكروه والمحذور .

وأما للمباح فرجعه إلى النية . فهما كان قصده بطلب المال مثلاً التعفف عن السؤال ورعاية ستر المروءة على الأهل والعيال والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة . ولو خرج إلى الحج وباعته الزياء والسمعة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة لقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات ^(٤) » فقوله صلى الله عليه وسلم الأعمال بالنيات عام في الواجبات والمندوبات والمباحات دون المحظورات فإن النية لا تؤثر في إخراجها عن كونها من المحظورات : وقد قال بعض السلف : إن الله تعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطى كل واحد على قدر نيته . فمن كانت نيته الدنيا أعطى منها ونقص من آخرته أضعافه ؛ وفرق عليه همه وكثر بالحرص والرغبة شغله . ومن كانت نيته الآخرة أعطى من البصيرة والحكمة والفطنة وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته وجمع له همه ودعت له الملائكة واستغفرت له .

وأما النظر في أن السفر هو الأفضل أو الإقامة ، فذلك يضاهي النظر في أن الأفضل هو العزلة أو المخالطة ؟

(١) حديث أسامة بن زيد « إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ... الحديث » متفق عليه واللفظ لمسلم .

(٢) حديث عائشة « إن فناء أمتي بالطعن والطاعون ... الحديث » رواه أحمد وابن عبد البر في التمهيد بإسناد جيد .

(٣) حديث أم أيمن : أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أهله « لا تشرك بالله شيئاً وإن حرقت بالنار » أخرجه البيهقي وقال فيه إرسال .

(٤) حديث « الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم .

(٣٢ - إحياء علوم الدين - ٢)

وقد ذكر منهاجه في كتاب العزلة فليفهم هذا منه فإن السفر نوع مخالطة مع زيادة لعب ومشقة تفرق الهم وتشتت القلب في حق الأكثرين . والأفضل في هذا ما هو الأعون على الدين : ونهاية ثمرة الدين في الدنيا تحصيل معرفة الله تعالى وتحصيل الأنس بذكر الله تعالى ، والأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر . ومن لم يتعلم طريق الفكر والذكر لم يتمكن منهما . والسفر هو المعين على التعلم في الابتداء . والإقامة هي المعينة على العمل بالعمل في الانتهاء . وأما السياحة في الأرض على الدوام فمن المشوشات للقلب إلا في حق الأقوياء ، فإن المسافر وماله لعل قلق إلا ما وفق الله ، فلا يزال المسافر مشغول القلب تارة بالخوف على نفسه وماله ، وتارة بمفارقة ما ألفه واعتاده في إقامته . وإن لم يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى الخلق فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر ، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع . ثم الشغل بالحط والترحال مشوش لجميع الأحوال ، فلا ينبغي أن يسافر المرید إلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدى به في سيرته وتستفاد الرغبة في الخير من مشاهدته ، فإن اشتغل بنفسه واستبصر وانفتح له طريق الفكر أو العمل فالكسوف أولى به ، إلا أن أكثر متصوفة هذه الأعصار - لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار ودقائق الأعمال ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره في الخلوة وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين - قد ألفوا البطالة واستقلوا العمل ، واستوعروا طريق الكسب واستلأوا جانب السؤال والكدية ، واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد ، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم واستخفوا عقولهم وأديانهم : من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة وانتشار الصيت واقتناص الأموال بطريق السؤال لتعلا بكثرة الاتباع ، فلم يكن لهم في الخانقاهات حكم ناقد ، ولا تأديب للمريد بنافع ، ولا حجر عليهم قاهر ، فبسوا المرقعات واتخذوا في الخانقاهات متزهات ، وربما تلفقوا ألفاظا مزخرفة من أهل الطامات ، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم في خرقتهم وفي سياحتهم وفي لفظهم وعبارتهم وفي آداب ظاهرة من سيرتهم ، فيظنون بأنفسهم خيرا ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ويعتقدون أن كل سوداء تمر ، ويتوهمون أن المشاركة في الظاهر توجب المساهمة في الحقائق وهيئات ! فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم ؟ فهؤلاء بنضاء الله فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ . ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ ، إلا من سافر لحج أو عمرة في غير رياء ولا سمعة ، أو سافر لمشاهدة شيخ يقتدى به في علمه وسيرته وقد خلت البلاد عنه الآن . والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت إلا التصوف فإنه قد انمحق بالسكينة وبطل ، لأن العلوم لم تتدرس بعد ، والعالم وإن كان عالم سوء فإنما فساد في سيرته لا في علمه ، فيبقى عالم غير عامل بعلمه ، والعمل غير العلم . وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى واستحقار ماسوى الله . وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح . ومهما فسد العمل فات الأصل . وفي أسفار هؤلاء نظر للفقهاء من حيث إنه إتعاب للنفس بلا فائدة ، وقد يقال إن ذلك ممنوع . ولكن الصواب عندنا أن نحكم بالإباحة فإن حظوظهم التفرج عن كرب البطالة بمشاهدة البلاد المختلفة ، وهذه الحظوظ وإن كانت خسيسة فنفس المتحركين لهذه الحظوظ أيضا خسيسة ، ولا بأس بإتعاب حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به ويعود إليه ، فهو المتأذى والمتلذذ . والفتوى تقتضى تشتيت العوام في المباحات التي لا نفع فيها ولا ضرر : فالساجدون في غير مهم في الدين والدنيا بل لمحض التفرج في البلاد كالبهايم المترددة في الصحارى فلا بأس بسياحتهم ما كفوا عن الناس شرهم ولم يلبسوا على الخلق حالهم ، وإنما عصيانهم في التلبيس والسؤال على اسم التصوف والأكل من الأوقاف التي وقفت على الصوفية ، لأن الصوفي عبارة عن رجل صالح عدل في دينه مع صفات أخر

وراء الصلاح ، ومن أقل صفات أحوال هؤلاء أكلهم أموال السلاطين ، وأكل الحرام من الكبار فلا تبقى معه العدالة والصلاح ، ولو تصور صوفي فاسق لتصور صوفي كافر وفقه يهودى . وكما أن الفقيه عبارة عن مسلم مخصوص فالصوفي عبارة عن عدل مخصوص لا يقتصر في دينه على القدر الذى يحصل به العدالة . وكذلك من نظر إلى ظواهرهم ولم يعرف بواطنهم وأعطاهم من ماله على سبيل التقرب إلى الله تعالى حرم عليهم الأخذ وكان مأكلوه سحتا ، وأغنى به إذا كان المعطى بحيث لو عرف بواطن أحوالهم ما أعطاهم : فأخذ المال بإظهار التصوف من غير اتصاف بحقيقته كأخذه بإظهار نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الدعوى ، ومن زعم أنه علوى وهو كاذب وأعطاء مسلم مالا لحبه أهل البيت ولو علم أنه كاذب لم يعطه شيئا فأخذه على ذلك حرام ، وكذلك الصوفي . ولهذا احترز المحتاطون عن الأكل بالدين فإن المبالغ في الاحتياط لدينه لا ينفك في باطنه عن عورات لو انكشفت للراغب في مواساته لفترت رغبته عن المواساة . فلا جرم كانوا لا يشترطون شيئا بأنفسهم مخافة أن يساحوا لأجل دينهم فيكونوا قد أكلوا بالدين . وكانوا يولكون من يشتري لهم ويشترطون على الوكيل أن لا يظهر أنه لمن يشتري . نعم إنما يحل أخذ ما يعطى لأجل الدين إذا كان الأخذ بحيث لو علم المعطى من باطنه ما يعطيه الله تعالى لم يقتض ذلك فتورا في رأيه فيه ، والعاقل المنصف يعلم من نفسه أن ذلك ممتنع أو عزيز ؛ والمغرور الجاهل بنفسه أخرى بأن يكون جاهلا بأمر دينه : فإن أقرب الأشياء إلى قلبه قلبه فإذا التبس عليه أمر قلبه فكيف ينكشف له غيره ؟ ومن عرف هذه الحقيقة لزمه لا محالة أن لا يأكل إلا من كسبه ليأمن من هذه الغائلة ، أو لا يأكل إلا من مال من يعلم قطعا أنه لو انكشف له عورات باطنه لم يمنعه ذلك عن مواساته . فإن اضطر طالب الحلال ومريد طريق الآخرة إلى أخذ مال غيره فليصرح له ، وليقل إنك إن كنت تعطينى لما تعتقده في من الدين فلست مستحقا لذلك ، ولو كشف الله تعالى سترى لم ترني بعين التوقير ، بل اعتقدت أني شر الخلق أو من شرارهم ، فإن أعطاه مع ذلك فليأخذ ، فإنه ربما يرضى منه هذه الخصلة وهو اعترافه على نفسه بركاكة الدين وعدم استحقاقه لما يأخذه . ولكن ههنا مكيدة للنفس بيئة ومخادعة فليتفطن لها ، وهو أنه قد يقول ذلك مظهرا أنه متشبه بالصالحين في ذمهم نفوسهم واستحقاقهم لها ونظرم إليها بعين المقت والازدراء ، فتكون صورة الكلام صورة القدح والازدراء وباطنه وروحه هو عين المدح والإطراء ، فكم من ذام نفسه وهو لها مباح بعين ذمه ، فذم النفس في الخلوة مع النفس هو المحمود . وأما الذم في الملاء فهو عين الرياء إلا إذا أوردته إرادا يحصل للمستمع يقينا بأنه مقترف للذنوب ومعتزف بها . وذلك مما يمكن تفهيمه بقرائن الأحوال ويمكن تليسه بقرائن الأحوال . والصادق بينه وبين الله تعالى يعلم أن مخادعته لله عز وجل أو مخادعته لنفسه محال ، فلا يتعذر عليه الاحتراز عن أمثال ذلك . فهذا هو القول في أقسام السفر ونية المسافر وفضيلته .

الفصل الثاني

في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه وهي أحد عشر آدبا

الأول : أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون واعداد النفقة لمن تلزمه نفقته . وبرد الودائع إن كانت عنده ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب ، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقاته . قال ابن عمر رضي الله عنهما من كرم الرجل طيب زاده في سفره . ولا بد في السفر من طيب الكلام وإطعام الطعام وإظهار مكارم الأخلاق في السفر ، فإنه يخرج خبايا الباطن . ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر : وقد يصلح في الحضر من لا يصلح في السفر . ولذلك

قيل : إذا أتى على الرجل معاملوه في الحضر ورفقاؤه في السفر فلا تشكوا في صلاحه . والسفر من أسباب الضجر ، ومن أحسن خلقه في الضجر فهو الحسن الخلق ، وإلا فعند مساعدة الأمور على وفق الغرض قلما يظهر سوء الخلق .

وقد قيل ثلاثة لا يلامون على الضجر : الصائم والمريض والمسافر ، وتتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكارى ومعاونة الرفقة بكل ممكن والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلا بالإعانة بركوب أو زاد أو توقف لأجله . وتتمام ذلك مع الرفقاء بزاح ومطايبة في بعض الأوقات من غير فحش ولا معصية ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه .

الثاني : أن يختار رفيقا فلا يخرج وحده ، فالرفيق ثم الطريق . وليكن رفيقه بمن يعينه على الدين فيذكره إذا نسي ويعينه ويساعده إذا ذكر ، فإن المرء على دين خليله ولا يعرف الرجل إلا برفيقه . وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن أن يسافر الرجل وحده ^(١) وقال : « الثلاثة نفر » ^(٢) وقال أيضا : « إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمروا أحداكم ^(٣) ، وكانوا يفعلون ذلك ويقولون : هذا أميرنا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) . وليؤمروا أحسنهم أخلاقا وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم إلى الإيثار وطلب الموافقة . وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر ، ولانظام إلا في الوحدة ولا فساد إلا في الكثرة . وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ومهما كان المدبر واحدا انتظم أمر التدبير . وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور في الحضر والسفر ، إلا أن مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام كأمر البلد . وأمير خاص كمر الدار . وأما السفر فلا يتعين له أمير إلا بالتأخير . فلهذا وجب التأخير ليجمع شتات الآراء . ثم على الأمير أن لا ينظر إلا لمصلحة القوم وأن يجعل نفسه وقاية لهم ، كما نقل عن عبد الله المروزي أنه صحبه أبو علي الرباطي فقال : « على أن تكون أنت الأمير أو أنا ، فقال : بل أنت ، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي علي على ظهره فأمرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه وفي يده كسا ، يمنع عنه المطر فكلما قال له عبد الله : لا تفعل ، يقول ، ألم تقل إن الإمارة مسلبة لي ؟ فلا تتحكم على ولا ترجع عن قولك : حتى قال أبو علي : وددت أني مت ولم أقل له أنت الأمير ، فهكذا ينبغي أن يكون الأمير . وقد قال صلى الله عليه وسلم ، خيرا لأصحاب أربعة ^(٥) ، وتخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد لا بد أن يكون له فائدة ، والذي ينقدح فيه أن المسافر لا يخلو عن رجل يحتاج إلى حفظه وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها ، ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد في الحاجة واحدا فيبقى في السفر بلا رفيق ، فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب لفقد أنس الرفيق ، ولو تردد في الحاجة اثنان لكان الحافظ للرجل واحدا ، فلا يخلو أيضا عن الخطر وعن ضيق الصدر . فإذا ن مادون الأربعة لا يفي بالمقصود ، وما فوق الأربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة واحدة فلا ينعقد بينهم الترافق ، لأن الخامس زيادة بعد الحاجة ، ومن يستغنى عنه لا تنصرف إليه فلا تتم المرافقة معه . نعم في كثرة الرفقاء فائدة للأمن من المخاوف

(١) حديث : انتهى عن أن يسافر الرجل وحده . أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند صحيح وهو عند البخاري بلفظ « لو يعلم الناس مافي الوحدة ماسار راكب بلبيل وحده » . (٢) حديث « الثلاثة نفر » رويناه من حديث علي في وصيته المشهورة وهو حديث موضوع والمعروف « الثلاثة ركب » رواه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . (٣) حديث « إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحداكم » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن . (٤) حديث : كانوا يفعلون ذلك ويقولون هو أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه الزوار والحاكم عن عمر أنه قال : « إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا عليكم أحداكم ذا أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين . (٥) حديث « خير الأصحاب أربعة » أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عباس قال الترمذي حسن غريب وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

ولكن الأربعة خير للرفقة الخاصة لا للرفقة العامة . وكمن رفيق في الطريق عند كثرة الرفاق لا يكلم ولا يخالط إلى آخر الطريق للاستغناء عنه .

الثالث : أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء : وليدع عند الرءاع بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم : صحبت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة حرسها الله ، فلما أردت أن أفارقه شيعني وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، قال لقمان إن الله تعالى إذا استودع شيئاً حفظه وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك ^(١) ، وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل له في دعائهم البركة ^(٢) ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ودع رجلاً قال : زدوك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك إلى الخير حيث توجهت ^(٣) ، فهذا دعاء المقيم للودع . وقال موسى بن وردان : أتيت أبا هريرة رضي الله عنه أودعه لسفر أردته . فقال ألا أعلمك يا ابن أخي شيئاً علمنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الوداع ، فقلت بلى قال قل : أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه ^(٤) ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني أريد سفراً فأوصني فقال له : في حفظ الله وفي كنفه زدوك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث كنت أو أينما كنت ^(٥) ، شك فيه الراوى .

وينبغي إذا استودع الله تعالى ما يخلقه أن يستودع الجمع ولا يخص . فقد روى أن عمر رضي الله عنه كان يعطى الناس عطاياهم إذ جاءه رجل معه ابن له فقال له عمر : ما رأيت أشبه بأحد من هذابك ؟ فقال له الرجل : أحدثك عنه يا أمير المؤمنين بأمر ، إني أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به فقالت : تخرج وتدعنى على هذه الحالة ؟ فقلت : أستودع الله ما في بطنك ، فخرجت ثم قدمت فإذا هى قد ماتت ، فجلسنا نتحدث فإذا نار على قبرها فقلت للقوم : ماهذه النار ؟ فقالوا : هذه النار من قبر فلانة نراها كل ليلة ، فقلت : والله إنها كانت لصوامه قوامه ، فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فخرنا فإذا سراج وإذا هذا الغلام يدب ، فقيل لى إن هذه وديعتك ولو كنت استودعت أمه لوجدتها ، فقال عمر رضي الله عنه : لهو أشبه بك من الغراب بالغراب .

الرابع : أن يصلى قبل سفره صلاة الاستخارة كما وصفناها في كتاب الصلاة . ووقت الخروج يصلى لأجل السفر ، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي فإلى أى الثلاثة أدفعها ؟ إلى ابني أم أخى أم أبى : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصلين في بيته إذا شد عليه ثياب سفره ، يقرأ فيهن بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول : اللهم إني أتقرب بهن إليك فأخلفني بهن في أهلى ومالى فهى خليفة أهلى وماله وحرز حول داره حتى يرجع إلى أهله ^(٦) .

(١) حديث ابن عمر : قال لقمان إن الله إذا استودع شيئاً حفظه وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك . أخرجه النسائي في اليوم واليلة ورواه أبو داود مختصراً وإسناده جيد . (٢) حديث زيد بن أرقم : « إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل له في دعائهم البركة » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف . (٣) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : « كان إذا ودع رجلاً قال زدوك الله التقوى » . رواه الحارثي في مكارم الأخلاق والحاملي في الدعاء وفيه ابن لهيعة . (٤) حديث أبي هريرة : « أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه » . أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم واليلة بإسناد حسن . (٥) حديث أنس : « في حفظ الله وفي كنفه زدوك الله التقوى ... الحديث » تقدم في الحج في الباب الثانى . (٦) حديث أنس : أن رجلاً قال لى نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي فإلى أى الثلاثة أدفعها ؟ إلى أبى أم أخى أم امرأتى فقال : « ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات ... الحديث » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق وفيه من لا يعرف .

الخامس : إذا حصل على باب الدار فليقل : بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على ، فإذا مشى قال : اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت اللهم أنت ثقة وأنت رجائي فاكفني مأثمى وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك اللهم زدني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير أينما توجهت . وليدع بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه . فإذا ركب الدابة فليقل : بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإننا إلى ربنا لمنقلبون . فإذا استوت الدابة تحته فليقل ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور .

السادس : أن يرحل عن المنزل بكرة . روى جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم رحل يوم الخميس وهو يريد تبوك وقال : اللهم بارك لأمي في بكورها ^(١) : ويستحب أن يبتدىء بالخروج يوم الخميس ، فقد روى عبدالله بن كعب بن مالك عن أبيه قال : قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس ^(٢) . وروى أنس : أنه صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك لأمي في بكورها يوم السبت ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية بعثها أول النهار ^(٣) . وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال ، اللهم بارك لأمي في بكورها يوم خميسها ^(٤) ، وقال عبد الله بن عباس : إذا كان لك إلى رجل حاجة فاطلبها منه نهاراً ولا تطلبها ليلاً واطلبها بكرة ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، اللهم بارك لأمي في بكورها ^(٥) .

ولا ينبغي أن يسافر بعد طلوع الفجر من يوم الجمعة فيكون عاصياً بترك الجمعة ، واليوم منسوب إليها - فكان أوله من أسباب وجوبها . والتشجيع للوداع مستحب وهو سنة قال صلى الله عليه وسلم « لأن أشيع مجاهد في سبيل الله فأكتفه على رحلته غدوة أو زوحة أحب إلى الدنيا وما فيها » ^(٦) .

السابع : أن لا ينزل حتى يحمى النهار فهي السنة ويكون أكثر سيره بالليل . قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالدجلة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار » ^(٧) ، ومهما أشرف على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أظللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر ما فيه اصرف عني شر شرارهم . فإذا نزل المنزل فليصل فيه ركعتين ثم ليقل : اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق . فإذا جن عليه الليل فليقل : يا أرض اربى وربك الله أعوذ بالله من شرك ومن شر ما فيك وشر ما دب عليك أعوذ بالله

(١) حديث جابر : أنه صلى الله عليه وسلم رحل يوم الخميس يريد تبوك وقال « اللهم بارك لأمي في بكورها » رواه الحرائطي وفي السنن الأربعة من حديث صخر العامري « اللهم بارك لأمي في بكورها » قال الترمذي حديث حسن . (٢) حديث كعب بن مالك : قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس والسبت « أخرجه البزار مقتصراً على يوم خميسها والحرائطي مقتصراً على يوم السبت وكلاهما ضعيف . (٣) حديث : كان إذا بعث سرية بعثها أول النهار . أخرجه الأربعة من حديث صخر العامري وحسنه الترمذي . (٤) حديث أبي هريرة « اللهم بارك لأمي في بكورها يوم خميسها » أخرجه ابن ماجه والحرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له وقال ابن ماجه « يوم الخميس » وكلا الإسنادين ضعيف . (٥) حديث ابن عباس : إذا كانت لك إلى رجل حاجة فاطلبها إليه نهاراً ... الحديث . أخرجه البزار والطبراني في الكبير والحرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له واستاده ضعيف . (٦) حديث « لأن أشيع مجاهد في سبيل الله فأكتفه على رحلته غدوة أو زوحة أحب إلى من الدنيا وما فيها » رواه ابن ماجه بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس . (٧) حديث « عليكم بالدجلة .. الحديث . تقدم في الباب الثاني من الحج .

من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن شر ساكني البلد ووالد وما ولد ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ ومهما علا شرفا من الأرض في وفد السير فينبغي أن يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال ، ومهما هبط سبوح ومهما خاف الوحشة في سفره قال : سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت .

الثامن : أن يحتاط بالنهار فلا يمشى منفردا خارج القافلة - لأنه ربما يفتال أو ينقطع - ويكون بالليل متحفظا عند النوم . كان صلى الله عليه وسلم إذا نام في ابتداء الليل في السفر اقترب ذراعيه وإن نام في آخر الليل نصب ذراعيه نصبا وجعل رأسه في كفه ^(١) . والغرض من ذلك أن لا يستقل في النوم فتطلع الشمس وهو نائم لا يدري فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يطلبه بسفره .

والاستحباب بالليل أن يتناوب الرفقاء في الحراسة فإذا نام واحد حرس آخر ^(٢) فهذه السنة . ومهما قصده عدو أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي وشهد الله وسور الإخلاص والمعوذتين . وليقل : بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله حسبي الله توكلت على الله ما شاء الله لا يأتي بالخيرات إلا الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبي الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ ﴿ كتب الله لأغلبنا أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ تحصنت بالله العظيم واستعنت بالحى القيوم الذى لا يموت اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واكنفنا بركك الذى لا يرام اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا تمك وانت ثقتنا ورجاؤنا اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين .

التاسع : أن يرفق بالدابة إن كان راكبا فلا يحملها مالا تطيق . ولا يضربها في وجهها فإنه منهي عنه ، ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم وتتأذى به الدابة كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة : وقال صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى ^(٣) ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وغشية يروحها بذلك ^(٤) فهو سنة وفيه آثار عن السلف .

وكان بعض السلف يكثرى بشرط أن لا ينزل ويوفى الأجرة . ثم كان ينزل ليكون بذلك محسنا إلى الدابة فيوضع في ميزان حسناته لاني ميزان حسنات المسكاري . ومن آذى بهيمة بضرب أو حمل مالا تطيق طوبى به يوم القيامة إذ في كل كبده حرام أجر . قال أبو الدرداء رضى الله عنه لبعير له عند الموت : أيها البعير لا تخافنى إلى ربك فإنى لم أك أحمك فوق طاقتك . وفى النزول ساعة صدقتان ، إحداها : ترويح الدابة . والثانية : إدخال السرور على قلب المسكاري . وفيه فائدة أخرى وهى رياضة البدن وتحريك الرجلين . والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب . وينبغي أن يقرر مع المسكاري ما يحمله عليها شيئا شيئا ويعرضه عليه ، ويستأجر الدابة بعقد صحيح ثلاثين بينهما نزاع يؤذى القلب ويحمل على الزيادة فى الكلام ، فما يلفظ العبد من قول إلا لديه رقيب عتيد . فليحترز عن كثرة الكلام واللجاج مع المسكاري ، فلا ينبغي أن يحمل فوق المشروط شيئا وإن خف . فإن القليل يجر الكثير ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . قال رجل لابن المبارك وهو على دابة : احمل لى هذه الرقعة إلى فلان ، فقال : حتى استأذن المسكاري فإنى لم أشارطه على هذه الرقعة . فانظر كيف لم يلتفت إلى قول الفقهاء إن هذا مما يتسامح فيه ولكن

(١) حديث : كان إذا نام في ابتداء الليل في السفر انترس ذراعيه ... الحديث « تقدم في الحج . (٢) حديث تناوب الرفقاء في الحراسة . تقدم في الحج في الباب الثاني . (٣) حديث « لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى » تقدم في الباب الثالث من الحج . (٤) حديث : أنزل عن الدابة غدوة وعشية : تقدم فيه .

سلك طريق الورد ؟

العاشر : ينبغي أن يستصحب ستة أشياء . قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول صلى الله عليه وسلم إذا سافر حمل معه خمسة أشياء . المرأة والمكحلة والمقراض والسواك والمشط ^(١) ، وفي رواية أخرى عنها ، ستة أشياء : المرأة والقارورة والمقراض والسواك والمكحلة والمشط . وقالت أم سعد الأنصارية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفارقه في السفر المرأة والمكحلة ^(٢) وقال صهيب قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « عليكم بالإئتمد عند مضجعكم فإنه مما يزيد في البصر وينبت الشعر » ^(٣) ، وروى أنه كان يكتحل ثلاثاً ثلاثاً ، وفي رواية : أنه اكتحل لليمنى ثلاثاً ولليسرى ثنتين ^(٤) وقد زاد الصوفية الركوة والحبل . وقال بعض الصوفية : إذا لم يكن مع الفقير ركوة وحبل دل على نقصان دينه . وإنما زادوا هذا لما رأوه من الاحتياط في طهارة الماء وغسل الثياب ، فالركوة لحفظ الماء الطاهر ، والحبل لتجفيف الثوب المغسول ولتزع الماء من الآبار . وكان الأولون يكتفون بالتيمم ويغنون أنفسهم عن نقل الماء . ولا يبالون بالوضوء من الغدران ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا نجاستها حتى توضعاً عمر رضي الله عنه من ماء في جرة نصرانية . وكانوا يكتفون بالأرض والجبال عن الحبل فيفرشون الثياب المغسولة عليها . فهذه بدعة إلا أنها بدعة حسنة ، وإنما البدعة المذمومة ما تضاد السنن الثابتة ، وأما ما يعين على الاحتياط في الدين فمستحسن .

وقد ذكرنا أحكام المبالغة في الطهارات في كتاب الطهارة . وأن المتجرد لأمر الدين لا ينبغي أن يؤثر طريق الرخصة بل يمتطاط في الطهارة ما لم يمنعه ذلك عن عمل أفضل منه .

وقيل كان الخواص من المتوكلين وكان لا يفارقه أربعة أشياء في السفر والحضر : الركوة والحبل والإبرة بخيوطها والمقراض ، وكان يقول : هذه ليست من الدنيا .

الحادي عشر : في آداب الرجوع من السفر : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة أو غيره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيئون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ^(٥) ، وإذا أشرف على مدينته فليقل : اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً . ثم ليرسل إلى أهله من يبشرهم بقدمه كيلاً يقدم عليهم بغتة فيرى ما يكرهه ، ولا ينبغي له أن يطرقهم ليلاً ^(٦) فقد ورد النهي عنه . وكان صلى الله عليه وسلم إذا قدم دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت ^(٧) وإذا دخل قال « توباً توباً لربنا أوباً أوباً لا يغادر علينا حوباً » ^(٨) .

(١) حديث عائشة : كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرأة والمكحلة والمدرى والسواك والمشط . وفي رواية : ستة أشياء . أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له وطرقه كلها ضعيفة .

(٢) حديث أم سعد الأنصارية : كان لا يفارقه في السفر المرأة والمكحلة . رواه الخرائطي وإسناده ضعيف .

(٣) حديث صهيب : عليكم بالإئتمد عند مضجعكم فإنه يزيد في البصر وينبت الشعر . أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف وهو عند الترمذي وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث ابن عباس وصححه ابن عبد البر وقال الخطابي صحيح الإسناد .

(٤) حديث : كان يكتحل لليمنى ثلاثاً ولليسرى ثنتين . أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر بسند لين .

(٥) حديث : كان إذا قفل من حج أو غزو أو غيره يكبر ... الحديث تقدم في الحج . (٦) حديث : النهي عن طرق الأهل ليلاً . تقدم .

(٧) حديث : كان إذا قدم من سفر دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين . تقدم . (٨) حديث : كان إذا دخل قال « توباً توباً لربنا أوباً أوباً لا يغادر علينا حوباً » أخرجه ابن السني في اليوم والليله والحاكم من حديث ابن عباس وقال صحيح على شرط الشيخين .

وينبغي أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فهو سنة . فقد روى : أنه إن لم يجد شيئا فليضع في مخلاته حجرا ^(١) وكان هذا مبالغة في الاستحاثات على هذه المكرمة لأن الاعين تمتد إلى القادم من السفر والقلوب تفرح به ، فيتأكد الاستحباب في تأكيد فرحهم وإظهار التفات القلب في السفر إلى ذكركم بما يستصحب في الطريق لهم فهذه جملة من الآداب الظاهرة

وأما الآداب الباطنة : ففي الفصل الأول بيان جملة منها . وجملة أن لا يسافر إلا إذا كان زيادة دينه في السفر . ومهما وجد قلبه متغيرا إلى نقصان فيقف ولا ينبغي أن يجاوز همه منزله بل ينزل حيث ينزل قلبه وينوي في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ويجهده أن يستفيد من كل واحد منهم أدبا أو كلمة لينتفع بها ، لا ليحكي ذلك ويظهر أنه لقي المشايخ . ولا يقيم ببلدة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام إلا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك . ولا يجالس في مدة الإقامة إلا الفقراء الصادقين . وإن كان قصده زيارة أخ فلا يزيد على ثلاثة أيام فهو حد الضيافة إلا إذا شق على أخيه مفارقتها . وإذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة . ولا يشغل نفسه بالعشرة فإن ذلك يقطع بركة سفره . وكلما دخل بلدة لا يشتغل بشيء سوى زيارة الشيخ بزيارة منزله ، وإن كان في بيته فلا يدق عليه بابه ولا يستأذن عليه إلى أن يخرج ، فإذا خرج تقدم إليه بأدب فسلم عليه ، ولا يتكلم بين يديه إلا أن يسأله ، فإن سأله أجاب بقدر السؤال ، ولا يسأله عن مسألة مالم يستأذن أولا . وإذا كان في السفر فلا يكثر ذكر أطعمة البلدان وأصحابها ولا ذكر أصدقائه فيها ، ولينذكر مشايخها وفقراءها . ولا يهمل في سفره زيارة قبور الصالحين بل يتفقدوها في كل قرية وبلدة . ولا يظهر حاجته إلا بقدر الضرورة ومع من بقدر على إزالتها . ويلتزم في الطريق الذكر وقراءة القرآن بحيث لا يسمع غيره . وإذا كلبه إنسان فليترك الذكر وليجبه مادام يحدثه ثم ليرجع إلى ما كان عليه . فإن تبرمت نفسه بالسفر أو بالإقامة فليخالفها بالبركة في مخالفة النفس . وإذا تبرمت له خدمة قوم صالحين فلا ينبغي له أن يسافر تبرما بالخدمة فذلك كفران نعمة . ومهما وجد نفسه في نقصان عما كان عليه في الحضر فليعلم أن سفره معلول وليرجع إذ لو كان لحق لظهر أثره . قال رجل لأبي عثمان المغربي : خرج فلان مسافرا ، فقال : السفر غربة والغربة ذلة وليس للؤمن أن يذل نفسه ، وأشار به إلى أن من ليس له في السفر زيادة دين فقد أذل نفسه وإلا فعز الدين لا ينال إلا بذلة الغربة . فليكن سفر المريد من وطن هواه ومراده وطبعه حتى يعز في هذه الغربة ولا يذل فإن من اتبع هواه في سفره ذل لا محالة إما عاجلا وإما آجلا .

الباب الثاني : فيما لا بد للمسافر من تعلمه

من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات

أعلم أن المسافر يحتاج في أول سفره إلى أن يتزود لندياه ولآخرته .

أما زاد الدنيا : فالطعام والشراب وما يحتاج إليه من نفقة . فإن خرج متوكلا من غير زاد فلا بأس به إذا كان سفره في قافلة أو بين قرى متصلة . وإن ركب البادية وحده أو مع قوم لا طعام معهم ولا شراب فإن كان من يصبر على الجوع - أسبوعا أو عشرة مثلا - أو يقدر على أن يكتفي بالحشيش فله ذلك . وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا القدرة على الاجتزاء بالحشيش ففروجه من غير زاد معصية فإنه ألقى نفسه بيده إلى التهلكة ولهذا سر سيأتي في كتاب التوكل .

(١) حديث لطراق أهل عند القدم ولو بحجر . أخرجه الدارقطني من حديث عائشة بإسناد ضعيف .

وليس معنى التوكل التبعاد عن الأسباب بالكلية ، ولو كان كذلك لبطل التوكل بطلب الدلو والحبل ونزع الماء من البئر ، ولوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكا أو شخصا آخر حتى يصب الماء في فيه . فإن كان حفظ الدلو والحبل لا يقدح في التوكل وهو آلة الوصول إلى المشروب فحمل عين المطعوم والمشروب حيث لا يفتنظر له وجود أولى بأن لا يقدح فيه . وستأتى حقيقة التوكل في موضعها فإنه يلتبس إلا على المحققين من علماء الدين .

وأما زاد الآخرة : فهو العلم الذى يحتاج إليه في طهارته وصومه وصلاته وعبادته فلا بد وأن يتزود منه ، إذ السفر تارة يخفف عنه أمورا فيحتاج إلى معرفة القدر الذى يخففه السفر كالقصر واجمع والفطر ، وتارة يشدد عليه أمورا كان مستغنيا عنها في الحضر كالعلم بالقبلة وأوقات الصلوات ، فإنه في البلد يكتفى بغيره من محارب المساجد وأذان المؤذنين وفي السفر قد يحتاج إلى أن يتعزف بنفسه . فإذا ما يفتقر إلى تعلمه ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : العلم برخص السفر

والسفر يفيد في الطهارة رخصتين : مسح الخفين والتيمم ، وفي صلاة الفرض رخصتين : القصر واجمع ، وفي النفل رخصتين : أدائه على الرحلة وأدائه ماشيا ، وفي الصوم رخصة واحدة وهي الفطر . فهذه سبع رخص .
الرخصة الأولى : المسح على الخفين ، قال صفوان بن عسال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا مسافرين أو سفر أن لا نزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن ^(١) فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث فله أن يمسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافرا ، أو يوما وليلة إن كان مقبلا ولكن بخمسة شروط :

الأول : أن يكون اللبس بعد كمال الطهارة فلو غسل الرجل اليمنى وأدخلها في الخف ثم غسل اليسرى فأدخلها في الخف لم يحز له المسح عند الشافعى رحمه الله حتى ينزع اليمنى ويعيد لبسه .

الثاني : أن يكون الخف قويا يمكن المشى فيه ، ويجوز المسح على الخف وإن لم يكن منعلا إذا العادة جارية بالتردد فيه في المنازل لأن فيه قوة على الجملة ، بخلاف جورب الصوفية فإنه لا يجوز المسح عليه وكذا الجرموق الضعيف .
الثالث : أن لا يكون في موضع فرض الغسل خرق ، فإن تخرق بحيث انكشف محل الفرض لم يحز المسح عليه . وللشافعى قول قديم إنه يجوز مادام يستمسك على الرجل ، وهو مذهب مالك رضى الله عنه . ولا بأس به لمسيس الحاجة إليه وتعذر الخرز في السفر في كل وقت . والمداس المنسوج يجوز المسح عليه مهما كان ساترا لا تبدو بشرة القدم من خلاله ، وكذا المشقوق الذى يرد على محل الشق بشرج لأن الحاجة تمس إلى جميع ذلك فلا يعتبر إلا أن يكون ساترا إلى ما فوق الكعبين كيفما كان . فأما إذا ستر بعض ظهر القدم وستر الباقي باللفافة لم يحز المسح عليه .
الرابع : أن لا ينزع الخف بعد المسح عليه ، فإن نزع فالأولى له استئناف الوضوء ، فإن اقتصر على غسل القدمين جاز .

الخامس : أن يمسح على الموضع المحاذى لمحل فرض الغسل لا على الساق ، وأقله ما يسمى مسحا على ظهر القدم

الباب الثانى : فيما لابد للمسافر من تعلمه

(١) حديث صفوان بن عسال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا مسافرين أو سفر أن لا نزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن . أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه والنسائى فى الكبرى وابن خزيمة وابن حبان .

من الخف . وإذا مسح بثلاث أصابع أجزأه ، والأولى أن يخرج من شبه الخلاف وأكمله أن يمسح أعلاه وأسفله دفعة واحدة من غير تكرار (١) كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ووصفه : أن يبيل اليدين ويضع رءوس أصابع اليمنى من يده على رءوس أصابع اليمنى من رجله ويمسحه بأن يجر أصابعه إلى جهة نفسه ، ويضع رءوس أصابع يده اليسرى على عقبه من أسفل الخف ويمرها إلى رأس القدم . ومهما مسح مقبلاً ثم سافر أو مسافراً ثم أقام غلب حكم الإقامة فليقتصر على يوم وليلة . وعدد الأيام الثلاثة محسوب من وقت حدثه بعد المسح على الخف ، فلو لبس الخف في الحضر ومسح في الحضر ثم خرج وأحدث في السفر وقت الزوال مثلاً مسح ثلاثة أيام ولياليهن من وقت الزوال إلى الزوال من اليوم الرابع ، فإذا زالت الشمس من اليوم الرابع لم يكن له أن يصلي إلا بعد غسل الرجلين فيغسل رجله ويعيد لبس الخف ، ويراعى وقت الحدث ويستأنف الحساب من وقت الحدث . ولو أحدث بعد لبس الخف في الحضر ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسح ثلاثة أيام لأن العادة قد تقتضى اللبس قبل الخروج ثم لا يمكن الاحتراز من الحدث . فأما إذا مسح في الحضر ثم سافر اقتصر على مدة المقيمين .

ويستحب لكل من يريد لبس الخف في حضر أو سفر أن ينكس الخف وينفض ما فيه حذراً من حية أو عقرب أو شوك . فقد روى عن أبي أمامة أنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخفيه فلبس أحدهما ؛ فجاء غراب فاحتمل الآخر ثم رمى به فخرجت منه حية ؛ فقال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما » (٢) .

الرخصة الثانية : التيمم بالتراب بدلا عن الماء عند العذر ؛ إنما يتعذر الماء بأن يكون بعيداً عن المنزل بعدا لو مشى إليه لم يلحقه غوث القافلة إن صاح أو استغاث ، وهو البعد الذي لا يعتاده أهل المنزل - في ترددهم لقضاء الحاجة - التردد إليه . وكذا إن نزل على الماء عدت أو سبع فيجوز التيمم وإن كان الماء قريباً . وكذا إن احتاج إليه لعطشه في يومه أو بعد يومه لفقد الماء بين يديه فله التيمم . وكذا إن احتاج إليه لعطش أحد رفقاءه فلا يجوز له الوضوء ، ويلزمه بذله إما بئمن أو بغيرئمن ولو كان يحتاج إليه لطبخ مرقعة أو لحوم أو لبل فتيت يجمعه به لم يجز له التيمم بل عليه أن يجترى بالفتيت اليابس ويترك تناول المرقعة . ومهما وهب له الماء وجب قبوله ، وإن وهب له ثمنه لم يجب قبوله لما فيه من المنة . وإن بيع بئمن المثل لزمه الشراء وإن بيع بغيرئمن لم يلزمه . فإذا لم يكن معه ماء وأراد أن يتيمم فأول ما يلزمه طلب الماء مهما جاوز الوصول إليه بالطلب ، وذلك بالتردد حوالى المنزل وتفتيش الرحل وطلب البقاي من الأواني والمطاهر . فإن نسي الماء في رحله أو نسي بئراً بالقرب منه لزمه إعادة الصلاة لتقصيره في الطلب . وإن علم أنه سيجد الماء في آخر الوقت فالأولى أن يصلي بالتيمم في أول الوقت فإن العمر لا يوثق به . وأول الوقت رضوان الله .

تيمم ابن عمر رضي الله عنهما فليل له : أتتيمم وجدرا ن المدينة تنظر إليك ؟ فقال : أو أبقى إلى أن أدخلها ؟ ومهما وجد الماء بعد الشروع في الصلاة لم تبطل صلاته ولم يلزمه الوضوء . وإذا وجده قبل الشروع في الصلاة لزمه الوضوء .

ومهما طلب فلم يجد فليقتصد صعيداً طيباً عليه تراب يثور منه غبار ، وليضرب عليه كفيه بعد ضم أصابعهما

(١) حديث : مسح صلى الله عليه وسلم على الخف وأسفله . أخرجه أبو داود والترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث المنيرة وهكذا ضعفه البخاري وأبو زرعة . (٢) حديث أبي أمامة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما » رواه الطبراني ، وفيه من لا يعرف .

ضربة فيمسح بها وجهه ، ويضرب ضربة أخرى - بعد نزح الخاتم - ويفرج الأصابع ويمسح بها يديه إلى مرفقيه فإن لم يستوعب بضربة واحدة جميع يديه ضرب ضربة أخرى ، وكيفية التلطف فيه ما ذكرناه في كتاب الطهارة فلا نعيده .

ثم إذا صلى به فريضة واحدة فله أن يتنفل ماشاء بذلك التيمم . وإن أراد الجمع بين فريضتين فعليه أن يعيد التيمم للصلاة الثانية ، فلا يصلي فريضتين إلا بتيممين . ولا ينبغي أن يتيمم لصلاة قبل دخول وقتها ؛ فإن فعل وجب عليه إعادة التيمم . ولينو عند مسح الوجه : استباحة الصلاة . ولوجود من الماء ما يكفي له بعض طهارته فيستعمله ثم ليتيمم بعده تيمماً تاماً .

الرخصة الثالثة : في الصلاة المفروضة ، القصر : وله أن يقتصر في كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين ولكن بشروط ثلاثة : (الأول) أن يؤديها في أوقاتها فلو صارت قضاء فالأظهر لزوم الإتمام (الثاني) أي نوى القصر فلو نوى الإتمام لزمه الإتمام ، ولو شك في أنه نوى القصر أو الإتمام لزمه الإتمام . (الثالث) أي لا يقتدى بمقيم ولا بمسافر متم ، فإن فعل لزمه الإتمام بل إن شك في أن إمامه مقيم أو مسافر لزمه الإتمام ، وإن تيقن بعده أنه مسافر لأن شعار المسافر لا يخفى فليكن متحققاً عند النية ، وإن شك في أن إمامه هل نوى القصر أم لا بعد أن عرف أنه مسافر - لم يضره ذلك ، لأن النيات لا يطلع عليها . وهذا كله إذا كان في سفر طويل مباح .

وحد السفر من جهة البداية والنهاية فيه إشكال فلا بد من معرفته . والسفر هو الانتقال من موضع الإقامة مع ربط القصد بمقصد معلوم ، فالهائم وراكب التعاسيف ليس له الترخص وهو الذي لا يقصد موضعاً معيناً ، ولا يصير مسافراً مالم يفارق عمران البلد ولا يشترط أن يجاوز خراب البلدة وبساتينها التي يخرج أهل البلدة إليها للتنزه . وأما القرية فالمسافر منها ينبغي أن يجاوز البساتين المحوطة دون التي ليست بمحطة . ولو رجع المسافر إلى البلد لأخذ شيء نسيه لم يترخص إن كان ذلك وطنه مالم يجاوز عمران ، وإن لم يكن ذلك هو الوطن فله الترخص إذ صار مسافراً بالانزعاج والخروج منه .

وأما نهاية السفر فبأحد أمور ثلاثة : (الأول) الوصول إلى عمران من البلد الذي عزم على الإقامة به . (الثاني) العزم على الإقامة ثلاثة أيام فصاعداً إما في بلد أو في صحراء . (الثالث) صورة الإقامة وإن لم يعزم كما إذا أقام على موضع واحد ثلاثة أيام سوى يوم الدخول لم يكن له الترخص بعده ، وإن لم يعزم على الإقامة وكان له شغل وهو يتوقع كل يوم إنجازاً ولكنه يتعوق عليه ويتأخر فله أن يترخص وإن طالّت المدة - على أقليس القولين - لأنه مزعج بقلبه ومسافر عن الوطن بصورته ولا مبالاة بصورة الثبوت على موضع واحد مع انزعاج القلب ، ولا فرق بين أن يكون هذا الشغل قتالاً أو غيره ، ولا بين أن تطول المدة أو تقصر ، ولا بين أن يتأخر الخروج لمطر لا يعلم بقاءه ثلاثة أيام أو لغيره ؛ إذ ترخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصر في بعض الغزوات ثمانية عشر يوماً على موضع واحد ^(١) . وظاهر الأمر أنه لو تمادى القتال لتساقط ترخصه ؛ إذ لا معنى للتقدير بثمانية عشر يوماً . والظاهر أن قصره كان لكونه مسافراً لالكونه غزياً مقاتلاً هذا معنى القصر .

وأما معنى التطويل فهو أن يكون مرحلتين : كل مرحلة ثمانية فراسخ ، وكل فرسخ ثلاثة أميال ، وكل ميل

(١) حديث : قصره صلى الله عليه وسلم في بعض الغزوات ثمانية عشر يوماً على موضع واحد . أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حصين في قصة الفتح : فأقام بمكة ثمانية عشر ليلة لا يصلي إلا ركعتين . والبخاري من حديث ابن عباس : أقام بمكة تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة . ولأبي داود : سبعة عشر . بتقديم السين وفي رواية له : خمسة عشر .

أربعة آلاف خطوة ، وكل خطوة ثلاثة أقدام .

ومعنى المباح أن لا يكون عاقا لوالديه هاربا منهما ، ولا هاربا من ماله ، ولا تكون المرأة هاربة من زوجها ، ولا أن يكون من عليه الدين هاربا من المستحق مع اليسار ، ولا يكون متوجها في قطع طريق ، أو قتل إنسان ، أو طلب لإدراج حرام من سلطان ظالم ، أو سعى بالفساد بين المسلمين .

وبالجملة فلا يسافر الإنسان إلا في غرض ، والغرض هو المحرك . فإن كان تحصيل ذلك الغرض حراما ولولا ذلك الغرض لكان لا ينبعث لسفره فسفره معصية ولا يجوز فيه الترخيص . وأما الفسق في السفر بشرب الخمر وغيره فلا يمنع الرخصة . بل كل سفر ينهى الشرع عنه فلا يعين عليه بالرخصة ولو كان له باعثن أحدهما مباح والآخر محظور ، وكان بحيث لو لم يكن الباعث له المحظور لكان المباح مستقلا بتحريكه ولكان لا محالة يسافر لأجله فله الترخيص . والمتصوفة الطوافون في البلاد من غير غرض صحيح سوى التفرج لمشاهدة البقاع المختلفة في ترخصهم خلاف ، والمختار أن لهم الترخيص .

الرخصة الرابعة ، الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما وبين المغرب والعشاء في وقتيهما ؛ فذلك أيضا جائز في كل سفر طويل مباح ، وفي جوازه في السفر القصير قولان . ثم إن قدم العصر إلى الظهر فليكن الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما قبل الفراغ من الظهر وليؤذن للظهر وليقيم ، وعند الفراغ يقيم العصر ، ويجدد التيمم أولا إن كان فرضه التيمم ، ولا يفرق بينهما بأكثر من تيمم وإقامة ، فإن قدم العصر لم يجز ، وإن نوى الجمع عند التحريم بصلاة العصر جاز عند المزني ، وله وجه في القياس إذ لا مستند لإيجاب تقديم النية بل الشرع يجوز الجمع وهذا جمع ، وإنما الرخصة في العصر فتكفي النية فيها ، وأما الظهر فجار على القانون . ثم إذا فرغ من الصلاتين فينبغي أن يجمع بين سنن الصلاتين ؛ أما العصر فلا سنة بعدها ولكن السنة التي بعد الظهر يصلحها بعد الفراغ من العصر إما راكبا أو مقفيا ، لأنه لو صلى راتبة الظهر قبل العصر لانقطعت الموالاة وهي واجبة - على وجه - ولو أراد أن يقيم الأربع المسنونة قبل الظهر والأربع المسنونة قبل العصر فليجمع بينهما قبل الفريضتين فيصلح سنة الظهر أولا ثم سنة العصر ، ثم فريضة الظهر ثم فريضة العصر ، ثم سنة الظهر الركعتان اللتان هما بعد الفرض : ولا ينبغي أن يهمل التوافل في السفر فافوته من رواها أكثر مما يناله من الرج ؛ لاسيما وقد خفف الشرع عليه وجوز له أداءها على الرحلة كي لا يتعوق عن الرفقة بسببها . وإن أخر الظهر إلى العصر فيجوز على هذا الترتيب ولا يبالى بوقوع راتبة الظهر بعد العصر في الوقت المكروه لأن ماله سبب لا يكره في هذا الوقت ، وكذلك يفعل في المغرب والعشاء والوتر . وإذا قدم أو أخر فبعد الفراغ من الفرض يشتغل بجميع الرواتب ويختتم الجميع بالوتر . وإن خطر له ذكر الظهر قبل خروج وقته فليعزم على أدائه مع العصر جميعا فهو نية الجمع ؛ لأنه إنما يتناول عن هذه النية إما بنية الترك أو بنية التأخير عن وقت العصر ، وذلك حرام والعزم عليه حرام . وإن لم يتذكر الظهر حتى خرج وقته إما لنوم أو لشغل فله أن يؤدي الظهر مع العصر ولا يكون عاصيا ، لأن السفر كما يشغل عن فعل الصلاة فقد يشغل عن ذكرها . ويحتمل أن يقال إن الظهر إنما تقع أداء إذا عزم على فعلها قبل خروج وقتها ، ولكن الأظهر أن وقت الظهر والعصر صار مشتركا في السفر بين الصلاتين ، ولذلك يجب على الحائض قضاء الظهر إذا طهرت قبل الغروب . ولذلك ينقدح أن لا تشترط الموالاة ولا الترتيب بين الظهر والعصر عند تأخير الظهر ، أما إذا قدم العصر على الظهر لم يجز لأن ما بعد الفراغ من الظهر هو الذي جعل وقتا للعصر ، إذ يبعد أن يشتغل بالعصر من هو عازم على ترك الظهر أو على تأخيره . وعذر المطر مجوز للجمع كعذر السفر . وترك الجمعة أيضا من رخص السفر وهي متعلقة أيضا بفرائض الصلوات . ولو نوى

الإقامة بعد أن صلى العصر فأدرك وقت العصر في الحضر فعليه أداء العصر ، وما مضى إنما كان مجزئاً بشرط أن يبقى العذر إلى خروج وقت العصر .

الرخصة الخامسة : التنفل راكباً ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته ^(١) وأوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الراحلة . وليس على المتنفل الركب في الركوع والسجود إلا بالإيماء . وينبغي أن يجعل سجوده أخفض من ركوعه ، ولا يلزمه الانحناء إلى حد يتعرض به لخطر بسبب الدابة . فإن كان في مرقد فليتم الركوع والسجود فإنه قادر عليه .

وأما استقبال القبلة فلا يجب إلا في ابتداء الصلاة ولا في دوامها ، ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة . فليكن في جميع صلاته إما مستقبلاً للقبلة أو متوجهاً في صوب الطريق لتسكون له جهة يثبت فيها ، فلو حرف دابته عن الطريق قصداً بطلت صلاته إلا إذا حرفها إلى القبلة . ولو حرفها ناسياً وقصر الزمان لم تبطل صلاته ، وإن طال ففيه خلاف وإن جمحت به الدابة فانحرفت لم تبطل صلاته - لأن ذلك مما يكثّر وقوعه - وليس عليه سجود وهو إذ الجماع غير منسوب إليه ، بخلاف ما لو حرف ناسياً فإنه يسجد للسهو بالإيماء .

الرخصة السادسة : التنفل للماشي جائز في السفر ويومي بالركوع والسجود ، ولا يقعد للشهد لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة وحكمه حكم الركب ؛ لكن ينبغي أن يتحرم بالصلاة مستقبلاً للقبلة ؛ لأن الانحراف في لحظة لا عسر عليه فيه بخلاف الركب فإن في تحريف الدابة وإن كان العنان بيده نوع عسر ؛ وربما تكرّر الصلاة فيطول عليه ذلك . ولا ينبغي أن يمشي في نجاسة رطبة عمداً ؛ فإن فعل بطلت صلاته بخلاف ما لو وطئت دابة الركب نجاسة . وليس عليه أن يشوش المشي على نفسه بالاحتراز من النجاسات التي لا تخلو الطريق عنها غالباً . وكل هارب من عدو أو سيل أو سبع فله أن يصلي الفريضة راكباً أو ماشياً كما ذكرناه في التنفل .

الرخصة السابعة : الفطر ، وهو في الصوم . فللمسافر أن يفطر إلا إذا أصبح مقيماً ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم . وإن أصبح مسافراً صائماً ثم أقام فعليه الإتمام . وإن أقام مفطر فليس عليه الإمساك بقية النهار . وإن أصبح مسافراً على عزم الصوم لم يلزمه بل له أن يفطر إذا أراد ، والصوم أفضل من الفطر . والقصر أفضل من الإتمام للخروج عن شبهة الخلاف ، ولأنه ليس في عهدة القضاء بخلاف المفطر فإنه في عهدة القضاء وربما يتعذر عليه ذلك بعائق فيبقى في ذمته ، إلا إذا كان الصوم يضر به فالإفطار أفضل .

فهذه سبع رخص تتعلق ثلاث منها بالسفر الطويل وهي القصر والفطر والمسح ثلاثة أيام . وتتعلق اثنتان منها بالسفر طويلاً كان أو قصيراً وهما سقوط الجمعة وسقوط القضاء عند أداء الصلاة بالتييم . وأما صلاة النافلة ماشياً وراكباً ففيه خلاف والأصح جوازه في القصير . والجمع بين الصلاتين فيه خلاف والأظهر اختصاصه بالطويل . وأما صلاة الفرض راكباً وماشياً للخوف فلا تتعلق بالسفر ، وكذا أكل الميتة ، وكذا أداء الصلاة في الحال بالتييم عند فقد الماء ، بل يشترك فيها الحضر والسفر مهما وجدت أسبابها .

فإن قلت . فالعلم بهذه الرخص هل يجب على المسافر تعلمه قبل السفر أم يستحب له ذلك فاعلم أنه إن كان عازماً على ترك المسح والقصر والجمع والفطر وترك التنفل راكباً وماشياً لم يلزمه علم شروط الترخيص في ذلك ، لأن الترخيص ليس بواجب عليه . وأما علم رخصة التيمم فيلزمه لأن فقد الماء ليس إليه ، إلا أن يسافر على شاطئ نهر

(١) حديث : كان يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته وأوتر على الراحلة . متفق عليه من حديث ابن عمر .

يوثق ببقائه مائه ، أو يكون معه في الطريق عالم يقدر على استفتائه عند الحاجة ، فله أن يؤخر إلى وقت الحاجة .
لما إذا كان يظن عدم المساء ولم يكن معه فيلزمه التعلم لاحالة .

• فإن قلت : التيمم يحتاج إليه لصلاة لم يدخل بعد وقتها فكيف يجب علم الطهارة لصلاة بعد لم تجب وربما لا تجب ؟ فأقول : من بينه وبين الكعبة مسافة لا تقطع إلا في سنة ؛ فيلزمه قبل أشهر الحج ابتداء السفر . ويلزمه تعلم المناسك لاحالة إذا كان يظن أنه لا يجد في الطريق من يتعلم منه ؛ لأن الأصل الحياة واستمرارها . وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب . وكل ما يتوقع وجوبه توقعا ظاهرا على الظن وله شرط لا يتوصل إليه إلا بتقديم ذلك الشرط على وقت الوجوب فيجب تقديم تعلم الشرط لا محالة ، كعلم المناسك قبل وقت الحج وقبل مباشرته . فلا يحل إذن للمسافر أن ينتهي السفر ما لم يتعلم هذا القدر من علم التيمم . وإن كان عازما على سائر الرخص فعليه أن يتعلم أيضا القدر الذي ذكرناه من علم التيمم وسائر الرخص ؛ فإنه إذا لم يعلم القدر الجائز لرخصة السفر لم يمكنه الاقتصار عليه .

• فإن قلت : إنه إن لم يتعلم كيفية التنفل راكبا وماشيا ماذا يضره وغايته إن صلى أن تكون صلاته فاسدة ؟ وهي غير واجبة فكيف يكون عليها واجبا ؟ فأقول : من الواجب أن لا يصلي النفل على نعت الفساد ، فالتنفل مع الحدث والنجاسة وإلى غير القبلة ومن غير إتمام شروط الصلاة وأركانها حرام ، فعليه أن يتعلم ما يجتز به عن النافلة الفاسدة حذرا عن الوقوع في المحظورات . فهذا بيان علم ما خفف عن المسافر في سفره .

القسم الثاني : ما يتجدد من الوظيفة بسبب السفر

وهو علم القبلة والأوقات : وذلك أيضا واجب في الحضر ، ولكن في الحضر من يكفيه من محراب متفق عليه يغنيه عن طلب القبلة ومؤذن يراعى الوقت فيغنيه عن طلب علم الوقت .
والمسافر قد تشبه عليه القبلة وقد يلتبس عليه الوقت فلا بد له من العلم بأدلة القبلة والمواقيت . أما أدلة القبلة فهي ثلاثة أقسام : أرضية ، كالاستدلال بالجبال والقرى والأنهار . وهوائية ، كالاستدلال بالرياح شمالها وجنوبها وصباها ودبورها . وسماوية ، وهي النجوم .

فأما الأرضية والهوائية فتختلف باختلاف البلاد ، فرب طريق فيه جبل مرتفع يعلم أنه على يمين المستقبل أو شماله أو ورائه أو قدامه ، فليعلم ذلك وليفهمه . وكذلك الرياح قد تدل في بعض البلاد فليفهم ذلك . ولنا نقدر على استقصاء ذلك إذا سلك بلد وإقليم حكم آخر .
وأما السماوية فأدلتها تنقسم إلى نهارية وليلية .

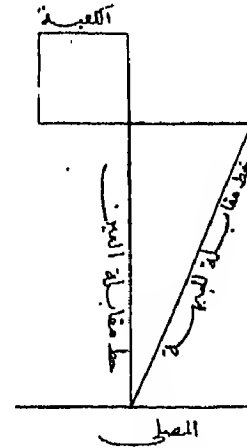
أما النهارية : فالشمس ، فلا بد أن يراعى قبل الخروج من البلد أن الشمس عند الزوال أين تقع منه ، أي بين الحاجبين ؟ أو على العين اليمنى ؟ أو اليسرى ؟ أو تميل إلى الجبين ميلا أكثر من ذلك ؟ فإن الشمس لا تعدو في البلاد الشمالية هذه المواقع . فإذا حفظ ذلك فهم عرف الزوال بدليله الذي سذكاه عرف القبلة به . وكذلك يراعى مواقع الشمس منه وقت العصر . فإنه في هذين الوقتين يحتاج إلى القبلة بالضرورة . وهذا أيضا لما كان يختلف بالبلاد فليس يمكن استقصاؤه

وأما القبلة وقت المغرب فإنها تدرك بموضع الغروب . وذلك بأن يحفظ أن الشمس تغرب عن يمين المستقبل ، أو هي مائلة إلى وجهه ، أو قفاه . وبالشقق أيضا تعرف القبلة للعشاء الأخيرة .

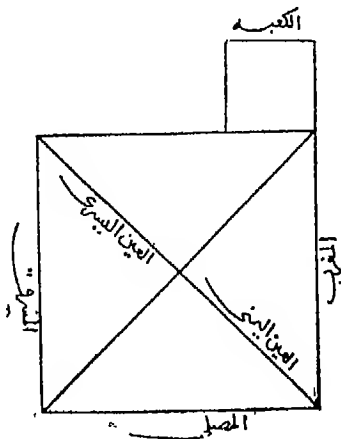
وبمشرق الشمس تعرف القبلة لصلاة الصبح . فكأن الشمس تدل على القبلة في الصلوات الخمس ، ولكن يختلف ذلك بالشتاء والصيف . فإن المشرق والمغرب كثيرة وإن كانت محصورة في جهتين ، فلا بد من تعلم ذلك أيضا . ولكن قد يصلي المغرب والعشاء بعد غيوبة الشفق فلا يمكنه أن يستدل على القبلة به . فعليه أن يراعى موضع القطب . وهو الكوكب الذي يقال له : الجدى : فإنه كوكب كالنجم لا تظهر حركته عن موضعه ، وذلك إما أن يكون على قفا المستقبل ، أو على منكبه الأيمن من ظهره ، أو منكبه الأيسر في البلاد الشمالية من مكة . وفي البلاد الجنوبية كالعين وما والاها فيقع في مقابلة المستقبل ؛ فيتعلم ذلك ، وما عرفه في بلده فليعول عليه في الطريق كله إلا إذا طال السفر ، فإن المسافة إذا بعدت اختلف موقع الشمس وموقع القطب وموقع المشرق والمغرب ، إلا أن ينتهي في أثناء سفره إلى بلاد فينبغي أن يسأل أهل البصرة . أو يراقب هذه الكواكب وهو مستقبل محراب جامع البلد حتى يتضح له ذلك . فهما تعلم هذه الأدلة فله أن يعول عليها . فإن بان له أنه أخطأ من جهة القبلة إلى جهة أخرى من الجهات الأربع فينبغي أن يقضى . وإن انحراف عن حقيقة محاذة القبلة ولكن لم يخرج عن جهتها لم يلزمه القضاء .

وقد أورد الفقهاء خلافا في أن المطلوب جهة الكعبة أو عينها ، وأشكل معنى ذلك على قوم إذ قالوا : إن قلنا إن المطلوب العين فمتى يتصور هذا مع بعد الديار ؟ وإن قلنا : إن المطلوب الجهة فالواقف في المسجد إن استقبل جهة الكعبة وهو خارج بيده عن موازاة الكعبة لا خلاف في أنه لا تصح صلاته . وقد طولوا في تأويل معنى الخلاف في الجهة والعين . ولا بد أولا من فهم معنى مقابلة العين ومقابلة الجهة .

فمعنى مقابلة العين : أن يقف موقفا لو خرج خط مستقيم من بين عينيه إلى جدار الكعبة لا تصل به وحصل من جانبي الخط زاويتان متساويتان (وهذه صورته والخط الخارج من موقف المصلى يقدر أنه خارج من بين عينيه) وهذه صورة مقابلة العين :



وأما مقابلة الجهة . فيجوز فيها أن يتصل طرف الخط الخارجى من بين العينين إلى الكعبة من غير أن يتساوى الزاويتان عن جهتي الخط ، بل لا يتساوى الزاويتان إلا إذا انتهى الخط إلى نقطة معينة هي واحدة . فلو مد هذا الخط على الاستقامة إلى سائر النقط من يمينها أو شمالها كانت إحدى الزاويتين أضيق ، فيخرج



عن مقابلة العين ولكن لا يخرج عن مقابلة الجهة - كالخط الذي كستنا عليه مقابلة الجهة - فإنه لو قدر الكعبة على طرف ذلك الخط لكان الواقف مستقبلا لجهة الكعبة لا لعينها .

وحد تلك الجهة ما يقع بين خطين يتوهمهما الواقف مستقبلا لجهة خارجين من العينين ، فيلتقى طرفاهما في داخل الرأس بين العينين على زاوية قائمة ، فما يقع بين الخطين الخارجين من العينين فهو داخل في الجهة . وسعة ما بين الخطين تزايد بطول الخطين وبالبعد عن الكعبة (وهذه صورته) :

فإذا فهم معنى العين والجهة فأقول . الذى يصح عندنا فى الفتوى أن المطلوب العين إن كانت الكعبة مما يمكن رؤيتها ، وإن كان يحتاج إلى الاستدلال عليها لتعذر رؤيتها فيكفى استقبال الجهة .
فأما طلب العين عند المشاهدة فجميع عليه . وأما الاكتفاء بالجهة عند تعذر المعاينة فيدل عليه الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضى الله عنهم والقياس .
أما الكتاب : فقوله تعالى ﴿ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ أى نحوه . ومن قابل جهة الكعبة يقال قد ولى وجهه شطرها .

وأما السنة : فما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأهل المدينة « ما بين المغرب والمشرق قبله ^(١) » . والمغرب يقع على يمين أهل المدينة والمشرق على يسارهم . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما يقع بينهما قبله ومساحة الكعبة لا تنى بما بين المشرق والمغرب وإنما يبنى بذلك جهتها . وروى هذا اللفظ أيضا عن عمر وابنه رضى الله عنهما .

وأما فعل الصحابة رضى الله عنهم : فما روى أن مسجد قباء كانوا فى صلاة الصبح بالمدينة مستقبليين لبيت المقدس مستدبرين الكعبة - لأن المدينة بينهما - فقيل لهم : الآن قد حوت القبلة إلى الكعبة . فاستداروا فى أثناء الصلاة من غير طلب دلالة ^(٢) ولم ينكر عليهم . وسمى مسجدهم « ذا القبلتين » ومقابلة العين من المدينة إلى مكة لا تعرف إلا بأدلة هندسية يطول النظر فيها ؛ فكيف أدركوا ذلك على البديهة فى أثناء الصلاة وفى ظلمة الليل ؟ ويدل أيضا من فعلهم أنهم بنوا المساجد حوالى مكة وفى سائر بلاد الإسلام ولم يحضروا قط مهندسا عند تسوية المحارب ، ومقابلة العين لا تدرك إلا بدقيق النظر الهندسى .

وأما القياس : فهو أن الحاجة تمس إلى الاستقبال وبناء المساجد فى جميع أقطار الأرض ، ولا يمكن مقابلة العين إلا بعلوم هندسية لم يرد الشرع بالنظر فيها ، بل ربما يزجر عن التعمق فى عليها فكيف يبنى أمر الشرع عليها ؟ فيجب الاكتفاء بالجهة للضرورة .

وأما دليل صحة الصورة التى صورناها : وهو حصر جهات العالم فى أربع جهات فقوله عليه السلام فى آداب قضاء الحاجة ، « لا تستقبلوها القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا ^(٣) » ، وقال . هذا بالمدينة - والمشرق على يسار المستقبل بها والمغرب على يمينه - فهى عن جهتين ورخص فى جهتين . وبمجموع ذلك أربع جهات . ولم يخطر ببال أحد أن جهات العالم يمكن أن تفرض فى ست أو سبع أو عشر . وكيفما كان فاحكم الباقى ؟ بل الجهات تثبت فى الاعتقادات بناء على خلقة الإنسان ، وليس له إلا أربع جهات : قدام وخلف ويمين وشمال فكانت الجهات بالإضافة إلى الإنسان فى ظاهر النظر أربعا . والشرع لا يبنى إلا على مثل هذه الاعتقادات فظهر أن المطلوب الجهة ، وذلك يسهل أمر الاجتهاد فيها وتعلم به أداة القبلة . فأما مقابلة العين فإنها تعرف بمعرفة مقدار عرض مكة عن خط الاستواء ، ومقدار درجات طولها وهو بعدها عن أول عمارة فى المشرق . ثم يعرف ذلك أيضا فى موقف المصلى ، ثم يقابل أحدهما بالآخر . ويحتاج فيه إلى آلات وأسباب طويلة ، والشرع غير مبنى عليها قطعا . فإذا قدر الذى

(١) حديث : ما بين المشرق والمغرب قبله . أخرجه الترمذى وصححه ، والنسائى وقال منكر ، وابن ماجه من حديث أبى هريرة (٢) حديث : لمن أهل قباء كانوا فى صلاة الصبح مستقبليين لبيت المقدس فقيل لهم ألا انقبلة قد حوت إلى الكعبة فاستداروا ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث أنس واتفقا عليه من حديث ابن عمر مع اختلاف .
(٣) حديث : لا تستقبلوها القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا . متفق عليه من حديث أبى أيوب .
(٣٤ - إحياء علوم الدين - ٢)

لا بد من تعلمه من أدلة القبلة : موقع المشرق والمغرب في الزوال ، وموقع الشمس وقت العصر . فهذا يسقط الوجوب .

* فإن قلت : فلو خرج المسافر من غير تعلم ذلك هل يعصى ؟ فأقول : إن كان طريقه على قرى متصله فيها محاريب ، أو كان معه في الطريق بصير بأدلة القبلة موثوق بعِدالته وبصيرته ويقدر على تقليده فلا يعصى . وإن لم يكن معه شيء من ذلك عصى . لأنه سيتعرض لوجوب الاستقبال ولم يكن قد حصل عليه فصار ذلك كعلم التيمم وغيره . فإن تعلم هذه الأدلة واستنبههم عليه الأمر بنعيم مظم . أو ترك التعلم ولم يجد في الطريق من يقلده ، فعليه أن يصل في الوقت على حسب حاله ، ثم عليه القضاء سواء أصاب أم أخطأ . والأعمى ليس له إلا التقليد فليقبل من يوثق بدينه وبصيرته إن كان مقلده مجتهدا في القبلة ، وإن كانت القبلة ظاهرة فله اعتماد قول كل عدل يخبره بذلك في حضر أو سفر وليس للأعمى وللجاهل أن يسافر في قافلة ليس فيها من يعرف أدله القبلة - حيث يحتاج إلى الاستدلال - كما ليس للأعمى أن يقيم ببلدة ليس فيها فقيه عالم بتفصيل الشرع ، بل يلزمه الهجرة إلى حيث يجد من يعلم دينه ، وكذا إن لم يكن في البلد إلا فقيه فاسق فعليه الهجرة أيضا إذ لا يجوز له اعتماد فتوى الفاسق ، بل العدالة شرط لجواز قبول الفتوى - كما في الرواية - وإن كان معروفا بالفقه مستورا الحال في العدالة والفسق فله القبول مهما لم يجد من له عدالة ظاهرة لأن المسافر في البلاد لا يقدر أن يبحث عن عدالة المفتين . فإن رآه لا بسا للحرير أو ما يغلب عليه الإبريسم أو راكبا لفرس عليه مركب ذهب فقد ظهر فسقه وامتنع عليه قبول قوله ، فليطلب غيره . وكذلك إذا رآه يأكل على مائدة سلطان أغلب ماله حرام أو يأخذ منه إدارا أو صلة من غير أن يعلم أن الذي يأخذه من وجه حلال ، فكل ذلك فسق يقدح في العدالة ويمنع من قبول الفتوى والرواية والشهادة .

وأما معرفة أوقات الصلوات الخمس فلا بد منها . فوقت الظهر يدخل بالزوال ، فإن كل شخص لا بد أن يقع له في ابتداء النهار ظل مستطيل في جانب المغرب ، ثم لا يزال ينقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ في الزيادة في جهة المشرق ولا يزال يزيد إلى الغروب . فليقم المسافر في موضع أو لينصب عودا مستقيما ، وليعلم على رأس الظل ، ثم لينظر بعد ساعة فإن رآه في النقصان فلم يدخل بعد وقت الظهر .

وطريقه في معرفة ذلك أن ينظر في البلد - وقت أذان المؤذن المعتمد - ظل قامته ، فإن كان مثلا ثلاثة أقدام بقدمه فهما صار كذلك في السفر وأخذ في الزيادة صلى . فإن زاد عليه ستة أقدام ونصفا بقدمه دخل وقت العصر ، إذ ظل كل شخص بقدمه ستة أقدام ونصف بالتقريب . ثم ظل الزوال يزيد كل يوم إن كان سفره من أول الصيف . وإن كان من أول الشتاء فينقص كل يوم . وأحسن ما يعرف به ظل الزوال الميزان فليستصحبه المسافر . وليتعلم اختلاف الظل به في كل وقت . وإن عرف موقع الشمس من مستقبل القبلة وقت الزوال وكان في السفر في موضع ظهرت القبلة فيه بدليل آخر ، فيمكنه أن يعرف الوقت بالشمس بأن تصوير بين عينيه مثلا إن كانت كذلك في البلد .

وأما وقت المغرب فيدخل بالغروب ، ولكن قد تحجب الجبال المغرب عنه ، فينبغي أن ينظر إلى جانب المشرق فهما ظهر سواد في الأفق مرتفع من الأرض قدر ربح فقد دخل وقت المغرب .

وأما العشاء فيعرف بغيوبة الشفق - وهو الحرة - فإن كانت محجوبة عنه بجبال فيعرفه بظهور الكواكب الصغار وكثرتها ، فإن ذلك يكون بعد غيوبة الحرة .

وأما الصبح فيبدو في الأول مستطيلا كذنب السرحان فلا يحكم به إلى أن ينقضي زمان . ثم يظهر بياض

معتز لا يعسر إدراكه بالعين لظهوره ، فهذا أول الوقت . قال صلى الله عليه وسلم « ليس الصبح هكذا - وجمع بين كفيه - وإنما الصبح هكذا - ووضع إحدى سبائتيه على الأخرى وفتحهما - (١) » وأشار به إلى أنه معتز . وقد يستدل عليه بالمازل وذلك قريب لتحقيق فيه ، بل الاعتماد على مشاهدة انتشار البياض عرضا لأن قوما ظنوا أن الصبح يطلع قبل الشمس بأربع منازل ، وهذا خطأ لأن ذلك هو الفجر الكاذب . والذي ذكره المحققون أنه يتقدم على الشمس بمنزلتين وهذا قريب ، ولكن لا اعتماد عليه فإن بعض المنازل تطلع معتزة منحرفة فيقصر زمان طلوعها ، وبعضها منتصبه فيطول زمان طلوعها ، ويختلف ذلك في البلد اختلافا يطول ذكره . نعم تصلح للمنازل لأن يعلم بها قرب وقت الصبح وبعده ، فأما حقيقة أول الصبح فلا يمكن ضبطه بمنزلتين أصلا . وعلى الجملة فإذا بقيت أربع منازل إلى طلوع قرن الشمس بمقدار منزلة يتيقن أنه الصبح الكاذب ، وإذا بقي قريب من منزلتين يتحقق طلوع الصبح الصادق ، ويبقى بين الصبحين قدر ثلثي منزلة بالتقريب يشك فيه أنه من وقت الصبح الصادق أو الكاذب ، وهو مبدأ ظهور البياض وانتشاره قبل اتساع عرضه . فمن وقت الشك ينبغي أن يترك الصائم السحور ، ويقدم القائم الوتر عليه ولا يصلي صلاة الصبح حتى تنقضي مدة الشك ، فإذا تحقق صلى . ولو أراد مريد أن يقتدر على التحقيق وقتا معينا يشرب فيه متسحرا ويقوم عقيبه ويصلي الصبح متصلا به لم يقدر على ذلك ، فليس معرفة ذلك في قوة البشر أصلا ، بل لابد من مهلة للتوقف والشك . ولا اعتماد إلا على العيان ، ولا اعتماد في العيان إلا على أن يصير الضوء منتشرا في العرض حتى تبدو مبادئ الصفرة . وقد غلط في هذا جمع من الناس كثير يصلون قبل الوقت . ويدل عليه ما روى أبو عيسى الترمذي في جامعه بإسناده عن طلق بن علي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كلوا واشربوا ولا يهينكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض اسمك الآخر (٢) » ، وهذا صريح في رعاية الحرمة . قال أبو عيسى - وفي الباب عن عدى بن حاتم وأبي ذر وسمرة بن جندب - وهو حديث حسن غريب والعمل على هذا عند أهل العلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كلوا واشربوا مادام الضوء ساطعا . قال صاحب الغريبين : أي مستطيلا . فإذا لا ينبغي أن يعول إلا على ظهور الصفرة وكأنها مبادئ الحرمة . وإنما يحتاج المسافر إلى معرفة الأوقات لأنه قد يبادر بالصلاة قبل الرحيل حتى لا يشق عليه النزول ، أو قبل النوم حتى يستريح . فإن وطن نفسه على تأخير الصلاة إلى أن يتيقن قسمة نفسه بفوات فضيلة أول الوقت ويتجشم كلفة النزول وكلفة تأخير النوم إلى التيقن استغنى عن تعلم علم الأوقات . فإن المشكل أوائل الأوقات لا أوساطها .

(١) حديث : ليس الصبح هكذا - وجمع كفه - وإنما الصبح هكذا - ووضع إحدى سبائتيه على الأخرى وفتحهما وأشار إلى أنه معتز - أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح مختصر دون الإشارة بالكف والسبائتين ، ولأحمد من حديث طلق بن علي « ليس الفجر المستطيل في الأفق لكنه المعتز الآخر » وإسناده حسن . (٢) حديث طلق بن علي : كلوا واشربوا ولا يهينكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الآخر ، قال المصنف : رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه وقال : حسن غريب وهو كما فكر ، ورواه أبو داود أيضا .

كتاب آداب السماع والوجد

وهو الكتاب الثامن من ربيع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحرق قلوب أوليائه بنار محبته ، واسترق همهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته ، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته ، حتى أصبحوا من تذم روح الوصال سكرى - وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى ، فلم يروا فى الكونين شيئاً سواه ، ولم يذكروا فى الدارين إلا إياه ، إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى المصور بصائرهم ، وإن قرعت أسماعهم نغمة سبقت إلى المحبوب سرائرهم ، وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مبهج أو مشوق أو مهيج لم يكن انزعاجهم إلا إليه ، ولا طربهم إلا به ولا قلقهم إلا عليه ، ولا حزنهم إلا فيه ولا شوقهم إلا إلى ما لديه ، ولا انبعاثهم إلا له ولا ترددهم إلا حواله . فنه سماعهم ، وإليه استماعهم ، فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم ، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايتهم ، واستخلصهم من بين أصفياؤه وخاصته . والصلاة على محمد المبعوث برسالته وعلى آله وأصحابه أئمة الحق وقادته ، وسلم كثيراً .

أما بعد : فإن القلوب والسرائر ، خزائن الأسرار ومعادن الجواهر ، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار فى الحديد والحجر ، كما أخفى الماء تحت التراب والمدر ، ولا سبيل إلى استئارة خفاياها إلا بقوادح السماع ولا منفذ إلى القلوب إلا من دهليز الأسماع ، فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها ، وتظهر محاسنها أو مساوئها ، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه . كما لا يرشح الإناء إلا بما فيه ، فالسماع للقلب محك صادق ، ومعيار ناطق ، فلا يصل نفس السماع إليه ، إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه ، وإذا كانت القلوب بالطباع مطيعة للاسماع حتى أبدت بوارداتها مكانها ، وكشفت بها عن مساوئها وأظهرت محاسنها ، وجب شرح القول فى السماع والوجد وبيان ما فيهما من الفوائد والآفات ، وما يستحب فيهما من الآداب والهيئات ، وما يتطرق إليهما من خلاف العلماء فى أنهما من المحظورات أو المباحات . ونحن نوضح ذلك فى باين . (الباب الأول) فى إباحة السماع . (الباب الثانى) فى آداب السماع وآثاره فى القلب بالوجد وفى الجوارح بالرقص والرعق وتمزيق الثياب .

الباب الأول : فى ذكر اختلاف العلماء فى إباحة السماع وكشف الحق فيه

بيان أقاويل العلماء والمتصوفة فى تحليله وتحريمه

اعلم أن السماع هو أول الأمر ، ويشمر السماع حالة فى القلب تسمى الوجد ، ويشمر الوجد تحريك الأطراف إما بمركبة غير موزونة فتسمى الاضطراب وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص ، فلنبداً بحكم السماع وهو الأول : وتنقل فيه الأقاويل المعربة عن المذاهب فيه . ثم نذكر الدليل على إباحته ، ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه .

فأما نقل المذاهب : فقد حكى القاضى أبو الطيب الطبرى عن الشافعى ومالك وأبي حنيفة وسفيان وجماعة من

العلماء ألفاظا يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه .

وقال الشافعي رحمه الله في كتاب آداب القضاء : إن الغناء هو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته .

وقال القاضي أبو الطيب : استماعه من المرأة التي ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب ، وسواء كانت حرة أو مملوكة وقال : قال الشافعي رضي الله عنه صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته ، وقال : وحكى عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول وضعته الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن . وقال الشافعي رحمه الله : ويكره من جهة الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي ، ولا أحب اللعب بالشطرنج وأكره كل ما يلعب به الناس ؛ لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة .

وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء وقال : إذا اشترى جارية فوجدتها مغنية كان لردّها . وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا ابن سعد وحده .

وأما أبو حنيفة رضي الله عنه فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب ، وكذلك سائر أهل الكوفة : سفيان الثوري وحامد وإبراهيم والشعبي وغيرهم . فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري .

ونقل أبو طالب المكي إباحة السماع من جماعة فقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم ، وقال : قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي بإحسان ، وقال : لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهي الأيام المعدادات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق ، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا ، فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعون الناس التلحين قد أعدهن للصوفية ، قال : وكان لعطاء جارتان يلحزان فكان إخوانه يستمعون لهما . قال : وقيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كانا لجنيد وسرى السقطي وذو النون يستمعون ؟ فقال وكيف أنكر السماع وقد أجازوه وسمعه من هو خير مني ؟ فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع ، وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع .

وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال : فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها تزداد إلا قلة ، حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء . ورأيت في بعض الكتب هذا محكياً بعينه عن الحارث المحاسبي وفيه ما يدل على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجده في الدين وتشميره . قال : وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيه سماع . وحكى غير واحد أنه قال : اجتمعنا في دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع وأبو بكر ابن داود وابن مجاهد في نظرهم ، فحضر سماع فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود في أن يسمع فقال ابن داود : حدثني أبي عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع وكان أبي يكرهه وأنا على مذهب أبي ، فقال أبو القاسم ابن بنت منيع : أما جدّي أحمد ابن بنت منيع فحدثني عن صالح بن أحمد أن أباه كان يسمع قول ابن الحُبَازة ، فقال ابن مجاهد لابن داود : دعني أنت من أبيك ، وقال لابن بنت منيع : دعني أنت من جدك أي شيء تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام ؟ فقال : ابن داود لا ، قال : فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده ؟ قال : لا ، قال : فإن أنشدته وطوله وقصر منه الممدود ومدّ منه المقصور أيحرم عليه ؟ قال : أنا لم أقف لسيطان واحد فكيف

أقوى لـ شيطانين ؟ قال : وكان أبو الحسن العسقلاني الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع ، وصنف فيه كتاباً ورد فيه على منكره ، وكذلك جماعة منهم صنفوا في الرد على منكره .

وحكى عن بعض الشيوخ أنه قال : رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقلت له : ما تقول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا ؟ فقال : هو الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء . وحكى عن عمشاد الدينوري أنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت : يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئاً ؟ فقال : ما أنكر منه شيئاً ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن . وحكى عن طاهر بن بلال الهمداني الوراق - وكان من أهل العلم - أنه قال : كنت معتكفاً في جامع جدّة على البحر فرأيت يوماً طائفة يقولون في جانب منه قولاً ويستمعون ، فأنكرت ذلك بقاى وقلت : في بيت من بيوت الله يقولون الشعر ؟ قال : فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وإذا أبو بكر يقول شيئاً من القول والنبي صلى الله عليه وسلم يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك ، فقلت في نفسي : ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع وأبو بكر يقول ؟ فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هذا حق بحق - أوقال حق من حق - أنا أشك فيه .

وقال الجنيد : تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع ، عند الأكل لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند المذاكرة لأنهم لا يتحاورون إلا في مقامات الصديقين ، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقاً . وعن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع ف قيل له : أثبت يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ فقال : لاني الحسنات ولاني السيئات ، لأنه شبيه باللغو وقال الله تعالى ﴿ لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾

هذا ما نقل من الأقاويل . ومن طلب الحق في التقليد فهما استقصى تعارضت عنده هذه الأقاويل فيبقى متحيراً أو مائلاً إلى بعض الأقاويل بالتشهي ، وكل ذلك قصور بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقه وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة كما سنذكره .

بيان الدليل على إباحة السماع

اعلم أن قول القائل : السماع حرام ، معناه أن الله تعالى يعاقب عليه ، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص . وأعني بالنص ما أظهره صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله ، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله . فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه ، وبقي فعلاً لـ اخرج فيه كسائر المباحات . ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس ، ويتضح ذلك في جوابنا عن أدلة المائلين إلى التحريم . ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلماً كافياً في إثبات هذا الغرض ، لكن نستفتح ونقول : قد دل النص والقياس جميعاً على إباحته .

أما القياس : فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها ، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب ، فالوصف الأعم أنه صوت طيب . ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره . والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار ، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات .

أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغي أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به ، وللإنسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة إدراك ،

وفي مدركات تلك الحاسة مايستلذ ، فلذة النظر في المبصرات الجميلة كالحضرة والماء الجاري والوجه الحسن وبالجملة سائر الألوان الجميلة ، وهي في مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة . وللشم الروائح الطيبة ، وهي في مقابلة الالان المستكرهة . وللذوق الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحوضة ، وهي في مقابلة المرارة المستبشعة . وللس لذة اللين والتعومة والملاسة ، وهي في مقابلة الخشونة والضراسة . وللعقل لذة العلم والمعرفة ، وهي في مقابلة الجهل والبلادة .

فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصوت العنادل والمزامير ، ومستكرهة كنهيق الحير وغيرها . فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها ؟

أما النص : فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده إذ قال ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ فقيل هو الصوت الحسن وفي الحديث « ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته »^(٢) ، وفي الحديث في معرض المدح لداود عليه السلام « أنه كان حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والوحوش والطيور لسماع صوته ، وكان يحمل في مجلسه أربعائة جنازة وما يقرب منها في الأوقات »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم في مدح أبي موسى الأشعري « لقد أعطى زممارا من مزامير آل داود »^(٤) ، وقول الله تعالى ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحير ﴾ يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن . ولو جاز أن يقال إنما أيسح ذلك بشرط أن يكون في القرآن للزومه أن يحرم سماع صوت الغندليب لأنه ليس من القرآن . وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة والمعاني الصحيحة ؟ وإن من الشعر لحكمة . فهذا نظر في الصوت من حيث أنه طيب حسن .

الدرجة الثانية : النظر في الصوت الطيب الموزون ؛ فإن الوزن وراء الحسن فكم من صوت حسن خارج عن الوزن وكمن صوت موزون غير مستطاب . والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة : فإنها إما أن تخرج من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره ، وإما أن تخرج من خنجره حيوان ؛ وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره كصوت العنادل والقهارى وذات السجع من الطيور ؛ فهي مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع فلذلك يستلذ سماعها . والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات ، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر وهو تشبيه للصنعة بالخلقة . وما من شيء توصل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال في الخلقة التي استأثر الله تعالى باختراعها ؛ فنه تعلم الصناعات وبه قصدوا الاقتداء وشرح ذلك يطول . فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذهاب إلى تحريم صوت الغندليب وسائر الطيور .

كتاب السماع والوجد

الباب الأول في ذكر اختلاف العلماء في إباحته

(١) حديث : ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت « أخرجه الترمذى في الشمائل عن قتادة وزاد قوله « وكان نبيكم حسن الوجه حسن الصوت » ورويناه متصلًا في النيلانيات من رواية قتادة عن أنس ، والصواب الأول قاله الدارقطنى ورواه ابن مردويه في التفسير من حديث علي بن أبي طالب وطرقه كلها ضعيفة .

(٢) حديث « لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لى قينته » تقدم في كتاب تلاوة القرآن .

(٣) حديث : كان داود حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور ... الحديث . لم أجده أصلا . (٤) حديث « لقد أوتى زممارا من مزامير آل داود » قاله في مدح أبي موسى ؛ تقدم في تلاوة القرآن .

ولافرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان . فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمي كالذي يخرج من حلقه أو من القضيب والطلب والدف وغيره .

ولا يستثنى من هذه إلا الملهى والأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها ^(١) لا لذتها إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يمتد به الإنسان . ولكن حرمت الخمر واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدنان فخرم معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط ، وكان تحريمها من قبل الانبعاث كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجماع ، وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوأتين ، وحرم قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو إلى السكر ، وما من حرام إلا وله حريم يطيف به ، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ليكون حمي للحرام ووقاية له وحظا ما ناعا حوله كما قال صلى الله عليه وسلم « إن لكل ملك حمي وإن حمي الله محارمه ^(٢) » ، فهي محرمة تبعا لتحريم الخمر لثلاث علل (إحداها) أنها تدعو إلى شرب الخمر فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ، ومثل هذه العلة حرم قليل الخمر . (الثانية) أنها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر مجالس الأنايس بالشرب فهي سبب الذكر ، والذكر سبب انبعاث الشوق وانبعاث الشوق إذا قوى فهو سبب الإقدام . ولهذا العلة نهى عن الانتباز في المزفت والختم والنفير ^(٣) ، وهي الأواني التي كانت مخصوصة بها . فمعنى هذا أن مشاهدة صورتها تذكرها وهذه العلة تفارق الأولى إذ ليس فيها اعتبار لذة في الذكر إذ لا لذة في رؤية الفتننة وأواني الشرب لكن من حيث التذكر بها ، فإن كان السماع يذكر الشرب تذكيرا يشوق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب فهو منهي عن السماع لخصوص هذه العلة فيه . (الثالثة) الاجتماع عليها : لما أن صار من عادة أهل الفسق فيمنع من التشبه بهم ؛ لأن من تشبه بقوم فهو منهم . وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعارا لأهل البدعة خوفا من التشبه بهم . وبهذه العلة يحرم ضرب الكوبة - وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين - وضربها عادة المخنثين ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحجيج والغزو ، وبهذه العلة نقول لو اجتمع جماعة وزينوا مجلسا وأحضروا آلات الشرب وأقداحه ، وصبوا فيها السكنجين ، ونصبوا ساقيا يدور عليهم ويسقيهم ، فيأخذون من الساق ويشربون ويحيي بعضهم بعضا بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم ، وإن كان المشروب مباحا في نفسه ، لأن في هذا تشبها بأهل الفساد ، بل لهذا ينهى عن لبس القباء وعن ترك الشعر على الرأس قرعا في بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد ، ولا ينهى عن ذلك فيما وراء النهر لاعتیاد أهل الصلاح ذلك فيهم . فهذه المعاني حرم المزارع العراقي والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها . وما عدا ذلك فليس في معناها كشاهين الرعاة والحجيج وشاهين الطباليين والطلب والقضيب ، وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب لأن كل ذلك لا يتعلق بالخمر ولا يذكر بها ولا يشوق إليها ولا يوجب التشبه بأربابها

(١) حديث : المنع من الملهى والأوتار والمزامير . أخرجه البخاري من حديث أبي عامر وأبي مالك الأشعري « ليكون في أمتي أقوام يستحلون الخمر والحرير والمناظر » صورته عند البخاري صورة تعليق ولقد كان ضعفه ابن حزم ووصله أبو داود والاسماعيلي . والمناظر : الملهى ؛ قاله الجوهرى ، ولأحمد من حديث أبي أمامة « أن الله أمرني أن أحق المزامير والسكيات - يعني البرابط - والمناظر » وله من حديث قيس بن سعد بن عباد « أن ربي حرم على الخمر والكوبة والفنين » وله في حديث أبي أمامة باستحلالهم الخمر وضربهم بالدوف . وكلها ضعيفة ، ولأبي الشيخ من حديث حماد « الاستماع إلى الملهى معصية ... الحديث » ولأبي داود من حديث ابن عمر : سمع مزاراً فوضع أصبعه على أذنيه . قال أبو داود : وهو منكر .

(٢) حديث « أن لكل ملك حمي وإن حمي الله محارمه » تقدم في كتاب الحلال والحرام

(٣) حديث : انتهى عن الختم والمزفت والنفير . متفق عليه من حديث ابن عباس .

فلم يكن في معناها . فبقى على أصل الإباحة قياساً على أصوات الطيور وغيرها ، بل أقول سماع الأوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضاً . وبهذا يتبين أنه ليست العلة في تحريمها مجرد اللذة الطيبة ، بل القياس تحليل الطيبات كلها إلا ما في تحليله فساد . قال الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ فهذه الأصوات لا تحرم من حيث إنها أصوات موزونة وإنما تحرم بعارض آخر . كما سيأتي في العوارض المحرمة .

الدرجة الثالثة : الموزون والمفهوم ، وهو الشعر وذلك لا يخرج إلا من حجرة الإنسان فيقطع بإباحة ذلك لأنه ما زاد إلا كونه مفهوماً ، والكلام المفهوم غير حرام والصوت الطيب الموزون غير حرام ، فإذا لم يحرم الآحاد فن أن يحرم المجموع ؟ نعم ينظر فيما يفهم منه فإن كان فيه أمر محظور حرم نثره ونظمه وحرم النطق به سواء كان بالحن أو لم يكن ، والحق فيه ما قاله الشافعي رحمه الله إذ قال : الشعر كلام فحسنة حسن وقبيحة قبيح . ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده مع الألحان . فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحاً . ومهما انضم مباح إلى مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظوراً لا تتضمنه الآحاد . ولا محظور ههنا وكيف ينكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ؟ وقال عليه السلام : لأن من الشعر لحكمة ^(٢) ، وأنشدت عائشة رضي الله عنها :

ذهب الذين يعاش في أكنا ففهم وبقيت في خلف كجلك الأجر

وروي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما ، وكان بها وباء فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله

وكان بلال إذا أفلحت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل آتين ليلة بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة رضي الله عنها : فأخبرت بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ^(٣) ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول :

(١) حديث : إنشاد الشعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم : متفق عليه من حديث أبي هريرة : أن عمر مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك ... الحديث ، وسلم من حديث عائشة إنشاد حسان : هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء ... القصيدة وإنشاد حسان أيضاً : ولأن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد والبخاري لنقاد ابن رواحة :

وفينا رسول الله يسلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع .. الأبيات

(٢) حديث « لأن من الشعر لحكمة » رواه البخاري من حديث أبي بن كعب وتقدم في العلم . (٣) حديث عائشة في الصحيحين : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال ... الحديث . وفيه إنشاد أبي بكر :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله

ألا ليت شعري هل آتين ليلة بواد وحولي إذخر وجليل

وهل أردت يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت : هو في الصحيحين كما ذكر المصنف لكن أصل الحديث والشعر عند البخاري فقط ليس عند مسلم .

هذا الحال لاحال خير هذا - أبر - ربنا وأظهر

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم مرة أخرى :

لاهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة^(١)

وهذه في الصحيحين . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يؤيد حسان بروح القدس مانافح أو فاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) ، ولما أنشده النابتة شعره قال له صلى الله عليه وسلم : لا يفضض الله فاك^(٣) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناشدون عنده الأشعار وهو يتبسم^(٤) ، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول : هيه هيه ، ثم قال : إن كاد في شعره ليسلم^(٥) ، وعن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدى له في السفر . وإن أنجشة كان يحده بالنساء ، والبراء بن مالك كان يحده بالرجال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أنجشة سوفك بالقوارير^(٦) ، ولم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة رضى الله عنهم وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره ، بل ربما كانوا يلتمسون

(١) حديث : كان صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول : هذا الحال لاحال خير هذا أبر - ربنا - وأظهر

وقال صلى الله عليه وسلم مرة أخرى :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

قال المصنف : والبيتان في الصحيحين . قلت : البيت الأول انفرد به البخارى في قصة الهجرة من رواية هروة مرسل وفيه البيت الثاني أيضا إلا أنه قال : الأجر بدل « العيش » تمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي؛ قال ابن شهاب : ولم يبلنا في الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت والبيت الثاني في الصحيحين من حديث أنس يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم يقولون :

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

وليس البيت الثاني موزونا ، وفي الصحيحين أيضا أنه قال في حفر الخندق بافظ « فبارك في الأنصار والمهاجرة » وفي رواية « فافخر » وفي رواية لمسلم « فأكرم » ولهما من حديث سهل بن سعد « فافخر للمهاجرين والأنصار » .

(٢) حديث : كان يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح ... الحديث . أخرجه البخارى تعليقا ، وأبو داود والترمذى والحاكم متصلا من حديث عائشة ، قال الترمذى : حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، وفي الصحيحين أنها قالت : لأنه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٣) حديث أنه قال للنابتة لما أنشده شعرا : لا يفضض الله فاك . رواه البخارى في معجم الصحابة ، وابن عبد البر في الاستيعاب بإسناد ضعيف من حديث النابتة واسمه قيس بن عبد الله قال : أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم :

بلنا السماء مجدا وجدودنا ولما أنجزو فوق ذلك مظهرنا ... الأبيات

ورواه الزبارة بلفظ « علونا العباد عفة وتكرما ... الأبيات » وفيه : فقال « أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فاك » وللحاكم من حديث خزيمة بن أوس : سمعت للعباس يقول : يا رسول الله لى أريد أن أمتدحك ، فقال « قل لا يفضض الله فاك » فقال العباس : من قبلها طبت في الغلال وفي . مستودع حيث ينصف الورق ... الأبيات

(٤) حديث عائشة : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناشدون الأشعار وهو يتبسم . أخرجه الترمذى من حديث جابر بن سمرة وصححه ولم أقف عليه من حديث عائشة . (٥) حديث الشريد : أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول : هيه هيه ... الحديث . رواه مسلم . (٦) حديث أنس : كان يحدى له في السفر وإن أنجشة كان يحده بالنساء وكان البراء بن مالك يحده بالرجال ... الحديث . رواه أبو داود الطيالسى وأثنى الشيخان منه على قصة أنجشة دون ذكر البراء بن مالك .

ذلك تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ . فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ مؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة .

الدرجة الرابعة : النظر فيه من حيث إنه محرك للقلب ومهييج لما هو الغالب عليه . فأقول : بته تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً . فمن الأصوات ما يفرح ، ومنها ما يحزن ، ومنها ما ينوم ، ومنها ما يضحك ويطرب ، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس . ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر ، بل جار في الأوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج . وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهد ؟ فإنه يسكنه الصوت الطيب عن بكائه وتصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه . والجل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الأحمال الثقيلة . ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة ، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولفه ، فتراها إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت الحامل والأحمال إذا سمعت منادى الحداء تمت أعناقها وتصغى إلى الحادى ناصية آذانها وتسرع في سيرها حتى تنزع عليها أحمالها ومحاملها ، وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها . فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرقى - رضى الله عنه قال : كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل منهم وأدخلني خبائه ، فرأيت في الخباء عبداً أسود متيداً بقيد ، ورأيت جمالا قدماء بين يدي البيت وقد بقى منها جل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه ، فقال لي الغلام : أنت ضيف ولك حق فتشفع في إلى مولاي فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك في هذا القدر ، فعساه يحل القيد عني ، قال . فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت لا آكل ما لم أشفع في هذا العبد ، فقال : إن هذا العبد قد أفقرني وأهلك جميع مالي ، فقلت . ماذا فعل ؟ فقال . إن له صوتاً طيباً وإنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال ، فحملها أحمالاً ثقالا وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب نغمته ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبته لك ، قال : فأحببت أن أسمع صوته ، فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقي الماء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهي ، فما أظن أنى سمعت قط صوتاً أطيّب منه . فإذا ن تأثير السماع في القلب محسوس . ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم ، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة . ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته . ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يحز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم ما في القلب .

قال أبو سليمان : السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه ، فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب وهي سبعة مواضع :

الأول : غناء الحجييج ، فإنهم أولاً يدورون في البلاد بالبطل والشاهين والغناء ، وذلك مباح لأنها أشعار نظمت في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها ، وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى واشتعال نيرانه إن كان ثم شوق حاصل ، أو استثارة الشوق واجتلابه إن لم يكن حاصل . وإذا كان الحج قرابة والشوق إليه محموداً كان التشويق إليه بكل ما يشوق محموداً . وكما يجوز للواعظ أن ينظم كلامه

في الوعظ ويزينه بالسجع ويشوق الناس إلى الحج بوصف البيت والمشاعر ووصف الثواب عليه جاز لغيره ذلك على نظم الشعر ، فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع في القلب ، فإذا أضيف إليه صوت طيب ونغمات موزونة زاد وقع ، فإن أضيف إليه الطبل والشاهين وحركات الإيقاع زاد التأثير . وكل ذلك جائز ما لم يدخل فيه المزامير والأوتار التي هي من شعار الأشرار ، نعم إن قصد به تشويق من لا يجوز له الخروج إلى الحج كالذي أسقط الفرض عن نفسه ولم يأذن له أبواه في الخروج ، فهذا يحرم عليه الخروج . فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع بكل كلام يشوق إلى الخروج فإن التشويق إلى الحرام حرام . وكذلك إن كانت الطريق غير آمنة وكان الهلاك غالباً لم يحز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق .

الثاني : ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو . وذلك أيضاً مباح كاللحاج ، ولكن ينبغي أن تخاف أشعارهم وطرق ألحانهم أشعار الحاج وطرق ألحانهم ، لأن استثارة داعية الغزو - بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال بالإضافة إليه - بالأشعار المشجعة . مثل قول المتنبي :
فإن لا تمت تحت السيوف مكرماً تمت وتقاس الذل غير مكرم
وقوله أيضاً :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع الثيم
وأما ذلك . وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوقة . وهذا أيضاً مباح في وقت يباح فيه الغزو . ومندوب إليه وقت يستحب فيه الغزو ، ولكن في حق من يجوز له الخروج إلى الغزو .
الثالث : الرجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء ، والغرض منها التشجيع للنفس وللأنصار وتحريك النشاط فيهم للقتال ، وفيه التمدح بالشجاعة والتجدة ، وذلك إذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع في النفس ، وذلك مباح في كل قتال مباح ، ومندوب في قتال مندوب ، ومحظور في قتال المسلمين وأهل الذمة . وكل قتال محظور ، لأن تحريك الدواعي إلى المحظور محظور . وذلك منقول عن شجعان الصحابة رضي الله عنهم كعلي وعالده رضي الله عنهما وغيرهما . ولذلك نقول : ينبغي أن يمنع من الضرب بالشاهين في معسكر الغزاة فإن صوته مرقق محزن يحلل عقدة الشجاعة ويضعف صرامة النفس ويشوق إلى الأهل والوطن ويورث الفتور في القتال ، وكذا سائر الأصوات والألحان المرفقة للقلب ، فالألحان المرفقة الحزنة تباين الألحان المحركة المشجعة فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتفتير الآراء عن القتال الواجب فهو عاص ، ومن فعله على قصد التفتير عن القتال المحظور فهو بذلك مطيع .

الرابع : أصوات النياحة ونغماتها وتأثيرها في تهيس الحزن والبكاء وملزمة الكتابة والحزن قسبان : محمود ومذموم .

فأما المذموم فكالحزن على ما فات الله تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ﴾ والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه تسخط لقضاء الله تعالى وتأسف على ما لا تدرك له . فهذا الحزن لما كان مذموماً كان تحريكه بالنياحة مذموماً فلذلك ورد الهى الصريح عن النياحة (١) .

وأما الحزن المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه ، وبكاؤه على خطاياه . والبكاء والتباكى

(١) حديث : النهى عن النياحة . متفق عليه من حديث أم عطية : أخذ علينا النبي صلى الله عليه وسلم في البيعة أن لا ننوح ،

والحزن والتحازن على ذلك محمود وعليه بكاء آدم عليه السلام . وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود لأنه يبعث على التسمير للتدارك ، ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محمودة إذ كان ذلك مع دوام الحزن وطول البكاء بسبب الخطايا والذنوب ، فقد كان عليه السلام يبكي ويبكى ويحزن حتى كانت الجناز ترفع من مجالس نياحته . وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه : وذلك محمود لأن المفضي إلى المحمود محمود . وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بألحانه الأشعار المحزنة المرفقة للقلب ولا أن يبكي ويتباكى ليتوصل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه .

الخامس : السماع في اوقات السرور تأكيداً للسرور وتهيجاً له ، وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحاً كالغناء في أيام العيد وفي العرس وفي وقت قدوم الغائب وفي وقت الوليمة والعقيقة وعند ولادة المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن العزيز . وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به . ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب فكل ما جاز السرور به جاز لإثارة السرور فيه . ويدل على هذا من النقل لإنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) .

طلع البدر علينا * من ثنيات الودع وجب الشكر علينا * مادعا لله داع

فهذا إظهار السرور لقدومه صلى الله عليه وسلم وهو سرور محمود ، فأظهاره بالشعر والغناء والرقص والحركات أيضاً محمود . فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم أنهم حجوا في سرور أصابهم ^(٢) - كما سيأتى في أحكام الرقص - وهو جائز في قدوم كل قادم يجوز الفرح به وفي كل سبب مباح من أسباب السرور . ويدل على هذا ما روى في الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذى أسأله ^(٣) ، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو لإشارة إلى طول مدة وقوفها . وروى البخارى ومسلم أيضاً في صحيحهما حديث عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها : أن أبابكر رضى الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام من تدفنان وتضريان والنبي صلى الله عليه وسلم متغش بثوبه فأتتهما أبوبكر رضى الله عنه فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : « دعهما يا أبابكر فإنها أيام عيد » وقالت عائشة رضى الله عنها : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر رضى الله عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمنا يا بنى أرفدة ^(٤) ، يعنى من الأمن ومن حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفيه : تغنيان وتضريان ^(٥) . وفي حديث أبي طاهر

(١) حديث . لإنشاد النساء عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا مادعا لله داع

أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث عائشة معضلاً وليس فيه ذكر للدف والألحان . (٢) حديث : حجج جماعة من الصحابة في سرور أصابهم . أخرجه أبو داود من حديث علي وسيأتى في الباب الثانى . (٣) حديث عائشة : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد ... الحديث . هو كما ذكره المصنف أيضاً في الصحيحين لكن قوله لأنه فيها من رواية عقيل عن الزهري ليس كما ذكر بل هو عند البخارى كما ذكر وعند مسلم من رواية عمرو بن الحارث عنه .

(٤) حديث عائشة : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمنا يا بنى أرفدة » تقدم قبله بحديث دون زجر عمرهم ... إلى آخره . فرواه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله « أمنا يا بنى أرفدة » بل قال « دعهم يا عمر » زاد النسائى « فإسماعيل بنو أرفدة » ولها من حديث عائشة « دونكم بنى أرفدة » وقد ذكره المصنف بعد هذا . (٥) حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفيه « يتغنيان ويضريان » رواه مسلم وهو عند البخارى من رواية الأوزاعي عن ابن شهاب .

عن ابن وهب : والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحبيشة يلعبون بجرابهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستترني بثوبه - أو بردائه - لكي أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا الذي أنصرف^(١) ، وروى عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت ألعب بالبئات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وكان يأتيني صواحب لي فكنن يتقنعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسر لمجيئتهن إلى فيلعبن معي^(٢) وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها يوما « ما هذا ؟ » قالت : بناتي قال « فإلهذا الذي أرى في وسطهن ؟ » قالت : فرس قال « ما هذا الذي عليه ؟ » قالت : جناحان قال « فرس له جناحان » قالت : أو ماسمعت أنه كان لسليمان بن داود عليه السلام خيل لها أجنحة ؟ قالت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجمه . والحديث محمول عندنا على عادة الصبيان في اتخاذ الصورة من الحزف والخزف والرفع من غير تكميل صورته بدليل ما روى في بعض الروايات أن الفرس كان له جناحان من رفاع . وقالت عائشة رضي الله عنها : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعث فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر رضي الله عنه فاتهرني وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « دعهما » فلما غفل غمزتهما فخرجتا^(٣) . وكان يوم عيدي لعب فيه السودان بالدرق والحراب فأما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما قال « تشتهين تنظرين ، فقلت : نعم ، فأقامني وراءه وخذى على خده ويقول « دونكم يا بني أرفدة » حتى إذا مللت قال « حسبك » قلت : نعم ، قال « فاذهي » وفي صحيح مسلم : فوضعت رأسي على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا الذي انصرفت .

فهذه الأحاديث كلها في الصحيحين وهو نص صريح في أن الغناء واللعب ليس بجرام . وفيها دلالة على أنواع من الرخص (الاول) اللعب : ولا يخفى عادة الحبيشة في الرقص واللعب . (والثاني) فعل ذلك في المسجد (والثالث) قوله صلى الله عليه وسلم « دونكم يا بني أرفدة » وهذا أمر باللعب والتماس له فكيف يقدر كونه حراما ؟ (والرابع) منعه لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما عن الإنكار والتغيير وتعليقه بأنه يوم عيد أي هو وقت سرور ؟ وهذا من أسباب السرور (والخامس) وقوفه طويلا في مشاهدة ذلك وسماعه لموافقة عائشة رضي الله عنها . وفيه دليل على أن حسن الخلق في تطيب قلوب النساء والصبيان بمشاهدة اللعب أحسن من خشونة الزهد والتقصيف في الامتناع والمنع منه (والسادس) قوله صلى الله عليه وسلم ابتداء لعائشة « تشتهين أن تنظري » ولم يكن ذلك عن اضطرار إلى مساعدة الأهل خوفا من غضب أو وحشة ، فإن الالتباس إذا سبق ربما كان الرد سبب وحشة وهو محذور فيقدم محذور على محذور . فأما ابتداء السؤال فلا حاجة فيه (والسابع) الرخصة في الغناء والضرب بالدف من الجاريتين ، مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان وفيه بيان أن المزمار المحرم غير ذلك (والثامن) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرع سمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع ، ولو كان يضرب بالأوتار في موضع لما جاوز الجلوس ثم لقرع صوت الأوتار سمعه . فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحريم صوت المزامير بل إنما يحرم عند خوف الفتنة .

(١) حديث أبي طاهر عن ابن وهب : والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرتي والحبيشة يلعبون بجرابهم ... الحديث . رواه مسلم أيضاً .

(٢) حديث عائشة : كنت ألعب بالبئات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وهو في الصحيحين كما ذكر المصنف لكن مختصراً إلى قولها « فيلعبن معي » . وأما الرواية المطولة التي ذكرها المصنف بقوله : وفي رواية - فليست من الصحيحين إنما رواها أبو داود بإسناد صحيح . (٣) حديث عائشة : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعث ... الحديث . هو في الصحيحين كما ذكر المصنف ، والرواية التي هزأها لمسلم انفراداً بها مسلم كما ذكر .

فهذه المقاييس والنصوص تدل على إباحة الغناء والرقص والضرب بالدف والعب بالدوق والحرب والنظر إلى رقص الحبشة والزواج في أوقات السرور كلها - قياسا على يوم العيد - فإنه وقت سرور ، وفي معناه يوم العرس والولية والعقيقة والختان ويوم القدوم من السفر وسائر أسباب الفرح وهو كل ما يجوز به الفرح شرعا ، ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام فهو أيضا مظنة السماع .

السادس : سماع العشاق تحريكا للشوق وتهيجا للعشق وتسلية للنفس . فإن كان في مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة ، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهيج الشوق . والشوق وإن كان ألما ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال فإن الرجاء لذيد واليأس مؤلم ، وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق والحب للشئ المرجو . ففي هذا السماع تهيج العشق وتحريك الشوق وتحصيل لذة الرجاء المقدر في الوصال مع الإطباب في وصف حسن المحبوب . وهذا حلال لأن كان المشتاق إليه من يباح وصاله كمن يعشق زوجته أو سريته ، فيصغى إلى غنائها لتضاعف لذته في لقائها . فيحظى بالمشاهدة البصر ، وبالسماع الأذن ، ويفهم لطائف معاني الوصال والفراق القلب ، فتترادف أسباب اللذة . فهذه أنواع تتمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ﴾ وهذا منه . وكذلك إن غضبت منه جارية أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب فله أن يحرك بالسماع شوقه وأن يستثير به لذة رجاء الوصال ، فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده . إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء . وأما من يتمثل في نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها وكان ينزل ما يسمع على ما تمثل في نفسه فهذا حرام لأنه محرك للفكر في الأفعال المحظورة ، ومهيج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه . وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب في وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إضمار شيء من ذلك : وذلك ممنوع في حقهم لما فيه من الدماء الدفين لا الأمر يرجع إلى نفس السماع . ولذلك سئل حكيم عن العشق فقال . دخان يصعد إلى دماغ الإنسان يزيله الجماع ويهيج السماع .

السابع : سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ، ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه ، فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحببه ومورز ناد قلبه ، ومستخرج مئة أحوالا من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن ذوقها . وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجدا مأخوذ من الوجود والمصادفة أي صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع . ثم تكون تلك الأحوال أسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتقويه من الكدورات كما تنقى النار الجواهر المعروضة عليها من الخبث ، ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات وهي غاية مطالب المحبين لله تعالى ونهاية ثمرة القربات كلها فالملضى إليها من جملة القربات لا من جملة المعاصي والمباحات . وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح وتسخير الأرواح لها وتأثيرها بها شوقا وفرحا وحرنا وانبساطا وانقباضا . ومعرفة السبب في تأثر الأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات . والبليد الجامد القاسي القلب المحروم عن لذة السماع يتعجب من التذاذ المستمع ووجده واضطراب حاله وتغير لونه تعجب البيمة من لذة اللوزنج ، وتعجب العنبن من لذة المباشرة ، وتعجب الصبي من لذة الرياسة واتساع أسباب الجاه ، وتعجب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلاله وعظمته ومعجائب صنعه . ولكل ذلك سبب واحد وهو أن اللذة نوع إدراك وإلادراك يستدعى مدركا ويستدعى قوة مدركة . فمن لم تسلك قوة إدراك لم يتصور منه التلذذ فكيف يدرك لذة الطعوم من فقد الذوق ؟ وكيف يدرك لذة الألحان من فقد السمع ؟ ولذة المقولات من فقد العقل ؟ وكذلك ذوق السماع

بالقلب بعد وصول الصوت إلى السمع يدرك بحاسة باطنة في القلب ، فمن فقدما عدم لاحالة لذته ولعلك تقول : كيف يتصور العشق في حق الله تعالى حتى يكون السماع محركا له ؟ فاعلم أن من عرف الله أحبه لاحالة ، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته . والمحبة إذا تأكدت سميت عشقا فلا معنى للعشق لاحبة مؤكدة مفرطة . ولذلك قالت العرب : إن محمدا قد عشق ربه . لما رآوه يتخلى للعبادة في جبل حراء . واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال والله تعالى جميل يحب الجمال . ولكن الجمال إن كان يتناسب الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر . وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات والخلق وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب . ولفظ الجمال قد يستعار أيضاً لها فيقال : إن فلاناً حسن وجميل ولا تراد صورته . وإنما يعني به أنه جميل الأخلاق محمود الصفات حسن السيرة ، حتى قد يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة استحساناً لها كما تحب الصورة الظاهرة . وقد تتأكد هذه المحبة فتسمى عشقا . وكمن من الغلاة في حب أرباب المذاهب كالشافعي ومالك وأبي حنيفة رضى الله عنهم ؟ حتى يبذلوا أموالهم وأرواحهم في نصرتهم وموالاتهم ويريدوا على كل عاشق في الغلو والمبالغة . ومن العجب أن يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته أجميل هو أم قبيح وهو الآن ميت ؟ ولكن لجمال صورته الباطنة وسيرته المرضية والخيرات الحاصلة من عمله لأهل الدين وغير ذلك من الخصال . ثم لا يعقل عشق من ترى الخيرات منه . بل على التحقيق من لاخير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسناته وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده ، بل كل حسن وجمال في العالم أدرك بالعقول والابصار والاسماع وسائر الحواس من مبتدئ العالم إلى منقرضه ومن ذروة الثريا إلى منتهى الثرى فهو ذرة من خزائن قدرته ولعة من أنوار حضراته ، فليت شعري كيف لا يعقل حب من هذا وصفه ؟ وكيف لا يتأكد عند العارفين بأوصافه حبه حتى يجاوز حداً يكون إطلاق اسم العشق عليه طلباً في حقه لقصوره عن الإنباء عن فرط محبته ؟ فسبحان من احتجب عن الظهور بشدة ظهوره واستتر عن الابصار بإشراق نوره ، ولولا احتجابه بسبعين حجاباً من نوره لأحرقت سبجات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضراته ، ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهت العقول ودهشت القلوب وتخاذلت القوى وتنافرت الأعضاء ، ولو ركبت القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادئ أنوار تجليه دكا دكا ، فأنى تطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش . وسيأتى تحقيق هذه الإشارة في كتاب المحبة . ويتضح أن محبة غير الله تعالى قصور وجهل بل المتحقق بالمعرفة لا يعرف غير الله تعالى ، إذ ليس في الوجود تحقيقاً إلا الله وأفعاله . ومن عرف الأفعال من حيث إنها أفعال لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره . فمن عرف الشافعي مثلاً رحمه الله وعلبه وتصنيفه من حيث إنه تصنيفه - لا من حيث إنه بياض وجلد وحبر وورق وكلام منظوم ولغة عربية - فلقد عرفه ولم يجاوز معرفة الشافعي إلى غيره ، ولا جاوزت محبته إلى غيره ، فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وفعله وبديع أفعاله فمن عرفها من حيث هي صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما يرى من حسن التصنيف فضل المصنف وجلالة قدره كانت معرفته ومحبته مقصورة على الله تعالى غير مجاوزة إلى سواه . ومن حد هذا العشق أنه لا يقبل الشراكة وكل ماسوى هذا العشق فهو قابل للشراكة ؛ إذ كل محبوب سواه يتصور له نظير إما في الوجود وإما في الإمكان . فإما هذا الجمال فلا يتصور له ثان لاني الإمكان ولا في الوجود . فكان اسم العشق على حب غيره مجازاً محضاً لا حقيقة . نعم الناقص القريب في نقصانه من البهيمية قد لا يدرك من لفظة العشق إلا طلب الوصال الذي هو عبارة عن تماس

ظواهر الأجسام وقضاء شهوة الوقاع . فمثل هذا الحمار ينبغي أن لا يستعمل معه لفظة العشق والشوق والوصال والأنس ، بل يجنب هذه الألفاظ والمعاني كما تجنب البهيمة الرجس والريحان وتخصص بالفت والحشيش وأوراق القضبان . فإن الألفاظ إنما يجوز إطلاقها في حق الله تعالى إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه . والأوهام تختلف باختلاف الأفهام فليتنبه لهذه الدقيقة في أمثال هذه الألفاظ ، بل لا يبعد أن ينشأ من مجرد السماع لصفات الله تعالى وجد غالب يقطع بسببه نياط القلب . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر غلاماً كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السماء ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الجبال ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق النسيم ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : إني لأسمع الله شأناً . ثم روى بنفسه من الجبل فتقطع (١) . وهذا كأنه سمع مادل على جلال الله تعالى وتعالى قدرته فطرب لذلك ووجد فرى بنفسه من الوجد . وما أنزلت الكتب إلا ليطربوا بذكر الله تعالى . قال بعضهم : رأيت مكتوباً في الإنجيل : غنينا لكم فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا . أى شوقناكم بذكر الله تعالى فلم تشتاقوا . فهذا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته وقد ظهر على القطع إباحته في بعض المواضع والندب إليه في بعض المواضع .

* فإن قلت : فهل له حالة يحرم فيها ؟ فأقول إنه يحرم بخمسة عوارض : عارض في المسمع ، وعارض في آلة الإسماع ، وعارض في نظم الصوت ، وعارض في نفس المستمع أو في مواظبته ، وعارض في كون الشخص من عوام الخلق ، لأن أركان السماع هي المسمع والمستمع وآلة الإسماع .

العارض الأول ، أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها ، وفي معناها الصبي الأمر الذي تخشى فتنته ، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الغناء ، بل لو كانت المرأة بحيث يفتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماع صوتها في القرآن أيضاً ، وكذلك الصبي الذي تخاف فتنته .

فإن قلت : فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسماً للباب أو لا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة في حق من يخاف العنت . فأقول : هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلاً ؛ أحدهما : أن الخلوة بالاجنبية والنظر إلى وجهها حرام سواء خيفت الفتنة أو لم تخف لأنها مظنة الفتنة على الجملة . فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور ؟ والثاني : أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة فلا يلحق الصبيان بالفساء في عموم الحسم بل يتبع فيه الحال : وصوت المرأة دأثر بين هذين الأصلين فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أول هيئتها ولا تدعو إلى سماع الصوت وليس تحريك النظر لشهوة الماسة كتحرريك السماع بل هو أشد . وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة فلم تزل النساء في زمن الصحابة رضى الله عنهم يكلمن الرجال في السلام والاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك . ولكن الغناء مزبد أثر في تحريك الشهوة . فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات . فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه . هذا هو الأفيص عندي ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين في بيت عائشة رضى الله عنها : إذ يعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتهما ولم يحترز منه ، ولكن لم تكن

(١) حديث أبي هريرة : إن غلاماً كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السماء ؟ فقالت : الله . الحديث . وفيه * ثم روى بنفسه من الجبل فتقطع « روى ابن حبان .

الفتنة خوفاً عليه فلذلك لم يحترز . فإذا اختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شاباً وشيخاً ولا يبعد أن يختلف الأمر في مثل هذا بالأحوال . فإننا نقول : للشيخ أن يقبل زوجته وهو صائم وليس للشاب ذلك ؛ لأن القبلة تدعو إلى الوقاع في الصوم وهو محذور ، والسمع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام فيختلف ذلك أيضاً بالأشخاص .
العارض الثاني : في الآلة ، بأن تكون من شعار أهل الشرف أو المختشين وهي المزامير والأوتار وطبل الكوبة . وهذه ثلاثة أنواع ممنوعة . وماعدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف - وإن كان فيه الجلال - وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات .

العارض الثالث : في نظم الصوت وهو الشعر فإن كان فيه شيء من الحنا والفحش والهجو أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أو على الصحابة رضي الله عنهم ، كما رتبته الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم ، فسماع ذلك حرام بالحن وغير الحن ، والمستمع شريك للقاتل . وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها فإنه لا يجوز وصف المرأة بين الرجال . وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز . فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاجى الكفار وأمره صلى الله عليه وسلم بذلك ^(١) فأما النسيب وهو التشبيه بوصف الخدود والاصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر . والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده باجن وغير الحن . وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة فإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته : فإن نزله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإحالة الفكر فيه . ومن هذا وصفه فينبغي أن يحتنب السماع رأساً فإن من غلب عليه عنق نزل كل ما يسمعه عليه ؛ سوء كان اللفظ مناسباً له أو لم يكن ، إذ بما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق الاستعارة ، فالذي يغلب على قلبه حب الله تعالى يتذكر بسواد الصدغ مثلاً ظلمة الكفر ، وبضارة الخد نور الإيمان ، وبذكر الوصال إلقاء الله تعالى ، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى في زمرة المردودين ، وبذكر الرقيب المشوش لروح الوصال عوائق الدنيا وآفات المشوشة لدوام الانس بالله تعالى ، ولا يحتاج في تنزيل ذلك عليه إلى استنباط وتفكير ومهلة ، بل تسبق المعاني الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ .
كما روى عن بعض الشيوخ ، أنه مر في السوق فسمع واحداً يقول : الخيار عشرة بحبة ، فغلبه الوجد ، فسئل عن ذلك فقال : إذا كان الخيار عشرة بحبة فساقيمة الأشرار ؟ واجتاز بعضهم في السوق فسمع قائلاً يقول : ياسعتر برى ، فغلبه الوجد فقيل له : على ماذا كان وجدك ؟ فقال : سمعته كأنه يقول اسع تر برى ، حتى إن العجمي قد يغلب عليه الوجد على الآيات المنظومة بلغة العرب فإن بعض حروفها يوازن الحروف العجمية فيفهم منها معان آخر . أنشد بعضهم :

وما زارني في الليل إلا خياله ۞

فتواجد عليه رجل أعجمي . فسئل عن سبب وجده فقال ، إنه يقول : ما زاريم . وهو كما يقول فإن لفظ زار ، يدل في العجمية على المشرف على الهلاك ، فتوهم أنه يقول : كنا مشرفون على الهلاك ، فاستشعر عند ذلك خطر هلاك الآخرة .

والمحترق في حب الله تعالى وجده بحسب فهمه ، وفهمه بحسب تخيله وليس من شرط تخيله أن يوافق مراد

(١) حديث : أمره صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بهجاء المشركين . متفق عليه من حديث البراء : أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم أو هاجهم وجبريل معك »

الشاعر ولغته . فهذا الوجد حق وصدق . ومن استشعر خطر هلاك الآخرة لجدير بأن يتشوش عليه عقله وتضطرب عليه أعضاؤه . فإذا نيس في تغيير أعيان الألفاظ كبير فائدة ، بل الذى غلب عشق مخلوق ينبغى أن يحتز من السماع بأى لفظ كان ، والذى غلب عليه حب الله تعالى فلا تضره الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المعانى اللطيفة المتعلقة بمجارى همته الشريفة .

العارض الرابع : فى المستمع ، وهو أن تكون الشهوة غالبية عليه وكان فى غرة الشباب وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ، فالسمع حرام عليه سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب ، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخذ والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها فى قلبه فتشتمل فيه نار الشهوة وتحتد بواعث الشر . وذلك هو النصرة لحزب الشيطان والتخذيلى للعقل المسافع منه الذى هو حزب الله تعالى ، والقتال فى القلب دائم جنود الشيطان وهى الشهوات ، وبين حزب الله تعالى وهو نور العقل ، إلا فى قلب قد فتحه أحد الجندين واستولى عليه بالكلية . وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لازعاجها فكيف يجوز تكثير أسلحتها وتشجيع سيوفها وأسنتها : والسمع مشحذ لأسلحة جند الشيطان فى حق مثل هذا الشخص . فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضر به .

العارض الخامس : أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوباً ، ولو غلبت عليه شهوة فيكون فى حقه محظوراً . ولكنه أيسر فى حقه كسائر أنواع اللذات المباحة ، إلا أنه إذا اتخذ ديدنه وهجيره وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السفيه الذى ترد شهادته ، فإن المواظبة على اللهو جناية . وكأن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة فكذلك بعض المباحات بالمداومة تصير صغيرة ، وهو كالمواظبة على متابعة الزنوج والحبشة والنظر إلى لعبهم على الدوام فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعاً إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج فإنه مباح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة . ومهما كان الغرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح لمافيه من ترويح القلب ، لإذراحة القلب معالجة له فى بعض الأوقات لتنبعث دواعيه فيشتغل فى سائر الأوقات بالجد فى الدنيا كالكسب والتجارة ، أو فى الدين كالصلاة والقراءة . واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد كاستحسان الخال على الخد ، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوخته فما أقبح ذلك ! فيعود الحسن قبها بسبب الكثرة فاكل حسن يحسن كثيره ولا كل مباح يباح كثيره ، بل الخبز مباح والاستكثار منه حرام . فهذا المباح كسائر المباحات .

فإن قلت : فقد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح فى بعض الأحوال دون بعض فلم أطلقت القول أولاً بالإباحة إذ إطلاق القول فى الفصل بلا أو بنعم خلف وخطأ ؟ فاعلم أن هذا غلط لأن الإطلاق إنما يتمتع لتفصيل ينشأ من عين مافيه النظر ، فأما ما ينشأ من الأحوال العارضة المتصلة به من خارج فلا يمنع الإطلاق ، ألا ترى أننا إذا سئلنا عن العسل أهو حلال أم لا ؟ قلنا : إنه حلال ، على الإطلاق مع أنه حرام على المحرور الذى يستضر به وإذا سئلنا عن الخمر قلنا : إنها حرام . مع أنها تحل لمن غص بلقمة أن يشر بها مهما لم يجد غيرها ، ولكن هى من حيث إنها نمر حرام وإنما أبيض لعارض الحاجة . والعسل من حيث إنه عسل حلال وإنما حرم لعارض الضرر ، وما يكون لعارض فلا يلتفت إليه فإن البيع حلال ويحرم بعارض الوقوع فى وقت النداء يوم الجمعة ونحوه من العوارض ، والسمع من جملة المباحات من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم وإنما تحريمه لعارض خارج

عن حقيقة ذاته . فإذا انكشف الغطاء عن دليل الإباحة فلا نبأى بمن يخالف بعد ظهور الدليل .

وأما الشافعى رضى الله عنه فليس بتحريم الغناء من مذهبه أصلاً . وقد نص الشافعى وقال فى الرجل يتخذ صناعة : لا تجوز شهادته . وذلك لأنه من اللهو المكروه الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صنعة كان منسوباً إلى السفاهة وسقوط المروءة ، وإن لم يكن محرماً بين التحريم . فإن كان لا ينسب نفسه إلى الغناء ولا يؤتى لذلك ولا يأتى لأجله وإنما يعرف بأنه قد يطرأ فى الحال فيترنم بها لم يسقط هذا مروءته ولم يبطل شهادته . واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان فى بيت عائشة رضى الله عنها ، وقال يونس بن عبد الأعلى : سألت الشافعى رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسماع فقال الشافعى . لا أعلم أحداً من علماء الحجاز كره السماع إلا ما كان منه فى الأوصاف ، فأما الحداء وذكر الأطلال والمرايع وتحسين الصوت بالحن الأشعار فباح .

وحيث قال : إنه هو مكروه يشبه الباطل فقوله « هو » صحيح . ولكن الله من حيث إنه هو ليس بحرام فلعب الحبيشة ورقصهم هو وقد كان صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ولا يكرهه . بل الله واللغو لا يؤخذ الله تعالى به إن عنى به أنه فعل ما لا فائدة فيه . فإن الإنسان لو وظف على نفسه أن يضع يده على رأسه فى اليوم مائة مرة فهذا عبث لا فائدة له ولا يحرم . قال الله تعالى ﴿ لا يؤخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء على طريق القسم من غير عقد عليه ولا تصميم والمخالفة فيه مع أنه لا فائدة فيه لا يؤخذ فكيف يؤخذ به بالشعر والرقص ؟ وأما قوله « يشبه الباطل » فهذا لا يدل على اعتقاد تحريمه ، بل لوقال : هو باطل صريحاً . لما دل على التحريم وإنما يدل على خلوه عن الفائدة ، فالباطل ما لا فائدة فيه . فقول الرجل لامرأته مثلاً : بعت نفسى منك ، وقولها : اشتريت ، عقد باطل مهما كان القصد للعب والمطابقة وليس بحرام إلا إذا قصد به التخليك المحقق منع الشرع منه . وأما قوله « مكروه » فينزل بعض المواضع التى ذكرتها لك أو ينزل على التنزيه فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج وذكر أنى أكره لعب وتعليقه يدل عليه فإنه قال : ليس ذلك من عادة ذوى الدين والمروءة . فهذا يدل على التنزيه . ورده الشهادة بالمواظبة عليه لا يدل على تحريمه أيضاً بل قد ترد الشهادة بالأكل فى السوق وما يحرم المروءة ، بل الحياكة مباحة وليست من صنائع ذوى المروءة ، وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسة فتعليقه يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه . وهذا هو الظن أيضاً بغيره من كبار الأئمة . وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم .

بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها

احتجوا بقوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال ابن مسعود والحسن البصرى والتخعى رضى الله عنهم : إن لهو الحديث هو الغناء . وروى عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها ^(١) » ، فنقول : أما القينة فالمراد بها الجارية التى تغنى للرجال فى مجلس الشرب . وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفسق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام ، وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محظور ، فأما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث ، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة . بدليل ما روى فى الصحيحين من غناء الجاريتين فى بيت عائشة رضى الله عنها . وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالاً به عن سبيل الله

(١) حديث عائشة : إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها . أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد ضعيف ، قال البيهقى ليس بمحفوظ .

فهو حرام مذموم ، وليس النزاع فيه ، وليس كل غناء بدلا عن الدين مشترى به ومضلا عن سبيل الله تعالى ، وهو المراد في الآية . ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراما .

حكى عن بعض المناقذين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمر بقتله ، ورأى فعله حراما لما فيه من الإضلال . فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم . واحتجوا بقوله تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الغناء بلغة حمير - يعنى السمد - فنقول : ينبغي أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضا لأن الآية تشتمل عليه .

* فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم ؟ فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين كما قال تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ وأراد به شعراء الكفار . ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه .

واحتجوا بما روى جابر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى ^(١) ، فقد جمع بين النياحة والغناء ؟ قلنا : لا جرم كما استثنى منه نياحة داود عليه السلام ونياحة المذنبين على خطاياهم فكذلك يستثنى الغناء الذي يراد به تحريك السرور والحزن والشوق حيث يباح تحريكه ، بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغناؤهن عند قدومه عليه السلام بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الدواع

واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمساك ^(٢) ، قلنا : هو منزل على بعض أنواع الغناء الذي قدمناه وهو الذي يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة وعشق الخلقين ، فأما ما يحرك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد أو حدوث الولد أو قدوم الغائب فهذا كله يضاد مراد الشيطان . بدليل قصة الجاريتين والحبشة والأخبار التي نقلناها من الصحاح فالتجوز في موضع واحد نص في الإباحة ، والمنع في ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتنزيل . أما الفعل فلا تأويل له ، إذ ما حرم فعله إنما يحل بعارض الإكراه فقط ، وما أبيح فعله يحرم بعوارض كثيرة حتى النيات والقصود .

واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته لامرأته ^(٣) ، قلنا : فقوله « باطل » لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة وقد يسم ذلك . على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام ، بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياسا كقوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ^(٤) ، فإنه يلحق به رابع وخامس فكذلك ملاعبة امرأته لا فائدة له إلا التلذذ . وفي هذا دليل على أن التفرج في البساتين وسماع أصوات الطيور وأنواع المداعبات مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها وإن جاز وصفه بأنه باطل .

(١) حديث جابر : كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى . لم أجده أصلا من حديث جابر ذكره صاحب الردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرج له ولده في مسنده . (٢) حديث أبي أمامة : ما رفع أحد عقبرته بناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمساك . أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والطبراني في الكبير وهو ضعيف . (٣) حديث عقبة بن عامر « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته زوجته » أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب . (٤) حديث « لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

واحتجوا بقول عثمان رضى الله عنه : ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يمينى مذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلنا : فليكن التنى ومس الذكر باليمين حراما ، إن كان هذا دليل تحريم الغناء فمن أين ثبت أن عثمان رضى الله عنه كان لا يترك إلا الحرام ؟

واحتجوا بقول ابن مسعود رضى الله عنه : الغناء ينبت في القلب النفاق - وزاد بعضهم - كما ينبت الماء البقل ^(١) ورفع بعضهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غير صحيح . قالوا : ومر على ابن عمر رضى الله عنهما قوم محرمون وفيهم رجل يتغنى فقال : ألا لا أسمع الله أكم ألا لا أسمع الله لكم . وعن نافع أنه قال : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق ؛ فلم يزل يقول : يا نافع أسمع ذلك ؟ حتى قلت : لا فأخرج أصبعيه وقال . هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع ^(٢) وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : الغناء رقية الزنا . وقال بعضهم : الغناء رائد من رواد البجور . وقال يزيد بن الوليد : إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله السكر ، فإن كنتم لابد فاعلين فخبوه النساء فإن الغناء داعية الزنا . فقول : قول ابن مسعود رضى الله عنه « ينبت النفاق ، أراد به في حق المغنى ، فإنه في حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروج صوته عليه ، ولا يزال يناق ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غنائه ، وذلك أيضاً لا يوجب تحريماً . فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل الممهلجة وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحري والآنعام والزرع وغير ذلك ينبت في القلب النفاق والرياء ، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله . فليس السبب في ظهور النفاق في القلب المعاصي فقط ، بل المباحات التي هي مواقع نظر الخلق أكثر تأثيراً . ولذلك نزل عمر رضى الله عنه عن فرس هملج تحته وقطع ذنبه لأنه استشعر في نفسه الخيلاء لحسن مطيته . فهذا النفاق من المباحات . وأما قول ابن عمر رضى الله عنهما : ألا لا أسمع الله لكم . فلا يدل على التحريم من حيث إنه غناء بل كانوا محرمين ولا يليق بهم الرفث ، وظهر له من مخيلهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى بل لمحجود الله ، فأكثر ذلك عليهم لكونه منكراً بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام . وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال . وأما وضعه أصبعيه في أذنيه فيعارضه أنه لم يأمر نافعاً بذلك ولا أنكر عليه سماعه ، وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن ينزه سمعه في الحال وقلبه عن صوت ربما يحرّك الله ويمنعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو أولى منه . وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم - مع أنه لم يمنع ابن عمر - لا يدل أيضاً على التحريم بل يدل على أن الأولى تركه . ونحن نرى أن الأولى تركه في أكثر الأحوال ، بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر في القلب . فقد خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه ^(٣) أفترى أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب ؟ فلعله صلى الله عليه وسلم كان في حالة كان صوت زمارة الراعى يشغله عن تلك الحالة كما شغله العلم عن الصلاة . بل الحاجة إلى استئثار الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق ، وإن كان كاملاً بالإضافة إلى غيره . ولذلك قال الحصرى : ماذا أعمل بسماع ينقطع إذا مات من

(١) حديث ابن مسعود « الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » قال المصنف والمرفوع غير صحيح لأن في إسناده من لم يسم ، رواه أبو داود وهو في رواية ابن العبد ليس في رواية اللؤلؤى ورواه البيهقي مرفوعاً وموقوفاً . (٢) حديث نافع : كنت مع ابن عمر في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ... الحديث . ورفع أبو داود وقال هذا حديث منكرو (٣) حديث : خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كان عليه أعلام شغلت قلبه . تقدم في الصلاة .

يسمع منه ؟ إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم . فالأنبياء عليهم السلام على الدوام في لذة السمع والشهود فلا يحتاجون إلى التحريك بالحيلة . وأما قول الفضيل : هو رقية الزنا . وكذلك ماعده من الأقاويل القريبة منه . فهو منزل على سماع الفساق والمعتلين من الشبان . ولو كان ذلك عاما لما سمع من الجاريتين في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما القياس : فغاية ما يذكر فيه أن يقاس على الأوتار ، وقد سبق الفرق ، أويقال هو هو ولعب ، وهو كذلك ولكن الدنيا كلها هو ولعب . قال عمر رضي الله عنه لزوجه : إنما أنت لعبة في زاوية البيت . وجميع الملاعبة مع النساء هو إلا الحراثة التي هي سبب وجود الولد . وكذلك المزج الذي لا يخش فيه حلال . نقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة ، كما سيأتي تفصيله في كتاب آفات اللسان ، إن شاء الله (١) وأى هو يزيد على هو الحبشة والزواج في لعبهم وقد ثبت بالنص إباحته ؟ على أنى أقول : اللهم مروح للقلب ومخفف عنه أعباء الفكر ، والقلوب إذا أكرهت عميت وترويحها إعانة لها على الجدة ، فالمواظب على التفقة مثلا ينبغي أن يتعطل يوم الجمعة لأن عطلة يوم تبعث على النشاط في سائر الأيام ، والمواظب على نوافل الصلوات في سائر الأوقات ينبغي أن يتعطل في بعض الأوقات ، ولأجله كرهت الصلاة في بعض الأوقات . فالعطلة معونة على العمل واللهو معين على الجدة ، ولا يصبر على الجدة المحض والحق المتر لا نفوس الأنبياء عليهم السلام . فاللهو دواء القلب من داء الإعياء والملال ، فينبغي أن يكون مباحا ولكن لا ينبغي أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدوام فإذا اللهو على هذه النية يصير قربة ، هذا في حق من لا يحرّك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها بل ليس له إلا اللذة والاستراحة المحضة ، فينبغي أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذي ذكرناه . نعم هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال فإن الكامل هو الذي لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق ، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين ومن أحاط بعلم علاج القلوب وجوه التلطف بها لسياقتها إلى الحق علم قطعاً أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لا غنى عنه .

الباب الثاني : آثار السماع وآدابه

اعلم أنّ أول درجة السماع فهم المسموع وتنزيله على معنى يقع للسمع ، ثم يثمر الفهم الوجد ، ويثمر الوجد الحركة بالجوارح . فلينظر في هذه المقامات الثلاثة .

المقام الأول : في الفهم ، وهو يختلف باختلاف أحوال المستمع . وللمستمع أربعة أحوال ، إحداها : أن يكون سماع بمجرد الطبع أى لاحظ له في السماع إلا استلذاذ الألحان والنغمات ، وهذا مباح وهو أخسر رتب السماع ، إذ الإبل شريكه فيه وكذا سائر البهائم بل لا يستدعى هذا الذوق إلا الحياة ، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة .

الحالة الثانية : أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة مخلوق إما معينا وإما غير معين ، وهو سماع الشباب وأرباب الشهوات ويكون تنزيلهم للمسموع على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم ، وهذه الحالة أخس من أن تتكلم فيها إلا ببيان خستها والنهي عنها .

الحالة الثالثة : أن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله تعالى وتقلب أحواله في التمكن مرة والتعذر أخرى ، وهذا سماع المريدين لاسيما المبتدئين ، فإنّ للرديد لاهالة مرادا هو مقصده ، ومقصده معرفة الله سبحانه

(١) حديث مزاحه صلى الله عليه وسلم - يأتي في آفات اللسان كما قال المصنف .

ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة بالسرو وكشف الغطاء ، وله في مقصده طريق هو سالكه ، ومعاملات هو مثابر عليها ، وحالات تستقبله في معاملاته . فإذا سمع ذكر عتاب أو خطاب أو قبول أو رد أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد أو تلهف على فائت أو تعطش إلى منتظر أو شوق إلى وارد أو طمع أو يأس أو وحشة أو استئناس أو وفاء بالوعد أو نقض للعهد أو خوف فراق أو فرح بوصول أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب أو همول العبرات أو ترادف الحسرات أو طول الفراق أو عدة الوصال أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار فلا بد أن يوافق بعضها حال المريد في طلبه فيجرب ذلك مجرى القدح الذي يورى زناد قلبه ، فتشتعل به نيرانه ويقوى به انبعاث الشوق وهيجانه ويهجم عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته ويكون له مجال رحب في تنزيل الألفاظ على أحواله . وليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر من كلامه ، بل اسكل كلام وجوه ، ولسكل ذى فهم في اقتباس المعنى منه حظوظ . ولنضرب لهذه التنزيلات والفهوم أمثلة كي لا يظن الجاهل أن المستمع لأبيات فيها ذكر الفم والحد والصدغ إنما يفهم منها ظواهرها . ولا حاجة بنا إلى ذكر كيفية فهم المعاني من الأبيات ففي حكايات أهل السماع ما يكشف عن ذلك . فقد حكى أن بعضهم سمع قائلاً يقول :

قال الرسول غدا تزور فقلت تعقل ماتقول

فاستغزه اللحن والقول وتواجد وجعل يكرر ذلك ويجعل مكان التاء : نونا . فيقول : قال الرسول غدا تزور ، حتى غشى عليه من شدة الفرح واللذة والسرور . فلما أفاق سئل عن وجدهم كان ؟ فقال : ذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة يزورون ربهم في كل يوم جمعة مرة »^(١) ، وحكى الرقي عن ابن الدراج أنه قال : كنت أنا وابن القوطى مارين على دجلة بين البصرة والابلة فإذا بقصر حسن له منظره وعليه رجل بين يديه جارية تغنى وتقول :

كل يوم تسألون ؟ غير هذا بك أحسن

فإذا شاب حسن تحت المنطرة ويده ركوة وعليه مرقعة يستمع فقال : يا جارية بالله وبحياة مولاك إلا أعدت على هذا البيت . فأعادت فكان الشاب يقول : هذا والله تلقى مع الحق في حالى ، فشوق شفقة ومات . قال : فقلنا قد استقبلنا فرض . فوقفنا ، فقال صاحب القصر للجارية : أنت حرة لوجه الله تعالى قال ثم إن أهل البصرة خرجوا فصلوا عليه . فلما فرغوا من دفنه قال صاحب القصر : اشهدكم أن كل شيء لى فى سبيل الله ، وكل جوارى احرار ، وهذا القصر للسبيل . قال : ثم رمى بثيابه واتزر بإزار وارتنى بآخر ومتر على وجهه والناس ينظرون إليه حتى غاب عن أعينهم ، وهم يبكون . فلم يسمع له بعد خبر . والمقصود أن هذا الشخص كان مستغرق الوقت بحاله مع الله تعالى ومعرفة عجزه عن الثبوت على حسن الأدب فى المعاملة وتأسفه على تقلب قلبه وميله عن سنن الحق ، فلما قرع سمعه ما يوافق حاله سمعه من الله تعالى كأنه يخاطبه ويقول له :

كل يوم تسألون ؟ غير هذا بك أحسن

ومن كان سماعه من الله تعالى وحلى الله وفيه . فينبغى أن يكون قد أحكم قانون العلم فى معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته . وإلا خطر له من السماع فى حق الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به . ففي سماع المريد المبتدى خطر إلا إذا

الباب الثانى : فى آداب السماع وآثاره

(١) حديث « إن أهل الجنة يزورون ربهم فى كل جمعة » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وفيه عبد الحميد ابن حبيب بن أبى العميرين مختلف فيه وقال الترمذى . لا نعرفه إلا من هذا الوجه قال : وقد روى سويد بن عمرو عن الأوزاعى شيئاً من هذا .

لم ينزل ما يسمع إلا على حاله من حيث لا يتعلق بوصف الله تعالى . ومثال الخطأ فيه هذا البيت بعينه فلو سمعه في نفسه وهو يخاطب به ربه عز وجل فيضيف التلؤن إلى الله تعالى فيكفر ، وهذا قد يقع عن جهل محض مطلق غير مزوج بتحقيق ، وقد يكون عن جهل ساقه إليه نوع من التحقيق ، وهو أن يرى تقلب أحوال قلبه بل تقلب أحوال سائر العالم من الله وهو حق ، فإنه تارة يبسط قلبه وتارة يقبضه وتارة ينوره وتارة يظلمه وتارة يقسيه وتارة يلينه وتارة يشبهه على طاعته ويقويه عليها وتارة يسلط الشيطان عليه ليصرفه عن سنن الحق ، وهذا كله من الله تعالى . ومن يصدر منه أحوال مختلفة في أوقات متقاربة فقد يقال له في العادة : إنه ذو بداوات وإنه متلون . ولعل الشاعر لم يردبه إلا نسبة محبوه إلى التلون في قبوله ورده وتقريبه وإبعاده وهذا هو المعنى . فسماع هذا كذلك في حق الله تعالى كفر محض بل ينبغي أن يعلم أنه سبحانه وتعالى يلون ولا يتلون ويغير ولا يتغير بخلاف عباده . وذلك العلم يحصل للريد باعتقاد تقليدي إيماني . ويحصل للعارف البصير بيقين كشفي حقيقي . وذلك من أعاجيب أوصاف الربوبية وهو المغير من غير تغير ، ولا يتصور ذلك إلا في حق الله تعالى ، بل كل مغير سواء فلا يغير مالم يتغير . ومن أرباب الوجد من ينلب عليه حال مثل السكر المدهش ، فيطلق لسانه بالعتاب مع الله تعالى ، ويستنكر اقتضاه للقلوب ، وقسمته للأحوال الشريفة على تفاوت . فإنه المستصفي لقلوب الصديقين ، والمبعد لقلوب الجاحدين والمغرورين ، فلا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولم يقطع التوفيق عن الكفار لجناية متقدمة ، ولا أمد الأنبياء عليهم السلام بتوقيفه ونور هدايته لوسيلة سابقة ، ولكنه قال ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ فإن خطر ببالك أنه لم اختلفت السابقة وهم في ربه العبودية مشتركون نوديت من سرادقات الجلال لا تتجاوز حد الأدب ﴿ فإنه لا يستل عما يفعل وهم يستلون ﴾ ولعمري تأدب اللسان والظاهر بما يقدر عليه الأكثرون . فأما تأدب السر عن إضمار الاستبعاد بهذا الاختلاف الظاهر في التقريب والإبعاد والإشقاء والإسعاد مع بقاء السعادة والشقاوة أبد الآباد فلا يقوى عليه إلا العلماء الراسخون في العلم . ولهذا قال الخضر عليه السلام لما سئل عن السماع في المنام : إنه الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء لأنه محزك لأسرار القلوب ومكامنهما ، ومشوش لها تشويش السكر المدهش الذي يكاد يحل عقدة الأدب عن السر إلا بمن عصمه الله تعالى بنور هدايته ولطيف عصمته . ولذلك قال بعضهم : ليتنا نجونا من هذا السماع رأساً برأس . ففي هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع المحزك للشهوة ، فإن غاية ذلك معصية وغاية الخطأ ههنا كفر .

واعلم أن الفهم قد يختلف بأحوال المستمع فيغلب الوجد على مستمعين ليبت واحد وأحدهما مصيب في الفهم والآخر مخطئ ، أو كلاهما مصيبان وقد فهما معنيين مختلفين متضادين ، ولكنه بالإضافة إلى اختلاف أحوالهما لا يتناقض . كما حكى عن عتبة الغلام أنه سمع رجلاً يقول :

سبحان جبار السما إن المحب لني عنا

فقال : صدقت . وسمعه رجل آخر فقال : كذبت . فقال بعض ذوى البصائر : أصابا جميعا وهو الحق فالتصديق كلام محب غير ممكن من المراد بل مصدود متعب بالصلة والهجر . والتكذيب كلام مستأنس بالمحب مستلذ لما يقاسيه بسبب فرط حبه غير متأثر به ، أو كلام محب غير مصدود عن مراده في الحال ولا مستشعر بخاطر

الصد في المال . وذلك لاستيلاء الرجاء وحسن الظن على قلبه . فاختلاف هذه الأحوال يختلف الفهم .
وحكى عن أبي القاسم بن مروان - وكان قد صحب أبا سعيد الخراز رحمه الله وترك حضور السماع سنين كثيرة -
فحضر دعوة وفيها إنسان يقول :

واقف في الماء عطشا ن ولكن ليس يسقى

فقام القوم وتواجدوا ، فلما سكتوا سألمهم عن معنى ما وقع لهم من معنى البيت ، فأشاروا إلى التعطش إلى الأحوال
الشريفة والحرمان منها مع حضور أسبابها ، فلم يقنعه ذلك فقالوا له : فماذا عندك فيه ؟ فقال : أن يكون في وسط
الأحوال ويكرم بالكرامات ولا يعطى منها ذرة . وهذه إشارة إلى إثبات حقيقة وراء الأحوال ، والكرامات
والأحوال سوابقها ، والكرامات تسنح في مبادئها ، والحقيقة بعد لم يقع الوصول إليها . ولا فرق بين المعنى الذي
نهمه وبين ما ذكره إلا في تفاوت رتبة التعطش إليه ، فإن المحروم عن الأحوال الشريفة أولا يتعطش إليها ،
فإن ممكن منها تعطش إلى ما وراءها ، فليس بين المعنيين اختلاف في الفهم بل الاختلاف بين الرتبتين . وكان الشبلي
رحمه الله كثيرا ما يتواجد على هذا البيت :

ودادكم هجر وجبكم قلى ووصلكم صرم وسلمكم حرب

ومذا البيت يمكن سماعه على وجوه مختلفة بعضها حق وبعضها باطل ، وأظهرها : أن يفهم هذا في الخلق بل في
الدنيا بأسرها بل في كل ماسوى الله تعالى . فإن الدنيا مكاره خداعة قتالة لأربابها معادية لهم في الباطن ومظاهرة
صورة الود ، فما امتلأت منها دار حبرة إلا امتلأت عبدة (١) ، كما ورد في الخبر وكما قال الثعلبي في وصف الدنيا :

تنح عن الدنيا فلا تخطبها ولا تخطبن قتالة من تناكح
فليس يفي مرجوها بمخوفها ومكروها أما تأملت راجح
لقد قال فيها الواصفون فأكثروا وعندى لها وصف لعمرى صالح
سلاف قصاراهازعاف ومركب شهى إذا استدلتته فهو جامع
وشخص جميل يؤثر الناس حسنه ولكن له أسرار سوء قبائح

والمعنى الثاني . أن ينزله على نفسه في حق الله تعالى فإنه إذا تفكر فعرفته جهل إذ ما قدروا الله حق قدره . وطاعته
رياء إذ لا يبقى الله حق تقاته ، وحبه معلول إذ لا يدع شهوة من شهواته في حبه . ومن أراد الله به خيرا بصره
بعيوب نفسه فيرى مصداق هذا البيت في نفسه ، وإن كان على المرتبة بالإضافة إلى الغافلين ، ولذلك قال صلى الله
عليه وسلم « لأحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام « إني لأستغفر الله
في اليوم والليلة سبعين مرة » (٣) ، وإنما كان استغفاره عن أحوال هي درجات بعد بالإضافة إلى ما بعدها ، وإن
كانت قريبا بالإضافة إلى ما قبلها ، فلا قرب إلا ويبقى وراءه قرب لانهاية له ، إذ سبيل السلوك إلى الله تعالى غير
متناه ، والوصول إلى أقصى درجات القرب محال . والمعنى الثالث أن ينظر في مبادئ أحواله فيرتضيها ثم ينظر في
عواقبها فيزدريها لاطلاعه على خفايا الغرور فيها ، فيرى ذلك من الله تعالى فيستمع البيت في حق الله تعالى شكاية
من القضاء والقدر وهذا كفر - كما سبق بيانه - وما من بيت إلا ويمكن تنزيله على معان ، وذلك بقدر غزارة علم

(١) حديث « ما امتلأت دار منها حبرة إلا امتلأت عبدة » أخرجه ابن المبارك عن عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير
مرسلا . (٢) حديث « لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » رواه مسلم وقد تقدم . (٣) حديث « إني لأستغفر الله
في اليوم والليلة سبعين مرة » تقدم في الباب الثاني من الأذكار .

المستمع وصفاء قلبه .

الحالة الرابعة : سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ماسوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص في بحر عين الشهود الذى يضاهى حاله حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط إحساسهن . وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فنى عن نفسه . ومهما فنى عن نفسه فهو عن غيره أفنى فكأنه فنى عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود . وفنى أيضا عن الشهود فإن القلب أيضا إذا التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد فقد غفل عن المشهود . فالمستتهر بالمرئى لا التفات له في حال استغراقه إلى رؤيته ولا إلى عينه التي بها رؤيته ولا إلى قلبه الذى به لذته ، فالسكران لاخبر له من سكره ، والمتلذذ لاخبر له من التذاذه ، وإنما خبره من المتلذذ به فقط . ومثاله العلم بالشئ : فإنه معايير للعلم بالعلم بذلك الشئ فالعالم بالشئ مهمما ورد عليه العلم بالعلم بالشئ كان معرضا عن الشئ . ومثل هذه الحالة قد تطرأ في حق المخلوق وتطرأ أيضا في حق الخالق ، ولكنها في الغالب تكون كالبرق الخاطف الذى لا يثبت ولا يدوم ، وإن دام لم تطقه القوة البشرية ، فربما اضطرب تحت أعبائه اضطرابا تهاك به نفسه .

كما روى عن أبى الحسن النورى أنه حضر مجلسا فسمع هذا البيت :

مازلت أنزل من وداك منزلا تتحير الالباب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه . فوقع في أجمة قصب قد قطع وبقيت أصوله مثل السيوف ، فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يخرج من رجليه ، حتى ورمت قدماء وساقاه وعاش بعد ذلك أياما ومات رحمه الله . فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد فهمي أعلى الدرجات لأن السماع على الأحوال نازل عن درجات الكمال وهي بمنزلة بصفات البشرية وهونوع قصور ، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله ؛ أعنى أنه ينساها فلا يبق له التفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى الأيدي والسكاكين . فيسمع الله وبالله وفي الله ومن الله وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق وعبر ساحل الأحوال والأعمال واتحد بصفاء التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص ، فلم يبق فيه منه شيء أصلا ، بل خمدت بالكلية بشريته وفنى التفاتاته إلى صفات البشرية رأسا ، ولست أعنى بفنائها فناء جسده بل فناء قلبه ، ولست أعنى بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراهها سر الروح الذى هو من أمر الله عز وجل - عرفها من عرفها وجهلها من جهلها - ولذلك السروجود . وصورة ذلك الوجود ما يحضر فيه فإذا حضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا للحاضر . ومثاله المرأة المجلوة إذ ليس لها لون في نفسها بل لونها لون الحاضر فيها ، وكذلك الزجاجة فإنها تحكى لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها . وليس لها في نفسها صورة بل صورتها قبول الصور ، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان ، ويعرب عن هذه الحقيقة - أعنى سر القلب بالإضافة إلى ما يحضر فيه - قول الشاعر :

رق الزجاج ورق الخمر فتشابه فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وهذا مقام من مقامات علوم المكاشفة منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد ، وقال أنا الحق وحوله يدندن كلام النصارى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت أو تدرعها بها أو حلوها فيها على ما اختلف فيهم عباراتهم وهو غلط محض يضاهى غلط من يحكم على المرأة بصورة الحرة إذ ظهر فيها لون الحرة مقابلها وإذا كان هذا لاغير لائق

يعلم المعاملة فلنرجع إلى الغرض ؛ فقد ذكرنا تفاوت الدرجات في فهم المسموعات .

المقام الثاني : بعد الفهم والتنزيل ؛ الوجد : وللتناس كلام طويل في حقيقة الوجد - أعني الصوفية والحكام الناظرين في وجه مناسبة السماع للأرواح - فلننقل من أقوالهم ألفاظا ثم لنكشف عن الحقيقة فيه .

أما الصوفية فقد قال ذو النون المصري رحمه الله في السماع : إنه وارد حق جاء يزجج القلوب إلى الحق ، فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس تزندق . فكأنه عبر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحق وهو الذي يجده عند ورود وارد السماع إذ سمى السماع وارد حق . وقال أبو الحسين الدراج مخبرا عما وجدته في السماع : الوجد عبارة عما يوجد عند السماع ، وقال : جال في السماع في ميادين البهاء فأوجدني وجود الحق عند العطاء فسقاني بكأس الصفاء فأدكت به منازل الرضاء وأخرجني إلى رياض التنزه والمضاء . وقال الشبلي رحمه الله : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة ؛ فمن عرف الإشارة حل له استماع العبارة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية . وقال بعضهم : السماع غذاء الأرواح لأهل المعرفة لأنه وصف يدق عن سائر الأعمال ويدرك بركة الطبع لرقته وبصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله . وقال عمرو بن عثمان المكي : لا يقع على كيفية الوجد عبارة لأنه سر الله عند عباده المؤمنين الموقنين وقال بعضهم : الوجد مكاشفات من الحق . وقال أبو سعيد بن الأعرابي : الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر وإيناس المفقود ، وهو فناؤك من حيث أنت ، وقال أيضا : الوجد أول درجات الخصوص وهو ميراث التصديق بالغيب فلما ذاقوه وسطع في قلوبهم نوره زال عنهم كل شك وريب . وقال أيضا : الذي يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب ؛ لأن النفس محجوبة بأسبابها فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر وصحا القلب ورق وصفوا ونجحت الموعظة فيه وحل من المناجاة في محل قريب وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية وقلب شاهد وسر ظاهر فشاهد ما كان منه خاليا ؛ فذلك هو الوجد لأنه قد وجد ما كان معدوما عنده . وقال أيضا : الوجد ما يكون عند ذكر مزجج أو خوف مقلق أو توبيخ على زلة أو محادثة بلطيفة أو إشارة إلى فائدة أو شوق إلى غائب أو أسف على فائت أو ندم على ماض أو استجلاب إلى حال أو داع إلى واجب أو مناجاة بسر ، وهو مقابلة الظاهر بالظاهر والباطن بالباطن والغيب بالغيب والسر بالسر واستخراج مالك بما عليك مما سبق للسعي فيه فيكتب ذلك لك بعد كونه منك ، فيثبت لك قدم بلا قدم وذكر بلا ذكر ، إذ كان هو المبتدئ بالنعم والمتولى وإليه يرجع الأمر كله فهذا ظاهر علم الوجد وأقوال الصوفية من هذا الجنس في الوجد كثيرة .

وأما الحكماء فقال بعضهم : في القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان ، فلما ظهرت سرت وطربت إليها فاستمعوا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة الظواهر . وقال بعضهم : نتائج السماع استنهاض العاجز من الرأى واستجلاب العازب من الأفكار وحدة الكمال من الأفهام والآراء حتى يثوب ما عزب وينهض ما عجز ويصفو ما كدر ويمرح في كل رأى ونية ، فيصيب ولا يخطئ ويأتي ولا يبطئ . وقال آخر : كما أن الفكر يطرق العلم إلى المعلوم فالسماع يطرق القلب إلى العالم الروحاني . وقال بعضهم وقد سئل عن سبب حركة الأطراف بالطبع على وزن الألحان والإيقاعات فقال : ذلك عشق عقلي والعاشق العقلي لا يحتاج إلى أن يناغي معشوقه بالمنطق الجرمي بل يناغيه ويناجيه بالتبسم واللحظ والحركة اللطيفة بالحاجب والجفن والإشارة ، وهذه نواطق أجمع إلا أنها روحانية ، وأما العاشق البهيمي فإنه يستعمل المنطق الجرمي ليعبر به عن ثمرة ظاهر شوقه الضعيف وعشقه

الرائف . وقال آخر : من حزن فليسمع الألمان . فإن النفس إذا دخلها الحزن خمد نورها وإذا فرحت اشتعل نورها وظهر فرحها فيظهر الحزن بقدر قبول القابل وذلك بقدر صفاته ونقائه من الغش والدنس .

والأقويل المقررة في السماع والوجد كثيرة ولا معنى للاستكثار من إيرادها ، فلنشغل بتفهم المعنى الذي الوجد عبارة عنه فنقول : إنه عبارة عن حالة يثمرها السماع وهو وارد حق جديد عقيب السماع يحده المستمع من نفسه . وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين : فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفات ومشاهدات هي من قبيل العلوم والتنبيهات ، وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحوال ليست من العلوم بل هي كالشوق والخوف والحزن والقلق والسرور والأسف والندم والبسط والقبض ، وهذه الأحوال يهيئها السماع ويقويها ؛ فإن ضعف بحيث لم يؤثر في تحريك الظاهر أو تسكينه أو تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته أو يطرق أو يسكن عن النظر والطق والحركة على خلاف عادته لم يسم وجدا ، وإن ظهر على الظاهر سمي وجدا إما ضعيفا وإما قويا ، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوة وروده ، وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوة الواجد وقدرته على ضبط جوارحه ؛ فقد يقوى الوجد في الباطن ولا يتغير الظاهر لقوة صاحبه ؛ وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحل عقد التماسك . وإلى معنى الأول أشار أبو سعيد بن الأعرابي حيث قال في الوجد : إنه مشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ، ولا يبعد أن يكون السماع سببا لكشف ما لم يكن مكشوفاً قبله ، فإن الكشف يحصل بأسباب : منها التنبيه والسماع منه ، ومنها تغير الأحوال ومشاهدتها وإدراكها فإن إدراكها نوع علم يفيد إيضاح أمور لم تكن معلومة قبل الورد ، ومنها صفاء القلب والسماع يؤثر في تصفية القلب والصفاء يسبب الكشف ، ومنها انبعاث نشاط القلب بقوة السماع فيقوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوته ، كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله . وعمل القلب الاستكشاف وملاحظة أسرار الملوكوت ، كما أن عمل البعير حمل الأثقال فبواسطة هذه الأسباب يكون سببا للكشف ، بل القلب إذا صفا ربما يمثل له الحق في صورة مشاهدة أو في لفظ منظوم يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف إذا كان في اليقظة ، وبالرؤيا إذا كان في المنام ، وذلك جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة . وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة وذلك كما روى عن محمد بن مسروق البغدادي أنه قال : خرجت ليلة في أيام جهاتي وأنا نشوان وكنت أغنى هذا البيت :

بطور سيناء كرم ما مررت به إلا تعجبت ممن يشرب الماء

فسمعت قائلا يقول :

وفي جهنم ماء ما تجسره خلق فأبقي له في الجوف أمعاء

قال : فكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة . فأنظر كيف أثر الغناء في تصفية قلبه حتى تمثل له حقيقة الحق في صفة جهنم في لفظ مفهوم موزون وقرع ذلك سمعه الظاهر ؟ .

وروى عن مسلم العباداني أنه قال ؟ قدم علينا صالح المري وعتبة الغلام وعبد الواحد بن زيد ومسلم الأسواري فزفوا على الساحل ، قال : فهيات لهم ذات ليلة طعاما فدعوتهم إليه فجاءوا فلما وضعت الطعام بين أيديهم إذ بقائل يقول رافعا صوته هذا البيت :

وتلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غيا غير نافع

قال : فصاح عتبة الغلام صيحة وخر مغشيا عليه وبكى القوم ، فرفعت الطعام وماذاقوا والله منه لقمة .

وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب فيشاهد أيضاً بالبصر صورة الخضر عليه السلام فإنه يتمثل لأرباب القلوب بصور مختلفة . وفي مثل هذه الحالة تتمثل الملائكة للأنبياء عليهم السلام إما على حقيقة صورتها وإما على مثال يحاكي صورتها بعض المحاكاة . وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرتين في صورته وأخبر عنه بأنه سد الأفق ^(١) وهو المراد بقوله تعالى ﴿ عليه شدة القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ﴾ إلى آخر هذه الآيات . وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب ، وقد يعبر عن ذلك الاطلاع بالتفريس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ^(٢) ، وقد حكى أن رجلاً من المجوس كان يدور على المسلمين ويقول ماعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن ، فكان يذكر له تفسيره فلا يقنعه ذلك حتى انتهى إلى بعض المشايخ من الصوفية . فسأله ، فقال له معناه : أن تقطع الزنار الذى على وسطك تحت ثوبك . فقال : صدقت هذا معناه وأسلم ، وقال : الآن عرفت أنك مؤمن وأن إيمانك حق . وكما حكى عن إبراهيم الخواص قال : كنت ببغداد في جماعة من الفقهاء في الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه فقلت لأصحابي : يقع لى أنه يهودى ، فكلهم كرهوا ذلك ، فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم وقال : أى شيء قال الشيخ في ؟ فاحتشموه فألح عليهم فقالوا له : قال إنك يهودى ، قال : فجاءنى وأكب على يدي وقبل رأسى وأسلم ، وقال : نجد في كتبنا أن الصديق لا تخطئ فراسته فقلت : أمتحن المسلمين فتأملتهم فقلت : إن كان فيهم صديق في هذه الطائفة ؛ لأنهم يقولون حديثه سبحانه ويقروون كلامه ؛ فلبست عليكم فلما اطلع على الشيخ وتفريسه في علمت أنه صديق قال ، وصار الشاب من كبار الصوفية .

وإلى مثل هذا الكشف الإشارة بقوله عليه السلام « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » ^(٣) ، وإنما تحوم الشياطين على القلوب إذا كانت مشحونة بالصفات المذمومة فإنها مرعى الشيطان وجنده . ومن خلص قلبه من تلك الصفات وصفاه لم يطف الشيطان حول قلبه . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ وبقوله تعالى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ والسماع سبب لصفاء القلب وهو شبكة للحق بواسطة الصفاء .

وعلى هذا يدل ما روى أن ذا النون المصرى رحمه الله دخل بغداد فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قوال ؛ فاستأذنه في أن يقول لهم شيئاً . فأذن لهم في ذلك فأنشأ يقول :

صغير هواك عذبنى فكيف به إذا احتسكا وانت جمعت فى قلبى
هوى قد كان مشتركاً أما ترى لمكتئب إذا ضحك الخلى بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه ، ثم قام رجل آخر فقال ذو النون : الذى يراك حين تقوم . فجلس ذلك الرجل وكان ذلك اطلاعا من ذى النون على قلبه . أنه متكلف متواجد ، فعرفه أن الذى يراه حين يقوم هو الخصم في قيامه لغير الله تعالى ولو كان الرجل صادقا لما جلس . فإذا قد رجع حاصل الوجد إلى مكاشفات وإلى حالات واعلم أن كل واحد منهما ينقسم إلى ما يمكن التعبير عنه عند الإفاقة منه وإلى ما لا يمكن العبارة عنه أصلاً ، ولعلك تستبعد حالة أو علماً لا تعلم حقيقته ولا يمكن التعبير عنه عن حقيقته ، فلا تستبعد ذلك فإنك تجد في أحوالك القريبة لذلك شواهد.

(١) حديث : رأى جبريل عليه السلام مرتين في صورته فأخبر أنه سد الأفق . متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) حديث « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حديث عريب .

(٣) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » تقدم في الصوم .

أما العلم فكأن من فقيه تعرض عليه مسألتان متشابهتان في الصورة ويدرك الفقيه بذوقه أن بينهما فرقا في الحكم ؟ وإذا كلف ذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير وإن كان من أفصح الناس ، فبدرك بذوقه الفرق ولا يمكنه التعبير عنه ، وإدراك الفرق علم يصادفه في قلبه بالذوق ولا يشك في أن لوقوعه في قلبه سببا وله عند الله تعالى حقيقة ؛ ولا يمكنه الإخبار عنه لالفقصور في لسانه بل لدقة المعنى في نفسه عن أن تناله العبارة . وهذا مما قد تفتن له المواظبون على النظر في المشكلات .

وأما الحال فكأن من إنسان يدرك في قلبه في الوقت الذي يصح فيه قبضا أو بسطا ولا يعلم سببه ، وقد يتفكر الإنسان في شيء فيؤثر في نفسه أثرا فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر في نفسه وهو يحس به ، وقد تكون الحالة التي يحسها سرورا ثبت في نفسه بتفكره في سبب موجب للسرور ، أو حزنا فينسى المتفكر فيه ويحس بالأثر عقيبه . وقد تكون تلك الحالة حالة غريبة لا يعرب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مفصلة عن المقصود ، بل ذوق الشعور الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختص به بعض الناس دون بعض ، وهي حالة يدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها . أعني التفرقة بين الموزون والمزحف . فلا يمكنه التعبير عنها بما يتضح مقصوده لمن لا ذوق له . وفي النفس أحوال غريبة هذا وصفها بل المعاني المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصل في السماع عن غناء مفهوم ، وأما الآوتار وسائر النغبات التي ليست مفهومة فإنها تؤثر في النفس تأثيرا عجيبا ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الآثار ، وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق إليه فهو عجيب ، والذي اضطرب قلبه بسماع الآوتار أو الشاهين وما أشبهه ليس يدري إلى ماذا يشاق ؟ ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضى أمرا ليس يدري ما هو ؟ حتى يقع ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه لاجب آدمي ولا حب الله تعالى . وهذا له سر وهو أن كل شوق فله ركنان :

أحدهما : صفة المشتاق وهو نوع مناسبة مع المشتاق إليه .

والثاني : معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة الوصول إليه ، فإن وجدت الصفة التي بها الشوق ووجد العلم بصورة المشتاق إليه كان الأمر ظاهرا ، وإن لم يوجد العلم بالمشتاق ووجدت الصفة المشوقة وحركت قلبك الصفة واشتعلت نارها أورت ذلك دهشة وحيرة لا محالة

ولو نشأ آدمي وحده بحيث لم ير صورة النساء ولا عرف صورة الوقاع ثم راهق الحلم وغلبت عليه الشهوة لسكان يحس من نفسه بنار الشهوة ولكن لا يدري أنه يشاق إلى الوقاع لأنه ليس يدري صورة الوقاع ولا يعرف صورة النساء : فكذلك في نفسه الآدمي مناسبة مع العالم الأعلى والذات التي وعد بها في سدرة المنتهى والفراديس العلا ؛ إلا أنه لم يتخيل من هذا الأمور إلا الصفات والأسماء ، كالذي سمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهد صورة امرأة قط ولا صورة رجل ولا صورة نفسه في المرأة ليعرف بالمقايسة ، فالسماع يحرك منه الشوق والجهل المفرط والاشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربه وأنساه مستقره الذي إليه حنينه واشتياقه بالطبع ، فيتقاضاه قلبه أمرا ليس يدري ما هو ؟ فيدهش ويتحير ويضطرب ويكون كالتحقيق الذي لا يعرف طريق الخلاص فهذا ، وأمثاله من الأحوال التي لا يدرك تمام حقائقها ولا يمكن المتصف بها أن يعبر عنها . فقد ظهر انقسام الوجد إلى ما يمكن إظهاره وإلى ما لا يمكن إظهاره .

واعلم أيضا أن الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلف ويسمى التواجد ، وهذا التواجد المتكلف فنه مذموم

وهو الذى يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها ، ومنه ما هو محمود وهو التوصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة ، فإن للكسب مدخلا في جلب الأحوال الشريفة ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يحضره البكاء في قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن ^(١) فإن هذه الأحوال قد تتكلف مبادئها ثم تتحقق أواخرها . وكيف لا يكون التكلف سببا في أن يصير المتكلف في الآخرة طبعاً ، وكل من يتعلم القرآن أو لا يحفظه تكلفاً ، ويقرؤه تكلفاً مع تمام التأمل وإحضار الذهن ؛ ثم يصير ذلك ديدناً للسان مطرداً حتى يجرى به لسانه في الصلاة وغيرها وهو غافل ؛ فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ويعلم أنه قرأها في حال غفلته ؛ وكذلك الكاتب يكتب في الابتداء بجهد شديد ثم تتمرن على الكتابة يده فيصير الكتاب له طبعاً فيكتب أوراقاً كثيرة وهو مستغرق القلب بفكر آخر ؛ فجميع ما تحتمله النفس والجوارح من الصفات لا سبيل إلى اكتسابه إلا بالتكلف والتصنع أولاً ثم يصير بالعادة طبعاً ، وهو المراد بقول بعضهم : العادة طبيعة خامسة . فكذلك الأحوال الشريفة لا ينبغي أن يقع اليأس منها عند فقدانها ، بل ينبغي أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره ، فلقد شوه في العادات من انتهى أن يعشق شخصاً فلم يكن يعشقه فلم يزل يردد ذكره على نفسه ويديم النظر إليه ويقرر على نفسه الأوصاف المحبوبة والأخلاق الحمودة فيه حتى عشقه ورسخ ذلك في قلبه رسوخاً خرج عن حد اختياره ، فاشتبه بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص . فكذلك حب الله تعالى والشوق إلى لقائه والخوف من سخطه وغير ذلك من الأحوال الشريفة ؛ إذا فقدانها الإنسان فينبغي أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ومشاهدة أحوالهم وتحسين صفاتهم في النفس وبالجلوس معهم في السماع وبالدعاء والنصر إلى الله تعالى في أن يرزقه تلك الحلة بأن يسر له أسبابها .

ومن أسبابها السماع ومجالسة الصالحين والخائفين والمحسنين والمشتاقين والخاصين . فمن جالس شخصاً سرت إليه صفاته من حيث لا يدري . ويدل على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحوال بالأسباب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه : اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب من يقربني إلى حبك ^(٢) ، فقد فرع عليه السلام إلى الدعاء في طلب الحب . فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكاشفات وإلى أحوال وانقسامه إلى ما يمكن الإفصاح عنه وإلى ما لا يمكن ، وانقسامه إلى المتكلف وإلى المطبوع .

هـ فإن قلت : فما بال هؤلاء لا يظهر وجدهم عند سماع القرآن وهو كلام الله ويظهر عند الغناء وهو كلام الشعراء ؟ فلو كان ذلك حقاً من لطف الله تعالى ولم يكن باطلاً من غرور الشيطان لكان القرآن أولى به من الغناء ؟ فنقول : الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حب الله تعالى وصدق إرادته والشوق إلى لقائه ، وذلك يهيج بسماع القرآن أيضاً . وإنما الذى لا يهيج بسماع القرآن حب الخلق وعشق المخلوق . ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وقوله تعالى ﴿ مثاقيقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ وكل ما يوجد عقيب السماع في النفس فهو وجد . فالطمأنينة والافتشعار والخشية ولين القلب كل ذلك وجد . وقد قال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ وقال تعالى ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ فالوجل والخشوع وجد من قبيل الأحوال وإن لم يكن من قبيل المكاشفات . ولكن قد يصير سبباً للمكاشفات والتنبيهات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » ^(٣) ،

(١) حديث : البكاء عند قراءة القرآن فإن لم تبكوا فبأكوا . تقدم في تلاوة القرآن في الباب الثاني . (٢) حديث : اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك ... الحديث « تقدم في الدعوات . (٣) حديث : « زينوا القرآن بأصواتكم » تقدم في تلاوة القرآن

وقال لأبي موسى الأشعري « لقد أوتى مزمارا من مزامير آل داود عليه السلام ^(١) » .

وأما الحكايات الدالة على أن أرباب القلوب ظهر عليهم الوجد عند سماع القرآن فكثيرة فقوله صلى الله عليه وسلم « شيبتي هود وأخواتها ^(٢) » ، خبر عن الوجد ، فإن الشيب يحصل من الحزن والخوف وذلك وجد . وروى أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النساء ، فلما انتهى إلى قوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال « حسبك » وكانت عيناه تذرفان بالدموع ^(٣) . وفي رواية أنه عليه السلام قرأ هذا الآية أو قرئ عنده ﴿ إن لدينا أنكالا وججيا وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ فصعق ^(٤) وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ فبكى ^(٥) وكان عليه السلام إذا مر بآية رحمة دعا واشتبش ^(٦) والاستبشار وجد . وقد أثنى الله تعالى على أهل الوجد بالقرآن فقال تعالى ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل ^(٧) .

وأما ما نقل من الوجد بالقرآن عن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين فكثير : فمنهم من صعق ومنهم من بكى ومنهم من غشى عليه ومنهم من مات في غشيته . وروى أن زرارَةَ بن أوفى - وكان من التابعين - كان يؤم الناس بالركة فقرأ ﴿ فإذا نفر في النافور ﴾ فصعق ومات في محرابه رحمه الله . وسمع عمر رضى الله عنه رجلا يقرأ ﴿ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ﴾ فصاح صيحة وخر مغشيا عليه لحمل إلى بيته ، فلم يزل مريضاً بيته شهرا . وأبو جرير - من التابعين - قرأ عليه صالح المري فشقق ومات . وسمع الشافعى رحمه الله قارئا يقرأ ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فغشى عليه . وسمع على بن الفضيل قارئا يقرأ ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ فسقط مغشيا عليه ، فقال الفضيل : شكر الله لك ما قد علمه منك . وكذلك نقل عن جماعة منهم .

وكذلك الصوفية : فقد كان الشبلى في مسجده ليلة من رمضان وهو يصلى خلف إمام له فقرأ الإمام ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾ فزعق الشبلى زعقة ظن الناس أنه قد طارت روحه واحمر وجهه وارتعدت فرائصه ، وكان يقول : بمثل هذا يخاطب الأحباب ، يردد ذلك مرارا . وقال الجنيد : دخلت على سرى السقطى فرأيت بين يديه رجلا قد غشى عليه فقال لى : هذا رجل قد سمع آية من القرآن فغشى عليه ، فقلت : اقرءوا عليه تلك الآية بعينها فقرئت فأفاق ، فقال : من أين قلت هذا ؟ فقلت : رأيت يعقوب عليه السلام كان عماء من أجل مخلوق فبمخلوق أبصر ، ولو كان عماء من أجل الحق ما أبصر بمخلوق ، فاستحسن ذلك . ويشير إلى ما قاله الجنيد قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال بعض الصوفية : كنت أقرأ ليلة هذه الآية ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ فجعلت ارددها فإذا هاتف يهتف بى :

(١) حديث « لقد أوتى مزمارا من مزامير آل داود » قاله لأبي موسى تقدم فيه . (٢) حديث « شيبتي هود وأخواتها » أخرجه الترمذى من حديث أبي جحيفة وله وإسناكم من حديث ابن عباس نحوه قال الترمذى حسن وقال الحاكم صحيح على شرط البخارى (٣) حديث : لما ابن مسعود قرأ عليه فلما انتهى إلى قوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال « حسبك » الحديث . متفق عليه من حديثه . (٤) حديث : أنه قرئ عنده ﴿ إن لدينا أنكالا وججيا وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ فصعق رواه ابن عدى . فى السكائل والبيهقى فى الشعب من طريقه من حديث أنى حرب بن أبى الأسود مرسلا . (٥) حديث : أنه قرأ ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ فبكى . أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو . (٦) حديث : كان إذا مر بآية رحمة دعا واشتبش . تقدم فى تلاوة القرآن دون قوله : واشتبش . (٧) حديث : أنه كان يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل . أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى فى الشمائل من حديث عبد الله بن الشخير وقد تقدم . (٣٨ — لحياء علوم الدين — ٢)

كم تردد هذه الآية ؟ فقد قتلت أربعة من الجن مارفعوا رموسهم إلى السماء منذ خلقوا . وقال أبو علي المغازلي للشبلي : ربما تطرق سمعي آية من كتاب الله تعالى فتجذبني إلى الإعراض عن الدنيا ثم أرجع إلى أحوالي وإلى الناس فلا أبق على ذلك ، فقال : ما طرق سمعك من القرآن فاجتذبك به إليه فذلك عطف منه عليك ولطف منه بك ، وإذاردك إلى نفسك فهو شفقة منه عليك فإنه لا يصلح لك إلا التبري من الحول والقوة في التوجه إليه . وسمع رجل من أهل التصوف قارئاً يقرأ ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ فاستعادها من القارئ وقال : كم أقول لها ارجعي وليست ترجع ؟ وتواجد وزعق زعقة فخرجت روحه . وسمع بكر بن معاذ قارئاً يقرأ ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ الآية فاضطرب ثم صاح : ارحم من أنذرته ولم يقبل إليك بعد الإنذار بطاعتك ، ثم غشى عليه . وكان إبراهيم ابن آدم رحمه الله إذا سمع أحداً يقرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ اضطربت أوصاله حتى كان يرتعد . وعن محمد بن صبيح قال : كان رجل يغتسل في الفرات فر به رجل على الشاطئ يقرأ ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ فلم يزل الرجل يضطرب حتى غرق ومات . وذكر أن سلمان الفارسي أبصر شاباً يقرأ فاتى على آية فاقشعر جلده فأحبه سلمان وفقدته ، فسأل عنه فقيل له : إنه مريض ، فأناه يعود فإذا هو في الموت ، فقال : يا عبدا لله ! أرايت تلك القشعريرة التي كانت بي ؟ فإنها أتتني في أحسن صورة فأخبرتني أن الله قد غفر لي بها كل ذنب .

وبالجملة لا يخلو صاحب القلب عن وجد عند سماع القرآن فإن كان القرآن لا يؤثر فيه أصلاً ﴿ مثله كمثل الذي ينق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ بل صاحب القلب تؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسمعا . قال جعفر الخلدي : دخل رجل من أهل خراسان على الجنيد وعنده جماعة فقال للجنيد : متى يستوي عند العبد حامده وذامه ؟ فقال بعض الشيوخ : إذا دخل السيارستان وقيد بقيدن ، فقال الجنيد : ليس هذا من شأنك ؟ ثم أقبل على الرجل وقال : إذا تحقق أنه مخلوق فشق الرجل شهقة ومات ،

* فإن قلت : فإن كان سماع القرآن مفيداً للوجد فما بالهم يحتمعون على سماع الغناء من القوالين دون القارئ ؟ فكان ينبغي أن يكون اجتماعهم وتواجدهم في حلق القراء لخلق المغنين ؟ وكان ينبغي أن يطلب عند كل اجتماع في كل دعوة قارئ لا قوال ؟ فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لا محالة فاعلم أن الغناء أشد تهيباً للوجد من القرآن من سبعة أوجه :

الوجه الأول : أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع ولا تصلح لفهمه وتنزيله على ما هو ملابس له ، فمن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم فمن أين يناسب حاله قوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وقوله تعالى (والذين يرمون المحصنات) ؟ وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان أحكام الميراث والطلاق والحدود وغيرها ؟ وإنما المحرك لما في القلب ما يناسبه . والآيات إنما يضعها الشعراء إعراباً بها عن أحوال القلب فلا يحتاج في فهم الحال منها إلى تكلف . نعم من يستولى عليه حالة غالبة قاهرة لم تبق فيه متسعاً لغيرها ومعه تيقظ وذكاء ثاقب يتفطن به للمعاني البعيدة من الألفاظ ، فقد يخرج وجده على كل مسموع كمن يخطر له عند ذكر قوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم) حالة الموت المحوج إلى الوصية وأن كل إنسان لابد أن يخلف ماله وولده وهما محبوباه من الدنيا ، فيترك أحد المحبوبين للثاني ويهجرهما جميعاً فيغلب عليه الخوف والجزع أو يسمع ذكر الله في قوله (يوصيكم الله في أولادكم) فيدهش بمجرد الاسم عما قبله وبعده ، أو يخطر له رحمة الله على عباده وشفقته بأن تولى قسم مواريتهم بنفسه نظراً لهم في حياتهم وموتهم فيقول : إذا نظر لأولادنا بعد موتنا فلا نشك بأنه ينظر لنا فيهبج

منه حال الرجاء ويورثه ذلك استبشارا وسرورا ، أو يخطر له من قوله تعالى ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ تفضيل الذكر بكونه رجلا على الأنثى وأن الفضل في الآخرة لرجال لا للهيمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . وأن من ألهاه غير الله تعالى عن الله تعالى فهو من الإناث لا من الرجال تحقيقا ، فيخشى أن يحجب أو يؤخر في نعيم الآخرة كما أخرت الأنثى في أموال الدنيا . فأمثال هذا قد يحرك الوجد ولكن لمن فيه وصفان (أحدهما) حالة غالبية مستغرقة قاهرة (والآخر) تفتن بليغ وتيقظ بالغ كامل للتنبيه بالأمور القريبة على المعاني البعيدة وذلك مما يعز ، فلاجل ذلك يفرغ إلى الغناء الذي هو ألفاظ مناسبة للأحوال حتى يتسارع هيجانها . وروى أن أبا الحسين التوري كان مع جماعة في دعوى فجرى بينهم مسألة في العلم وأبو الحسين ساكت ثم رفع رأسه وأنشدهم :

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجوى صدحت في فن
ذكرت لافسا ودهرا صالحا وبكت حزنا فهاجت حزني
فبكائي ربما أرقها وبكائها ربما أرقني
ولقد أشكو فما أفهمها ولقد تشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني

قال فما بقي أحد من القوم إلا قام وتواجد ، ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذي غاضوا فيه وإن كان العلم جدا وحقا .

الوجه الثاني : أن القرآن محفوظ للأكثرين ومتكرر على الاسماع والقلوب ، وكلما سمع أولا عظم أثره في القلوب ، وفي السكرة الثانية يضعف أثره ، وفي الثالثة يكاد يسقط أثره . ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام في مرات متقاربة في الزمان ، في يوم أو أسبوع لم يمكنه ذلك . ولو أبدل بيت آخر لتجدد له أثر في قلبه وإن كان معربا عن عين ذلك المعنى . ولكن كون النظم واللفظ غريبا بالإضافة إلى الأولى يحرك النفس وإن كان المعنى واحدا . وليس يقدر القارئ على أن يقرأ قرآنا غريبا في كل وقت ودعوة فإن القرآن محصور لا يمكن الزيادة عليه وكله محفوظ متكرر . وإلى ما ذكرناه أشار الصديق رضي الله عنه حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويبكون فقال : كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا . ولا نظن أن قلب الصديق رضي الله عنه كان أقسى من قلوب الأجلاف من العرب وأنه كان أخلى عن حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم ، ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقلة التأثير به لما حصل له من الانس بكثرة استماعه ، إذ محال في العادات أن يسمع السامع آية لم يسمعها قبل فيبكي ، ثم يدوم على بكائه عليها عشرين سنة ، ثم يرددها ويبكي ، ولا يفارق الأول الآخر إلا في كونه غريبا جديدا ؟ ولكل جديد لذة واسكل طارئ صدمة ، ومع كل مألوف أنس يناقض الصدمة . ولذا هم عمر رضي الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف وقال : قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت أي يأنسوا به . ومن قدم حاجا فرأى البيت أولا بكى وزعق وربما غشى عليه إذ وقع عليه بصره ، وقد يقيم بمكة شهرا ولا يحس من ذلك في نفسه بأثر ، فإذا المغنى يقدر على الآيات الغريبة في كل وقت ولا يقدر في كل وقت على آية غريبة .

الوجه الثالث : أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأميرا في النفس فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون ، وإنما يوجد الوزن في الشعر دون الآيات ، ولو زحف المغنى البيت الذي ينشده أو لحن فيه

أو مال عن حد تلك الطريقة في اللحن لاضطرب قلب المستمع وبطل جده وسماعه ونفر طبعه لعدم المناسبة . وإذا نفر الطبع اضطرب القلب وتشوش ، فالوزن إذن مؤثر فذلك طاب الشعر .

الوجه الرابع : أن الشعر الموزون يختلف تأثيره في النفس بالالحن التي تسمى الطرق والاستانات وإنما اختلاف تلك الطرق بمد المقصور وقصر المدود والوقف في أثناء الكلمات والقطع والوصل في بعضها . وهذا التصرف جائز في الشعر ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنزل ، فقصره ومدّه والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقتضيه التلاوة حرام أو مكروه . وإذا رتل القرآن كما أنزل سقط عنه الأثر الذي سببه وزن الالحن وهو سبب مستقل بالتأثير وإن لم يكن مفهوما ، كما في الأوتار والمزمار والشاهين وسائر الأصوات التي لانفهم ..

الوجه الخامس : أن الالحن الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعات وأصوات آخر موزونة خارج الخلق كالضرب بالقضيب والدف وغيره ، لأن الوجد الضعيف لا يستثار إلا بسبب قوى ، وإنما يقوى بمجموع هذه الأسباب ولكل واحد منها حظ في التأثير ، وواجب أن يسان القرآن عن مثل هذه القرائن لأن صورتها عند عامة الخلق صورة اللهو واللعب ، والقرآن جد كله عند كافة الخلق ، فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما هو لهو عند العامة ، صورته صورة اللهو عند الخاصة ، وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث إنها لهو ، بل ينبغي أن يوقر القرآن . فلا يقرأ على شوارع الطرق بل في مجلس ساكن ، ولا في حال الجنابة . ولا على غير طهارة ولا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا المراقبون لأحوالهم ، فيعدل إلى الغناء الذي لا يستحق هذه المراقبة والمراعاة ، ولذلك لا يجوز الضرب بالدف مع قراءة القرآن ليلة العرس . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب الدف في العرس فقال : « أظهروا النكاح ولو بضرب الغربال »^(١) ، وأبلفظ هذا معناه ، وذلك جائز مع الشعر دون القرآن . ولذلك لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار فسمع إحداهن تقول : وفيما نبي يعلم ما في غد . على وجه الغناء ، فقال صلى الله عليه وسلم : « دعى هذا وقول ما كنت تقولين »^(٢) ، وهذه شهادة بالنبوة فرجها عنها وردّها إلى الغناء الذي هو لهو ، لأن هذا جد محض فلا يقرن بصورة اللهو . فإذا يتعذر بسببه تقوية الأسباب التي بها يصير السماع محركا للقلب فواجب في الاحترام العدول إلى الغناء عن القرآن كما وجب على تلك الجارية العدول عن شهادة النبوة إلى الغناء .

الوجه السادس . أن المعنى قد يغني ببيت لا يوافق حال السامع فيسكبه وينهاه عنه ويستدعى غيره فليس كل كلام موافقا لكل حال . فلو اجتمعوا في الدعوات على القارئ فربما يقرأ آية لا توافق حالهم إذ القرآن شفاء للناس كلهم على اختلاف الأحوال ، فأيات الرحمة شفاء الخائف ، وآيات العذاب شفاء المغرور الآمن . وتفصيل ذلك مما يطول . فإذا لا يؤمن أن لا يوافق المقروء الحال وتسكره النفس فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلا إلى دفعه . فالاحتراس عن خطر ذلك حزم بالغ وحتم واجب إذ لا يجد الخلاص عنه إلا بتنزيله على وفق حاله ولا يجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى . وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مراده ففيه خطر الكراهة أو خطر التأويل الخطأ لموافقة الحال فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك ، وهذا ما ينقدح في علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرآن .

وهنا وجه سابع ذكره أبو نصر السراج الطوسي في الاعتذار عن ذلك فقال : القرآن كلام الله وصفة من

(١) حديث : الأمر بضرب الدف في العرس . تقدم في النكاح . (٢) حديث : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار فبنت .. الحديث . أخرجه البخاري من حديثها وقد تقدم في النكاح .

صفاته وهو حق لا تطبيقه البشرية ، لأنه غير مخلوق فلا تطبيقه الصفات المخلوقة . ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لتصدعت ودهشت وتحوّرت . والألحان الطيبة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق ، والشعر نسبته نسبة الحظوظ . فإذا علقت الألحان والأصوات بما في الآيات من الإشارات والطوائف شاكل بعضها بعضا كان أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب لمشاكلة المخلوق المخلوق . فما دامت البشرية باقية ونحن بصفتنا وحظوظنا نتنعم بالنعائم الشجية والأصوات الطيبة ، فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أولى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى الذي هو صفته وكلامه الذي منه بدأ وإليه يعود . وهذا حاصل المقصود من كلامه واعتذاره . وقد حكى عن أبي الحسن الدراج أنه قال قصدت يوسف بن الحسين الرازي من بغداد للزيارة والسلام عليه فلما دخلت الري كنت أسأل عنه فسل من سأله عنه قال . أيش تعمل بذلك الزنديق ؟ فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف . ثم قلت في نفسي : قد جبت هذا الطريق كله فلا أقل من أن أراه . فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه في مسجد وهو قاعد في المحراب وبين يديه رجل ويده مصحف وهو يقرأ ، فإذا هو شيخ بهى حسن الوجه واللحية ، فسلمت عليه فأقبل على وقال : من أين أقبلت ؟ فقلت : من بغداد ، فقال : وما الذى جاء بك ؟ فقلت : قصدتك للسلام عليك ، فقال : لو أن فى بعض هذه البلدان قال لك إنسان أقم عندنا حتى نشترى لك دارا أو جارية أكان يقعدك ذلك عن المجيء ؟ فقلت : ما امتحننى الله بشئ من ذلك ولو امتحننى ما كنت أدرى كيف أكون ؟ ثم قال لى : أتحسن أن تقول شيئا ؟ فقلت : نعم ، فقال : هات ! فأنشأت أقول :

رأيتك تبني دائما في قطيعتي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

كأنى بكم والليت أفضل قولكم ألا ليتنا كنا إذ الليت لا يغنى

قال : فأطبق المصحف ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وابتل ثوبه ، حتى رحمته من كثرة بكائه ، ثم قال : يا بنى تلوم أهل الري يقولون يوسف زنديق ، هذا أنا من صلاة الغداة أقرأ فى المصحف لم تفطر من عيني فطرة ، وقد قامت القيامة على لهدن البيتين . فإذا القلوب وإن كانت محترقة فى حب الله تعالى فإن البيت الغربى يهيج منها ما لا تهيج تلاوة القرآن ، وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع ، ولكونه مشاكلة للطبع اقتدر البشر على نظم الشعر ، وأما القرآن فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومنهجه وهو لذلك معجز لا يدخل فى قوة البشر لعدم مشاكلته لطبعه . وروى أن إسرائيل - أستاذ ذى النون المصرى - دخل عليه رجل فرآه وهو ينسكت فى الأرض بأصبعه ويترنم بيت فقال : هل تحسن أن تترنم بشئ ؟ فقال : لا ، قال : فأنت بلا قلب - إشارة إلى أن من له قلب وعرف طباعه علم أنه تحركه الآيات والنعائم تحريكا لا يصادف فى غيرها فيتكلف طريق التحريك إما بصوت نفسه أو بغيره - وقد ذكرنا حكم المقام الأول فى فهم المسموع وتنزيله ، وحكم المقام الثانى فى الوجد الذى يصادف فى القلب ، فلندكر الآن أثر الوجد أعنى ما يترشح منه إلى الظاهر من صعقة وبكاء وحركة وتمزيق ثوب وغيره فنقول :

المقام الثالث من السماع

نذكر فيه آداب السماع ظاهرا وباطنا وما يحمد من آثار الوجد وما يذم . فأما الآداب فهى خمس جمل :
الأول : مراعاة الزمان والمكان والإخوان . قال الجنيد : السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع : الزمان والمكان والإخوان . ومعناه أن الاشتغال به فى وقت حضور طعام أو خصام أو صلاة أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لافائدة فيه فهذا معنى مراعاة الزمان فيراعى حالة فراغ القلب له . وأما المكان : فقد يكون

شارعا مطروقا أو موضعا كره الصورة أو فيه سبب يشغل القلب فيجتنب ذلك . وأما الإخوان : فسببه أنه إذا حضر غير الجنس من منكر السماع متزهده الظاهر مفلس من لطائف القلوب كان مستقلا في المجلس واشتغل القلب به . وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبته وإلى مراعاته ، أو متكلف متواجد من أهل التصوف يرأى بالوجد والرقص وتمزيق الثياب ، فكل ذلك مشوشات . فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى في هذه الشروط نظر للمستمع .

الأدب الثاني : هو نظر الحاضرين أن الشيخ إذا كان حوله مريدون يضرهم السماع فلا ينبغي أن يسمع في حضورهم فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر والمريد الذي يستضر بالسماع أحد ثلاثة :

أقلهم درجة . هو الذي لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق السماع ؛ فاشتغاله بالسماع اشتغال بما لا يعنيه ، فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو ولا من أهل الذوق فيتنعم بذوق السماع ، فليشتغل بذكر أو خدمة وإلا فهو تضييع لزمانه .

الثاني : هو الذي له ذوق السماع ولكن فيه بقية من الخطوط والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية ولم ينكسر بعد انكسارا تؤمن غوائله ، فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة فيقطع عليه طريقه ويصدّه عن الاستكمال .

الثالث : أن يكون قد انكسرت شهوته وأمنت غافلته وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل ؛ فإذا فتح له باب السماع نزل المسموع في حق الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز فيكون ضرره من تلك الخواطر التي هي كفر أعظم من نفع السماع .

قال سهل رحمه الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل . فلا يصلح السماع لمثل هذا ولا لمن قلبه بعد ملوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء ، ولا لمن يسمع لأجل التلذذ والاستطابة بالطبع فيصير ذلك عادة له ويشغله ذلك عن عبادته ومراعاة قلبه وينقطع عليه طريقه . فالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه . قال الجنيد : رأيت إبليس في النوم فقلت له هل تظفر من أصحابنا بشيء ؟ قال : نعم في وقتين ، وقت السماع ووقت النظر فإن أدخل عليهم به . فقال بعض الشيوخ : لو رأيته أنا لقلت له ما أحملك من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر كيف تظفر به ؟ فقال الجنيد : صدقت .

الأدب الثالث : أن يكون مصغيا إلى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات إلى الجواب ، متحرزا عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد . مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبه ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سره ، متحفظا عن حركة تشوش على أصحابه قلوبهم . يل يكون ساكن الظاهر ، هادئ الأطراف متحفظا عن التنحنح والتأثر ، ويجلس مطرقا رأسه ، بكلوسه في فكر مستغرق لقلبه ، متماسكا عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراعاة ، ساكنا عن النطق في أثناء القول بكل ما عنه بد فإن غلبه الوجد وحركة بغير اختيار فهو فيه معذور غير ملوم . ومهما رجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه . ولا ينبغي أن يستديمه حياء من أن يقال انقطع وجهه على القرب ولا أن يتواجد خوفا من أن يقال هو قاسى القلب عديم الصفاء والركة .

حكى أن شابا كان يصحب الجنيد فكان إذا سمع شيئا من الذكر يزعم فقال له الجنيد يوما ؛ إن فعلت ذلك مرة

أخرى لم تصحبنى فكان بعد ذلك يضبط نفسه حتى يقطر من كل شعرة منه قطرة ماء ولا يزعق ، فحكى أنه اختق يوما لشدة ضبطه لنفسه فشقق قلبه وتلفت نفسه . وروى أن موسى عليه السلام قص في بني إسرائيل فزق واحد منهم ثوبه أو قيصه فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل له : مزق لى قلبك ولا تمزق ثوبك . قال أبو القاسم النصرى لآبى عمرو بن عبيد أنا أقول : إذا اجتمع القوم فيكون معهم قوال يقول خيرا لهم من أن يفتابوا ؛ فقال أبو عمرو : الرياء فى السماع وهو أن ترى من نفسك حالا ليست فيك شر من أن تغتاب ثلاثين سنة أو نحو ذلك .

فإن قلت : الأفضل هو الذى لا يحركه السماع ولا يؤثر فى ظاهره أو الذى يظهر عليه ؟ فاعلم أن عدم الظهور نارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان ، ونارة يكون مع قوة الوجد فى الباطن لكن لا يظهر لكمال القوة على ضبط الجوارح فهو كمال ، ونارة يكون لكون حال الوجد ملازما ومصاحبا فى الأحوال كلها فلا يتبين للسماع مزيد تأثير وهو غاية الكمال . فإن صاحب الوجد فى غالب الأحوال لا بدوم وجده فمن هو فى وجد دائم فهو المرابط للحق والملازم لعين الشهود ؛ فهذا لا تغيره طوارق الأحوال ولا يبعد أن تكون الإشارة بقول الصديق رضى الله عنه : كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا ، معناه قويت قلوبنا واشتدت فصارت تطبق ملازمة الوجد فى كل الأحوال فنحن فى سماع معانى القرآن على الدوام فلا يكون القرآن جديدا فى حقنا طارئا علينا حتى تتأثر به . فإذا قوة الوجد تحرك وقوة العقل والتماسك تضبط الظاهر - وقد يغلب أحدهما الآخر إما الشدة وقوته وإما الضعف ما يقابله ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك فلا تظن أن الذى يضطرب بنفسه على الأرض أتم وجد من الساكن باضطرابه . بل رب ساكن أتم وجد من المضطرب . فقد كان الجنيد يتحرك فى السماع فى بدايته ثم صار لا يتحرك فقليل له فى ذلك فقال (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمز من السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ) إشارة إلى أن القلب مضطرب جاثل فى الملكوت والجوارح متأدبة فى الظاهر ساكنة . وقال أبو الحسن محمد بن أحمد وكان بالبصرة : صحبت سهل بن عبد الله ستين سنة فما رأيته تغير عند شئ كان يسمعه من الذكر أو القرآن ، فلما كان فى آخر عمره قرأ رجل بين يديه (فالיום لا يؤخذ منكم فدية) الآية فرأيته قد ارتعد وكاد يسقط ، فلما عاد إلى حاله سأله عن ذلك فقال : نعم يا حبيبي قد ضعفنا . وكذلك سمع مرة قوله تعالى (الملك يومئذ الحق للرحمن) فاضطرب فسأله ابن سالم - وكان من أصحابه - فقال : قد ضعفت . فقليل له : فإن كان هذا من مضعف فما قوة الحال فقال : أن لا يرد عليه وارد إلا وهو يلتقيه بقوة حاله ، فلا تغيره الواردات وإن كانت قوية . وسبب القدرة على ضبط الظاهر مع وجود الوجد استواء الأحوال بملازمة الشهود . كما حكى عن سهل رحمه الله تعالى أنه قال : حالتى قبل الصلاة وبعدها واحدة ، لأنه كان مراعىا للقلب حاضر الذكر مع الله تعالى فى كل حال . فكذلك يكون قبل السماع وبعده ، إذ يكون وجده دائما ، وعطشه متصلا ، وشربه مستمرا ، بحيث لا يؤثر السماع فى زيادته . كما روى أن عشاء الدينورى أشرف على جماعة فيهم قوال فسكنوا فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه فلو جمعت ملاهى الدنيا فى أذن ما شغل همى ولا شنى بعض ما بى . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم . وفضل العلم أتم من فضل الوجد .

فإن قلت : فكل هذا لم يحضر السماع ؟ فاعلم أن من هؤلاء من ترك السماع فى كبره وكان لا يحضر إلا نادرا لمساعدة أخ من الإخوان وإدخاله للسرور على قلبه ؛ وربما حضر ليعرف القوم كمال قوته فيعملون أنه ليس الكمال بالوجد الظاهر ؛ فيتعلون منه ضبط الظاهر عن التكلف وإن لم يقدروا على الاقتداء به فى صيرورته طبعيا

لهم . وإن اتفق حضورهم مع غير أبناء جنسهم فيكونون معهم بأبدانهم نائمين عنهم بقلوبهم وبواطنهم . كما يجلسون من غير سماع مع غير جنسهم بأسباب عارضة تقتضي الجلوس معهم . وبعضهم نقل عنه ترك السماع ويظن أنه كان سبب تركه استغناءه عن السماع بما ذكرناه . وبعضهم كان من الزهاد ولم يكن له حظ روحاني في السماع ولا كان من أهل اللهو ، فكره لئلا يكون مشغولا بما لا يعنيه . وبعضهم تركه لفقد الإخوان . قيل لبعضهم لم لا تسمع ؟ فقال : من ومع من ؟

الأدب الرابع : أن لا يقنوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه ولكن إن رقص أو تباكي فهو مباح إذا لم يقصد به المראה ؛ لأن التباكي استجلاب للحزن ، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط . فكل سرور مباح فيجوز تحريكه . ولو كان ذلك حراما لما نظرت عائشة رضي الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفنون ^(١) هذا لفظ عائشة رضي الله عنها في بعض الروايات . وقد روي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم حجوا لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك ؛ وذلك في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها علي بن أبي طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضي الله عنهم فتشاحوا في ترييتها فقال صلى الله عليه وسلم لعلي « أنت مني وأنا منك » فحجل علي وقال لجعفر « أشبهت خلقي وخلقي » فحجل وراءه حجل علي وقال لزيد « أنت أخونا ومولانا » فحجل زيد وراء حجل جعفر ، ثم قال عليه السلام « هي لجعفر لأن خالتها تحتها والحالة والدة ^(٢) » وفي روايه أنه قال لعائشة رضي الله عنها « أتحبين أن تنظري إلى زفن الحبشة » والزفن والحجل هو الرقص . وذلك يكون لفرح أو شوق فحكه حكم مهيج ، وإن كان فرحه محمودا والرقص يزيد ويؤكده فهو محمود ، وإن كان مباحا فهو مباح ، وإن كان مذموما فهو مذموم . نعم لا يليق اعتياد ذلك بمنصب الأكابر وأهل القدوة لأنه في الأكثر يكون عن لهو ولعب ، وماله صورة اللعب واللهو في أعين الناس فينبغي أن يحتذبه المقتدى به لئلا يصغر في أعين الناس فيترك الاقتداء به .

وأما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار ، ولا يبعد أن يغلب الوجد بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدري لغلبة سكر الوجد عليه ، أو يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه ، وتكون صورته صورة المسكر إذ يكون له في الحركة أو التمزيق متنفس ، فيضطرب إليه اضطراب المريض إلى الأنين ، ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه مع أنه فعل اختياري ، فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه ، فالتنفس فعل يحصل بالإرادة ، ولو كلف الإنسان أن يمسك النفس ساعة لا يضطر من باطنه إلى أن يختار التنفس . فكذلك الرعدة وتمزيق الثياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم . فقد ذكر عند السري حديث الوجد الحاد الغالب فقال : نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يدري . فراجع فيه واستبعد أن ينتهي إلى هذا الحد فأصر عليه ولم يرجع . ومعناه : أنه في بعض الأحوال قد ينتهي إلى هذا الحد في بعض الأشخاص .

« فإن قلت : فما تقول في تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع فإنهم يمزقونها قطعاً صغارا ويفرقونها على القوم ويسمونها الخرقه ؟ فأعلم أن ذلك مباح إذا قطع قطعاً مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات . فإن الكرباس يمزق حتى يخط منه القميص ، ولا يكون ذلك تضييعاً لأنه تمزيق لغرض . وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصغار وذلك مقصود ، والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مباح . ولكل

(١) حديث : نظرت عائشة إلى رقص الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفنون . تقدم في الباب قبله .

(٢) حديث : اختصم علي وجعفر وزيد بن حارثة في ابنة حمزة فقال لعلي « أنت مني وأنا منك » فحجل وقال لجعفر « أشبهت خلقي وخلقي » فحجل وقال لزيد « أنت أخونا ومولانا » فحجل ... الحديث أخرجه أبو داود من حديث علي بإسناد حسن وهو عند البخاري دون « فحجل » .

مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ويعطيها لمائة مسكين ، ولكن ينبغي أن تكون القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها في الرقاق . وإنما منعنا في السماع التمزيق المفسد للثوب الذي يهلك بعضه بحيث لا يبقى منتفعا به فهو تضييع محض لا يجوز بالاختيار .

الأدب الخامس : موافقة القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف ، أو قام باختيار من غير إظهار وجد وقامت له الجماعة فلا بد من الموافقة ، فذلك من آداب الصعبة . وكذلك إن جرت عادة طائفة بتنحية العامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته . أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق ؛ فالموافقة في هذه الأمور من حسن الصعبة والعشرة ، إذا المخالفة موحشة ولكل قوم رسم ، ولا بد من مخالقة الناس بأخلاقهم^(١) كما ورد في الخبر ، لاسيما إذا كانت أخلاقا فيها حسن العشرة والمجاملة وتطيب القلب بالمساعدة . وقول القائل : لأن ذلك بدعة لم يكن في الصحابة ؟ فليس كل ما يحكم بإباحته منقولا عن الصحابة رضى الله عنهم ، وإنما المحذور ارتكاب بدعة تراغم سنة مأثورة ، ولم ينقل النهى عن شيء من هذا .

والقيام عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب بل كان الصحابة رضى الله عنهم لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحوال^(٢) كما رواه أنس رضى الله عنه . ولكن إذا لم يثبت فيه نهى عام فلا نرى به بأسا في البلاد التي جرت العادة فيها بالإكرام الداخل بالقيام ، فإن المقصود منه الاحترام والإكرام وتطيب القلب به . وكذلك سائر أنواع المساعدات إذا قصد بها تطيب القلب واصطلح عليها جماعة فلا بأس بمساعدتهم عليها ، بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نهى لا يقبل التأويل ، ومن الأدب أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كان يستقل رقصه ، ولا يشقش عليهم أحوالهم إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح ، والمتواجد هو الذى يلوح للجميع منه أثر التكلف . ومن يقوم عن صدق لا تستغله الطباع فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محكة للصدق والتكلف .

سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال : صحته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالا غير أضداد .

فإن قلت : فما بال الطباع تنفر عن الرقص ويسبق إلى الأوهام أنه باطل وهو مخالف للدين فلا يراه ذو وجد في الدين إلا وينكره ؟

فاعلم أن الجد لا يزيد على جد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد رأى الحبشة يرفنون في المسجد وما أنكرم لما كان في وقت لائق به وهو العيد ، ومن شخص لائق به وهم الحبشة . نعم نفرة الطباع عنه ، لأنه يرى غالباً مقرونا باللهو واللعب ، واللهو واللعب مباح ولكن للعوام من الزوج والحبشة ومن أشبههم . وهو مكروه لذوى المناصب لأنه لا يليق بهم ، وما كرهه لكونه غير لائق بمنصب ذى المنصب فلا يجوز أن يوصف بالتحريم ، فمن سأل فقيرا شيئا فأعطاه رغيفا كان ذلك طاعة مستحسنة ، ولو سأل ملكا فأعطاه رغيفا أو رغيفين لكان ذلك منكرا عند الناس كافة ، ومكتوبا في تواريخ الأخبار من جملة مساويه ويعير به أعقاب وأشياعه ، ومع هذا فلا يجوز أن يقال ما فعله حرام لأنه من حيث إنه أعطى خبزا للفقير حسن ، ومن حيث أنه بالإضافة إلى منصبه كالمنع بالإضافة إلى الفقير مستقبس ، فكذلك الراقص وما يجرى مجراه من المباحات ، ومباحات العوام سيئات الأبرار ، وحسنات الأبرار

(١) حديث : مخالقة الناس بأخلاقهم ، أخرجه الحاكم من حديث أبي زر « خالفوا الناس بأخلاقهم ... الحديث » قال صحيح على شرط الشيخين : (٢) حديث : كانوا لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحوال . كما رواه أنس تقدم في آداب الصعبة .

سيئات المقرئين ، ولكن هذا من حيث الالتفات إلى المناصب . وأما إذا نظر إليه في نفسه وجب الحكم بأنه هو في نفسه لا تحريم فيه والله أعلم ، فقد خرج من جملة التفصيل السابق أن السماع قد يكون حراما محضا ، وقد يكون مباحا ، وقد يكون مكروها ، وقد يكون مستحبا .

أما الحرام : فهو لأكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة .

وأما المكروه : فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ولكنه يتخذ عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو .

وأما المباح : فهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن .

وأما المستحب : فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه إلا الصفات الحمودة والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله .

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو الكتاب التاسع : من ربيع العادات الثاني من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تستفتح الكتب إلا بحمده ، ولا تستمنع النعم إلا بواسطة كرمه ورفده ، والصلاة على سيد الأنبياء محمد رسول الله وعلي آل الطيبين وأصحابه الطاهرين من بعده .

أما بعد : فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل عمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مدهانة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم ، فمن سعى في تلافى هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلا بعملها أو متقلدا لتنفيذها مجددا لهذه السنة الدائرة ناهضا بأعبائها ومتشمرًا في إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إمامتها ، ومستبدا بقربة تتضامل درجات القرب دون ذروتها ، وهانحن نشرح عليه في أربعة أبواب . (الباب الأول) في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته ، (الباب الثاني) في أركانه وشروطه ، (الباب الثالث) في مجاربه وبيان المنكرات المألوفة في العادات (الباب الرابع) في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيم عن المنكر

الباب الأول : في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وفضيلته والمذمة في إهماله وإضاعته

ويدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه وإشارات العقول السليمة إليه : الآيات والأخبار والآثار

أما الآيات : فقوله تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم

المفلحون ﴿ في الآية بيان الإيجاب فإن قوله تعالى ﴿ ولتكن ﴾ أمر وظاهر الأمر الإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصر وقال ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل كونوا كلكم أمريين بالمعروف بل قال ﴿ ولتكن منكم أمة ﴾ فإذا مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين ، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون هم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة وقال تعالى ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال تعالى ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ﴾ فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية ، وقال تعالى ﴿ لعن الذي كفرنا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر ، وقال عز وجل ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس وقال تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجيناهم الذين ينهاون عن المنكر وأخذنا الذين ظلموا بعبادتنا بئس بما كانوا يفسقون ﴾ فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن المنكر وبذلك على الوجوب أيضا ، وقال تعالى ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين وقال تعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ وهو أمر جزم ومعنى التعاون الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان وقال تعالى ﴿ لولا نهيهم الرائيون والاحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ فبين أنهم أثموا بترك النهي وقال تعالى ﴿ فلو لا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ الآية فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين وقال تعالى ﴿ لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ الآية والإصلاح نهى عن البغى وإعادة إلى الطاعة فإن لم يفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله فقال ﴿ فقاتلوا التي تبغى حتى تنفي إلى أمر الله ﴾ وذلك هو النهي عن المنكر

وأما الاخبار : فيها ما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها : أيها الناس إنكم تهرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴿ وإلى

كتاب الأمر بالمعروف

الباب الأول : في وجوب الأمر بالمعروف

(١) حديث أبي بكر : أيها الناس إنكم تهرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ .. الحديث . أخرجه أصحاب السنن وهم في العلة .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعذبهم الله بعذاب من عنده » وروى عن أبي ثعلبة الخشني : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى ﴿ لا يضرركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ (١) فقال : « يا أبا ثعلبة مر بالمعروف وأنه عن المنكر فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهو متبعاً ودينياً مؤثراً ولا يحجب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام إن من وراءكم فتناً كقطع الليل المظلم للتمسك فيها بمثل الذي أتم عليه أجر خمسين منكم » قيل : بل منهم يارسول الله . قال : « لا بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون عليه أعواناً » وسئل ابن مسعود رضى الله عنه عن تفسير هذه الآية فقال : « إن هذا ليس زماناً إنما اليوم مقبولة » ولكن قد أوشك أن يأتي زماناً تأمرن بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا وتقولون فلا يقبل منكم فينتد عليكم أنفسكم لا يضرركم من ضل إذا اهتديتم » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم » (٢) ، معناه تسقط مهامهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم . وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « يا أيها الناس إن الله يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم » (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجى » ، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجى (٤) ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « إن الله تعالى ليسأل العبد مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقن الله العبد حجته قال رب وثقت بك وفرقت من الناس » (٥) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا مالنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها قال : « فإذا أبيتم إلا ذلك فاعطوا الطريق حقها » قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : « غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمراً بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله تعالى » (٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه » (٨) ، وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم ؟ » قالوا : « وإن ذلك لكائن يارسول الله قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون » قالوا : وما أشد

(١) حديث أبي ثعلبة : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى ﴿ لا يضرركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ ... الحديث . أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه .

(٢) حديث « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم » أخرجه البزار من حديث عمر بن الخطاب والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف والترمذي من حديث حذيفة نحو : إلا أنه قال « أو يوشك أن يعذبكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » قال هذا حديث حسن . (٣) حديث « يا أيها الناس إن الله سبحانه يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم » أخرجه أحمد والبيهقي من حديث عائشة بلطف « مروا وانهاؤا » وهو عند ابن ماجه دون عزوه الى كلام الله تعالى وفي استاده ابن . (٤) حديث : « ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجى » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الردوس مقتصراً على الشطر الأول من حديث جابر بإسناد ضعيف ، وأما الشطر الأخير فرواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من رواية يحيى بن عطاء مرسل أو معضلاً ، ولا أدري من يحيى بن عطاء ؟ (٥) حديث « إن الله تعالى ليسأل العبد مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره » . . الحديث « أخرجه ابن ماجه وقد تقدم . (٦) حديث « إياكم والجلوس على الطرقات » . . الحديث « متفق عليه من حديث أبي سعيد (٧) حديث « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمراً بمعروف . . . الحديث » تقدم في العلم .

(٨) حديث « إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يروا المنكر » . . الحديث « أخرجه أحمد من حديث عدى بن عميرة وفيه من يسم والطبراني من حديث أخيه العرس بن عميرة وفيه من لم أعرفه .

منه يارسول الله ؟ وكيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر ؟ قالوا : وكأن ذلك يارسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا ؟ قالوا : وكأن ذلك يارسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : وكيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : وكأن ذلك يارسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون ؟ يقول الله تعالى في حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران^(١) ، وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقفن عند رجل يضرب مظلوما فإن اللعنة تنزل على مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه ، ولا تقفن عند رجل يضرب مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه^(٢) ، قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينبغي لامرئ أن يشهد مقاما فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له^(٣) ، وهذا الحديث يدل على أنه لا يجوز دخول دور الظلمة والفسقة ولا حضور المواضع التي يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغييره ، فإنه قال : اللعنة تنزل على من حضر ، ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذارا بأنه عاجز . ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم المنكرات في الأسواق والأعياد والمجامع وعجزهم عن التغيير ، وهذا يقتضي لزوم الهجر للخلق . ولهذا قال عمر ابن عبد العزيز رحمه الله : ما ساح السواح وغلوا دورهم وأولادهم إلا بمثل ما نزل بنا حين رأوا الشر قد ظهر والخير قد اندرس ، ورأوا أنه لا يقبل ممن تكلم ، ورأوا الفتن ولم يأمنوا أن تعذبهم وأن ينزل العذاب بأولئك القوم فلا يسلبون منه ؛ فرأوا أن مجاورة السباع وأكل البقول خير من مجاوره هؤلاء في نعيمهم ثم قرأ ﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾ قال : ففتر قوم فلو لا ما جعل الله جل ثناؤه في النبوة من السر لقلنا ما هم بأفضل من هؤلاء ، فيما بلغنا أن الملائكة عليهم السلام لتلقاهم وتصافهم ، والسحاب والسباع تمر بأحدهم فيناديها فتجيبه ، ويسألها أين أمرت فتخبره ؟ وليس بنبي . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حضر معصية فكرها فسكانه غاب عنها ، ومن غاب عنها فأحبها فسكانه حضرها^(٤) ، ومعنى الحديث أن يحضر حاجة أو يتفق جريان ذلك يديه . فأما الحضور قصدا فمتنوع بدليل الحديث الأول . وقال ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بعث الله عز وجل نبيا إلا وله حوارى فيمكث النبي بين أظهرهم ما شاء الله تعالى يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره حتى إذا قبض الله نبيه مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وبسنة نبيه فإذا انقضوا كان من بعدهم قوم يركبون ردوس المنابر يقولون ما يعرفون ويعملون ما ينكرون فإذا رأيتم ذلك فحق على كل مؤمن جهادهم بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وليس وراء ذلك إسلام^(٥) .

(١) حديث أبي أمامة : كيف بكم إذا طغى أساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم قالوا وإن ذلك كان يارسول الله قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون ، قالوا وما أشد منه ؟ قال : كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ... الحديث « أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف دون قوله » كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف » ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة مقتصرًا على الأسئلة الثلاثة الأولى وأجوبتها دون الآخرين وإسناده ضعيف

(٢) حديث عكرمة عن ابن عباس « لا تقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه » أخرجه الطبراني بسند ضعيف والبيهقي في شعب الإيمان بسند حسن . . . (٣) حديث « لا ينبغي لامرئ أن يشهد مقاما فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقا هو له » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند الحديث الذي قبله وروى الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد « لا يمتنع رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه » .

(٤) حديث أبي هريرة « من حضر معصية فكرها فسكانه غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فسكانه حضرها » رواه ابن عدى وفيه يحيى بن أبي سلمان قال البخاري منكر الحديث . (٥) حديث ابن مسعود « ما بعث الله عز وجل نبيا إلا وله حوارى ... الحديث » روى مسلم نحوه .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كان أهل قرية يعملون بالمعاصي وكان فيهم أربعة نفر يشكرون ما يعملون ، فقام أحدهم فقال : إنكم تعملون كذا وكذا لجعل فيناهم ويخبرهم بقبيح ما يصنعون فجعلوا يردون عليه ولا يرفعون عن أعمالهم فسيبهم فسيبوه وقتلهم فغلبوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسيبوني فغلبوني ثم ذهب ثم قام الآخر فنهاهم فلم يطيعوه فسيبهم فسيبوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسيبوني ولوقتلتهم لغلبوني . ثم ذهب ثم قام الثالث فنهاهم فلم يطيعوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني ولو سببتهم لسبوني ولو قتلتهم لغلبوني . ثم ذهب ثم قام الرابع فقال اللهم إني لو نهيتهم لعصوني ولو سببتهم لسبوني ولو قتلتهم لغلبوني ثم ذهب قال ابن مسعود رضي الله عنه كان الرابع أدناهم منزلة وقليل فيكم مثله ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قيل يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال « نعم » قيل بم يا رسول الله قال « بهاءونهم وسكوتهم على معاصي الله تعالى ^(١) » وقال جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوحى الله تبارك وتعالى إلى ملك من الملائكة أن ألقب مدينة كذا وكذا على أهلها فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين قال ألقبها عليه وعليهم فإن وجهه لم يتمر في ساعة قط ^(٢) » وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء قالوا يا رسول الله كيف قال لم يكونوا يغضبون الله ولا يأمرؤن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ^(٣) » وعن عروة عن أبيه قال قال موسى صلى الله عليه وسلم يارب أي عبادك أحب إليك قال الذي يتسرع إلى هواي كما يتسرع النسر إلى هواه والذي يكلف بعبادي الصالحين كما يكلف الصبي بالثدي والذي يغضب إذا أتيت محاربي كما يغضب النمر لنفسه فإن النمر إذا غضب لنفسه لم يبال قل الناس أم كثروا وهذا يدل على فضيلة الحسبة مع شدة الخوف وقال أبو ذر الغفاري : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم يا أبا بكر إن الله تعالى مجاهد في الأرض أفضل من الشهداء أحياء مرزوقين يمشون على الأرض يباهي الله بهم ملائكة السماء وتزين لهم الجنة كما تزينت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم » فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ومن هم ؟ قال « الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والمحبون في الله والمبغضون في الله » ثم قال « والذي نفسي بيده إن العبد منهم ليكون في الغرفة فوق الغرفات فوق غرف الشهداء للغرفة منها ثلثائة ألف باب منها الياقوت والزمرد الأخضر على كل باب نور وإن الرجل منهم ليزوج بثلثائة ألف حوراء قاصرات الطرف عين كلما التفت إلى واحدة منهن فنظر إليها تقول له : أتذكر يوم كذا وكذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ؟ كلما نظر إلى واحدة منهن ذكرت له مقاما أمر فيه بمعروف ونهى فيه عن منكر ^(٤) » وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قلت : يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله عز وجل ؟ قال « رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فإن لم يقتله فإن القلم لا يجرى

(١) حديث ابن عباس : قيل يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال « نعم » قيل : بم يا رسول الله ؟ قال « بهاءونهم وسكوتهم على معاصي الله » أخرجه البزار والطبراني بسند ضعيف . (٢) حديث جابر « أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن ألقب مدينة كذا وكذا على أهلها قال فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا . . . الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب وضمفه وقال المحفوظ من قول ملك بن دينار . (٣) حديث عائشة « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء » لم أنف عليه مرفوعا وروى ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن إبراهيم بن عمر الصنعاني « أوحى الله إلى يوشع بن نون إلى مهلك من قومه أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم قال يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ؟ قال لأنهم لم ينضبوا انضبي فكانوا يؤاكلونهم ويغارونهم » . (٤) حديث أبي ذر : قال أبو بكر يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين ؟ قال « نعم يا أبا بكر إن الله تعالى مجاهد في الأرض أفضل من الشهداء » فذكر الحديث وفيه فقال « هم الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . . . الحديث » بطوله لم أقف له على أصل وهو منكر .

عليه بعد ذلك وإن عاش ما عاش ^(١) ، وقال الحسن البصري رحمه الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلة في الجنة بين حمزة وجعفر ^(٢) » ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بثس القوم قوم لا يأمرن بالقسط وبثس القوم قوم لا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ^(٣) » .

وأما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجمل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعوا عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلا يغفر لكم . وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال : الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه . وقال مالك بن دينار : كان جبر من أحبار بني إسرائيل يغشى الرجال والنساء منزله يعظهم ويذكرهم بأيام الله عز وجل فرأى بعض بنيهم يوما وقد غمز بعض النساء فقال : مهلا يا بني مهلا ، وسقط من سريره فانقطع نخاعة وأسقطت امرأته وقتل بنوه في الجيش ، فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه : أن أخبر فلانا الخبر أني لا أخرج من صلبك صديقا أبدا أما كان من غضبك لي إلا أن قلت : مهلا يا بني مهلا . وقال حذيفة : يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم وأوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون عليه السلام أني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم فقال : يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ، قال : إنهم لم يغضبوا لغضبي وواكلوهم وشاربوهم . وقال بلال بن سعد : إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أعلنت ولم تغير أضررت بالعامه ، وقال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني : كيف منزلتك من قومك ؟ قال : حسنة . قال كعب : إن التوراة لتقول غير ذلك ؟ قال : وما تقول ؟ قال : تقول إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه ، فقال : صدقت التوراة وكذب أبو مسلم . وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يأتي العمال ثم قعد عنهم فقيل له : لو أتيتهم فلعلهم يجدون في أنفسهم ، فقال : أهرب إن تكلمت أن يروا أن الذي بي غير الذي بي ، وإن سكنت رهبت أن آثم . وهذا يدل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . معناه أنه إذا لم يقدر إلا على نفسه فقام بها وأنكر أحوال الغير بقابه فقد جاء بما هو الغاية في حقه وقيل للفضيل : ألا تأمر وتنهى ؟ فقال : إن قوما أمروا ونهوا فكفروا وذلك أنهم لم يصبروا على ما أصيبوا وقيل للثوري . ألا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فقال : إذا انبثق البحر فمن يقدر أن يسكبه . فقد ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) حديث أبي عبيدة : قلت يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله ؟ قال « رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله ... الحديث » أخرجه البزار . مقتصر على هذا دون قوله « فإن لم يقتله ... إلى آخره » وهذه الزيادة منكروه وفيه أبو الحسن غير مشهور لا يعرف . (٢) حديث الحسن البصري مرسل « أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلة في الجنة بين حمزة وجعفر » لم أره من حديث الحسن ولا يحاكم في المستدرك وصحح امتزاده من حديث جابر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب « ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » . (٣) حديث عمر « بثس القوم قوم لا يأمرن بالقسط وبثس القوم قوم لا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر » رواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث جابر بسند ضعيف وأما حديث عمر فأشار إليه أبو منصور الديلمي بقوله وفي الباب ورواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسل .

المنكر واجب وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به . فلنذكر الآن شروطه وشروط وجوبه :

الباب الثاني : في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

أعلم أن الأركان في الحسبة التي هي عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة : المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب . فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شروطه .

الركن الأول : المحتسب

وله شروط ، وهو أن يكون مكلفا مسلما قادرا فيخرج منه المجنون والصبي والكافر والعاجز ، ويدخل فيه آحاد الرعايا وإن لم يكونوا مأذونين ، ويدخل فيه الفاسق والرفيق والمرأة . فلنذكر وجه اشتراط ما اشترطناه ووجه اطراح ما أطرحناه .

أما الشرط الأول ؛ وهو التكليف : فلا يخفى وجه اشتراطه فإن غير المكلف لا يلزمه أمر ، وما ذكرناه أردنا به شرط الوجوب ، فأما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعي إلا العقل ، حتى إن الصبي المراهق للبلوغ المميز وإن لم يكن مكلفا - فله إنكار المنكر وله أن يريق الخمر ويسكر الملاهي ؛ وإذا فعل ذلك نال به ثوابا ولم يكن لاحد منعه من حيث إنه ليس بمكلف . فإن هذه قرينة وهو من أهلها كالصلاة والإمامة وسائر القربات وليس حكمه حكم الولايات حتى يشترط فيه التكليف ؛ ولذلك ائتمناه للعبد وآحاد الرعية . نعم في المنع بالفعل وإبطال المنكر نوع ولاية وسلطنة ولكنها تستفاد بمجرد الإيمان كقتل المشرك وإبطال أسبابه وسلب أسلحته . فإن للصبي أن يفعل ذلك حيث لا يستضر به فالمنع من الفسق كالمنع من الكفر .

وأما الشرط الثاني ؛ وهو الإيمان : فلا يخفى وجه اشتراطه لأن هذا نصرة للدين فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدوله ؟

وأما الشرط الثالث ؛ وهو العدالة : فقد اعتبرها قوم وقالوا ليس للفاسق أن يحتسب ، وربما استدلوا فيه بالنكير الذي ورد على من يأمر بما لا يفعله مثل قوله تعالى ﴿ أَنُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَنَكْفُرُ عَنْهُ فَأُفْجِئُكَ مِنْ ذَلِكَ الَّتِي كُنْتَ تَفْجِئُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ وبما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مررت ليلة أُسرى بي بقوم تفرض شفاهم بمقاريض من نار فقلت : من أنتم ؟ فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه ونهني عن الشر ونأتيه ^(١) » ، وبما روى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى صلى الله عليه وسلم : عظ نفسك فإن تعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني . وربما استدلوا من طريق القياس بأن هداية الغير فرع للاهتمام ، وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة ، والإصلاح ، زكاة عن نصاب الصلاح ، فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يصلح غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟ وكل ما ذكرناه خيالات وإنما الحق أن للفاسق أن يحتسب وبرهانه هو أن نقول : هل يشترط في الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصي كلها ؟ فإن شرط ذلك فهو خرق للإجماع ثم حسم لباب الاحتساب إذ لا عصمة للصحابة فضلا عنهم ، والأنبياء عليهم السلام قد اختلفت في عصمتهم عن الخطايا . والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية وكذا جماعة من الأنبياء . ولهذا قال سعيد بن

الباب الثاني . في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

(١) حديث « مررت ليلة أُسرى بي بقوم تفرض شفاهم بمقاريض من نار . الحديث . تقدم في العلم .

جبير : إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء ؛ لم يأمر أحد بشيء ، فأعجب مالكا ذلك من سعيد بن جبير . وإن زعموا أن ذلك لا يشترط عن الصغار حتى يجوز اللبس الحرير أن يمنع من الزنا وشرب الخمر فنقول :

وهل لشارب الخمر أن يغزو الكفار ويحتسب عليهم بالمنع من الكفر ؛ فإن قالوا : لا ، خرقوا الإجماع إذ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الأيتام ولم يمنعوا من الغزو ولا في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعده . فإن قالوا : نعم ، فنقول : شارب الخمر هل له المنع من القتل أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، قلنا . فما الفرق بينه وبين لابس الحرير ؟ إذ جاز له المنع من الخمر ، والقتل كبيرة بالنسبة إلى الشرب كالشرب بالنسبة إلى لابس الحرير ؛ فلا فرق . وإن قالوا : نعم ، وفصلوا الأمر فيه بأن كل مقدم على شيء فلا يمنع عن مثله ولا عمادونه وإنما يمنع عما فوقه فهذا تحكم فإنه كما لا يبعد أن يمنع الشارب من الزنا والقتل فمن أين يبعد أن يمنع الزاني من الشرب ؟ بل من أين يبعد أن يشرب ويمنع غلماناه وخدمته من الشرب ؟ ويقول يجب على الانتهاء والنهي فمن أين يلزم من العصيان بأحدهما أن أعصى الله تعالى بالثاني ؟ وإذا كان النهي واجبا على من أين يسقط وجوبه بإقدامي ؟ إذ يستحيل أن يقال يجب النهي عن شرب الخمر عليه ما لم يشرب فإذا شرب سقط النهي .

فإن قيل : فيلزم على هذا أن يقول القائل الواجب على الوضوء والصلاة فأنا أتوضأ وإن لم أصل وأتسحر وإن لم أصم لأن المستحب لي السحور والصوم جميعا ولكن يقال : أحدهما مرتب على الآخر ، فكذلك تقويم الغير مرتب على تقويمه نفسه فليبدأ بنفسه ثم بمن يعول . والجواب أن التسحير راد للصوم ولولا الصوم لما كان التسحر مستحبا ، وما يراد لغيره لا ينفك عن ذلك الغير ، وإصلاح الغير لا يراد لإصلاح النفس ، ولا إصلاح النفس لإصلاح الغير فالقول بترتب أحدهما على الآخر تحكم .

وأما الوضوء والصلاة فهو لازم فلا جرم أن من توضأ ولم يصل كان مؤديا أمر الوضوء وكان عقابه أقل من عقاب من ترك الصلاة والوضوء جميعا فليكن من ترك النهي والانتهاء أكثر عقابا ممن نهى ولم ينته ، كيف والوضوء شرط لا يراد لنفسه ؟ بل للصلاة فلا حكم له دون الصلاة .

وأما الحسبة فليست شرطا في الانتهاء والاعتبار فلا مشابهة بينهما .

* فإن قيل : فيلزم على هذا أن يقال إذا زنى الرجل بامرأة وهي مكرهة مستورة الوجه فكشفت وجهها باختيارها فأخذ الرجل يحتسب في أثناء الزنا ويقول : أنت مكرهة في الزنا ومختارة في كشف الوجه لغير محرم ، وما أنا غير محرم لك فاسترى وجهك ، فهذا احتساب شنيع يستنكره قلب كل عاقل ويستشعنه كل طبع سليم ؟ فالجواب أن الحق قد يكون شنيعا وأن الباطل قد يكون مستحسنا بالطباع والمتبع الدليل دون نفرة الأوهام والخيالات فإننا نقول : قوله لها في تلك الحالة ، لا تكشفني وجهك ، واجب أو مباح أو حرام ؟ فإن قلتم : إنه واجب فهو الغرض لأن الكشف معصية والنهي عن المعصية حق . وإن قلتم : إنه مباح ، فأذن له أن يقول ما هو مباح ؟ فما معنى قولكم ليس للفسق الحسبة ؟ وإن قلتم : إنه حرام ، فنقول ، وكان هذا واجبا فمن أين حرم بإقدامه على الزنا ؟ ومن الغريب أن يصير الواجب حراما بسبب ارتكاب حرام آخر .

وأما نفرة الطباع عنه واستنكارها له فهو لسببين :

أحدهما : أنه ترك الآهم واشتغل بما هو مهم . وكذا أن الطباع تنفر عن ترك المهم إلى مالا يعني فتتفرعن ترك الآهم

والاشتغال بالمهم كما تنفر عن يتحرج عن تناول طعام مغصوب وهو مواظب على الربا ، وكما تنفر عن يتصاون عن الغيبة ويشهد بالزور لأن الشهادة بالزور أخش وأشد من الغيبة التي هي إخبار عن كائن يصدق فيه الخبر ، وهذا الاستبعاد في النفوس لا يدل على أن ترك الغيبة ليس بواجب ، وأنه لو اغتاب أو أكل لقمة من حرام لم تزد بذلك عقوبته ، فكذلك ضرره في الآخرة من معصيته أكثر من ضرره من معصية غيره ، فاشتغاله عن الأقل بالأكثر مستنكر في الطبع ، من حيث إنه ترك الأكثر لا من حيث إنه أتى بالأقل ، فمن غصب فرسه ولجام فرسه فاشتغل بطلب اللجام وترك الفرس نفرت عنه الطباع ويرى مسيئا ، إذ قد صدر منه طلب اللجام وهو غير منكر ، ولكن المنكر تركه لطلب الفرس بطلب اللجام فاشتد الإنكار عليه لتركه الأهم بما دونه ، فكذلك حصة الفاسق تستبعد من هذا الوجه وهذا لا يدل على أن حسبه من حيث إنها حصة مستنكرة .

الثاني : أن الحسبة تارة تكون بالنهي بالوعظ وتارة بالقهر ، ولا ينجع وعظ من لا يتعظ أو لا ونحن نقول : من علم أن قوله لا يقبل في الحسبة لعلم الناس بنفسه فليس عليه الحسبة بالوعظ ؛ إذ لا فائدة في وعظه فالفسق يؤثر في إسقاط فائدة كلامه ، ثم إذا سقطت فائدة كلامه سقط وجوب الكلام ، فأما إذا كانت الحسبة بالمنع فالمراد منه القهر وتسام القهر أن يكون بالفعل والحجة جميعا ، وإذا كان فاسقا فإن قهر بالفعل فقد قهر بالحجة إذ يتوجه عليه أن يقال له : فأنت لم تقدم عليه ؟ فتنفر الطباع عن قهره بالفعل مع كونه مقهورا بالحجة وذلك لا يخرج الفعل عن كونه حقا كما أن يذب الظالم عن آحاد المسلمين ويهمل أباه وهو مظلوم معهم تنفر الطباع عنه ولا يخرج دفعه عن المسلم عن كونه حقا . فخرج من هذا أن الفاسق ليس عليه الحسبة بالوعظ على من يعرف فسقه لأنه لا يتعظ ؛ وإذا لم يكن عليه ذلك ، وعلم أنه يفضي إلى تطويل اللسان في عرضه بالإنكار فنقول : ليس له ذلك أيضا . فرجع الكلام إلى أن أحد نوعي الاحتساب وهو الوعظ قد بطل بالفسق وصارت العدالة مشروطة فيه : وأما الحسبة القهرية فلا يشترط فيها ذلك فلا حرج على الفاسق في إراقة الخور وكسر الملاهي وغيرها إذا قدر ، وهذا غاية الإنصاف والكشف في المسألة وأما الآيات التي استدلو بها فهو إنكار عليهم من حيث تركهم المعروف لا من حيث أمرهم . ولكن أمرهم دل على قوة علمهم وعقاب العالم أشد لأنه لا عذر له مع قوة علمه وقوله تعالى ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ المراد به الوعد الكاذب وقوله عز وجل ﴿ وتفسون أنفسكم ﴾ إنكار من حيث إنهم نسوا أنفسهم لا من حيث إنهم أمروا غيرهم ولكن ذكر أمر الغير استدلالا به على علمهم وتأكيذا للحجة عليهم . وقوله « يا ابن مريم عظم نفسك ... الحديث » هو في الحسبة بالوعظ . وقد سلمنا أن وعظ الفاسق ساقط الجدوى عند من يعرف فسقه . ثم قوله « فاستحي مني » لا يدل على تحريم وعظ الغير بل معناه استحي مني فلا تترك الأهم وتشتغل بالمهم كما يقال احفظ أباك ثم جارك وإلا فاستحي .

« فإن قيل . فليجز للكافر الذي أن يحتسب على المسلم إذا رآه يزني لأن قوله لا تزن حق في نفسه فحال أن يكون حراما عليه ، بل ينبغي أن يكون مباحا أو واجبا . قلنا : الكافر إن منع المسلم بفعله فهو تسلط عليه فيمنع من حيث إنه تسلط وما جعل الله للكافرين على المؤمنين سييلا . وأما مجرد قوله « لا تزن » فليس بمحرم عليه من حيث إنه نهى عن الزنا ولكن من حيث إنه إظهار دالة الاحتكام على المسلم ، وفيه إذلال للحكم عليه ، والفاسق يستحق الإذلال ولكن لا من الكافر الذي هو أولى بالذل منه . فهذا وجه منعنا إياه من الحسبة وإلا فلنساقول إن الكافر يعاقب بسبب قوله : لا تزن ، من حيث إنه نهى بل نقول إنه إذا لم يقل لا تزن يعاقب عليه إن رأينا خطاب الكافر

بفروع الدين وفيه نظر استوفيتاه في الفقهيات ولا يليق بغرضنا الآن .

الشرط الرابع : كونه مأذونا من جهة الإمام والوالى ، فقد شرط قوم هذا الشرط ولم يشبثوا للأحاد من الرعية الحسبة ، وهذا الاشتراط فاسد ؛ فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكرا فسكت عليه عصي إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم ، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له . والعجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا : لا يجوز الأمر بالمعروف مالم يخرج الإمام المعصوم وهو الإمام الحق عندهم . وهؤلاء أخسر رتبة من أن يكلموا بل جوابهم أن يقال لهم - إذا جاءوا إلى القضاء طالبين لحقوقهم في دماهم وأموالهم - إن نصرتكم أمر بالمعروف واستخراج حقوقكم من أيدي من ظلمكم نهي عن المنكر وطلبكم لحقكم من جملة المعروف وما هذا زمان النهي عن الظلم وطلب الحقوق لأن الإمام الحق بعد لم يخرج .

• فإن قيل : في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه ، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقا فينبغي أن لا يثبت لأحاد الرعية إلا بتفويض من الوالى وصاحب الأمر ؟ فنقول : أما الكافر فمنع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام ، والكافر ذليل فلا يستحق أن ينال عز التحكم على المسلم ، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة ، وما فيه من عز السلطنة والاحتكام لا يحوج إلى تفويض كعز التعليم والتعريف ، إذ لا خلاف في أن تعريف التحريم والإيجاب لمن هو جاهل ومقدم على المنكر بحمله لا يحتاج إلى إذن الوالى ، وفيه عز الإرشاد وعلى المعروف ذل التجهيل ، وذلك يكفي فيه مجرد الدين وكذلك النهي .

• وشرح القول في هذا أن الحسبة لها خمس مراتب - كما سيأتى - (أولها) التعريف . (والثاني) الوعظ بالكلام اللطيف (والثالث) السب والتعنيف ، ولست أعنى بالسب الفحش بل أن يقول : يا جاهل ، يا أحمق ألا تخاف الله ، وما يجرى هذا المجرى (والرابع) المنع بالقهر بطريق المباشرة ككسر الملاهي ، وإراقة الخمر ، واختطاف الثوب الحرير من لابسها ، واستلاب الثوب المفصوب منه ، وردة على صاحبه . (والخامس) التخويف والتهديد بالضرب ، ومباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه كالمواظب على الغيبة والقذف فإن سلب لسانه غير ممكن ولكن يحمل على اختيار السكوت بالضرب . وهذا قد يحوج إلى استعانة وجمع أعوان من الجانبين ويجر ذلك إلى قتال وسائر المراتب لا ينبغي وجه استغنائها عن إذن الإمام إلا المرتبة الخامسة فإن فيها نظرا - سيأتى - أما التعريف والوعظ فكيف يحتاج إلى إذن الإمام ؟ وأما التجهيل والتحقيق والنسبة إلى الفسق وقلة الخوف من الله وما يجرى مجراه فهو كلام صدق ، والصدق مستحق بل أفضل الدرجات كلمة حق عند إمام جائر ^(١) كما ورد في الحديث فإذا جاز الحكم على الإمام على مراغمته فكيف يحتاج إلى إذنه ؟ وكذلك كسر الملاهي وإراقة الخمر فإنه تعاطى ما يعرف كونه حقا من غير اجتهاد فلم يقتصر إلى الإمام . وأما جمع الأعوان وشهر الأسلحة فذلك قد يجر إلى فتنة عامة ففيه نظر - سيأتى - واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاية قاطع بإجماعهم على الاستثناء عن التفويض ، بل كل من أمر بمعروف فإن كان الوالى راضيا به فذاك ، وإن كان ساخطا له فسنخطه له منكر يجب الإنكار عليه فكيف يحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه . ويدل على ذلك عادة السلف في الإنكار على الأئمة .

كما روى أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد فقال له رجل : إنما الخطبة بعد الصلاة ، فقال له مروان : اترك ذلك يا ففلان ، فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى ما عليه . قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى

(١) حديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدرى .

منكم منكرأ فليذكره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن يستطع فبقلمه وذلك أضعف الإيمان (١) ، فلقد كانوا فهموا من هذه العيومات دخول السلاطين تحتها فكيف يحتاج إلى إذنه ؟ وروى أن المهدي لما قدم مكة لبث بها ما شاء الله فلما أخذ في الطواف نحى الناس عن البيت فوثب عبد الله بن مرزوق فلبه بردائه ثم هزه وقال له : انظر ما تصنع ؟ من جعلك بهذا البيت أحق من أتاه من البعد ، حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه ؟ وقد قال الله تعالى ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ من جعل لك هذا ؟ فنظر في وجهه - وكان يعرفه لأنه من مواليمهم - فقال : أعبد الله ابن مرزوق ؟ قال : نعم ، فأخذ يخبر به إلى بغداد فذكره أن يعاقبه عقوبة يشنع بها عليه في العامة ، فجعله في اصطبل الدواب ليسوس الدواب وضموا إليه فرسا عضوضا سي* الخلق ليعقره الفرس قلين الله تعالى له الفرس ، قال : ثم صبروه إلى بيت وأغلق عليه ، وأخذ المهدي المفتاح عنده فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل ، فأوذن به المهدي فقال له : من أخرجك ؟ فقال : الذي حبسني ، فضج المهدي وصاح وقال : ماتت أن أقتلك ؟ فرفع عبد الله رأسه يضحك وهو يقول : لو كنت تملك حياة أوموتا ؟ فازال محبوسا حتى مات المهدي ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة . قال : وكان قد جعل على نفسه نذرا إن خلاصه الله من أيديهم أن ينحر مائة بدنة فكان يعمل في ذلك حتى نحرها .

وروى عن حبان بن عبد الله قال : تنزه هرون الرشيد بالدوين ومعه رجل من بني هاشم وهو سليمان بن أبي جعفر فقال له هرون : قد كانت لك جارية تغني فتحسن لجنتنا بها ، قال : لجأت ففقت فلم يحمد غناها ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : ليس هذا عودي ، فقال للخادم ، جئنا بعودها ، قال : لجأت بالعود فوافق شيخا يلقط النوى فقال : الطريق يا شيخ ، فرفع الشيخ رأسه فرأى العود فأخذه من الخادم فضرب به الأرض ؛ فأخذه الخادم وذهب به إلى صاحب الربع فقال : احتفظ بهذا فإنه طلبه أمير المؤمنين ، فقال له صاحب الربع : ليس ببغداد أعبد من هذا فكيف يكون طلبه أمير المؤمنين ؟ فقال له : اسمع ما أقول لك ، ثم دخل على هرون فقال : إني مررت على شيخ يلقط النوى فقلت له : الطريق ، فرفع رأسه فرأى العود فأخذه فضرب به الأرض فكسره ؛ فاستشاط هرون وغضب واحترت عيناه فقال له سليمان بن أبي جعفر : ما هذا الغضب يا أمير المؤمنين ؟ ابعت إلى صاحب الربع يضرب عنقه ويرم به في الدجلة ، فقال : لا ، ولكن نبعت إليه وتناظره أولا ؛ لجأت الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : نعم ، قال : اركب ، قال : لا ، لجأت يمشي حتى وقف على باب القصر ، فقيل له هرون : قد جاء الشيخ ، فقال للندماء أي شيء ترون ؟ نرفع ما قدامنا من المنكر حتى يدخل هذا الشيخ أو نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر ؟ فقالوا له : نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر أصلح ، فقاموا إلى مجلس ليس فيه منكر ثم أمر بالشيخ فأدخل - وفي كنه الكيس الذي فيه النوى - فقال له الخادم : أخرج هذا من كمنك وأدخل على أمير المؤمنين ، فقال : من هذا عشائي الليلة ، قال : نحن نعشيك . قال : لا حاجة لي في عشائكم ، فقال هرون للخادم : أي شيء تريد منه ؟ قال في كنه نوى قلت له اطرحه وأدخل على أمير المؤمنين فقال : دعه لا يطرحه ، قال : فدخل وسلم وجلس ، فقال له هرون : يا شيخ ما حملك على ما صنعت ؟ قال : وأي شيء صنعت ؟ وجعل هرون يستحي أن يقول كسرت عودي ، فلما أكثر عليه قال : إني سمعت أباك وأجدادك يقرءون هذه الآية على المنبر ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ وأنا رأيت منكرا فغيرته ، فقال : فغيره . فوالله ما قال إلا هذا ، فلما خرج

(١) حديث : إن مروان خطب قبل الصلاة في العيد ... الحديث . وفيه حديث أبي سعيد مرفوعا « من رأى منكرا ... الحديث » رواه مسلم .

أعطى الخليفة رجلاً بدرة وقال . اتبع الشيخ فإن رأيته يقول : قلت لأمير المؤمنين وقال لي : فلا تعطه شيئاً ؛ وإن رأيته لا يكلم أحداً فأعطه البدره . فلما خرج من القصر إذا هو بنواة في الأرض قد غاصت فجعل يعالجها ولم يكلم أحداً فقال له : يقول لك أمير المؤمنين خذ هذه البدره ، فقال : قل لأمير المؤمنين يردها من حيث أخذها . ويرى أنه أقبل بعد فراغه من كلامه على النواة التي يعالج قلعها من الأرض وهو يقول :

أرى الدنيا لمن هي في يديه هموما كلها كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغثت عن شيء فدعه وخذ ماأنت محتاج إليه

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال : حج المهدي سنة ست وستين ومائة فرأيت يرمى جرة العقبة والناس يخبطون يميناً وشمالاً بالسياط ، فوقفت فقلت : يا حسن الوجه حدثنا أيمن عن وائل عن قدامة بن عبد الله السكلاقي قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى الجرة يوم النحر على جبل لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك^(١) . وها أنت يخبط الناس بين يديك يميناً وشمالاً . فقال لرجل : من هذا ؟ قال : سفيان الثوري . فقال : يا سفيان لو كان المنصور ما احتملك على هذا ؟ فقال : لو أخبرك المنصور لقي لقصرت عما أنت فيه . قال : فقيل له إنه قال لك يا حسن الوجه ولم يقل لك يا أمير المؤمنين فقال : اطلبوه فطلب سفيان فاختنق وقد روى عن المأمون أنه بلغه أن رجلاً محتسباً يمشي في الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ولم يكن مأموراً من عنده بذلك فأمر بأن يدل عليه . فلما صار بين يديه قال له : إني بلغني أنك رأيت نفسك أهلاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن تأمر لوك كان المأمون جالساً على كرسي ينظر في كتاب أوقصة فأغفله فوقع منه فصار تحت قدمه من حيث لم يشعر به . فقال له المحتسب : ارفع قدمك عن أسماء الله تعالى ثم قل ما شئت ؛ فلم يفهم المأمون مراده فقال ماذا تقول ؟ - حتى أعاده ثلاثاً فلم يفهم . فقال : إما رفعت أو أذنت لي حتى أرفع . فنظر المأمون تحت قدمه فرأى الكتاب فأخذه وقبله وخجل . ثم عاد وقال : لم تأمر بالمعروف وقد جعل الله ذلك إلينا - أهل البيت - ونحن الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ فقال : صدقت يا أمير المؤمنين أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمسك غير أنا أعوانك وأولياؤك فيه . ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ﴾ الآية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً^(٢) ، وقد مكنت في الأرض وهذا كتاب الله وسنة رسوله فإن انقذت لها شكرت لمن أعانك لحرمتهما . وإن استكبرت عنهما ولم تنقذ لما لزمك منهما فإن الذي إليه أمرك ويده عزك وذلك قد شرط أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً فقل الآن ما شئت ؛ فأعجب المأمون بكلامه وسر به وقال : مثلك يجوز له أن يأمر بالمعروف . فامض على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا . فاستمر الرجل على ذلك . ففي سياق هذه الحكايات بيان الدليل على الاستغناء عن الإذن

• فإن قيل : أفتثبت ولاية الحسبة للولد والوالد والعبد على المولى والزوجة على الزوج والتلميذ على الأستاذ

(١) حديث قدامة بن عبد الله : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى الجرة يوم النحر على جبل لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك . رواه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه ، وأما قوله في أوله : إن الثوري قال حج المهدي سنة ست وستين . فليس بصحيح فإن الثوري توفي سنة إحدى وستين . (٢) حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » متفق عليه من حديث أبي موسى وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصلوة .

والرعية على الوالى مطلقا ، كما ثبت للوالد على الولد والسيد على العبد والزوج على الزوجة والاستاذ على التلميذ والسلطان على الرعية أو بينهما فرق ؟ فاعلم أن الذى نراه : أنه ثبت أصل الولاية ولكن بينهما فرق في التفصيل . ولنفرض ذلك في الولد مع الوالد فنقول : قد رتبنا للحسبة خمس مراتب ، وللولد الحسبة بالرتبتين الأوليين وهما : التعريف ثم الوعظ والنصح باللطف . وليس له الحسبة بالسب والتعنيف والتهديد ولا بمباشرة الضرب وهما الرتبتان الأخيرتان وهل له الحسبة بالرتبة الثالثة حيث تؤدي إلى أذى الوالد وسخطه ؟ هذا فيه نظر ، وهو بأن يكسر مثلا عوده ويريق خمره ويحل الخيوط عن ثيابه المنسوجة من الحرير ويرد إلى الملاك ما يجده في بيته من المسال الحرام الذى غصبه أو سرقه أو أخذه عن إدرار رزق من ضريبة المسلمين - إذا كان صاحبه معينا - ويبطل الصور المنقوشة على حيطانه والمنقورة في خشب بيته ويكسر أواني الذهب والفضة ؛ فإن فعله في هذه الأمور ليس يتعلق بذات الآب بخلاف الضرب والسب ، ولكن الوالد يتأذى به ويسخط بسببه ، إلا أن فعل الولد حق ، وسخط الآب مذموم حبه للباطل وللحرام والأظهر في القياس أنه ثبت للولد ذلك بل يلزمه أن يفعل ذلك ، ولا يبعد أن ينظر فيه إلى قبح المنكر وإلى مقدار الأذى والسخط . فإن كان المنكر فاحشا وسخطه عليه قريبا كإراقة خمر من لا يشتد غضبه فذلك ظاهر ، وإن كان المنكر قريبا والسخط شديدا كما لو كانت له آنية من بلور أو زجاج على صور حيوان وفي كسرهما خسران مال كثير ، فهذا مما يشتد فيه الغضب وليس تجرى هذه المعصية بجري الخمر وغيره فهذا كله مجال النظر .

* فإن قيل : ومن أين قلتم ليس له الحسبة بالتعنيف والضرب والإرهاق إلى ترك الباطل ، والأمر بالمعروف في الكتاب والسنة ورد عاما من غير تخصيص ؟ وأما النهى عن التأنيف والإيذاء فقد ورد وهو خاص فيما لا يتعلق بارتكاب المنكرات ؟ فنقول : قد ورد في حق الآب على الخصوص ما يوجب الاستثناء من العموم إذ لا خلاف في أن الجلاد ليس له أن يقتل أباه في الزنا حدا ، ولا له أن يباشر إقامة الحد عليه ، بل لا يباشر قتل أبيه الكافر ، بل لو قطع يده لم يلزمه قصاص ولم يكن له أن يؤذيه في مقابله .

وقد ورد في ذلك أخبار وثبت بعضها بالإجماع ^(١) فإذا لم يجوز له إيذاؤه بعقوبة هي حق على جنابة سابقة فلا يجوز له إيذاؤه بعقوبة هي منع عن جنابة مستقبلة متوقعة بل أولى . وهذا الترتيب أيضاً ينبغي أن يجري في العبد والزوجة مع السيد والزوج فهما قريبان من الولد في لزوم الحق وإن كان ملك اليمين آكد من ملك النكاح . ولكن في الخبر أنه « لوجاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » ^(٢) ، وهذا يدل على تأكيد الحق أيضا . وأما الرعية مع السلطان فالأمر فيها أشد من الولد فليس لها معه إلا التعريف والنصح : فأما الرتبة الثالثة ففيها نظر من حيث إن الهجوم على أخذ الأموال من خزائنه وردها إلى الملاك وعلى تحليل الخيوط من ثيابه الحرير وكسر آنية الخمر في بيته يكاد يفضى إلى خرق هيئته وإسقاط حشمته ، وذلك محظور ورد النهى عنه كما ورد النهى عن السكوت على المنكر ^(٣) فقد تعارض فيه أيضاً محذوران والأمر فيه موكول إلى اجتهد مذموم النظر في تفاحش المنكر ومقدار

(١) الأخبار الواردة : في أن الجلاد ليس له أن يجلد أباه في الزنا ولا أن يباشر إقامة الحد عليه ولا يباشر قتل أبيه الكافر وأنه لو قطع يده لم يلزم القصاص ، ثم قال وثبت بعضها بالإجماع . قلت : لم أجد فيه إلا حديث « لا يباشر الوالد بالولد » رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذي فيه اضطراب . (٢) حديث « لوجاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » تقدم في النكاح . (٣) حديث : النهى عن الإنكار على السلطان جهرة بحيث يؤدي إلى خرق هيئته . أخرجه الحاكم في المستدرک من حديث عياض بن غنم الأشعري : من كانت عنده نصيحة لدى سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذ يده فليدخل به فإن قبلها قبلها ولا كان قد أدى الذى عليه والذى له . قال : صحيح الأسناد وللترمذي وحسنه من حديث أبي بكره « من أهان سلطانا أفة في الأرض أهان الله في الأرض » .

ما يسقط من حشمته بسبب الهجوم عليه وذلك مما لا يمكن ضبطه . وأما التليذ والاستاذ فالأمر فيما بينهما أخف لأن المحترم هو الاستاذ المفيد للعلم من حيث الدين ولا حرمة لعالم لا يعمل بعلمه فله أن يعامله بموجب علمه الذي تعلمه منه . وروى أنه سئل الحسن عن الولد كيف يحتسب على والده فقال : يعظه ما لم يغضب فإن غضب سكت عنه .

الشرط الخامس : كونه قادراً ؛ ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حصة إلا بقله إذ كل من أحب الله يكره معاصيه وينكرها . وقال ابن مسعود رضي الله عنه جاهدوا الكفار بأيديكم فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهموا في وجوههم فافعلوا .

* واعلم أنه لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروها يناله فذلك في معنى العجز ، وكذلك إذا لم يخف مكروها ولكن علم أن إنكاره لا ينفع فليفتت إلى معنيين ؛ أحدهما : عدم إفادة الإنكار امتناعاً ، والآخر : خوف مكروه . ويحصل من اعتبار المعنيين أربعة أحوال (أحدهما) أن يجتمع المعنيان بأن يعلم أنه لا ينفع كلامه ويضرب إن تكلم فلا تجب عليه الحصة ، بل ربما تحرم في بعض المواضع . نعم يلزمه أن لا يحضر مواضع المنكر ويعتزل في بيته حتى لا يشاهد ولا يخرج إلا للحاجة مهمة أو واجب ولا يلزمه مفارقة تلك البلدة والهجرة إلا إذا كان يرهق إلى الفساد أو يحمل على مساعدة السلاطين في الظلم والمنكرات ؛ فيلزمه الهجرة إن قدر عليها فإن الإكراه لا يكون عذراً في حق من يقدر على الهرب من الإكراه . (الحالة الثانية) أن ينتفي المعنيان جميعاً بأن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يقدر له على مكروه فيجب عليه الإنكار وهذه هي القدرة المطلقة . (الحالة الثالثة) أن يعلم أنه لا يفيد إنكاره لكنه لا يخاف مكروها فلا تجب عليه الحصة لعدم فائدتها ولكن تستحب لإظهار شعائر الإسلام وتذكير الناس بأمر الدين . (الحالة الرابعة) عكس هذه وهو أن يعلم أنه يصاب بمكروه ولكن يبطل المنكر بفعله كما يقدر على أن يرمى زجاجة الفاسق بحجر فيكسرها ، ويريق الخمر ، أو يضرب العود الذي في يده ضربة محتطفة فيكسره في الحال ، ويتعطل عليه هذا المنكر ولكن يعلم أنه يرجع إليه فيضرب رأسه ، فهذا ليس بواجب وليس بحرام بل هو مستحب . ويدل عليه الخبر الذي أوردناه في فضل « كلمة حق عند إمام جائر » ولا شك في أن ذلك مظنة الخوف . ويدل عليه أيضاً ما روى عن أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالى أنه قال : سمعت من بعض الخلفاء كلاماً فأردت أن أنكر عليه وعلبت أني أقتل ، ولم يمنعني القتل ولكن كان في ملا من الناس نخشيت أن يعتريني التزني للخلق فأقتل من غير إخلاص في الفعل .

« فإن قيل : فما معنى قوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ ؟ قلنا : لا خلاف في أن المسلم الواحد له أن يهجم على صف الكفار ويقاتل وإن علم أنه يقتل ، وهذا ربما يظن أنه مخالف لموجب الآية وليس كذلك ، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس التهلكة ذلك ، بل ترك النفقة في طاعة الله تعالى ؛ أي من لم يفعل ذلك فقد أهلك نفسه . وقال البراء بن عازب : التهلكة هو أن يذنب الذنب ثم يقول لا يتاب علي . وقال أبو عبيدة : هو أن يذنب ثم لا يعمل بعده خيراً حتى يهلك . وإذا جاز أن يقاتل الكفار حتى يقتل جاز أيضاً له ذلك في الحصة ، ولكن لو علم أنه لانكاية لهجومه على الكفار كالأعمى يطرح نفسه على الصف أو العاجز فذلك حرام وداخل تحت عموم آية التهلكة . وإنما جاز له الإقدام إذا علم أنه يقاتل إلى أن يقتل أو علم أنه يكسر قلوب الكفار بمشاهدتهم بجرائمهم واعتقادهم في سائر المسلمين قلة المبالاة وجههم للشهادة في سبيل الله فتكسر بذلك شوكتهم ؛ فكذلك يجوز للمحتسب بل يستحب له أن يعرض نفسه للضرب وللقتل إذا كان لحسبته تأمير في رفع المنكر أو في كسر جاه الفاسق أو في

تقوية قلوب أهل الدين ، وأما إن رأى فاسقاً متغلباً وعنده سيف وبيده قدح ، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القدح وضرب رقبتة فهذا مما لا يرى للحسبة فيه وجهاً وهو عين الهلاك . فإن المطلوب أن يؤثر في الدين أثراً ويفديه بنفسه ، فأما تعريض النفس للهلاك من غير أثر فلا وجه له بل ينبغي أن يكون حراماً . وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر أو ظهر لفعله فائدة ، وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه . فإن علم أنه يضرب معه غيره من أصحابه أو أقاربه أو رفقاءه فلا تجوز له الحسبة بل تحرم لأنه يحجز عن دفع المنكر إلا بأن يفضي ذلك إلى منكر آخر ، وليس ذلك من القدرة في شيء . بل لو علم أنه لو احتسب لبطل ذلك المنكر ولكن كان ذلك سبباً لمنكر آخر يتعاطاه غير المحتسب عليه فلا يحل له الأفكار الأظهر ، لأن المقصود عدم مناكير الشرع مطلقاً لا مبنياً زيد أو عمرو ، وذلك بأن يكون مثلاً مع الإنسان شراب حلال - نجس بسبب وقوع نجاسة فيه - وعلم أنه لو أراقه لشرب صاحبه الخمر أو تشرب أولاده الخمر لإعوازهم الشراب الحلال فلا معنى لإراقة ذلك . ويحتمل أن يقال إنه يريق ذلك فيكون هو مبطلاً للمنكر . وأما شرب الخمر فهو المألوم فيه والمحتسب غير قادر على منعه من ذلك المنكر ، وقد ذهب إلى هذا ذاهبون . وليس ببعيد ، فإن هذه مسائل فقهية لا يمكن فيها الحكم إلا بظن ، ولا يبعد أن يفرق بين درجات المنكر المغير والمنكر الذي تفضي إليه الحسبة والتغيير ، فإنه إذا كان يذبح شاة لغيره ليأكلها وعلم أنه لو منعه من ذلك لذبح إنساناً وأكله فلا معنى لهذه الحسبة . نعم لو كان منعه عن ذبح إنسان أو قطع طريقه يحمله على أخذ ماله فذلك له وجه . فهذه دقائق واقعة في محل الاجتهاد وعلى المحتسب اتباع اجتهاده في ذلك كله ولهذا الدقائق نقول : العاى ينبغي له أن لا يحتسب إلا في الجليات المعلومة كشرب الخمر والزنا وترك الصلاة فأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى ما يطيف به من الأفعال ويفتقر فيه إلى اجتهاد فالعاى إن خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه ، وعن هذا يتأكد ظن من لا يثبت ولاية الحسبة إلا بتعيين الوالى ؛ إذ ربما ينتدب لها من ليس أهلاً لها لقصور معرفته أو قصور ديانتته فيؤدى ذلك إلى وجوه من الحلل وسيأتى كشف الغطاء عن ذلك إن شاء الله

* فإن قيل : وحيث أطلقتم العلم بأن يصيبه مكروه أو أنه لا تنفيذ حسبته ؛ فلو كان بدل العلم ظن فما حكه ؟ قلنا : الظن الغالب في هذه الأبواب في معنى العلم وإنما يظهر الفرق عند تعارض الظن والعلم إذ يرجح العلم اليقيني على الظن ويفرق بين العلم والظن في مواضع آخر ، وهو أنه يسقط وجوب الحسبة عنه حيث علم قطعاً أنه لا يفيد فإن كان غالب ظنه أنه لا يفيد ولكن يحتمل أن يفيد وهو مع ذلك لا يتوقع مكروها فقد اختلفوا في وجوبه ، والأظهر وجوبه إذ لا ضرر فيه وجدواه متوقعة ، وعموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقتضى الوجوب بكل حال ونحن إنما نستثنى عنه بطريق التخصيص ما إذا علم أنه لا فائدة فيه إما بالإجماع أو بقياس ظاهر وهو أن الأمر ليس يراد لعينه بل للمأمور ، فإذا علم اليأس عنه فلا فائدة فيه ، فأما إذا لم يكن يأس فينبغي أن لا يسقط الوجوب

• فإن قيل : فالمكروه الذى تتوقع إصابته إن لم يكن متيقناً ولا معلوماً بغالب الظن ولكن كان مشكوكاً فيه ، أو كان غالب ظنه أنه لا يصاب بمكروه ولكن احتمال أن يصاب بمكروه ، فهذا الاحتمال هل يسقط الوجوب حتى لا يجب إلا عند اليقين بأنه لا يصيبه مكروه أم يجب في كل حال إلا إذا غلب على ظنه أنه يصاب بمكروه ؟ قلنا : إن غلب على الظن أنه يصاب لم يجب ، وإن غلب أنه لا يصاب وجب - وبمجرد التجويز لا يسقط الوجوب فإن ذلك

يمكن في كل حاسبة ، وإن شك فيه من غير رجحان فهذا محل النظر ، فيحتمل أن يقال الأصل الوجوب بحكم العمومات وإنما يسقط بمكروه ، والمكروه هو الذي يظن أو يعلم حتى يكون متوقفاً ، وهذا هو الأظهر . ويحتمل أن يقال : إنه إنما يجب عليه إذا علم أنه لا ضرر فيه عليه أو ظن أنه لا ضرر عليه والأول أصح نظراً إلى قضية العمومات الموجبة للأمر بالمعروف .

• فإن قيل : فالتوقع للمكروه يختلف بالجبن والجرامة فالجبان الضعيف القلب يرى البعيد قريباً حتى كأنه يشاهده ويرتاع منه ، والمتهور الشجاع يبعد وقوع المكروه به بحكم ما جبل عليه من حسن الأمل حتى إنه لا يصدق به إلا بعد وقوعه ، فعلى ماذا التعويل ؟ قلنا : التعويل على اعتدال الطبع وسلامة العقل والمزاج ، فإن الجبن مرض وهو ضعف في القلب سببه قصور في القوة وتفريط ، والتهور إفراط في القوة وخروج عن الاعتدال بالزيادة وكلاهما نقصان ، وإنما الكمال في الاعتدال الذي يعبر عنه بالشجاعة . وكل واحد من الجبن والتهور يصدر تارة عن نقصان العقل . وتارة عن خلل في المزاج بتفريط أو إفراط ، فإن من اعتدل مزاجه في صفة الجبن والجرامة فقد لا يتفطن لمدارك الشر فيكون سبب جرماته جهله ، وقد لا يتفطن لمدارك دفع الشر فيكون سبب جبنه جهله ، وقد يكون عالماً بحكم التجربة والممارسة بمدخل الشر ودوافعه ، ولكن يعمل الشر البعيد في تخذيله وتحليل قوته في الإقدام بسبب ضعف قلبه ما يفعله الشر القريب في حق الشجاع المعتدل الطبع . فلا التفات إلى الطرفين . وعلى الجبان أن يتكلف إزالة الجبن بإزالة علته وعلته جهل أو ضعف ، ويزول الجهل بالتجربة ، ويزول الضعف بممارسة الفعل المخوف منه تكلفاً حتى يصير معتاداً ، إذ المبتدئ في المناظرة والوعظ مثلاً قد يجبن عنه طبعه لضعفه فإذا مارس واعتاد فارقه الضعف ، فإن صار ذلك ضرورياً غير قابل للزوال بحكم استيلاء الضعف على القلب لحكم ذلك الضعيف يتبع حاله فيعذر كما يعذر المريض في التقاعد عن بعض الواجبات ، ولذلك قد نقول على رأى : لا يجب ركوب البحر لأجل حجة الإسلام على من يغلب عليه الجبن في ركوب البحر ويجب على من لا يعظم خوفه منه فكذلك الأمر في وجوب الحسبة .

• فإن قيل : فالمكروه المتوقع ما حده ؟ فإن الإنسان قد يكره كلفة وقد يكره ضربة وقد يكره طول لسان المحتسب عليه في حقه بالغيبة ، وما من شخص يؤمر بالمعروف إلا يتوقع منه نوع من الأذى وقد يكون منه أن يسعى به إلى سلطان أو يقدح فيه في مجلس يتضرر بقدحه فيه ، فما حد المكروه الذي يسقط الوجوب به ؟ قلنا : هذا أيضاً فيه نظر غامض وصورته منتشرة ومجاريه كثيرة ، ولكننا نجتهد في ضم نشره وحصر أقسامه .

فنقول : المكروه تقيض المطلوب ومطالب الخلق في الدنيا ترجع إلى أربعة أمور : أما في النفس فالعلم . وأما في البدن فالصحة والسلامة . وأما في المال فالثروة . وأما في قلوب الناس فقيام الجاه ؛ فإذا المطلوب العلم والصحة والثروة والجاه . ومعنى الجاه ملك قلوب الناس ، كما أن معنى الثروة ملك الدراهم لأن قلوب الناس وسيلة إلى الأغراض ، كما أن ملك الدراهم وسيلة إلى بلوغ الأغراض . وسيأتى تحقيق معنى الجاه وسبب ميل الطبع إليه في ربع المهلكات . وكل واحدة من هذه الأربعة يطلبها الإنسان لنفسه ولأقاربه والمختصين به . ويكره في هذه الأربعة أمران ؛ أحدهما : زوال ما هو حاصل موجود . والآخر : امتناع ما هو منتظر مفقود ؛ أعني اندفاع ما يتوقع وجوده . فلا ضرر إلا في فوات حاصل وزواله ، أو تعويق منتظر ، فإن المنتظر عبارة عن الممكن حصوله والممكن حصوله كأنه حاصل وفوات إمكانه كأنه فوات حصوله : فرجع المكروه إلى قسمين ؛ أحدهما : خوف امتناع المنتظر وهذا

لا ينبغي أن يكون مرخصاً في ترك الأمر بالمعروف أصلاً .

ولنذكر مثاله في المطالب الأربعة ؛ أما العلم : فمثاله تركه الحسبة على من يختص بأستاذه خوفاً من أن يقبح حاله عنده فيمتنع من تعليمه . وأما الصحة : فتركه الإنكار على الطبيب الذي يدخل عليه مثلاً وهو لا يس حريراً خوفاً من أن يتأخر عنه فتمتنع بسببه صحته المنتظرة . وأما المال : فتركه الحسبة على السلطان وأصحابه وعلى من يواسيه من ماله خيفة من أن يقطع لإدارته في المستقبل ويترك مواساته . وأما الجاه : فتركه الحسبة على من يتوقع منه نصرة وجاه في المستقبل خيفة من أن لا يحصل له الجاه أو خيفة من أن يقبح حاله عند السلطان الذي يتوقع منه ولاية .

وهذا كله لا يسقط وجوب الحسبة لأن هذه زيادات امتنعت ، وتسمية امتناع حصول الزيادات ضرراً مجازاً . وإنما الضرر الحقيقي فوات حاصل ولا يستثنى من هذا شيء إلا ما تدعو إليه الحاجة ويكون في فواته محذور يزيد على محذور السكوت على المنكر ، كما إذا كان محتاجاً إلى الطبيب لمرض ناجز والصحة منتظرة من معالجة الطبيب ويعلم أن في تأخره شدة الضنا به وطول المرض وقد يفضي إلى الموت . وأعني بالعلم الظن الذي يجوز بمثله ترك استعمال الماء والعدول إلى التيمم فإذا انتهى إلى هذا الحد لم يبعد أن يرخص في ترك الحسبة . وأما في العلم فثل أن يكون جاهلاً بمهمات دينه ولم يجد إلا معلماً واحداً ولا قدرة له على الرحلة إلى غيره وعلم أن المحتسب عليه قادر على أن يسد عليه طريق الوصول إليه لكون العالم مطيعاً له أو مستمعاً لقوله ، فإذا الصبر على الجهل بمهمات الدين محذور والسكوت على المنكر محذور ، ولا يبعد أن يرجح أحدهما ويختلف ذلك بتفاحش المنكر وبشدة الحاجة إلى العلم لتعلقه بمهمات الدين . وأما في المال فمكن يعجز عن الكسب والسؤال وليس هو قوى النفس في التوكل ولا منفق عليه سوى شخص واحد ولو احتسب عليه قطع رزقه وافترق في تحصيله إلى طلب إدار حرام أو مات جوعاً فهذا أيضاً إذا اشتد الأمر فيه لم يبعد أن يرخص له في السكوت . وأما الجاه فهو أن يؤذيه شرير ولا يجد سبيلاً إلى دفع شره إلا بجاه يكتسبه من سلطان ، ولا يقدر على التوصل إليه إلا بواسطة شخص يلبس الحرير أو يشرب الخمر ، ولو احتسب عليه لم يكن واسطة ووسيلة له فيمتنع عليه حصول الجاه ويدوم بسببه أذى الشرير . فهذه الأمور كلها إذا ظهرت وقويت لم يبعد استئناؤها واسكن الأمر فيها منوطاً باجتهاد المحتسب حتى يستفتى فيها قلبه ، ويوزن أحد المحذورين بالآخر ، ويرجح بنظر الدين لا بموجب الهوى والطبع ، فإن رجح بموجب الدين سمى سكوته مداراة ، وإن رجح بموجب الهوى سمى سكوته مداينة . وهذا أمر باطن لا يطلع عليه إلا بنظر دقيق ولكن الناقد بصير ، فحق على كل متدين فيه أن يراقب قلبه ويعلم أن الله مطلع على باعته وصارفه أنه الدين أو الهوى ، وستجد كل نفس ماعملت من سوء أو خير محضراً عند الله ولو في فلتة خاطر أو فلتة ناظر من غير ظلم وجور فما الله بظلام للعبيد .

وأما القسم الثاني ، وهو فوات الحاصل : فهو مكروه ومعتبر في جواز السكوت في الأمور الأربعة إلا العلم ، فإن فواته غير مخوف إلا بتقصير منه وإلا فلا يقدر أحد على سلب العلم من غيره وإن قدر على سلب الصحة والسلامة والثروة والمال ، وهذا أحد أسباب شرف العلم فإنه يدوم في الدنيا ويدوم ثوابه في الآخرة فلا انقطاع له أبد الآباد . وأما الصحة والسلامة ففواتهما بالضرب فكل من علم أنه يضرب ضرباً مؤلماً يتأذى به في الحسبة لم تلزمه الحسبة وإن كان يستحب له ذلك - كما سبق - وإذا فهم هذا في الإيلاء بالضرب فهو في الجرح والقطع والقتل أظهر . وأما الثروة فهو بأن يعلم أنه تنهب داره ويخرب بيته وتسلب ثيابه ، فهذا أيضاً يسقط عنه الوجوب ويبقى

الاستحباب إذ لا بأس بأن يفسد دينه بدينه ولشكل واحد من الضرب والنهب حد في القلة لا يكثر به كالحبة في المال واللطمة الخفيف ألها في الضرب وحد في الكثرة يتعين اعتباره ووسط يقع في محل الاشتباه والاجتهاد ، وعلى المتدين أن يجتهد في ذلك ويرجع جانب الدين ما أمكن . وأما الجاء فقواته بأن يضرب ضربا غير مؤلم أو بسبب على ملا من الناس أو يطرح منديله في رقبة ويدار به في البلد أو يسود وجهه ويطاف به ، وكل ذلك من غير ضرب مؤلم للبدن وهو فادح في الجاء ومؤلم للقلب . وهذا له درجات فالصواب أن يقسم إلى ما يعبر عنه بسقوط المروءة ، كالطواف به في البلد حاسرا حافيا فهذا يرخص له في السكوت لأن المروءة مأمور بحفظها في الشرع ، وهذا مؤلم للقلب ألما يزيد على ألم ضربات متعددة وعلى فوات دريهمات قليلة فهذه درجة . الثانية : ما يعبر عنه بالجاه المحض وعلو الرتبة ، فإن الخروج في ثياب فاخرة تجمل ، وكذلك الركوب للخيول . فلو علم أنه لو احتسب لكلف المشي في السوق في ثياب لا يعتاد هو مثلها . أو كلف المشي راجلا وعادته الركوب . فهذا من جملة المزاي . وليست المواظبة على حفظها محمود . وحفظ المروءة محمود فلا ينبغي أن يسقط وجوب الحسبة بمثل هذا القدر . وفي معنى هذا ما لوخاف أن يتعرض له باللسان إما في حضرته بالتجهيل والتحميق والنسبة إلى الرياء والبهتان . وأما في غيبته بأنواع الغيبة فهذا لا يسقط الوجوب إذ ليس فيه إلا زوال فضلات الجاه التي ليس إليها كبير حاجة . ولو تركت الحسبة بلوم لائم أو باغتيال فاسق أو شتمه وتغنيفه أو سقوط المنزل عن قلبه وقلب أمثاله لم يكن للحسبة وجوب أصلا إذ لا تنفك الحسبة عنه إلا إذا كان المنكر هو الغيبة ، وعلم أنه لو أنكر لم يسكت عن المغتاب ولكن أضافه إليه وأدخله معه في الغيبة فتحرم هذه الحسبة لأنها سبب زيادة المعصية ، وإن علم أنه يترك تلك الغيبة ويقتصر على غيبته فلا تجب عليه الحسبة لأن غيبته أيضا معصية في حق المغتاب ، ولكن يستحب له ذلك ليفدى عرض المذكور بعرض نفسه على سبيل الإيثار . وقد دلت العمومات على تأكيد وجوب الحسبة وعظم الخطر في السكوت عنها فلا يقابله إلا ما عظم في الدين خطره ، والمال والنفس والمروءة قد ظهر في الشرع خطرها فأما مزاي الجاه والحشمة ودرجات التجميل وطلب ثناء الخلق فكل ذلك لا خطر له . وأما امتناعه لخوف شيء من هذه المكروه في حق أولاده وأقاربه فهو في حقه دونه لأن تأذيه بأمر نفسه أشد من تأذيه بأمر غيره ، ومن وجه الدين هو فوقه لأن له أن يسامح في حقوق نفسه وليس له المساعدة في حق غيره . فإذا ينبغي أن يتمتع فإنه إن كان ما يفوت من حقوقهم يفوت على طريق المعصية كالضرب والنهب فليس له هذه الحسبة لأنه دفع منكر يفضي إلى منكر ، وإن كان يفوت لا بطريق المعصية فهو إيذاء للسلم أيضا وليس له ذلك إلا برضاهم . فإذا كان يؤدي ذلك إلى أذى قومه فليتركه وذلك كالزاهد الذي له أقارب أغنياء فإنه لا يخاف على ماله إن احتسب على السلطان ولكنه يقصد أقاربه انتقاما منه بواسطته ، فإذا كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها فإن إيذاء المسلمين محذور كما أن السكوت على المنكر محذور . نعم إن كان لا ينافيهم أذى في مال أو نفس ولكن ينافيهم الأذى بالشتم والسب فهذا فيه نظر ، ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات في تفاحشها ودرجات الكلام المحذور في نكايته في القلب وقدحه في العرض .

• فإن قيل : فلو قصد الإنسان قطع طرف من نفسه وكان لا يتمتع عنه إلا بقتال ربما يؤدي إلى قتله فهل يقاتل عليه ؟ فإن قلتم : يقاتل ، فهو محال لأنه إهلاك نفس خوفا من إهلاك طرف وفي إهلاك النفس إهلاك الطرف أيضا ؟ قلنا : يذمه عنه ويقال له إذ ليس غرضنا حفظ نفسه وطرفه بل الغرض حسم سبيل المنكر والمعصية ، وقاتله في الحسبة ليس بمعصية وقطع طرف نفسه معصية . وذلك كدفع الصائل على مال مسلم بما يأتي على قتله فإنه جائز لا على معنى

أنا نفدى درهما من مال مسلم بروح مسلم فإن ذلك محال ولكن قصده لأخذ مال المسلمين معصية وقتله في الدفع عن المعصية ليس بمعصية وإنما المقصود دفع المعاصي .

هـ فإن قيل : فلو علمنا أنه لو خلا بنفسه لقطع طرف نفسه فينبغي أن نقتله في الحال حسماً لباب المعصية ؟ قلنا : ذلك لا يعلم يقيناً ولا يجوز سفك دمه بتوهم معصية ولكننا إذا رأيناه في حال مباشرة القطع دفعناه ، فإن قاتلنا قاتلناه ولم نبال بما يأتي على روحه .

فاذا المعصية لها ثلاثة أحوال : (إحداهما) أن تكون متصرمة فالعقوبة على ما تصرم منها حد أو تعزير وهو إلى الولاية لا إلى الآحاد (الثانية) أن تكون المعصية راهنة وصاحبها مباشر لها كلبسه الحرير وإمساك العود والخمر ، فأبطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن ما لم تؤدي إلى معصية أخش منها أو مثلها ، وذلك يثبت للآحاد والرعية (الثالثة) أن يكون المنكر متوقفاً كالذي يستعد بكفن المجلس وتزيينه وجمع الرياحين لشرب الخمر وبعده لم يحضر الخمر ؛ فهذا مشكوك فيه إذ ربما يعوق عنه عائق فلا يثبت للآحاد سلطنة على العازم على الشرب إلا بطريق الوعظ والنصح ، فأما بالتعنيف والضرب فلا يجوز للآحاد ولا للسلطان إلا إذا كانت تلك المعصية علت منه بالعادة المستمرة وقد أقدم على السبب المؤدى إليها ولم يبق لحصول المعصية إلا ما ليس له فيه إلا الانتظار ، وذلك كوقوف الأحداث على أبواب حمامات النساء للنظر لآلهن عند الدخول والخروج ، فإنهم وإن لم يضيقوا الطريق لسعته فتجوز الحسبة عليهم بإقامتهم من الموضع ومنعهم عن الوقوف بالتعنيف والضرب ، وكان تحقيق هذا إذا بحث عنه يرجع إلى أن هذا الوقوف في نفسه معصية وإن كان مقصد العاصي وراءه كما أن الخلوة بالأجنبية في نفسها معصية لأنها مظنة وقوع المعصية ، وتحصيل مظنة المعصية معصية ونعني بالمظنة ما يتعرض الإنسان به لوقوع المعصية غالباً بحيث لا يقدر على الانكشاف عنها ، فإذا هو على التحقيق حسبة على معصية راهنة لأعلى معصية منتظرة .

الركن الثاني : للحسبة مافيه الحسبة

وهو كل منكر موجود في الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكراً بغير اجتihad فهذه أربعة شروط فليبحث عنها :

الأول : كونه منكراً ، ونعني به أن يكون مخدور الوقوع في الشرع وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا لأن المنكر أعم من المعصية ، إذ من رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه ، وكذا إن رأى مجنوناً يرمى بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه . وليس ذلك لتفاحش صورة الفعل وظهوره بين الناس بل لوصادف هذا المنكر في خلوة لوجب المنع منه ، وهذا لا يسمى معصية في حق المجنون إذ معصية لأعاصي بها محال ، فلفظ المنكر أدل عليه وأعم من لفظ المعصية وقد أدرجنا في عموم هذا الصغيرة والكبيرة فلا تختص الحسبة بالكبائر ، بل كشف العورة في الحمام والخلوة بالأجنبية واتباع النظر للنسوة الأجنبية كل ذلك من الصغائر ويجب النهي عنها وفي الفرق بين الصغيرة والكبيرة نظر سيأتي في كتاب التوبة :

الشرط الثاني : أن يكون موجوداً في الحال وهو احتراز أيضاً عن الحسبة على من فرغ من شرب الخمر ، فإن ذلك ليس إلى الآحاد وقد انقرض المنكر واحتراز عما سيوجد في ثاني الحال ، كمن يعلم بقرينة حال أنه عازم على الشرب في ليلته فلا حسبة عليه إلا بالوعظ ، وإن أنكر عزمه عليه لم يحجز وعظه أيضاً فإن فيه إساءة ظن بالمسلم وربما صدق في قوله . وربما لا يقدم على ما عزم عليه لعائق . وليتنبه للدقيقة التي ذكرناها وهو أن الخلوة بالأجنبية

معصية ناجزة وكذا الوقوف على باب حمام النساء ومايجرى مجراه .

الشرط الثالث : أن يكون المنكر ظاهرا للمحتسب بغير تجسس . فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابها لايجوز أن يتجسس عليه وقد نهى الله تعالى عنه . وقصة عمر وعبدالرحمن بن عوف فيه مشهورة - وقد أوردناها في كتاب آداب الصحبة - وكذلك ماروى أن عمر رضى الله عنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه فقال : ياأمير المؤمنين إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه . فقال وماهى؟ فقال قد قال تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسست . وقال تعالى ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ وقد تسورت من السطح وقال ﴿ لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ وماسلمت . فتركه عمر وشرط عليه التوبة . ولذلك شاور عمر الصحابة رضى الله عنهم وهو على المنبر وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكرا فهل له إقامة الحد فيه ؟ فأشار على رضى الله عنه بأن ذلك منوط بعدلين فلا يكفى فيه واحد . وقد أوردنا هذه الاخبار في بيان حق المسلم من كتاب آداب الصحبة فلا نعيدها .

* فإن قلت : فما حد الظهور والاستتار ؟ فاعلم أن من أغلق باب داره وتستر بحيطانه فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لنعرف المعصية إلا أن يظهر في الدار ظهورا يعرفه من هو خارج الدار كأصوات المزامير والآتار إذا ارتفعت بحيث جاوز ذلك حيطان الدار . فمن سمع ذلك فله دخول الدار وكسر الملاهي وكذا إذا ارتفعت أصوات السكرى بالكلمات المألوفة بينهم بحيث يسمعوها أهل الشوارع فهذا إظهار موجب للحسبة . فإذا نأى يدرك مع تخلل الحيطان صوت أو رائحة . فإذا فاحت روائح الخمر فإن احتمل أن يكون ذلك من الخمر المحترمة فلا يجوز قصدها بالإراقة . وإن علم بقرينة الحال أنها فاحت لتعاطيهم الشرب فهذا محتمل . والظاهر جواز الحسبة . وقد تسترقق ضرورة الخمر في الكم وتحت الذيل وكذلك الملاهي فإذا روى فاسق وتحت ذيله شيء لم يجز أن يكشف عنه مالم يظهر بعلامة خاصة . فإن فسقه لا يدل على أن الذى معه خمر . إذ الفاسق محتاج أيضا إلى الخل وغيره . فلا يجوز أن يستدل بإخفائه وأنه لو كان حلالا لما أخفاه لأن الأغراض في الإخفاء مما تكثر . وإن كانت الرائحة فائحة فهذا محل النظر . والظاهر أن له الاحتساب لأن هذه علامة تفيد الظن والظن كالعلم في أمثال هذه الأمور . وكذلك العود ربما يعرف بشكله إذا كان الثوب السائر له رقيقا . فدلالة الشكل كدلالة الرائحة والصوت وما ظهرت دلالاته فهو غير مستور بل هو مكشوف وقد أمرنا بأن نستر ماستر الله وننكر على من أبدى لناصفحته . والإبداء له درجات فتارة يدولنا بحاسة السمع . وتارة بحاسة الشم . وتارة بحاسة البصر . وتارة بحاسة اللمس ولا يمكن أن يخص ذلك بحاسة البصر بل المراد العلم . وهذه الحواس أيضا تفيد العلم . فإذا نأى عما يجوز أن يكسر ماتحت الثوب إذا علم أنه خمر . وليس له أن يقول : أرنى لأعلم مافيه . هذا تجسس . ومعنى التجسس طلب الامارات المعرفة فالامارة المعرفة إن حصلت وأورثت المعرفة جاز العمل بمقتضاها فأما طلب الامارة المعرفة فلا رخصة فيه أصلا .

الشرط الرابع : أن يكون كونه منكرا معلوما بغير اجتهاد فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة . فليس للحنفى أن ينكر على الشافعى أكاه الضب والضبع ومتروك التسمية . ولا للشافعى أن ينكر على الحنفى شربه النبيذ الذى ليس بمسكر وتناوله ميراث ذوى الأرحام وجلوسه في دار أخذها بشفعة الجوار إلى غير ذلك من مجارى الاجتهاد نعم لو رأى الشافعى شافعىا يشرب النبيذ وينكح بلاولى ويطأ زوجته فهذا في محل النظر والظاهر أن له الحسبة والإنكار إذ لم يذهب أحد من المحصلين إلى أن المجتهد يجوز له أن يعمل بموجب اجتهاد غيره . ولا أن

الذى أدى اجتهاده فى التقليد إلى شخص رآه أفضل العلماء أن له أن يأخذ بمذهب غيره فينتقد من المذاهب أطيبها عنده ، بل على كل مقلد اتباع مقلده فى كل تفصيل ، فإذا غالفته للمقلد متفق على كونه منكرا بين المحصلين وهو عاص بالخالفه ، إلا أنه يلزم من هذا أمر أغرض منه ، وهو أنه يجوز للحنفى أن يعترض على الشافعى إذا نكح بغير ولى بأن يقول له : الفعل فى نفسه حق ولكن لا فى حقه فأنت مبطل بالإقدام عليه مع اعتقادك أن الصواب مذهب الشافعى ، وخالفه ما هو صواب عندك معصية فى حقه وإن كانت صوابا عند الله . وكذلك الشافعى يحتسب على الحنفى إذا شاركه فى أكل الضب ومتروك التسمية وغيره ويقول له : إما أن تعتقد أن الشافعى أولى بالاتباع ثم تقدم عليه ، أو لا تعتقد ذلك فلا تقدم عليه ، لأنه على خلاف معتقدك . ثم ينبج هذا إلى أمر آخر من المحسوسات وهو أن يجمع الأصم مثلاً امرأة على قصد لزنا وعلم المحتسب أن هذه امرأته زوجته أبوه إياها فى صغره ، ولكنه ليس يدري وعجز عن تعريفه ذلك لصممه أو لكونه غير عارف بلغته ، فهو فى الإقدام مع اعتقاده أنها أجنبية عاص ومعاقب عليه فى الدار الآخرة . فينبغى أن يمنعها عنه مع أنها زوجته وهو بعيد من حيث إنه حلال فى علم الله قريب من حيث إنه حرام عليه بحكم غلظه وجهله . ولا شك فى أنه لو علق طلاق زوجته على صفة فى قلب المحتسب مثلاً من مشيئة أو غضب أو غيره وقد وجدت الصفة فى قلبه وعجز عن تعريف الزوجين ذلك ، ولكن علم وقوع الطلاق فى الباطن فإذا رآه يجمعها فعليه المنع - أعنى باللسان - لأن ذلك زنا إلا أن الزانى غير عالم به والمحتسب عالم بأنها طالقت منه ثلاثاً ، وكونهما غير عاصيين لجهلهما بوجود الصفة لا يخرج الفعل عن كونه منكراً ولا يتقاعد ذلك عن زنا المجنون وقد بينا أنه يمنع منه ، فإذا كان يمنع مما هو منكر عند الله وإن لم يكن منكراً عند الفاعل ولا هو عاص به لعذر الجهل ، فيلزم من عكس هذا أن يقال : ما ليس بمنكر عند الله إنما هو منكر عند الفاعل لجهله لا يمنع منه ، وهذا هو الأظهر والعلم عند الله . فتحصل من هذا أن الحنفى لا يعترض على الشافعى فى النكاح بلا ولى ، وأن الشافعى يعترض على الشافعى فيه لكون المعارض عليه منكراً باتفاق المحتسب والمحتسب عليه . وهذه مسائل فقهية دقيقة والاحتمالات فيها متعارضة ، وإنما أفتينا فيها بحسب ما ترجع عندنا فى الحال . ولنا نقطع بخطأ ترجيح المخالف فيها إن رأى أنه لا يجرى الاحتساب إلا فى معلوم على القطع ، وقد ذهب إليه ذاهبون وقالوا : لاحسبة إلا فى مثل الخمر والخنزير وما يقطع بكونه حراماً ، ولكن الأشبه عندنا أن الاجتهاد يؤثر فى حق المجتهد ؛ إذ يبعد غاية البعد أن يجتهد فى القبلة ويعترف بظهور القبلة عنده فى جهة بالدلالات الظنية ثم يستدبرها ، ولا يمنع منه لأجل ظن غيره لأن الاستدبار هو الصواب . ورأى من يرى أنه يجوز لكل مقلد أن يختار من المذاهب ما أراد غير معتد به ولعله لا يصح ذهاب ذاهب إليه أصلاً ؛ فهذا مذهب لا يثبت وإن ثبت فلا يعتد به .

* فإن قلت : إذا كان لا يعترض على الحنفى فى النكاح بلا ولى لأنه يرى أنه حق فينبغى أن لا يعترض على المعتزلى فى قوله : إن الله لا يرى ؟ وقوله : وإن الخير من الله والشر ليس من الله ؟ وقوله : كلام الله مخلوق ؟ ولا على الحشوى فى قوله : إن الله تعالى جسم وله صورة وإنه مستقر على العرش ؟ بل لا ينبغى أن يعترض على الفيلسوفى فى قوله : الأجساد لا تبعث وإنما تبعث النفوس ؛ لأن هؤلاء أيضاً أدى اجتهادهم إلى ما قالوه وهم يظنون أن ذلك هو الحق . فإن قلت : بطلان مذهب هؤلاء ظاهر فبطلان مذهب من يخالف نص الحديث الصحيح أيضاً ظاهر ، وكما ثبت بظواهر النصوص أن الله تعالى يرى والمعتزلى ينكرها بالتأويل فكذلك ثبت بظواهر النصوص مسائل خالف فيها الحنفى كمسألة النكاح بلا ولى ومسألة شفعة الجوار ونظائرها ؟ فاعلم أن المسائل تنقسم

إلى ما يتصور أن يقال فيه : كل مجتهد مصيب . وهى أحكام الأفعال فى الحل والحرمه وذلك هو الذى لا يعترض على المجتهدين فيه إذ لم يعلم خطوهم قطعاً بل ظناً ، وإلى ما لا يتصور أن يكون المصيب فيه إلا واحد كسأله الرؤية والقدر وقدم الكلام ونفى الصورة والجسمية والاستقرار عن الله تعالى ، فهذا بما يهمل خطأ المخطئ فيه قطعاً ولا يبقى لخطئه الذى هو جهل محض وجه . فإذا البدع كلها ينبغى أن تحسم أبوابها وتنكر على المبتدعين بدعهم وإن اعتقدوا أنها الحق ، كما يرد على اليهود والنصارى كفرهم وإن كانوا يعتقدون أن ذلك حق لأن خطأهم معلوم على القطع بخلاف الخطأ فى مظان الاجتهاد .

هـ فإن قلت : فهما اعترضتا على القدرى فى قوله : الشر ليس من الله ، اعترض عليك القدرى أيضاً فى قوله : الشر من الله ، وكذلك فى قوله : إن الله يرى ، وفى سائر المسائل . إذ المبتدع محق عند نفسه ، والمحق مبتدع عند المبتدع ، وكل يدعى أنه محق وينكر كونه مبتدعاً . فكيف يتم الاحتساب ؟ فاعلم أنا لأجل هذا التعارض نقول : ينظر إلى البلدة التى فيها أظهرت تلك البدعة ؛ فإن كانت البدعة غريبة والناس كلهم على السنة فلهم الحسبة عليه بغير إذن السلطان ، وإن انقسم أهل البلد إلى أهل البدعة وأهل السنة وكان فى الاعتراض تحريك فتنة بالمقابلة فليس للأحاد الحسبة فى المذاهب إلا بنصب السلطان . فإذا رأى السلطان رأى الحق ونصره وأذن لواحد أن يجرى المبتدعة عن اظهار البدعة كان له ذلك وليس لغيره . فإن ما يكون بإذن السلطان لا يتقابل ، وما يكون من جهة الأحاد فيتقابل الأمر فيه . وعلى الجملة فالحسبة فى البدعة أهم من الحسبة فى كل المنكرات ، ولكن ينبغى أن يراعى فيها هذا التفصيل الذى ذكرناه كيلا يتقابل الأمر ولا ينبجر إلى تحريك الفتنة . بل لو أذن السلطان مطلقاً فى منع كل من يصرح بأن القرآن مخلوق ، أو أن الله لا يرى ، أو أنه مستقر على العرش بماس له ، أو غير ذلك من البدع لتسلط الأحاد على المنع منه ولم يتقابل الأمر فيه وإنما يتقابل عند عدم إذن السلطان فقط .

الركن الثالث : المحتسب عليه

وشرطه أن يكون بصفة بصير الفعل الممنوع منه فى حقه منكراً ، وأقل ما يكفي فى ذلك أن يكون إنساناً ، ولا يشترط كونه مكلفاً ، إذ بينا أن الصبي لو شرب الخمر منع منه واحتسب عليه وإن كان قبل البلوغ ، ولا يشترط كونه مميزاً إذ بينا أن المجنون لو كان يزنى بمجنونة أو يأتي بهيمة منعه منه . نعم من الأفعال ما لا يكون منكراً فى حق المجنون كترك الصلاة والصوم وغيره . ولكننا لسنا نلتفت إلى اختلاف التفاصيل فإن ذلك أيضاً يختلف فيه المقيم والمسافر والمريض والصحيح . وغرضنا الإشارة إلى الصفة التى بها يتنبأ توجه أصل الإنكار عليه لا ما بها يتنبأ للتفاصيل .

هـ فإن قلت : فأكثف بكونه حيواناً ولا تشترط كونه إنساناً ، فإن البهيمة لو كانت تفسد زرعاً لإنسان لكننا تمنعها منه كما تمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة ؟ فاعلم أن تسمية ذلك حسبة لواجه لها ، إذ الحسبة عبارة عن المنع عن منكر لحق الله ، صيانة للممنوع عن مقارفة المنكر ومنع المجنون عن الزنا وإتيان البهيمة لحق الله ، وكذا منع الصبي عن شرب الخمر . والإنسان إذا أتلف زرع غيره منع منه لحقين ، أحدهما : حق الله تعالى فإن فعله معصية ، والثانى : حق المتلف عليه ، فهما علتان تفصل إحداها عن الأخرى . فلو قطع طرف غيره بإذنه فقد وجدت المعصية وسقط حق المجنى عليه بإذنه فتثبت الحسبة والمنع بإحدى علتين . والبهيمة إذا أتلفت فقد عدمت المعصية ولكن يثبت المنع بإحدى علتين . ولكن فيه دققة وهو أننا لسنا نقصد بإخراج البهيمة منع البهيمة بل حفظ مال

المسلم ؛ إذ البهيمة لو أكلت ميتة أو شربت من إناء فيه خمر أو ماء مشوب بخمر لم تمنعها منه ، بل يجوز إطعام كلاب الصيد الجيف والميتات ، ولكن مال المسلم إذا تعرض للضياع وقد رنا على حفظه بغير تعب وجب ذلك علينا حفظا للمال ، بل لو وقعت جرة لإنسان من علو وتحتها قارورة لغيره فتدفع الجرة لحفظ القارورة ، لالمنع الجرة من السقوط . فإننا لانقصد منع الجرة وحراستها من أن تصير كاسرة للقارورة ، ونمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة وشرب الخمر وكذا الصبي ، لاصيانة للبهيمة المائية أو الخمر المشروب : بل صيانة للمجنون عن شرب الخمر وتنزيهاه من حيث إنه إنسان محترم . فهذه لطائف دقيقة لا يتفطن لها إلا المحققون فلا ينبغي أن يغفل عنها ثم فيما يجب تنزيه الصبي والمجنون عنه نظر ، إذ قد يتردد في معنهما من لبس الحرير وغير ذلك . وسنتعرض لما نشير إليه في الباب الثالث .

* فإن قلت : فكل من رأى بهائم قد استرسلت في زرع إنسان فهل يجب عليه إخراجها ؟ وكل من رأى مالا لمسلم أشرف على الضياع هل يجب عليه حفظه ؟ فإن قلتم : إن ذلك واجب فهذا تكليف شطط يؤدي إلى أن يصير الإنسان مستخرا لغيره طول عمره ؟ وإن قلتم ، لا يجب فلم يجب الاحتساب على من يغصب مال غيره وليس له سبب سوى مراعاة مال الغير ؟ فنقول : هذا بحث دقيق غامض . والقول الوجيز فيه أن نقول : مهما قدر على حفظه من الضياع من غير أن يناله تعب في بدنه أو خسران في ماله أو نقصان جاهه وجب عليه ذلك ، فذلك القدر واجب في حقوق المسلم بل هو أقل درجات الحقوق ، والأدلة الموجبة لحقوق المسلمين كثيرة وهذا أقل درجاتها وهو أولى بالإيجاب من رد السلام ، فإن الأذى في هذا أكثر من الأذى في ترك رد السلام ، بل لاختلاف في أن مال الإنسان إذا كان يضيع بظلم ظالم وكان عند الشهادة لو تكلم بها لرجع الحق إليه وجب عليه ذلك وعصى بكتمان الشهادة ففي معنى ترك الشهادة ترك كل دفع لاضرر على الدافع فيه ، فأما إن كان عليه تعب أو ضرر في مال أو جاء لم يلزمه السعي في ذلك ولكن إذا كان لا يتعب بتدبيره صاحب الزرع من نوم أو بإعلامه يلزمه ، فإهمال تعريفه وتنبيهه كأهماله تعريف القاضي بالشهادة ، وذلك لارخصة فيه ، ولا يمكن أن يراعى فيه الأقل والأكثر حتى يقال إن كان لا يضيع من منفعته في مدة اشتغاله بإخراج البهائم إلا قدر درهم مثلا وصاحب الزرع يفوته مال كثير فيترجع جانبه لأن الدرهم الذي له هو يستحق حفظه كما يستحق صاحب الألف حفظ الألف ولا سبيل للمصير إلا ذلك ، فأما إذا كان فوات المال بطريق هو معصية كالغصب أو قتل عبد مملوك للغير ، فهذا يجب المنع منه وإن كان فيه تعب ما ، لأن المقصود حق الشرع ، والغرض دفع المعصية ، وعلى الإنسان أن يتعب نفسه في دفع المعاصي كما عليه أن يتعب نفسه في ترك المعاصي . والمعاصي كلها في تركها تعب وإتمام الطاعة كلها ترجع إلى مخالفة النفس وهي غاية التعب . ثم لا يلزمه احتمال كل ضرر بل التفصيل فيه كما ذكرناه من درجات المحذورات التي يخافها المحتسب .

وقد اختلف الفقهاء في مسئلتين تفرقان من غرضنا ، إحداهما : أن الالتقاط هل هو واجب واللقطة ضائعة ؟ والماتقط مانع من الضياع وساع في الحفظ ؟ والحق فيه عندنا أن يفصل ويقال : إن كانت اللقطة في موضع لو تركها فيه لم تضع بل يلتقطها من يعرفها ، أو تترك كما لو كان في مسجد أو رباط يتعين من يدخله وكلهم أمناء فلا يلزمه الالتقاط ، وإن كانت في مضيفة ، نظر ، فإن كان عليه تعب في حفظها كما لو كانت بهيمة وتحتاج إلى علف واصطبل فلا يلزمه ذلك ؛ لأنه إنما يجب الالتقاط لحق المالك . وحقه بسبب كونه إنسانا محترما ، والماتقط أيضا إنسان وله حق في أن لا يتعب لأجل غيره كما لا يتعب لاجله . فإن كانت ذهابا أو ثوبا أو شيئا لا ضرر عليه فيه إلا مجرد تعب

التعريف فهذا ينبغي أن يكون في محل الوجهين . فقايل يقول : التعريف والقيام بشرطه فيه تعب فلا سبيل إلى إلزامه ذلك إلا أن يتبرع فيلتزم طبقا للثواب . وقايل يقول : إن هذا القدر من التعب مستصغر بالإضافة إلى مراعاة حقوق المسلمين ؛ فينزل هذا منزلة تعب الشاهد في حضور مجلس الحكم فإنه لا يلزمه السفر إلى بلدة أخرى إلا أن يتبرع به ، فإذا كان مجلس القاضي في جواره لزمه الحضور وكان التعب بهذه الخطوات لا يعدّ تعباً في غرض إقامة الشهادة وأداء الأمانة ، وإن كان في الطرف الآخر من البلد وأجوج إلى الحضور في الهاجرة وشدة الحر فهذا قد يقع في محل الاجتهاد والنظر ، فإن الضرر الذي ينال الساعي في حفظ حق الغير له طرف في القلة لا يشك في أنه لا يبالى به ، وطرف في الكثرة لا يشك في أنه لا يلزم احتماله ، ووسط يتجاذبه الطرفان ويكون أبداً في محل الشبهة والنظر ، وهي من الشبهات المزمّة التي ليس في مقدور البشر إزالتها ؛ إذ لا علة تفرق بين أجزائها المتقاربة ، ولكن المتق نظر فيها لنفسه ويدع ما يريه إلى ما لا يريه ، فهذا نهاية الكشف عن هذا الأصل .

الركن الرابع : نفس الاحتساب

وله درجات وآداب : أما الدرجات ، فأولها التعرف ، ثم التعريف ، ثم النهي ، ثم الوعظ والنصح ، ثم السب والتعنيف ، ثم التغيير باليد ، ثم التهديد بالضرب ، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه ، ثم شهر السلاح ، ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود .

أما الدرجة الأولى : وهي التعرف ؛ ونعني طلب المعرفة بجزئ المنكر وذلك منهى عنه - وهو التجسس الذي ذكرناه - فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار ، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر ، ولا أن يمس ما في ثوبه ليعرف شكل المزار ، ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره . نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلانا يشرب الخمر في داره أو بأن في داره خمر أعده للشرب ، فله إذ ذاك أن يدخل داره ولا يلزم الاستئذان ، ويكون تخطي ملكه بالدخول للتوصل إلى دفع المنكر ككسر رأسه بالضرب للنعم مهما احتاج إليه . وإن أخبره عدلان أو عدل واحد - وبالجمل كل من تقبل روايته لاشهادته - ففي جواز الهجوم على داره بقولهم ، فيه نظر واحتمال ، والأولى أن يمتنع لأن له حقاً في أن لا يتخطى داره بغير إذنه ، ولا يسقط حق المسلم عما ثبت عليه حقه إلا بشاهدين ؛ فهذا أولى ما يجعل مردداً فيه . وقد قيل إنه كان نقش خاتم لقمان : الستر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت .

الدرجة الثانية : التعريف ؛ فإن المنكر قد يقدم عليه المقدم بجهله وإذا عرف أنه منكر تركه ، كالسوادى يصلح ولا يحسن الركوع والسجود ؛ فيعلم أنّ ذلك لجهله بأن هذه ليست بصلاة ولو رضى بأن لا يكون مصلياً ترك أصل الصلاة ، فيجب تعريفه باللطف من غير عنف ؛ وذلك لأن ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحق ، والتجهيل ليناء وقلبا يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور لاسيما بالشرع . ولذلك ترى الذي يغلب عليه الغضب كيف يغضب إذا نه على الخطأ والجهل ؟ وكيف يجتهد في مجاهدة الحق بعد معرفته خيفة من أن تنكشف عورة جهله ؟ والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقية ؛ لأن الجهل قبح في صورة النفس وسواد في وجهه ، وصاحبه ملوم عليه ، وقبح السواتين يرجع إلى صورة البدن ، والنفس أشرف من البدن وقبحها أشد من قبح البدن . ثم هو غير ملوم عليه لأنه خلقه لم يدخل تحت اختياره حصوله ، ولا في اختياره إزالته وتحسينه . والجهل قبح يمكن إزالته وتبديله بحسن العلم ، فلذلك يعظم تألم الإنسان بظهور جهله ، ويعظم ابتهاجه في نفسه بعلمه

ثم لذته عند ظهور جمال علمه لغيره . وإذا كان التعريف كشفا للعورة مؤذيا للقلب فلا بد وأن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق فنقول له : إن الإنسان لا يولد عالما ولقد كننا أيضا جاهلين بأمور الصلاة فعللنا العلماء ، ولعل قريتك خالية عن أهل العلم أو عالمها مقصر في شرح الصلاة وإيضاحها ، إنما شرط الصلاة الطمأنينة في الركوع والسجود . وهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء ؛ فإن إيذاء المسلم حرام محذور كما أن تقريره على المنكر محذور ، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول ، ومن اجتنب محذور السكوت على المنكر واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه فقد غسل الدم بالبول على التحقيق . وأما إذا وقفت على خطأ في غير أمر الدين فلا ينبغي أن ترده عليه فإنه يستفيد منك علما ويصير لك عدوا ، إلا إذا علمت أنه يغتم العلم وذلك عزيز جدا .

الدرجة الثالثة : النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى ؛ وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكرا ، أو فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونه منكرا ، كالذي يواطىء على الشرب أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين أو ما يجرى مجراه ، فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك وتحكي له سيرة السلف وعبادة المتقين ؛ وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب ، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه إذ المسلمون كنفس واحدة ، وههنا آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها فإنها مهلكة ، وهي أن العالم يرى - عند التعريف - عز نفسه بالعالم وذل غيره بالجهل ؛ فربما يقصد بالتعريف الإدلال وإظهار التميز بشرف العلم وإدلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل . فإن كان الباعث هذا فهذا المنكر أقبح في نفسه من المنكر الذي يعترض عليه ؟ ومثال هذا المحتسب مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه وهو غايية في الجهل . وهذه مذلة عظيمة وغائلة هائلة وغرور للشيطان يتدلى بجملة كل إنسان إلا من عرفه الله عيوب نفسه وفتح بصيرته بنور هدايته ، فإن في الاحتكام على الغير لذة للنفس عظيمة من وجهين ، أحدهما : من جهة دالة العلم ، والآخر : من جهة دالة الاحتكام والسلطنة . وذلك يرجع إلى الرياء وطلب الجاه ، وهو الشهوة الخفية الداعية إلى الشرك الخفي ، وله محك ومعيار ينبغي أن يمتحن المحتسب به نفسه ، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه أو باحتساب غيره أحب إليه من امتناعه باحتسابه . فإن كانت الحسبة شاقة عليه ثقيلة على نفسه وهو يود أن يكفي بغيره فليحتسب فإن باعته هو الدين ، وإن كان اتعاض ذلك العاصي بوعظه وانزجاره بزجره أحب إليه من اتعاضه بوعظ غيره فما هو إلا متبع هوى نفسه ومتوسل إلى إظهار جاه نفسه بواسطة حسبته فليثق الله تعالى فيه وليحتسب أولا على نفسه . وعند هذا يقال له ما قيل لعيسى عليه السلام : يا ابن مريم عظم نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني . وقيل لداود الطائى رحمه الله : أرايت رجلا دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ؟ فقال أخاف عليه السوط ، قال : إنه يقوى عليه ، قال : أخاف عليه السيف ، قال : إنه يقوى عليه ، قال : أخاف عليه الداء الدفين وهو العجب .

الدرجة الرابعة : السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن ، وذلك يعدل إليه عند المعجز عن المنع باللطف وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح ، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ ولسنا نعني بالسب والفحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدماته ، ولا الكذب بل أن يخاطبه بما فيه مما لا يعتد من جملة الفحش ، كقوله : يا فاسق يا أحمق يا جاهل ألا تخاف الله ، وكقوله : يا سوادى يا غيى وما يجرى هذا المجرى . فإن كل فاسق فهو أحمق وجاهل ، ولولا حقه لما عصى الله تعالى بل كل من ليس

بكيس فهو أحق . والكيس من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكياسة حيث قال : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . واللاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(١) .

ولهذه الرتبة أدبان ؛ أحدهما : أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف . والثاني : أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه ؛ بل يقتصر على قدر الحاجة . فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزجره فلا ينبغي أن يطلقه . بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له والازدراء بمحله لأجل معصيته ، وإن علم أنه لو تكلم ضرب ولو اكفهر وأظهر الكراهة بوجهه لم يضرب لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب ، بل يلزمه أن يقطب وجهه ويظهر الإنكار له .

الدرجة الخامسة : التغيير باليد ؛ وذلك ككسر الملاهي وإراقة الخمر وخلع الحرير من رأسه وعن بدنه ومنعه من الجلوس عليه ودفعه عن الجلوس على مال الغير وإخراجه من الدار المغصوبة بالجر برجله وإخراجه من المسجد إذا كان جالسا وهو جنب وما يجرى مجراه ، ويتصور ذلك في بعض المعاصي دون بعض .

فأما معاصي اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها ، وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصي وجوارحه الباطنة .

وفي هذه الدرجة أدبان ، أحدهما : أن لا يباشر بيده التغيير مالم يعجز عن تكليف الاحتساب عليه ذلك ، فإذا أمكنه أن يكلفه المشي في الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره ، وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر وكسر الملاهي وحل دروز ثوب الحرير فلا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه ، فإن في الوقوف على حد الكسر نوع عسر ، فإذا لم يتعاط بنفسه ذلك كنى الاجتهاد فيه وتولاه من لاجر عليه في فعله .

الثاني : أن يقتصر في طريق التغيير على القدر المحتاج إليه ، وهو أن لا يأخذ بلحيته في الإخراج ، ولا برجله إذا قدر على جره بيده ؛ فإن زيادة الأذى فيه مستغنى عنه ، وأن لا يمزق ثوب الحرير بل يحل دروزه فقط ، ولا يحرق الملاهي والصليب الذي أظهره النصارى بل يبطل صلاحيتها للفساد بالكسر . وحد الكسر أن يصير إلى حالة تحتاج في استئناس إصلاحه إلى تعب يساوى تعب الاستئناس من الخشب ابتداء . وفي إراقة الخمر يتوقى كسر الأواني إن وجد إليه سبيلا ، فإن لم يقدر عليها إلا بأن يرمى ظروفها بحجر فله ذلك ، وسقطت قيمة الظرف وتقومه بسبب الخمر إذ صار حائلا بينه وبين الوصول إلى إراقة الخمر ، ولو ستر الخمر ببدنه لكننا نقصد بدنه بالجرح والضرب لتوصل إلى إراقة الخمر فإذا نال مزيد حرمة ملكه في الظروف على حرمة نفسه . ولو كان الخمر في قوادر ضيقة الرؤوس ولو اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق ومنعوه فله كسرها ، فهذا عذر . وإن كان لا يحذر ظفر الفساق به ومنعهم ولكن كان يضيع في زمانه وتتعلل عليه أشغاله فله أن يكسرها فليس عليه أن يضيع منفعة بدنه وغرضه من أشغاله لأجل ظرف الخمر ، وحيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فكسره لزمه الضمان .

* فإن قلت : فهلا جاز الكسر لأجل الزجر ؟ وهلا جاز الجر بالرجل في الإخراج عن الأرض المغصوبة ليكون ذلك أبلغ في الزجر ؟ فاعلم أن الزجر إنما يكون عن المستقبل ، والعقوبة تكون على الماضي ، والدفع على الحاضر الراهن . وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع وهو لإعدام المنكر ، فا زاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على

(١) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .. الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث شداد بن أوس .

جرىمة سابقة أو زجر عن لاحق . وذلك إلى الولاية لآلى الرعية . نعم الوالى له أن يفعل ذلك إذا رأى المصلحة فيه وأقول : له أن يأمر بكسر الظروف التى فيها الخور زجرا . وقد فعل ذلك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأكيداً للزجر (١) ولم يثبت نسخه ولكن كانت الحاجة إلى الزجر والفظام شديدة . فإذا رأى الوالى باجتهاده مثل الحاجة جاز له مثل ذلك . وإذا كان هذا منوطاً بنوع اجتهاد دقيق لم يكن ذلك لآحاد الرعية .

* فإن قلت : فليجزر للسلطان زجر الناس عن المعاصى بإتلاف أموالهم وتخريب دورهم التى فيها يشربون ويعصون وإحراق أموالهم التى بها يتوصلون إلى المعاصى ؟ فأعلم أن ذلك لو ورد الشرع به لم يكن غارجا عن سنن المصالح ولكننا لا نبتدع المصالح بل نتبع فيها . وكسر ظروف الخور قد ثبت عند شدة الحاجة . وتركه بعد ذلك لعدم شدة الحاجة لا يكون نسخاً بل الحكم يزول بزوال العلة ويعود بعودها . وإنما جوزنا ذلك للإمام بحكم الاتباع ومنعنا آحاد الرعية منه لخفاء وجه الاجتهاد فيه . بل نقول لو أريق الخور أولاً فلا يجوز كسر الآواى بعدها وإنما جاز كسرها تبعاً للخمر . فإذا خلت عنها فهو إتلاف مال إلا أن تكون ضاربة بالخمر لا تصلح إلا لها .

فكان الفعل المنقول عن العصر الأول كان مقروناً بمعنيين ؛ أحدهما : شدة الحاجة إلى الزجر ، والآخر : تبعية الظروف للخمر التى هى مشغولة بها . وهما معنيان مؤثران لا سبيل إلى حذفهما . ومعنى ثالث : وهو صدوره عن رأى صاحب الأمر لعل به شدة الحاجة إلى الزجر وهو أيضاً مؤثر فلا سبيل إلى إلغائه . فهذه تصرفات دقيقة فقهية يحتاج المحتسب للاحالة إلى معرفتها .

الدرجة السادسة : التهديد والتخويف ؛ كقوله دع عنك هذا أولاً كسر رأسك أو لأضرب رقبتك أو لأمرن بك وما أشبهه ، وهذا ينبغى أن يقدم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه . والأدب فى هذه الرتبة أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه ، كقوله لأنهن دارك أو لأضربن ولدك أو لأسبين زوجتك وما يجرى مجراه ، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام ، وإن قاله من غير عزم فهو كذب . نعم إذا تعرض لوعيده بالضرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد معلوم يقتضيه الحال ، وله أن يزيد فى الوعيد على ما هو فى عزمه الباطن إذا علم أن ذلك يقمعه ويردعه . وليس ذلك من الكذب المحذور بل المبالغة فى مثل ذلك معتادة وهو معنى مبالغة الرجل فى إصلاحه بين شخصين وتأليفه بين الضرتين ، وذلك بما قد رخص فيه للحاجة وهذا فى معناه ، فإن القصد به إصلاح ذلك الشخص . وإلى هذا المعنى أشار بعض الناس أنه لا يقبح من الله أن يتوعد بما لا يفعل لأن الخلف فى الوعيد كرم ، وإنما يقبح أن يعد بما لا يفعل ، وهذا غير مرضى عندنا فإن الكلام القديم لا يتطرق إليه الخلف وعدا كان أو وعيدا ، وإنما يتصور هذا فى حق العباد ، وهو كذلك إذ الخلف فى الوعيد ليس بحرام .

الدرجة السابعة : مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح ، وذلك جائز للأحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة فى الدفع ، فإذا اندفع المنكر فنبغى أن يكف . والقاضى قد يرهق من ثبت عليه الحق إلى الأداء بالحبس ، فإن أصر المحبوس وعلم القاضى قدرته على أداء الحق وكونه معانداً فله أن يلزمه الأداء بالضرب على التدرج كما يحتاج إليه . وكذلك المحتسب يراعى التدرج فإن احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالجرح فله أن يتعاطى ذلك مالم تثر فتنة . كالوقبض فاسق مثلاً على امرأة أو كان يضرب بمرار

(١) حديث : نكسر الظروف التى فيها الخور فى زمنه صلى الله عليه وسلم . أخرجه الترمذى من حديث أبى طلحة أنه قال : يا بنى الله أنى اشتريت خراً لأبتام فى حجرى قال « اهرق الخمر واكسر الدنان » وفيه لىث بن أبى سليم والأصح رواية السدى عن يحيى بن عباد عن أس أن أباً طلحة كان عنده قاله الترمذى .

معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع فيأخذ قوسه ويقول له : خل عنها أو لارمينك . إن لم تخل عنها فله أن يرمى وينبغي أن لا يقصد المقتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ويراعى فيه التدريج . وكذلك يسل سيفه ويقول أترك هذا المنكر أو لأضربنك . فكل ذلك دفع للمنكر ودفعه واجب بكل ممكن . ولا فرق في ذلك بين ما يتعلق بخاص حق الله وما يتعلق بالآدميين .

وقالت المعتزلة : ما لا يتعلق بالآدميين فلا حسبة فيه إلا بالكلام أو بالضرب ولكن للإمام لا للأحاد .
الدرجة الثامنة : أن لا يقدر عليه بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوان يشهرون السلاح . وربما يستمد الفاسق أيضا بأعوانه ويؤدي ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا . . فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه إلى إذن الإمام . فقال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك لأنه يؤدي إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد .
وقال آخرون : لا يحتاج إلى الإذن - وهو الأقيس - لأنه إذا جاز للأحاد الأمر بالمعروف وأوائل درجاته تجر إلى ثوان والثواني إلى ثوان . وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب . والتضارب يدعو إلى التعاون فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف . ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه . ونحن نجوز للأحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاثلوا من أرادوا من فرق الكفار قوما لأهل الكفر . فكذا قمع أهل الفساد جائز لأن الكافر لا بأس بقتله والمسلم إن قتل فهو شهيد . فكذا الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله . والمحتسب المحق إن قتل مظلوما فهو شهيد . وعلى الجملة فانتهاه الأمر إلى هذا من النوازل في الحسبة . فلا يغير به قانون القياس . بل يقال : كل من قدر على دفع منكر فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبأنفسه وبأعوانه . فالمسألة إذن محتملة - كما ذكرناه - فهذه درجات الحسبة فلنذكر آدابها والله الموفق .

باب آداب المحتسب

قد ذكرنا تفاصيل الآداب في آحاد الدرجات . ونذكر الآن جملها ومصادر ما فنقول جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات في المحتسب : العلم . والورع . وحسن الخلق .

أما العلم : فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقصر على حد الشرع فيه .
والورع : ليردعه عن مخالفة معلومة فما كل من علم عمل بعله . بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة وزائد على الحد المأذون فيه شرعا ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض . وليكن كلامه ووعظه مقبولا فإن الفاسق يهزأ به إذا احتسب ويورث ذلك جراءة عليه .

وأما حسن الخلق : فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه . والعلم والورع لا يكفيا فيه . فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمع ما لم يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق . وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب . وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله . وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم أو ضرب نسي الحسبة وغفل عن دين الله واشتغل بنفسه . بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم .

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تصدفع المنكرات . وإن فقدت لم يندفع المنكر . بل ربما كانت الحسبة أيضا منكرا لمجاورة حد الشرع فيها ودل على هذه الآداب قوله صلى الله عليه وسلم لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه حليم فيما يأمر به حليم فيما ينهى عنه فقيه

فيما يأمر به فقيه فيما ينهى عنه ^(١) ، وهذا يدل على أنه لا يشترط أن يكون فقيها مطلقا بل فيما يأمر به وينهى عنه وكذا الحلم . قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكُن من آخذ الناس به وإلا هلكت وقد قيل :

لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئا وأتى مثله فإنما يزرى على عقله

ولسنا نغني بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعا بالفسق ولكن يسقط أثره عن القلوب بظهور فسقه للناس . فقد روى عن أنس رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله لا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا تنهى عن المنكر حتى نتجنبه كله . فقال صلى الله عليه وسلم : بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانها عن المنكر وإن لم تتجنبوه كله ^(٢) ، وأوصى بعض السلف بنبيه فقال : إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر وليثق بالثواب من الله فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى ، فإذا من آداب الحسبة توطئ النفس على الصبر . ولذلك قرن الله تعالى الصبر : بالأمر بالمعروف . فقال حاكيا عن لقمان ﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ﴾ .

ومن الآداب تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه وقطع الطمع عن الخلائق حتى يزول عنه المداينة فقد روى عن بعض المشايخ أنه كان له سنور وكان يأخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئا من الغدد لسنوره فرأى على القصاب منكرا ، فدخل الدار أولا وأخرج السنور ، ثم جاء واحتسب على القصاب فقال له القصاب : لا أعطيك بعد هذا شيئا لسنورك ، فقال : ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك . وهو كما قال فمن لم يقطع الطمع من الخلق لم يقدر على الحسبة ومن طمع في أن تكون قلوب الناس عليه طيبة وألسنتهم بالشاء عليه مطلقة لم تيسر له الحسبة . قال كعب الأجباز لأبي مسلم الخولاني : كيف منزلتك بين قومك ؟ قال : حسنة ، قال : إن التوراة تقول ، إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه . فقال أبو مسلم : صدقت التوراة وكذب أبو مسلم .

ويدل على وجوب الرفق ما استدل به المأمون إذ وعظه واعظ وعنف له في القول فقال : يا رجل ارفق فقد بحث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال تعالى ﴿ فقلنا له قولنا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ فليكن اقتداء المحتسب في الرفق بالأنبياء صلوات الله عليهم . فقد روى أبو أمامة : أن غلاما شابا أتى النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : يانبي الله تأذن لي في الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : قزوه ادن ، فدنا حتى جلس بين يديه فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أتجبه لأملك ؟ ، فقال : لاجعني الله فذاك ، قال : كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم أتجبه لابتكتك ؟ ، قال : لاجعني الله فذاك ، قال : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم أتجبه لأختك ؟ ^(٣) ، وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والحالة وهو يقول في كل واحد : لا ،

(١) حديث « لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه ... الحديث » لم أجده هكذا ولا يهتق في اللعب من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف » .

(٢) حديث أنس : قلنا يا رسول الله لا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا تنهى عن المنكر حتى نتجنبه كله ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانها عن المنكر وإن لم تتجنبوه كله ، أخرجه الطبراني في المعجم الصغير والأوسط وفيه عبد القدوس بن حبيب أجمعوا على تركه . (٣) حديث أبي أمامة : أن شابا قال : يا رسول الله أئذن لي في الزنا فصاح الناس به ... الحديث . رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح .

جعلني الله فداك . وهو صلى الله عليه وسلم يقول : كذلك الناس لا يحبونه ، وقالوا جميعا في حديثهما أعني ابن عوف والراوى الآخر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه ، فلم يكن شيء أبغض إليه منه يعني من الزنا .

وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله : إن سفيان بن عيينة قبل جوائز السلطان فقال الفضيل : ما أخذ منهم إلا دون حقه ، ثم خلا به وعذله ووبخه فقال سفيان : يا أبا علي إن لم نكن من الصالحين فإننا لنحب الصالحين . وقال حماد ابن سلمة : إن صلة بن أشيم مر عليه رنجل قد أسبل لإزاره فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة فقال : دعوني أنا أكفيكم ، فقال : يا ابن أخي إن لي إليك حاجة قال : وما حاجتك يا عم ؟ قال : أحب أن ترفع من إزارك . فقال : نعم وكرامة ، فرفع إزاره فقال لأصحابه : لو أخذتموه بشدة لقال : لا ولا كرامة وشتمكم . وقال محمد بن زكريا الغلابي : شهدت عبد الله بن محمد بن عائشة ليلة وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله ، وإذا في طريقه غلام من قريش سكران وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت فاجتمع الناس عليه يضربونه ، فنظر إليه ابن عائشة فعرفه فقال للناس : تنحوا عن ابن أخي ، ثم قال : إلى يا ابن أخي ؛ فاستحى الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه ، ثم قال له : امض معي ، فضى معي حتى صار إلى منزله فأدخله الدار وقال لبعض غلمانه : بيته عندك فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به فلما أفاق ذكر له ما جرى فاستحيا منه وبكى وهم بالانصراف ؛ فقال الغلام : قد أمر أن تأتني ؛ فأدخله عليه فقال له . أما استحيت لنفسك ؟ أما استحيت لشرفك ؟ أما ترى من ولدك ؟ فائق الله وانزع عما أنت فيه فبكي الغلام منكسا رأسه ثم رفع رأسه وقال : عاهدت الله تعالى عهداً يسألني عنه يوم القيامة أني لأعود لشرب النبيذ ولا لشيء مما كنت فيه وأنا تائب ، فقال : ادن مني ، فقبل رأسه وقال أحسنت يا بني فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث : وكان ذلك ببركة رفيقه ثم قال : إن الناس يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر ويكون معروفهم منكرا فعليكم بالرفق في جميع أموركم تتألون به ما تطلبون . وعن الفتح بن شخرف قال : تعلق رجل بامرأة وتعرض لها ويده سكين لا يدنو منه أحد إلا عقره ، وكان الرجل شديد البدن ؛ فبينما الناس كذلك والمرأة تصيح في يده إذ مر بشر بن الحارث فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل فوقع الرجل على الأرض ؛ ومشى بشر فدنا من الرجل وهو يترشح عرقا كثيرا ومضت المرأة لحالها فسأله ما حالك ؟ فقال : ما أدري ! ولكن حاكني شيخ وقال لي : إن الله عز وجل ناظر إليك وإلى ما تعمل ؛ فضعفت لقوله قدماء وهبته هيبة شديدة ولا أدري من ذلك الرجل ؟ فقالوا له : هو بشر بن الحارث ، فقال : واسواتاه كيف ينظر إلى بعد اليوم ؟ وحس الرجل من يومه ومات يوم السابع ، فكذا كانت عادة أهل الدين في الحسبة . وقد نقلنا فيها آثارا وأخبارا في باب البغض في الله والحب في الله من كتاب آداب الصحبة فلانطول بالإعادة . فهذا تمام النظر في درجات الحسبة وآدابها والله الموفق بكرمه والحمد لله على جميع نعمه .

الباب الثالث : في المنكرات المألوفة في العادات

فتشير إلى جل منها ليستدل بها على أمثالها إذ لا مطمع في حصرها واستقصائها
فمن ذلك منكرات المساجد

أعلم أن المنكرات تنقسم إلى مكروهة وإلى محظورة ، فإذا قلنا : هذا منكر مكروه . فاعلم أن المنع منه مستحب والسكوت عليه مكروه وليس بجرام ، إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له لأن الكراهة حكم في الشرع

يجب تبليغه إلى من لا يعرفه . وإذا قلنا منكر محذور ، أوقلنا منكر مطلقا ، فزيد به المحذور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظورا .

فما يشاهد كثيرا في المساجد لإساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث فيجب النهي عنه إلا عند الحنفي الذي يعتقد أن ذلك لا يمنع صحة الصلاة ، إذ لا ينفع النهي معه . ومن رأى مسيئا في صلاته فسكت عليه فهو شريكه . هكذا ورد به الأثر . وفي الخبر ما يدل عليه ، إذ ورد في الغيبة أن المستمع شريك القائل (١) وكذلك كل ما يقدح في صحة الصلاة من نجاسة على ثوبه لا يراها ، أو انحراف عن القبلة بسبب ظلام أو عوى فمكل ذلك تجب الحسبة فيه .

ومنها قراءة القرآن بالحن يجب النهي عنه ويجب تلقين الصحيح . فإن كان المعتكف في المسجد يضيع أكثر أوقاته في أمثال ذلك ويشغل به عن التطوع والذكر فليشتغل به ، فإن هذا أفضل له من ذكره وتطوعه ، لأن هذا فرض وهي قرينة تعتدى فائدتها ، فهي أفضل من نافلة تقتصر عليه فائدتها . وإن كان ذلك يمنعه عن الورقة مثلا أو عن الكسب الذي هو طعمته ، فإن كان معه مقدار كفايته لزمه الاشتغال بذلك ولم يحز له ترك الحسبة لطلب زيادة الدنيا ، وإن احتاج إلى الكسب لقوت يومه فهو عذر له فيسقط الوجوب عنه لعجزه والذي يكثُر اللحن في القرآن إن كان قادرا على التعلم فليمتنع من القراءة قبل التعلم فإنه عاص به ، وإن كان لا يطاوعه اللسان فإن كان أكثر ما يقرؤه لحنًا فليتركه وليجتهد في تعلم الفاتحة وتصحيحها ، وإن كان الأكثر صحيحاً وليس يقدر على التسوية فلا بأس له أن يقرأ ، ولكن ينبغي أن يخفف به الصوت حتى لا يسمع غيره . ولمنع سرامنه أيضاً وجه ولكن إذا كان ذلك منتهى قدرته وكان له أنس بالقراءة وحرص عليها فلست أرى به بأساً والله أعلم .

ومنها ترأسل المؤذنين في الأذان وتطويلهم بمد كلماته وانحرافهم عن صوب القبلة بجميع الصدر في الحيلتين ، أو انفراد كل واحد منهم بأذان ولكن من غير توقف إلى انقطاع أذان الآخر ، بحيث يضطرب على الحاضرين جواب الأذان لتداخل الأصوات . فكل ذلك منكرات مكروهة يجب تعريفها . فإن صدرت عن معرفة فيستحب المنع منها والحسبة فيها . وكذلك إذا كان للمسجد مؤذن واحد وهو يؤذن قبل الصبح فينبغي أن يمنع من الأذان بعد الصبح ، فذلك مشوش للصوم والصلاة على الناس إلا إذا عرف أنه يؤذن قبل الصبح حتى لا يعول على أذانه في صلاة وترك سحور ، أو كان معه مؤذن آخر معروف الصوت يؤذن مع الصبح .

ومن المكروهات أيضا تكثير الأذان مرة بعد أخرى بعد طلوع الفجر في مسجد واحد في أوقات متعاقبة متقاربة ، إمام من واحد أو جماعة ، فإنه لا فائدة فيه ، إذ لم يبق في المسجد نائم ولم يكن الصوت مما يخرج عن المسجد حتى يذبه غيره فكل ذلك من المكروهات المخالفة لسنة الصحابة والسلف .

ومنها أن يكون الخطيب لابسا ثوب أسود يغلب عليه الإبريسم ، أو ممسكا لسيف مذهب فهو فاسق والإنكار عليه واجب ، وأما مجرد السواد فليس بمكروه ولكنه ليس بمحبوب إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض . ومن قال إنه مكروه وبدعة أراد به أنه لم يكن معهودا في العصر الأول ، ولكن إذا لم يرد فيه نهى فلا ينبغي أن يسمى بدعة ومكروها ولكنه ترك للأحب .

الباب الثالث : في المنكرات المألوفة

(١) حديث « المتأب والمستمع شريكان في الإثم » تقدم في الصوم .

ومنها كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم البدعة . فالقاص إن كان يكذب في أخباره فهو فاسق والإنكار عليه واجب ، وكذا الواعظ المبتدع يجب منعه ولا يجوز حضور مجلسه إلا على قصد إظهار الرد عليه ؛ إما للكافة إن قدر عليه أو لبعض الحاضرين حواله فإن لم يقدر فلا يجوز سماع البدع . قال الله تعالى لنبيه ﴿ فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ ومهما كان كلامه مائلا إلى الإرجاء وتجربة الناس على المعاصي ، وكان الناس يزدادون بكلامه جراءة وبعفو الله وبرحمته وثوقا يزيد بسببه رجائهم على خوفهم فهو منكر ، ويجب منعه عنه لأن فساد ذلك عظيم ، بل لو رجح خوفهم على رجائهم فذلك أليق وأقرب بطباع الخلق فإنهم إلى الخوف أحوج وإنما العدل تعديل الخوف والرجاء كما قال عمر رضي الله عنه : لو نادى مناد يوم القيامة ؛ ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نادى مناد ؛ ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا ، لحفت أن أكون أنا ذلك الرجل . ومهما كان الواعظ شابا متزينا للنساء في ثيابه وهيئته كثير الأشعار والإشارات والحركات وقد حضر مجلسه النساء فهذا منكر يجب المنع منه ، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح ، ويتبين ذلك منه بقرائن أحواله ، بل لا ينبغي أن يسلم الوعظ إلا لمن ظاهره الورع وهيئته السكينة والوقار وزيه زى الصالحين ، وإلا فلا يزداد الناس به إلا تماديا في الضلال . ويجب أن يضرب بين الرجال والنساء حائل يمنع من النظر فإن ذلك أيضاً مظنة الفساد ، والعادات تشهد لهذه المنكرات ، ويجب منع النساء من حضور المساجد للصلوات ومجالس الذكر إذا خيفت الفتنة بهن فقد منعتن عائشة رضي الله عنها فقيل لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنعهن من الجماعات ، فقالت : لو علم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أحدثن بعده لمنعهن ^(١) وأما اجتياز المرأة في المسجد مستترة فلا تمنع منه إلا أن الأولى أن لا تتخذ المسجد مجازاً أصلاً . وقراءة القرآن بين يدي الوعاظ مع التمديد والالخان على وجه يغير نظم القرآن ، ويجاوز حد التنزيل منكر مكروه شديد الكراهة أنكره جماعة من السلف .

ومنها الخلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات ، وكقيام السؤال وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار وما يجري مجراه ، فهذه الأشياء منها ما هو محرم لكونه تلبيسا وكذبا ، كالكذابين من طريقة الأطباء وكأهل الشعبة والتلبيسات وكذا أرباب التعويذات في الأغلب يتوصلون إلى بيعها بتلبيسات على الصبيان والسودانية فهذا حرام في المسجد وخارج المسجد ويجب المنع منه . بل كل بيع فيه كذب وتلبيس وإخفاء عيب على المشتري فهو حرام .

ومنها ما هو مباح خارج المسجد كالخياطة وبيع الأدوية والكتب والأطعمة ، فهذا في المسجد أيضا لا يحرم إلا بعارض وهو أن يضيق المحل على المصلين ويشوش عليهم صلاتهم ، فإن لم يكن شيء من ذلك فليس بحرام والأولى تركه ولكن شرط لإباحته أن يجري في أوقات نادرة وأيام معدودة ، فإن اتخذ المسجد دكانا على الدوام حرم ذلك ومنع منه . فن المباحات ما يباح بشرط القلة فإن كثرت صار صغيرة . كما أن من الذنوب ما يكون صغيرة بشرط عدم الإصرار فإن كان القليل من هذا لو فتح بابه لحيف منه أن ينجر إلى الكثير فليمنع منه ، وليكن هذا المنع إلى الوالي أو إلى القيم بمصالح المسجد من قبل الوالي لأنه لا يدرك ذلك بالاجتهاد ، وليس للأحاد المنع مما هو مباح في نفسه لخوفه أن ذلك يكثر .

(١) حديث عائشة : لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثن - أى النساء - من بدعه لمنعهن المساجد . متفق عليه . (٤٣ - إحياء علوم الدين - ٢)

ومنها دخول المجانين والصياني والسكران في المسجد ، ولا بأس بدخول الصبي المسجد إذا لم يلعب ، ولا يحرم عليه اللعب في المسجد ولا السكوت على لعبه إلا إذا اتخذ المسجد ملعباً وصار ذلك معتاداً فيجب المنع منه ، فهذا مما يحل قليله دون كثيره ، ودليل حل قليله ما روى في الصحيحين « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقف لأجل عائشة رضي الله عنها حتى نظرت إلى الحبشة يزفنون ويلعبون بالدرق والحراب يوم العيد في المسجد ، ولا شك في أن الحبشة لو اتخذوا المسجد ملعباً لمنعوا منه ، ولم ير ذلك على الندرة والقلة منكرأ حتى نظر إليه ، بل أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبصرهم عائشة تطيباً لقلوبها إذ قال دونكم « يابني أرفدة ، كما نقلناه في كتاب السماع . وأما المجانين فلا بأس بدخولهم المسجد إلا أن يخشى تلويثهم له ، أو شتمهم أو نطقهم بما هو خش ، أو تعاطيهم لما هو منكر في صورته ككشف العورة وغيره . وأما المجنون الهادي الساكن الذي قد علم بالعادة سكونه وسكوته فلا يجب إخراجه من المسجد . والسكران في معنى المجنون فإن خيف منه القذف - أغنى القىء - أو الإيذاء باللسان وجب إخراجه . وكذا لو كان مضطرب العقل فإنه يخاف ذلك منه ، وإن كان قد شرب ولم يسكر والرائحة منه تفوح فهو منكر مكروه شديد الكراهة . وكيف لا ومن أكل الثوم والبصل (*) فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حضور المساجد ؟ ولكن يحمل ذلك على الكراهة والأمر في الخمر أشد .

• فإن قال قائل : ينبغى أن يضرب السكران ويخرج من المسجد زجراً قلنا : لا ، بل ينبغى التعمد في المسجد ويدعى إليه ويؤمر بترك الشرب مهما كان في الحال عاقلاً ، فأما ضربه للزجر فليس ذلك إلى الأحاد بل هو إلى الولاية وذلك عند إقراره أو شهادة شاهدين ، فاما لمجرد الرائحة فلا . نعم إذا كان يمشى بين الناس متمايلاً بحيث يعرف سكره فيجوز ضربه في المسجد وغير المسجد منعاً له عن إظهار أثر السكر ، فإن إظهار أثر الفاحشة فاحشة والمعاصي يجب تركها ، وبعد الفعل يجب سترها وستر آثارها ، فإن كان مستتراً مخفياً لأثره فلا يجوز أن يتجسس عليه . والرائحة قد تفوح من غير شرب ، بالجلوس في موضع الخمر وبوصوله إلى الفم دون الابتلاع ، فلا ينبغى أن يعول عليه .

منكرات الأسواق

من المنكرات المعتادة في الأسواق الكذب في المراجعة ، وإخفاء العيب . فمن قال : اشتريت هذه السلعة مثلاً بعشرة وأرجح فيها كذا وكان كاذباً فهو فاسق . وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه ، فإن سكنت مراعاة لقلب البائع كان شريكاً له في الخيانة وعصى بسكوته . وكذا إذا علم به عيباً فيلزمه أن ينبه المشتري عليه وإلا كان راضياً بضياح مال أخيه المسلم وهو حرام وكذا التفاوت في الذراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالي حتى يغيره .

ومنها ترك الإيجاب والقبول والاكتفاء بالمعاطاة ، ولكن ذلك في محل الاجتهاد فلا ينكر إلا على من اعتقد وجوبه . وكذا في الشروط الفاسدة المعتادة بين الناس يجب الإنكار فيها فإنها مفسدة للعقود . وكذا في الربويات كلها وهي غالبية . وكذا سائر التصرفات الفاسدة .

ومنها بيع الملاهي وبيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد لأجل الصياني ، فتلك يجب كسرها والمنع من بيعها كالملاهي وكذلك بيع الأواني المتخذة من الذهب والفضة وكذلك بيع ثياب الحرير ، وقلائس

(*) هذا الحديث لم يخرج المراق وقد خرجه الشارح عن البخاري ومسلم وغيرهما

الذهب والحرير أعنى التي لاتصلح إلا للرجال ، أو يعلم بعادة البلد أنه لا يلبسه إلا الرجال ، فكل ذلك منكر محظور وكذلك من يعتاد بيع الثياب المبتذلة المقصورة التي يلبس على الناس بقصارتها وابتذالها ويزعم أنها جديدة فهذا الفعل حرام والمنع منه واجب . وكذلك تلبس انخراق الثياب بالرغو وما يؤدي إلى الالتباس . وكذلك جميع أنواع العقود المؤدية إلى التلبسات وذلك يطول إحصائه . فليقتس بما ذكرناه مالم نذكره .

منكرات الشوارع

فن المنكرات المعتادة فيها : وضع الاسطوانات ، وبناء الدكات متصلة بالآبنية المملوكة .. وغرس الأشجار ، وإخراج الرواشن والأجنحة ، ووضع الحشب وأحمال الجبوب والأطعمة على الطرق ، فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضيق الطرق واستضرار المسارة وإن لم يؤدي إلى ضرر أصلا لسعة الطريق فلا يمنع منه نعم يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت ، فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة ولا يمكن المنع منه . وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجس المجتازين منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب . وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة والمرعى هو الحاجة التي ترد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات .

ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر إن أمكن شدتها وضمتها بحيث لاتتمزق ، أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع ، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك . نعم لاتترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل . وكذلك تحميل الدواب من الأحمال مالا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه . وكذلك ذبح القصاب إذا كان يذبح في الطريق حذاء باب الحانوت ويلوث الطريق بالدم فإنه منكر يمنع منه ، بل حقه أن يتخذ في دكانه مذبحا فإن في ذلك تضيقا بالطريق وإضراراً بالناس بسبب ترشيش النجاسة ، وبسبب استنقار الطباع للقاذورات : وكذلك طرح القمامة على جواد الطريق ، وتبديد قشور البطيخ . أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر كل ذلك من المنكرات وكذلك إرسال الماء من الميازيب المنخرجة من الحائط في الطريق الضيقة فإن ذلك ينجس الثياب . أو يضيق الطريق ، فلا يمنع منه في الطرق الواسعة إذ العدول عنه ممكن فأما ترك مياه المطر والأحوال والثلوج في الطرق من غير كسح فذلك منكر ، ولكن ليس يختص به شخص معين ، إلا الثلج الذي يختص بطرحه على الطريق واحد ، والماء الذي يجتمع على الطريق من ميازب معين ، فعلى صاحبه على الخصوص كسح الطريق ، إن كان من المطر فذلك حصة عامة فعلى الولاية تكليف الناس القيام بها ، وليس للأحاد فيها إلا الوعظ فقط وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤدي الناس فيجب منعه منه ، وإن كان لا يؤدي إلا بتنجيس الطريق وكان يمكن الاحتراز عن نجاسته لم يمنع منه ، وإن كان يضيق الطريق ببسطه ذراعيه فيمنع منه ، بل يمنع صاحبه من أن يتنام على الطريق أو يقعد قعودا يضيق الطريق ، فكله أولى بالمنع .

منكرات الحمامات

منها الصورة التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخلها إن قدر ، فإن كان الموضع مرتفعا لاتصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة فليعدل إلى حمام آخر . فإن مشاهدة المنكر غير جائزة ويسكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان .

ومنها كشف العورات والنظر إليها . ومن جملتها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنجية الوسخ بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها .

ومنها الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك لتغميز الانفاذ والاعجاز ، فهذا مكروه إن كان مع حائل ولكن لا يكون محظورا إذا لم يخش من حركة الشهوة . وكذلك كشف العورة للحجاء الذي من الفواحش . فإن المرأة لا يجوز لها أن تكشف بدنيتها للذمية في الحمام فكيف يجوز لها كشف العورات للرجال ؟

ومنها غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة ، وغسل الإزار والطاس النجس في الحوض وماؤه قليل ؛ فإنه منجس للماء ، إلا على مذهب مالك فلا يجوز الإنكار فيه على المالكية ويجوز على الحنفية والشافعية وإن اجتمع المالكي وشافعي في الحمام فليس للشافعي منع المالكي من ذلك إلا بطريق الالتباس واللفظ ؛ وهو أن يقول له : إنا نحتاج أن نغسل اليد أولا ثم نغمسها في الماء ، وأما أنت فستغنى عن إيدائي وتفويت الطهارة على ، وما يجري مجرى هذا ، فإن مظان الاجتهاد لا يمكن الحسبة فيها بالقهر .

ومنها أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ملساء مزقة يراق عليها الغافلون فهذا منكر ، ويجب قلعه وإزالته وينكر على الحامى إهماله فإنه يفضي إلى السقطة ؛ وقد تؤدي السقطة إلى انكسار عضو أو انحلاعه وكذلك ترك الصدر والصابون المزلق على أرض الحمام منكر ؛ ومن فعل ذلك وخرج وتركه فزلق به لإنسان وانكسر عضو من أعضائه ، وكان ذلك في موضع لا يظهر فيه بحيث يتعذر الاحتراز عنه فالضمان متردد بين الذي تركه وبين الحامى ، إذ حقه تنظيف الحمام ، والوجه إيجاب الضمان على تاركة في اليوم الأول ، وعلى الحامى في اليوم الثاني إذ عادة تنظيف الحمام كل يوم معتادة ، والجوع في مواقيت إعادة التنظيف إلى العادات ، فليعتبر بها . وفي الحمام أمور آخر مكروهة ذكرناها في كتاب الطهارة فلتتظر هناك .

منكرات الضيافة

فمنها فرش الحرير للرجال فهو حرام . وكذلك تبخير البخور في بحجرة فضة أو ذهب ، أو الشراب أو استعمال ماء الورد في أواني الفضة أو ما رموسها من فضة .

ومنها إسدال الستور وعليها الصور .

ومنها سماع الأوتار أو سماع القينات .

ومنها اجتماع النساء على السطوح للنظر إلى الرجال مهما كان في الرجال شباب يخاف الفتنة منهم ، فكل ذلك محظور منكر يجب تغييره . ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج ، ومن لم يحز له الجلوس فلا رخصة له في الجلوس في مشاهدة المنكرات . وأما الصور التي على النمارق والزرابي المفروشة فليس منكرها . وكذلك على الأطباق والقصاص ، لا الأواني المتخذة على شكل الصور ، فقد تكون رموس بعض الجواهر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه . وفي المكحلة الصغيرة من الفضة خلاف ، وقد خرج أحمد بن حنبل عن الضيافة بسببها . ومهما كان الطعام حراما ، أو كان الموضع مغصوبا أو كانت الثياب المفروشة حراما فهو من أشد المنكرات ، فإن كان من فيها من يتعاطى شرب الخمر وحده فلا يجوز الحضور ، إذ لا يحل حضور مجالس الشرب وإن كان مع ترك الشرب ، ولا يجوز مجالسة الفاسق في حالة مباشرته للفسق ، وإنما النظر في مجالسته بعد ذلك ، وأنه هل يجب بغضه في الله ومقاطعته كما ذكرناه في باب الحب والبغض في الله ؟ وكذلك إن كان فيهم من يلبس الحرير أو خاتم الذهب فهو فاسق لا يجوز

الجلوس معه من غير ضروره . فإن كان الثوب على صبي غير بالغ فهذا في محل النظر . والصحيح أن ذلك منكرو يجب نزع عنه إن كان يميزا لعموم قوله عليه السلام ، هذان حرام على ذكور أمتي ^(١) ، وكما يجب منع الصبي من شرب الخمر - لالكونه مكلفاً ، لكن لأنه يأنس به ، فإذا بلغ عسر عليه الصبر عنه - فكذلك شهوة التزين بالحرير تغلب عليه إذا اعتاده ، فيكون ذلك بذرا للفساد يبذر في صدره ، فتنبت منه شجرة من الشهوة راسخة يعسر قلعها بعد البلوغ . أما الصبي الذي لا يميز فيضعف معنى التحريم في حقه ولا يخلو عن احتمال والعلم عند الله فيه والمجنون في معنى الصبي الذي لا يميز ، نعم يحمل التزين بالذهب والحرير للنساء من غير إسراف . ولأرى رخصة في تنقيب أذن الصبية لأجل تعليق حلق الذهب فيها ، فإن هذا جرح مؤلم ومثله موجب للقصاص فلا يجوز إلا الحاجة مهمة كالقصد والحجامة والختان : والتزين بالخلق غير مهم بل في التقريظ بتعليقه على الأذن وفي الخناق والأسورة كفاية عنه . فهذا وإن كان معتاداً فهو حرام والمنع منه واجب ، والاستئجار عليه غير صحيح ، والأجرة المأخوذة عليه حرام ؛ إلا أن يثبت من جهة النقل فيه رخصة ، ولم يبلغنا إلى الآن فيه رخصة .

ومنها أن يكون في الضيافة مبتدع يتكلم في بدعته ، فيجوز الحضور لمن يقدر على الرد عليه على عزم الرد ؛ فإن كان لا يقدر عليه لم يجز فإن كان المبتدع لا يتكلم ببذعته فيجوز الحضور مع اظهار الكراهة عليه والاعراض عنه كما ذكرناه في باب البغض في الله . وإن كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع التواذر فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور وعند الحضور يجب الإنكار عليه ، وإن كان ذلك بمزح لا كذب فيه ولا فحش فهو مباح - أعني ما يقل منه - فأما اتخاذ صنعة وعادة فليس بمباح . وكل كذب لا يخفى أنه كذب ولا يقصد به التلبيس فليس من جملة المنكرات ، كقول الإنسان مثلاً : طلبتك اليوم مائة مرة ، وأعدت عليك الكلام ألف مرة ؛ وما يجري مجراه مما يعلم أنه ليس يقصد به التحقيق فذلك لا يقدح في العدالة ولا ترد الشهادة به . وسيأتى حد المزاح المباح والكذب المباح في كتاب آفات اللسان من ربح المهلكات .

ومنها الإسراف في الطعام والبناء فهو منكر ، بل في المال منكران ؛ أحدهما . الإضاعة . والآخر : الإسراف . فالإضاعة : تفويت مال بلا فائدة يعتد بها كإحراق الثوب وتمزيقه ، وهدم البناء من غير غرض . والقام المال في البحر ، وفي معناه صرف المال إلى النائية والمطرب ، وفي أنواع الفساد لأنها فوائد محرمة شرعاً فصارت كالمعدومة .

وأما الإسراف : فقد يطلق لإرادة صرف المال إلى النائية والمطرب والمنكرات ، وقد يطلق على الصرف إلى المباحات في جنسها ولكن مع المبالغة .

والمبالغة تختلف بالإضافة إلى الأحوال فنقول : من لم يملك إلامائة دينار مثلاً ومعه عياله وأولاده ولا معيشة لهم سواه فأنفق الجميع في ولية فهو مسرف يجب منعه قال تعالى ﴿ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ نزل هذا في رجل بالمدينة قسم جميع ماله ولم يبق شيئاً لعياله فطوب بالنفقة فلم يقدر على شيء وقال تعالى ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴿ وكذلك قال عز وجل ﴾ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴿ فمن يسرف هذا الإسراف ينكر عليه ويجب على القاضي أن يحجر عليه ؛ إلا إذا كان الرجل وحده وكان له قوة في التوكل صادقة ؛ فله أن يتفق بجميع ماله في أبواب البر . ومن له عيال أو كان عاجزاً عن التوكل فليس له أن يتصدق

(١) حديث « هذا حرامان على ذكور أمتي » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث علي وقد تقدم في الباب الرابع من آداب الأكل .

بجميع ماله . وكذلك لو صرف جميع ماله إلى نقوش حيطانه وتزيين بنيانه فهو أيضا إسراف محرم ، وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بجرام لأن التزيين من الأغراض الصحيحة ، ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه إلا مجرد الزينة ، فكذا الدور ، وكذلك القول في التجميل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في جنسه ، ويصير إسرافا باعتبار حال الرجل وثروته : وأمثال هذه المنكرات كثيرة لا يمكن حصرها . فقس بهذه المنكرات المجامع ومجالس القضاة ودواوين السلاطين ومدارس الفقهاء ورباطات الصوفية وخانات الأسواق فلا تخلو بقعة عن منكر مكروه أو محذور ، واستقصاء جميع المنكرات يستدعي استيعاب جميع تفاصيل الشرع أصولها وفروعها فلنقتصر على هذا القدر منها .

المنكرات العامة

اعلم أن كل قاعد في بيته - أينما كان - فليس خاليا في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف ، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبادي ؟ ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق ، وواجب أن يكون في مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم وكذا في كل قرية وواجب على كل فقيه - فرع من فرض عينه وتفرض لفرض الكفاية - أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ، ويستصحب مع نفسه زادا يأكله ولا يأكل من أطعمتهم فإن أكثرها مغصوب ، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين وإلا عم الحرج السكافة أجمعين .

أما العالم فلتقصيره في الخروج . وأما الجاهل فلتقصيره في ترك التعلم .

وكل عامى عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرف غيره وإلا فهو شريك في الإثم . ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالما بالشرع وإنما يجب التبليغ على أهل العلم ، فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها . ولعمري الإثم على الفقهاء أشد لأن قدرتهم فيه أظهر وهو بصناعتهم أليق : لأن المحترفين لو تركوا حرفتهم لبطلت المعاش فهم قد تقلدوا أمرا لا بد منه في صلاح الخلق . وشأن الفقيه وحرفته تبليغ ما بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن العلماء هم ورثة الأنبياء . وللإنسان أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة ، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهي . وكذا كل من تيقن أن في السوق منكر يجرى على الدوام أوفى وقت بعينه وهو قادر على تغييره فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالعود في البيت ، بل يلزمه الخروج ، فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع وهو محترز عن مشاهدته ويقدر على البعض لزمه الخروج ، لأن خروجه إذا كان لاجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة ما لا يقدر عليه ، وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه في إصلاحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم يعلم ذلك أهل بيته ، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ، ثم إلى أهل محله ، ثم إلى أهل بلده ثم إلى أهل السواد المكتشف ببلده ، ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم ، وهكذا إلى أقصى العالم ، فإن قام به الأذن سقط عن الأبعد وإلا حرج به على كل قادر عليه قريبا كان أو بعيدا ، ولا يسقط الحرج مادام بقي على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعمله فرضه ، وهذا شغل شاغل لمن يهيمه أمر دينه يشغبه عن تجزئة الأوقات في التفرجات النادرة والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه .

الباب الرابع : في أمر الأمراء والولاة ونهيهم عن المنكر

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وأن أوله التعريف ، وثانيه والوعظ ، وثالثه التخشين في القول ، ورابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة . والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرقبان الأوليان وهما : التعريف والوعظ . وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان ، فإن ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ، ويكون ما يتولد منه من الحذور أكثر ، وأما التخشين في القول كقولهم : يا ظالم يا من لا يخاف الله وما يجري مجراه فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يحز ، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه . فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة والتعرض لأنواع العذاب لعلمهم بأن ذلك شهادة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ^(٢) » ، ووصف النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال « قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم وتركه قوله الحق ماله من صديق ^(٣) » ، ولما علم المتصلبون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر ، وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار ، قدموا على ذلك . وطعن أنفسهم على الهلاك ومحتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى ومحتسين لما يبذلونه من مهجهم عند الله . وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل علماء السلف ، وقد أوردنا جملة من ذلك في باب الدخول على السلاطين في كتاب الحلال والحرام ، ونقتصر الآن على حكايات يعرف وجه الوعظ وكيفية الإنكار عليهم .

ففيها ما روى من إنكار أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أكابر قريش حين قصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوء . وذلك ما روى عن عروة رضي الله عنه قال : قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشا نالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عدواته : فقال : حضرتهم وقد اجتمع أشرفهم يومافى الحجر فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل سفه أحلامنا وشم أبائنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ، ولقد صبرنا منه على أمر عظيم - أو كما قالوا - فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول قال فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مضى ، فلما مر الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه عليه السلام ثم مضى ، فرمهم الثالثة فغمزوه بمثلها حتى وقف ثم قال « أسمعون يا معشر قريش : أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح » قال : فأطرق القوم حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه وطأة قبل ذلك ليرفوة بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف

الباب الرابع : في أمر الأمراء والولاة بالمعروف ونهيهم عن المنكر

(١) حديث « خير الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ثم رجل قام إلى رجل فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك » أخرجه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وتقدم في الباب قبله (٢) حديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » تقدم (٣) حديث : وصفه صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب بأنه قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم تركه قوله الحق ماله من صديق . أخرجه الترمذي بسند ضعيف مقتصر على آخر الحديث من حديث علي : رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مرا تركه الحق ماله من صديق . وأما أول الحديث فرواه الطبراني في عمر قال لكعب الأحبار كيف نجد نعتي ؟ قال : أجد نعتك قرنا من حديد قال . وما قرن من حديد ؟ قال : أمير شديد لا تأخذه في الله لومة لائم .

يا أبا القاسم راشدا فوالله ما كنت جهولا قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بدأكم بماتكروهن تركتموه ! فيبيناهم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا ؟ أنت الذي تقول كذا ؟ لما كان قد بلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، قال : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم أنا الذي أقول ذلك ، قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجامع رداءه قال : وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه دونه يقول - وهو يبكي - ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه وإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا بلغت منه ^(١) وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلف ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ^(٢) ؟ وروى أن معاوية رضي الله عنه حبس العطاء فقام إليه أبو مسلم الخولاني فقال له : يا معاوية إنه ليس من كذا ولا من كذا أيلك ولا من كذا أمك . قال : فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال لهم : مكانكم ! وغاب عن أعينهم ساعة ثم خرج عليهم وقد اغتسل فقال : إن أبا مسلم كذبني بكلام أغضبني وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليغتسل ^(٣) ، وإني دخلت فاغتسلت وصدق أبو مسلم أنه ليس من كذا ولا من كذا أبي فلهما إلى عطاءكم . وروى عن ضبة بن محصن العنزي قال كان علينا أبو موسى الأشعري أميرا بالبصرة فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشأ يدعو لعمر رضي الله عنه قال : فغاضني ذلك منه ، فقمت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعا ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول : إن ضبة بن محصن العنزي يتعرض لي في خطبتي . فكتب إليه عمر : أن أشخصه لي . قال : فاشخصني إليه فقدمت فضربت عليه الباب فخرج إلى فقال : من أنت ؟ فقلت : أنا ضبة فقال لي : لا مرحبا ولا أهلا ، قلت : أما المرحب فن الله ، وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال ، فهاذا استحلت يا عمر إشخاصي من مصرى بلا ذنب أذنبته ولا شيء أتيت به ؟ فقال : ما الذي شجر بينك وبين عاملي ؟ قال : قلت الآن أخبرك به ، إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك فغاضني ذلك منه فقمت إليه فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعا ثم كتب إليك يشكوني . قال : فاندفع عمر رضي الله عنه باكيًا وهو يقول أنت والله أوفق منه وأرشد ، فهل أنت غافر لي ذنبي يغفر الله لك ؟ قال : قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين . قال : ثم اندفع باكيًا وهو يقول : والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بليته ويومه ؟ قلت : نعم ، قال :

أما الليلة : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فقتبعه أبو بكر ، فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا يا أبا بكر ؟ ما أعرف هذا من أفعالك ، فقال يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب

(١) حديث : عروة قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشا نالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته ... الحديث . أخرجه بطوله البخاري مختصرا وابن حبان بتمامه (٢) حديث عبد الله بن عمرو : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث رواه البخاري . (٣) حديث معاوية : الغضب من الشيطان ... الحديث ، وفي أوله قصة رواه أبو نعيم في الحلية وفيه من لأمره .

فأكون خلقتك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك . قال : فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت ؛ فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه وجعل يشد به حتى أتى فم الغار فأنزله ، ثم قال : والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل في قبلك ، قال : فدخل فلم يرفيه شيئاً فحملة فأدخله وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاع فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، وجعلان يضربن أبا بكر في قدمه وجعلت دموعه تتحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه والطمأنينة لأبي بكر فهذه ليلته .

وأما يومه فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب فقال بعضهم : نصلى ولا نركى فأتيته لا آله نصحا فقلت : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارفق بهم . فقال لي : أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام ؟ فبماذا أتألفهم ؟ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحي فوالله لو منعوني عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاتلتهم عليه ، قال : فقاتلنا عليه فكان والله رشيدا لأمر . فهذا يومه . ثم كتب إلى أبي موسى يلومه ^(١) .

وعن الأصمعي قال : دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان - وهو جالس على سريرته وحواليه الأشراف من كل بطن وذلك بمكة في وقت حجة في خلافته - فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له : يا أبا محمد ما حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة ، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم . فقال له : أجل أفعل ، ثم نهض وقام . فقبض عليه عبد الملك فقال : يا أبا محمد إنمأسألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت ؟ فقال : مالي إلى مخلوق حاجة . ثم خرج فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف ! وقد روى أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوما : قف على الباب فإذا مر بك رجل فأدخله على ليحدثني . فوقف الحاجب على الباب مدة فمر به عطاء بن أبي رباح وهو لا يعرفه فقال له : يا شيخ أدخل إلى أمير المؤمنين فإنه أمر بذلك ؛ فدخل عطاء على الوليد وعنده عمر بن عبد العزيز فلما دنا عطاء من الوليد قال : السلام عليك يا وليد ! قال : فغضب الوليد على حاجبه وقال له : وإليك أمرتك أن تدخل إلى رجلا يحدثني ويسامرنى فأدخلت إلى رجلا لم يرض أن يسميني بالاسم الذي اختاره الله لي . فقال له حاجبه : ما مررت أحد غيره ، ثم قال لعطاء : اجلس ، ثم أقبل عليه يحدثه فكان فيما حدثه به عطاء أن قال له : بلغنا أن في جهنم واديا يقال له ههب أعدده الله لكل إمام جائر في حكمه . فصعق الوليد من قوله ، وكان جالسا بين يدي عتبة باب المجلس فوقع على قفاه إلى جوف المجلس مغشيا عليه ؛ فقال عمر لعطاء : قتلت أمير المؤمنين . فقبض عطاء على ذراع عمر ابن عبد العزيز فغمزته غمزة شديدة وقال له : يا عمر إن الأمر جد فجد ، ثم قام عطاء وانصرف . فبلغنا عن عمر بن

(١) حديث ضبة بن محسن : كان علينا أبو موسى الأشعري أميرا بالبصرة وفيه من عمر أنه قال والله ليلية من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بيومه وإيلته ؟ فذكر ليلة الهجرة ويوم الردة بطوله رواه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد ضعيف هكذا وقصة الهجرة رواها البخاري من حديث عائشة بنير هذا السياق وافق عليها الشيخان من حديث أبي بكر بلقط آخر ولها من حديثه قال : قلت لرسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما . وأما قتاله لأهل الردة في المسيحيين من حديث أبي هريرة : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبي بكر كيف تهاتل الناس . الحديث .

عبد العزيز رحمه الله أنه قال : مكثت سنة أجد ألم غمزته في ذراعي . وكان ابن أبي شميعة يوصف بالعقل والأدب ؛ فدخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك : تكلم ، قال : بم أتكلم وقد علمت أن كل كلام تكلم به المتكلم عليه وبال إلا ما كان لله ؟ فبكى عبد الملك ثم قال : يرحمك الله لم يزل الناس يتواعظون ويتواصون ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إن الناس في القيامة لا ينجون من غصص مرارتها ومعاناة الردى فيها إلا من أَرْضَى الله بسخط نفسه ؛ فبكى عبد الملك ثم قال : لا جرم لأجعلن هذه الكلمات مثالا نصب عيني ماعشت . و يروى عن ابن عائشة أن الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة فدخلنا عليه ، ودخل الحسن البصري رحمه الله آخر من دخل ، فقال الحجاج مرحبا بأبي سعيد إلى إلى ، ثم دعا بكرسى فوضع إلى جنب سريره فقعده عليه ؛ فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر على بن أبي طالب رضى الله عنه فقال منه ونلنا منه مقاربة له وفرقا من شره ، والحسن ساكت عاض على إبهامه ؛ فقال : يا أبا سعيد مالى أراك ساكتا ؟ قال : ماعسيت أن أقول ؟ قال : أخبرنى برأيتك فى أبى تراب ، قال : سمعت الله جل ذكره يقول ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ فعلى من هدى الله من أهل الإيمان ، فأقول : ابن عم النبی عليه السلام وختنه على ابنته وأحب الناس إليه وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا يحول بينه وبينها . وأقول : إن كانت لعل هناة فالله حسبه والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا . فبسروجه الحجاج وتغير وقام عن السرير مغضبا فدخل بيتا خلفه وخرجنا . قال عامر الشعبي : فأخذت بيد الحسن فقلت : يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره ، فقال : إلیک عنى یا عامر ، يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة . أتيت شيطانا من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه فى رأيه ويحك يا عامر هلا اتقيت إن سئلت فصدقت ، أو سكت فسلمت ؟ قال عامر : يا أبا سعيد قد قلت وأنا أعلم ما فيها ، قال الحسن : فذاك أعظم فى الحجة عليك وأشد فى التبعة . قال : وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال : أنت الذى تقول قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ؟ قال : نعم ، قال ما حملك على هذا ؟ قال : ما أخذ الله على العلماء من الموائيق ﴿ ليدينه للناس ولا يكتُمونه ﴾ قال يا حسن أمسك عليك لسانك وإياك أن يبلغنى عنك ما أكره فأفرق بين رأسك وجسدك . وحكى أن حطيطة الزيات جىء به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال : أنت حطيطة ؟ قال : نعم ، سل عما بدا لك ، فإني عاهدت الله - عند المقام - على ثلاث خصال : إن سئلت لأصدقن ، وإن ابتليت لأصبرن ، وإن عوفيت لأشكرن . قال : فما تقول فى ؟ قال : أقول إنك من أعداء الله فى الأرض تذهبك المحارم وتقتل بالظنة . قال : فما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : أقول إنه أعظم جرما منك وإنما أنت خطيئة من خطاياهم . قال : فقال الحجاج ، ضعوا عليه العذاب . قال : فأنتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبه قصبه حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئا . قال : فقيل للحجاج إنه فى آخر رمق فقال : أخرجوه فارموا به فى السوق . قال جعفر : فأتيت أنا وصاحب له فقلنا له : حطيطة ألك حاجة ؟ قال : شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات ، وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمه الله عليه . وروى أن عمر بن هبيرة دعا بفقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة وأهل الشام وقراءها فجعل يسألهم وجعل يكلم عامر الشعبي فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علما ، ثم أقبل على الحسن البصري فسأله ، ثم قال : هما هذان ، هذا رجل أهل الكوفة - يعنى الشعبي - وهذا رجل

أهل البصرة - يعنى الحسن - فأمر الحاجب فاخرج الناس وخلا بالشعب والحسن . فأقبل على الشعبي فقال : يا أبا عمرو إلى أين أمين المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمني حقهم فأنا أحب حفظهم وتعهدهما يصلحهم مع النصيحة لهم ، وقد يبلغني عن العصابة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه فأقبض طائفة من عطايتهم فأضعه في بيت المال ومن نيتي أن أردّه عليهم ، فيبلغ أمير المؤمنين أني قد قبضته على ذلك النحو فيكتب إلى أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا إنفاذ كتابه ، وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة . فهل على في هذا تبعة وفي أشباهه من الأمور والنية فيها على ما ذكرت ؟ قال الشعبي . فقلت أصلى الله الأمير إنما السلطان والديخطي ويصيب ، قال . فسر بقولي وأعجب به ورأيت البشر في وجهه وقال فله الحمد ، ثم أقبل على الحسن فقال : ماتقول يا أبا سعيد قال : قد سمعت قول الأمير يقول إنه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمني حقهم والنصيحة لهم والتعهد لما يصلحهم ، وحق الرعية لازم لك وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة وإلى سمعت عبد الرحمن بن سمرة القرشي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة ^(١) ، ويقول : إلى ربما قبضت من عطايتهم لإرادة صلاحهم واستصلاحهم وأن يرجعوا إلى طاعتهم ، فيبلغ أمير المؤمنين أني قبضتها على ذلك النحو فيكتب إلى أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا أستطيع إنفاذ كتابه ، وحق الله أؤم من حق أمير المؤمنين والله أحق أن يطاع ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فأعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل فإن وجدته موافقا لكتاب الله فخذ به وإن وجدته مخالفا لكتاب الله فانبذه ؛ يا ابن هبيرة اتق الله فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزبك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك فتدع سلطانك ودينك خلف ظهرك وتقدم على ربك وتنزل على عمالك ؛ يا ابن هبيرة إن الله ليمنعك من يزيد ولا يمنعك يزيد من الله وإن أمر الله فوق كل أمر ولأنه لا طاعة في معصية الله وإلى أحذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين . فقال ابن هبيرة : أربيع على ظلمك أيها الشيخ وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين ؛ فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل وإنما ولاه الله تعالى ما ولاه من أمر هذه الأمة لعله به وما يعلمه من فضله ونيتة . فقال الحسن : يا ابن هبيرة ، الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب والله بالمرصاد ، يا ابن هبيرة : إنك إن تلق من نصيح لك في دينك ويحملك على أمر آخرتك خير من أن تلق رجلا يغرك ويمنيك . فقام ابن هبيرة وقد بسر وجهه وتغير لونه . قال الشعبي : فقلت يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره وحرمتنا معروفه وصلته فقال : إليك عنى يا عامر ، قال : فخرجت إلى الحسن التحف والطرف وكانت له المنزلة واستخف بنا وجفينا فكان أهلا لما أدى إليه وكنا أهلا أن يفعل ذلك بنا . فأرأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربى بين المقارف وما شهدنا مشهدا إلا برز علينا . وقال الله عز وجل وقلنا مقاربة لهم . قال عامر الشعبي : وأنا أعاهد الله أن لا أشهد سلطانا بعد هذا المجلس فأحايه . ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة فقال له : ما تقول في القدر ؟ فقال : جيرانك أهل القبور فتشكر فيهم فإن فيهم شغلا عن القدر .

وعن الشافعى رضى الله عنه قال : حدثني عمى محمد بن على قال : إلى الحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور

(١) حديث الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة : من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة . رواه البنى فى معجم الصحابة باسناد لين وقد اتفق عليه الشيخان بنحوه من رواية الحسن عن معقل بن يسار .

وفيه ابن أبي ذؤيب ، وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال : فأني الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئا من أمر الحسن ابن زيد ، فقال الحسن : يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب قال : فسأله ، فقال : مات قول فيهم يا ابن أبي ذؤيب ؟ فقال : أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس كثير والأذى لهم . فقال أبو جعفر : قد سمعتم ، فقال الغفاريون : يا أمير المؤمنين سل عن الحسن بن زيد . فقال : يا ابن أبي ذؤيب ما تقول في الحسن بن زيد ؟ فقال : أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه ، فقال : قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أسأله عن نفسك . فقال : مات قول في ؟ قال : تعفني يا أمير المؤمنين ، قال : أسألك بالله إلا أخبرني . قال : تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك ؟ قال : والله لتخبرني ، قال : أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله ، وأشهد أن الظلم ببابك فاش . قال : فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له : أما والله لولا أني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك ! قال : فقال ابن أبي ذؤيب يا أمير المؤمنين قد ولي أبو بكر وعمر فأخذوا الحق وقسما بالسوية وأخذوا بأقواء فارس والروم وأصغرا آنا فهم ، قال : نخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال : والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك ، فقال ابن أبي ذؤيب : والله يا أمير المؤمنين إنني لأنصح لك من ابنك المهدي ، قال : فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري فقال له : يا أبا الحرث لقد سرني ما خاطبت به هذا الجبار ولكن سامني قولك له ابنك المهدي ، فقال : يغفر الله لك يا أبا عبد الله كلنا مهدي كلنا كان في المهدي .

وعن الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو قال : بعث إلى أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته ، فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رد علي واستجلسني ثم قال لي : ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي ؟ قال : قلت وما الذي تريد يا أمير المؤمنين ؟ قال : أريد الأخذ عنكم والاقباس منكم ، قال : فقلت فانظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئا مما أقول لك ، قال : وكيف أجعله وأنا أسألك عنه وفيه وجه إليك وأقدمتك له ؟ قال : قلت أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به ، قال : فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف فأنهز المنصور وقال : هذا مجلس مشوبة لا مجلس عقوبة ^(١) فطابت نفسي وانبسطت في الكلام . فقلت : يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثما ويزداد الله بها سخطا عليه ^(٢) ، يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة ^(٣) ، يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله . إن الله هو الحق المبين . إن الذي لين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرايتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان بهم رموفا رحيا مواسيا لهم بنفسه في ذات يده محمودا عند الله وعند الناس فحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق . وأن تكون بالقسط له فيهم قائما ولعوراتهم سائرا . لا تغلق عليك دونهم الأبواب ولا تقيم دونهم الحجاب . تبتج بالنعمة عندهم . وتبتئس بما أصابهم من سوء . يا أمير

(١) حديث : الأوزاعي مع المنصور وموعظته له وذكر فيها عشرة أحاديث مرفوعة . والقصة بمجملتها رواها ابن أبي الدنيا في كتاب مواعظ الخلفاء ورويناها في مشيخة يوسف بن كامل الخفاف ومشيخة ابن طبرزد ، وفي إسنادهما أحمد بن عبيد بن ناصح قال ابن عدي يحدث بمناكير وهو عندي من أهل الصدق وقد رأيت سرد الأحاديث المذكورة في الموعظة للذكر هل لبعضها طريق غير هذا الطريق ويعرف صواب كل حديث أو كونه مرسلًا فأولها (٢) حديث عطية بن بشر : « أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء (٣) حديث عطية بن ياسر : « أيما وال بات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة » أخرجه ابن أبي الدنيا في وابن عدي في الكامل في ترجمة أحمد بن عبيد .

المؤمنين قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم - أحمرهم وأسودهم مسلهم وكافرهم - وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك إذا انبعث منهم فقام وراء فقام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامه سقتها إليه ؟ يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال : كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروح بها المنافقين ، فأناه جبرائيل عليه السلام فقال له : يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعبا ^(١) ؟ فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماءهم وخرّب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيّبهم الخوف منه ؟ يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن مسلمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فأناه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله لم يبعثك جبارا ولا متكبرا . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي فقال : اقتص مني ، فقال الأعرابي : قد أحللتك ؛ بأبي أنت وأمي وما كنت لأفعل ذلك أبدا ولو أتيت على نفسي . فدعا له بنجر ^(٢) يا أمير المؤمنين رضى نفسك لنفسك وخذ لها الأمان من ربك وارغب في جنة عرضها السموات والأرض التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقيد قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها ^(٣) ، يا أمير المؤمنين إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك ، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك . يا أمير المؤمنين أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ قال الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : الضحك ، فكيف بمعاملته الأيدي وحصدته الألسن ؟ يا أمير المؤمنين بلغني أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لو ماتت سحلة على شاطئ الفرات ضيعة لحشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ؟ يا أمير المؤمنين أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك ﴿ يادود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ قال الله تعالى في الزبور : يادود إذا قعد الحصان بين يديك فكان لك في أحدهما هوى فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلاح على صاحبه فأحوك عن نبوتك ثم لا تكون خلقت ولا كرامة ، يادود إنما جعلت رسل إلى عبادى رعاء كرعاه الإبل لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة ليحبر والكسير ويدلوا الهزبل على الكلال والماء . يا أمير المؤمنين إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال لآيين أن يحملنه وأشفقن منه ، يا أمير المؤمنين حدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمرة الأنصاري : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقبيا فقال له : ما منعك من الخروج إلى عملك ؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله قال : لا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مامن وال يلى شيئا من أمور الناس إلا أتى به يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه لا يفكها إلا عدله فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ثم يعاد فيحاسب فإن كان محسنا نجا

(١) حديث عروة بن رويم : كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروح بها المنافقين ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل وهروء ذكره ابن حبان في ثقات التابعين (٢) حديث حبيب بن مسلمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا فيه ، وروى أبو داود والنسائي من حديث عمر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتص من نفسه . وللاحكام من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه : طعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في خاصرة أسيد بن حضير ، فقال أوجعتني قال اقتص .. الحديث . قال صحيح الإسناد (٣) حديث « لقيد قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها » أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الأوزاعي معضلا لم يذكر إسناده ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ « لقاب » .

بالحسانه وإن كان مسيئا انخرق به ذلك الجسر فيهوى به في النار سبعين خريفا (١) ، فقال له عمر رضى الله عنه ممن سمعت هذا ؟ قال : من أبى ذر وسلمان فأرسل إليهما عمر فسألها فقالا : نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : واعمرهما من يتولاها بما فيها ؟ فقال أبو ذر رضى الله عنه : من سلت الله أنفه وألصق خذّه بالأرض . قال : فأخذ المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني . ثم قلت : يا أمير المؤمنين قد سأل جدك العباس النبي صلى الله عليه وسلم إمارة مكة أو الطائف أو الين فقال له النبي عليه السلام « يا عباس يا أعمى النبي نفس تحيها خير من إمارة لا تحصيها (٢) » ، نصيحة منه لعمه وشفقة عليه وأخبره أنه لا يغنى عنه من الله شيئا إذ أوحى الله إليه ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ فقال « يا عباس وياصفية عمن النبي ويافاطمة بنت محمد إني لست أغنى عنكم من الله شيئا إني لى عملى ولكم عملكم (٣) » ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل أريب العقد لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه على حرّة ولا تأخذه في الله لومة لائم . وقال : الأمراء أربعة ؛ فأمر قوى ظلف نفسه وعماله فذلك كالجاهد في سبيل الله يد الله بأسطة عليه بالرحمة ، وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله ، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « شر الرعاة الحطمة فهو الهالك وحده (٤) » ، وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعا . وقد بلغنى يا أمير المؤمنين أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة ، فقال له : يا جبريل صف لى النار فقال : إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احترت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة لا يضىء جمرها ولا يطفأ لها ، والذى بعثك بالحق لو أن ثوبا من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعا ولو أن ذنوبا من شرابها صب فى مياه الأرض جميعا لقتل من ذاقه ولو أن ذراعا من السلسلة التى ذكرها الله وضع على جبال الأرض جميعا لذابت وما استقلت ، ولو أن رجلا أدخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه ؛ فبكى النبي صلى الله عليه وسلم وبكى جبريل عليه السلام لبكائه فقال : أتبكي يا محمد وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال « أفلا أكون عبدا شكورا ولم بكيت يا جبريل وأنت الروح الأمين أمين الله على وحيه ، قال : أخاف أن أبلى بما ابتلى به هاروت وماروت فهو الذى منعنى من اتكالى على منزلتى عند ربى فأكون قد أمنت مكره فلم يزالا يبيكان حتى نوديا من السماء : يا جبريل ويا محمد إن الله قد آمنكما أن تعصياه فيعذبكما وفضل محمد على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة (٥) » ، وقد بلغنى يا أمير المؤمنين أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : اللهم إن كنت تعلم أنى أبالى إذا قعد

(١) حديث عبد الرحمن بن عمر : أن عمر استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة ... الحديث . وفيه مرفوعا « مامن والى بلى شيئا من أمور الناس إلا أنى الله يوم القيامة ملولة يده لى عنه ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من هذا الوجه ورواه الطبراني من رواية سويد بن عبد العزيز عن يسار بن أبى الحكم عن أبى وائل : أن عمر استعمل بصر بن عاصم فذكر أخصر منه ، وأن بصرا سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم يذكر فيه : سلمان (٢) حديث « يا عباس يا أعمى النبي نفس تحيها خير من إمارة لا تحصيها » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا معضلا بنير أساد ورواه البيهقي من حديث جابر متصلا ومن رواية ابن المنكدر مرسلًا وقال هذا هو المحفوظ مرسلًا (٣) حديث « يا عباس وياصفية ويافاطمة لا أغنى عنكم من الله شيئا لى عملى ولكم عملكم » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا معضلا دون إسناد ورواه البخارى من حديث أبى هريرة متصلا دون قوله « لى عملى ولكم عملكم » (٤) حديث « شر الرعاة الحطمة » رواه مسلم من حديث عائذ بن عمرو المزنى متصلا وهو عند ابن أبى الدنيا من الأوزاعي معضلا كما ذكره المصنف . (٥) حديث : بلغنى أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار وضعت على النار تسعر ليوم القيامة ... الحديث بطوله أخرجه ابن أبى الدنيا فيه هكذا معضلا بنير إسناد .

الخصمان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين . يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه وإن أكرم الكرم عند الله التقوى وأنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه . فهذه نصيحتي إليك والسلام عليك . ثم نهضت فقال لي : إلى أين ؟ فقلت : إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله ، فقال : قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها والله الموفق للخير والمعين عليه . وبه أستعين وعليه أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثل هذا فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة . قلت : أفعل إن شاء الله . قال محمد بن مصعب : فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال : أنا في غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا . وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في ذلك . وعن ابن المهاجر قال : قدم أمير المؤمنين المنصور مكة شرفها الله حاجا ، فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يعلم به ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلى بالناس ، فخرج ذات ليلة حين أبحر فبينما هو يطوف إذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأسرع المنصور في مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله ، ثم خرج مجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه فأتاه الرسول وقال له : أجب أمير المؤمنين ، فصلي ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه فقال له المنصور : ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع ؛ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن أمتني على نفسي أبتأتك بالأمور من أصولها وإلا اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل ، فقال له : أنت آمن على نفسك فقال : الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض أنت . فقال : ويحك وكيف يدخلي الطمع والصفراء والبيضاء في يدي والحلو والحامض في قبضتي ؟ قال : وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ؟ إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأمورهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وحجة معهم السلاح ، ثم سمحت نفسك فيها منهم وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها وانحدت وزراء وأعوانا ظلمة إن نسيت لم تذكروك وإن ذكرت لم يعينوك وقوتهم على ظلم الناس بالأموال والكرام والسلاح وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العارى ولا الضعيف ولا الفقير ، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق فلما رأيته هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وأثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يجربوا عنك تجي الأموال ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا ؟ فامتنروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعظمهم الناس وهابوهم وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقوا بهم على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لئلا يواظم من دونهم من الرعية فامتلات بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل ؛ فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم ؛ فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بظانك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو

ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه ؛ فإذا جهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير ؛ فما بقاء الإسلام وأهله على هذا ؛ ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينهين إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته إليهم فينصف ؛ ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادي : يا أهل الإسلام فيبتدرونه مالك مالك فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينصف ؛ ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك فقد متها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكي فقال له وزراؤه : مالك تبكي لأبكت عيناك ؟ فقال : أما إنني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ولكن أبكي للمظلوم يصرخ بالبواب فلا أسمع صوته ، ثم قال : أما إن كان قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب نادوا في الناس : ألا لا يلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوما فينصفه ؟ هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه في ملكه ، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شح نفسك ؛ فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة ؛ إن قلت اجمعها لولدي فقد أراك الله عبرا في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال ، وما من مال إلا ودونه يدشحيحة تحويه فايزال الله تعالى يلفظ بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ولست الذي تعطى بل الله يعطي من يشاء ، وإن قلت : أجمع المال لأشيد سلطاني . فقد أراك الله عبرا فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة وما أعتدوا من الرجال وال سلاح والكرام وماضرك وولد أبيك ما كتمت فيه من قلة الجدة والضعف حين أباد الله بكم ما أراد . وإن قلت أجمع المال . لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيته بأشد من القتل ؟ قال : لا ، قال : فكيف تصنع بالملك الذي خولك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الآليم وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضرته جوارحك ؟ فماذا تقول إذا انتزع الملك الحق المين ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ؟ هل يغني عنك عنده شيء مما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا ؟ فبكي المنصور بكاء شديدا حتى نحى وارتفع صوته ثم قال . ياليتني لم أخلق ولم أك شيئا ، ثم قال : كيف احتيالي فيما خولت فيه ولم أر من الناس إلا خائفا ؟ قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الاعلام المرشدين قال : ومن هم ؟ قال : العلماء ، قال : قد فروا مني ، قال : هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك ، ولكن افتح الأبواب وسهل الحجاب واتمصر للمظلوم من الظالم وامنع المظالم وخذ الشيء مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل وأنا ضامن على أن من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيته . فقال المنصور : اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل . وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصلي بهم ثم قال للحرس : عليكم بالرجل إن لم تأتني به لأضربن عنقك ، واغتاظ عليه غيظا شديدا فخرج الحرس يطلب الرجل فيينا هو يطوف فإذا هو بالرجل يصلي في بعض الشعاب فقعده حتى صلى ثم قال : ياذا الرجل أمتتني الله ؟ قال : بلى ، قال : أما تعرفه ؟ قال : بلى ، قال : فانطلق معي إلى الأمير فقد آلى أن يقتلني إن لم آت به بك ، قال : ليس لي ذلك من سبيل ، قال : يقتلني ، قال : لا ، قال : كيف ؟ قال : تحسن تقرأ ، قال : لا ، فأخرج من مزود كان معه رقما مكتوبا فيه شيء فقال : خذه فاجعله في جيبيك فإن فيه دعاء الفرج ، قال : وما دعاء الفرج ؟ قال : لا يرزقه إلا الشهداء ، قلت : رحمك الله قد أحسنت إلى فإن رأيت أن تخبرني ما هذا الدعاء وما فضله ؟ قال : من

دعابه مساء وصباحا هدمت ذنوبه ودام سروره ومحبت خطاياہ واستجيب دعاؤه وبسط له رزقه وأعطى أملة وأعین على عدوه وكتب عند الله صديقا ولا يموت إلا شهيدا ، تقول . اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلست ماتحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك ، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذی سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لی من كل هم أسيت فيه فرجا ومخرجا . اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك مالا أستوجه بما قصرت فيه أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا وإنك المحسن إلى وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك تتودد إلى بنعمك وأتبغض إليك بالمعاصي ولكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك فعد بفضلك وإحسانك على إنك أنت التواب الرحيم . قال . فأخذته فصيرته في جيبی ثم لم يكن لي هم غير أمير المؤمنين فدخلت فسلمت عليه فرفع رأسه فنظر إلى وتبسم ثم قال . ويا لك وتحسن السحر ؟ فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ثم قصص عليه أمری مع الشيخ فقال . هات الرق الذي أعطاك ، ثم جعل يبكي وقال . وقد نجوت ، وأمر بنسخه وأعطاني عشرة آلاف ، ثم قال . أتعرفه ؟ قلت . لا ، قال ذلك الخضر عليه السلام .

وعن أبي عمران الجوني قال : لما ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنوه بما صار إليه من أمر الخلافة ففتح بيوت الأموال وأقبل يحجزهم بالجواز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ، وكان يظهر النسك والتقشف ، وكان مؤاخيا لسفيان بن سعيد بن المنذر الثوري فديما فهجره سفيان ولم يزره ، فاشتاق هرون إلى زيارته ليخلوا به ويحدثه فلم يزره ولم يعبا بموضعه ولا بما صار إليه ، فاشتد ذلك على هرون فكتب إليه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر أما بعد ، يا أخي قد علمت أن الله تبارك وتعالى وإخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله واعلم أني قد واخيتك مواعاة لم أصرم بها جلك ولم أقطع منها ودك وإني منطو لك على أفضل المحبة والإرادة ، ولولا هذه القلادة التي قلديها الله لانيتهك ولو حبوا لما أجد لك في قلبي من المحبة ، واعلم يا أبا عبد الله أنه مابق من إخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهناني بما صرت إليه وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجواز السنية ما فرحت به نفسي وقرت به عيني وإني استبطأتك فلم تأتني ، وقد كتبت لك كتابا شوقا مني إليك شديدا ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فإذا ورد عليه كتابي فالعجل العجل . فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده فإذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشوته فقال : على برجل من الباب ، فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقاني . فقال : يا عباد خذ كتابي هذا فانطلق به إلى الكوفة فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور ، ثم سل عن سفيان الثوري فإذا رأيته فالتق كتابي هذا إليه وع بسمك وقلبك جميع ما يقول فأحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرني به . فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد إليها ثم سأل عن سفيان فقيل له هو في المسجد . قال عباد : فأقبلت إلى المسجد فلما رأيته قام قائما وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير . قال عباد : فوقعت الكلمة في قلبي فخرحت ، فلما رأيته نزلت بباب المسجد قام يصلي ولم يكن وقت صلاة ، فربطت فرسي بباب المسجد ودخلت فإذا جاساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته ، فسلمت فما رفع أحد إلى رأسه وردوا السلام على برؤوس الأصابع ، فبقيت واقفا فما منهم أحد يعرض على الجلوس وقد علاني من هيبتهم الرعدة (٤٥ — إحياء علوم الدين — ٢)

ومددت عيني إليهم فقلت إن المصلي هو سفيان فرميت بالكتاب إليه . فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه فركع وسجد وسلم وأدخل يده في كمه ولفها بعباءته وأخذه ، فقلبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه وقال : يأخذه بعضكم يقرؤه فإني أستغفر الله أن أمس شيئاً منه ظالم بيده . قال عباد : فأخذه بعضهم خله كأنه خائف من فم حية تنهشه ، ثم فضه وقرأه ، وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب فلما فرغ من قراءته قال : اقبلوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه ، فقيل له : يا أبا عبد الله إنه خليفة فلو كتبت إليه في قرطاس نقي . فقال : اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزي به ، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصل به ولا يبقى شيء منه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا . فقيل له : مانكتب ؟ فقال اكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري إلى العبد المغرور بالآمال هرون الرشيد الذي سلب حلاوة الإيمان . أما بعد : فإني قد كتبت إليك أعرفك أني قد صرمت حبلك وقطعت ودك وقليت موضعك فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقت في غير حقه وأنفدته في غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناه عنى حتى كتبت إلى تشهدني على نفسك . أما إني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك وستودى الشهادة عليك غدا بين يدي الله تعالى ، ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأراذل والأيتام ؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعييتك ؟ فقد يا هرون مترك وأعد للسألة جواباً وللبلاد جلباباً ، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل فقد رزمت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً للظالمين إماماً ، ياهرون قعدت على السرير ولبست الحرير وأسبلت سترآدون بابك وتشبهت بالحجة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنالك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفون ؟ يشربون الخمر ويضربون من يشربها ، ويزنون ويحدون الزاني ؟ ويسرقون ويقطعون السارق ؟ أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ أي الظلمة وأعوان الظلمة فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار ، كأنى بك يا هرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك زيادة عن سيئاتك ، بلام على بلام وظلمة فوق ظلمة ، فاحفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها ، واعلم أني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصيحة غاية ، فاتق الله ياهرون في رعييتك واحفظ بمحمد صلى الله عليه وسلم في أمته وأحسن الخلافة عليهم ، واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحد بعد واحد فمنهم من تزود زاداً نفعه ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، وإني أحسبك ياهرون من خسر دنياه وآخرته فإياك إياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام . قال عباد : فالتقي إلى الكتاب منشوراً غير مطوى ولا محتوم فأخذه وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي فناديت : يا أهل الكوفة ، فأجابوني فقلت لهم : يا قوم من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله ؟ فأقبلوا إلى بالدنانير والدراهم ، فقلت : لا حاجة لي في المال ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية ، قال : فأتيت بذلك ونزعت ما كان على من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين ،

وأقبلت أفود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هرون حافيا راجلا ، فها أنا من كان على باب الخليفة . ثم استؤذن لي فلما دخلت عليه وبصرني على تلك الحالة قام وقعد ، ثم قام قائما وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول : انتفع الرسول وخاب المرسل مالى والدنيا مالى والملك يزول عني سريعا ؟ ثم ألقيت الكتاب إليه منشورا كما دفع إلي . فأقبل هرون يقرؤه ودموعه تتحدر من عينيه ويقرأ ويشق فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين لقد اجتراً عليك سفيان فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيق عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره . فقال هرون : أتركونا يا عبيد الدنيا ، المغرور من غرتموه والشقي من أهلكتموه ، وإن سفيان أمة وحده فتركوا سفيان وشأنه . ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله . فرحم الله عبدا نظر لنفسه واتقى الله فيما يقدم عليه غدا من عمله فإنه عليه ينحاسب وبه يجازى والله ولي التوفيق .

وعن عبد الله بن مهران قال : حج الرشيد فوافي الكوفة فأقام بها أياما ثم ضرب بالرحيل ، فخرج الناس ، وخرج بهلول المجنون فيمن خرج بالكناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به ؛ إذ أقبلت هواج هرون فكف الصبيان عن الولوع به فلما جاء هرون نادى بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين فكشف هرون السجاف بيده عن وجهه فقال : لبيك يا بهلول فقال : يا أمير المؤمنين ؛ حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفة على ناقه له صهباء ؛ لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك^(١) وتواضعك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك وتجبرك . قال : فبكى هرون حتى سقطت دموعه على الأرض ، ثم قال : يا بهلول زدنا رحمك الله قال : نعم يا أمير المؤمنين ، رجل آتاه الله مالا وجالا فأنتفق من ماله وعف في جماله كتب في خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار . قال : أحسنت يا بهلول ، ودفع له جائزة : فقال : اردد الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لي فيها ، قال : يا بهلول فإن كان عليك دين قضيناه ، قال : يا أمير المؤمنين هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن قضاء الدين بالدين لا يجوز . قال : يا بهلول فنجري عليك مايقوتك أو يقيمك ، قال : فرفع بهلول رأسه إلى السماء ثم قال : يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله فحال أن يذكرك وينساني . قال : فأسبل هرون السجاف ومضى .

وعن أبي العباس الهاشمي عن صالح بن المأمون قال : دخلت على الحرث المحاسبي رحمه الله فقلت له : يا أبا عبد الله هل حاسبت نفسك ؟ فقال : كان هذا مرة ، قلت له : فاليوم ؟ قال : أكأتم حالي ؛ إني لأقرأ آية من كتاب الله تعالى فأضن بها أن تسمعها نفسي ولولا أن يغلبني فيها فرح ما أعلنت بها . ولقد كنت ليلة قاعدا في محرابي فإذا أنا بفتى حسن الوجه طيب الرائحة فسلم علي ثم قعد بين يدي فقلت له من أنت ؟ فقال : أنا واحد من السياحين أقصد الملتعبدين في محاريبهم ولا أرى لك اجتهدا فأى شيء عملك ؟ قال : قلت له ؛ كتمان المصائب واستجلاب الفوائد ، قال : فصاح وقال : ما علمت أن أحدا بين جنبي المشرق والمغرب هذه صفته ؟ قال الحرث : فأردت أن أزيد عليه فقلت له : أما علمت أن أهل القلوب يخفون أحوالهم ويكتمون أسرارهم ويسألون الله كتمان ذلك عليهم فنأين تعرفهم ؟ قال : فصاح صيحة غشى عليه منها فكك عندى يومين لا يعقل ، ثم أفاق وقد أحدث في ثيابه ، فعدلت إزالته عقله فأخرجت له

(١) حديث قدامة بن عبد الله العامري : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفة على ناقه له صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك . أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه دون قوله منصرفا من عرفة وإنما قالوا : يرى الجرة ، وهو الصواب وقد تقدم في الباب الثاني .

ثوباً جديداً وقلت له : هذا كفى قد آثرتك به فاغتسل وأعد صلاتك فقال : هات الماء فاغتسل وصلى ثم التحف بالثوب وخرج فقلت له : أين تريد ؟ فقال لي ؟ قم معي ، فلم يزل يمشي حتى دخل على المأمون فسلم عليه وقال : يا ظالم أنا ظالم إن لم أقل لك يا ظالم ، أستغفر الله من تقصيري فيك ، أما اتقي الله تعالى فيما قد ملكك ؟ وتكلم بكلام كثير ثم أقبل يريد الخروج وأنا جالس بالباب فأقبل عليه المأمون وقال : من أنت ؟ قال : أنا رجل من السياحين فكرت فيما عمل الصديقون قبل فلم أجده لنفسى فيه حظاً فتملكت بموعظتك لعل الحقهم ، قال : فأمر بضرب عنقه ، فأخرج وأنا قاعد على الباب ملفوفاً في ذلك الثوب ومناد ينادى : من ولي هذا فليأخذ ، قال الحرث : فاختبأت عنه فأخذه أقوام غرباء فدفعوه وكنتم معهم لا أعلمهم بحاله . فأقمت في مسجد بالمقابر محزوناً على الفتى فغلبتني عيناي فإذا هويين وصائف لم أر أحسن منهم وهو يقول : يا حارث أنت والله من الكاثمين الذين يخفون أحوالهم ويعطيون ربههم ، قلت : وما فعلوا ؟ قال الساعة يلقيونك ، فنظرت إلى جماعة ركبان فقلت : من أنتم ؟ قالوا : الكاثمون أحوالهم حرك هذا الفتى كلامك له فلم يكن في قلبه مما وصفت شيء فخرج للأمر والنهي وإن الله تعالى أنزله معنا وغضب لعبده .

وعن أحمد بن إبراهيم المقرئ قال : كان أبو الحسين النوري رجلاً قليل الفضول لا يسأل عمالاً يعنيه ولا يفتش عما لا يحتاج إليه ، وكان إذا رأى منكراً غيره ولو كان فيه تلفه ، فنزل ذات يوم إلى مشرعة تعرف بمشركة الفحامين يتطهر للصلاة إذ رأى زورقاً فيه ثلاثون دناء مكتوب عليها بالقار د لطف ، فقرأه وأنكره لأنه لم يعلم في التجارات ولا في البيوع شيئاً يعبر عنه بلطف . فقال للملاح : إيش في هذه الدنان ؟ قال : وإيش عليك امض في شغلك ؟ فلما سمع النوري من الملاح هذا القول ازداد تعطشا إلى معرفته فقال : أحب أن أخبرني إيش في هذه الدنان ؟ قال : وإيش عليك أنت والله صوفي فضولي ، هذا خمر للمعتضد يريد أن يتم به مجلسه ؟ فقال النوري : وهذا خمر ؟ قال : نعم ، فقال : أحب أن نعطيني ذلك المدرى ، فاغتاط الملاح عليه وقال لغلامه : أعطه حتى أنظر ما يصنع ، فلما صارت المدرى في يده صعد إلى الزورق ولم يزل يكسرها دنا حتى أتى على آخرها إلا دنا واحداً ، والملاح يستغيث ، إلى أن ركب صاحب الجسر وهو يومئذ ابن بشر أفلح فقبض على النوري وأشخصه إلى حضرة المعتضد . وكان المعتضد سيفه قبل كلامه ولم يشك الناس في أنه سيقتله . قال أبو الحسين : فدخلت عليه وهو جالس على كرسي حديد ويده عمود يقلبه فلما رآني قال : من أنت ؟ قلت : محتسب ، قال : ومن ولاك الحسبة ؟ قلت : الذي ولاك الإمامة ولا في الحسبة يأمر المؤمنين ، قال : فأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال : ما الذي حملك على ما صنعت ؟ فقلت : شفقة منى عليك إذ بسطت يدي إلى صرف مكروه عنك فقصرت عنه . قال فأطرق مفكراً في كلامي ثم رفع رأسه إلى وقال : كيف تخلص هذا الدين الواحد من جملة الدنان ؟ فقلت : في تخلصه علة أخبر بها أمير المؤمنين إن أذن ، فقال : هات خبرني ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنني أقبلت على الدنان بمطالبة الحق سبحانه لي بذلك وغمر قلبي شاهد الإجلال للحق وخوف المطالبة فغابت هيبه الخلق عني فأقدمت عليها بهذه الحال إلى أن صرت إلى هذا الدين فاستشعرت نفسى كبراً على أني أقدمت على مثلك ففعلت ولو أقدمت عليه بالحال الأول وكانت ملء الدنيا دنان لكسرتها ولم أبال ، فقال المعتضد : اذهب فقد أطلقنا يدك غير ما أحببت أن تغيره من المنكر . قال أبو الحسين فقلت : يا أمير المؤمنين بنض إلى التغيير لأنني كنت أغير عن الله تعالى وأنا الآن أغير عن شرطي فقال المعتضد : ما حاجتك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين تأمر بإخراجي سالماً فأمر له بذلك وخرج إلى البصرة ، فكان أكثر أيامه بها خوفاً من أن يسأله أحد حاجة يسألها المعتضد ، فأقام بالبصرة إلى توفي المعتضد ثم رجع إلى بغداد .

فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين لسكونهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يجرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فليتها وأزال قساوتها . وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا وإن تسكعوا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لافلحوا . ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر ؟ والله المستعان على كل حال .

تم كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحمد الله وعونه وحسن توفيقه

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

وهو الكتاب العاشر : من ربيع العادات الثاني من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه ، وأدب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فأحسن تأديبه ، وزكى أوصافه وأخلاقه ثم اتخذته صفيه وحيثيه ، ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه ؛ وحرّم عن التخلق بأخلاقه من أراد تخييبه وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيرا .

أما بعد : فإن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن ، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر ، والأعمال نتيجة الأخلاق والآداب رشح المعارف ، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها ، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها ، وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساوئها . ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه . ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يفيض على ظاهره جمال الآداب النبوية ، ولقد كنت عزمت على أن أختم ربيع العادات من هذا الكتاب بكتاب جامع لآداب المعيشة لثلاثين على طلبها استخراجها من جميع هذه الكتب ، ثم رأيت كل كتاب من ربيع العادات قد أتى على جملة من الآداب فاستثقلت تكريرها وإعادتها ، فإن طلب الإعادة ثقيل والنفوس مجبولة على معاداة المعادات ، فرأيت أن أقصر في هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقه المأثورة عنه بالإسناد فأسردتها بمجموعة فصلا فصلا مخدوفة الأسانيد ليجتمع فيه مع جميع الآداب تجديد الإيمان وتأكيده بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي شهد آحادها على القطع بأنه أكرم خلق الله تعالى وأعلام رتبة وأجلهم قدرا فكيف بمجموعها ؟ ثم أضيف إلى ذكر أخلاقه ذكر خلقته ثم ذكر معجزاته التي صحت بها الأخبار ليكون ذلك معربا عن مكارم الأخلاق والشيم ، ومنزعا عن آذان الجاحدين لنبوته صمام الصمم . والله تعالى ولي التوفيق للاقتداء بسيد المرسلين في الأخلاق والأحوال وسائر معالم الدين فإنه دليل المتحيرين ومجيب دعوة المضطرين . ولندكر فيه أولا بيان تأديب الله تعالى إياه بالقرآن ، ثم بيان جوامع من محاسن أخلاقه ، ثم بيان جملة من آدابه وأخلاقه ، ثم بيان كلامه وخطبه ، ثم بيان أخلاقه وآدابه في الطعام ، ثم بيان أخلاقه وآدابه في اللباس ، ثم بيان عفوه مع القدرة ثم بيان لغضائه عما كان يكره ، ثم بيان سخاوته وجوده ، ثم بيان شجاعته وبأسه ، ثم بيان تواضعه ، ثم بيان صورته وخلقته ، ثم بيان جوامع معجزاته وآياته صلى الله عليه وسلم .

بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالقرآن

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال من الله تعالى أن يزنيه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول في دعائه اللهم حسن خلقي وخلقي ^(١) ، ويقول اللهم جنبني منكرات الأخلاق ^(٢) ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وفاء بقوله عز وجل ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ فأنزل عليه القرآن وأدبه به فكان خلقه القرآن .

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة رضى الله عنها وعن أبيها فسألتهما عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ^(٣) .

وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ وقوله ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذی القربىٰ وينهى عن الفحشاء والمنکر والبغی ﴾ وقوله ﴿ واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ وقوله ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ وقوله ﴿ فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ وقوله ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ وقوله ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ وقوله ﴿ والكاظمين الغیظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ وقوله ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ ولما كسرت رباعيته وشج يوم أحد فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسخ الدم ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم ^(٤) ، فأنزل الله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ تأديبا له على ذلك .

وأمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهديب ، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق فإنه أدب بالقرآن وأدب الخلق به ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ^(٥) ، ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق بما أوردناه في كتاب رياضة النفس وتهديب الأخلاق فلا نعيده ، ثم لما أكمل الله تعالى خلقه أمنى عليه فقال تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ فسبحانه ما أعظم شأنه وأنتم امتنانه ثم انظر إلى عظيم لطفه وعظيم فضله كيف أعطى ثم أمنى ؟ فهو الذى زينه بالخلق الكريم ثم أضاف إليه ذلك فقال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ثم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفاسفها ^(٦) قال على رضى الله عنه يا عجا لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق فإنها بما تدل على سبيل النجاة . فقال له رجل : أسمعته من رسول الله

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

- (١) حديث : كان يقول فى دعائه « اللهم حسن خلقي وخلقي » أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود ومن حديث عائمة ولفظها « اللهم أحسن خلقي فأحسن خلقي » وإسنادهما جيد وحديث ابن مسعود رواه ابن حبان (٢) حديث « اللهم جنبني منكرات الأخلاق » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه واللفظ له من حديث قنبل بن مالك وقال الترمذى « اللهم إني أعوذ بك » (٣) حديث سعد بن هشام : دخلت على عائشة فسألتهما عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن . رواه مسلم وروى الحاكم فى قوله لهما لم يخرجاه . (٤) حديث : كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم يوم أحد ... الحديث ، فى نزوله « ليس لك من الأمر شيء » أخرجه مسلم من حديث أنس وذكره البخارى تعليقا (٥) حديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » أخرجه أحمد والحاكم والبيهقى من حديث أبى هريرة قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وقد تقدم فى آداب الصحبة . (٦) حديث « لمن الله يحب معالى الأخلاق ويبغض سفاسفها » أخرجه البيهقى من حديث سهل بن سعد متصلا ومن رواية طلحة بن عبيد الله بن كريب مرسلًا ورجالهما ثقات .

صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟ فقال نعم وما هو خير منه لما أتى بسبايا طي^(١) وقفت جارية في السبي فقالت : يا محمد إن رأيت أن تخلى عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإنى بنت سيد قومي وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم الطائي . فقال صلى الله عليه وسلم « يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباه كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق » فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله ؛ الله يحب مكارم الأخلاق ؟ فقال « والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق ^(٢) » وعن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ^(٣) » ومن ذلك حسن المعاشرة وكرم الصنيعة ولين الجانب وبذل المعروف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وعيادة المريض المسلم برا كان أو فاجرا وتشجيع جنازة المسلم وحسن الجوار لمن جاورت - مسلما كان أو كافرا - وتوقير ذى الشبهة المسلم وإجابة الطعام والدعاء عليه والعفو والإصلاح بين الناس والجود والكرم والسماحة والابتداء بالسلام وكظم الغيظ والعفو عن الناس واجتناب ما حرمه الإسلام من اللهو والباطل والغناء والمعارف كلها وكل ذى وتر وكل ذى دخل والغابة والكذب والبخل والشح والجفاء والمكر والخديعة والتميمة وسوء ذات البين وقطيعة الأرحام وسوء الخلق والتكبر والفخر والاختيال والاستطالة والبذخ والفحش والتفحش والحدق والحسد والطيرة والبغى والعدوان والظلم . قال أنس رضى الله عنه . فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها ولم يدع غشا - أو قال عيبا ، أو قال شيئا - إلا حذرناه ونهاهنا عنه ^(٤) ويكفى من ذلك كله هذه الآية ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية وقال معاذ : أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا معاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح ، وأنهاك أن تسب حكيما أو تكذب صادقا أو تطيع أثما أو تعصى إماما عادلا أو تفسد أرضا وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية ^(٥) » فهكذا أدب عباد الله ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار

فقال : كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس ^(٦) وأشجع الناس ^(٧) وأعدل الناس ^(٨) وأعف الناس لم تمس يده قط

(١) حديث على قوله : وأعجبا لرجل مسلم يميته أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للغير أملا ... الحديث . وفيه مرفوعا « لما أتى بسبايا طي^(١) وقفت جارية في السبي فقالت : يا محمد إن رأيت أن تخلى عني ... الحديث أخرجه الترمذى الحسكى في نوادر الأصول بإسناد فيه ضعف (٢) حديث معاذ « حب الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ... الحديث » بطوله لم أقف له على أصل وينبئ عنه حديث معاذ الآتى بعده بحديث (٣) حديث أنس : لم يدع صلى الله عليه وسلم نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها . لم أقف له على إسناد وهو صحيح من حيث الواقع (٤) حديث « يا معاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقى في الزهد وقد تقدم في آداب الصلوة (٥) حديث : كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس . أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عبد الرحمن بن أبيزى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحلم الناس ... الحديث . وهو مرسل . وروى أبو حاتم بن حبان من حديث عبد الله بن سلام في قصة اسلام زيد بن شعث من أخبار اليهود وقول زيد لعمر بن الخطاب : يا عمر كل علامات النبوة قد عرفت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه الا اثنتين لم أخبرهما منه يسبق حلمه جهله ولا تزيد شدة الجهل عليه الا حلما فقد اختبرتهما .. الحديث (٦) الحديث : أنه كان أشجع الناس . متفق عليه من حديث أنس (٧) حديث : كان أعدل الناس . أخرجه الترمذى في المعامل من حديث على بن أبى طالب في الحديث الطويل في صفته صلى الله عليه وسلم : لا ينصر عن الحق ولا يجاوز . وفيه :

يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه ^(١) وكان أسخى الناس ^(٢) لا يبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه ونجاء الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه ^(٣) لا يأخذ بما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله ^(٤) لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ^(٥) ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأتته شيء ^(٦) وكان ينخسف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله ^(٧) ويقطع اللحم معهن ^(٨) وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد ^(٩) ويجيب دعوة العبد والحر ^(١٠) ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو نخذ أرنب ويكافئ عليها ^(١١)

= قد وسع الناس بسطه وخافه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء .. الحديث . وفيه من لم يسم ^(١) حديث : كان أعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم له . أخرجه الشيخان من حديث عائشة : مامست يدا رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا امرأة يملكها ^(٢) حديث : كان صلى الله عليه وسلم أسخى الناس . أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس : « فضل على الناس بأربع . بالسخاء والشجاعة ... الحديث . ورجاله ثقات . وقال صاحب الميزان إنه منكر وفي الصحيحين من حديثه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس واتفقا عليه من حديث ابن عباس . وتقدم في الزكاة ^(٣) حديث : كان لا يبيت عنده دينار ولا درهم قط وإن فضل ولم يجد من يعطيه ونجاء الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه . أخرجه أبو داود من حديث بلال في حديث طويل فيه : أهدى صاحب فدك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركائب عليهن كسوة وطعام وبيع بلال فدك وطاء دينه ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد وحده . وفيه : قال « فضل شيء » قلت : نعم ، دينار قال « انظر أن تريهني منها فلست بدخل على أحد من أهلي حتى تريهني منها » فلم يأتنا أحد فأتنا في المسجد حتى أصبح وظل في المسجد اليوم الثاني حتى إذا كان في آخر النهار جاء راكبان فاطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما حتى إذا صلى الغداة دعاني فقال « ما فعل الذي قبلك ؟ » قلت : قد أراحك الله منه ؛ فكبر وحده الله شفقاً من أن يترك الموت وعنده ذلك ثم اتبعته حتى جاء أزواجه ... الحديث . وللبخاري من حديث عتبة بن الحارث : ذكرت وأنا في الصلاة فكرهت أن يمسي ويبيت عندنا فأمرته بقسمته . ولأبي عبيد في غريبه من حديث الحسن بن محمد مرسل : كان لا يقبل مالا عنده ولا يبيته ^(٤) حديث : كان لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله . متفق عليه بنحوه من حديث عمر بن الخطاب وقد تقدم في الزكاة .

^(٥) حديث : كان لا يسأل شيئاً إلا أعطاه . أخرجه الطيالسي والدارمي من حديث سهل بن سعد وللبخاري من حديثه : في الرجل الذي سأله الشمة فقل له سألتك إياها وقد علمت أنه لا يرد سائلاً ... الحديث . وسلم من حديث أنس : ما سأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه . وفي الصحيحين من حديث جابر : ما سأل شيئاً قط فقال : لا ^(٦) حديث : أنه كان يؤثر ما ادخر لعياله حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام . هذا معلوم ويدل عليه ما رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم توفي ودرعه مرهونة بعشرين صاعاً من طعام أخذ لأهله . وقال ابن ماجه بثلاثين صاعاً من شعير . وإسناده جيد والبخاري من حديث عائشة : توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين . وفي رواية البيهقي : بثلاثين صاعاً من شعير . ^(٧) حديث : وكان صلى الله عليه وسلم ينخسف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله . أخرجه أحمد من حديث عائشة : كان ينخسف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته . ورجاله رجال الصحيح ورواه أبو الشيخ بلفظ : ويرقع الثوب . وللبخاري من حديث عائشة : كان يسكن في مهنة أهله .

^(٨) حديث : أنه كان يقطع اللحم . أخرجه أحمد من حديث عائشة : أرسل إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلاً فأمسكت وقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأقالت - فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعت . وفي الصحيحين من حديث عبد الرحمن ابن أبي بكر في أثنا حديث : وإيم الله مامن الثلاثين ومائة إلا حز له رسول الله صلى الله عليه وسلم من سواد بطنها . ^(٩) حديث : كان من أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد . أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها ^(١٠) حديث : كان يجيب دعوة العبد والحر . أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أنس : كان يجيب دعوة المملوك . قال الحاكم صحيح الإسناد . قلت : بل ضعيف وللبخاري في غرائب مالك وضعفه والمطيب في أسماء من روى عن مالك من حديث أبي هريرة : كان يجيب دعوة العبد إلى أي طعام دعى ويقول « لودعيت إلى كراع لأجبت » . وهذا بمومه دال على إجابة دعوة الحر وهذه القطعة الأخيرة عند البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم وروى ابن سعد من رواية حمزة بن عبد الله بن عتبة : كان لا يدعوه أحر ولا أسود من الناس إلا إجابته ... الحديث . وهو مرسل ^(١١) حديث : كان يقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو نخذ أرنب ويكافئ عليها أخرجه البخاري من حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها . وأما ذكر : جرعة اللبن ، ونخذ الأرنب . ففي الصحيحين من حديث أم الفضل : أنها أرسلت بقدر لبن إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو واقف برفة فشربه . ولأحمد من =

ويأكلها ولا يأكل الصدقة ^(١) ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين ^(٢) يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ^(٣) وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه . وعرض عليه الانتصار بالمشركون على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه فأبى وقال : أنا لا أنتصر بمشرك ^(٤) وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحى بل وداه بمائة ناقة وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقون به ^(٥) وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع ^(٦) ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال وإن وجد تمرادون خبزاً كله ^(٧) وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبز ير أو شعيراً أكله وإن وجد حلوا أو عسلاً أكله وإن وجد لبناً دون خبز اكتفى به وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله ، لا يأكل متكثاً ^(٨) ولا على خوان ^(٩) منديله باطن قدميه ^(١٠) لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية ^(١١) حتى لقي الله تعالى إيثارا على نفسه لا فقرا ولا بخلا يجيب الولية ^(١٢)

= حديث عائشة : أهدت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لنا ... الحديث . وفي الصحيحين من حديث أنس : أن أباطلحة بنت بورك أرنب أو نخذهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبله ^(١) حديث : كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم ^(٢) حديث : كان لا يستكبر أن يعمى مع المسكين . أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبد الله بن أبي أوفى بسند صحيح وقد تقدم في الباب الثاني من آداب الصحبة ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري وقال صحيح على شرط الشيخين ^(٣) حديث : كان يغضب لربه ولا يغضب لنفسه . أخرجه الترمذي في المعجمين من حديث هند بن أبي هالة وفيه : وكان لا تغضب الدنيا وما كان منها فإذا تمضى الحق لم يبق له نصيب شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . وفيه لم يسم ^(٤) حديث : وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه وعلى أصحابه عرض عليه الانتصار بالمشركون على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه فأبى وقال : أنا لا أستنصر بمشرك ^(٥) أخرجه مسلم من حديث عائشة : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان بحجرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرج به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه فلما أدركه قال جئت لأبئك وأصيب معك فقال له : « أتؤمن بالله ورسوله » قال : لا . قال : « فارجع فلن أستعين بمشرك » ... الحديث ^(٦) حديث : وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم فوداه بمائة ناقة . الحديث . متفق عليه من حديث سهل بن أبي حثمة ورافع بن خديج والرجل الذي وجد مقتولا هو عبد الله ابن سهل الأنصاري .

^(٦) حديث : كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع . متفق عليه من حديث جابر في قصة حفر الخندق وفيه : فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم شد على بطنه حجرا ؛ وأغرب ابن حبان فقال في صحيحه لأنما هو الحجز - بضم الحاء وآخره زاي - جمع حجرة وليس يحتاج على ذلك . ويرد على ذلك ما رواه الترمذي من حديث أبي طلحة : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفنا عن بطونا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين . ورجاله كلهم ثقات ^(٧) حديث : كان يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال وإن وجد خبزاً كله وإن وجد خبز ير أو شعيراً أكله وإن وجد حلوا أو عسلاً أكله وإن وجد شواء أكله وإن وجد رطباً أكله وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله . انتهى . هذا كله معروف من أخلاقه في الترمذي من حديث أم هانئ دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « أعندك شيء ؟ » قلت : لا ، لا خبز يابس وخل فقال « هات » الحديث ، وقال حسن غريب وفي كتاب المعجمين لأبي الحسن بن الضحاك بن المقرئ من رواية الأوزاعي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبالي ما رددت به الجوع » وهذا مفضل . واسلم من حديث جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أهله الأدم فقالوا : ما عندنا لا لآكل ، فدعا به ... الحديث . وله من حديث أنس : رأيته مفعياً يأكل تمرات والتمر من صحبه من حديث أم سلمة أنها قربت إليه جنباً مشوياً فأكل منه ... الحديث . وللمشايخ من حديث عائشة : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً خبز بر حتى مضى لسبيله . لفظ مسلم وفي رواية له : ما شبع من خبز شعير يومين متتابعين . والترمذي وصحبه وابن ماجه من حديث ابن عباس : كان أكثر خبزهم الشعير . وللمشايخ من حديث عائشة : كان يحب الخلوة والعسل . ولها من حديث ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب لبناً فدعا بماء فمضض . والنسائي من حديث عائشة كان يأكل الرطب بالبطيخ وأسناده صحيح ^(٨) حديث : أنه كان لا يأكل متكثاً . تقدم في آداب الأكل من الباب الأول ^(٩) حديث : أنه كان لا يأكل على خوان . تقدم في الباب المذكور ^(١٠) حديث : كان منديله باطن قدمه . لا أعرفه من فعله وإنما المعروف فيه ما رواه ابن ماجه من حديث جابر : كنا زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلاً ما نجد الطعام فإذا وجدناه لم يكن لنا مناديل إلا أكفنا وسواعدنا . وقد تقدم في الطهارة ^(١١) حديث : لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله . تقدم في جملة الأحاديث التي قبله بثلاثة أحاديث ^(١٢) حديث : كان يجيب الولية . هذا معروف وتقدم قوله « لودعيت إلى كراع لأجبت » وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس : أنه كان الرجل من أهل العوالي ليدع رسول الله =

ويعود المرضى ^(١) ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس ^(٢) أشد الناس تواضعا وأسكنهم في غير كبر ^(٣) وأبلغهم في غير تطويل ^(٤) وأحسنهم بشرا ^(٥) لايهوله شيء من أمر الدنيا ^(٦) ويلبس ما وجد فرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس ^(٧) وخاتمه فضة ^(٨) يلبسه في خنصره الأيمن ^(٩) والأيسر ^(١٠) يردف خلفه عبده أو غيره ^(١١) يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشي راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة يعود المرضى في أقصى المدينة ^(١٢) يحب الطبيب ويكره الراححة

صلى الله عليه وسلم بنصف الليل على خبز التمر فيجيب : ولسانه ضعيف (١) حديث : كان يعود المريض ويشهد الجنائز أخرجه الترمذي وضعفه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أنس ورواه الحاكم من حديث سهل بن حنيف ، وقال صحيح الإسناد وفي الصحيحين عدة أحاديث من عيادته للمرضى وشهوده للجنائز (٢) حديث : كان يمشي وحده بين أعدائه بلا حارس . أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية (والله يصمك من الناس) فأخرج رأسه من القبة فقال « انصرفوا فقد عصي الله » قال الترمذي غريب وقال الحاكم صحيح الإسناد .

(٣) حديث : كان أشد الناس تواضعا وأسكنهم من غير كبر . رواه أبو الحسن بن الضحاك في الدلائل من حديث أبي سعيد الخدري في صفته صلى الله عليه وسلم : حين المؤنة ابن الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه - الى أن قال - متواضعا في غير ذلة - وفيه - ذائب الإطراق . وإسناده ضعيف وفي الأحاديث الصحيحة الدالة على شدة تواضعه غنية عنه منها عند النسائي من حديث ابن أبي أوفى : كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين ... الحديث . وقد تقدم وعند أبي داود من حديث البراء : جلس وجلسنا كأن على رؤوسنا الطير .. الحديث . ولأصحاب السنن من حديث أسامة بن شريك : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير (٤) حديث : كان أبلغ الناس من غير تطويل . أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة : كان يحدث حديثا لو عدمه الماد لأحضاه . ولهما من حديثها : لم يكن يسرد الحديث كسردكم علقه البخاري ووصله مسلم زاد الترمذي : ولكنه كان يتكلم بكلام يبينه فصل يحفظه من جالس إليه وله في الدلائل من حديث ابن أبي هالة : يتكلم بمواع السكك فصل لا فضول ولا تقصير (٥) حديث : كان أحسنهم بشرا . أخرجه الترمذي في الدلائل من حديث علي بن أبي طالب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر سهل الخلق ... الحديث وله في الجامع من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : ما رأيت أحدا كان أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غريب قلت : وفيه ابن لميعة .

(٦) حديث : كان لايهوله شيء من أمور الدنيا . أخرجه أحمد من حديث عائشة : ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا وما أعجبه أحد قط إلا ذوقتي وفي لهظه : ما أعجب النبي صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا إلا أن يكون فيها ذوقتي . وفيه ابن لميعة (٧) حديث : كان يلبس ما وجد فرة شملة ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس . أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد : جاءت امرأة بريدة . قال سهل : هل تدرون ما البردة ؟ هي الشملة منسوجة في حاشيتها وفيه : يفرج لنا وأنها لإزاره . الحديث ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في شملة قد عقد عليها . فيه الأحوس بن حكيم يختلف فيه وللشيعين من حديث أنس : كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلبسها الحبرة . ولهما من حديث المغيرة بن شعبه وعليه جبة من صوف (٨) حديث : خاتمه فضة . متفق عليه من حديث أنس : اتخذ خاتما من فضة (٩) حديث : لبسه الخاتم في خنصره الأيمن أخرجه مسلم من حديث أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس خاتم فضة في يمينه . وللبخاري من حديثه : فإنني لأرى بريفة في خنصره (١٠) حديث : تحتها في الأيسر أخرجه مسلم من حديث أنس : كان خاتم النبي صلى الله عليه وسلم في هذه - وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى -

(١١) حديث : لردافه خلفه عبده أو غيره : أردف صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد من عرفة . كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس ومن حديث أسامة ، وأردفه مرة أخرى على حمار وهو في الصحيحين أيضاً من حديث أسامة وهو مولاه وابن مولاه ، وأردف الفضل بن عباس من المزدلفة وهو في الصحيحين أيضاً من حديث أسامة ومن حديث ابن عباس والفضل بن عباس وأردف معاذ بن جبل وابن عمر وغيرهم من الصحابة .

(١٢) حديث : كان يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة إنلة شهباء ومرة حمارا ومرة راجلا ومرة حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة ، يعود المرضى في أقصى المدينة . ففي الصحيحين من حديث أنس : ركوبه صلى الله عليه وسلم فرسا لأبي طلحة . ولمسلم من حديث جابر بن سمرة ركوبه الفرس عريا حين انصرف من جنازة ابن الدحداح ولمسلم من حديث سهل بن سعد : كان للنبي صلى الله عليه وسلم فرس يقال له : اللجيف . ولهما من حديث ابن عباس : طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على بعير . ولهما من حديث البراء : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم على بئله البيضاء يوم حنين . ولهما من حديث أسامة : أنه صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على لكاف .. الحديث . ولهما من حديث ابن عمر : كان يأتي قبا راكبا وماشيا . ولمسلم من حديثه في عيادته صلى الله عليه وسلم لسعد بن عبادة : فقام وقتنا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا فلاس ولا قمص نحمي في السباح ... الحديث .

الرديئة ^(١) ويجالس الفقراء ^(٢) ويؤاكل المساكين ^(٣) ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم ^(٤) يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ^(٥) لا يجحفو على أحد ^(٦) يقبل معذرة المعتذر إليه ^(٧) يمزح ولا يقول إلا حقا ^(٨) يضحك من غير فقهة ^(٩) يرى اللعب المباح فلا ينكره ^(١٠) يسابق أهله ^(١١) وترفع الأصوات عليه فيصبر ^(١٢) وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها ^(١٣) وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في

(١) حديث : كان يحب الطيب والرائحة الطيبة ويسكره الروائح الرديئة . أخرجه النسائي من حديث أنس . حجب إلى النساء والطيب وأبو داود والحاكم من حديث عائشة : أنها صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف فلبسها فلما عرق وجد ربح الصوف نخلها وكان يعجبه الريح الطيبة . لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولا بن عدى من حديث عائشة كان يسكره أن يوجد منه إلا ريح طيبة . (٢) حديث : كان يجالس الفقراء . أخرجه أبو داود من حديث أبي سعيد : جلست في عصاة من ضعفاء المهاجرين ولأن بعضهم ليستر بعضا من العرى . . . الحديث . وفيه : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطا ليعدل بنفسه فينا . . . الحديث . وابن ماجه من حديث خباب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا . . . الحديث في نزول قوله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يقدمون ربه ﴾ إسنادها حسن (٣) حديث : مؤاكلة المساكين أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها . (٤) حديث : كان يكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم . أخرجه الترمذي في المعامل في الحديث على الطويل في صفته صلى الله عليه وسلم : وكان من سيرته ليثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين . وفيه . ويؤلفهم ولا ينفقهم ويكرم كريم كل قوم ويؤلفه عليهم . . . الحديث . وللطبراني من حديث جرير في قصة إسلامه . فألقى إلى كساءه ثم أقبل على أصحابه ثم قال إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه . ولمساده جيد ورواه الحاكم من حديث معبد بن خالد الأنصاري عن أبيه نحوه وقال صحيح الإسناد (٥) حديث . كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم . أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس . كان يحيل العباس لإجلال الوالد والوالدة . وله من حديث سعد بن وقاص . أنه أخرجه عمه العباس وغيره من المسجد فقال له العباس تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك وتسكن علينا فقال « ما أنا أخرجكم وأسكنه وأسكن الله أخرجكم وأسكنه » قال في الأول صحيح الإسناد وسكت عن الثاني وفيه مسلم الملائي ضيف . فأثر عليا لفضله بتقديم إسلامه وشهوده بدرا والله أعلم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد لا يقيمن في المسجد باب إلاسد إلا باب أبي بكر . (٦) حديث . كان لا يجحفو على أحد . رواه أبو داود والترمذي في المعامل والنسائي في اليوم والليالي من حديث أنس كان قلما يواجه رجلا يسمى بكراهه . وفيه ضعف ولاشيخين من حديث أبي هريرة : لأن رجلا استأذن عليه صلى الله عليه وسلم فقال « بش أخو العميرة فلما دخل ألان له القول . . . الحديث »

(٧) حديث . يقبل معذرة المعتذر إليه . متفق عليه من حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خلفوا وفيه : طلق الخلفون يعتذرون إليه فقبل منهم ثلاثتهم . . . الحديث . (٨) حديث : يمزح ولا يقول إلا حقا . أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وهو عند الترمذي بلفظ : قالوا أنك تداعينا : قال « لى ولا أقول إلا حقا » وقال حسن . (٩) حديث : ضحك من غير فقهة أخرجه الشيخان من حديث عائشة : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا ضاحكا حتى أرى لهواة أنه إنما كان يتبسم . والترمذي من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : ما كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تبسما . قال صحيح غريب وله في المعامل في حديث هند بن أبي هالة : جل ضحك التبسم . (١٠) حديث : يرى اللعب المباح ولا ينكره . أخرجه الشيخان من حديث عائشة : في لعب الحبشة بين يديه في المسجد وقال لهم « دونكم يا بني أرفدة » وقد تقدم في كتاب السماع . (١١) حديث : مساقته صلى الله عليه وسلم أهله . أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث عائشة : في مساقته لها : وقد تقدم في الباب الثالث من السكاح . (١٢) حديث : ترفع الأصوات عنده فيصبر . أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن الزبير : قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن عبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلاقي ؟ وقال عمر : ما أردت خلافتك . فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فغزات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تهدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ . (١٣) حديث : وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها . أخرجه محمد بن سعد في الطبقات من حديث أم سلمة : كان عيشنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اللين - أوقالت أكثر عيشنا - كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاح بالذابة . . . الحديث . وفي رواية له : كانت لنا أعز سبع فكان الراعى يبلغ بين مرة الحى ومرة أحدا ويروح بين علينا وكانت لقاح بذى الحبل فيؤب لنا ألبانهم بالليل . . . الحديث . وفي أسنادها محمد بن عمر الواقدي ضعيف في الحديث ، وفي الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع : كانت لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ترعى بذى فرد . . . الحديث . ولأبي داود من حديث لقيط بن صبرة . لنا غنم مائة لا نريد أن تزيد فإذا ولد الراعى بهمة ذبحنا مكانها شاء . . . الحديث

مأكل ولا ملبس^(١) ولا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد له منه من صلاح نفسه^(٢) يخرج إلى بساتين أصحابه^(٣) لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولا يهاب ملكا للملكة يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويا^(٤) قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة الثابتة وهو أعمى لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ في بلاد الجهل والصحارى في فقره وفي رعاية الغنم يتبعها لا أب له ولا أم فعله الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول^(٥) . وفقنا الله لطاعته في أمره والتأسي به في فعله آمين يارب العالمين .

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه

عما رماه أبو البختري قال : ما شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة^(٦) وما لعن امرأة قط ولا خادما بلعنة^(٧) وقيل له وهو في القتال : لو لعنتم يارسول الله فقال : إنما بعثت

(١) حديث : كان له عييد ولما فلا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس . أخرجه محمد بن سعد في الطبقات من حديث سلمى قالت : كان خدم النبي صلى الله عليه وسلم أنا ونخضرة ورضوى وميدونة بنت سعد أعتقهن كلهن . ولسانه ضعيف ، وروى أيضا أن أبا بكر بن حزم كتب إلى عمر بن عبد العزيز بأساء خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر : بركة - أم أيمن - وزيد ابن حارثة وأبا كبشة وأسة وشقران وسفينة وثوبان ورباحا وبسارا وأبا رافع وأنا موهبة ورافعا ، أعتقهم كلهم ، وفضالة ومدعما وكركرة . وروى أبو بكر بن الضحاك في الثمائل من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد ضعيف : كان صلى الله عليه وسلم يأكل مع خادمه . وسلم من حديث أبي اليسر « أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون . » الحديث . (٢) حديث : لا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه . أخرجه الترمذي في الثمائل من حديث علي بن أبي طالب : كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءا لله وجزءا لأهله وجزءا لنفسه ، ثم جزأ جزءا بينه وبين الناس فرد ذلك بالخاصة على العامة ... الحديث . (٣) حديث : يخرج إلى بساتين أصحابه . تقدم في الباب الثالث من آداب الأكل (خروجه صلى الله عليه وسلم إلى بستان أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري وغيرهما) .

(٤) حديث : لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولا يهاب ملكا للملكة يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء واحدا . أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد : مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما تقولون في هذا ؟ » قالوا : خرى إن خطب أن ينسكج ... الحديث . وفيه : فر رجل من فقراء المسلمين فقال « ما تقولون في هذا ؟ » قالوا : خرى لمن خطب أن لا ينسكج ... الحديث . وفيه « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » . ومسلم من حديث أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل . (٥) حديث : قد جمع الله له السيرة الفاضلة والسياسة الثابتة وهو أعمى لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجهل والصحارى وفي فقر وفي رعاية الغنم لا أب له ولا أم فعله الله جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول . هذا كله معروف معلوم فروى الترمذي في الثمائل من حديث علي بن أبي طالب في حديثه الطويل في صفته : وكان من سيرته في جزء الأمة لما يثار أهل الفضل بإذنه وقسمه ... الحديث . وفيه : فسألته عن سيرته في جلسائه فقال كان دائم البصر سهل الخلق لين الجانب ... الحديث . وفيه : كان يحزن لساعة لا فيما يعني . وفيه : قد ترك نفسه من ثلاث ؛ من المرأة والإكثار وما لا يعنيه ... الحديث . وقد تقدم بعضه ، وروى ابن مردويه من حديث ابن عباس في قوله (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) قال : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم أميا لا يقرأ ولا يكتب . وقد تقدم في العلم والبخاري من حديث ابن عباس قال : لما سرك أن تعلم جهل العرب فاتقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم) وأحمد وابن حبان من حديث أم سلمة في قصة هجرة الحبشة : أن جعفرا قال للنجاشي أيها الملك كئنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ... الحديث . ولأحمد من حديث أبي بن كعب : لما أتني لحي مرء ابن عمر سنين وأشهر فإذا كلام فوق رأسي .. الحديث والبخاري من حديث أبي هريرة : كنت أراها - أي الزم - على قراريط لأهل مكة ولأبي يعلى وابن حبان من حديث حليمه : إنما نرجو كرامة الرضاة من والد المولود وكان يقيم ... الحديث . وتقدم حديث « بعثت بمكارم الأخلاق » (٦) حديث « ما شتم أحدا من المؤمنين إلا جعلها الله كفارة ورحمة » متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه « فأبى المؤمنين لعنته شتمته جلده فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة » وفي رواية « فاجعلها زكاة ورحمة » وفي رواية « فاجعلها له كفارة وقربة » وفي رواية « فاجعل ذلك كفارة له يوم القيامة » (٧) حديث : ما لعن امرأة ولا خادما قط . المعروف : ماضرب . مكان ما لعن . كما هو متفق عليه من حديث عائشة والبخاري من حديث أنس : لم يكن غاشا ولا لائعا . وسبق في الحديث الذي بعده في هذا المعنى « =

رحمة ولم أبعث لعانا^(١) ، وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له^(٢) وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى ، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك^(٣) وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته^(٤) وقال أنس رضي الله عنه : والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه ولم فعلته ؟ ، ولا لامني نساؤه إلا قال « دعوه إنما كان هذا بكتاب وقد ر^(٥) قالوا : وما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مضجعا ، إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض^(٦) وقد وصفه الله تعالى في التوراة قبل أن يبعثه في السطر الأول فقال : محمد رسول الله عبدي المختار لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، مولده بمكة وهجرته بطابة ومملكه بالشام يأنزر على وسطه هو ومن معه دعاة للقرآن والعلم يتوضأ على أطرافه . وكذلك نعته في الإنجيل . وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام^(٧) ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف^(٨) وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر^(٩) وكان إذا لقي أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابهه ثم شد قبضته عليها^(١٠) وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله^(١١) وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال « ألك حاجة ؟ »

(١) حديث « إنما بعث رحمة ولم أبعث لعانا » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث : كان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه ودعا له . أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة : قالوا يا رسول الله لن دوسا قد كسفت وأبت فادع عليهم فقيل : هلك دوس ، فقال « اللهم اهد دوسا وأنت بهم » (٣) حديث : ما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب في سبيل الله وما انتقم من شيء صنع إليه إلا أن تنتهك حرمة الله ... الحديث . متفق عليه من حديث عائشة مع اختلاف وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصعبة (٤) حديث : ما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته أخرجه البخاري تعليقا من حديث أنس : أن كانت الأمة من لمام أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنتلق به حيث شاءت ووصله ابن ماجه وقال : فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة فيحاجتها . وقد تقدم ، وتقدم أيضا من حديث ابن أبي أوفى : ولا يأنف ولا يستكبر أن يعيش مع الأرولة والمسكين حتى يقضى لها حاجتها (٥) حديث أنس : والذي بعثه بالحق ما قال في شيء قط كرهه « لم فعلته ؟ » ولا لامني أحدا من أهله إلا قال « دعوه إنما كان هذا بكتاب وقد ر^(٦) أخرجه الشيخان من حديث أنس : ما قال لشيء صنعت ؟ « لم سمعته » ولألفي تركته « لم تركته : » وروى أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث له قال فيه : ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه ، فإن عاتبني أحد من أهله قال « دعوه فلو قدر شيء كان » وفي رواية له « كذا قضى » (٦) حديث ، ما عاب مضجعا إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرشوا له اضطجع على الأرض . لم أجده بهذا اللفظ والمعروف . ما عاب طاماما . ويؤخذ من عموم حديث علي بن أبي طالب . ليس بلفظ ، إلى أن قال . ولا عياب رواء الترمذي في الدلائل والعلاني وأبو نعيم في دلائل النبوة ، وروى ابن أبي عاصم في كتاب السنة من حديث أنس . ما أعلمه عاب شيئا قط . وفي الصحيحين من حديث عمر . اضطجعا على حصير والترمذي وصححه من حديث ابن مسعود نام على حصير فقام وقد أثر في جنبه . . الحديث (٧) حديث : كان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام . أخرجه الترمذي في الدلائل من حديث هند بن أبي هالة (٨) حديث : ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف أخرجه العلبراني ومن طريقه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث علي بن أبي طالب وهو من حديث أنس كان إذا لقي الرجل يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون هو المنصرف . ورواه الترمذي نحوه وقال غريب (٩) حديث : وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر . أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس الذي قبله : كان إذا استقبل الرجل فصاغ لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع . لفظ الترمذي وقال غريب .

(١٠) حديث : كان إذا لقي أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابهه ثم شد قبضته . أخرجه أبو داود من حديث أبي ذر : وسأله رجل من عنزة هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصاغكم إذا لقيتموه ؟ قال : ما لقيته قط إلا صاغني ... الحديث ، وفيه الرجل الذي من عنزة ولم يسم وسماء اليبهني في الأدب عبد الله وروينا في اليوم الحديث لاجا كم من حديث أبي هريرة قال : شبك يدي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم وهو عند مسلم بلفظ : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده (١١) حديث : كان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله عز وجل أخرجه الترمذي في الدلائل من حديث علي في حديثه الطويل في صفته قال : على ذكر - بالتثوين -

فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته ^(١) وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك يديه عليهما شبه الحبة ^(٢) ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه ^(٣) لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس ^(٤) وما روى قط ما رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعاً لا يضيق فيه ، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة ^(٥) وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه ^(٦) وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته فإن أبي أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل ^(٧) وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه ^(٨) حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة قال الله تعالى ﴿ فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا تفضوا من حولك ﴾ ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم ^(٩) ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به ^(١٠) ويكنى أيضاً النساء اللاتي لهن الأولاد واللاتي لم يلدن يبتدئ لهن الكنى ^(١١)

- (١) حديث : كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال « ألك حاجة ؟ » فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته لم أجده أصلاً (٢) حديث : كان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك يديه عليهما شبه الحبة . أخرجه أبو داود والترمذي في الدعاء من حديث أبي سعيد الخدري : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المجلس احتج يديه وإسناده ضعيف والبخاري من حديث ابن عمر : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة محتجاً يديه .
- (٣) حديث : لأنه لم يكن يعرف مجلسه من مجالس أصحابه . أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي ذر : قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهري أصحابه فيجئني الغريب فلا يدري أيهم هو ؟ حتى يسأل ... الحديث (٤) حديث : لأنه حياءً انتهى به المجلس جلس . رواه الترمذي في الدعاء من حديث علي الطويل .
- (٥) حديث : ما روى قط ما رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعاً لا يضيق فيه أخرجه الدارقطني في غرائب مالك من حديث أنس وقال باطل والترمذي وابن ماجه لم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليسه له ، زاد ابن ماجه قط ، وسنده ضعيف (٦) حديث . كان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه . أخرجه الحاكم وصححه إسناده من حديث أنس . دخل جرير بن عبد الله على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه . فأخذ برذته فألقاهما عليه فقال « اجلس عليهما يا جرير » الحديث وفيه « فإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة . ولطبراني في الكبير من حديث جرير . فألقى إلى كساء . ولأبي نعم في الحلية . فيسط على رداءه .
- (٧) حديث كان يؤثر الداخل بالوسادة التي تكون تحته ... الحديث تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة .
- (٨) حديث . ما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة . أخرجه الترمذي في الدعاء من حديث علي الطويل وفيه . ويمطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جلسه أن أحداً أكرم عليه منه . مجلسه مجلس حلم وخياء وصبر وأمانة .
- (٩) حديث . كان يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم . في الصحيحين في قصة النار من حديث أبي بكر . يا أبا بكر ما ظلك بائنين الله نائهما . ولحاكم من حديث ابن عباس . أنه قال لعمر يا أبا حفص أبصرت وجههم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر . أنه لأول يوم كناني فيه بأبي حفص . وقال صحيح على شرط مسلم وفي الصحيحين أنه قال لعلي . قم يا أبا تراب ولحاكم من حديث رفاعة بن مالك : أن أبا حسن وجد منصاً في بطنه فتخلخت عليه - يريد علياً - ولأبي يعلى الموصلي من حديث سعد ابن أبي وقاص فقال من هذا ؟ أو اسحق ؟ فقلت . نعم ، ولحاكم من حديث ابن مسعود . أن النبي صلى الله عليه وسلم كناه أبا عبد الرحمن ولم يولد له . (١٠) حديث . كان يكنى من لم يكن له كنية وكان يدعى بما كناه به أخرجه الترمذي من حديث أنس . قال كناني صلى الله عليه وسلم بقبلة كنت أختليها - يعني أبا حمزة - قال حديث غريب وابن ماجه . أن عمر قال اصمب ابن مالك تسمكني وليس لك ولد ؟ قال كناني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي يحيى . ولطبراني من حديث أبي بكر . تملكت بيكرة من الطائف فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم فأنت أم بكرة . (١١) حديث . كان يكنى النساء اللاتي لهن الأولاد واللاتي لم يلدن يبتدئ لهن الكنى . أخرجه الحاكم من حديث أم أيمن في قصة شربها بول النبي صلى الله عليه وسلم . فقال « يا أم أيمن قومي إلى تلك الفخارة » الحديث « وابن ماجه من حديث عائشة . أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم كل أزواجك كنيته غيري قال « فأنت أم عبد الله » والبخاري من حديث أم خالد . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها « يا أم خالد هذا مناء » وكانت صغيرة وفيه مولى الزبير لم يسم ولأبي داود بإسناد صحيح أنها قالت . يا رسول الله كل صواحي لهن كنى قال « فاكنتي بابتك عبد الله ابن الزبير » .

ويكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم ^(١) وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا ^(٢) وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ^(٣) ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات ^(٤) وكان إذا قام من مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » ثم يقول « عشرين جبريل عليه السلام » ^(٥) .

بيان كلامه وضحه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أفصح الناس منطلقا وأحلام كلاما ويقول ^(٦) :

أنا أفصح العرب ^(٧) وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد صلى الله عليه وسلم ^(٨) وكان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهذار وكان كلامه كحزرات نظمن ^(٩) قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كان لا يسرد الكلام كسر دكم هذا كان كلامه نورا وأنتم تنثرون الكلام نثرا ^(١٠) قالوا : وكان أوجز الناس كلاما وبذلك جاء جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد ^(١١) وكان يتكلم بجوامع الكلم لافضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضا بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه ^(١٢) وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة ^(١٣) وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير

(١) حديث . كان يكنى الصبيان . في الصحيحين من حديث أنس . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأخ له صغير « يا أبا عبد الله ما فعل الصغير » . (٢) حديث . كان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا . هذا من المعلوم ويدل عليه أخبره صلى الله عليه وسلم أن بني آدم خيرهم بطيئ الغضب سريع النية . رواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري وقال حديث حسن وهو صلى الله عليه وسلم خير بني آدم وسيدهم وكان صلى الله عليه وسلم لا ينضب لفسه ولا يتنصر لها . رواه الترمذي في المعاني من حديث هند ابن أبي هالة . (٣) حديث . كان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس . هذا من المعلوم وروناه في الجزء الأول من فوائد أبي الدرداء من حديث علي في صفة النبي صلى الله عليه وسلم : كان أرحم الناس بالناس . الحديث بطوله . (٤) حديث : لم تكن ترفع في مجلسه الأصوات . أخرجه الترمذي في المعاني من حديث علي الطويل . (٥) حديث : كان إذا قام من مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك » . الحديث . أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم في المستدرک من حديث رافع ابن خديج وتقدم في الأذكار والدعوات . (٦) حديث : كان أفصح الناس منطلقا وأحلام كلاما . أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في كتاب المعاني وابن الجوزي في الوفاء بإسناد ضعيف من حديث بريدة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أفصح العرب وكان يتكلم بالسكلام لا يدرون ما هو حتى يخبرهم ؟

(٧) حديث « أنا أفصح العرب » أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي سعيد الخدري : أنا أعرب العرب . وإسناده ضعيف والحاكم من حديث عمر قال : قلت يا رسول الله ما بالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ الحديث : وفي كتاب الرعد والمطر لابن أبي الدنيا في حديث مرسل : أن أعرابيا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما رأيت أفصح منك ؟

(٨) حديث : إن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وصححه : كلام أهل الجنة عربي (٩) حديث : كان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهذار وكان كلامه كحزرات النظم أخرجه الطبراني من حديث أم عبد وكان منطلقه خزرات نظم ينحدرون حلو المنطق لا نزر ولا هذر . وقد تقدم وسأتي في حديث عائشة بعده : كان إذا تكلم تكلم نورا وفي الصحيحين من حديث عائشة : كان يحدثنا حديثا لو عدته العاد لأحصاه . (١٠) حديث عائشة : كان لا يسرد كسر دكم هذا كان كلامه نورا وأنتم تنثرونه نثرا . اتفق الشيخان على أول الحديث وأما المجلتان الأخيرتان فرواه البخاري في قوله بإسناد منقطع .

(١١) حديث : كان أوجز الناس كلاما وبذلك جاء جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد أخرجه عبد بن حميد من حديث عمر بسند منقطع والمارقطني من حديث ابن عباس بإسناد جيد : أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الحديث اختصارا . وشرطه الأول متفق عليه - كما سيأتي - قال البخاري بلنفي في جوامع الكلم أن الله جمع له الأمور الكثيرة في الأمر الواحد والأميرين ونحو ذلك . ولحاكم من حديث عمر المتقدم : كانت لغة اسمعيل قد درست لجاء بها جبريل لحفظها . (١٢) حديث : كان يتكلم بجوامع الكلم لافضول ولا تقصير كلام يتبع بعضه بعضا بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه . رواه الترمذي في المعاني من حديث هند بن أبي هالة وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : بعثت بجوامع الكلم . ولأبي داود من حديث جابر : كان في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ترتيل أو ترسيل . وفيه شيبخ لم يسم وله ولترمذي من حديث عائشة : كان كلام النبي صلى الله عليه وسلم كلاما فصلا يفهمه كل من سمعه . وقال الترمذي : يحفظه من جلس إليه وقال الترمذي في اليوم والليلة : يحفظه من سمعه وإسناده حسن . (١٣) حديث : كان جهير الصوت أحسن الناس نغمة . أخرجه الترمذي والنسائي في الكبير من حديث صفوان بن عسال قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر بيننا نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوته جهوري : يا محمد فأجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم =

حاجة ^(١) ولا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق ^(٢) . ويعرض عن تكلم بغير جميل ^(٣) . ويكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره ^(٤) . وكان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده ^(٥) في الحديث ويعظ بالجد والنصيحة ^(٦) ويقول : لا تضربوا القرآن بعرضه ببعض فإنه أنزل على وجوه ^(٧) ، وكان أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعبجا مما تحدثوا به وخطا لنفسه بهم ^(٨) . ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه ^(٩) . وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له ^(١٠) . قالوا : ولقد جاءه أعرابي يوما وهو عليه السلام متغير اللون ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا : لا تفعل يا أعرابي فإنه ننكر لونه فقال : دعوني فوالذي بعثه بالحق نبيا لا أدعه حتى يتبسم ، فقال : يا رسول الله بلغنا أن المسيح يعني الدجال يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جوعا أفترى لي بأبي أنت وأمي أن أكف عن ثريده تعففا وتنزها حتى أهلك هرا لا أم أضرب في ثريده حتى إذا تضلعت شبعا آمنت بالله وكفرت به ؟ قالوا : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال : لا بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين ^(١١) ، قالوا : وكان

= وسلم على نحو من صوته « هاؤم » الحديث . وقال أحد في مسنده : وأجابه نحو ما تكلم به ... الحديث . وقد يؤخذ من هذا أنه صلى الله عليه وسلم كان جهوري الصوت ولم يكن يرفعه دائما ، وقد يقال لم يكن جهوري الصوت وإنما رفع صوته رفقا بالأعرابي حتى لا يكون صوته أرفع من صوته وهو الظاهر وللشيوخ من حديث البراء : ما سمعت أحدا أحسن صوتا منه .

(١) حديث : كان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة . أخرجه في السهائل من حديث هند بن أبي هالة .

(٢) حديث : لا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق . أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا تكتب كل شيء ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستر يتكلم في الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال : اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق . رواه الحاكم وصححه . (٣) حديث : يعرض عن تكلم بغير جميل . أخرجه الترمذي في السهائل من حديث علي الطويل : يتناقل عما لا يشتهي الحديث . (٤) حديث : يكنى عما اضطره الكلام بما يكره فن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لامرأة رفاعة : حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك . رواه البخاري من حديث عائشة : ومن ذلك ما اتفقا عليه من حديثها في المرأة التي سألت عن الاغتسال من الحوض « خذي فرصة ممسكة فتطهري بها ... الحديث » . (٥) حديث : كان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده في الحديث أخرجه الترمذي في السهائل من حديث علي الطويل . (٦) حديث يعظ بالجد والنصيحة . أخرجه مسلم من حديث جابر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب أحمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صباحكم ومساءكم ... الحديث . (٧) حديث « لا تضربوا القرآن بعرضه ببعض » وأنه أنزل على وجوه . أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بإسناد حسن « إن القرآن يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض » وفي رواية للهروري في ذم السلام « إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض » وفي رواية له « أبهنا أمهت أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض » وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » . (٨) حديث : كان أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعبجا مما تحدثوا به وخطا لنفسه بهم . أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي الصحيحين من حديث جرير : ولا رأيي إلا تبسم . والترمذي في السهائل من حديث علي : يضحك مما تضحكون منه ويتمجب مما تعجبون منه . ومسلم من حديث جابر بن سمرة : كانوا يتحدثون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتمجبون .

(٩) حديث : ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه : متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود في قصة آخر من يخرج من النار وفي قصة الجبر القبي قاله . لمن الله يضع السموات على أصبع . ومن حديث أبي هريرة في قصة الحجاج في رمضان وغير ذلك

(١٠) حديث : كان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له . أخرجه الترمذي في السهائل من حديث هند بن أبي هالة في أثناء حديثه الطويل : جل ضحك التبسم (١١) حديث : جاءه أعرابي يوما وهو متغير ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا : لا تفعل يا أعرابي ، فإنه ننكر لونه فقال : دعوني والذى بعثه بالحق نبيا لا أدعه حتى يتبسم . فقال : يا رسول الله بلغنا أن المسيح الدجال يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جوعا ... الحديث . وهو حديث منكر لم ألق له على أصل ويرده قوله صلى الله عليه وسلم في حديث المنيرة بن شعبة المتفق عليه حين سأله : أنهم يقولون لمن معة جبل خبز ونهر ماء قال « هو أهون على الله من ذلك » وفي رواية لمسلم . أنهم يقولون معه جبلا من خبز ولحم . . الحديث . نعم في حديث حذيفة وأبي مسعود المتفق عليهما . لمن معه ماء ونارا الحديث ...

من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظيمة (١) وكان إذا سرور رضى فهو أحسن الناس رضا فإن وعظ وعظ بجد وإن غضب - وليس يغضب إلا لله - لم يقم لغضبه شيء وكذلك كان في أموره كلها (٢) وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول « اللهم أرني الحق حقا فأتبعه وأرني المنكر منكرا وارزقني اجتنابه وأعذني من أن يشتهه على فأتبع هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم (٣) » .

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام

كان صلى الله عليه وسلم يأكل ما وجد (٤) وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف (٥) والصفف ما كثرت عليه الأيدي ، وكان إذا وضعت المائدة قال « بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بهانعة الجنة (٦) » وكان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصلي إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول « إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد (٧) » ، وكان لا يأكل الخار ويقول « إنه غير ذي

(١) حديث : كان من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه القرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظيمة . تقدم حديث عبد الله بن الحارث : ما رأيت أحدا أكثر تبسما منه . والطبراني في معارج الأئمة من حديث جابر : كان إذا نزل عليه الوحي قلت : نذير قوم ، فإذا سري عنه فأكثر الناس ضحكا . . . الحديث . ولأحمد من حديث علي أو الزبير : كان يخطب فيذكر بأيام الله حتى يعرف ذلك في وجهه وكأني نذير قوم يصحبهم الأمر غدوة ، وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبس ضاحكا حتى يرتفع عنه ورواه أبو يعلى من حديث الزبير من غير شك وللحاكم من حديث جابر : كان إذا ذكر الساعة أحمرت وجنتاه واشتد غضبه . وهو عند مسلم بإلفظ : كان إذا خطب (٢) حديث : كان إذا سرور رضى فهو أحسن الناس رضا وإن وعظ وعظ بجد وإن غضب - ولا يغضب إلا لله - لم يقم لغضبه شيء . وكذلك كان في أموره كلها ، أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف غضبه ورضاه بوجهه كان إذا رضى فكأنما ملاك الجدر وجهه ، ولإسناده ضعيف والمراد به المرأة توضع في الشمس فيرى ضوءها على الجدار ، ولا يشين من حديث كعب بن مالك قال : وهو يبرق وجهه من السرور . وفيه : وكان إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قر وكنا نعرف ذلك منه . . . الحديث ، ومسلم : كان إذا خطب أحمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه . . . الحديث ، وقد تقدم والترمذي في المعاني في حديث هند بن أبي هالة : لا تنضب الدنيا وما كان منها فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وقد تقدم (٣) حديث : كان يقول « اللهم أرني الحق حقا فأتبعه وأرني المنكر منكرا وارزقني اجتنابه وأعذني من أن يشتهه على فأتبع هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » لم أقبل لأوله على أصل ، وروى السفياني في الدعوات من حديث أبي هريرة . كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول « اللهم انك سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك فأعطنا منها ما يرضيك عنا » . ومسلم من حديث عائشة فيما كان يفتتح به صلاته من الليل « اهدني لما اختلف فيه » إلى آخر الحديث

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام

(٤) حديث : كان يأكل ما وجد تقدم (٥) حديث : كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف أي كثرت عليه الأيدي أخرجه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل من حديث جابر بسند حسن : أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي . ولأبي يعلى من حديث أنس : لم يجتمع له غذاء وعشاء خبز ولحم إلا على ضفف . وإسناده ضعيف (٦) حديث : كان إذا وضعت المائدة قال « بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة » أما التسمية فرواها النسائي من رواية : من خدم النبي صلى الله عليه وسلم ثمان سنين : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرب إليه طعاما يقول « بسم الله . . . الحديث » وإسناده صحيح وأما بقية الحديث فلم أجده (٧) حديث : كان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وقدميه كما يفعل المصلي إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول « إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » أخرجه عبد الرزاق في المصنف من رواية أيوب معضلا : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل أحضر وقال « أكل كما يأكل العبد . . . الحديث » وروى ابن الضحاك في المعاني من حديث أنس بسند ضعيف : كان إذا قعد على الطعام استوفى على ركبته = (٧٤ - - - - - إحياء علوم الدين - - - - - ٤٧)

بركة وإن الله لم يطعمنا ناراً فأبردوه ^(١) » وكان يأكل مما يليه ^(٢) ويأكل بأصابه الثلاث ^(٣) وربما استعان بالرابعة ^(٤) ولم يأكل بأصبعين ويقول « إن ذلك أكلة الشيطان ^(٥) » وجاءه عثمان بن عفان رضى الله عنه بفالودج فأكل منه وقال « ما هذا يا عبد الله ؟ » قال : بأبي أنت وأمي نجعل السمن والعسل في البرمة ونضعها على النار ثم نغليه ثم نأخذ مخ الحنطة إذا طحنت فنقله على السمن والعسل في البرمة ، ثم نسوطة حتى ينضج فيأتى كما ترى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الطعام طيب ^(٦) » وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ^(٧) وكان يأكل القثاء بالرطب ^(٨) وبالملح ^(٩) وكان أحب الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب ^(١٠) وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر ^(١١) وربما أكله

== اليسرى وأقام اليمنى ثم قال « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يفعل العبد » وروى أبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بسند حسن من حديث أبي بن كعب : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجثو على ركبيه وكان لا يشكى . أوردته في صفة أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللبزار من حديث ابن عمر « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » ولأبي يعلى من حديث عائشة « آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » وسندهما ضعيف (١) حديث : كان لا يأكل كل الحار ويقول « لأنه غير ذى بركة وإن الله لم يطعمنا ناراً » أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم يوماً بطعام سخن فقال « ما دخل بطي طعام سخن منذ كذا وكذا قبل اليوم » ولأحمد بإسناد جيد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث خولة بنت قيس : قدمت له حريرة فوضع يده فيها فوجد حرها فقبضها . لفظ الطبراني والبيهقي وقال أحمد : فأحرقت أصابعه فقال : حس . والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة « أبردوا الطعام فإن الطعام الحار غير ذى بركة » وله فيه وفي الصغير من حديثه أنى بصحفة تفور فرفع يده منها وقال « إن الله لم يطعمنا ناراً » وكلاهما ضعيف (٢) حديث : كان يأكل مما يليه . أخرجه أبو الشيخ ابن حبان من حديث عائشة وفي إسناده رجل لم يسم وسماء في رواية له وكذلك البيهقي في روايته في الشعب عبيد بن القاسم لسبب سفیان الثوري ، وقال البيهقي تفرد به عبيد هذا وقد رماه ابن معين بالكذب ، ولأبي الشيخ من حديث عبد الله بن جعفر نحوه (٣) حديث : أكله بأصابه الثلاث . أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك (٤) حديث : استمأنه بالرابعة . ورواه في الغيلانيات من حديث طاهر بن ربيعة وفيه القاسم بن عبد الله العمري هالك وفي مصنف ابن أبي شيبة من رواية الزهري مراسلاً : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل بالخنس (٥) حديث : لم يأكل بأصبعين ويقول « إن ذلك أكلة الشيطان » أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف « لأننا كل بأصبع فإنه أكل الملوك ولا تأكل بأصبعين فإنه أكل الشياطين ... الحديث » .

(٦) حديث : جاءه عثمان بن عفان بفالودج . الحديث ، قلت : المعروف أن القى صنعه عثمان : الخبيص رواء البيهقي في الشعب من حديث ليث بن أبي سليم قال : إن أول من خبص الخبيص عثمان بن عفان ، قدمت عليه غير تحمل التقي والعسل ... الحديث . وقال هذا منقطع وروى الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن سلام : أقبل عثمان ومعه راحلة عليها غرارتان . وفيه : فإذا دقيق وسمن وعسل . وفيه : ثم قال لأصحابه كلوا هذا الذي تسميه فارس الخبيص . وأما خبر الفالودج فرواه ابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث ابن عباس قال : أول ما سمعنا بالفالودج أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمتك تفتح عليهم الأرض ويقاض عليهم من الدنيا حتى إنهم لياكلون الفالودج ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : وما الفالودج ؟ قال : يخلطون السمن والعسل جميعاً . قال ابن الجوزي في الموضوعات هذا حديث باطل لأصله (٧) حديث : كان يأكل خبز الشعير غير منخول : أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد (٨) حديث : كان يأكل القثاء بالرطب . متفق عليه من حديث عبد الله بن جعفر (٩) حديث : كان يأكل القثاء بالملح . أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة وفيه يحيى بن هاشم كذبه ابن معين وغيره ورواه ابن عدى وفيه عباد بن كثير متروك (١٠) حديث : كان أحب الفاكهة الرطبة إليه البطيخ والعنب . أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي من رواية أمية بن زيد العيسى : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب من الفاكهة العنب والبطيخ . وروى أبو الشيخ وابن عدى في السكامل والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أنس : كانت يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره ويأكل الرطب بالبطيخ ؛ وكان أحب الفاكهة إليه . فيه يوسف ابن عطية الصفار يجمع على ضغفه وروى ابن عدى من حديث عائشة : كان أحب الفاكهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرطب والبطيخ . وله من حديث آخر لها . فإن خير الفاكهة العنب . وكلاهما ضعيف (١١) حديث : كان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر . أما أكل البطيخ بالخبز فلم أره وإنما وجدت أكل العنب بالخبز . فإن خير الفاكهة العنب وخير الطعام الخبز « عليكم بالرازمة » قيل يارسول الله وما الرازمة ؟ قال « أكل الخبز مع العنب . فإن خير الفاكهة العنب وخير الطعام الخبز » وإسناده ضعيف . وأما أكل البطيخ بالسكر فإن أريد بالسكر نوع من تمر والرطب مشهور فهو الحديث الآتي بعده وإن أريد به السكر الذي هو الطبرزد فلم أره أصلاً إلا في حديث منسك مفضل رواء أبو عمر النوفلي في كتاب البطيخ من رواية محمد بن علي بن الحسين . أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل بطيخاً بسكر . وفيه موسى =

بالرطب ^(١) ويستعين باليدين جميعاً ، وأكل يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فرت شاة فأشار إليها بالنوى فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة ^(٢) وكان ربما أكل العنب خرطاً يرى زوانه على لحيته كحز اللؤلؤ ^(٣) وكان أكثر طعامه الماء والتمر ^(٤) وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميها الأطينين ^(٥) وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول « هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل ^(٦) » وكان يأكل الثريد باللحم والقرع ^(٧) وكان يحب القرع ويقول « إنها شجرة أخى يونس عليه السلام ^(٨) » قالت عائشة رضي الله عنها وكان يقول « يا عائشة إذ طبختم قدراً فأكثروا فيها من الدباء فإنه يشد قلب الحزين ^(٩) » وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد ^(١٠) وكان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له ويؤتي به فيأكله ^(١١) وكان إذا أكل اللحم لم يطأطى رأسه إليه ويرفعه إلى فيه رفعا ثم ينتهشه انتهاشاً ^(١٢) وكان يأكل الخبز والسمن ^(١٣) وكان يحب من الشاة الذراع والكف ، ومن القدر الدباء ومن الصباغ الخل ومن التمر

= ابن إبراهيم المروزي كذبه يحيى بن معين ^(١) حديث . أكل البطيخ بالرطب أخرجه الترمذي والذائي من حديث عائشة وحسنه الترمذي وابن ماجه من حديث سهل بن سعد . كان يأكل الرطب بالبطيخ . وهو عند الدارمي بلفظ . البطيخ بالرطب ^(٢) حديث . استعانت به باليدين جميعاً فأكل يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فرت شاة فأشار إليها بالنوى فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة . أما استعانت به يديه جميعاً فرواه أحمد من حديث عبد الله بن جعفر قال . آخر ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى يديه رطبات وفي الأخرى قناء يأكل من هذه وبعض من هذه . وتقدم حديث أنس في أكله بيديه قبل هذا بثلاثة أحاديث وأما قصته مع الشاة فرويناها في فوائد أبي بكر الشافعي من حديث أنس بإسناد ضعيف .

^(٣) حديث . ربما أكل العنب خرطاً ... الحديث . أخرجه ابن عدى في الكامل من حديث العباس والعقيلي في الضعفاء من حديث ابن عباس هكذا مختصراً وكلاماً ضعيف . ^(٤) حديث . كان أكثر طعامه الماء والتمر . أخرجه البخاري من حديث عائشة . توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شبعنا من الأسودين التمر والماء . ^(٥) حديث . كان يجمع اللبن بالتمر ويسميها الأطينين . أخرجه أحمد من رواية اسماعيل بن أبي خالد عن أبيه قال . دخلت على رجل وهو يجمع لبناً بتمر وقال . ادن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها الأطينين ورجاله ثقات ولها بهما لا يضر . ^(٦) حديث : كان أحب الطعام إليه اللحم ويقول « هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل » أخرجه أبو الشيخ من رواية ابن سمان قال : سمعت من علمائنا يقولون كان أحب الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللحم ... الحديث . والترمذي في الشمائل من حديث جابر : أتانا النبي صلى الله عليه وسلم في منزلنا فذبحنا له ذاة فقال « كأنهم علموا أنا نحب اللحم » ولستأده صحيح وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف : سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم . ^(٧) حديث : كان يأكل الثريد باللحم والقرع أخرجه مسلم من حديث أنس . ^(٨) حديث : كان يحب القرع ويقول « إنها شجرة أخى يونس » أخرجه الذائي وابن ماجه من حديث أنس : كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب القرع . وقال النسائي : الدباء ، وهو عند مسلم بلفظ : تعجبه وروى ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي هريرة في قصة يونس : فلطفته في أصل شجرة ، وهي الدباء . ^(٩) حديث « يا عائشة إذا طبختم قدراً فأكثروا فيها من الدباء فإنها تشد قلب الحزين . رويناه في فوائد أبي بكر الشافعي . ^(١٠) حديث : كان يأكل لحم الطير الذي يصاد . أخرجه الترمذي من حديث أنس قال : كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير فقال « اللهم ائتني بأحب الخلق إليك يأكل معي هذا الطير » فجاء على فأكل معه ، قال حديث غريب قلت وله طرق كلها ضعيفة . وروى أبو داود والترمذي واستنبره من حديث سفينة قال : أكلت مع النبي صلى الله عليه وسلم لحم حباري . ^(١١) حديث : كان لا يتبعه ولا يصيده ويجب أن يصاد له فيؤتي به فيأكله . قلت هذا هو الظاهر من أحواله فقد قال من تبع الصيد غفل رواه أبو داود والنسائي والترمذي من حديث ابن عباس وقال : حسن غريب وأما حديث صفوان بن أمية عند الطبراني « قد كانت قبل الله رسل كلهم يصطاد ويطلب الصيد » فهو ضعيف جداً . ^(١٢) حديث : كان إذا أكل اللحم لم يطأطى رأسه إليه ويرفعه إلى فيه رفعا ثم ينتهشه . أخرجه أبو داود من حديث صفوان بن أمية قال : كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم فآخذ اللحم من المظم فقال « أدن اللحم من فمك فإنه أهنا وأمرأ » والترمذي من حديثه « انتهش اللحم نهشاً فإنه أهنا وأمرأ » وهو منقطع والذي قبله منقطع أيضاً والشيخين من حديث أبي هريرة : فتناول الذراع فنهش منها نهشة ... الحديث . ^(١٣) حديث : كان يأكل الخبز والسمن . متفق عليه من حديث أنس في قصة طويلة فيها : فأنت بذلك الخبز فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقت وعصرت أم سليم عكة فأكلمته ... الحديث . وفيه : ثم أكل النبي صلى الله عليه وسلم . وفي رواية ابن ماجه : فصنعت فيها شيئاً من سمن ولا يصح وأبو داود وابن ماجه من حديث ابن عمر : وددت أن عندى خبزة بيضاء من بر سمراء ملبقة بسمن ... الحديث . قال أبو داود منكراً .

العجوة ^(١) ودعا في العجوة بالبركة وقال «هي من الجنة وشفاء من السم والسحر» ^(٢) ، وكان يحب من البقول الهندباء والبادروج والبقلة الحقاء التي يقال لها الرحلة ^(٣) : وكان يكره الكليتين لمكانهما من البقول ^(٤) وكان لا يأكل من الشاة سبعا : الذكر والأنثيين والثانة والمرارة والغدد والحيا والدم ، ويكره ذلك ^(٥) وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث ^(٦) وما ذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبخضه إلى غيره ^(٧) وكان يعاف الضب والطحال ولا يجرهما ^(٨) وكان يلعق بأصابعه الصحيفة ويقول : آخر الطعام أكثر بركة ^(٩) : وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر ^(١٠) وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول : إنه لا يدري في أي الطعام البركة ^(١١) :

(١) حديث : كان يحب من الشاة القراع والكتف ومن القدر الدياء ومن الصباغ الخل ومن التمر العجوة . وروى الشيخان من حديث أبي هريرة قال : وضعت بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قصعة من ثريد ولحم فتناول القراع وكانت أحب الشاة لمليه ... الحديث . وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس : كان أحب اللحم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتف . وإسناده ضعيف ومن حديث أبي هريرة : لم يكن يعجبه من الشاة إلا الكتف . وتقدم حديث أنس : كان يحب الدياء . قبل هذا بسة أحاديث ولأبي الشيخ من حديث أنس : كان أحب الطعام لمليه الدياء . وله من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف : كان أحب الصباغ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخل . وله بالإسناد المذكور : كان أحب التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العجوة .

(٢) حديث : دعا في العجوة بالبركة وقال «هي من الجنة وشفاء من السم والسحر» أخرجه الزائر والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن الأسود قال : كننا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد سدوس فأهدينا له تمرا . وفيه : حتى ذكرنا تمر أهلنا هذا الجذامي فقال «بارك الله في الجذامي وفي حديثه خراج هذا منها» ... الحديث «قال أبو موسى المدني : قيل هو تمر آخر والتمذي والذاني وابن ماجه من حديث أبي هريرة «العجوة من الجنة وهي شفاء من السم» وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص «من أصبح تسبع تمرات من عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر» . (٣) حديث : كان يحب من البقول الهندباء والبادروج والبقلة الحقاء - التي يقال لها الرحلة - أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس «عليكم بالهندباء فإنه ما يوم إلا ويقطر عليه قطرة من قطر الجنة» وله من حديث الحسن بن علي وأنس بن مالك نحوه وكلها ضعيفة وأما البادروج فلم أجد فيه حديثا وأما الرحلة فروى أبو نعيم من رواية ثوير قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم بالرجلة وفي رجله قرحة فداواها بها فبرئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بارك الله فيك أنبتني حيث شئت فأنت شفاء من سبعين داء أدناء الصداع» وهذا مرسل ضعيف

(٤) حديث : كان يكره الكليتين لمكانهما من البقول . رويته في جزء من حديث أبي بكر محمد بن عبيد الله بن الشخير من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف فيه أبو سعيد الحسن بن علي العدوي أحد الكذابين . (٥) حديث : كان لا يأكل من الشاة الذكر والأنثيين والثانة والمرارة والغدة والحيا والدم . أخرجه ابن عدي ومن طريقه البيهقي من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ورواه البيهقي من رواية مجاهد مرسل . (٦) حديث : كان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث . أخرجه مالك في الموطأ عن الزهري عن سليمان بن يسار مرسل ووصله البخاري في غرائب مالك عن الزهري عن أنس وفي الصحيحين من حديث جابر : أتني بقدر فيه خضرات من بقول فوجد لها ريحا ... الحديث . وفيه : قال فاني أناجي من لاتاجي . ولمسلم من حديث أبي أيوب في قصة بعثته إليه بطعام فيه ثوم فلم يأكل منه وقال «لاني أكرهه من أجل ريحه» . (٧) حديث : ما ذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبخضه إلى غيره . تقدم أول الحديث وفي الصحيحين من حديث ابن عمر في قصة الضب فقال «كلوا فإنه ليس بمجرم ولا بأس به ولكنه ليس من طعام قومي» (٨) حديث : كان يعاف الضب والطحال ولا يجرهما أما الضب ففي الصحيحين عن ابن عباس «لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه» ولها من حديث ابن عمر «أحلت لنا ميتتان ودمان» وفيه «أما الدمان : فالعبد والطحال» وللبهقي موقوفا على زيد بن ثابت «لاني لا أكل الطحال وما بي إليه حاجة إلا ليعلم أهلي أنه لا بأس به»

(٩) حديث : كان يلعق الصحيفة ويقول «آخر الطعام أكثر بركة» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث جابر في حديث قال فيه : ولا ترفع القمصه حتى تلعقها - أو تلعقها - فإن آخر الطعام في البركة . ومسلم من حديث أنس : أمرنا أن نسلت الصحيفة وقال «إن أحدكم لا يدري أي طعامه يبارك له فيه ؟» . (١٠) حديث : كان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر . أخرجه من حديث كعب بن مالك دون قوله حتى تحمر فلم أقف له على أصل . (١١) حديث كان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول «إنه لا يدري في أي أصابعه البركة» أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك . أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يمسح يده حتى يلعقها وله من حديث جابر . فإذا فرغ فليلعق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة ؟ وللبهقي في الشعب من حديثه «لا يمسح أحدكم يده بالمنديل حتى يلعق يده فإن الرجل لا يدري في أي طعامه يبارك له فيه» .

وإذا فرغ قال « الحمد لله اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعت وسقيت فأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ^(١) ، وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلًا جيدًا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه ^(٢) وكان يشرب في ثلاث دفعات وله فيها ثلاث تسميات وفي أواخرها ثلاث تحميدات ^(٣) وكان يمص الماء مصا ولا يعب عبا ^(٤) وكان يدفع فضل سؤره إلى من على يمينه ^(٥) فإن كان من على يساره أجل رتبة قال للذي على يمينه « السنة أن تعطى فإن أحببت آثرتهم ^(٦) ، وربما كان يشرب بنفس واحد حتى يفرغ ^(٧) وكان لا يتنفس في الإناء بل ينحرف عنه ^(٨) وأتى بإناء فيه غسل ولبن فأبى أن يشربه وقال « شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد ^(٩) ، ثم قال صلى الله عليه وسلم « لا أحرمه ولكني أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غداً وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه الله ، وكان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاما ولا يتشبهاء عليهم إن أطعموه أكل وما أعطوه قبل وما سقوه شرب ^(١٠) وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب ^(١١) .

(١) حديث : وإذا فرغ قال « اللهم لك الحمد أطعمت وأشبعت وسقيت وأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه » أخرجه الطبراني من حديث الحارث بن الحارث بسند ضعيف ولا يخارى من حديث أبي أمامة : كان إذا فرغ من طعامه قال « الحمد لله الذي كفاها وآوانا غير مكفى ولا مكفور » وقال مرة « الحمد لله ربنا غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى منه ربنا » (٢) حديث : كان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلًا جيدًا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه » أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف من أكل من هذه اللحوم شيئًا فليغسل يده من ريع وضرة لا يؤذى من حذاه » . (٣) حديث : كان يشرب في ثلاث دفعات له فيها ثلاث تسميات وفي آخرها ثلاث تحميدات » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورجاله ثقات ومسلم من حديث أنس : كان إذا شرب تنفس ثلاثا . (٤) حديث : كان يمص الماء مصا ولا يعب عبا . أخرجه البغوي والطبراني وابن عدى وابن قانع وابن منده وأبو نعيم في الصحابة من حديث بهز : كان يستاك عرضا ويشرب مصا . والطبراني من حديث أم سلمة : كان لا يعب . ولأبي الشيخ من حديث ميمونة : لا يب ولا يلهث . وكلها ضعيفة . (٥) حديث : كان يدفع فضل سؤره إلى من عن يمينه . متفق عليه من حديث أنس . (٦) حديث : استئذنه من على يمينه إذا كان من على يساره أجل رتبة . متفق عليه من حديث سهل بن سعد . (٧) حديث : شربه بنفس واحد . أخرجه أبو الشيخ من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف وللحاكم من حديث أبي قتادة وصححه « إذا شرب أحدكم فليشرب بنفس واحد » ولعل تأويل هذين الحديثين على ترك التنفس في الإناء والله أعلم . (٨) حديث : كان لا يتنفس في الإناء حتى ينحرف عنه . أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة « ولا يتنفس أحدكم في الإناء إذا شرب منه ولكن إذا أراد أن يتنفس فليؤخره عنه ثم لينفث » وقال حديث صحيح الإسناد .

(٩) حديث : أتى بإناء فيه غسل ولبن فأبى أن يشربه وقال « شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد ... الحديث » رواه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله « شربتان في شربة » إلى آخره وسنده ضعيف . (١٠) حديث : كان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاما ولا يتشبهاء عليهم إن أطعموه أكل وما أعطوه قبل وما سقوه شرب » رواه الشيخان من حديث أبي سعيد : كان أشد حياء من العذراء في خدرها ... الحديث . وقد تقدم ، وأما كونه كان لا يسألهم طعاما فإنه أراد أى طعام بعينه من حديث عائشة : أنه قال ذات يوم « يا عائشة هل عندكم شيء ؟ » قالت : فقلت ما عندنا شيء ؟ الحديث وفيه : فلما رجع قلت : أهديت لنا هدية ، قال « ماهو ؟ » قلت : حيس ، قال « هاتيه » وفي رواية « قرييه » وفي رواية للنسائي « أصبح عندكم شيء تطعميني ؟ » ولأبي داود « هل عندكم طعام ؟ » والترمذي « أعندك غداء ؟ » وفي الصحيحين من حديث عائشة : فدعا بطعام فأبى بخبز وأدم من أدم البيت فقال « ألم أر برمة على النار فيها لحم ؟ .. الحديث » وفي رواية لمسلم « لو صنعت لنا من هذا اللحم ... الحديث » فليس في قصة بريرة إلا الاستفهام والرضا . والحكمة فيه بيان الحكم لا التمهى والله أعلم . ولشيخين من حديث أم الفضل : أنها أرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فغربه . ولأبي داود من حديث أم هانئ : فجاءت الوليدة بإناء فيه شراب فتناولوه فغربه منه . وإسناده حسن . (١١) حديث : وكان ربما قام فأخذ ما يأكل أو يشرب بنفسه . أخرجه أبو داود من حديث أم المنذر بنت قيس . دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فغربه ومعه على - وعلى ناقه - ولنا دوال معلقة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل منها ... الحديث . وإسناده حسن والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث كبشة : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فغربه من في قربة معلقة قائما ... الحديث .

بيان آدابه وأخلاقه في اللباس

كان صلى الله عليه وسلم يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك ^(١) وكان يعجبه الثياب الخضراء ^(٢) وكان أكثر لباسه البياض ويقول « ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » وكان يلبس القباء المشق للحرب وغير الحرب ^(٣) وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه ^(٤) وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق السكعين ويكون الأزار فوق ذلك إلى نصف الساق ^(٥) وكان قميصه مشدود الأزار وربما حل الأزار في الصلاة وغيرها ^(٦) وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها وحدها ^(٧) وربما ليس الكساء وحده ما عليه غيره ^(٨) وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول « إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد » ^(٩) وكان له ثوبان

بيان آدابه وأخلاقه في اللباس

(١) حديث : كان يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك . أخرجه الشيخان من حديث عائشة . أنها أخرجت إزارا مما يصنع باليمن وكساء من هذه الملبدة فقالت في هذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية : لمزارا غليظا . ولهما من حديث أنس : كنت أمتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية ... الحديث . لفظ مسلم وقال البخاري برد نجراني . وابن ماجه بسند ضعيف من حديث ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قميصا قصير اليدين والطول . وأبو داود والترمذي وحسنه . والنسائي من حديث أم سلمة : كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم القميص . ولأبي داود من حديث أسماء بنت يزيد : كانت يد قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرسغ . وفيه شهر ابن حوشب مختلف فيه وتقدم قبل هذا الحديث حديث : الجبة والشملة والخبر . (٢) حديث : كان أكثر لباسه البياض ويقول « ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عباس « خير ثيابكم البياض فألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » قال الحاكم : صحيح الإسناد وله ولأصحاب السنن من حديث سمرة « عليكم بهذه الثياب البياض فليلبسها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » انظر الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وقال الترمذي حسن صحيح .

(٣) حديث « كان يلبس القباء المشق للحرب وغير الحرب » أخرجه الشيخان من حديث المسور بن مخرمة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قدمت عليه أفيية من ديباج مزرر بالذهب ... الحديث . وليس في طرق الحديث لبسها لالا في طريق علقها البخاري قال : مفرج وعليه قباء من ديباج مزررة بالذهب ... الحديث ومسلم من حديث جابر : لبس النبي صلى الله عليه وسلم يوما قباء من ديباج أهدي له ثم نزع ... الحديث . (٤) حديث كان له قباء سندس فيلبسه ... الحديث « أخرجه أحمد من حديث أنس : أن أكيدر دومة أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم جبة سندس أو ديباج قبل أن ينهى عن الحرير فلبسها . والحديث في الصحيحين وليس فيه أنه لبسها وقال فيه : وكان ينهى عن الحرير وعند الترمذي وصححه النسائي أنه لبسها ولكنه قال : بغير ديباج منسوجة فيها الذهب (٥) حديث : كان ثيابه كلها مشمرة فوق السكعين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق رواه أبو الفضل محمد بن طاهر

في كتاب صفوة التصوف من حديث عبد الله بن يسر : كانت ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم لمزازه فوق السكعين وقميصه فوق ذلك ورداؤه فوق ذلك ولإسناده ضعيف والحاكم وصححه من حديث ابن عباس : كان يلبس قميصا فوق السكعين ... الحديث وهو عنده بقط : قميصا قصير اليدين والطول وعمدهما والترمذي في المعال من رواية الأشعث قال : سمعت عمتي تحدث عن عمها فذكر النبي صلى الله عليه وسلم وفيه : فإذا لمزازه إلى نصف ساقه ورواه النسائي وسمى الصحابي عبيد بن خالد واسم عمه الأشعث وهم بيت الأسود ولا يعرف (٦) حديث : كان قميصه مشدود الأزار وربما حل الأزار في الصلاة وغيرها أبو داود والبيهقي والترمذي في المعال من رواية معاوية بن قررة بن إياس عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في رهط من مزينة وبإيئانه وان قميصه لمطابق الأزار . والبيهقي من رواية زيد بن أسلم قال : رأيت ابن عمر يصلي محولة أزاره فسألتهم عن ذلك فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل . وفي العلل للترمذي أنه سأل البخاري عن هذا الحديث فقال : أنا أتقي هذا الشيخ كأن حديثه موضوع يعني زهير بن محمد راويه عن زيد بن أسلم قلت تابعه عليه الوليد بن مسلم عن زيد رواه ابن خزيمة في صحيحه ، وللطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي محتبيا محلل الأزار (٧) حديث : كان له ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها أخرجه أبو داود والترمذي من حديث قتلة بنت مخرمة قالت : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه أسما ملءتين كاتتا يزعفران قال الترمذي لا يعرفه إلا من عبد الله بن حسان . قلت ورواه موهبتون وأبو داود من حديث قيس بن سعد فاغتسل ثم ناوله أبي سعد ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها الحديث ورجاله ثقات .

(٨) حديث : ربما لبس الكساء وحده ليس عليه غيره رواه ابن ماجه وابن خزيمة من حديث ثابت بن الصامت : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في بني عبد الأشمل وعليه كساء متلف به ... الحديث . وفي رواية البزار في كساء (٩) حديث : كان له كساء ملبد يلبسه ويقول « أنا عبد ألبس كما يلبس العبد » أخرجه الشيخان من رواية أبي بردة قال : أخرجت لنا عائشة كساء ملبد

لجمعت خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة ^(١) وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه ^(٢) وربما أم به الناس على الجنائز ^(٣) وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتصقا به مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ ^(٤) وكان ربما صلى بالليل في الإزار ويرتدى ببعض الثوب مما يلي هديه ويلقى البقية على بعض نسائه فيصلى كذلك ^(٥) ولقد كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة : بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء الأسود ؟ فقال «كسوته» فقالت ما رأيت شيئا قط كان أحسن من يياضك على سواده ^(٦) وقال أنس : وربما رأيت يصى بنا الظهر في شملة عاقدا بين طرفيه ^(٧) وكان يتختم ^(٨) وربما خرج وفي خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشيء ^(٩) وكان يتختم به على الكتف ويقول الخاتم على الكتاب خير من التهمة ^(١٠) وكان يلبس القلائس تحت العمام وبغير عمامة ، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها ستره بين يديه ثم يصلى إليها ^(١١) وربما لم تكن العمامة فيشد العصاة

= وإزارا غليظا فقالت : في هذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللبخاري من حديث عمر « إنما أنا عبد » ولعبد الرزاق في المصنف من رواية أيوب السخيتاني مرفوعا معضلا « إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » وتقدم من حديث أنس وابن عمر وعائشة . مقصلا .

(١) حديث : كان له ثوبان لجمعه خاصة ... الحديث . أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف زاد : فإذا انصرف طويناها إلى مثله . ويردده حديث عائشة عند ابن ماجه : ما رأيت يصب أحدا ولا يطوى له ثوب .

(٢) حديث : ربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره فعقد طرفيه بين كتفيه . أخرجه الشيخان من حديث عمر في حديث اعتراله أهله : فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره . وللبخاري من رواية محمد بن المنكدر صلى بنا جابر في إزار قد عقده من قبل قفاه وثيابه موضوعه على المشجب وفي رواية له وهو يصلى في ثوب ملتصقا به ورداؤه موضوع وفيه : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلى هكذا (٣) حديث : ربما أم به الناس على الجنائز . لم أقف عليه (٤) حديث : ربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتصقا به مخالفا بين طرفيه ويسكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ أخرجه أبو يعلى بإسناد حسن من حديث معاوية قال : دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في ثوب واحد فقلت : يا أم حبيبة أيا يصلى النبي صلى الله عليه وسلم في الثوب الواحد ؟ قالت : نعم ، وهو الذي كان فيه ما كان - تعني الجماع - ورواه الطبراني في الأوسط .

(٥) حديث : ربما كان يصلى بالليل ويرتدى ببعض الثوب مما يلي هديه ويلقى البقية على بعض نسائه . أخرجه أبو داود من حديث عائشة : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلى في ثوب بعضه على . ولمسلم : كان يصلى من الليل وأنا إلى جنبه وأنا حائض وعلى مرط بعضه على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللطبراني في الأوسط من حديث أبي عبد الرحمن حاض عائشة : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة يصليان في ثوب واحد نصفه على النبي صلى الله عليه وسلم ونصفه على عائشة . وسنده ضعيف .

(٦) حديث : كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة : بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء ؟ ... الحديث . لم أقف عليه من حديث أم سلمة . ولمسلم من حديث عائشة : خرج النبي صلى الله عليه وسلم وعليه مرط مرجل أسود . ولأبي داود والنسائي : صنعت للنبي صلى الله عليه وسلم بردة سوداء من صوف فلبسها ... الحديث . وزاد فيه ابن سعد في الطبقات : فذكرت يياض النبي صلى الله عليه وسلم وسوداها ورواه الحاكم بلفظ : جبة . وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث أنس : ربما رأيت يصى بنا الظهر في شملة عاقدا بين طرفيه . أخرجه البزار وأبو يعلى بلفظ : صلى بثوب واحد وقد خالف بين طرفيه . وللبزار : خرج في مرضه الذي مات فيه مرتديا بثوب قطن فصلى بالناس وإسناده صحيح . وابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت : صلى في شملة قد عقد عليها . وفي كامل ابن عدي : قد عقد عليها هكذا - وأشار سفيان إلى قفاه - وفي جزء النظريف : فقدها في عنقه ما عليه غيرها . وإسناده ضعيف (٨) حديث : كان يتختم . أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر وأنس (٩) حديث : ربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشيء . أخرجه ابن عدي من حديث وائلة بسند ضعيف : كان إذا أراد الحاجة أوثق في خاتمه خيطا . وزاد الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث ابن عمر : ليذكره به . وسنده ضعيف .

(١٠) حديث : كان يتختم به على الكتف ويقول « الخاتم على الكتاب خير من التهمة » أخرجه الشيخان من حديث أنس : لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى الروم قالوا : لهم لا يقرءون إلا كتابا محتوما فاتخذ خاتما من فضة ... الحديث . والنسائي والترمذي في الشمائل من حديث ابن عمر : اتخذ خاتما من فضة كان يتختم به ولا يلبسه . وسنده صحيح وأما قوله « الخاتم على الكتاب خير من التهمة » فلم أقف له على أصل . (١١) حديث : كان يلبس القلائس تحت العمام وبغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها ستره بين يديه ثم يصلى إليها . أخرجه الطبراني وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قلنسوة بيضاء . ولأبي الشيخ من حديث ابن عباس : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث قلائس . قلنسوة بيضاء مضرية وقلنسوة برد حبرة وقلنسوة ذات آذان يلبسها في السفر وربما وضعها بين يديه لذا صلى =

على رأسه وعلى جبهته ^(١) وكانت له عمامه تسمى : السحاب ، فوهبها من على فربما طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم : « أنا كم على في السحاب » ^(٢) ، وكان إذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه ^(٣) ويقول : الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى وأتجمل به في الناس ^(٤) ، وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره ^(٥) وكان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول : « ما من مسلم يكسو مسلما من سمل ثيابه لا يكسوه إلا الله إلا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واره حيا وميتا » ^(٦) ، وكان له فراش من آدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر أو نحوه ^(٧) وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل ثلثي طاقين تحته ^(٨) وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره ^(٩) وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه ، وكان اسم رايته : العقاب . واسم سيفه الذي يشهده بالحروب : ذو الفقار . وكان له سيف يقال له : المخزم . وآخر يقال له : الرسوب . وآخر يقال له : القضيبي . وكانت قبضة سيفه بحلاة بالفضة ^(١٠)

= وإسناده ضعيف ولأبي داود والترمذي من حديث ركاة « فرق ما بيننا وبين المشركين المأثم على القلائس » قال الترمذي : غريب وليس إسناده بالقائم . (١) حديث : ربما لم تكن العلامة فيئيد العصابة على رأسه وعلى جبهته . أخرجه من حديث ابن عباس سعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر وقد عصب رأسه بعصابة دسما . الحديث . (٢) حديث : كانت له عمامه تسمى السحاب فوهبها من على فربما طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم : « أنا كم على في السحاب » أخرجه ابن عدى وأبو الشيخ من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده وهو مرسل ضعيف جدا ولأبي نعيم في دلائل النبوة من حديث عمر في أثناء حديث : عمامته السحاب . الحديث . (٣) حديث . كان إذا لبس ثوبا يلبسه من قبل ميامنه . أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ورجال رجال الصحيح وقد اختلف في رفعه . (٤) حديث « الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى وأتجمل به في الناس » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر بن الخطاب . (٥) حديث : كان إذا نزع ثوبه خرج من مياسره . أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر : كان إذا لبس شيئا من الثياب بدأ بالأيمن وإذا نزع بدأ باليسر . وله من حديث أنس : كان إذا ارتدى أو ترجل أو اتقل بدأ يمينه وإذا خلع بدأ بيساره . وسندها ضعيف وهو في الاتصال في الصحيحين من حديث أبي هريرة من قوله لا من فعله . (٦) حديث : كان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول « ما من مسلم يكسو مسلما .. الحديث » أخرجه الحاكم في المستدرک والبيهقي في الشعب من حديث عمر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بثيابه فلبسها فلما بلغ تراقيه قال « الحمد لله الذي كساني ما أتجمل به في حياتي وأوارى به عورتى » ثم قال « ما من مسلم يلبس ثوبا جديدا ... الحديث » دون ذكر : تصدقه صلى الله عليه وسلم بثيابه وهو عند الترمذي وابن ماجه دون ذكر لبس النبي صلى الله عليه وسلم ثيابه وهو أصح وقد تقدم قال البيهقي وهو غير قوى .

(٧) حديث : كان له فراش من آدم حشوه ليف ... الحديث . متفق عليه من حديث عائشة مقتصر على هذا دون ذكر : عرضه وطوله . ولأبي الشيخ من حديث أم سلمة . كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم نحو ما يوضع الإنسان في قبره . وفيه : من لم يسم . (٨) حديث : كانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تفرش طاقين تحته . أخرجه ابن سعد في الطبقات وأبو الشيخ من حديث عائشة : دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية ... الحديث . ولأبي سعيد عنها : أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة بائتين ... الحديث وكلاهما لا يصح . والترمذي في الفهائم من حديث حفصة بن أسامة : ما كان فراشه ؟ قالت : مسح ثلثيه ثلثين فينام عليه ... الحديث . وهو منقطع . (٩) حديث : كان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره . متفق عليه من حديث عمر : في قصة اعتزال النبي صلى الله عليه وسلم نساءه . (١٠) حديث : كان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه وكان اسم رايته العقاب واسم سيفه الذي يشهده بالحروب ذو الفقار وكان له سيف يقال له المخزم وآخر يقال له الرسوب وآخر يقال له القضيبي وكان قبضة سيفه بحلاة بالفضة . أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف قائمته من فضة وقبيته من فضة وكان يسمى ذا الفقار وكانت له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجمع وكانت له درع موشجة بنحاس تسمى ذات العضول وكانت له حربية تسمى النبعة وكانت له بحن تسمى الدفن وكان له ترس أبيض يسمى موجزا وكان له فرس أدهم يسمى السكب وكان له سرج يسمى الداج المؤخر وكان له بنلة شهباء يقال له الدلبل وكانت له ناقة تسمى الفصواء وكان له حمار يسمى يعفور وكان له بساط يسمى الكرو وكانت له عترة تسمى المنر وكانت لها ركوة تسمى الصادر وكانت له مرآة تسمى المرآة وكان له مقراض يسمى الجامع وكان له قضيب شوحط يسمى المشوق . وفيه على بن غررة القمشق نسب إلى وضع الحديث ورواه ابن عدى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف : كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء تسمى العقاب . ورواه أبو الشيخ من حديث الحسن مرسل وله من حديث علي بن أبي طالب : كان اسم سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذا الفقار . أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم تنقل سيفه ذا الفقار يوم بدر =

وكان يلبس المنطقة من الادم فيها ثلاث حلق من فضة ^(١) وكان اسم قوسه : السكتوم . وجعبته الكافور ^(٢) وكان اسم ناقته : القصواء ، وهى التى يقال لها : العضباء - واسم بغلته : الدلدل : وكان اسم حماره يعفور واسم شاته التى يشرب لبنها عينة ^(٣) وكان له مطهرة من ثغار يتوضأ فيها ويشرب منها ^(٤) فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد عقلوا فيدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدفعون عنه فإذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا على وجوههم وأجسادهم ويبتغون بذلك البركة .

بيان عفوه صلى الله عليه وسلم مع قدرته

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس ^(٥) وأرغبهم في العفو مع القدرة حتى أتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه فقام رجل من أهل البادية فقال : يا محمد والله لئن أمرك الله أن تعدل فأرأك تعدل : فقال : ويحك فمن يعدل عليه بعدى ، فلما ولى قال : ردوه على رويدا ^(٦) ، روى جابر : أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبض للناس يوم خيبر من فضة في ثوب بلال فقال له رجل : يا رسول الله أعدل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل فقد خبت إذن وخسرت إن كنت لا أعدل ، فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه فإنه منافق فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابي ^(٧) : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرب فرأوا من المسلمين غرة لجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك منى ؟ فقال : الله ، فقال : فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف وقال : من يمنعك منى ؟ فقال : كن خير آخذ قال : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله : فقال : لا ، غير أنى لا أقاتلك ولا أكون معك

= والحاكم من حديث على في أنباء حديث وسيفه ذو الفقار وهو ضعيف ولا بن سعد في الطبقات من رواية مروان بن أبي سعيد ابن المولى مرسل قال : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلاح بني قينقاع ثلاثة أسياف : سيف قلعى وسيف يدعى بئارا وسيف يدعى الحنف ، وكان عنده بعد ذلك الخنزم ورسوب أصابهما من القمل وفي سنده الواقدي وذكر ابن أبي خيثمة في تاريخه : أنه يقال أنه صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ومعه سيفان يقال لأحدهما العضب شهد به بدرًا ولأبى داود والترمذى وقال حسن والنسائي وقال منكر من حديث أنس : كانت قبعة سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فضة . ^(١) حديث : كان يلبس المنطقة من الادم فيها ثلاث حلق من فضة لم أقف له على أصل : ولا بن سعد في الطبقات وأبى الشيخ من رواية محمد بن عبد بن الحسين مرسل : كان في درع النبي صلى الله عليه وسلم حلقتان من فضة . ^(٢) حديث : كان اسم قوسه السكتوم وجعبته الكافور . لم أجد له أصلاً وقد تقدم في حديث ابن عباس : أنه كانت له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجمع وقال ابن أبي خيثمة في تاريخه : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد من سلاح بني قينقاع ثلاثة قسي : قوس اسمها الروحاء ، وقوس شوخط تدعى البيضاء ، وقوس صفراء تدعى الصفراء : من سبع .

^(٣) حديث : كان اسم ناقته القصواء وهى التى يقال لها العضباء واسم بغلته الدلدل واسم حماره يعفور واسم شاته التى يشرب لبنها عينة . تقدم بعضه من حديث ابن عباس عند الطبراني ، والبخارى من حديث أنس : كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة يقال لها العضباء . ولمسلم من حديث جابر في حجة الوداع : ثم ركب القصواء والحاكم من حديث على : ناقته القصواء وبغلته دلدل وحماره عفير ... الحديث . وروى ابن الدحداح فقال : حماره يعفور وفيه شاته بركة والبخارى من حديث معاذ : كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له : عفير ، ولا بن سعد في الطبقات من رواية إبراهيم بن عبد الله من ولد عتبة بن غزوان : كانت مناج رسول الله صلى الله عليه وسلم من النعم سبعا : عجوة وزمزم وسقيا وبركة ورشة وأهلل وأطراف . وفي سنده الواقدي وله من رواية مكحول مرسل : كانت له شاة تسمى قر ^(٤) حديث : كانت له مطهرة من ثغار يتوضأ منها ويشرب فيها : الحديث . لم أقف له على أصل .

بيان عفوه صلى الله عليه وسلم مع قدرته

^(٥) حديث : كان أحلم الناس . تقدم ^(٦) حديث : أتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه .. الحديث أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر بإسناد جيد ^(٧) حديث جابر : أنه كان يقبض قلناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال فقال له رجل : يابى الله أعدل ... الحديث . رواء مسلم

ولأكون مع قوم يقاتلونك ، غلى سبيله ، فجاء أصحابه فقال : جئتم من عند خير الناس ^(١) وروى أنس : أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ليأكل منها فجاء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك فقالت . أردت قتلك ؛ فقال : ما كان الله ليسلطك على ذلك : قالوا : أفلا تقتلها ؟ فقال . لا ^(٢) : وسجره رجل من اليهود فأخبره جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام بذلك حتى استخرجه وحل العقد فوجد لذلك خفة وما ذكر ذلك لليهودي ولا أظهره عليه قط ^(٣) وقال علي رضي الله عنه : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا الزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب فخذوه منها : فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا أخرجي الكتاب فقالت : مامعي من كتاب فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنزعن الثياب ، فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمرا من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا حاطب ما هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل على أني كنت امرا مخلصا في قومي وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب منهم أن أخخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي ، ولم أفعل ذلك كفرا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتدادا عن ديني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه صدقكم : فقال عمر رضي الله عنه : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدرا وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ^(٤) : وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة فقال رجل من الأنصار : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ؟ فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فاحتمر وجهه وقال : رحم الله أخى موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر ^(٥) : وكان صلى الله عليه وسلم يقول : لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأسلم الصدر ^(٦) .

بيان إغضاضه صلى الله عليه وسلم عما كان يكرهه

كان رسول الله رفيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف في وجهه غضبه ورضاه ^(٧) وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة ^(٨) وكان لا يشافه أحد بما يكرهه دخل عليه رجل وعليه صفرة ففكرها فلم يقل له شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم : لو قلتم لهذا أن يدع هذه ^(٩) : يعني الصفرة . وبال أعرابي في المسجد بحضرته فهم به

(١) حديث : كان في حرب فرؤى في المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ... الحديث متفق عليه من حديث جابر بنحوه وهو في مسند أحمد أقرب إلى لفظ المصنف وسمى الرجل غورث بن الحارث .
(٢) حديث أنس : أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ... الحديث رواه مسلم وهو عند البخاري من حديث أبي هريرة . (٣) حديث : سجره رجل من اليهود فأخبره جبريل بذلك حتى استخرجه ... الحديث . أخرجه النسائي بإسناد صحيح من حديث زيد بن أرقم وقصة سجره في الصحيحين من حديث عائشة بلفظ آخر . (٤) حديث علي : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد وقال « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ » ... الحديث « متفق عليه » (٥) حديث : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة فقال رجل من الأنصار : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٦) حديث « لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث ابن مسعود وقال غريب من هذا الوجه .

بيان إغضاضه صلى الله عليه وسلم عما يكرهه

(٧) حديث : كان رفيق البشرة لطيف الظاهر يعرف في وجهه غضبه أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف رضاه وغضبه بوجهه ... الحديث . وقد تقدم . (٨) حديث : كان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة ... الحديث . وقد تقدم أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة بإسناد حسن . (٩) حديث : كان لا يشافه أحد بما يكرهه . دخل عليه رجل وعليه صفرة ففكرها فلم يقل شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم « لو قلتم لهذا أن يدع هذه » يعني الصفرة أخرجه أبو داود والترمذي في المعاني والنسائي في اليوم واليلة من حديث أنس وإسناده ضعيف .

الصحابه فقال صلى الله عليه وسلم « لا ترموه » ، أى لا تقطعوا عليه البول ثم قال له « إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر والبول والخلاء ^(١) » ، وفى رواية « قزبوا ولا تنفروا » . وجاءه أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم ثم قال له « أحسنت إليك » ، قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت ، قال : فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئا ثم قال « أحسنت إليك » ، قال : نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابي شيء من ذلك فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن هذا الأعرابي قال ما قال فردناه فزعم أنه رضى أكذلك » ، فقال الأعرابي : نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفورا فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين نائقي فإنني أرفق بها وأعلم فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قام الأرض فردها هونا حتى جاءت واستناخت وشدها عليها رحلها واستوى عليها وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار ^(٢) » .

بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأسخاهم وكان فى شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئا ^(٣) وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أرقبه ولا بعده مثله ^(٤) وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه ^(٥) وأن رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال : أسلبوا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة . وما سئل شيئا قط فقال لا ^(٦) وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها ^(٧) وجاء رجل فسأله فقال « ما عندى شيء ولكن اتبع على فإذا جاء ما شيء قضيناه » فقال عمر : يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الرجل : أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا ، فتبسم النبي صلى الله

(١) حديث : بال أعرابي فى المسجد بمحضته فقال صلى الله عليه وسلم « لا ترموه ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس .

(٢) حديث : جاء أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « أحسنت إليك » فقال الأعرابي : لا ، ولا أجملت .. الحديث . بطوله أخرجه البزار وأبو الشيخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث : كان أجود الناس وأسخاهم وكان فى شهر رمضان كالريح المرسلة . أخرجه الشيخان من حديث أنس : كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس . ولها من حديث ابن عباس : كان أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان . وفيه : فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة . (٤) حديث : كان على إذا وصف النبي

صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا وأجرأ الناس صدرا .. الحديث . رواه الترمذى وقال ليس إسناده بمتمصل .

(٥) حديث : ما سئل شيئا قط على الإسلام إلا أعطاه ... الحديث . متفق عليه من حديث أنس . (٦) حديث : ما سئل

شيئا قط فقال : لا ، متفق عليه من حديث جابر . (٧) حديث : حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها

يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها . أخرجه أبو الحسن بن الضحاك فى المصنف من حديث الحسن مرسل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه مال من البحرين فممانون ألفا لم يقدم عليه مال أكثر منه ، لم يسأله يومئذ أحد إلا أعطاه ولم يمنع سائلا ولم يبط

ساكتا فقال له العباس ... الحديث . والبيضاوى تعليقا من حديث أنس : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر

مال أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وفيه : فساكن يرى أحدا إلا أعطاه إذ جاءه العباس ... الحديث

ووصله عمر بن محمد البحرى فى صحيحه .

عليه وسلم وعرف السرور في وجهه ^(١) ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه فوق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاء لعا لقسمتها بينكم ثم لاتجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً ^(٢) » .

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أنجد الناس وأشجعهم ^(٣) قال علي رضي الله عنه : لقد رأيته يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً ^(٤) وقال أيضاً : كنا إذا احتر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ^(٥) قيل : وكان صلى الله عليه وسلم قليل الكلام قليل الحديث فإذا أمر الناس بالقتال تشمر وكان من أشد الناس بأساً ^(٦) وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدو ^(٧) وقال عمران بن بن حصين : ما لي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب ^(٨) وقالوا : كان قوى البطش ^(٩) ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب : فما روى يومئذ أحد كان أشد منه ^(١٠) »

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أشد الناس تواضعاً في علو منصبه ^(١١) قال ابن عامر : رأيته يرمى الجرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك ^(١٢) وكان يركب الحمار موكفاً عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف ^(١٣) وكان يعود

(١) حديث : جاءه رجل فسأله فقال « ما عندي شيء ولكن اتبع على فإذا جاءنا شيء قضينا » فقال عمر : يا رسول الله ما كلفك الله . . . الحديث أخرجه الترمذي في المعجمين من حديث عمر وفيه موسى بن علقمة القروي لم يروه غير ابنه هرون .
(٢) حديث : لما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه . . . الحديث . أخرجه البخاري من حديث جابر بن مطعم .

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث : كان أنجد الناس وأشجعهم . أخرجه الدارمي من حديث ابن عمر بسند صحيح : ما رأيت أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أرمي من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولشيعته من حديث أنس : كان أشجع الناس وأحسن الناس . . . الحديث
(٤) حديث علي : لقد رأيته يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم . . . الحديث . أخرجه أبو الشيخ في الأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد جيد (٥) حديث علي أيضاً . كنا إذا حمى البأس واتي القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم . . . الحديث . أخرجه النسائي بإسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث البراء . (٦) حديث : كان قليل الكلام قليل الحديث فإذا أمر بالقتال تشمر . . . الحديث أخرجه أبو الشيخ من حديث سمع بن عياض التميمي مراسلاً (٧) حديث : كان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب . . . الحديث . أخرجه مسلم من حديث البراء : والله إذا حمى الوطيس تتقي به وإن الشجاع منا الذي يخاض به (٨) حديث عمران بن حصين . ما لي كتيبة إلا كان أول من يضرب . أخرجه أبو الشيخ أيضاً وفيه من لم أعرفه . (٩) حديث : كان قوى البطش . أخرجه أبو الشيخ أيضاً من رواية أبي جعفر معضلاً وللعبراني في الأوسط من حديث عبد الله ابن عمرو « أعطيت قوة أربعين في البطش والجماع » وسنده ضعيف . (١٠) حديث : لما غشيه المشركون نزل فجعل يقول « أنا النبي لا كذب . . . الحديث » متفق عليه من حديث البراء دون قوله . فما روى أحد يومئذ أشد منه . وهذه الزيادة لأبي الشيخ وله من حديث علي في قصة بدر . وكان من أشد الناس يومئذ بأساً .

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

(١١) حديث : كان أشد الناس تواضعاً في علو منصبه أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في المعجمين من حديث أبي سعيد الخدري في حديث طويل في صفته قال فيه : متواضع في غير مذلة . وإسناده ضعيف (١٢) حديث : قال ابن عامر رأيته يرمى الجرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك . أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث قدامة بن عبد الله بن عامر قال الترمذي حسن صحيح وفي كتاب أبي الشيخ قدامة بن عبد الله بن عامر كما ذكره المصنف . (١٣) حديث : كان يركب الحمار =

المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ^(١) ويخفف النعل ويرقع الثوب وكان يصنع في بيته مع أهله في حاجتهم ^(٢) وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك ^(٣) وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ^(٤) وأتى صلى الله عليه وسلم برجل فأرعد من هيبتة فقال له : هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد ^(٥) وكان يجلس بين أصحابه محتلطا بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو ؟ حتى يسأل عنه حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسا يعرفه الغريب فبنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه ^(٦) وقالت له عائشة رضي الله عنها كل - جعلني الله فداك - متكئا فإنه أهون عليك قال : فأصغى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض ثم قال : بل أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد ^(٧) : وكان لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لحق بالله تعالى ^(٨) وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال : لبيك ^(٩) : وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم وإن تحدوا في طعام أو شراب تحدث معهم وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم رفقا بهم وتواضع لهم ^(١٠) وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيتبسم هو إذا ضحكوا ولا يجرهم إلا عن حرام ^(١١) .

بيان صورته وخلقه صلى الله عليه وسلم

وكان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده ، ومع ذلك فلم يكن يمشي به أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولربما اكتشفه الرجلان الطويلان فيطولها فإذا فارقه نسبا إلى الطول ونسب هو عليه السلام إلى الربعة ويقول صلى الله عليه وسلم : جعل الخير كله في الربعة ^(١٢) .

= موكفا عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف . متفق عليه من حديث أسامة بن زيد . (١) حديث : كان يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك . أخرجه الترمذي وضعفه والحاكم وصححه إسناده من حديث أنس وتقدم منقطعا . (٢) حديث : كان يخفف النعل ويرقع الثوب ويصنع في بيته مع أهله في حاجته . هو في المسند من حديث عائشة وتقدم في أوائل آداب المدينة . (٣) حديث : كان أصحابه لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك : هو عند الترمذي من حديث أنس وصححه وتقدم في آداب الصحبة . (٤) حديث : كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم . متفق عليه من حديث أنس وتقدم في آداب الصحبة . (٥) حديث : أتى برجل فأرعد من هيبتة فقال : هون الله عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد ، أخرجه الحاكم من حديث جرير وقال صحيح على شرط الشيخين . (٦) حديث : كان يجلس مع أصحابه محتلطا بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو ؟ ... الحديث . أخرجه أبو داود والذہبي من حديث أبي ذر وقد تقدم . (٧) حديث : قالت عائشة كل - جعلني الله فداك - متكئا فإنه أهون عليك . الحديث . أخرجه أبو الشيخ من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عنها بسند ضعيف . (٨) حديث : كان صلى الله عليه وسلم لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لقي الله أخرجه البخاري من حديث أنس وتقدم في آداب الأكل . (٩) حديث : وكان صلى الله عليه وسلم لا يدعوه أحد من أصحابه ولا من غيرهم إلا قال : لبيك ، أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة وفيه حسين بن علوان منهم بالكذب والطبراني في الكبير بإسناد جيد من حديث محمد بن حاطب في أثناء حديث : أن أمة قالت يا رسول الله فقال « لبيك وسعديك » الحديث (١٠) حديث : كان صلى الله عليه وسلم إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى أمر الآخرة أخذ معهم وإن تحدوا في طعام أو شراب تحدث معهم ... الحديث . أخرجه الترمذي في الدلائل من حديث زيد بن ثابت دون ذكر : الشراب ، وفيه سليمان بن خازم تفرد عنه الوليد بن أبي الوليد وذكره ابن حبان في الثقات . (١١) حديث : كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون قوله : ولا يجرهم إلا عن حرام .

بيان صورته وخلقه صلى الله عليه وسلم

(١٢) حديث : كان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ... الحديث بطوله . أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة بزيادة وتقصان دون شعر أبي طالب الآتي ودون قوله : وربما جعل شعره =

وأما لونه فقد كان أزهر اللون ولم يكن بالآدم ولا بالشديد البياض. والأزهر هو الأبيض الناصع الذي لا تشوبه صفرة ولا حمرة ولا شيء من الألوان ، ونعته عمه أبو طالب فقال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (١)

ونعته بعضهم بأنه مشرب بجمرة فقالوا : إنما كان المشرب منه بالجمرة ما ظهر للشمس والرياح كالوجه والرقبة والأزهر الصافي عن الحمرة ما تحت الثياب منه . وكان عرقه صلى الله عليه وسلم في وجهه كاللؤلؤ أطيّب من المسك الأذفر .

وأما شعره فقد كان رجل الشعر حسنه ليس بالسبط ولا الجعد القلط وكان إذا مشطه بالمشط يأتي كأنه حبك الرمل . وقيل : كان شعره يضرب منكبيه وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه . وربما جعله غداثاً أربعاً تخرج كل أذن من بين غديرتين . وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوائفه تتلألاً . وكان شبيهه في الرأس واللحية سبع عشرة شعرة ، مازاد على ذلك .

وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً وأنورهم لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر، وكان يرى رضاه وغضبه في وجهه لصفاء بشرته ، وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث يقول :

أمين مصطفي للخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام

وكان صلى الله عليه وسلم واسع الجبهة أزج الحاجبين سابغهما وكان أبلغ ما بين الحاجبين كأن ما بينهما الفضة المخلصة ، وكانت عيناه نجلاوين أدعجهما وكان في عينيه تخرج من حمرة ، وكان أهدب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها ، وكان أقيّ القرنين - أي مستوى الأنف - وكان مفلج الأسنان - أي متفرقة - وكان إذا افتّر ضاحكاً افتّر عن مثل سنا البرق إذا تلألاً ، وكان من أحسن عباد الله شفتين وأطفههم ختم فم ، وكان سهل الخدين صلبهما ليس بالطويل الوحه ولا المكثم ، كث اللحية ، وكان يعني لحيته وبأخذ من شاربه ، وكان أحسن عباد الله عنقاً لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر ، ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مشرب ذهباً يتلألاً في بياض الفضة وفي حمرة الذهب ، وكان صلى الله عليه وسلم عريض الصدر لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً كالمرآة في استوائها وكالقمر في بياضه موصل ما بين لبته وسرته بشعر منقاد كالقضيبي لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره ، وكانت له عكن ثلاث يغطي الإزار منها واحدة ويظهر اثنتان ، وكان عظيم المنكبين أشعرهما ضخماً الكراديس - أي رموس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين - وكان واسع الظهر ما بين كتفيه خاتم النبوة وهو مما يلي منكبه الأيمن فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس ، وكان عبل العضدين والذراعين طويل

= على أذنيه فتبدو سوائفه تتلألاً . ودون قوله : وربما كان واسع الجبهة - إلى قوله - وكان سهل الخدين وفيه صبح بن عبد الله الفرغاني منكر الحديث قاله الخطيب . وفي الصحيحين من حديث البراء : له شعر يبلغ شحمة أذنيه وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أم هانئ : قدم إلى مكة وله أربع غداث وأربع غداث والترمذي من حديث علي في صفته صلى الله عليه وسلم : أدعج العينين أهدب الأشفار ... الحديث . وقال ليس لمسانده بمثل وله في السمائل من حديث ابن أبي هالة : أزهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوانغ في غير قرن ، بينهما عرق يدره النضب . أقيّ القرنين له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية سهل الخدين ضليع الفم مفلج الأسنان ... الحديث

(١) حديث : نعته عمه أبو طالب فقال : وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل .

ذكره ابن إسحاق في السيرة وفي المسند عن عائشة : أنها تمثلك بهذا البيت وأبو بكر يقضى فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه هل بن زيد بن جدعان مختلف فيه . وأخرجه البخاري تعليقا من حديث ابن عمر : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب فأنشده . وقد وصله بإسناد صحيح .

الزئدين رحب الراحتين سائل الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة ، كفه ألين من الخز ، كأن كفه كف عطار طيبا - مسها بطيب أو لم يمسه - يصلح المصافح فيظل يومه يجد ويحها ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه ، وكان عبل ماتحت الإزار من الفخذين والساق ، وكان معتدل الخلق في السمن بدن في آخر زمانه وكان لحمه متماسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن .

وأما مشيه صلى الله عليه وسلم فكان يمشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صلب يخطو تكفيا ويمشى الهوينى بغير تبخير - والهوينى تقارب الخطا - وكان عليه الصلاة والسلام يقول : أنا أشبه الناس بآدم صلى الله عليه وسلم وكان أبي إبراهيم صلى الله عليه وسلم أشبه الناس بخلقنا وخلقا ، وكان يقول : إن لي عند ربى عشرة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بكفره وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد ، وأنا الحاشى يحشر الله العباد على قدمى ، وأنا رسول الرحمة ورسول التوبة ورسول الملاحم والمقنى قضيت الناس جميعا وأنا قسم^(١) ، قال أبو البحتري والقثم الكامل الجامع ، والله أعلم .

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

اعلم أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق وهدايته إلى ضبطهم وتألفه أصناف الخلق وقوده لإياهم إلى طاعته مع ما يحكى من عجائب اجوبته في مضايق الأسئلة وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذى يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم ، لم يبق له ريب ولا شك في أن ذلك لم يكن مكتسبا بحيلة تقوم بها القوة البشرية ، بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية ، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس ، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه حتى أن العربى القح كان يراه فيقول : والله ما هذا وجه كذاب فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده ؟ وإنما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق وليتنبه لصدقه عليه الصلاة والسلام وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله ؛ إذ آتاه الله جميع ذلك وهو رجل أى لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب علم ولم يزل بين أظهر الجهال من الأعراب يتجأ ضعيفا مستضعفا ، فن أن حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه مثلا فقط دون غيره من العلوم فضلا عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحى ؟ ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك ؟ فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية . وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصل ، فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار واشتملت عليه الكتب الصحيحة إشارة إلى مجامعها من غير تطويل بحكاية التفصيل .

فقد خرق الله العادة على يده غير مرة ؛ إذ شق له القمر بمكة لما سأله قريش آية^(٢) وأطعم النفر الكثير في

(١) حديث : أن لي عند ربى عشرة أسماء . الحديث . أخرجه ابن هدى من حديث على وجابر وأسامة بن زيد وابن عباس وعائشة بإسناد ضعيف ، وله ولأبي نعيم في الدلائل من حديث أبي الطفيل : لي عند ربى عمرة أسماء . قال أبو الطفيل : حفظت منها ثمانية . فذكرها بزيادة ونقص وذكر سيف بن وهب : أن أبا جعفر قال : إن الأسير طه ويس . وإسناده ضعيف وفى الصحيحين من حديث جبير بن مطعم : لي أسماء أنا أحمد وأنا محمد وأنا الحاشى وأنا العاقب . ولمسلم من حديث أبى موسى : والمقنى ونبي التوبة ونبي الرحمة . ولأحمد من حديث حذيفة : ونبي الملاحم . وسنده صحيح .

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

(٢) حديث : انشقاق القمر : متفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عباس وأنس .

منزل جابر ^(١) وفي منزل أبي طلحة ويوم الخندق ^(٢) ومرة أطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق ^(٣) وهو من أولاد المعز فوق العتود ، ومرة أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس في يده ^(٤) ومرة أهل الجيش من تمر يسير ساقته بذت بشير في يدها فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم ^(٥) ونبع الماء من بين أصابعه عليه السلام فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش ، وتوضؤوا من قدح صغير ضاق عن أن يبسط عليه السلام يده فيه ^(٦) وأهراق عليه السلام وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها ، ومرة أخرى في بئر الحديبية فجاشت بالماء ؛ فشرب من عين تبوك أهل الجيش وهم ألوف حتى رروا وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء ^(٧) وأمر عليه السلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزود أربعائة راكب من تمر كان في اجتماعه كربةضة البعير - وهو موضع بروكة - فزودهم كلهم منه وبقي منه فخبسه ^(٨) ورعى الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ونزل بذلك القرآن في قوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ^(٩) وأبطل الله تعالى الكهانة بمبعثه صلى الله عليه وسلم فعدمت وكان ظاهرة موجودة ^(١٠) وحن الجذع الذي كان يخطب إليه لما عمل له المنبر حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الإبل فضمه إليه فسكن ^(١١) ودعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك وعجزوا عنه ^(١٢) وهذا مذکور في سورة يقرأ بها في جميع جوامع الإسلام من شرق الأرض إلى غربها يوم الجمعة

(١) حديث : أطعام النفر الكثير في منزل جابر . متفق عليه من حديثه .

(٢) حديث : إطعامه النفر الكثير في منزل أبي طلحة . متفق عليه من حديث أنس .

(٣) حديث : إطعامه ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق . أخرجه الإسماعيلي في صحيحه ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة من حديث جابر وفيه أنهم كانوا ثمانمائة أو ثلاثمائة وهو عند البخاري دون ذكر العدد وفي رواية أبي نعيم في دلائل النبوة وهم ألف . (٤) حديث : إطعامه أكثر من ثمانين رجلا من أقراص شعير حملها أنس في يده . أخرجه مسلم من حديث أنس وفيه : حتى فعل ذلك ثمانين رجلا ثم أكل النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وأهل البيت وتركوا سؤرا . وفي رواية لأبي نعيم في الدلائل : حتى أكل منه بضع وثمانون رجلا . وهو متفق عليه بلفظ : والقوم سبعون أو ثمانون رجلا .

(٥) حديث : إطعامه أهل الجيش من تمر يسير ساقته بذت بشير في يدها ... الحديث . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحق حديثنا سعيد بن مينا عن ابنة بشير بن سعد وإسناده جيد . (٦) حديث : نبع الماء من بين أصابعه فشرب أهل العسكر وهم عطاش وتوضؤوا .. الحديث . متفق عليه من حديث أنس في ذكر الوضوء فقط ولأبي نعيم من حديثه : خرج لى قباء فأثني من بعض بيوتهم بقدح صغير . وفيه : ثم قال « هلم لى الشرب » قال أنس : بصرعني نبع الماء من بين أصابعه ولم يرد القدح حتى رروا منه . وإسناده جيد وللبزار واللفظ له والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس . كان في سفر فشكا أصحابه العطش فقال « اتنوني بماء » فأتوه بإناء فيه ماء فوضع يده في الماء ينبع من بين أصابعه ... الحديث .

(٧) حديث : لأهراقه وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها ومرة أخرى في بئر الحديبية فجاشت بالماء ... الحديث وأخرجه مسلم من حديث معاذ بقصة عين تبوك ومن حديث سلمة بن الأكوع بقصة عين الحديبية وفيه : فإما دعا ولما بصق فيها لجاشت ... الحديث . والبخاري من حديث البراء : أنه توضأ ومسه فيها . وفي الحديثين معا : أنهم كانوا أربعة عشر مائة وكذا عند البخاري من حديث البراء وكذلك عندهما من حديث جابر ، وقال البيهقي أنه الأصح ولهما من حديثه أيضا : ألف وخمسمائة . ولمسلم من حديث ابن أبي أوفى : ألف وثلثمائة (٨) حديث : أمر عمر أن يزود أربعائة راكب من تمر كان كربةضة البعير .. الحديث . أخرجه أحمد من حديث الثعلبي بن مقرن وحديث دكين بن سعيد بإسنادين صحيحين وأصل حديث دكين عند أبي داود مختصرا من غير بيان لعدد (٩) حديث : رمى الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ... الحديث أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع دون ذكر نزول الآية فرواه ابن مردويه في تفسيره من حديث جابر وابن عباس (١٠) حديث : لبطل الكهانة بمبعثه أخرجه الحارثي من حديث مرهاس بن قيس الدوسي قال : حضرت النبي صلى الله عليه وسلم وذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مخرجه .. الحديث . ولأبي نعيم في الدلائل من حديث ابن عباس في استراق الجن السمع فيلقونه على أوليائهم : فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم دحروا بالنجوم وأصله عند البخاري ينبر هذا السياق (١١) حديث : حنين الجذع أخرجه البخاري من حديث جابر وسهل بن سعد (١٢) حديث : دعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه ... الحديث أخرجه البخاري من حديث ابن عباس : لو أن اليهود تمنوا الموت لما أتوا ... الحديث . والبيهقي في الدلائل من حديث ابن عباس لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فأن مكانه فأبوا أن يفعلوا ... الحديث . وإسناده ضعيف .

- جهرا - تعظيما للآية التي فيها .

وأخبر عليه السلام بالغيوب وأنذر عثمان بأن تصيبه بلوى بعدها الجنة ^(١) وبأن عمارا تقتله الفئة الباغية ^(٢) وأن الحسن يصلح الله به فئتين من المسلمين عظيمتين ^(٣) وأخبر عليه السلام عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار ^(٤) فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف ألبتة بشيء من وجوه تقدمت المعرفة بها لا بنجوم ولا بكشف ولا بخط ولا برجر لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه . واتبعه سراقة بن مالك فساخنت قدما فرسه في الأرض وأتبعه دخان حتى استغاثه فدعا له فالطلق الفرس ، وأنذره بأن سيوضع في خراجه سوارا كسرى ^(٥) فكان كذلك وأخبر بمقتل الأسود العنسي الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن وأخبر بمن قتله ^(٦) وخرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه ^(٧) وشكا إليه البعير بحضرة أصحابه وتذلل له ^(٨) وقال لنفر من أصحابه مجتمعين : أحكم في النار ضرسه مثل أحد فاتوا كلهم على استقامة وارتد منهم واحد فقتل مرتدا ^(٩) ، وقال لآخرين منهم : آخركم موتا في النار ؛ فسقط آخرهم موتا في النار فاحترق فيها فمات ^(١٠) ودعا شجرتين فأتته واجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا . وكان عليه السلام نحو الربعة فإذا مشى مع الطوال طالمهم ^(١١) ودعا عليه السلام النصارى إلى المباحلة فامتنعوا فعرّفهم صلى الله عليه وسلم أنهم إن فعلوا ذلك هلكوا فعملوا صحة قوله فامتنعوا ^(١٢) وأناه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله عليه السلام فحبل بينهما وبين ذلك ودعا عليهما فهلك عامر بغدة وهلك أربد بصاغة أحرقته ^(١٣) وأخبر عليه السلام أنه يقتل

(١) حديث : أخبره بأن عثمان تصيبه بلوى بعدها الجنة . متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري . (٢) حديث : أخبره بأن عمارا تقتله الفئة الباغية . أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة وأم سلمة والبخاري من حديث أبي سعيد .

(٣) حديث : أخبره أن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين . أخرجه البخاري من حديث أبو بكر .

(٤) حديث : أخبره عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار . متفق عليه من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد .

(٥) حديث : اتباع سراقة بن مالك له في قصة الهجرة فساخنت قدما فرسه في الأرض . الحديث . متفق عليه من حديث أبي بكر الصديق (٦) حديث : أخبره بمقتل الأسود العنسي ليلة قتل وهو بصنعاء اليمن ومن قتله . وهو مذكور في السير والذي قتله فيروز الديلمي وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : « بيا أنا نأمر رأيت في يدي سوارين من ذهب فأمنيت شأنهما فأوحى إلي في المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا ، فتأولتهما كذايين يخرجان بعدى » فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء . . . الحديث (٧) حديث : خرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه . أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف من حديث ابن عباس وليس فيه : أنهم كانوا مائة . وكذلك رواه ابن إسحاق من حديث محمد بن كعب القرظي مرسل .

(٨) حديث : شكا إليه البعير وتذلل له . أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن جعفر في أثناء حديث وفيه : فإنه شكا إلى أنك تجيئه وتدثبه . وأول الحديث عند مسلم دون ذكر قصة البعير (٩) حديث : قال لنفر من أصحابه « أحكم ضرسه في النار مثل أحد . . . الحديث » ذكره الدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة بن سير بن جندب في ترجمة الرجال بن عثرة وهو الذي ارتد - وهو بالجيم - وذكره عبد الفتى - بالمهمل - وسبقه إلى ذلك الواقدي والمدائني والأول أصح وأكثر كما ذكره الدارقطني وابن ماكولا ووصله الطبراني من حديث رافع بن خديج بلفظ : أحد هؤلاء النفر في النار . وفيه الواقدي عن عبد الله بن نوح متروك (١٠) حديث : قال لآخرين منهم « آخركم موتا في النار » فسقط آخرهم موتا في نار فاحترق فيها فمات أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل من حديث ابن مخزومة وفي رواية البيهقي : أن آخرهم موتا سمرة بن جندب ، لم يذكر أنه احترق ورواه البيهقي من حديث أبي هريرة نحوه ورواه ثقات وقال ابن عبد البر : إنه سقط في قدر مملوءة ماء حارا فمات . روى ذلك بإسناد متصل إلا أن فيه داود بن الجبر وقد ضعفه الجمهور (١١) حديث : دعا شجرتين فأتته واجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا . أخرجه أحمد من حديث علي بن مرة بسند صحيح (١٢) حديث : دعا للصارى إلى المباحلة وأخبر أن فعلوا ذلك هلكوا فامتنعوا أخرجه البخاري من حديث ابن عباس في أثناء حديث : ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجنون مالا ولا أهلا (١٣) حديث : أناه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله فحبل بينهما وبين ذلك . الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط والأكبر من حديث ابن عباس بطوله بسند ابن

أبي بن خلف الجمحي نخدشه يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته فيه ^(١) .

وأطعم عليه الصلاة والسلام السم فمات الذي أكله معه وعاش هو صلى الله عليه وسلم بعده أربع سنين ، وكله الذراع المسموم ^(٢) .

وأخبر عليه السلام يوم بدر بمصارع صناديد قريش ووقفهم على مصارعهم رجلا رجلا فلم يتعدوا واحدا منهم ذلك الموضع ^(٣) وأنذر عليه السلام بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك ^(٤) وزويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيلبغ مازوى له منها فكان كذلك فقد بلغ ملكهم من أول المشرق : من بلاد الترك إلى آخر المغرب من بحر الأندلس وبلاد البربر ولم يتسعوا في الجنوب ولا في الشمال - كما أخبر صلى الله عليه وسلم سواء بسواء ^(٥) . وأخبر فاطمة ابنته رضى الله عنها بأنها أول أهله لحاقا به ^(٦) فكان كذلك . وأخبر نساءه بأن أطولهن يدا أسرعهن لحاقا به فكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهن يدا بالصدقة وأولهن لحوقا به رضى الله عنها ^(٧) .

ومسح ضرع شاة حائل لابن لها فدرت ^(٨) وكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود رضى الله عنه . وفعل ذلك مرة أخرى في خيمة أم معبد الخزاعية . وندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها عليه السلام بيده فكانت أصح عينيه وأحسنهما ^(٩) وتفل في عين على رضى الله عنه وهو أرمم يوم خيبر فصيح من وقته وبعثه بالراية ^(١٠) وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم ^(١١) وأصيب رجل بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم فسحقها بيده فبرأت من حينها ^(١٢) وقل زاد جيش كان معه عليه السلام فدعا بجميع ما بقى فاجتمع شيء يسير جدا فدعا فيه بالبركة ، ثم أمرهم فأخذوا فلم يبق وعاء في العسكر إلا ملئ من ذلك ^(١٣) وحكى الحكم بن العاص بن وائل (*) مشيته

(١) حديث . إخباره أنه يقتل أبي بن خلف الجمحي نخدشه يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية سعيد بن المسيب ومن رواية عروة بن الزبير مرسل (٢) حديث : أنه أطعم السم فمات الذي أكله معه وعاش هو بعده أربع سنين ، وكله الذراع المسموم . أخرجه أبو داود من حديث جابر في رواية له مرسل : أن الذي مات بشر بن البراء ، وفي الصحيحين من حديث أنس : أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة فأكل منها .. الحديث . وفيه : فإزات أعرفها في لهوات رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) حديث : إخباره صلى الله عليه وسلم يوم بدر بمصارع صناديد قريش .. الحديث . أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٤) حديث : إخباره بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك ، متفق عليه من حديث أم حرام (٥) حديث : زويت له الأرض مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيلبغ مازوى له منها .. الحديث . أخرجه مسلم من حديث عائشة وفاطمة أيضاً (٦) حديث : إخباره فاطمة أنها أول أهله لحاقا به . متفق عليه من حديث عائشة وفاطمة أيضاً (٧) حديث : أخبر نساءه أن أطولهن يدا أسرعهن لحاقا به فكانت زينب الحديث . أخرجه مسلم من حديث عائشة وفي الصحيحين : أن سودة كانت أولهن لحوقا به قال ابن الجوزي وهذا غلط من بعض الرواة بلا شك .

(٨) حديث : مسح ضرع شاة حائل لابن لها فدرت فكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود . أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود بإسناد جيد (٩) حديث : ندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها فكانت أصح عينيه وأحسنهما . أخرجه أبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة من حديث قتادة بن النعمان وهو الذي سقطت عينه في رواية للبيهقي : أنه كان بيد . وفي رواية أبي نعيم : أنه كان بأحد : وفي إسناده اضطراب وكذا رواه البيهقي فيه من حديث أبي سعيد الخدري .

(١٠) حديث : تفل في عين على وهو أرمم يوم خيبر فصيح من وقته وبعثه بالراية . متفق عليه من حديث علي ومن حديث سهل بن سعد أيضاً . (١١) حديث : كانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه . أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود .

(١٢) حديث : أصيب رجل بعض أصحابه فسحقها بيده فبرأت من حينها . أخرجه البخاري في قصة قتل أبي رافع

(١٣) حديث : قل زاد جيش معه فدعا بما بقى فاجتمع شيء يسير فدعا فيه بالبركة . . . الحديث . متفق عليه من حديث سلمة

ابن الأكوع .

(*) قوله : الحكم بن العاص بن وائل هكذا في النسخ وصوابه كما في الشارح الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس اهـ مصححه .

عليه السلام مستهزئاً فقال صلى الله عليه وسلم : كذلك فكن : فلم يزل يرتعس حتى مات ^(١) وخطب عليه السلام امرأة فقال له أبوها : إن بها برصاً - امتناعاً من خطبته واعتذاراً - ولم يكن بها برص فقال عليه السلام : فلتكن كذلك : ^(٢) فبرصت وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر . إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم ، وإنما اقتصرنا على المسنفيض . ومن يستريب في انخراق العادة على يده ويرغم أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواتراً بل المتواتر هو القرآن فقط كمن يستريب في لجماعة على رضى الله عنه وسخاوة حاتم الطائي ومعلوم أن آحاد قائلهم غير متواترة ولكن مجموع الوقائع يورث علماً ضرورياً ثم لا يتماهى في تواتر القرآن وهي المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق : وليس لنبي معجزة باقية سواه صلى الله عليه وسلم إذ تحدى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغاء الخلق وفصحاء العرب وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهم والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم . وكان ينادى بين أظهرهم أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ^(٣) وقال ذلك تعجيزاً لهم فمعجزوا عن ذلك وصرفوا عنه حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذرائعهم للسبي ، وما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه ثم انتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقاً وغرباً قرناً بعد قرن وعصرًا بعد عصر وقد انقضى اليوم قريب من خمسمائة سنة فلم يقدر أحد على معارضته .

فأعظم بغاوة من ينظر في أحواله ، ثم في أقواله ، ثم في أفعاله ، ثم في أخلاقه ، ثم في معجزاته ، ثم في استمرار شرعه إلى الآن ، ثم في انتشاره في أقطار العالم ، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه ثم يتماهى بعد ذلك في صدقه .

وما أعظم توفيق من آمن به وصدقته واتبعه في كل ما ورد وصدر فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال بمنه وسعة جوده .

(١) حديث : حكى الحكم بن الناص مشيئة مستهزئاً به فقال « كذلك فكن » الحديث « أخرجه البيهقي في الدلائل من حديث هند بن خنيس بإسناد جيد وللحاكم في المستدرک من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر نحوه ولم يسم الحكم وقال صحيح الإسناد (٢) حديث : خطب امرأة فقال أبوها لن بها برصاً امتناعاً من خطبته واعتذاراً ولم يكن بها برص فقال « فلتكن » كذلك « فبرصت المرأة » ذكرها ابن الجوزي في التلخيص وسماها جرة بنت الحرث بن هوف المزني وتبعه على ذلك الديلماني

فهرس

للجنة النشأ

من كتاب إحياء علوم الدين
لحجة الإسلام الإمام الغزالي

صحيفة	صحيفة
٤٢ الباب الثالث في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة	٢ كتاب آداب الأكل وهو الأول من ربيع العادات
٥٦ القسم الثاني من هذا الباب النظر في حقوق الزوج عليها	٣ الباب الأول فيما لا بد للنفر دمنه وهو ثلاثة أقسام: قسم قبل الأكل، وقسم مع الأكل، وقسم بعد الفراغ منه
٦٠ كتاب آداب الكسب والمعاش وهو الكتاب الثالث من ربيع العادات	القسم الأول في الآداب التي تنقدم على الأكل وهي سبعة
٦١ الباب الأول في فضل الكسب والحث عليه	٥ القسم الثاني في آداب حالة الأكل
٦٤ الباب الثاني في علم الكسب بطريق البيع الخ وبيان شرط وط الشريع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع	٦ القسم الثالث ما يستحب بعد الطعام
العقد الأول البيع	٧ الباب الثاني فيما يريد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل وهي سبعة
٦٨ العقد الثاني عقد الربا	٨ الباب الثالث في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين
٦٩ العقد الثالث السلم	١٢ الباب الرابع في آداب الضيافة
٧٠ العقد الرابع الإجارة	١٨ فصل يجمع آداباً ومناهي طيبة وشرعية متفرقة
٧١ العقد الخامس القراض	٢١ كتاب آداب النكاح وهو الكتاب الثاني من ربيع العادات
٧٣ العقد السادس الشركة	٢١ الباب الأول في الترغيب في النكاح والترغيب عنه
٧٢ الباب الثالث في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة	الترغيب في النكاح
القسم الأول فيما يعم ضرره وهو أنواع	٢٤ ما جاء في الترهيب عن النكاح
٧٤ القسم الثاني ما يخص ضرره المعامل	٢٥ آفات النكاح وفوائده
٧٩ الباب الرابع في الإحسان في المعاملة	٢٦ الباب الثاني فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد
٨٣ الباب الخامس في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته	

صحيفة	صحيفة
١٤٢ الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين	٨٨ كتاب الحلال والحرام
الظلمة ويحرم وحكم غشيان بحالهم	وهو الكتاب الرابع من ربيع العادات
والدخول عليهم والإكرام لهم	٨٩ الباب الأول في فضيلة الحلال ومذمة
١٥٣ الباب السابع في مسائل متفرقة يكثر ميسر	الحرام وبيان أصناف الحلال ودرجاته
الحاجة إليها قد سئل عنها في الفتاوى	وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه
١٥٧ كتاب آداب الألفة والأخوة	فضيلة الحلال ومذمة الحرام
والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق وهو	٩٢ أصناف الحلال ومداخله
الكتاب الخامس من ربيع العادات الثاني	القسم الأول الحرام لصفة في عينه الخ
وفيه ثلاثة أبواب	٩٣ القسم الثاني ما يحرم لحال في جهة لإثبات
١٥٧ الباب الأول في فضيلة الألفة والأخوة	اليده عليه
وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها	٩٤ درجات الحلال والحرام
فضيلة الألفة والأخوة	٩٥ أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدا
١٦١ بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من	٩٨ الباب الثاني في مراتب الشبهات ومثاراتها
الأخوة في الدنيا	وتمييزها عن الحلال والحرام
١٦٦ بيان البعض في الله	٩٩ المثار الأول الشك في السبب المحلل والمحرم
١٦٨ بيان مراتب الذين يعضون في الله وكيفية	١٠٢ المثار الثاني للشبهة شك منشؤه الاختلاط
معاملتهم	١١٠ المثار الثالث للشبهة أن يتصل بالسبب المحلل
١٥٧ بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته	معصية
١٧٣ الباب الثاني في حقوق الأخوة والصحبة	١١٥ المثار الرابع الاختلاف في الأدلة
الحق الأول في المال	١١٨ الباب الثالث في البحث والسؤال والهجوم
١٧٥ الحق الثاني في الإعانة بالنفس الخ	والإهمال ومظانها
١٧٦ الحق الثالث في اللسان بالسكوت الخ	المثار الأول أحوال الممالك
١٨٠ الحق الرابع على اللسان بالنطق	١٢١ المثار الثاني ما يستند الشك فيه إلى سبب
١٨٣ الحق الخامس العفو عن الزلات والحقوات	المال لا في حال الممالك
١٨٦ الحق السادس الدعاء للأخ في حياته الخ	١٢٧ الباب الرابع في كيفية خروج التائب عن
١٨٧ الحق السابع الوفاء والإخلاص	المظالم المالية وفيه نظران
١٨٨ الحق الثامن التخفيف وترك التكلف الخ	النظر الأول في كيفية التمييز والإخراج
١٩٢ خاتمة لهذا الباب نذكر فيها جملة الخ	١٣٠ النظر الثاني في المصرف
١٩٣ الباب الثالث في حق المسلم والرحم والجوار	١٣٥ الباب الخامس في إدراة السلاطين
والمالك وكيفية المعاشرة مع من بدلى بهذه	وما يحل منها وما يحرم وفيه نظران
الأسباب	١٣٥ النظر الأول في جهات الدخول للسلطان
١٩٤ حقوق المسلم	١٣٩ النظر الثاني من هذا الباب في قدر المأخوذ
٢١٢ حقوق الجوار	وصفة الآخذ

صحيفة	صحيفة
٢٤٥ الباب الأول في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائدته وفيه فصلان الفصل الأول في فوائد السفر وفضله ونيته	٢١٥ حقوق الأقارب والرحم
٢٥١ الفصل الثاني في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه وهي أحد عشر أدبا	٢١٦ حقوق الوالدين والولد
٢٥٧ الباب الثاني فيما لا بد له سافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات الخ	٢١٩ حقوق المملوك
القسم الأول العلم برخص السفر	٢٢١ كتاب آداب العزلة
القسم الثاني ما يتجدد من الوظيفة الخ	وهو الكتاب السادس من ربيع العادات وفيه بابان
٢٦٣ كتاب آداب السماع والوجد	٣٢٢ الباب الأول في نقل المذاهب والأويل
وهو الكتاب الثامن من ربيع العادات وفيه بابان : الأول في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه	وذكر حجج الفريقين في ذلك
٢٦٨ بيان الدليل على إباحة السماع	٢٢٣ ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها
٢٨٤ بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها	٢٢٤ ذكر حجج المائلين إلى تفصيل العزلة
٢٨٧ الباب الثاني في آثار السماع وآدابه وفيه مقامات ثلاث	٢٢٦ الباب الثاني في فوائد العزلة وغوائها وكشف الحق في فضائها
٢٨٧ المقام الأول في الفهم	الفائدة الأولى التفرغ للمعبادة والفكر الخ
٢٩١ المقام الثاني بعد الفهم والتزويل الوجد	٢٢٨ الفوائد الثانية التخصيص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لما الخ
٣٠١ المقام الثالث من السماع نذكر فيه آداب السماع ظاهره وباطنه الخ	٢٣٢ الفائدة الثالثة الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس الخ
٣٠٦ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الكتاب التاسع من ربيع العادات الثاني وفيه أربعة أبواب	٢٣٣ الفائدة الرابعة الخلاص من شر الناس
٣٠٦ الباب الأول في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والمزمنة في إهماله وإضاعته	٢٣٥ الفائدة الخامسة أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس
٣١٢ الباب الثاني في أركان الأمر بالمعروف وشروطه ، وأركانه أربعة	٢٣٥ الفائدة السادسة الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحق ومقاساة حقهم وأخلاقهم الخ
الركن الأول المحتسب	٢٣٦ آفات العزلة المبينة على فوائد فوائد المخالطة السبعة الآتية .
٣٢٤ الركن الثاني للحسبة ما فيه الحسبة	الفائدة الأولى التعليم والتعلم
٣٢٧ الركن الثالث المحتسب عليه	٢٣٨ الفائدة الثانية النفع والانتفاع
٣٢٩ الركن الرابع نفس الاحتساب	الفائدة الثالثة التأديب والتأدب
	٢٣٩ الفائدة الرابعة والاستئناس والإيناس
	٢٤٠ الفائدة الخامسة في فضل الثواب وإزالته
	الفائدة السادسة من فوائد المخالطة التواضع
	٢٤١ الفائدة السابعة التجارب
	٢٤٤ كتاب آداب السفر
	وهو الكتاب السابع من ربيع العادات وفيه بابان

صحيفة	صحيفة
٣٦٤ بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار	٢٣٣ باب آداب المختسب
٣٦٤ بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه	٢٣٥ الباب الثالث في المنكرات المألوفة في العادات منكرات المساجد
٣٧٧ بيان أخلاقه وآدابه في الطعام	٣٣٨ منكرات الأسواق
٢٧٤ بيان أخلاقه في اللباس	منكرات الشوارع
٣٧٧ بيان عنوه صلى الله عليه وسلم مع القدرة	٢٣٩ منكرات الحمامات
٣٧٨ بيان إغضائه ﷺ عما كان يكرهه	٣٤٠ منكرات الضيافة
٢٧٩ بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم	٣٤٢ المنكرات العامة
٣٨٠ بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم	٢٤٣ الباب الرابع في أمراة الامراء والسلاطين
بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم	بالمعروف ونهيهم عن المنكر
١٨١ بيان ضرورته وخلاصته صلى الله عليه وسلم	٣٥٧ كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة
٣٨٣ بيان معجزاته وآياته لدالة على صدقه	وهو الكتاب العاشر من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين
	٣٥٨ بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفية محمداً

